لجنة التأليف والترجمة والنشر

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى

تاريخ الأدب الجغرافى العربى

نقله إلى اللغة العربية

صلاح الدين عثمان هاشم

قام بمراجعته

إيغور بليايف

القسم الأول

اختارته
الإدارة الثقافية
فى
جامعة الدول العربية

هذه ترجمة كتاب

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA ARABSKOI GEOGRAFICHESKOI LITERATURY

MOSKOVA — LENINGRAD
1957



ا . يو . كراتشكوڤسكي

محتويات الكتاب

القسم الأول

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

— ١ —

لم يعد اسم اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى مجهولا فى العالم العربى المعاصر ؛ غير أن الكثيرين من العرب المحدثين ممن عرفوه مؤرخاً للأدب العربى القديم والحديث يجهلون اهتمامه بتاريخ الجغرافيا عند العرب . وفى الواقع أن معظم أبحاث هذا العلامة تدور فى مجالات ثلاث هى : الشعر العربى ، وأدب النصارى العرب ، وتاريخ الأدب العربى المعاصر . بيد أن هذا لا يمنع اعتباره متخصصاً فى الحضارة الإسلامية بأجمعها ، فقد أسهم فى كل فرع من فروعها بأبحاثه العديدة التى بلغ عدد المطبوع منها وحده أربعمائة وثمان وخمسين . وعندما وافاه أجله المحتوم فى ٢٤ يناير ١٩٥١ عن ثمانية وستين عاماً فقد الاتحاد السوفيتى فى شخصه عالماً فذاً وأكبر مستعرب روسى لعهده .

أما تاريخ حياته إلى أن نال الشهرة كعالم كبير فليس أفضل من أن نسوقه بألفاظه هو . وقد كتب هذه النبذة باللغة العربية وظهرت بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٢٧ (المجلد السابع ص ١٢٢ — ١٢٦) ، وهى لا تخلو من الطرافة . قال :

« ولدت فى ٤ آذار (٤/١٦ مارس) سنة ١٨٨٣ فى ويلنا (Vilna) عاصمة ليتوانية (Lithuania) القديمة ، وكان والدى رئيساً لمدرسة المعلمين فيها . ولكن لم يمض من عمرى سنتان حتى ارتحلت عائلتى إلى بلاد ما وراء النهر ، وعين والدى رئيساً لمدرسة المعلمين فى تاشكند (Tashkent) ، وبعد مدة وجيزة عين ناظراً عاماً للمدارس فى آسيا الوسطى . وابتدأت أذكر نفسى طفلا صغيراً فى تاشكند وأول لغة تكلمتها لغة أوزبكية لأن حاضنتى كانت أوزبكية الأصل . وكانت تأثراتى الأولى فى صغرى بما وقعت عينى عليه من المساجد والأسواق الشرقية وتنوع الأمم والطوائف واختلاف الألبسة . وكان لهذه التأثيرات وقع شديد فى نفسى أيام طفولتى . وأكبر ظنى أنى غدوت ميالا إلى الشرق وإن كنت غير مدرك هذا الميل الغريزى ؛

وفى سنة ١٨٨٨ رجع والدى إلى ويلنا وصار مديراً للمكتبة العمومية ورئيساً فى لجنة البحث عن الآثار التاريخية القديمة ، ولم يزل عاملا فيها إلى أن فاجأته المنية رحمه الله فى سنة ١٩٠٣ . وكنت فى

صغرى ضعيف الصحة تتناوبنى الأمراض ، ولذلك كنت مع أمى إلى سنة ١٨٩٢ فى ملك صغير كان لنا فى ولاية ويلنا وفيه كانت خزانة الكتب الكبيرة فى أنواع منوعة فى العلم جمعها جدى وأبى وقد ضاعت فى الحرب العالمية سنة ١٩١٥ مع كل ملك لنا . وكنت أتعلم القراءة فى هذه الكتب وقرأت كثيراً من المؤرخين والقصاصين فى اللغة الروسية . كنت أصغر أولاد أبى وأمى ولذلك نشأت بعيداً عن العشير والأتراب وربما صار هذا سبباً لحبى الوحدة وسوء الظن بالعالم والسويداء التى تعذبنى أحياناً حتى الآن .

وفى سنة ١٨٩٣ دخلت المدرسة الإعدادية (الجيمناز Gymnasium) فى ويلنا ، وأكملت دروسها سنة ١٩٠١ . وكانت مدرستنا من أشهر المدارس فى ولايتها من حيث تاريخها وترتيبها . قامت على أساس الكلية الويلناوية التى ألغيت سنة ١٨٣٩ على أثر الثورة البولونية على روسية . وأصبحت مكتبة الكلية مكتبة عامة ، وبقى قسم منها فى مكتبة المدرسة ولذلك رأيت فيها بعض كتب المشرقيات كمؤلفات العلامة دى ساسى (De Sacy) . وقد حاولت فى الصف الأخير أن أتعلم اللغة العربية من كتابه فى الصرف والنحو المشهور ولم يتيسر لى ذلك لضخامة الكتاب وعدم المرشد : تخرج من كليتنا وفى مدرستنا عدد ليس بقليل من علماء المشرقيات المشهورين فى روسية مثل سنكوفسكى (Senkovski) المعلم الأول للغة العربية فى كلية لننغراد من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٤٥ وتورايف (Turaev) عضو أكاديمية العلوم ومؤسس الأبحاث فى قدماء المصريين فى روسية المتوفى سنة ١٩٢١ . وقوتوتش (Kotovic) أستاذ اللغة المغولية فى كلية لووف (Lvov) من بلاد بولونية الآن .

وكنت أهفو أيام الطلب إلى علوم اللغات والآداب لاسيا اللغات « الميتة » اللاتينية واليونانية . ومما كان يلذنى ويشوقنى تعلم أغانى هوميروس ، والروايات التمثيلية التى كتبها شعراء اليونان فكنت أستظهرها وأرجعها . وكذلك كنت أحب علم التاريخ والإنشاء ، وكنت أتمرن فى نظم الشعر ولكن لم أظفر منه بطائل . أما الرياضيات والطبيعيات فلم تتق نفسى إليها وإن كنت غير قاصر فيها ، وأحرزت قصب السبق بين أقرانى ونلت نوط الذهب عقبى المدرسة .

ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمرى حتى قويت أميالى وتعينت غرائزى وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتى ، وقد رأيت بعد بحث طويل أن العلم يجذبنى إليه بقوة سحرية ، وأن الشرق يكون ميدان أفكارى . ولاغرابة فقد زرت الشرق فى طفولتى.وكان أبداً يماثل نصب عينى . وكان لى مثال آخر فى شخص أبى فإنى كنت أراه مكباً على الكتب والأوراق فى الليل والنهار يبحث عن ماضى الزمان ورجاله .

وفى سـنة ١٩٠١ دخلت قسم اللغات الشرقية فى جامعة لننجراد مدفوعاً بعامل الميل وهوى

النفس انضممت إلى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الإسلامى فصرفت أربع سنوات فى دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الحبشية القديمة ، ودرست هذه الأخيرة على وطنىّ العلامة تورايف ، ولطالما فكرت أن أمضى فيها وأتعمق لكن اللغة العربية غلبت ضرتها وجذبتنى جملة إليها . وكنت أدرس تاريخ الشرق الإسلامى برياسة العلامة برتولد (Bartold) الذى ترجمت بعض تآليفه إلى اللغة التركية مؤخراً . وله التأثير المهم فى حياتى العلمية فإنه بأسلوبه السديد المتين وانتقاده المدقق أطلعنى على أسرار فلسفة التاريخ . وكذلك درست علم اللغات العام على المعلم ميليورانسكى (Melioranski) المنتقل إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٦ وعلم تاريخ الآداب العامة على العلامة اسكندر ڤيسيلوڤسكى (Veselovski) ، وهو من أكابر علماء العالم بأسره فى هذا الفن . وكان له فى نفسى تأثير قوى كتأثير برتولد فى التاريخ ، وغدوت من ذلك الوقت أفكر فى تطبيق أساوبه التشبيهى على تاريخ آداب اللغة العربية ، وأرجو أن أكون بلغت شيئاً من ذلك فى مؤلفاتى عن العربيات .

أما العلوم العربية فدرستها على الأستاذ ميدنيقوف (Mednikov) مؤرخ فلسطين المشهور المتوفى سنة ١٩١٨ الذى أثنى على تآليفه الكونت كايتانى (Caetani) من أعضاء المجمع العلمى العربى . أما عمدتى فى العربية فهو العلامة ڤيكتور فون روزن (Victor von Rosen) عضو أكاديمية العلوم الذى طارت شهرته فى بلاد الغرب والشرق (راجع المشرق سنة ١٩٠٨ ص ١٧١ — ١٧٣ ، والبشير عدد ١٨٤٥ للسنة ذاتها) . وكنت أيضاً أختلف إلى بعض أولاد العرب الساكنين فى روسية كفضل الله صرّوف الدمشقى المتوفى سنة ١٩٠٣ وأنطون خشاب الطرابلسى آخذ منهما قليلا من اللغة العربية الدارجة . ولقد أنجزت دروسى فى الكلية سنة ١٩٠٥ نائلا مدالية الذهب مكافأة لتأليفى عن خلافة المهدى العباسى آخذاً عن المصادر العربية كالطبرى وابن الأثير والعينى والمسعودى وغيرهم .

وبعد انتهاء دروسى فى الجامعة كنت أواصل دروسى تحت أنظار البارون روزن الموما إليه خلال سنتين . وفى أواخر سنة ١٩٠٧ قدمت الفحص لنيل رتبة الماجسطروس فى الآداب العربية . وبعد أشهر قليلة توفى أستاذى البارون روزن وكانت وفاته ضربة هائلة على ، شوست صحتى وحركت المرّة فىّ ، ولا غرو فإنى كنت آخر تلاميذه وكان يسمينى بلطفه المعهود بنيامينه الصغير .

وفى صيف تلك السنة نفسها أرسلتنى نظارة المعارف وجامعة بطرسبرج إلى الشرق العربى لتعلم اللغة العربية الدارجة والتعرف إلى علماء العربيات والنظر فى عوائد أبناء الشرق وآدابها . وقد قضيت سنتين بعيداً عن الروسية زرت خلالها مدن سورية وفلسطين ومصر وتوغلت فى ربى لبنان وغاباته ومروج الجليل وصحارى مصر أزور حيناً المكاتب المشهورة وحيناً أجلس أمام العلماء المكرمين ، وتارة أختلف إلى المدارس الكبيرة كالكلية اليسوعية فى بيروت والجامع الأزهر والجامعة المصرية فى

مصر وزرت فى سياحاتى مكتبة الملك الظاهر فى دمشق والمكتبة الخالدية فى القدس ومكتبة الموارنة فى حلب والمكتبة الخديوية فى القاهرة وغيرها مما تسنى لى الدخول والاشتغال فيه وجمعت المواد العديدة وكتبت بعض المقالات والانتقادات والأشعار المنثورة فى الجرائد والمجلات العربية والروسية :

وتعرفت خلال إقامتى فى الشرق العربى إلى كثير من علماء العرب ، وأدبائهم وصحافيهم ولا أنسى لطفكم وعنايتكم مدى الدهر . وكان هذا اللطف العربى المشهور من الأسباب التى جذبتنى إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها مادمت حياً . تعرفت إلى الكثيرين من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمى المكرمين فيما بعد . ففى القاهرة عرفت جرجى زيدان الذى اخترمته المنية سنة ١٩١٤ وأحمد زكى باشا عضو المجمع العربى الحالى ، والأستاذ نالينو الإيطالى (Carlo Alphonso Nallino) ، وفى فلسطين السيد خليل السكاكينى والشاعر الفاضل إسعاف النشاشيبى ، وفى بيروت حضرت دروساً للأب العلامة لويس شيخو ، وفى دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء . واستفدت فى هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتى . ولا أزال أرجو أن يرزقنى الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية ، تمم الله أمنيتى بالخير فهو السميع المجيب .

وبعد رجوعى إلى الروسية عينت فى صيف ١٩١٠ مديراً لمكتبة فرع اللغات الشرقية فى كلية لننغراد ، وفى خريف هذه السنة صرت معلما ثانياً للعربيات فيها وفى سنة ١٩١٤ سافرت إلى أوروبا لدرس بعض المخطوطات فى مكاتبها المشهورة مثل ليبسك وهالّة ولا سيما ليدن من بلاد هولندا التى طارت شهرتها فى الدنيا بسبب مجموعتها فى الكتب . وقد اغترف منها كثير من علماء المشرقيات فى أوروبا . وعينت سنة ١٩١٧ معلما أول للعربيات فى المدرسة المذكورة ، ولم أزل أجتهد فى هذه الوظيفة حتى الآن على قدر الإمكان فى تقلبات الزمان . وقد أصاب الدهر المستعربين غيرى فى لننغراد فمات الأستاذ الأول ميدنيقوف سنة ١٩١٨ وتوفى الأديب كوزمين (Kuzmin) أحد تلاميذى سنة ١٩٢١ وقد كان مدة سنتين معلما ثانياً فى جامعتنا . وعين صديقى الفاضل الأستاذ شميدت (Schmidt) سنة ١٩٢٠ مديراً لمدرسة اللغات الشرقية فى تاشكند من بلاد ما وراء النهر وبقيت إلى الآن أدأب وحدى فى التعليم .

فى سنة ١٩٢١ انتخبت عضواً عاملا فى أكاديمية العلوم الروسية فى قسم التاريخ واللغات فجلست فى مجلس كان فارغاً بوفاة أستاذى البارون روزن سنة ١٩٠٨ . وفى السنة التالية انتخبت كاتماً لأسرار القسم المذكور . وفى سنة ١٩٢٣ انتخبت عضواً مراسلا فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، وكان ذلك أكبر شرف نلته مدة عمرى وصار هذا التشريف مساعداً لى ومشجعاً فى أحوالنا الصعبة . ورأيت فيه تقديراً أتفاخر به لأتعابى فى التعليم والبحث والتأليف منذ عشرين سنة .

أما مؤلفاتى العلمية التى بدأت بكتابتها من سنة ١٩٠٤ فجلّها إن لم أقل كلها فى آداب العرب

من بحث وترجمة وشرح وانتقاد ، وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة وعددها يربو على المائتين ولذلك لا يمكن وصفها بتدقيق . وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١ وقت انتخابى عضواً فى أكاديمية العلوم الروسية وتكلم فى تقدير علمى ثلاثة من أعضاء الأكاديمية الأخصائيين فى علوم المشرقيات ، وقد طبع تقريرهم مع الفهرست المذكور ولذلك اكتفيت بالإشارة إليه . ودوائر أبحاثى ثلاث : الأولى منها تاريخ الشعر العربى ونقده منذ قديم الزمان إلى أيامنا هذه ، والثانية آداب اللغة العربية بين نصارى العرب ، والثالثة تاريخ آداب اللغة العربية منذ نهضتها الأخيرة فى القرن التاسع عشر . وهذا الموضوع الأخير مما أفتخر به فإنى أول من كتب بالروسية فيه ، وقلّ من كتب عنها من المستشرقين فى أوروبا . ولذلك قرظ مؤلفاتى تقريظاً حسناً المرحوم مارتين هارتمان (Martin Hartmann) الذى كان مطلعاً على أحوال العرب الأدبية بمشاهداته الشخصية والإقامة بين أظهرهم .

ورجائى الآن أن أواصل أبحاثى فى هذه الدوائر الثلاث وأن يتيسر لى طبع ما تراكم لدى من الآثار الأدبية والأبحاث والمقالات . فهذه أمنيتى الوحيدة والرجاء أن يبلغنى تعالى سؤلى وإن مع العسر يسرا وكل ضيق فإلى فرج قريب »* .

هذا وقد استمر كراتشكوفسكى يوالى نشاطه العلمى بالتدريس فى الجامعة وبأكاديمية العلوم السوفيتية ناشراً أبحاثه العديدة القيمة فى دراسة الإسلام والحضارة العربية ومتمتعاً باحترام وتقدير الدوائر العملية فى العالم بأجمعه . كما لن ينسى له مواطنوه وتلامذته ما أبداه من شجاعة وإنكار للذات أثناء حصار الألمان لمدينة لينينغراد فى الحرب الأخيرة . وإذا كان المجال لا يتسع للكلام على مؤلفاته العديدة فإنه لا يسعنى فى هذا الصدد إلا أن ألفت النظر إلى كتابين من كتبه المتأخرة نالا شهرة عالمية واسعة ، أحدهما هو « بين المخطوطات العربية » (١٩٤٥) Nad Arabiskimi Rukopisiami الذى ترجم إلى عدة لغات ، والآخر « من تاريخ الاستعراب الروسى » (١٩٥٠) Ocherki po istorii Russkoi Arabistiki** . وقد وافت المنية المستعرب الكبير فى الرابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٥١ .

وتقديراً لمجهوده العلمى وخدمته الكبرى للعلم السوفيتى فقد قرر مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى بتاريخ ٥ أبريل ١٩٥١ ، وبريزيديوم أكاديمية العلوم السوفيتية بتاريخ ١٣ أبريل من نفس العام ، طبع « منتخبات آثار الأكاديمى ا . ى . كراتشكوفسكى » Izbrannye Sochinenia Krachkovskogo ، فظهرت فى ستة أجزاء فى الفترة بين عامى ١٩٥٥ و١٩٦٠ ، وأشرف على نشرها نخبة من كبار علماء الاستشراق السوفيتى من تلامذة العلامة الكبير وزملائه .

---

* آثرت إيراد النص كما كتبه المؤلف نفسه دون إحداث أية تغييرات فيه لإعطاء فكرة عن أسلوبه فى الكتابة بالعربية ، فقط أضفت صورة الأعلام بالحروف اللاتينية بين قوسين ليسهل نطقها . (المترجم)

** لجأت على طول الكتاب إلى كتابة الألفاظ الروسية بالحروف اللاتينية ليسهل فهمهما على القارئ . (المترجم)

ومن أهم آثاره التى ظهرت فى هذه المجموعة هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته العربية إلى القراء ، أعنى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، الذى أعجلت الوفاة المؤلف من أن يتمه . وهو يكوّن الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » ويرى النور لأول مرة فى هذه الطبعة التى ظهرت فى عام ١٩٥٧ ، أى بعد أكثر من ستة أعوام من وفاة المؤلف :

— ٢ —

شغل الاهتمام بالجغرافيا العربية مكانة مرموقة فى النشاط العلمى لكراتشكوفسكى ، خاصة فى العشرين عاماً الأخيرة من حياته . وقد اهتم كراتشكوفسكى بالجغرافيا عامة منذ سنى حياته العلمية الأولى فانتخب عضواً فى الجمعية الجغرافية الروسية منذ عام ١٩٠٩ ، وأصبح نائباً لرئيسها فى عام ١٩٣٩ واستمر يشغل هذا المنصب إلى عام ١٩٤٥ . هذا الاهتمام بالجغرافيا إلى جانب معرفته العميقة بالأدب العربى وبالحضارة الإسلامية جعلت منه أنسب شخص للقيام بذلك العمل الجبار ، وهو كتابة تاريخ علم الجغرافيا فى الإسلام .

وقد أحس الدارسون دائماً بمسيس الحاجة إلى مؤلف تركيبى (synthetic)ضخم يسد ذلك النقص ، خاصة وأن كتاب رينو Reinaud قد طال عليه العهد ولم يعد يفى بمطالب البحث المعاصر ، أضف إلى هذا أن المقالات والأبحاث المتفرقة لكبار المستشرقين الذين اهتموا بالجغرافيا الإسلامية مثل نالينو Nailino ومينورسكى Minorsky ومجيك Mzik وهونجمان Honigmann الخ لم يكن من شأنها أن تغنى عن دراسة جامعة تتناول جميع أطراف الموضوع .

لكل هذا فقد كانت الدوائر العلمية فى الاتحاد السوفيتى تنتظر بفارغ الصبر إتمام كراتشكوفسكى لسفره الضخم الذى أخذ فى تأليفه أعواماً طويلة . وزاد إشفاق الجميع على مصير الكتاب عندما اخترمت المنية المستعرب الكبير قبل أن يرى الكتاب النور . بيد أن اهتمام الدوائر العلمية فى الاتحاد السوفيتى قد كلل بالنجاح فخرج الكتاب فى طبعة قشيبة فى عام ١٩٥٧ . وأثناء وجودى بموسكو حدثنى كثيراً عن هذا الكتاب المستشرقان المرحوم زاخودر Zachoder والأستاذ بليايف Beliaev ، فكنت أنتظر على أحر من الجمر ظهور الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » الذى يضم بين دفتيه هذا الأثر العلمى الهام .

وماكدت أنتهى من قراءته حتى خرجت بنتيجة مؤداها أن هذه هى فعلا الدراسة التى كان يترقبها الجميع لتسد النقص الكبير فى عالم الاستعراب والدراسات العربية .

وهنا صح منى العزم على نقله إلى العربية حتى لا يحرم أبناؤها من التعرف على جانب هام من التراث الإسلامى : ولأول وهلة اصطدمت بعقبات هائلة ، إذ إلى جانب وعورة أسلوب الكتاب

فإنه يعتمد على مصادر ودراسات لا يحصيها العد ولم يكن بمقدورى أن أرجع إليها حيث كنت أقيم . ورغماً عن هذا فقد استخرت الله وأخذت فى ترجمة الكتاب ، واغتنمت فرصة زيارتى للقاهرة مرتين فى عامى ١٩٥٩ و١٩٦١ فراجعت النصوص التى أوردها المؤلف وصححت بعض الأوهام .

أما الترجمة فقد توخيت فيها الدقة التامة والتمسك بالنص ، ربما على حساب الأسلوب أحياناً ، إذ كان كل جهدى موجهاً إلى نقل ألفاظ المستعرب الكبير كما هى ؛ ولم أحدث فيه أية تغييرات سواء بالحذف أو الزيادة . ورغبة فى توضيح اللفظ العربى المترجم فقد وضعت إلى جانبه فى حالات قليلة ما يعادله بالإنجليزية أو الفرنسية . أما الأسماء الأعجمية فقد زودتها بأشكالها بالحروف اللاتينية إلى جانب الشكل العربى ، كما اقتصرت فى تعليقى على حالات نادرة . وإلى جانب هذا فقد بينت أرقام صفحات المتن الروسى على هامش هذه الترجمة لتسهل المراجعة على من يبتغى ذلك .

وبعد فأرجو أن يجد القارئ العربى فى هذا الكتاب ضالته المنشودة وأن يكون فاتحة عهد جديد فى نقل مؤلفات المستعرب الكبير إلى لغة الضاد . والله المستعان .

الخرطوم ١٩٦١ — صلاح عثمان هاشم

مقدمة الناشر

3 يتضمن الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمى ا . ى . كراتشكوفسكى » بحث هذا العلامة فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهو يرى النور لأول مرة بظهور هذا الجزء . ولم يطبع منه قبل ذلك سوى فصول متفرقة (هى الأول والثانى والثالث والتاسع والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون) ظهرت إما كاملة أو مبتورة على هيئة مقالات مستقلة فى نشرات أكاديمية العلوم السوفيتية المختلفة ولكن بدون الإشارات المفصلة إلى المراجع كما هو الحال مع هذه الطبعة .

ومسودة الكتاب محفوظة فى أرشيف كراتشكوفسكى فى نسختين ، إحداهما بخط يده والأخرى صورة طبق الأصل منها منقولة بالآلة الكاتبة . وقد تناول المؤلف النسخة الثانية أى المطبوعة بالآلة الكاتبة بيد التصحيح وضبط الأعلام وأجرى قلمه فى حالات معينة بإضافات وتعديلات تتعلق فى الغالب بالمراجع . وقد يقتصر المتن أحياناً على ذكر اسم بحاثة أو آخر دون الإشارة إلى بحثه أو مؤلفه أو الموضع منه الذى يشير إليه مؤلفنا ؛

وسوى هذا فقد حفظت لنا بين مخلفات العلامة الكبير مجموعة البطاقات المختصة بهذا الكتاب وهى تحتوى على ثبت المراجع التى استعان بها فى بحثه . وقد تضم البطاقات إلى جانب ذلك عرضاً وجيزاً للمادة ، وهى ليست مرقمة أو مرتبة حسب حروف المعجم .

وقد استغرق تدوين الكتاب الفترة بين عامى ١٩٣٨ و١٩٤٥ مع بعض التوقف أثناء الحرب وأثناء حصار لينينغراد . غير أن اهتمام كراتشكوفسكى بدراسة الأدب الجغرافى العربى بدأ منذ الأيام الأولى لنشاطه العلمى ، فنراه منذ عام ١٩٠٩ وذلك أثناء رحلته العلمية إلى الشرق العربى يستمع إلى محاضرات فى تاريخ الفلك عند العرب كان يلقيها بالجامعة المصرية وباللغة العربية[1] المستشرق الإيطالى

4 الشهير كارلو الفونسو نالينو C.A. Nallino | (١٨٦٢ — ١٩٣٨) أكبر متخصص فى تاريخ الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب . وقد أفاد المؤلف كثيراً من أبحاثه فى مصنفه هذا.

وبدأ كراتشكوفسكى فى إلقاء محاضرات بالمعهد الشرقى بجامعة بطرسبورغ عقب رجوعه من الشرق تناول فيها مختلف نواحى اللغة ، والحضارة العربية . ومن بين المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة فى الفترة ما بين عامى ١٩١٠ و١٩١٧ تجتذب الانتباه بوجه خاص محاضراته بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافى العربى مع مطالعة نصوص مختارة منه »[2] Obzor Arabskoi geograficheskoi Literatury s chteniem izbrannykh otryvkov وهو عين الموضوع الذى عالجه بالتالى فى العام الدراسى ١٩٣٥ — ١٩٣٦ بعنوان « أدب التاريخ والجغرافيا عند العرب » Arabskia Istoriko-geograficheskia Literatura.[3]

وقد رجع كراتشكوفسكى فى تحضير دروسه هذه إلى أهم المؤلفات التى ظهرت فى الموضوع(٤) كما قام بعمل ترجمات للمقتطفات التى انتقاها بنفسه من النصوص العربية ليسهل فهمها على تلامذته ؛ وقد ضمّن المؤلف هذه الترجمات كتابه هذا لإعطاء فكرة عن أسلوب ومنهج كل مؤلف على حدة .

وهكذا عن تلك المحاضرات فى الأدب الجغرافى العربى التى ألقاها الأكاديمى كراتشكوفسكى بالجامعة ولد هذا الكتاب وترعرع على مدى نيف وأربعين عاماً كان يتعهده خلالها بالزيادة ويتناوله بيد التعديل معتمداً فى ذلك على ما يجدّ من مواد واكتشافات طالما لعب هو نفسه دوراً فعالا فى إماطة اللثام عنها .

ويبدو جلياً من مقدمة المؤلف لكتابه ، وهى التى فرغ من تحريرها عقب تدوينه للفصل الثالث والعشرين ، أنه كان يود متابعة تأريخه للأدب الجغرافى العربى إلى أيامنا هذه ، إلا أنه لم يظهر فى الواقع بعد المقدمة سوى فصل واحد هو الفصل الرابع والعشرون الذى يعالج القرن الثامن عشر فى حين كانت فكرة المؤلف الأساسية هى أن يضيف إلى ذلك فصلين أو ثلاثة يسوق فيها الكلام على العصر الحديث . ولكن لم يقدر له تحقيق هذه الأمنية إذ عاجلته المنية فى الرابع والعشرون من شهر يناير عام ١٩٥١ . وهذا يوضح لنا السبب فى أن الكتاب ينقصه القسم الخاص بالقرن التاسع عشر كما ينقصه أيضاً الفصل الختامى الذى كان سيعرض فيه المؤلف الاستقراءات العامة التى يمكن استخلاصها من الكتاب فى مجموعه .

لقد حظى تاريخ الأدب الجغرافى العربى بدراسات عامة وأبحاث خاصة ليست بالقليلة ، ابتداء من المصنف الكلاسيكى للمستشرق الفرنسى رينو Reinaud . وفى العشرات الأولى من هذا القرن نما هذا المجهود بشكل ملحوظ | بفضل الأبحاث الممتازة لبارتولد ومينورسكى وكرامرس Kramers 5 وروسكا Ruska وفرّان Ferrand وغيرهم من كبار المتخصصين فى ميدان الجغرافيا التاريخية عند العرب . غير أن مصنف كراتشكوفسكى يحتل مكانة ممتازة بين جميع هذه المؤلفات .

نال كراتشكوفسكى الشهرة فى الدوائر العملية كمستعرب واسع الأفق متعدد النواحى تناول جميع أطراف الحضارة العربية بالدرس والاستقصاء واهتم بجميع مظاهرها الكبيرة والصغيرة ، ابتداء من دراساته العميقة عن المتنبى وأبى العلاء إلى جمعه الحكايات الشعبية من بلدة الناصرة . وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن حضارة شعب ما إنما تتألف من جميع تلك العناصر المختلفة وأنه يجب لتفهمها تحديد مكانة كل ظاهرة فى التطور العام لتلك الحضارة وتبيان الروابط العضوية التى تجمع بينها . لذا فقد رأى فى الأدب الجغرافى بالذات عنصراً أساسياً فى الأدب العربى يجب معالجته من وجهة نظر تاريخ الأدب العربى والحضارة العربية ؛ ومدلول « الحضارة العربية » لديه واسع للغاية وهو قد استعمله للتعبير عن جميع أوجه النشاط الثقافى لشعوب الشرق الأدنى فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب آسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسريانيين وغيرهم(٥) .

ويؤكد المؤلف أكثر من مرة خلال الكتاب وفى المقدمة أن المنهج الذى اتبعه هو المنهج الفيلولوجى (Philological) وأنه ليس من غرضه كتابة تاريخ علم الجغرافيا أوتاريخ الاستكشافات الجغرافية عند العرب . وهو يولى نصيباً متعادلا من الاهتمام لكل من أدب الدوائر العلمية والأدب الشعبى حتى إنه لم يهمل قصص الرحلات التى تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً . ورغماً من هذا فلا يخلو الأمر من حالات تطرق فيها المؤلف إلى الكلام على تاريخ الجغرافيا العلمية والاستكشافات الجغرافية العربية فقدم لنا لوحة رائعة لهذا الفرع من العلوم عند العرب وبين الدور الخطير الذى لعبوه فى تطوير علم الجغرافيا جنباً إلى جنب مع الفرس والترك الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالثقافة العربية . ويبدو هذا واضحاً غاية الوضوح عند كلام المؤلف على شخصيات مثل الخوارزمى وألوغ بيك (الفصل الثالث) والبيرونى (الفصل التاسع) وأحمد بن ماجد دليل ڤاسكو داغاما (الفصل العشرون) الذى كشف كراتشكوڤسكى عن ثلاثة من مصنفاته فى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوڤيتية(٦) ، أو مثل پيرى ريس وغيرهم من ممثلى الجغرافيا العلمية الكثيرين .

ويقدم المؤلف عرضاً منظماً للأدب الجغرافى ابتداء من ظهور التصورات الجغرافية الأولى عند العرب التى نلتقى بها فى أقدم آثار الشعر الجاهلى وفى القرآن ، ثم يتتبع ميلاد الجغرافيا الرياضية عند العرب معتمداً فى ذلك على المصادر الأصلية وعلى الدراسات الحديثة ويبحث مسألة علاقتها بالعلم اليونانى والهندى ؛ ويلى هذا فحص مفصل لميلاد بقية فروع الجغرافيا الأخرى، مثل الجغرافيا الوصفية والرحلات والجغرافيا البحرية والجغرافيا العامة والإقليمية الخ مع ذكر مراكزها ومدارسها واتجاهاتها وأنماطها المختلفة .

وهو فى خلال ذلك يترجم لمعظم الشخصيات الكبيرة وأصحاب الأصالة ويوضح الروابط والمؤثرات التى تركت أثرها عليهم . ونتيجة لتحليله الدقيق لعدد هائل من مصنفات ما يزيد على ستين مؤلفاً فقد استطاع كراتشكوڤسكى أن يحدد درجة الثقة التى تتمتع بها مادتهم ومدى أهمية تلك المادة كمصدر لدراسة الجغرافيا التاريخية للأقطار التى تكلموا عنها . ويحتوى الكتاب إلى جانب هذا على ثبت بالمراجع يكاد يستغرق جميع المادة المتعلقة بهذا الموضوع ابتداء من العصور الوسطى إلى أيامنا هذه مع تقدير نقدى للمتون التى نشرت والأبحاث العلمية التى عملت حولها ؛ وينطبق هذا القول أيضاً على الفصلين التاسع عشر* والحادى والعشرين المفردين للأدب الجغرافى الفارسى والتركى الذى يعالجه المؤلف بالقدر الذى يتلاءم مع ارتباطه بالأدب العربى .

إن هذا الأثر العظيم الذى ألفه كراتشكوڤسكى قريباً من نهاية نشاطه العلمى ليقف فريداً فى ميدان الاستعراب العلمى لما يتصف به من سعة المادة سواء فيما يتعلق بالمصادر الأولى أو الأبحاث

* فى المتن الروسى ورد السادس عشر سهواً بدلا من التاسع عشر . (المترجم)

العملية ، ومن المتوقع أن يصبح نموذجاً يُحتذَى فى عمل دراسات تركيبية من هذا الصنف تتناول الفروع المختلفة لتاريخ الأدب العربى .

وبعد فيمكننا أن نستخلص النتائج الآتية من دراسة هذا الكتاب :

(١) اعتماداً على مادة علمية ضخمة استطاع المؤلف ، دون سائر من سبقوه ، أن يؤكد مكانة الحضارة العربية فى تاريخ البشرية والدور المرموق الذى لعبه علم الجغرافيا العربى فى هذا الميدان .

(٢) لقد حالف التوفيق المؤلف إلى أقصى الحدود فى أن يدلل على أن ممثلى حضارات آسيا الوسطى (تركستان) والقوقاز وإيران وتركيا وغيرها من الأقطار الإسلامية قد أسهموا فى تشييد هذه الحضارة وأنه قد برز من بينهم علماء كبار فى ميدان الجغرافيا العربية .

(٣) وأخيراً يتبين لنا أن المؤلف قد انتهج منهجاً علمياً دقيقاً إذ أن دراسته العميقة لجميع الآثار الكبرى فى الأدب الجغرافى قد أثبتت أنه من الممكن استخراج مادة واقعية تساعد إلى حدما فى دراسة المسائل المتعلقة لا بالجغرافيا التاريخية وحدها بل أيضاً بعلم الآثار وعلم الأجناس الخ ، وذلك من أكثر المصادر إغراباً وخيالا ، أى كتب « العجائب » Mirabilia . بيد أن أهمية كتاب كراتشكوفسكى لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى ما أبعد من ذلك ، فهو قد كشف النقاب عن مسائل عديدة يجب أن يعنى العلم السوفيتى ببحثها وإيجاد الحلول لها . ونأمل أن يكون فى نشر هذا الكتاب حافزاً قوياً إلى ظهور أبحاث عديدة تتناول نقاطه المختلفة .

ومنذ أن فرغ المؤلف من كتابه هذا ظهر عدد من الأبحاث العلمية تتناول موضوعات شتى ، من ذلك ظهور طبعة جديدة لمتن الغرناطى من عمل دوبلر Dubler (٧)، وظهور الترجمة الفرنسية لتاريخ دمشق لابن القلانسى(٨) ، ومقالات عباس العزاوى عن على ريس وتاريخ الفلك فى العراق(٩) ، ودراسة عمر فرّوخ لابن خلدون(١٠) الخ . ولم يكن فى مقدور المؤلف بالطبع أن يطلع عليها جميعها ، وكان من الممكن فى حالات معينة أن تعاون فى استكمال الفصول الخاصة بذلك فى الكتاب . بيد أن الاستقراءات الأساسية التى يمكن استخلاصها من الكتاب لم تتأثر فى جوهرها بظهور تلك الدراسات .

وتعتمد هذه الطبعة على النسخة الأصلية المطبوعة بالآلة الكاتبة ، وروجعت على نسخة المؤلف المكتوبة بخط يده وضمت إليها مجموعة البطاقات التى خلفها المؤلف والتى تحتوى على بعض الزيادات ؛ وقد بذل الناشرون جهدهم فى جمع هذه البطاقات وترتيبها وفقاً لحروف المعجم . وتم طبع المتن دون إحداث أية تغييرات ، وفى مواضع متفرقة منه فقط استبدلت بعض ألفاظ بأخرى أو أعيدت صياغتها ابتغاء المزيد من الوضوح . هذا وقد نقلت الحواشى الموجودة فى أسفل الصفحات والتى تشير إلى المراجع عن مخطوطة المؤلف بحذافيرها وتمت مراجعتها على ضوء البطاقات ؛ كما استكمل

الناشرون الحواشى الناقصة والمفقودة ولكنهم خشية إثقال المتن لم يجدوا ضرورة إلى الإشارة إلى تلك الزيادات* . ولنفس السبب احتفظ الناشرون ما أمكن بالاختصارات (Abbreviations) التى استعملها المؤلف أو استعاضوا عنها | بأخرى من عندهم إن لم يجدوها . وأضيف إلى الكتاب فهرس بالمراجع يحوى ثبتاً بالاختصارات وثبتاً بأسماء الكتب التى رجع إليها المؤلف ، ثم يلى هذا فهارس أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية والأثنوغرافية ، فأسماء المصادر من شرقية وغربية ، وأخيراً يأتى فهرس الموضوعات والمصطلحات . وآخر فهرس موجود بالكتاب هو فهرس الصور والرسومات التى انتقتها من أجل الكتاب السيدة ف . ا . كراتشكوفسكايا ؛ وقد عملت على اختيار النماذج من المخطوطات الموجودة بالاتحاد السوفيتى

أما الألفاظ والمصطلحات العربية التى نقلها المؤلف كما هى ووضعها جنباً إلى جنب مع ترجمتها الروسية فقد ضبطت بالحروف الروسية (Transcription) وفقاً للطريقة التى انتهجها كراتشكوفسكى نفسه فى كتابة الألفاظ العربية بالحروف الروسية(١١) . .

هذا وقد قام بإعداد هذا الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمى كراتشكوفسكى » وتهيئته للطبع ف . ا . كراتشكوفسكايا** و ا . ا. ميخايلوفا A. A. Mikhailova يعاونهما ف . ا . بلياييف V. A. Beliaev و ا . ا . بيكوف A.A. Bekov ول . ز . بيساريفسكى L. Z Pisarevski ، وجميعهم من المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية . أما الصور والرسوم البالغ عددها خمساً وتسعين والتى قامت بانتقائها ف . ا . كراتشكوفسكايا فتشمل إلى جانب صورة المؤلف نماذج من مخطوطات الكتب التى تحدث عنها المؤلف فى صلب كتابه (وهى مأخوذة من مجموعة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، ومن مجموعة جامعة لينينجراد ومجموعة مكتبة م . ى . سالتيكوف — شيدرين M. E. Saltykov - Shchedrin الخ) كما تشمل أيضاً صوراً لنباتات وحيوانات ومناظر طبيعية وأجهزة فلكية وأجرام سماوية† الخ .

وقد قام بالتقاط الصور مؤسسة « لافوكى » LAFOKI وس . غ . غاسيلوف S.G Gasilov ومعمل تصوير جامعة لينينجراد . أما الفهارس فقد قام بإعدادها س . ن . سكلوف S. N. Sokolov وپ . ا . جريازنيفتش P. A. Griaznevich .

غ . تسرتيلى
G. Tsereteli

---

* رأينا من الأفضل جمع الحواشى المتعلقة بكل فصل ووضعها فى آخره بدلا من تركها فى أسفل كل صفحة كما فعل الناشرون . (المترجم)

** زوج المؤلف وهى عالمة سوفيتية ذات شهرة عالمية فى ميدان النقوش الإسلامية ولا تزال على قيد الحياة . (المترجم)

† جميع هذه الصور لا تمثل شيئاً ذا أهمية بالنسبة للقارئ الشرقى ، لذا فقد طوينا عنها كشحاً . (المترجم)

حواشى مقدمـــة الناشر

(١) cf : Ignati Iulianovich Krachkovski, Materialy K biobibliografii utchenykh SSSR, M—L., 1949, P. 7

(٢) شرحه ص ١٦٢

(٣) شرحه ص ١٦٢

(٤) مثال ذلك أنه فى المنهج الدراسى ١٩١٥ — ١٩١٦ لمعهد اللغات الشرقية بجامعة بتروغراد ذكر المراجع الآتية لدراسة الأدب الجغرافى العربى :

1 — M. Reinaud, Géographie d'Aboulféda, T. I, Paris, 1848.

2— L. M. Devic, Coup d'oeil sur La Littérature géographique arabe au Moyen age, Paris, 1882.

3— Carl Brockelmann, GAL, Berlin 1898 — 1902.

أما النصوص فمن كتاب دى خويه :

De Geoje, Selections from Arabic Geographical Literature, Leiden, 1907.

(٥) تعرض كراتشكوفسكى لهذا بالتفصيل منذ عام ١٩١٢ وذلك فى نقده لبحث تومانسكى :

A. G. Tumanski, «Arabski Iazyk i Kavkazovedenie» (Mir Islama, I, 1912, p. 237),

— Arabskia Literatura, Literatura Vostoka, Sbornik Statei, 1919, p. 24.

— Arabskia Poezia, Vostok, 4, 1929, p. 97.

(٦) راجع كراتشكوفسكى « بين المخطوطات العربية » ، موسكو — لنينغراد ، ١٩٥٥ ، ص ٧٦ ، ٧٨ (بالروسية)

(٧) — Abu Hamid el Granadino y su relaicón de Viaje por tierras Eurasiaticas, Por César E. Dubler, Madrid, 1953.

(٨) — Damas de 1075 à 1154 par Roger Le Tourneau, Damas, 1952.

ونقده لجعفر الحسنى ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٤ — ١٢٥

(٩) عباس العزاوى ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٨٩ — ١٠٣

(١٠) عمر فروخ ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٦٧ — ٧٦ و ٢٠٣ — ٢١٤

(١١) كراتشكوفسكى ، أبو الفرج الوأواء الدمشقى ، بطرسبرغ ١٩١٤ ، ص ١٠ (بالروسية) : وأيضا بحثه : حكايتان عربيتان من الناصرة ، منشورات الجمعية الفلسطينية الروسية ، لنينغراد ١٩٢٦ ، ص ٢٨ — ٤١ .
راجع الجزء الأول من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » موسكو — لينغراد ١٩٥٥ ، ص ٧ — ٨ .

مقدمة المؤلف

9 إن هذا المصنف الذى أخذ أعواماً طويلة ليقف على قدميه إنما يعتمد فى الأصل على مواد المحاضرات التى ألقيتها بجامعة بطرسبرغ ثم بجامعة لينينغراد فى فترات متباينة ابتداء من عام ١٩١٠ . وليست الغاية الأساسية منه تقديم عرض عام لتاريخ الجغرافيا بقدر ما قصد به عرض تاريخ الأنماط الأدبية المرتبطة بعلم الجغرافيا فى صورة أو أخرى ؛ وهو يهدف إلى جانب هذا تبيان الخطوط العريضة لتطور هذه الأنماط ابتداء من الإيماءات الأولى فى الشعر الجاهلى حتى أيامنا هذه .

والكتاب يقدم فى آن واحد نصيباً متكافئاً لكل من الأدب العلمى والأدب الشعبى ، ويجهد فى أن يلم بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية كما جهد فى الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية ، وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التى تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً .

وبالرغم من أننا لم نهمل عند فحصنا للآثار الأدبية علاقتها بعلم الجغرافيا وتاريخ الاكتشافات الجغرافية ، وبالرغم أيضاً من أن العرض العام قد سار على ضوء التطور العام للثقافة العربية إلا أن المنهج الذى اتبع هو المنهج الفيلولوجى الذى يهدف قبل كل شىء توضيح طبيعة الظواهر الأدبية وتطورها . وهو بهذا يقف فريداً فى هذا الميدان ، وقد تدنو منه من حيث الفكرة العامة أقسام متفرقة من كتاب رينو Reinaud الذى جاوز عمره قرناً من الزمان تجمعت خلاله مادة غزيرة وتقدم فيه منهج البحث فى الفيلولوجيا العربية . وقد دعت الحاجة لتوضيح دور الأدب الجغرافى العربى فى تأثيره على الشرق والغرب إلى أن أفرد فصلين مستقلين للأدب الجغرافى الفارسى والتركى ، واهتم بمعالجة الأمثلة البارزة لانتقال التراث الثقافى فى ميدان الجغرافيا إلى أوروبا الغربية .

وبالرغم من أن تبييض الكتاب قد بدأ قبل الحرب الوطنية* ، إلا أن العمل فيه قد سار بنسبة أسرع أثناء حصار لينينغراد عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ . وكنت قد فرغت قبل الحرب من تدوين سبعة فصول فقط إلى جانب الفصلين اللذين تشتمل عليهما المقدمة . وتضم هذه الفصول التسعة الأولى الفترة من القرن السادس إلى القرن الثانى عشر وتحتوى على نحو اثنتى عشرة ملزمة طباعية . وفى أثناء الحرب ، وذلك ابتداء من يوليو ١٩٤١ إلى لحظة مغادرتى مدينة لينينغراد فى آخر يوليو ١٩٤٢ أضيفت إلى هذه الفصول التسعة أربعة عشر فصلا أخرى ، وبهذا توقف الكتاب عند الفصل الثالث والعشرين المفرد لمعالجة القرن السابع عشر والذى يرد فيه الكلام فيما يرد على رحلة مكاريوس

---

* يطلق اسم الحرب الوطنية فى الاتحاد السوفيتى على الكفاح العنيف فى الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية بين الألمان والسوفيت . (المترجم)

الأنطاكى إلى روسيا فى عهد الكسى ميخايلوفتش . كما وقد تم أيضاً إعداد مواد الفصل الرابع والعشرين الذى يبحث فى الآثار الأدبية | فى ميدان الجغرافيا فى القرن الثامن عشر . وهكذا قفز عدد 11 الصفحات المعدة للطباعة إلى أربعين ملزمة طباعية .

ولإتمام هذا الكتاب ، وهو أمر لا يتسنى إلا بلينينغراد ، يتحتم إلقاء ضوء على العصر الحديث (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)* ، الذى يحتاج فى أغلب الظن إلى ثلاثة أو أربعة فصول أخرى . ولاتزال محتاجة إلى إكمال الملاحظات وثبت المراجع الذى سيرد فى آخر الكتاب حينما يكتمل عقده . فإذا أمكن تنفيذه هذه الكفرة الأصلية بالصورة المرجوة لها فإن هذا الفرع من فروع الثقافة الإسلامية يكون قد حظى إذاً لأول مرة بدراسة واسعة تتناول جميع المادة المدونة . ولم يُقصد بالكتاب المستعربون وحدهم بل قُصد به كذلك مؤرخو الأدب والجغرافيون ومؤرخو الحضارة عامة .

موسكو فى ١٠ / ١٠ / ١٩٤٣ — ا . ى . كراتشكوفسكى

---

* لعله يقصد (التاسع عشر والعشرين) . (المترجم)

مدخل

١ — عرض عام

15 ان المكانة المرموقة التى تشغلها الحضارة العربية فى تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع فى عصرنا هذا ؛ وقد وضح بجلاء فى الخمسين عاماً الأخيرة فضل العرب فى تطوير جميع تلك العلوم التى اشتقت لنفسها طرقاً ومسالك جديدة فى العصور الوسطى ولا زالت حية إلى أيامنا هذه — أعنى علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا . أما فيما يتعلق بالأدب الفنى العالمى فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءاً أساسياً من التراث العام للبشرية ، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبية التى نشأت فى بيئات غير عربية .

وبالطبع ليس فى وسع جميع الفنون المختلفة للأدب العربى الحافل أن تدعى لنفسها مكانة واحدة من حيث القيمة ومن حيث الأهمية العلمية ؛ وإذا كان بعضها مثل علم اللغة والعلوم الشرعية يمثل موضوعاً لدراسات المتخصصين ، الأمر الذى لا يمنع بالطبع من أهمية استقراءاتهم فى حالات معينة بالنسبة للنواحى العريضة فى تاريخ الحضارة ، إلا أن عدداً من فروع الأدب العربى قد اكتسب أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة . ولعل هذا يصدق قبل كل شىء على الأدب التاريخى والجغرافى العربى الذى اعترف العلماء به منذ عهد بعيد بأنه المصدر الأساسى والموثوق به فى دراسة ماضى العالم الإسلامى ، إذ تتوفر فيه مادة لاينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافى فحسب ، بل أيضاً لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الأدب والعلم والدين ، وللغويين وعلماء الطبيعة . ولا يقتصر محيط الأدب الجغرافى العربى على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التى بلغها العرب أو التى تجمعت لديهم معلومات عنها ، وذلك بنفس الصورة المتنوعة التى وصفوا بها بلاد الإسلام . وقد يحدث أحياناً أن تمثل المادة الجغرافية العربية إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما . فمثلا فيما يتعلق بتاريخ إيران فى عهد الساسانيين — وهو نفس العصر الذى تمثله تلك الآثار البديعة المحفوظة لدينا بمتحف الارمتاج Ermitage بلنينغراد — نجدأن المادة الأساسية قد حفظها لنا المؤلفون العرب . لذا فليس من الغرابة فى شىء إذا صرحنا بأنهذا الأدب يوشك أن يكون المعين الأول الذى يرده | مختلف المتخصصين من غير المستعربين وأن يصل الاهتمام به إلى 16 درجة عالية . هذا الاهتمام يبرره الغنى الهائل لهذا الأدب ؛ ولتكوين فكرة عن ضخامته نذكر مثلا أن مؤرخ الأندلس الذى عاش فى القرن السابع عشر وهو المقّرى قد أورد أسماء مائتين وثمانين شخصاً

عندما أراد وضع قائمة بأسماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق فى طلب العلم وحده وليس بغرض التجارة أوالحج ، معترفاً رغماً عن ذلك بأنه لم يستوعب كل الأسماء(١) . ويزيد فى الاهتمام بالأدب الجغرافى أحياناً طابعه الفنى الحى ، ويكفى أن نتذكر فى هذا الصدد مصنفات من طراز أسفار السندباد ، تلك القصص الجغرافية الفريدة فى نوعها .

ويمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين فى الأدب الجغرافى العربى ، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم ، أعنى العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذى نفهمه حالياً إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ؛ ومن ناحية أخرى فهو يولى وجهه شطر الأدب الفنى بالغاً ببعض آثاره فى هذا المجال ذروة الإبداع . وقد أدرك العرب أنفسهم هذا الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا ويبنوه بدقة فى تصنيفهم للعلوم . وهم قبل أن يتوصلوا إلى وضع التصنيف على أسس منطقية صارمة ، بل وقبل أن يتعرفوا على نظام التصنيف الثلاثى Trivium (النحو والبيان والجدل) والرباعى Quadrivium (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى)(٢) الذى ساد بالتالى فى أوروبا الوسيطة ، أقول قبل هذا قسم العرب العلوم من وجهة نظرهم الخاصة معتمدين فى ذلك على سير تطورها التاريخى . ففى العهد الإسلامى قسمت العلوم إلى « العلوم القديمة » و« العلوم الحديثة »(٣) . فالمجموعة الأولى (وهى اللغة والكلام والفقه والتاريخ) أرجعوا نشأتها إلى العصر الأموى ، أما الثانية (وهى الفلك والرياضة والطب والفلسفة) فإلى العصر العباسى . وقد ضموا الجغرافيا إلى العلوم الدقيقة ، أقرب ما يكون إلى الفلك . وهم لم يتنكبوا الصواب فى ذلك ، ففى الواقع نشأت الجغرافيا الرياضية والفلكية بين ظهرانيهم فى نهاية القرن الثامن أوبداية التاسع الميلادى نتيجة لتعرفهم واتصالهم بالعلوم الهندية أولا ثم اليونانية بعد ذلك حيث طغت فى الأخيرة على جميع المؤثرات شخصية بطلميوس Ptolemaeus* بمصنفاته الفلكية الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافيا العلمية عند العرب من غير توقف إلى العصور المتوسطة الأخيرة ، محتفظة على الدوام بصلتها بتقاليد المصنفات الأولى فى هذا الميدان .

وفى موازاة هذا الاتجاه وجد اتجاه آخر تشكل معه فى وقت واحد ، بل وربما تشكل قبله تبعاً لبعض المصادر ، أعنى منهج الجغرافيا الوصفية التى يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً قصص الرحلات . وهو من بعض الوجوه ، خاصة فى بداية ظهوره ، يرتبط بعلوم الشريعة | 17 | وباللغة ثم بالأدب الفنى ، الأمر الذى لم يحل بالطبع دون تشبعه بين آونة وأخرى بالجغرافيا العلمية . ولكن يجب الاعتراف بأن المنهج الثانى ، أى منهج الجغرافيا الوصفية ، هو الذى يسترعى النظر بغزارة مادته وهو الذى يغلب على الأدب الجغرافى العربى ويسبغ عليه طابعه المميز ويعطيه شكله الخاص به مما يصعب إيجاد مثيل له فى آداب الأمم الأخرى . وهذا الطابع المتنوع ، أقول بل هذا التلون فى الأدب الجغرافى العربى ،

* هذه هى الطريقة الصحيحة لكتابة هذا الاسم ، أى أن تسبق الميم الياء لا العكس . (المترجم)

يضحى أكثر فهماً لنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل العديدة التى عاونت على انبعاثه وظهوره .

لقد أدى اتساع رقعة أراضى الخلافة الإسلامية وتدعيم سلطانها فى القرنين الثامن والتاسع إلى ظهور مهام إدارية عديدة خاصة فى محيط الشئون المالية والخراج . وبالطبع كان بمقدور العرب الإفادة من النظم السابقة لهم وهو ما حدث بالفعل ، ففى إيران استطاعوا الإفادة من سجلات خسرو أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩) فى مسح الأراضى ؛ وفى مصر نسجوا على منوال النظام البيروقراطى البيزنطى . بيد أن ظروف الأحوال الجديدة استلزمت بدورها جمع معلومات دقيقة محققة عن تقسيم الولايات وعن الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية وتقدير الخراج والضرائب عينية ونقدية . ولهذا الغرض ظهرت كتب خاصة هى «كتب الخراج» التى قصد بها فى أول الأمر إرشاد عمال الخراج ولكنها لم تلبث أن أصبحت فى متناول أيدى الجميع . هذا وقد تطلبت المركزية فى النظام الإدارى الذى تجمعت خيوطه فى بغداد شق طرق جيدة للمواصلات واستيفاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومنازل البريد وتحديد المسافات وظروف السفر . ومن أوائل المصنفات التى وصلت إلينا فى هذا كتاب وضعه عامل للبريد بإحدى ولايات الخلافة الهامة .

ثم إن مصالح الدولة ، التى أصبحت أكبر قوة عالمية لذلك العهد ، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها ، بل كان من الضرورى أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى خاصة المتاخمة لها . وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معاً ، فالمعلومات قد أتت بها السفارات وأسرى الحرب العائدون إلى أوطانهم ؛ ولأحد هؤلاء ممن كانوا فى أسر البيزنطيين ندين بأول معلومات للعرب لا عن بيزنطة وحدها بل أيضاً عن جيرانها من الصقالبة وغيرهم من سكان جنوبى روسيا.

وقد اتخذت الرحلات طابعاً جم الحيوية والنشاط منذ القرون الأولى للخلافة ، وكما هو معلوم فإن من فروض الإسلام حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، أى إذا ساعدت الظروف وكانت الطرق مسلوكة . كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء وتأتّى من هذا ربط أقاصى أراضى الخلافة ببعضها البعض ، بل إن التجارة تجاوزت | تلك الحدود فجذبت فى فلكها أواسط 18 أفريقيا وشمال شرقى أوروبا وجنوب شرق آسيا ؛ وهى التى ابتدعت تلك الشخصية الخالدة شخصية السندباد البحرى الذى ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافى ارتباطاً أوثق مما كان يظن من قبل . وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسيع مدى الأسفار ، كما ساعد فى هذا المضمار أيضاً التعليم ، فقد جاء فى الحديث الشريف « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، فأصبح الارتحال فى طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة « دورة الدراسة » . ففى طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة ، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال فقيه أندلسى من القرن الثانى عشر هو أسعد الخير الأنصارى الأندلسى (المتوفى عام ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) الذى نعت بالصينى لارتحاله إلى

تلك البلاد النائية[٤] . كل هذا أدى لا إلى اتساع مدى المعلومات الجغرافية فحسب ، بل ترك فى الوقت نفسه أثره على الأدب الجغرافى فظهرت أشتات من المصنفات يتناول بعضها أوصاف الطرق بطريقة جافة ويحفل البعض الآخر بالقصص الممتعة التى تسمو أحياناً إلى مرتبة الأدب الفنى الصرف .

ولم يقف الدين عند فريضة الحج بل تطلب اهتماماً خاصاً بالجغرافيا الفلكية . فتحديد بداية الصوم ونهايته ومواقيت الصلوات الخمس استدعى معرفة جيدة بالفلك والرياضيات[٥] . ولتحديد مواقيت الصلاة صنعت الساعات الشمسية الأفقية « البسيطة » التى استلزم تخطيطها معرفة دقيقة بخط عرض المكان المعين ، كما وأن تحديد ظل المزولة فى كل يوم استلزم عملية حسابية ودراية بالأمر[٦] . وفى اللحظة التى يتجاوز فيها ظل العصر ظل منتصف النهار بمقدار « مقياس » (Gnomon) يبدأ ما يسمى بوقت العصر[٧] . واختلفت القبلة فيما يتعلق بالصلاة أو ببناء المسجد من بلد إلى آخر وارتبط تحديدها بمعرفة خط طول وعرض(Geographical Coordinates) مكة والنقطة المعينة[٨] .

ومن المسلم به أن تباين الظروف يؤدى إلى التنوع فى الصور الأدبية ، هذا إذا تركنا جانباً الميل إلى البحث والاستقصاء مما يتأتّى لجميع الشعوب والأجناس . وقد تردد صدى هذا التنوع فى الأسماء العديدة التى أطلقها العرب على علم الجغرافيا . فنما يتعلق بالجغرافيا الفلكية ثبت فى العادة اللفظ اليونانى « جغرافيا » ، الذى ترجم أحياناً فى صورة أقرب إلى الفهم هى « علم الأطوال والأغراض » أو « علم تقويم البلدان » . أما الجغرافيا الوصفية فقد أطلق عليها اسم « علم المسالك والممالك » ، وفى الحالات التى يدور فيها الكلام على مراحل الطرق بصورة خاصة أطلق عليها اسم « علم البرود » . وإذا غلب الجانب الكوزموغرافى (Cosmographic) — أى فى وصف الكون — بما يصحبه من ميل واضح نحو العجائب والغرائب فقد استعملت تسمية « علم عجائب البلاد » .

وتاريخ نشأة الأنماط المختلفة للأدب الجغرافى ليس أقل دلالة من مصطلح التسميات على التنوع فى البحث والأهداف . وفى هذا الصدد يمكن ملاحظة عصور محددة فى تاريخه ، فقبل القرن التاسع لم تكن هنالك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، إنما تقابلنا من وقت لآخر معلومات جغرافية متناثرة حفظها لنا الأدب اللغوى فيما بعد أو تردد صداها فى الرحلات الخيالية . وقد كان القرن التاسع بحق عصر الانبثاق،إذ تم فيه من ناحية التعرف على مصنفات بطلميوس وأدى هذا بدوره إلى ظهور الترجمات التى بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية ، كما تشكلت فيه من ناحية أخرى الأنماط المتعددة للجغرافيا الوصفية . وقرب نهاية هذا القرن ظهرت المداخل الجغرافية التى وضع البعض منها لكتاب الدواوين والبعض الآخر للمشتغلين بالأدب ، كذلك تنوعت أوصاف الرحلات فغلب على بعضها العنصر الواقعى بينما احتفظ البعض الآخر بالطابع القصصى . أما القرن العاشر فهو العصر الذى بلغ فيه الأدب الجغرافى أوجه ، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمامها

بوصف « المسالك والممالك » وصلتها الوثيقة « بأطلس الإسلام » الذى يمثل قمة الكارتوغرافيا (Cartography) عند العرب ، أى فن رسم المصورات الجغرافية أوالخارطات . هذا وقد اكتسب تبسيط المصنفات وتقريبها إلى الجمهور انتشاراً واسعاً وتزايد الاهتمام بالجانب الفنى نتيجة للمطالب المتزايدة لجمهرة المثقفين ، كما تكيف تبعاً لهذا وصف الرحلات فأضحى أكثر تنوعاً فى منهجه . ويمكن القول بوجه عام بأن القرن العاشر قد عمل على تدعيم الأنماط والفنون المذكورة للمصنفات الجغرافية . ومنذ القرن الحادى عشر ، وعلى الأخص فى القرن الثانى عشر ، انضمت إليها شيئاً فشيئاً مصادر من نوع جديد — أعنى المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العـالم سمائه وأرضه ؛ وهى ضروب من الكوزموغرافيا فريدة فى نوعها . وقد أفردت للجغرافيا مكانة بارزة فى الموسوعات التى صنفت بمصر أيام المماليك بحيث تركت أحياناً أثرها على الكتاب بأجمعه . بهذا ينتهى الطور الخلاق فى الأدب الجغرافى العربى الذى أصابه العقم بعد ذلك فلم ينتج أى صور جديدة بل اكتفى بتقليد الأنماط السابقة فيما عدا بعض التعديلات فى مضمونها ليتفق مع مقتضيات كل عصر. ورغم هذا فإنه لم يتضاءل من ناحية الكم حتى فى عهد السيادة التركية على البلاد العربية .

لقد قدر العلم الأوروبى منذ البداية ميزات الأدب الجغرافى العربى ؛ وإذا ما حدث وأن وُجِّه إلى المستعربين — شأنهم فى هذا شأن جميع المتخصصين — تهمة التحيز لموضوع دراستهم ، فإنه لمن الدلالة الخاصة فى هذا الصدد | مقارنة موقف الغربيين من المؤرخين العرب ، الذين كانوا فى كثير من **20** الأحايين جغرافيين أيضاً . فمنذ بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أى عندما كان ذلك الأدب أبعد من أن يكون معروفاً فى حجمه الحالى ، كتب مؤرخ الحروب الصليبية پروتز (Prutz) يقول : « ليس فى وسع الأدب الأوروبى لذلك العهد أن يقدم مثالا يفْضُل مؤلفاتهم ، ويكفى فى هذا الشأن تصفح ما خلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فن التاريخ فى أوروبا ليبدو لأول وهلة ودون تردد أين يكمن الفهم والإحساس التاريخى والوعى السياسى والذوق فى الشكل والفن فى العرض»[٩] .

وسننتهى إلى نتيجة ليست بأقل طرافة من هذه إذا ما قارنا مجهود العرب فى مجال الجغرافيا العلمية بما خلفه السريان السابقون لهم والذين أقاموا أحياناً فى نفس المناطق التى احتلها العرب فيما بعد . فهؤلاء أيضاً قد نشأت الجغرافيا عندهم معتمدة على أساس المصنفات اليونانية التى عرفوها فى عهد مبكر ، وبارديصان[١٠] المتوفى حوالى عام ٢٢٢ من الميلاد يتحدث عن تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ، كما تمت حوالى عام ٥٥٥ م ترجمة كتاب بطلميوس المعروف باسم «اسكاريفوس تيس أويكومينيس» (Σκάριφος τῆς οἰκουμενής) الذى ربما لم يخل من تأثير على العرب . وقد أضيف إليه ذيل هام ولكن التطور لم يتعد ذلك[١١] . بل إن أكبر كمية من المعلومات فى الجغرافيا الفلكية للعهد السابق للعرب والتى حفظها لنا فى القرن السابع يعقوب الرهاوى[١٢] فى مصنفه « هيكسامرون » Hexameron تكاد تعتمد أساساً على بطلميوس وذلك إلى جانب الثقة المطلقة فى النظريات العلمية

اليونانية ؛ ومن الغريب أن هذا المؤلف قد اعتمد على المصادر اليونانية حتى فيما يتعلق بسوريا وبموطنه أرض الجزيرة الأمر الذى اضطر بحاثة قام بدراسة مصنفه من وجهة النظر الجغرافية الصرفة إلى الاعتراف فى خاتمة بحثه بأنه « من العبث البحث فى مصنفه عما من شأنه الإسهام فى تاريخ علم الجغرافيا » . وقد أثبت أحد المتخصصين فى الدراسات السريانية ، وذلك فى بحث له عن نشأة الأدب الجغرافى بين ظهرانيهم ، أنه من العسير القول بوجود مصنفات ذات أهمية فى وصف البلدان والشعوب لدى السريان[١٣] . وفى الواقع أن اللغة السريانية لم تحفظ لنا أى مصنف كبير فى الجغرافيا ، هذا إذا أشحنا النظر عن كتاب « اسكاريفوس » الذى مر ذكره آنفاً وعن بعض المعلومات المتعلقة بتحديد الموقع الفلكى لمواضع مختلفة بهدف وضع مصور جغرافى . إن الجغرافيين العرب وحدهم هم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التى أورثها اليونان للعصور الوسطى . وليس أقل مغزى من هذا أنه لم يصلنا عن العهد السابق للمصنفات الجغرافية العربية وصف واحد لرحلة ما باللغة السريانية بالرغم من أن محيط أسفارهم قد شمل القسطنطينية وبيت المقدس والإسكندرية[١٤] . أما المصنفات السريانية المتأخرة فى الجغرافيا فقد اعتمدت اعتماداً تاماً على العلم العربى ويمكن أن تمثل بعض الأهمية كجزء متمم له وذلك فى تحليل فترات معينة من تاريخه[١٥] .

21

ويمكن القول بأنه قد وضح حالياً لدى العلماء الأوروبيين بجلاء أن الأهمية الأساسية للأدب الجغرافى العربى تستند على ما أسهم به من مادة جغرافية جديدة لا على النظريات التى اعتنقها . ويجب منذ البداية ملاحظة الاتساع الهائل فى مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم ، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها ، وعرفوا النصف الجنوبى من آسيا كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالا وساحل أفريقيا الشرقى إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدى[١٦] . وترك لنا العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان من أسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة والصحارى وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضاً الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان . ومعرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة ، كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما عرف العرب طريق اليابس الذى يرتفع إلى أعالى نهر ارتيش ونهر ينسى ، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالا . ولايزال موضع شك معرفتهم المباشرة باليابان ولو أن ذكرها ظهر فى الآونة الأخيرة على مصور جغرافى وضعه لغوى تركي ببغداد في القرن الحادي عشر ، ومن المحتمل أنه قد حصل على معلومات بشأنها

فى آسيا الوسطى التى عرفها جيداً ؛ أما عن طريق البحر فمن الثابت أن العرب لم يبلغوا اليابان .

وفيما يتعلق بأفريقيا فإن أول مرة يظفر فيها جوف أفريقيا بوصف مفصل كان ذلك فى مؤلفاتهم ؛ وقد استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل فى هذا الصدد لحين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر . هذا وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أهمية المعلومات التى جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو واسكنديناوه وجنوب شرقى أوروبا .

والعيب الأساسى للأدب الجغرافى العربى هو فى خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها بل وحتى إلى صرف النظر عنها ؛ أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية . فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك فى النصف الشمالى منها وهو ما عرف باسم « الربع المعمور » ؛ كما اعتنقوا الرأى القائل باستحالة الحياة فى البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة[١٧] . وإذا كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة[١٨] لهذه النظرية 22 الأخيرة له ما يبرره فى عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيداً تلك الجهات من أفريقيا مثل زنزبار ومدغشقر حيث رأوا رأى العين عدداً من المراكز المأهولة ؛ وبالرغم من هذا فقد استمرت هذه النظرية العقيمة عائشة بين ظهرانيهم دون ما أدنى تعديل . وهذا الإصرار نفسه قد ظهر بوضوح فى تمسكهم بالرأى القائل بوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق[١٩]، بالرغم من أن هذه الفكرة تتعارض تعارضاً تاماً مع ما شاهدوه من واقع الأحوال[٢٠] . وتحت تأثير الأفكار المسيحية الأولى لم يكن من النادر أن تقابلنا لديهم الفكرة القائلة بأن الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس على الرغم من أنه كثيراً ماكانت هذه الأنهار معروفة لديهم من منبعها إلى مصبها تقريباً[٢١] .

وثمت تأثير عاق تقدم العلوم لوقت ما كان نظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، وهى أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال فى موازاة خط الاستواء ومبتدئه منه على وجه التقريب[٢٢] . هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبى للنهار والليل أوميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية « كليما » Klima وجمعها « كليماتا » Kimata) ؛ وكانت عروض الأقاليم تتفاوت بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر[٢٣]. هذا وقد اكتسبت نظرية « الأقاليم » انتشاراً واسعاً سواء فى الشرق العربى أو أوروبا الوسيطة ، غير أن الوحدة التامة فى التقسيم لم تُراع ، كما وأن التباين فى عروض الأقاليم بلغ حداً ملحوظاً نتيجة لعدم الاتفاق حول درجات العرض الفاصلة بين كل إقليم والذى يليه[٢٤] . هـــذا البون الشاسع بين النظرية والواقع قد ترك أثره فى الكارتوغرافيا العربية أيضاً ، فهى وإن تمكنت فى القرن العاشر ، أى عصر ازدهار علم الجغرافيا ،

من أن تبرز إلى الوجود «أطلس الإسلام» الطريف المنظم ، إلا أنها عجزت بالتالى عن إنتاج ما يشبهه ولو على شكل مصورات جغرافية منفردة ، بحيث لم يجد اتساع أفق المعلومات الجغرافية إنعكاساً كافياً فى المصورات الجغرافية المتأخرة التى كانت مجرد تقليد للنماذج السابقة بل وأحياناً تكراراً حرفياً لها . ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الكارتوغرافيا لم تتمتع بالكثير من الأصالة حتى فى أوروبا الوسيطة ولم يجر أى تصحيح فى المصورات الجغرافية لتتفق مع المعلومات المعاصرة لها(٢٥) .

وبالطبع لم يكن بمستطاع الأدب الجغرافى التخلص من العيوب المعهودة فى الأدب العربى بأجمعه ، فنبصر فيه النزعة إلى الوصف الجامع الشامل بدلا من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة ؛ أضف إلى هذا أن المنهج النقدى لم يطبق دائماً على المصادر المكتوبة التى أفاد منها المؤلفون . هذا وقد غلب على الأدب العربى موقف معين من الإنتاج الأدبى للسلف يتفق أحياناً مع الفكرة المعاصرة للسرقة الأدبية (Plagiarism) . وإذا حدث وأن التقينا فى عهد ازدهار الأدب الجغرافى فى القرن العاشر بعدد من العلماء الباحثين ممن بلغوا مرتبة عالية فى نقد مصادرهم بتطبيق مناهج فى البحث ذات قيمة علمية حتى فى أيامنا هذه ، فإنه قد تلاهم صنف آخر من العلماء شغل نفسه بنقل روايات المؤلفين المتقدمين دون الإشارة إلى أنها ترجع إلى عصر سابق لعصرهم بكثير . وقد ساق هذا عدداً من البحاثة المعاصرين إلى الخطأ . ولم يكن الدافع إلى هذا مبنياً على سوء النية ، ولو أن هذا العامل قد وجد أحياناً ؛ ذلك أن هذه الظاهرة قد شملت جميع ميادين الأدب ونشأت على وجه التقريب منذ بداية التأليف عند العرب . وقد أكد الجغرافى المقدسى (القرن العاشر) ولو بشىء من المبالغة ، وذلك فى ملاحظاته النقدية عن السابقين له فى مضمار الجغرافيا ، أن كتاب الجيهانى يضم بين دفتيه كتاب ابن خرداذبه وأن ابن الفقيه لا يختلف فى شىء عن الجاحظ(٢٦) وفيما بعد أصبح تضمين مصنفات الغير أو تضمين قطع منها فى صلب المصنف قاعدة عامة . وفى الأحوال التى يورد فيها المؤلفون أسماء مصادرهم فإن هذا العيب يصبح فضيلة ، فكثيراً ما حفظت لنا نتيجة لذلك شذور ومقتطفات من مصنفات فقدت تماماً بالنسبة لنا ؛ ويكفى فى هذا الصدد أن نشير إلى رحلة ابن فضلان التى اعتمد جميع من تفرغوا لدراستها حتى الآونة الأخيرة على المقتطفات التى حفظها لنا ياقوت فى « معجم البلدان » الذى تم تأليفه بعد رحلة ابن فضلان بثلاثة قرون. ومن المؤسف أن طريقة إيراد المصادر لم تكن الغالبة فأحياناً قد يورد المؤلف فى بداية مصنفه ثبتاً بأسماء المراجع التى أفاد منها دون أن يعنى فى صلب الكتاب بالتمييز بين ما أخذه من غيره وما جمعه هو بنفسه أو يشير إلى أن بعض مادته يرجع إلى أزمنة سالفة . ويحتاج البحاثة إلى إعمال الحذر حتى لا يأخذ هذه التضمينات على أنها ألفاظ المؤلف نفسه أو أنها ترجع إلى العصر الذى عاش فيه(٢٨) .

وإذا حاولنا حصر مزايا الأدب الجغرافى العربى وعيوبه فإنه يجب الاعتراف على أية حال

بأهميته العلمية القصوى والتنوع الكبير فى فنونه وأنماطه . ففيه تقابلنا الرسالة العلمية فى الفلك والرياضيات ، كما تقابلنا الكتب العملية التى وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين . وهو يقدم متعة ذهنية كبرى إذ نلتقى فيه بنماذج أدبية فنية | رائعة ، صيغت بالسجع أحياناً . 24 والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى ؛ وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم فى فن القصص . ولقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمى وتارة شعبى ، وهو طوراً واقعى وأسطورى على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة — لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب . وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أن مادة الأدب الجغرافى العربى أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى فى أيامنا هذه ؛ بل الواقع أنها أخذت الآن فقط تدخل بعض الشىء فى نطاق البحث العلمى المعاصر بصورة أوسع .

٢ — تاريخ دراسة الموضوع . المؤلفات ذات الطابع العام . هدف هذا الكتاب

مرت معرفة العلم الأوروبى بالجغرافيا العربية على أطوار مختلفة وبدرجات سرعة متفاوتة وخضعت لتغيرات وفقاً للمستوى العام للثقافة ولحالة الاستعراب . وهنا أيضاً اختلف مصير كل من الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الوصفية . فمنذ القرن الحادى عشر بدأت فى أسبانيا ترجمة المصنفات العربية فى الفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية ، وسرعان ما أصبحت أسماء الغوريثمى Algorithmi (أى الخوارزمى) والفراغانوس Alfraganus (أى الفرغانى) والباتغنيوس Albategnius (أى البتانى) معروفة لدى الجميع ، بل واشتهرت بهذه الصيغ أكثر مما بأسمائها الشرقية الأصلية . وقد أثبت البحث المعاصر أن هذه الترجمات ليست فى مستوى يتفق ومطالب العلم الحديث ولكنها على أية حال قد ساعدت على تطور العلم فى أوروبا الوسيطة ، وهى المسئولة عن تثبيت الشكل اللاتينى للمصطلحات العلمية العربية التى وجدت طريقها إلى عدد من العلوم ولازالت مستعملة إلى الآن . وهذه الترجمات لم يكن بوسعها بالطبع إعطاء فكرة عن تطور العلم عند العرب كما لم تقدم صورة تامة عن مجهودات كل عالم فى محيط علمه . ذلك أن الاهتمام بمثل هذه المسائل لم يكن قد نشأ بعد ، فضلا عن أن البحث فيها لا يتأتى إلا بالتعرف على الأصول العربية نفسها . ومهما يكن من شىء فإن أوروبا قد تعرفت بفضل هذه الترجمات على الجغرافيا الفلكية عند العرب قبل زمن طويل من نشأة علم الاستعراب . والتأثير المباشر لمثل هذه المصنفات على تطور العلم الأوروبى قد بدأ مبكراً جداً ، وهو الآن أمر مؤكد متفق عليه من الجميع .

غير أن الأمر جد مختلف فيما يتعلق بالجغرافيا الوصفية ، فأوروبا المسيحية قد ترجمت عن طيب خاطر مؤلفات العرب فى الرياضيات والفلك والكيمياء إلى اللغة اللاتينية ، إلا أن الاهتمام بالجغرافيا أو التاريخ كما هو الحال أيضاً مع الأدب فى المدلول الخاص لهذا اللفظ قد انعدم تماماً [٢٨] . وحتى الآن لم يعثر على أى أثر لترجمات لمصنفات الجغرافيين والرحالة العرب فى الفترة الأولى من القرون الوسطى الأوروبية ، ويبدو أنه لم تمكن هناك معرفة مباشرة بهم بعكس الحال مع الفلكيين[٢٩]. إلا أن هذا لا يعنى أن موضوعات منفصلة ، خاصة من محيط القصص والجغرافيا الأسطورية لم تجد طريقها من العرب إلى أوروبا ؛ ويكفى فى هذا الصدد أن نتذكر حكاية أسفار القديس براندان Brandan التى تضم بين دفتيها كمية وافرة من العناصر الشرقية[٣٠] . وواحدة من الحالات النادرة التى أثرت فيها النظريات الجغرافية العربية تأثيراً مباشراً على التفكير الأوربى فى العصور الوسطى تمس محيط الكارتوغرافيا أكثر من غيره ؛ فمارينو سانودو Marino Sanudo ، وهو إحدى الشخصيات الأوروبية النشطة فى بداية القرن الرابع عشر ، قد زود مصنفه «كتاب الأرض المقدسة» Opus Terrae Sanctae (١٣٢١) بخارطة للعالم لتوضيح فكرته المبتكرة التى ترمى إلى محاصرة العالم الإسلامى حصاراً اقتصادياً[٣١] . وهذه الخارطة على هيئة دائرة مركزها أورشليم ومبين عليها بوضوح بحران كبيران متصلان بالبحر المحيط ، كما يظهر عليها ساحل أفريقيا ممتداً امتداداً بعيداً نحو الشرق[٣٢] . فهى إذن تكرار لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم فى «أطلس الإسلام» ، مع اختلاف بسيط هو أن مركز الأخير ليس أورشليم بل مكة بالطبع . ومثل هذا الاتفاق أبعد من أن يكون من عمل الصدفة ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن اهتمام سانودو بالشرق يجيز احتمال معرفته بالمصادر العربية . وعلى أى فهذه الحالة فريدة فى نوعها وتقف بمفردها دليلا على فقدان الاهتمام فى أوروبا بالجغرافيا الوصفية عند العرب عامة .

ولما بدأ العلم الأوروبى اتصاله المباشر بالأصول العربية أخذ الاهتمام بالجغرافيا الوصفية يعادل الاهتمام بالجغرافيا الفلكية . وكان بوستل Postell[٣٣] أول مستشرق يجتذبه الجغرافى العربى أبو الفدا ؛ كما أن أول ذكر لياقوت يرد فى محاضرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٧٠٢ ليعقوب جيونوفيس Jacobus Gionovius[٣٤] . وفى عام ١٥٩٢ طبع بمطبعة المديتشى Medici المشهورة أول نص فى الجغرافيا الوصفية ، وهو كتاب اكتسب بالتالى صيتاً عريضاً أعنى بذلك مصنف الجغرافى العربى المغربى المشهور الشريف الإدريسى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . وقد جانب التوفيق الناشر حين أعطى الكتاب عنواناً مضللا هو «جغرافيا النوبى» Geographia Nubiensis* ، مما ساق بالتالى إلى غير

---

* أعتقد أن ألفاظ المؤلف هنا قد تسوق إلى اللبس إذ يفهم منها أن هذا العنوان الخاطىء للكتاب تحمله طبعة عام ١٥٩٢ لا ترجمة عام ١٦١٩ . راجع على أية حال كلامه عن الإدريسى فى الفصل العاشر . (المترجم)

قليل من اللبس . هذه الطبعة التى تلتها الترجمة اللاتينية فى عام ١٦١٩ كانت أعجز من أن تلبى مطالب المنهج العلمى الحديث ، غير أن صعوبة هذه المهمة ترجع بلاشك إلى أننا لا نمتلك إلى الآن طبعة علمية كاملة لكتاب الإدريسى . وقد حالف التوفيق بصورة أكبر طبع أول كتاب فى الجغرافيا الفلكية وقد اضطلع بهذه المهمة العالم الهولندى الشهير | للقرن السابع عشر ياكوب غوليس Jacob Golius (١٥٩٦ — 26 ١٦٦٧) ؛ فالطبعة التى قام بتحضيرها للجداول الفلكية للفرغانى (القرن التاسع) ، المشهور فى أوروبا الوسيطة باسم الفرغانوس Alfragnus ، ظهرت مع ترجمتها اللاتينية فى عام ١٦٦٩ أى بعد وفاته ، وكانت بحق فاتحة عهد جديد فى هذا الباب . وبهذا وضعت أول لبنة فى أساس دراسة الأدب الجغرافى اعتماداً على مصادره الأصلية ؛ وقد سار التقدم بصورة بطيئة ، ففى القرن الثامن عشر بأجمعه لم يتعرف العلم الأوروبى إلا على ثلاثة مؤلفين فقط من رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، اثنان منهم وهما أبو الفدا (توفى عام ١٣٣١) وابن الوردى (توفى عام ١٤٤٦) اهتما بالجغرافيا العامة ، أما الثالث وهو عبد اللطيف البغدادى (توفى عام ١٢٣١) فقد اشتهر بوصفه لمصر . وقد استمرت المعرفة فى النمو بفضل ظهور المقتطفات والترجمات التى لا يمكن اعتبارها رغماً عن ذلك علمية بشكل كاف .

وفى بداية القرن التاسع عشر ظهر بحثان ممتازان فى دراسة الأدب الجغرافى لا يزالا إلى اليوم محتفظين بقيمتهما ، أحدهما ترجمة وصف مصر لعبد اللطيف البغدادى الذى مر ذكره التو ؛ وهى من عمل المستشرق الفرنسى الكبير سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy (١٨١٠) ، والآخر ترجمة المستشرق الروسى فرين Frähn لرسالة ابن فضلان (١٨٢٣) . وكلا البحثين يمكن اعتبارهما حجر زاوية فى بداية الدراسة العلمية للأدب الجغرافى العربى . وعند منتصف القرن التاسع عشر اشتدت الحاجة إلى مصنف عام يجمع شتات ما عرف حتى تلك اللحظة ، لذا فقد نال أهمية غير عادية كتاب رينو Reinaud (١٨٤٨) الذى أراد به فى الأصل وضع مقدمة لطبعة علمية تامة لجغرافيا ابى الفدا ، ولكن البحث ما لبث أن استفاض وتجاوز حدود موضوعه واتخذ صورة عرض عام مستقل لتطور العلم والأدب الجغرافى فى اللغات الثلاث الرئيسية للشرق الإسلامى . ويمثل الكتاب سفراً فى أكثر من أربعمائة وخمسين صفحة يتضح من خلالها معرفة المؤلف الجيدة بالجغرافيا الوصفية والفلكية ؛ ويستند المصنف على عدد من الأبحاث السابقة المستقلة للمؤلف نفسه ؛ وقد كتب بأسلوب شيق جذاب . وهو يمثل خطوة كبرى فى دراسة الموضوع ولم يأخذ مكانه إلى الآن مصنف من نوعه .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحقق فى لحظة واحدة تقريباً مشروعان ضخمان أصبحا بالتالى قاعدة متينة لدراسة الأدب الجغرافى العربى اعتماداً على أشهر مؤلفيه بين القرنين العاشر والثالث عشر . فبين عامى ١٨٦٦ و١٨٧٦ نشر فستنفلد Wüstenfeld المعجم الجغرافى لياقوت فى

ستة أجزاء ؛ وهو أهم مرجع جغرافى يتجه إليه البحاثة إلى أيامنا هذه ونموذج لما يجب أن يكون عليه أدب النقل (Compilation) فى أدق معانيه . وفى ذات الوقت على وجه التقريب وذلك فى سنة ١٨٧٠ بدأ العلامة الهولندى دى خويه De Goeje تنفيذ فكرته بنشر سلسلة « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum التى اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن فى عام ١٨٩٤ ، وهى تتكون من تسع مجلدات كانت بالنسبة لعصرها أنموذجاً للنشر العلمى ، وتضم فى صفحاتها مصنفات مؤلفى عهد ازدهار الأدب الجغرافى العربى فى القرنين التاسع والعاشر[٣٥] .

27

هذا المجهود الذى قام به ڤستنفلد ودى خويه لم يستنفد بالطبع الذخيرة الأساسية للمصنفات الجغرافية العربية ولكنه كفل للدارسين إمكانية الدراسة المنهجية المنظمة للآثار الأخرى التى لم تكن قد نشرت بعد ، وقدم مادة ضخمة لمختلف الأبحاث الجغرافية . وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ظهر أسلوب جديد فى دراسة المادة الجغرافية العربية يهتم بجمع المادة المتعلقة بكل قطر ودراستها دراسة نقدية . وبعض هذه الدراسات تجاوز أحياناً نطاق جزء واحد (مثل مؤلف أمارى Amari عن صقلية ومدنيكوف Mednikov عن فلسطين وزايبل Seippel عن النورمان وفيران Ferrand عن الشرق الأقصى الخ) . أما الحديث عن الدراسات الضخمة والمؤلفات الكبرى التى ظهرت فى نصف القرن الأخير ، بل فى العشرة أعوام الأخيرة ، فيمكن أن يكون موضوع دراسة خاصة قائمة بذاتها . وفى متناول أيدينا الآن ترجمات علمية مثالية ودراسات عن المؤلفين المختلفين أو لقطع من مصنفاتهم ، مثل أبحاث توليو Tuulio عن الإدريسى (١٩٣٠) أو مينورسكى Minorsky عن النص الفارسى المجهول المؤلف (١٩٢٧) . وفى متناول أيدينا كذلك دراسات جدية لمختلف الموضوعات مثل أبحاث مجيك Mzik عن دور بطلميوس فى الجغرافيا العربية (١٩١٥) أو هونغمان Honigmann عن نظرية الأقاليم السبعة (١٩٢٩) . وقد اتسع المجال بشكل خاص للأبحاث فى تاريخ الحضارة المرتكزة أساساً على مادة جغرافية ، مثال ذلك مجموعة من الدراسات التحليلية الدقيقة لياكوب Jacob (١٨٨٦ وما بعدها) . كما وجدت قاعدة رصينة لدراسة تاريخ الكارتوغرافيا العربية منذ مؤلفات ليليول Lelewel (١٨٥٠ وما بعدها) ، ولم تلبث هذه الدراسة أن اكتملت وشملت جميع المادة التى أمكن العثور عليها وذلك فى الطبعات الكبرى لميلر K. Miller (١٩٢٦ وما بعدها) ويوسف كمال (١٩٣٠ وما بعدها) . هذا وقد تابعت الدراسة سيرها قدماً فأصبحت المناهج أكثر دقة وارتفع المستوى المطلوب . وفى الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إلى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » مع الاستفادة من المادة التى تجمعت منذ ظهور الطبعة الأولى والعمل أيضاً على استيفاء المطالب العلمية المعاصرة ؛

هذه المادة الغنية الحافلة فى مصادرها وفى الأبحاث التى كتبت فيها ، والتى تجمعت خلال نصف

القرن الأخير ، تطلبت وضع مؤلفات ومراجع مما يحتاج إليه المبتدئون كما يحتاج إليه المتخصصون فى الفروع الأخرى للعلوم الذين يحتاجون إلى استقاء المادة اللازمة لهم من المصادر العربية . ولكن إذا كان الوضع لا بأس به كما رأينا فيما يتصل بالمصادر العامة فإنه لم يظهر مع الأسف منذ عهد رينو مؤلف عام يستعرض تطور الجغرافيا عند العرب ويقوم بحاجة المستعربين وغير المستعربين . والمؤلفات العامة الموجودة بين أيدينا تمثل فى العادة ملخصات قصيرة أو مقالات تتوزعها الدوريات الجغرافية ، الغرض منها إبراز الخطوط العريضة لتطور الأدب الجغرافى مع الوقوف عند بعض المؤلفين . ويجب اعتبار تلك التى ظهرت فى القرن التاسع عشر قد بليت وذلك نتيجة لظهور مواد جديدة .

وفى عام ١٨٤٢ حاول ڤستنفلد وضع موجز ببليوغرافى للأدب الجغرافى العربى معتمداً فى ذلك اعتماداً كلياً | على مؤلف القرن السابع عشر حاجى خليفة ، فأورد أسماء مائة وستة وعشرين مؤلفاً وهو رقم لا يمكن 29 اعتباره فى الآونة الحاضرة وافياً بالغرض . وقد فقد كتاب ڤستنفلد هذا قيمته العلمية قبل وقت طويل من كتابه الآخر فى أدب التاريخ عند العرب الذى فرغ من تأليفه فى أواخر أيام حياته العلمية (١٨٨٢) . وبعد نحو عشرة أعوام من ظهور كتاب رينو ظهر فى عام ١٨٥٨ بحث بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافى عند الشعوب الإسلامية » Udsigt over de islamiske folks geographiske Kundskaber للعلامة الدنماركى ميرن Mehren الذى اشتهر فيما بعد كناشر ومترجم لكتاب الدمشقى فى الكوزموغرافيا ولمؤلفات ابن سينا . ونظراً لأن البحث قد كتب باللغة الدنماركية وظهر فى صحيفة علمية محدودة الانتشار فقد ظل مجهولا من القراء ؛ وهو أمر يؤسف له حقاً إذ أنه لم يخل فى الكثير من الأحيان من بعض الأهمية ولايزال ذا فائدة فى بعض النواحى إلى أيامنا هذه رغماً من أنه يدين بالكثير لرينو . ويشمل ثبت أسماء الجغرافيين العرب الموجود فى بداية البحث على أربعين اسما فقط ، غير أن المؤلف يقدم تفاصيل وافية عنهم معتمداً فى ذلك على المصادر الأصلية . وفى القسم الثانى من بحثه يعرض لتصورات العرب عن العالم ، وبالرغم من أن هذا القسم يدين بالكثير لكتاب رينو أيضاً إلا أنه يمتاز بعرض موجز بديع لنظرية شكل الأرض وتقسيمها الرياضى وحساب خط نصف النهار وتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم الخ . وفى القسم الثالث يوضح نظرية العرب فى تقسيم البحار على الأرض ؛ أما الفصل الأخير وهو بعنوان « أرض الورنك* كما عرفها العرب » فلايزال محتفظاً ببعض أهميته إلى أيامنا هذه .

ولم تكن محاولات وضع عرض عام للأدب الجغرافى العربى وقفاً على المستعربين اللغويين وحدهم بل أدلى فيه بدلائهم كذلك مؤرخو علم الجغرافيا . فالعالم الفرنسى المشهور لعهده ڤيڤيان دى سان مارتان Vivien de Saint Martin نشر فى عام ١٨٦٧ مقالا عن جغرافيا العصور الوسطى فى المشرق من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر وذلك ضمن تاريخه العام للجغرافيا ، وهو مشروع لم يكتب

* الورنك أو الوارياغ هم أهل الشمال « النورمان » . (المترجم)

له أن يتممه بالتالى . وقد استطاع هذا العالم أن يلقى فى تسعة فصول نظرة عاجلة إلى الأدب الجغرافى العربى الوصفى والفلكى على السواء ؛ وهذا المقال وإن تقادم عليه العهد فإنه يمثل بعض[1] الطرافة لأنه يحوى رأى عالم جغرافى كبير فى قيمة العلم العربى . وفى السبعينيات من القرن الماضى عندما بدأ دى خويه فى نشر « مكتبة الجغرافيين العرب » دبج مقالا فى الجغرافيا عند العرب ظهر بالمجلة الجغرافية الهولندية وكان موجهاً إلى القارئ العام (١٨٧٤) ؛ ولم يكتف دى خويه فى مقاله هذا بمعالجة الجغرافيا الفلكية بل أفرد نبذاً قصيرة للكلام على نحو عشرين من ممثلى الجغرافيا الوصفية إلى عهد أبى الفدا ؛ وهو يفصل بعض الشىء فى كلامه عن المقدسى ويلقى ضوءاً على دور المؤرخين فى تطوير الجغرافيا . ولنفس الأسباب التى أحاطت ببحث ميرن فإنه لم يتعرف على مقال دى خويه إلا عدد محدود من الناس بحيث أصبح الآن نسياً منسياً . وفى مؤلف كريمر Kremer « التاريخ الحضارى للشرق » Culturgeschichte des Orients ظفر الفصل الذى أفرده للجغرافيين بشهرة كبيرة ، شأنه فى هذا شأن بقية الكتاب (١٨٧٧)[٣٦] . وهو ككل كتابه قد صيغ أيضاً فى أسلوب يتميز بالكثير من الحيوية والمهارة وظل إلى بداية القرن العشرين خير عرض للموضوع من أجل القارئ العام غير المتخصص . وثمة عرض آخر يمتاز بالفائدة والوضوح وهو مقال دڤيك Devic (١٨٨٢) الذى يعتبر خبيراً بالأدب الجغرافى خاصة فيما يتعلق بشرق أفريقيا . وهو يورد ذكر ستة وثلاثين مؤلفاً مع نبذ صغيرة عنهم وبضع مقتطفات من مصنفات فجر الأدب الجغرافى . وكمدخل عام للموضوع فإن هذا المقال يمكن أن يمثل بعض الأهمية حتى فى الوقت الحاضر .

وفى السنوات التسعينات وذلك بمناسبة الانتهاء من طبع سلسلة « مكتبة الجغرفيين العرب » ظهرت بضع دراسات مفيدة عن فجر الأدب الجغرافى يجدر بنا أن نميز من بينها خاصة اثنتين ، إحداهما لنالينو (١٨٩٤) والأخرى لشڤارتز Schwartz[٣٧] (١٨٩٧) . فالأولى مستهلة بملاحظات للجغرافى الإيطالى الشهير جيدو كورا Guido Cora يعبر فيها عن ضرورة ترجمة مصنفات هذه السلسلة ويرجو أن تتحقق هذه الأمنية يوما ما ؛ وفى الواقع أن تنفيذ ذلك المشروع لم يبدأ إلا فى الآونة الأخيرة . ثم يقدم لنا نالينو خلاصة وافية لجميع أجزاء السلسلة مع تراجم المؤلفين ويشفع ذلك بثبت حافل للمراجع . أما شڤارتز فإنه يبدى ملاحظات ذات طابع عام عن المؤلفين الذين تضمنتهم السلسلة ويفصل الكلام بشكل خاص على ابن خرداذبه والمقدسى أكثر مما يفعل مع الإصطخرى .

هذا وقد اضطرد نمو المادة وتطور العلم فى نصف القرن الأخير بسرعة هائلة مما دعى إلى اعتبار جميع الملخصات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر غير وافية بالغرض حتى ولو سطرتها أقلام علماء كبار ؛ وهى تمثل الآن خطوة ليس إلا فى دراسة الموضوع . وفيما عدا ذلك فلا أهمية لها البتة باستثناء أقسام معينة منها ، بحيث يضحى من الأفضل أن يبدأ الدارس بالمؤلفات التى ظهرت فى العشرينيات

والثلاثينيات من هذا القرن والتى تأخذ فى حسابها المادة التى ظهرت فى الآونة الأخيرة . وعدد هذه الملخصات كبير وهى أحياناً يكمل بعضها البعض بصورة مرضية .

وقد أفرد المستعرب وعالم الرياضيات الفرنسى كارّا دى ڤو Carra de Vaux مائة صفحة للجغرافيين والرحالة العرب ، وذلك فى الجزء الثانى من مؤلفه الذائع الصيت « مفكرو الإسلام » Les Penseurs de l'Islam الذى يقع فى خمسة أجزاء (١٩٢١)[٣٨] . ولم يكن من هدف المؤلف جمع عدد هائل من الأسماء أو استيفاء جميع المراجع لذا فقد انتقى نحواً من خمسين شخصية لامعة وترجم لها ووصف اتجاهاتها العلمية . وتتركز الميزة الكبرى للمؤلف فى معرفته الجيدة بالعلوم الدقيقة عند العرب ، ومن ثم فهو يولى عناية خاصة للجغرافيا الفلكية . وهو يستعمل ببراعة الاقتباسات من المصادر العربية ويسوق عرضه بمهارة فائقة رغما من بضعة أخطاء فى التفاصيل أحياناً . كذلك لا يفتقر إلى الطرافة مقال العالم الهولندى كرامرس Kramers « الجغرافيا والتجارة » Geography and Commerce الذى ظهر فى الكتاب الجماعى « تراث الإسلام » Legacy of Islam المطبوع بأكسفورد (١٩٣١)[٣٩]. وكرامرس من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية واشتغل كثيراً بدراسة المصادر العربية ؛ وقد حالفه التوفيق فقدم صورة | متكاملة الجوانب لدور الجغرافيا فى التطور الثقافى للحضارة العربية وارتباطها 31 بالتوسع الاقتصادى للخلافة الإسلامية ؛ وهو مقال رصين يمكن الاعتماد عليه فى سد النقص البين الذى يعانى منه عرض كارا دى ڤو . وتتمتع بنفس الدرجة من الطرافة محاضرة لكرامرس بعنوان « الأدب الجغرافى الإسلامى كظاهرة حضارية » Die Muhammedanische geographische Literatur als Kulturerscheinung ، وهى معروفة إلى يومنا هذا مع الأسف فى ملخص شديد الإيجاز (١٩٣٤)[٤٠] .

وثمة مقالان آخران يحملان طابعاً عاماً ولكن يتميزان بإيراد تفاصيل عديدة سواء عن المؤلفين أو عن مسائل منفردة . أحدهما بقلم رسكا Ruska (١٩٢٧) المعروف بأبحاثه فى تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب ؛ وكان الهدف الأول من مقاله هو الاستدراك على مقال شڤارتز بأن يأخذ فى حسابه تطور العلم فى الثلاثين عاماً التى مرت على تاريخ ظهور الأخير ، ولكن ما لبث أن اتسع به الموضوع فخرج عن حدوده بشكل ملحوظ وتحول إلى عرض عام لتطور الجغرافيا عند العرب . كذلك أفرد اهتماماً كبيراً فيه لدور الشعوب المختلفة فى بناء الحضارة العربية ولنشأة الجغرافيا على ضوء هذا ، وذلك فى اتجاهيها الفلكى والوصفى . وينصب القسم الأساسى للمقال على الجغرافيا الوصفية والرحلات بشكل خاص مع إفراد نبذ قصيرة لما يقرب من أربعين مؤلفاً ، غالباً ما صحبها عرض لمحتويات كتبهم . وكان رسكا جد مصيب حين ضم إلى عرضه أسماء بعض العلماء الذين كتبوا بالفارسية وكانت لهم صلة مباشرة بالجغرافيا العربية[٤١] . أما المقال الثانى فهو لكرامرس الذى مر ذكره وقد ظهر فى « ذيل دائرة المعارف الإسلامية » Supplement to the Encylopaedia of Islam (١٩٣٤ — ١٩٣٦)[٤٢] : وهو إلى جانب عرضه

للاتجاهات الرئيسية فى علم الجغرافيا العربية يورد تعداداً منظما لأشهر الجغرافيين والرحالة فى اللغات العربية والفارسية والتركية مع الإشارة إلى المراجع ؛ وقد أبرز بمهارة فائقة الخطوط المميزة والصفات الجوهرية للأدب الجغرافى فى الإسلام . غير أن مقاله كما هو الشأن مع جميع مواد دوائر المعارف مقتضب للغاية ولكنه يصلح كمدخل جيد لدراسة تلك المادة الضخمة ، كما وأن ثبت المراجع الموجود فى آخر المقال لما يعين على تلمس الطريق بين العدد الهائل من الدراسات حول هذا الموضوع . ويمثل مقال شوى Schoy ، وهو أحد المتخصصين فى العلوم الدقيقة ، تكملة مفيدة لمقالى روسكا وكراموس فى بعض النقاط ؛ وقد ظهر هذا المقال فى « المجلة الجغرافية » Geographical Review الأمريكية (١٩٢٤)[٤٣] وهو يفتقر على العموم إلى التناسق ؛ فالمؤلف يقف طويلا عند بعض مسائل الجغرافيا الفلكية خاصة تحديد العرب لأطوال وعروض الأماكن المختلفة .

وإذا كانت جميع هذه المقالات التى مر ذكرها تصلح مدخلا متيناً لدراسة الأدب الجغرافى العربى وتعطى صورة جلية عن اتجاهاته الرئيسية وعن كبار من صنفوا فيه إلا أن الأبحاث المفصلة العميقة عن المؤلفين ومصنفاتهم تقتضى الالتجاء إلى المراجع الضخمة التى لم يقصد بها المطالعة بل المراجعة . وأول ما ينصرف إليه الذهن فى هذا الصدد هو « تاريخ الإدب العربى » Geschichte der Arabischen Literatur المشهور لبروكلمان Brockelmann (١٨٩٨ — ١٩٠٢) الذى بفضل بقية أجزائه المتممة (١٩٣٦ — ١٩٣٩) يسوق جماع المادة إلى الآونة الحاضرة تقريباً ويقدم معيناً لا ينضب من المراجع عن جميع المؤلفين ذوى الصلة الوثيقة بالجغرافيا [٤٤] . وفى حالات معينة تمثل تكملة مفيدة لبروكلمان المواد المتعلقة بالجغرافيا فى « دائرة المعارف الإسلامية » Encylopaedia of Islam[٤٥] ، وفى « المدخل فى تاريخ العلم » Introduction to the Hitsory of Science لسارطون Sarton[٤٦] ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المرجع الأول ، أى « دائرة المعارف الإسلامية » ، بدأ فى الظهور منذ عام ١٩٠٨ لذا فإن مواد الحروف الأولى منه قد فقدت قيمتها أحياناً ولم تعد ذات نفع كبير فى الوقت الحاضر ، أضف إلى هذا أنها ليست متكافئة من حيث القيمة ولم تتعرض لتصحيح دقيق فى « ذيل دائرة المعارف الإسلامية »* . أما مؤلف سارطون الضخم (١٩٢٧ — ١٩٣١) فإنه يقف عند نهاية القرن الثالث عشر ولكنه يشمل أنشط الفترات وأكثرها ابتداعاً وإنتاجاً فى تاريخ الحضارة العربية . وهو كتاب كبير النفع فى توضيح ما بلغه العرب فى مختلف نواحى العلوم بما فى ذلك الجغرافيا ، وذلك فى نطاق الإطار العام لتطور العلوم عند جميع الشعوب .

32

* بدأت دار بريل Brill بليدن فى إخراج الطبعة الثانية المنقحة المعدلة من « دائرة المعارف الإسلامية » منذ عهد قصير ، وقد أعيدت صياغة عدد من المواد بما فى ذلك المواد المتصلة بالجغرافيا . هذا كما أن عدداً من مواد الطبعة الأولى قد نقح وزيد فى الترجمة التركية لدائرة المعارف الإسلامية التى لا تزال توالى الصدور على شكل ملزمات . (المترجم)

وإلى جانب هذه المراجع الأساسية التى مر ذكرها والتى تعالج الأدب الجغرافى بأجمعه توجد مراجع أخرى محـــدودة بمنطقة أو فترة معينة . وسأذكر من بينها أشهرها قاطبة وهو تحليل مؤلفات مؤرخي وجغرافيي الأندلس Ensayo bio - bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles للمستعرب الاسبانى پونس بويغوس Pons Boigues(٤٧) . وبالرغم من أن هذا الكتاب قد رأى النور منذ عام ١٨٩٨ ، أى فى وقت واحد مع الجزء الأول «لتاريخ الأدب العربى» لبروكلمان ، إلا أنه يضم بين دفتيه مادة ذاخرة جعلته لا يزال متمتعاً فى بعض أقسامه بقيمته العلمية إلى الوقت الحاضر ؛ وأحياناً قد يكون من المفيد الرجوع إليه رغماً من وجود المرجعين الضخمين السالفى الذكر .

وقد اعترف العلم الحديث بأهمية الأدب الجغرافى فى الإطار العام للدراسات العربية ، وظهرت فى القرن العشرين مجموعتان من النصوص المنتخبة من ميدان الجغرافيا كمقدمة لتسهيل دراسة الموضوع لمن يودون الخوض فى مصادره الأصلية . ومن قبل كانت المنتخبات الجغرافية تحتل مكانها بين المنتخبات الأدبية العامة عند المبتدئين فى دراسة العربية ؛ أما وجود منتخبات خاصة فى فرع معين من فروع الأدب العربى فقد كان أمراً نادراً . وأولى هاتين المجموعتين من المنتخبات الجغرافية المستقلة قد نشرها فى أواخر أيام حياته الخبير الكبير فى هذا الفن دى خويه وذلك فى عام ١٩٠٧(٤٨) ؛ وهى تحتوى على قطع ليست بالطويلة مأخوذة عن تسعة من الجغرافيين العرب ممن ينتمون إلى عهد ازدهار هذا الفن من الأدب . وقد قصد جامعها أن «يقدم للدارسين فكرة عن المادة التى | 33 | يمكن استقاؤها من المؤلفات الجغرافية فى الأدب العربى بغض النظر عن الجانب الرياضى» . ويصحب هذه المنتخبات مقدمة قصيرة باللغة الإنجليزية ونبذ عن المؤلفين وتعليقات مقتضبة بالإنجليزية والألمانية أقرب ما تكون إلى نمط المعاجم . هذا وقد أدت هذه المجموعة غرضها بحق ، وهى ذات فائدة بينة فى التعرف على الأدب الجغرافى فى نصوصه الأصلية رغما من بعض الصعوبة التى تكتنف فهم مواضع معينة منها ، وهو أمر كان يجب على المؤلف أن يستدركه فيفصل فى الشرح أكثر من أجل المبتدئين . أما المجموعة الثانية من المنتخبات الجغرافية وهى التى نشرها منذ خمسة وعشرين عاماً المستعرب الفرنسى بلاشير Blachère (١٩٣٢)(٤٩) فقد قامت على فكرة أوسع من تلك ، ولم يكن الغرض منها تقديم مجموعة من النصوص فحسب للمهتمين بدراسة اللغة العربية ولكن قصد منها أيضاً تقديم سرد موجز لتطور الأدب الجغرافى لدى العرب مع انتقاء المؤلفين والنصوص بطريقة تبدو معها اللوحة متكاملة ويستطيع القارئ بدوره أن يتتبع خلالها تطور الأنماط المختلفة للأدب الجغرافى . هذا وتشتمل المجموعة على أكثر من خمسين قطعة لنحو من خمسة وعشرين مؤلفاً ، ولم تستثن فيها الجغرافيا الفلكية كما هو الحال مع مجموعة دى خويه ولكن أفرد لها المكانة الثانية . وإلى جانب المقدمة العامة زودت كل فترة وكل مؤلف وكل نص

بالتعليقات المناسبة مع الإشارة إلى أهم المراجع ؛ ويصحب النص شروح موجزة ولكن وافية . وليس بالكتاب معجم خاص ولكن به فهرساً للأعلام الجغرافية مع إيراد معادلاتها الأوروبية ؛ كما وأن الناحية التدريسية لم تهمل فيه فقد أشير إلى كل قطعة بدرجتها من الصعوبة . وأن مابذل فى إخراج هذه المجموعة من عناية وجهد سواء فى العدد الوافر من المختارات باللغة العربية أو فى المقدمات الوافية باللغة الفرنسية لما يجعل منها بحق كتاباً دراسياً ممتازاً لا من أجل المبتدئين فحسب بل ومن أجل تاريخ الأدب الجغرافى بوجه عام .

ويحفل العلم الروسى بأبحاث عديدة فى الأدب الجغرافى العربى احتل بعضها مكانة مرموقة فى تاريخ العلم مثل أبحاث فرين Frähn وروزن Rosen وبارتولد Bartold . ولكن الاستشراق الروسى فقير بدرجة ملحوظة فى محيط الدراسات العامة التى يمكن أن تصلح كمقدمة أوكمرجع عام للدارسين . والقسم الذى أفرده جرجاس Girgas للجغرافيا فى كتابه « عرض عام للأدب العربى » Ocherk Arabskoi Literatury [٥٠] ، والذى كان بالنسبة لزمانه (١٨٧٣) مجهوداً محموداً ، لم يعد يفى بمطالب العلم الحديث بتاتاً ؛ وقد احتل مكانه فى عام ١٩١١ الفصل الغنى بمراجعه من كتاب كريمسكى Krymski فى « تاريخ العرب والأدب العربى » Istoria Arabov i arabskoi Literatury [٥١] الذى يحتاج الآن إلى الكثير من الإضافات والتصحيحات . هذا وقد عرض بارتولد بما عهد فيه من الأناة والأصالة العلمية الخطوط الرئيسية لتطور الأدب الجغرافى العربى فى كتابه « تاريخ دراسة الشرق فى أوروبا وروسيا » Istoria Izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii (١٩١١و١٩٢٥)[٥٢] ؛ ولا يسعنا إلا أن نعبر عن مزيد أسفنا لأن بارتولد لم يفرد لذلك أكثر من خمس صفحات . وفيما يتعلق بتاريخ الفترة الأولى للجغرافيا فثمة أهمية أساسية تنالها | الفصول المعقودة لذلك فى المقـــدمة التى دبجها **34** يراع بارتولد من أجل طبعته للمصنف الجغرافى باللغة الفارسية « حدود العالم » (١٩٣٠)[٥٣] . أما مقالى الذى نشر عام ١٩٣٧[٥٤] فقد كان الغرض منه إعطاء صورة سريعة للأنماط المختلفة للأدب الجغرافى وتوضيح ذلك ببعض النماذج .

ونتيجة لانعدام مرجع عام باللغة الروسية يبين الصفات المميزة للمؤلفات المختلفة فى الجغرافيا فمن المفيد الرجوع إلى الدراسات الموجودة بين أيدينا والمفردة لمعالجة موضوعات معينة ؛ فمثلا فى مقدمة كتاب بتروفسكى Petrovski « الطرق العربية القديمة فى آسيا الوسطى » Drevnie Arabskie Dorojniki po Sredneaziatskim Mestnostiam (١٨٩٤) الذى اعتمد فيه على كتاب اشبرنجر Sprenger (١٨٦٤) العتيق فإنه توجد معلومات لا تخلو من فائدة للقارئ الروسى . ويمثل كتاب مدنيكوف Mednikov الضخم عن فلسطين (١٨٩٧ — ١٩٠٣) أهمية لا مثيل لها فى دراسة الجغرافيا العربية فقد أورد فيه ترجمات لقطع مأخوذة من خمسة وعشرين جغرافياً ؛ وعلى الرغم من أن القطع كلها تتعلق

بجغرافيا فلسطين إلا أنها ذات أهمية خاصة بصفتها تساعد فى تكوين فكرة جلية عن مناهج أولئك المؤلفين . وهذه التراجم مصحوبة بمعلومات موجزة عن حياة المؤلفين وكتبهم ، كما وأن المؤلف أفرد جزءاً خاصاً لتحليل المادة الجغرافية عن فلسطين ، مما يمكن أن يكون له أهمية فيما يتعلق بالاستقراءات العامة فى ميدان الجغرافيا العربية . وفى مقدمة كتابه المشهور عن تركستان (١٩٠٠ و١٩٢٨) ، وذلك عند فحصه للمصادر العربية ، يقدم لنا بارتولد تحليلا عميقاً لعدد كبير من الجغرافيين العرب .

وكان المستعربون الروس يبدأون فى العادة معرفتهم بالنصوص الأصلية للمصنفات الجغرافية العربية من كتاب « المختارات العربية » Arabskia Khrestomatia للمستشرقين جرجاس V. F. Girgas وروزن V.R. Rosen (١٨٧٥ — ١٨٧٦) وهى مأخوذة من مصنفات خمسة مؤلفين من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. والمعجم الموجود فى آخرها يجعل من هذه المختارات إلى أيامنا هذه كتاباً دراسياً مفيداً حتى فيما يتعلق بالجغرافيا العربية .

بهذا ينتهى عرضنا العام للدراسات الأساسية فى ميدان الأدب الجغرافى العربى ، سواء فى الغرب أو بين ظهرانينا . وهو إن دل على شىء فإنما يدل على أن هذا الفرع من العلم يتمتع حالياً بكثير من العناية ليس فقط من جانب المستعربين أو المستشرقين عامة بل وأيضاً من جانب الجغرافيين ومؤرخى العلم بالمعنى الواسع لهذا اللفظ .

ولقد يبدو أن وضع مؤلف جامع فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى أمر يسير ، غير أن الدخول فى محاولة مماثلة تكتنفه صعوبات عديدة . والدليل على ذلك أن آخر عرض واسع للموضوع يرجع إلى عام ١٨٤٨ وأنه منذ ذلك التاريخ لم تظهر سوى موجزات قصيرة تأخذ فى العادة شكل مقالات . ويرجع هذا بالطبع إلى أسباب عديدة يتعلق بعضها بالمادة الموجودة تحت تصرف الباحثين ؛ فعدد كبير من الآثار معروف لدينا من عناوينه فقط ولم يكشف عنه إلى الآن . ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى أن كتاب أبى زيد البلخى (المتوفى عام ٩٣٤) ، وهو يمثل أول حلقة فى سلسلة مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ، لم يعثر على أصله إلى الآن ؛ | كذلك لم يعثر على أصل كتاب الجيهانى 35 فى مجلدات عديدة وهو ينتمى إلى نفس العهد وأفاد منه كثيراً المؤلفون المتأخرون . أضف إلى هذا أن عدداً من المؤلفات الجغرافية لا يزال ينتظر النشر ولايزال بعيداً عن متناول أيدى البحاثين . وقد كتب شوى منذ عام ١٩٢٤ يقول إنه من المستحيل كتابة تاريخ الجغرافيا الفلكية عند العرب نظراً لأن عدداً من المؤلفات لايزال قابعاً إلى الآن بين مخطوطات مكتبات لم تفحص بعد . ونفس هذا الحكم يصدق على الجغرافيا الوصفية فأخبار ابن فضلان مثلا عن رحلته إلى الروس (٩٢١ — ٩٢٢) لم تتداولها الأيدى إلا فى الآونة الأخيرة على الرغم من أن قطعاً منها كانت موضوعاً للدراسة منذ أكثر من مائة عام . ويدفع ظهور مواد جديدة إلى إعادة فحص عدد من المسائل التى كانت تبدو إلى عهد قريب كأنها استوعبت

بحثاً وتقصياً . وإذا أمكن القول بأن مجموعات المخطوطات فى المكتبات الأوروبية والأمريكية قد تم فحصها إلا أن هذا القول لاينطبق بأية حال على المجموعات الشرقية ؛ فقد برهنت الأعوام الأخيرة على أن مجموعات استنبول تبشر بالكثير فى هذا الصدد إذ أن بعض المخطوطات التى تم الكشف عنها هناك قد دعى إلى إعادة النظر فى نشر طبعة جديدة لأجزاء معينة من طبعة كلاسيكية مثل « مكتبة الجغرافيين العرب ».

وإلى جانب الثغرات فى المصادر فإنه لما يعوق استكمال الصورة العامة صعوبة تحديد المادة أونسبتها إلى فن معين . والعالم العربى الوحيد الذى اجتهد فى أن يفصل بين منهجى الجغرافيا والتاريخ كان عبد الواحد المراكشى من علماء القرن الثالث عشر الميلادى(٥٥) ؛ غير أن هذه كانت حالة استثنائية إذ فى الواقع أن فصل المنهجين كان أمراً عسيراً . وقد كان عدد من المؤلفين مؤرخاً وجغرافياً فى آن واحد ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد المسعودى المشهور (توفى عام ٩٥٦) . وكثيراً ما تضمنت المؤلفات التاريخية مادة جغرافية ذات بال كما هو الحال مثلا مع كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى (المتوفى عام ٨٩٢) . ومن الواضح أن مثل هذه المادة ومثل هؤلاء المؤلفين لا يمكن إغفالهم فى عرض عام للجغرافيا ؛ ولكن هذا سيؤدى بدوره إلى اتساع الموضوع وترامى أطرافه ؛ ونفس هذا القول يصدق على تلك المؤلفات التى تفرد أقساماً خاصة للجغرافيا مثل الموسوعات العديدة التى ألفت بمصر فى عهد المماليك . ويضحى من العسير حل المشكلة إذا ما تبعثرت المادة الجغرافية ، وقد أبصرنا كيف أن المصنفات ذات الطابع القصصى أو الشعبى مثل « أسفار السندباد » يجب أن تحتل مكانها فى مصنف عام يعرض لتطور الأدب الجغرافى ، إذ أنها تمثل نمطاً قائماً بذاته وتتميز بالطرافة . بيد أن جمع المادة الجغرافية المتناثرة فى الفروع المختلفة للأدب العربى يكاد يكون أمراً مستحيلا بل ولايخدم أى غرض ؛ وكتاب فيران Ferrand الذى جمع فيه الروايات العربية عن الشرق الأقصى خير دليل على أنه يمكن استخراج هذه المادة من المجموعات الأدبية كما يمكن استخراجها أيضاً من المصنفات الفلسفية والنباتية ومن المعاجم | ومن المؤلفات الاقتصادية (٥٦). ولعله من الممكن أن يضاف إلى هذه القائمة الآثار الشعرية ، بل وربما جميع فنون الأدب الأخرى دون استثناء . ومن الجلى أن تحليل مادة من هذا النوع فى عرض عام أمر غير مستطاع ؛ أضف إلى هذا أن هذه المصادر عندما تضم مادة جغرافية صرفة إنما تنضم إلى المصنفات الجغرافية نفسها لا إلى مصنف فى تاريخ الجغرافيا . لكل هذا فإن كتابنا قد قصد به تقديم عرض عام للأدب الجغرافى العربى لا جمع المادة الجغرافية الموجودة فى اللغة العربية . ويمكن أن يمثل بعض الاستثناء فى هذا الصدد الفترة الأولى السابقة لظهور المصنفات الجغرافية المختلفة ، فهنا يجب دراسة المواد المبعثرة والإشارات العديدة التى أخذت منذ ذلك العهد تحدد اتجاهات تطور فن جديد من الأدب سيظهر فى القرن التالى لذلك . ويهدف كتابنا أساساً تحليل جميع آثار الجغرافيا الوصفية والرحلات ؛ أما الجغرافيا الفلكية فستعالج فقط بالقدر

35

الذى، ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا الوصفية لاكفرع مستقل لأن هذا يتصل بالعلوم الدقيقة . كما وأن عرضاً عاماً كهذا يتطلب بعض الاتساع من ناحية اللغة ليفسح مجالا للآثار الجغرافية باللغتين الفارسية والتركية ؛ وفى خط تطوره الذى شمل اللغات الثلاث نلاحظ أحياناً أن بعض حلقاته قد حفظ لنا فى لغة مغايرة اللغة التى كتب بها الأصل ؛ فمن المعروف مثلا أن كتاب حاجى خليفة (القرن السابع عشر) بالتركية وهو « جهاننما » يغلب أن يكون وضعه مؤلفه فى بادئ الأمر باللغة العربية . وبعض آثار الأدب الجغرافى المبكر باللغة الفارسية ، مثل المصنف المشهور « حدود العالم » (٩٨٢) الذى لم يعرف مؤلفه إلى الآن أوككتاب كرديزى (حوالى عام ١٠٥٠) ، قد حفظ لنا خطوطاً هامة من تاريخ الأدب الجغرافى العربى بحيث يصبح ذلك التاريخ مبتوراً إذا أغضينا النظر عنها .

ويمكن القول بوجه عام أنه ليس من أغراض هذا الكتاب الإلمام بكل أطراف الموضوع بحثاً واستيفاء إنما يهدف تقديم لوحة عامة لتطور الأدب الجغرافى ولشخصياته وآثاره المختلفة وذلك على ضوء الاستقراءات التى وصل إليها البحث المعاصر ، كما يهدف أيضاً المساهمة فى تقديم العون اللازم كمرجع أولى بالنسبة للموضوعات المختلفة التى يعالج الكلام عليها .

حواشى المدخل

(١) — Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d' Espagne, par Al-Makkari. Pupliés par R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright. T.I, Leyde, 1856, p. 463-943 (Chap. V).

(٢) — Bartold, Kult. Mus., p. 35-36.

(٣) عن التصنيفات المختلفة للعلوم راجع : حاجى خليفة ، المجلد الأول ص ٢٤ – ٤٣

(٤) ياقوت ، المعجم ، ص ٤٤٤[١٤] – [٢٢] – ٤٤٥[٣]

(٥) — Wiedemann und Frank

(٦) — Schoy, Geography, p. 259

(٧) — Schoy, EI, IV, p. 332

(٨) — Schoy, Geography, p. 259
Schoy, EI, II, p. 1063-1064.

(٩) — Prutz, p. 53-54.

(١٠) — Honigmann, Die sieben Klimata p. 92-93

(١١) — Lund 168-174, 179-193.

(١٢) شرحه — p. 1. 174-179.
Hjelt, chap. III, p. 19-31, خاصة p. 19,26,31.

(١٣) — Lund, p. 165.

(١٤) شرحه — 1.162 – 166

(١٥) — Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 112-113

(١٦) — Peschel-Ruge, p. 131

(١٧) — Reinaud, Introduction, p. CCXII

(١٨) — J. K. Wright, Geogr. Lore, p 354.

(١٩) ابن حوقل — BGA, II, p. 108-111

(٢٠) عن تصورات أوربا لهذه السلسلة الجبلية راجع: — G. K. Wright, Geogr. Lore, p.270.

(٢١) شرحه — p. 72

(٢٢) — Reinaud, Introduction, p. CCXXIV.

(٢٣) — Mzik, OLZ, 34, 1931, p. 939.

(٢٤) — J. K. Wright, Geographical Lore, p. 242-243; رسوم هامة p. 454-455.

(٢٥) — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 357.

(٢٦) المقدسى BGA, III, p. 241.

(٢٧) — Ferrand, Relations, I, p. 3–5.

(٢٨) — Devic, Le Pays des Zendjs, p. 20-21.

(٢٩) — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 87.

(٣٠) شرحه ص ٣٩٦ ، ملاحظة ٤٤

(٣١) راجع عنه مفصلا : — Beazley III, p. 309-319, 549,
وأيضا Atiya, The Crusade, p. 114-127.
وعن الخارطة P. 123

(٣٢) حيث توجد صورة خارطة سانودو لعام ١٣٢١ . — Kramers, The Legacy, p. 92
وأيضا : Kimble, p. 138-139.

(٣٣) — Postell

(٣٤) — Jacobus Gionovius, De Geographiae origine progressu ac dulcedine, Lugduni 1703, p. 16
Peschel-Ruge, p. 190.

(٣٥) — Cora e Nallino.

(٣٦) — Kremer, Culturgeschichte, II, p. 425-439

(٣٧) — Schwarz, GZ, 1897

(٣٨) — Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 1-101

(٣٩) — Kramers, Legacy, p. 79-107.

(٤٠) — Kramers, ZDMG, 34, 1934

(٤١) — Ruska, GZ.

(٤٢) — Kramers, EI, EB, p. 62-75.

(٤٣) — Schoy, Geography

(٤٤) — Brockelmann, GAL, I-II, SB, I-III

(٤٥) — EI, I-IV, – EB,

(٤٦) — Sarton, Introduction, I-II

(٤٧) — Pons Boigues

(٤٨) — De Goeje, Selections.

(٤٩) — Blachère, Extraits

(٥٠) — Girgas, Ocherk, p. 188-213

(٥١) — Krymski, Ist. arabov, p. 100-107

(٥٢) — Bartold, Ist. Izuch. Vostoka, p. 52-57

(٥٣) — Bartold, حدود العالم, p. 6-21

(٥٤) — Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 738-765

(٥٥) عبد الواحد ص ٢٥٢ —
Kramers, EI, EB, p. 63

(٥٦) — Ferrand, Relations (الابشيهى المتوفى عام ١٤٤٦ II, p. 469; ابن طفيل , I, p. 200;
ابن البيطار I, p. 234-296; برهان قاطع , II, p. 563; الدمشقى II, p. 603-606; والجوبرى
II, P.608-611).

الفصل الأول

الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى

37 للوصول إلى معرفة التصورات الجغرافية فى بلاد العرب قبل الإسلام نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد اعتماداً كلياً على معطيات طفيفة حفظها لنا العرب أنفسهم ، وهى تفتقر إلى التجانس فى الكثير من الأحايين . وبالطبع فدور بلاد العرب الجنوبية فى تاريخ الشرق القديم خاصة فى محيط التجارة يسوقنا إلى الافتراض بأن العرب قد حصلوا على تجارب عملية مما يحتاج إليه التجار . وقد لعبت بلاد العرب دائماً دور الوسيط فى التبادل التجارى بين الهند وأفريقيا الشرقية من ناحية وبلاد دجلة والفرات والإمبراطورية الرومانية من ناحية أخرى . ومن المحتمل أن المعلومات التى جمعها التجار العرب إبان رحلاتهم الطويلة قد تردد صداها فيما خلفوه من أوصاف الطرق المختلفة ، حيث يرد بالإضافة إلى ذكر الأماكن ذكر أهم الآبار وموارد المياه والجبال والقبائل التى يخترق الطريق أراضيها . وقد تبقت شذور من هذه المعلومات التى وصلتنا من السكان المحليين مباشرة فى بعض مصنفات العالم الكلاسيكى القديم ، مثال ذلك « المحطات البارثية » ΣταΘμοί ΠαρΘιχοί (The Parthian Stations) لأيزيدور الخركى Isidorus Characensis الذى عاش فى القرن الأول للميلاد وهو من سواحل الخليج الفارسى وربما كان عربى الأصل* ؛ وقد ترك لنا وصفاً لطرق القوافل بين أنطاكية وحدود الهند[1] . ومثال هذا على ما يبدو وصفان لجزيرة العرب ، خاصة فيما يتعلق بمدنها وقبائلها ، وهما لأورانيوس Uranius «Αραβιχα»[2] وغلاوكوس Glaucos «Αραβιχὴ Αρχαιολογία»[3] وقد حفظ لنا منهما شذور نزرة[4] ؛ وقريباً من عهد جستينيان كانا لا يزالا فى متناول أيدى اسطفان البيزنطى Stephan of Byzantium الذى كثيراً ما أفاد منهما فى معجمه الجغرافى[5].

وجميع هذه المصنفات لا تعنى كثيراً بالنسبة لموضوع دراستنا[6] ، ليس فقط لأنها لم تكتب بالعربية التى لم تكن قد ارتقت بعد | 38 إلى مصاف اللغات الأدبية ، بل لأنها ظهرت فى محيط الحضارة الكلاسيكية القديمة ولم يفد العرب منها شيئاً ؛ وهى لم تعكس الوسط والفترة التاريخية التى بزغت فيها أولى مظاهر

---

* لا يعرف من أمر إيزيدور هذا شىء يذكر ، والظاهر أنه من مدينة **Charax Sapsini** وهى مدينة تجارية كانت تقع على فم الخليج الفارسى ويظن البعض أنها المحمرة ويرجح أنه عاش أيام أغسطس قيصر وربما أدرك القرن الأول الميلادى .
(المترجم)

الحضارة العربية ، تلك الحضارة التى ما لبثت أن ترعرعت سريعاً وأصبحت عنصراً أساسياً فى حضارة البشرية جمعاء . ومن الأهمية بمكان أن ننفذ إلى ظروف الحياة البدوية فى بلادالعرب الوسطى حيث بزغ فجر الشعر الجاهلى ، ذلك الشعر الذى أصبح بمضى الزمن أنموذجاً كلاسيكياً للشرق الأدنى بأجمعه ، ومن المهم أيضاً بالنسبة لنا أن نزيل النقاب ما أمكن عن التصورات الجغرافية فى بعض مراكز الحضارة بالحجاز حيث ظهر الإسلام لأن هذا بدوره سيوضح لنا الكثير فى نشأة أنماط الأدب الجغرافى التى ظهرت فى وقت واحد مع جميع فنون الأدب العربى الأخرى .

ومن العسير أن نتوقع اتساعاً فى المدارك الجغرافية بين بدو الجاهلية غير أن قوة ملاحظتهم للظواهر الطبيعية المحيطة بهم أمر بدهى مرده إلى طبيعة حياتهم نفسها . والبدو عادة يتمتعون بمعين لاينضب من التجارب المباشرة فى مجال الجغرافيا الفلكية . وترحالهم الدائم وسراهم بالليل ، حين يعتمد الإنسان على على الاهتداء بالقمر والنجوم الساطعة ، قد شحذ ذهنهم مبكراً لمراقبة جميع التغيرات التى تطرأ على القبة السماوية . وهم لم يعرفوا الاهتداء بالنجوم فحسب بل إنهم بفضل طلوعها ومغيبهاقد استطاعوا توقيت ساعات الليل . ويحتل القمر بالطبع المكانة الأولى لديهم ، وقد عبر الأديب ابن منظور (المتوفى عام ٧١١ هـ = ١٣١١) بمهارة فائقة عن علاقتهم بالقمر فى ظروف حياتهم لذلك العهد فقال :

« أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبل فى سرى الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق »[٧] . وهم فى مراقبتهم لمسير القمر لاحظوا مبكراً علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالى وحددوا عدد منازلها بثمانية وعشرين منزلا أطلقوا عليها اسم « منازل القمر » ، وأُعطى لكل واحد منها اسم عربى خالص[٨] ، وترجع هذه الأسماء إلى أقصى زمن ترتفع إليه أشعارهم . وثمة ظاهرة فلكية هامة توصل إليها البدو والحضر على السواء فقد أمكنهم التنبوء بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة لخبرة طويلة الأمد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة ، أو ما يسمى « بالغروب الكونى للمنازل القمرية » (The Cosmic Setting of the Lunar Stations) [٩] ، وكان العرب يعرفون ذلك باسم النوء (الجمع أنواء) وقد لعب دوراً كبيراً فى حياتهم : وشيئاً فشيئاً | 39 تجمعت لدى العرب بشأن الأنواء معلومات مختلفة صاغوها كما هو ديدنهم فى صور مسجوعة ثبتت به على الدوام وتم تدوينها فى وقت واحد مع الشعر الجاهلى على ما يبدو . وقد حفظت لنا أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين نسوق بعضاً منها من باب المثال لا الحصر [١٠] :

« إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحضرت الأوطان وتهادى الجيران » ؛

« إذا طلع الدبران توقدت الحزّان وكرهت النيران واستعرت الذبان ويبست الغدران ورمت نفسها حيث شاء الصبيان » ؛

« إذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرفت العلباء وطاب الخباء » .

وترتبط الأنواء بالظواهر الجوية ارتباطاً وثيقاً بحيث أصبحت الأخيرة تسمى أحياناً باسمها ، فلفظ « نوء » كثيراً ما يعني المطر ، وفى الاستعمال المعاصر اتخذ معنى العاصفة (البحرية) . وأحياناً نسبت الظاهرة إلى النجوم مباشرة فقيل إن نجما ما يسبب المطر ، وهى فكرة اضطر محمد إلى محاربتها بالتالى . ويحفظ لنا التراث العربى القديم مادة غزيرة عن الأنواء ليس فقط على شكل جدول يبين منازل القمر الثمانية والعشرين(١١) بل أيضاً على هيئة تصورات عديدة مرتبطة بها ، سجعاً كان ذاك أم شعراً . لذا فليس من الغريب فى شىء أن انكب كبار العلماء فيما بعد على تأليف «كتب الأنواء» ، وقد عد أحد المتخصصين فى الفلك عند العرب أكثر من عشرين منها(١٢) فى القرنين التاسع والعاشر وحدهما ، ويرجع أحدها إلى واحد من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خرداذبه كما ندين بآخر إلى المؤرخ المعروف الدينورى . ونظام المنازل القمرية من أقدم تراث البشرية وهو معروف فى أقدم الروايات الصينية والهندية والعربية(١٣) . وليس ثمت ما يدعو على الإطلاق إلى القول بأن مذهب العرب فى المنازل مستعار برمته من غيرهم . هذا وقد وجد طريقة إلى أوروبا فى العصور الوسطى مصور يبين منازل القمر العربية (Lunar Arabic Zodiac) ، كما بينت المنازل الثمانية والعشرين بحذافيرها على بعض الاسطرلابات(١٤) .

وبالطبع لم تقف معرفة البدو عند القمر وحده بل عرفوا جيداً الكواكب التى احتلت المكانة الأولى بينها الزُّهَرَة (Venus) وعطارد (Mercury)(١٥) ، أما فيما يتعلق بالنجوم فقد عرفوا منها ما لا يقل عن مائتين وخمسين نجما فى تسميتها العربية الخالصة * ، جمعها بعناية فائقة فى القرن العاشر الفلكى عبد الرحمن الصوفى (توفى عام ٣٧٦ = ٩٧٦)(١٦) . وتخلو نجوم السمت (Azimuth Stars) لديهم من أى تأثير يونانى ، إذ أن التأثير اليونانى لم يعدل فى المصطلحات الفلكية العربية إلا ابتداء من القرن التاسع(١٧) . وقد ارتبط بهذه التسميات أحياناً أساطير فريدة فى نوعها(١٨) . وفى مقابل هذا فإن عرب الجاهلية لم يعرفوا على ما يبدو أسماء البروج ، بل إن لفظ « برج » (وجمعه أبراج وبروج) الذى استعمل بالتالى فى ذلك المعنى كان يعنى لديهم مجرد « النجوم » .

فإذا ما تحولنا من السماء إلى الأرض فسيتضح لنا أن التصورات الجغرافية لدى عرب الجاهلية كانت نزرة ولم تتعد حدود جزيرتهم ، وذلك وفقاً لمفهوم الكتاب المتأخرين ، أى إلى الفرات وجبال طوروس شمالا . ومن نافلة القول أن نوكد غنى اللغة العربية القديمة فى كل ما يتعلق بالتربة وأخص مميزاتها الباطنية ، وبالعالمين النباتى والحيوانى أيضاً . فإذا ما تركنا هذا جانبا فإن المجال الوحيد الذى خلف فيه العرب مادة

---

* آخر ما ظهر فى هذا الموضوع بحثا P. Kunitzsch :

1— Arabische Sternkunde in Europa, 1959

2— Untersuchungen zur Sternkunde der Araber, 1960. (المترجم)

وافرة يكاد يقتصر على مواضع الجزيرة العربية المختلفة . وقد وصلت إلينا هذه المادة فى آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها فى الأدب العالمى ، وكما هو معروف فإن القالب الأساسى الذى صيغ فيه الشعر العربى هو القصيدة التى كان القسم الأول منها يفرد عادة لذكر المحبوب و« الأطلال » حيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر ؛ هذا القسم من القصيدة المعروف بالنسيب كثيراً ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن فى أغلب الأحوال تحديد موقعها . فلبيد الذى أدرك محمداً وهو شيخ طاعن فى السن يذكر فى إحدى قصائده الأماكن المحيطة بالمدينة حين يقول [١٩] :

لهند بأعلام الأغر رسوم　　إلى أُحُد كأنهن وشوم
فوقف فسُلَّى فأكناف ضلفع　　تَربَّعُ فيها تارة وتقيم
بما قد تحل الواديين كليهما　　زنانير فيها مسكن فتدوم

ويعطى فى موضع آخر وصفاً فريداً لمسير قافلتهم فى تجاه الخليج الفارسى فيقول[٢٠]

جاوزن فَلْجاً فالحَزْنَ يدلجن بالليل ومن رمل عالج كُثُبا
من بعدما جاوزت شقائق فالد　　هناء فصُلب الصمّان والخُشُبا

وهكذا نبصر فى بداية قصيدة واحدة عدداً من أسماء المواضع ، وليس بذى أهمية أن تكون مواضع خاملة الذكر ؛ ومثل هذه الحالة ليست بحالة استثنائية بل تغلب أن تكون القاعدة المطردة . فها هو عبيد بن الأبرص ، وهو من شعراء القرن السادس أيضاً ، يتذكر المواضع التى هزم فيها أحد أمراء الغساسنة قبيلته فيقول :[٢١]

أقفر من أهله ملحوب　　فالقطبيّاتُ فالذَّنوب
فراكِسٌ فثعيلبات　　فذات فرقين فالقليب
فغردة فقفا حِبر　　ليس بها منهم عريب

وحسان بن ثابت ، شاعر محمد فيما بعد ، يتذكر فى أبيات له بعض المواضع التى أمضى فيها وقتاً طيباً فى ضيافة آل جفنة فيقول[٢٢] :

لمن الدارُ أوحشت بمَعَان　　بين أعلا اليرموك فالخمّان
فالقريّات من بَلاس فداريّا فسَكَّاء فالقصور الدوانى
فقفا جاسم فأودية الصفر مغنا قبايل وهجان

لقد حفظ لنا الشعر الجاهلى مادة لاتنضب من هذا القبيل ، وفى القرن التاسع عندما أخذ العلماء العرب يتتبعون مآثر أسلافهم عرب الجاهلية كانت هذه المادة هى القاعدة المتينة التى قامت عليها الرسائل

العديدة التى لا تقع تحت حصر من طراز «كتاب مياه وجبال بلاد العرب»(٢٣) و«كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها»(٢٤) ، وهى رسائل غلب عليها الطابع اللغوى أكثر من الطابع الجغرافى ولكنها مهدت الطريق شيئاً فشيئاً إلى ظهور الأدب الجغرافى .

ولما أخذ الشعر يثبت فى قوالبه التقليدية بعد ظهور الإسلام بدأ ذكر المواضع والأمكنة فى النسيب يفقد أحياناً أساسه الواقعى فى الحياة ويتحول إلى مجرد أسماء تجمع من هنا وهناك ، ربما كانت من صنع المخيلة أحياناً . غير أن الوضع لم يكن كذلك قبل ظهور الإسلام ، وقد أثبتت سلسلة من الأبحاث أن المادة « المكانية » (Toponomy) للشعر الجاهلى يمكن أن تسوق إلى نتائج طيبة لو أخضعت لدراسة دقيقة* . ويذكر ڤستنفلد Wüstenfeld ، وهو من الملمين بجغرافيا بلاد العرب ، وذلك فى كتابه « البحرين واليمامة » Bahrein und Jemama (٢٥) أن : « . . . . وجود الأعلام الجغرافية عند الشعراء يمثل بالنسبة لأبحاثنا مادة لا تقدر بثمن ؛ 42 وكثيراً ما يقدم شراحهم ، الذين استقى منهم مادته أمثال البكرى وياقوت ، معلومات فى غاية من الدقة لأنهم بذلوا مجهوداً كبيراً فى جمعها وتحقيقها وتجشموا السفر إلى مواضع نائية ليتحققوا بأنفسهم من مواقع المواضع التى ذكرها الشعراء ويسألوا الأعراب عنها . وحينما تتفق معطياتهم فليس ثمة ما يدعونا إلى التشكك فى صحتها » .

هذا ولم تتجاوز المدارك الجغرافية عند عرب الجاهلية حدود جزيرتهم إلا نادراً ، وقلما وجدت لديهم أفكار عامة فى الجغرافيا . ويرد بالطبع فى شعرهم ذكر الأنهار مثل دجلة والفرات ، والأقطار مثل العراق والشام ، والمدن مثل بعلبك ودمشق ، ولكن نادراً ما ارتبطت بهذه الأسماء أية تجارب واقعية . ونفس هذا يصدق على الشعوب المجاورة لهم باستثناء اليهود الذين قطنوا معهم فى جزيرة العرب ، فكثيراً ما ورد لديهم ذكر الروم (البيزنطيين) والعجم (الفرس) . ويبدو أن ذكر الترك والكابليين فى أواخر القرن السادس(٢٦) كان من قبيل المصادفة ؛ وهذان الاسمان يردان فى المترادفات من قبيل الإتباع والمزاوجة لدى النابغة الذبيانى والأعشى ، وهما شاعران عرفا بكثرة التسفار وبمعرفتهما الجيدة بدول الثغور فى شمال الجزيرة العربية . والأول فى قصيدة له يرثى فيها أحد أمراء الغساسنة يقول إنه قد بكته الغساسنة وبلادهم حوران والترك والفرس والكابليون ، ويجدر بنا بالطبع أن نبصر فى اللفظ الأخير شيئاً مدخولا . أما الأعشى فيذكر فى وصف لأحد مجالسه الخمرية أنه كانت « تركض » حولهم الترك والكابليون** .

* ظهر فى الآونة الأخيرة بحث باللغة الألمانية فى هذا الموضوع هو :
U. Thilo, Die Ortsnamen in der altarabischen Poesie. 1959 . (المترجم)

** أبيات الأعشى هى :

ولقد شربت الخمر تر كض حولنا ترك وكابل
كدم الذبيح غريبة مما يعتق أهل بابل
باكرتها حولى ذوو الآكال من بكر بن وائل (المترجم)

وقد زار الأعشى أثناء تجواله فارس ولكن من العسير أن نحكم استناداً على هذا أنه يصور حادثاً وقع بالفعل . ولعله تحت تأثير هذه الأبيات الشهيرة للنابغة والأعشى كان ذكر الترك فى الشعر القديم يرد على الدوام مقروناً باسم الكابليين .

هذا هو على وجه التقريب نوع المعلومات الجغرافية الموجود لدى بدو الجاهلية ولكن وجدت إلى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعاً . ولانقصد بهذا دولتى الغساسنة واللخميين ، إذ أنهما دخلتا فى محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والإيرانية ولم تخلفا مادة عربية يمكن أن تمس موضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضرية الكبرى فى بلاد العرب نفسها حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى فإنه يمكن الاعتماد اعتماداً تاماً على القرآن . والمعلومات الأساسية التى كانت تحت تصرف محمد لم تكن غريبة على | الوسط الذى عاش فيه ، أعنى وسط الحياة الحضرية فى الحجاز . ومن الجلى أن محمداً 43 كان رجلا أمياً ، وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيراً لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهى تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال* .

وبالطبع فإن مدى هذه المعلومات والمسائل المتعلقة بها كان أوسع بكثير مما هو عليه الحال مع البدو كما تردد فى أشعارهم . وهى فى مجموعها لا تكشف عن صعوبات خاصة ولكن تتبع مظانها ومصادرها والملابسات التى أحاطت بظهورها أمر جد عسير لأن المؤثرات التى عملت فى محمد وصقلت شخصيته متنوعة للغاية وأثرت فيه بطريق متعددة متضاربة وجميع ما يتصل بها يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته . ومثل هذه المهمة يستحيل تحقيقها فى عرض عام كهذا ولهذا السبب اكتفيت بعرض موجز للتصورات الجغرافية فى القرآن مولياً ما أمكن عناية خاصة للاتجاهات والنظريات التى كان لها تأثير ملحوظ فى الأدب الجغرافى العربى فى عصوره التالية .

والمادة الجغرافية فى القرآن طفيفة على العموم ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها دائماً انعكاساً لمادة عربية بحتة . وما جرت تسميته « بالتراث الأسطورى فى الجغرافيا[٢٧] » قليل جداً بينها ، غير أنه مما يزيد فى صعوبة تحليل المادة بشكل خاص هو أن مغزى القصص الواردة فى القرآن لم يكن على الدوام واضحاً حتى لمحمد نفسه[٢٨] ، وهو قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المبهمة كما يتضح فى أكثر من موضع من القرآن . وبعكس ما عليه الحال مع الشعر الجاهلى فإن القرآن يحفل بالكثير فى تصوير السماء والأرض[٢٩] .

---

* للمؤلف فى هذا الفصل آراء لا تتفق مع وجهة النظر الإسلامية ، ولكنى آثرت إيرادها بنصها تمسكاً بالأمانة العلمية تاركاً لعلماء المسلمين فرصة الرد عليها . (المترجم)

ففيما يتعلق بالسماء كثيراً ما تتكرر النظرية القديمة عن السموات السبع[٣٠] المعروفة منذ عهد البابليين والتى عاشت إلى أيامنا هذه فى تعبيرات لا شعورية مثل «كأنما فى السماء السابع»[٣١]، بل وحتى فى استعمال صيغة الجمع « السموات » إلى جانب المفرد « السماء » . والقول بسموات سبع يرد مراراً فى القرآن (٢[٢٧]، ١٧[٤٦]، ٢٣[٨٨]، ٤١[١١]، ٦٥[١٢]، ٦٧[٣]) ، ويشار إلى أنها قد شيدت فوق بعضها البعض طبقة طبقة (« طباقا » ٧١[١٤]) وبشكل متين (« شدادا » ٧٨[١٢]) . وهى على شكل طرق (« طرائق »٢٣[١٧]) تسلكها الشمس والقمر كل يسبح فى فلكه (٢١[٣٣] ، ٣٦[٤٠]) ؛ وقد أمكن الاستدلال على أن لفظ « فلك » نفسه بابلى الأصل على ما يظهر[٣٢] . وهذه السموات السبع تقف دون عمد (١٣[٢]، ٣١[٩]) ، معتمدة على القدرة الإلهية 44 فحسب (٢٢[٦٤]) ، غير أن صورتها مادية بشكل واضح ، ففى أكثر من موضع يرد الكلام ، ولو مجازاً ، بإمكان سقوط قطع منها («كسف » ١٧[٩٤] ، ٢٦[١٨٧] ، ٣٤[٩] ، ٥٢[٤٤]) وأنها قد شيدت بناءاً أو سقفاً ، (« بناء » ٢[٢٠]) .

وتتوكد فى القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهاد فى ظلمات الليل (٦[٩٧]، ١٦[١٦]) ولكن من بين النجوم نفسها لم يرد ذكر لنجم خلاف « الشعرى » Sirius[٣٣] (٥٣[٥٠]) . وكما هو الحال مع الشعر الجاهلى فإن البروج الاثنى عشر (The Signs of the Zodiac) المعروفة منذ أيام البابليين لم يرد لها ذكر فى القرآن ، ولفظ « البروج » نفسه[٣٤] الذى بدئ فى استعماله مأخوذاً من القرآن ورد فى صيغة الجمع فقط وفى معناه الأوّلى المعروف (٤[٨٠]) ، كما أطلق أيضاً على النجوم عامة (١٥[١٦]، ٢٥[٦٢]، ٨٥[١]) . ونتيجة لسوء فهم ما وجد البحاثة فى القرآن ذكراً للمجموعة الشمسية المعروفة «بالميزان»(٥٥[٦])[٣٥]. وقد ألهبت النجوم المتهاوية مشاعر العرب بشدة ، وكما هو الحال مع عدد من الشعوب فقد اعتبرت أسلحة لحماية السماء من قوى الشر (٣٧[٧] ، ٦٧[٥] ، ٧٢[٨])[٣٦] . أما المهمة الأساسية للشمس والقمر فقد كانت فى تحديد الوقت سواء اليومى أو السنوى (٦[٩٦] ، ٩[٥] ، ٣٩[٧] ، ٥٥[٤]) ؛ كما لوحظ الاختلاف أثناء الشتاء والصيف بين مواضع شروق الشمس ومواضع غروبها ، هذا إذا أخذنا بتفسير الآيات الغامضة عن المشرقين والمغربين (٣٧[٥]، ٥٥[١٦] - ١٧)[٣٧] . وقد ورد ذكر القمر مرتين (١٠[٥] ، ٣٦[٣٩]) أما تقسيم السنة إلى اثنى عشر شهراً فقد اعتبر أمراً بدهياً معروفاً من الجميع (٩[٣٦]) . ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفاً ، الأمر الذى يشير إليه معنى « الشهر الكبيس » (أى المزدوج) فى لفظ « النسىء »[٣٨] ؛ وهو لفظ لم يتضح معناه تماماً إلى الآن .

وإذا كانت نظرية السماوات تلعب الدور الرئيسى فى التصورات القرآنية عن السماء ، فإنه قد وجدت فيما يتعلق بالأرض نظريات ارتبط بها الأدب الجغرافى على ممر تاريخه . وإحدى هذه الأفكار الرئيسية هى أن الأرض مسطح ثابت (٢٧[٦٢]، ٧٨[٦]—٧) ، وهى فكرة سادت من قبل عند اليهود كما عرفها أيضاً اليونان فى عهد هومير Homer وهزيود Hesiod والفلاسفة الأيونيين[٣٩] . وقد عبر القرآن

عن هذا عادة بمقارنات حسية مباشرة ، فالأرض تشبه « الفراش » (٢[٣٠] ، ٥١[٤٨]) ، و« البساط » (٧١[١٨]) و« المهاد » (٧٨[٦]) ، و« المهد » (٤٣[٩]) . ومهما بدا الأمر غريباً فإن الحقيقة الواقعة هو أن هذه النظرية المنصوص عليها بصراحة فى القرآن لم تتحول إلى مذهب علمى فى الجغرافيا العربية . وإذا حدث وأن أشار إليها بعض المؤلفين فى افتتاحيات كتبهم | التى يبدؤونها عادة بحمد الله وشكره ، 45 كالإدريسى مثلا[٤٠] ، فواقع الأحوال أن النظرية المضادة وهى نظرية استدارة الأرض أوكرويتها قد ثبتت وعم انتشارها منذ زمن مبكر بل إن فلكياً من الفلكيين الأوائل وهو الفرغانى[٤١] قد ساق بعض البراهين المتداولة فى أيامنا هذه لإثبات كروية الأرض ، كاختلاف مواعيد طلوع نجم معين أو اختلاف الكسوف باختلاف الأماكن الخ . غير أن هذه التصورات لم تتميز بالوضوح التام ، فبعض وجهات النظر تنعكس فيها آراء المسيحيين الأوائل الذين تصوروا الأرض على هيئة نصف كرة أو درع أو قبة أو مربع .

ووفقاً لما جاء فى القرآن فإن الجبال تخدم غرضاً خاصاً هو جعل الأرض تثبت فى حال من التوازن كيلا تميد (١٦[١٥] ، ٢١[٣٢] ، ٣١[٩]) ؛ وهذه النظرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظرية القائلة بأن الأرض مسطحة وسابحة فى الفضاء[٤٢] . والجبال بوجه عام قد ورد ذكرها فى القرآن فى أكثر من موضع وبينت أهميتها بالنسبة للأرض (١٣[٣] ، ١٥[١٩] ، ٢٧[٦٢] ، ٤١[٩] ، ٥٠[٧] ، ٧٧[٢٧]) ؛ لهذا فحين ظهرت لدى العرب ، خاصة فى أدب الأساطير والعجائب ، الفكرة التى يغلب على الظن أنها مأخوذة من التصورات الإيرانية ، وهى فكرة وجود سلسلة جبلية هى سلسلة جبال قاف المحيطة بالأرض ، وجدت محاولات لتفسيرها بواسطة الآيات القرآنية عن الجبال ؛ ولعله أيضاً تحت تأثير هذا برزت فكرة وجود سلسلة جبلية تخترق الأرض من حدها إلى الحد الآخر وترتبط جذورها بجبل قاف[٤٣] . والآية القرآنية الغامضة التى تنص على خلق سبع سموات وسبع أرضين (٦٥[١٢]) قد أدت بدورها إلى ظهور نظرية الأراضى السبع[٤٤] ، التى استندت على التصورات الإيرانية عن السبع كشورات وأيضاً على المغزى السحرى للرقم سبعة ، الأمر الذى لم يخل من تأثير على نظرية البحار كما سنرى[٤٥] .

ولعل النظرية القائلة بوجود بحرين تكاد تكون أعسر مشكلة فى الأدب الجغرافى على الإطلاق ، وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة فى القرآن وأن هذين البحرين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما (٢٧[٦٢] ، ٥٥[١٩—٢٠]) . وسرعان ما ظهرت الفكرة القائلة بأن المراد من هذا هو البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى بخليجه الذى يتمثل فى البحر الأحمر ، وأن البرزخ المقصود هو برزخ السويس . ولعله تحت تأثير الرواية الإيرانية تحولت أيضاً هذه الفكرة إلى عقيدة ثابتة فى الجغرافيا والكارتوغرافيا العربية[٤٦] | فحاول بعض الجغرافيين مثل المقدسى التدليل على صحتها[٤٧]. وقد أهملت فى هذا الصدد ، 46 إن قصداً أم سهواً ، إشارة القرآن إلى أن أحد هذين البحرين « عذب» وأن الآخر « ملح »(٢٥[٥٥] ، ٣٥[١٢]) .

وبارتولد فى تحليله لهذه المسألة يلفت النظر إلى أن اللفظ الذى استعمله القرآن للتعبير عن عذب فى كلا الآيتين هو « فرات » ، وأن لفظ « بحر » كان يقصد به العرب دائماً الأنهار الكبرى ، ثم يخرج من هذا بفرض مؤداه أن المراد بذلك نهر الفرات والخليج الفارسى وليس البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، خاصة وأن تلك معروفة للعرب معرفة مباشرة ؛ أما البرزخ فيجب اعتباره فى هذه الحالة تلك المواضع الضحلة التى تعترض مجرى الفرات قبل أن يصب فى الخليج الفارسى[٤٨] . وهذا الفرض واه بالطبع ، لأن القرآن ينص صراحة على أن البرزخ يمنع البحرين من الامتزاج ، الأمر الذى لم يحدث مطلقاً بين الفرات والخليج الفارسى ؛ وفضلا عن ذلك فإن مثل هذا التفسير يفترض فى محمد معرفة كافية بجنوب العراق وهو فرض لا يتفق مع الرواية التاريخية . وثمة تفسير جديد للمستشرق ڤنسنك Wensinck ، فهو يلاحظ أن الآيات المتعلقة بهذين البحرين تفترض وجود محيط سماوى[٤٩] ، وهى فكرة متداولة بين الساميين الغربيين Western Semites وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة . بيد أن ڤنسنك لم يفصِّل فى توضيح فرضه هذا حتى قيض له فى الآونة الأخيرة عالم من كبار المتخصصين فى تاريخ الجغرافيا عامة والجغرافيا عند العرب خاصة وهو مجيك Mzik[٥٠] فدلل على صحته بما فيه الكفاية . وقد بنى مجيك تفسيره على آية فى القرآن لم تكن قد اجتذبت حتى تلك اللحظة أنظار الباحثين فى نظرية البحرين . فى هذه الآية (١٨[٥٩]) يدور الكلام على « مجمع البحرين » حيث ذهب موسى باحثاً عن « الماء الحى » . ولقد وضح منذ عهد طويل أن القصة المرتبطة باسم موسى إنما مأخوذة من أسطورة الإسكندر ذى القرنين وأنها نسبت خطأ إلى موسى على ما يظهر . وقد اكتنفت محاولات تحديد هذا الموضع آراء بلغت حد العجب ، فالمقدسى مثلا يحدده بالمكان الذى بدأ منه الإسكندر تجواله وذلك عند منبع نهر دجلة[٥١] . وكما أثبت مجيك فإن هـذا الموضع من القرآن من المواضع القليـلة فيه التى انعكست فيها الجغرافيا الأسطورية [٥٢] . ووفقاً لما جاء فيه فإن المحيط الأرضى يبدو مالحاً أما المحيط السماوى المرتبط بالعالم الآخر والذى يرسل الغيث إلى الأرض فهو عذب[٥٣] ، وفى هذا ينعكس صدى قول سفر التكوين (الإصحاح الأول ، الفقرة السادسة) فى وجود فاصل بين الماء السمائى والماء الأرضى[٥٤] . وهكذا فإن التصورات عن موقع « مجمع البحرين » بل وعن البحرين نفسيهما اللذين ورد ذكرهما فى الآيات المشار إليها ، ترتبط ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً ومن العبث البحث عن تفسير لها فى واقع الأحوال بالأرض[٥٥] . ومما زاد فى اللبس أكثر أن هذه المسألة لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظه فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض .

وفى موضع آخر من القرآن غلب فيه الجانب البلاغى دفع هذا إلى ظهور نظرية عن البحار السبعة لم تلبث ان انعكست فى الأدب الجغرافى . ففى هذا الموضع (٣١[٢٦]) ، وهو الذى يلى الكلام على قدرة الله ، جاء ما نصه : « . . . ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام[١٢] والبحر يمده من بعـده سبعة أبحر

ما نفدت كلمة الله » . من الواضح جيداً أن الإشارة إلى البحار السبعة فى هذه الآية ، التى تمثل بدورها ترجمة دقيقة لحكمة عبرية(٥٦) ، إنما ترد بطريقة رمزية ؛ وهكذا فهم المقدسى الأمر(٥٧) . بيد أن هذا لم يمنع بقية الجغرافيين ، بل وأحياناً العلماء الأوروبيين ، من الكلام عن سبعة بحار مختلفة فى القرآن(٥٨) ؛ ولعلنا نجابه مرة أخرى تأثير المغزى السحرى للرقم سبعة كما هو الشأن مع الأرضين السبع .

فإذا ما انتقلنا من النظريات الجغرافية الموجودة فى القرآن ، أو القائمة على تعبيرات غير واضحة فيه ، إلى المادة الجغرافية الواقعية فإن القرآن يبدو أفقر بكثير من الشعر العربى خاصة فيما يتعلق بذكر الأماكن . ويمكن القول بأن القرآن يقتصر على إيراد نحو عشرة أسماء لمواضع جغرافية جميعها داخل حدود الجزيرة العربية . فيرد بالطبع ذكر مكة باسمها المعروف (٤٨[٢٤]) وباسمها الموقر « أم القرى » (٦[٩٢] ، ٤٢[٥])(٥٩) وباسمها المحلى « بكة » (٣[٩٠]) . أما المدينة التى يرد ذكرها مراراً ، فقد وردت أيضاً باسمها الجاهلى يثرب (٣٣[١٣]) (٦٠) . ومن الأماكن المرتبطة بسيرة محمد يرد ذكر بدر (٣[١١٩]) وحنين (٩[٢٥])(٦١) فقط ؛ ومن أماكن العبادة الصفا والمروة (٢[١٥٣])(٦٢) وعرفات (٢[١٩٤]) : وطريفاً كان مصير الجودى الذى رسى عنده فلك نوح (١١[٤٦]) ، فمحمد بلاريب اعتبره فى جزيرة العرب(٦٣) ولكن الجغرافيين نقلوه بالتالى إلى شمال أرض الجزيرة بل وحددوه بجبل أرارات . ومن الأماكن التى لعبت دوراً فى تاريخ الأديان يرد ذكر سيناء (٢٠[٢٣] ، ٩٥[٢])(٦٤) ، ووادى طوى القريب 48 منها (٢٠[١٢] ، ٧٩[١٦])(٦٥) . ومن مساكن الأمم البائدة يرد ذكر مواضع حقيقية وأخرى أسطورية مثل مدين (عشر مرات)(٦٦) والأيك (١٥[٧٨] ، ٢٦[١٧٦] ، ٣٨[١٢] ، ٥٠[١٣])(٦٧) والرس (٢٥[٤٠] ، ٥٠[١٢])(٦٨) والحجر (١٥[٨٠])(٦٩) وإرم (٨٩[٦])(٧٠) . وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر « الأرض المقدسة » فلسطين مرة واحدة (٥[٢٤]) ومصر(٧١) أربع مرات وذلك بصدد تاريخ يوسف وموسى (١٠[٨٧] ، ١٢[٢١] ، ١٠٠ ، ٤٣[٥٠]) ، ومرة واحدة ذكرت بابل (٢[٩٦])(٧٢) . ولايمكن ألا يسترعى الانتباه شح هذه المادة .

ولايلبث الأفق أن يتسع بعض الشىء بذكر الشعوب المختلفة التى يرتبط باسمها أحياناً أسماء أتباع الديانات . وإذا كان القرآن قد استعمل فى عهده المكى كلمة « عربى » لتحديد اللغة التى أنزل بها فإن لفظ « العرب » لم يظهر فيه إلا فى العهد المدنى (عشر مرات)(٧٣) . وليس للعرب الحضر تسمية خاصة بهم ، أما القبائل فلم يرد لها ذكر فى القرآن باستثناء قريش التى ورد ذكرها مرة واحدة فقط (١٠٦[١])(٧٤) . وإلى جانب اليهود والنصارى الذين ورد ذكرهم مراراً يرد بضع مرات ذكر الصابئة (٢[٥٩] ، ٥[٧٣] ، ٢٢[١٧])(٧٥) ويرد مرة واحدة ذكر كل من المجوس — الفرس (٢٢[١٧]) (٧٦) والروم — البيزنطيين (٣٠[١])(٧٧) . ومن القبائل البائدة فى الجزيرة العربية ذكرت مراراً عاد(٧٨) وثمود(٧٩) ، وأقل من ذلك جاء ذكر سبأ (٢٧[٢٢] ، ٣٤[١٤])(٨٠) الذين لم يوضح القرآن بجلاء علاقتهم بقوم تُبَّع (٤٤[٣٦] ، ٥٠[١٣])(٨١) .

وعند ذكر ذى القرنين فى القرآن يرد الكلام على ياجوج وماجوج (٢١ [٩٦] ، ١٨ [٩٣]) الذين حبسهم الإسكندر وراء سد فى نهاية الحد الشمالى الشرقى للأرض ليحمى العالم منهم ، والذين سيظهرون فى آخر الزمان . وأخبار يأجوج ومأجوج ترجع إلى التوراة ولعها وصلت إلى محمد عن طريق الأساطير السريانية المتعلقة بالإسكندر[٨٢] . وتحديد موطن هؤلاء الأقوام وموقع السد الذى يفصلهم عن بقية العالم قد شغل الجغرافيين العرب كثيراً وساق لا إلى ظهور أوهام وتخيلات غريبة فيما يتعلق بموضع إقامتهم فحسب بل وإلى رحلات واقعية للبحث عن السد نفسه . وكما هو معروف فإن يأجوج ومأجوج قد احتلا مكانة ملحوظة فى التصورات الجغرافية لأوروبا الوسيطة أيضاً ونشأ من جراء ذلك أدب غنى خاص بهما[٨٣] .

49

وأخيراً إذا ما حاولنا المقارنة بين المادة الجغرافية فى كل من الشعر الجاهلى والقرآن لخرجنا دون عناء بنتيجة مؤداها أن الشعر يزخر بالواقعية والصحة ، أما القرآن فالمادة الجغرافية فيه قليلة ولكنه فى مقابل ذلك مفعم بالنظريات المأخوذ أغلبها من مصادرخارجية ، وهى نظريات لم يستطع العلم الجغرافى العربى أن يتحمل دائماً عبء تفسيرها .

وفى الأعوام العشرة الأولى للخلافة صادف اتساع المعلومات الجغرافية انعكاساً ضعيفاً فى الأدب ، ومن المسلم به أن سيل الفتوحات العربية الجارف الذى حمل العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم إلى مختلف الأقطاركان من شأنه أن يحدث تغييراً شاملا فى تصورهم للعالم ويؤدى بلا ريب إلى اتساع أفقهم الجغرافى نتيجة للتجربة المباشرة . غير أنه يلاحظ بشكل واضح أن النظرية قد اختلفت منذ البداية عن التجربة الواقعية ، كما وأن هذه التجربة الواقعية نادراً ما وجدت طريقها إلى الوسط العلمى آنذاك . ولقد نشأ العلم وترعرع خاصة بالمدينة وكان حملته صحابة محمد والتابعين ، أما هدفه الأساسى فهو دراسة القرآن وتدوين جميع ما يمت بصلة إلى محمد وخلفائه الأولين . ومن الجلى أن مثل هذا العلم لن يفسح المجال لأى نوع من المعلومات الجغرافية التى تجمعت فى الأوساط العسكرية والإدارية ؛ ومن ثم فقد سار اتساع الأفق الجغرافى فى اتجاه مضاد تماماً إذ اقتصر على محاولات لتفسير وتأويل الإشارات الجغرافية الغامضة والنظريات التى أتى بها القرآن .

وتتوفر لدينا للحكم على هذا مادة هائلة من الأحاديث النبوية ، التى جمعت فيما بعد فى عدد من المجموعات . والمتعمق فى دراسة الحديث ، الذى ألقى عليه ضوءاً لأول مرة المستشرقان سنوك هرخرونيه Snouck Hurgronje وغولد زهر Goldziher ، لا يمكنه بالطبع اعتبار جميع الأحاديث صادرة عن محمد ؛ وعلى أية حال فهى تعكس جيداً وجهات النظر السائدة فى القرن الأول من الهجرة . من تلك الأحاديث نعلم مثلا كيف دخل محمد فى نضال ضد تصورات الجاهلية القائلة بأن الأنواء والنجوم هى المسئولة عن تساقط المطر[٨٤] ؛ غير أن الأسماء الجغرافية فى الحديث نادرة الوجود كما هو الحال

مع القرآن ؛ ومن وقت لآخر يتسلل ذكر الصين رمزاً لأبعد | قطر فى العالم وذلك فى الحديث المشهور 50
الذى يهيب بطلب العلم حتى فى تلك البلاد النائية ؛ أو ذكر الهند وذلك فى حديث يتنبأ بحملة عسكرية
على تلك البلاد[٨٥] :

أما النمط الذى ازدهر فعلا وانتعش فهو ما يسمى بالجغرافيا الأسطورية . وإذا لم يكن قد ورد فى القرآن مثلا أى ذكر لجبل قاف الذى يحيط بالأرض ، على الرغم من أن بعض رجال التفسير قد حاول أن يبصر إشارة إليه فى الحرف الغامض ق فى أول السورة الخمسين من القرآن ، إلا أن الحديث مفعم بوصف الجبل بل وبوصف المواضع دونه التى لا يمكن عبورها والتى تحيط بالأرض على طريق طوله أربعة أشهر[٨٦] ، وأيضاً للبلاد الواقعة خلفه[٨٧] . ولا يخلو من مغزى بالنسبة لعلم الجغرافيا أن هذه الأحاديث لم تمنع بالتالى محاولات تحديد مكان هذا الجبل فى القوقاز . أما سد ياجوج[٨٨] فقد أمكن لمحمد بفضل ما تمتع به من نفاذ البصيرة (Clairvoyance) التى تعبر المسافات الشاسعة أن يبصر ما طرأ عليه من تصدع[٨٩] . وقد كان الحديث الذى حفظ هذه الرواية موضع جدل شديد بين عدد من المستشرقين الأوروبيين وذلك فيما يتعلق بوصف طريقة العد على الأصابع (Dactylonomy) الواردة فيه[٩٠] . وإذا كان القرآن قد اكتفى بذكر الأرضين السبع[٩١] دونما أى تفصيل فإن الحديث ينسب إلى محمد تعداداً مفصلا لها يعكس صدى التصورات اليهودية والإيرانية . وإليك ما يرويه ابن الفقيه فى القرن التاسع فى هذا الصدد .

« وسئل النبى صلعم عن الأرض سبع هى قال نعم والسموات سبع وقرأ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن فقال رجل فنحن على وجه الأرض الأولى قال نعم وفى الثانية خلق يطيعون ولا يعصون وفى الثالثة خلق وفى الرابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاح من الماء والسادسة سجّيل وعليها عرش إبليس والسابعة ثور والأرضون على قرن ثور والثور على سمكة والسمكة على الماء والماء على الهواء والهواء على الثرى والثرى منقطع فيه علمُ العلماء »[٩٢] .

ويلوح أن دور المؤثرات اليهودية فى ظهور الأحاديث من هذا الصنف كان كبيراً للغاية . وإذا ما تقصينا الشخصيات المرتبط بها انتشار هذه الأحاديث لوجدنا فى المكانة الأولى ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، أى على العموم رواة الأحاديث الأول المسئولين إلى حد كبير عن تسرب العناصر اليهودية إلى الحديث[٩٣] | . وفى هذه الأحاديث تقابلنا الإجابة على مختلف المسائل المتعلقة بنشأة الكون 51 وشكله ، كالكلام على حجم الأرض وعن البحر المحيط[٩٤] ومنبع الأنهار من الفردوس[٩٥] وأعماق البحار والبحيرات وسلاسل الجبال[٩٦] . وطابع هذه الإجابات يمكن أخذ فكرة عنه من تحديد ابن عباس لطول الأرض وعرضها فى أربعة آلاف فرسخ وسطحها فى ست عشرة مليون فرسخاً مربعاً[٩٧] ؛ ويروى عن على أنه قال إن امتداد الأرض خمسمائة سنة المعمور منها مائة سنة فقط[٩٨] . ويمكن أن نضيف إلى هذا

التعليقات الجغرافية على الأساطير الأُخْرَوِيَّة (eschatological legends) الموجودة بالحديث والتى ترجع فى معظمها إلى نفس أولئك الرواة الذين مر ذكرهم للتو . ففيها نلتقى بوصف دقيق للدجال (Antichrist) الذى يظهر فى آخر الزمان[٩٩] وللبلاد المرتبطة باسمه ، كما يرد أيضاً وصف الصراط[١٠٠] الذى يؤدى إلى العالم الثانى ، ووصف الجنة[١٠١] والنار[١٠٢]. وهنا تطغى الأسطورة على الجغرافيا تماماً ، ولكن لم يكن بوسع العلماء العرب أن يتجاهلوها لذا فإن معظم المصنفات قد وقعت تحت تأثيرها :

وقد حدث بالطبع خلط بين التصورات الجغرافية المبنية على الواقع من جهة والحكايات والأساطير من جهة أخرى . ففى أقل من خمسين عاماً بعد وفاة محمد أخذ فى الانتشار وصف تخطيطى فريد للمعمورة ينسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر الشهير (توفى حوالى عام ٦٣ هـ — ٧٣ هـ = ٦٨٢ — ٦٩٢) جاء فيه[١٠٣] :

« صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطير والجناحين والصدر والذنب فرأس الدنيا الصين وخلف الصين أمة يقال لها واق واق ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصى إلا الله والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر وليس خلفه خلق والجناح الأيسر الخزر وخلف الخزر أمتان يقال لإحداهما مَنْشَك وماشَك[١٠٤] 52 وخلف ماشك ومنشك يأجوج ومأجوج من الأمم ما لا يعلمها | إلا الله وصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر والذنب من ذات الحُمام[١٠٥] إلى المغرب وشرٌّ ما فى الطير الذنب » .

هذه الرواية قد راجت بشكل خاص فى مصر طبعاً ورواها من المتقدمين ابن عبد الحكم ومن المتأخرين ابن وصيف شاه والمقريزى وأبو المحاسن . ورغماً من إغراقها فى الخيال فيمكن استخراج تفاصيل ذات فائدة منها ، وقد استطاع فيران Ferrand استغلالها فى تحديد موقع بلاد واق واق التى ظنها البعض خطأ اليابان[١٠٦] . ولا ينفرد العرب فى تصويرهم الأرض على شكل طائر إذ أن الفكرة قد وجدت لدى بعض الساميين الغربيين فقد تصوروا الأرض على هيئة طائر كونى (Cosmic) هائل[١٠٧]. وقد انتقلت هذه الصورة بدورها من العرب إلى بعض رسائل المسلمين الصينيين[١٠٨] .

هذا وتمتزج الأفكار الواقعية بالأفكار الموجودة بالتوراة فى وحدة غريبة حتى فيما يتعلق ببلاد العرب نفسها . مثال هذا قصة انتشار القبائل العربية التى تنسب إلى واحد من أخصب واضعى الأحاديث وهو ابن عباس (المتوفى حوالى عام ٦٨٧) والتى حفظت لنا فى وصف جزيرة العرب للهَمْدانى وفى معجم البكرى . وهى تعطى فكرة جيدة عن طابع هذه الأحاديث « الجغرافية » المبكرة التى تغلب الواقعية على موضوعها . ونصها :

« باب ما جاء عن ابن عباس رحمه الله تعالى فى ذكر جزيرة العرب . أما حديث عبد الله بن عباس فى جزيرة العرب فإنه ما نُقل عن محمد بن السائب الكلبى عن ابن صالح عن ابن عباس من وجه وعن معاوية بن عَمِيرة بن مِخْوَس الكندى أنه سمع عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وسأله رجل عن ولد

نزار معد بن قال هم أربعة مضر وربيعة وإياد وأنمار فكثر أولاد معد بن عدنان بن أُدَد ونَمَوْا وتلاحقوا ومنازلهم بمكة وما والاها من تهامة وانتشروا فى ما يليهم من البلاد وتنافسوا فى المنازل والمحالّ وأرض العرب يومئذ خاوية وليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحدٍ لإخراب بختنصر إياها وإجلاء أهلها إلا من كان اعتصم منهم برؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التى لا يقدر عليه فيها أحد متنكباً مسالك جنوده ومستنّ خيوله فارًّا إليها منهم فاقتسموا الغَوْر غور تهامة بينهم على سبعة أقسام لكل قسم ما يليه من ظواهر الحجاز ونجد وتهائم اليمن لمنازلهم ومحالهم ومسارح أنعامهم ومواشيهم وبلاد العرب كلها يومئذ على خمسة أقسام | فى جزيرة مُطيفة أى مديرة وطَوْف الجبل دَوْرُه ومنه الطواف 53 حول الكعبة وطوائف من الناس فرق من أطراف الناس ويروى مُطيقة من الطَّوْق وهو مادار بالعنق من هجار فضه وغيره وهى جزيرة العرب التى صارت فى قسم من أنطق الله تعالى باللسان العربى حين تبلبلت الألسُن ببابل وفى زمان نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بنى نوح يوم قسّمَ فالخ بن عابر بن شالخ بن ارفَخشذ بن سام بن نوح الأرضَ بين أولاد نوح عم سام وحام ويافث »[١٠٩] .

أما الرحلات القليلة التى حفظت لنا أوصافها عن ذلك العهد فمشحونة بتفاصيل خرافية جعلت حوادث الرحلة الواقعية نفسها هدفاً للريبة حتى نسبت إلى القصص الشعبى . ومما تجدر الإشارة إليه أن اللون الغالب عليها بالذات ينتمى إلى العناصر الأخروية السائدة فى الجغرافيا الأسطورية . وسأقتصر فى هذا الصدد على إيراد مثالين يرتبط أولها باسم شخصية غير مجهولة فى تاريخ الإسلام الأول وهو تميم الدارى الذى أقطعه محمد أرضاً قرب حبرون الخليل من أعمال فلسطين ؛ والوثيقة المنحولة المتعلقة بهذه القصة قد اهتم بها عدد من المؤرخين العرب. وتميم الدارى المتوفى حوالى عام ٤٠هـ = ٦٦١ أصله من نصارى فلسطين العرب ، وقد استقر بالمدينة فى حياة محمد واعتنق الإسلام . وكنصرانى سابق فمن المحتمل أنه قد ساعد على إدخال العناصر المسحية فى الأحاديث المبكرة ، خاصة وأنه كان شخصياً من أوائل « القاصّين » أى رواة الحكايات الدينية[١١٠]. ففى إحدى قصصه يتحدث عن رحلة له ببحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة رأوا فيها رأى العين الدجال (Antichrist) مقيداً ورأوا أيضاً الجساوسة (The Apocalyptic Monster) الذين سيظهرون فى آخر الزمان[١١١] . هذه القصة الملفقة ترجع إلى عهد مبكر ، وعلى أية حال فإننا نلتقى بها بجميع تفاصيلها فى أقدم مجموعات الحديث . ومن الطريف أنه يمكن بدقة كبيرة تتبع التطور التاريخى لهذه الأسطورة التى نالت انتشاراً واسعاً فى العالم الإسلامى. وفيما بعد نسبت إلى العصر التالى لوفاة النبى واكتسبت شكلا مغايراً لايرد فيه أى ذكر لرحلة بحرية[١١٢] ، بل يقال إن الجن اختطف تميما من منزله بالمدينة وطار به فوق بلاد عديدة غير معروفة تسكنها مخلوقات غريبة ، بحيث يبدو التقاوه بالدجال والجساوسة حادثاً بين سلسلة من الحوادث ؛ وفى نهاية مطافه يصحبه أحد الملائكة على متن السحاب إلى منزله . وكانت زوجه | قد ظنته 54

فى عداد الهالكين فتزوجت من غيره ، كما وأن جيرانه لم يصدقوا قصته ؛ وأنقذ الموقف الخليفة عمر الذى أكد بأن ما وقع لتميم كان قد تنبأ به محمد من قبل . والقصة فى صورتها هذه تجمع بين موضوعين أسطوريين عالميين (universal) هما الرحلة إلى البلاد المسحورة ، وأوبة الشخص الذى اعتبر فى عداد الأموات إلى عالم الأحياء . وقد نالت هذه القصة انتشاراً واسعاً ولاتزال حية إلى الآن على هيئة كتيبات شعبية كثيراً ما أعيد طبعها ، بل وعرفت أيضاً فى ترجمات قديمة العهد بالتركية والملايوية والإسبانية . وتأثير المصنفات من هذا النوع قد انعكس فى أساطير العصور الوسطى الأوروبية من طراز رحلة القديس براندان St. Brandan . ومن الطريف أن جغرافى القرن الرابع عشر المقدسى (توفى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)[١١٣] ويجب عدم الخلط بينه وبين سميه الرحالة المعروف للقرن العاشر — قد أفرد كتاباً قائماً بذاته لرحلة تميم الدارى يتضح من عنوانه « إفحام المارى بأخبار تميم الدارى » أنه رد على من تشككوا فى حقيقة الرحلة[١١٤].

أما الرحلة الثانية فكانت غايتها القسطنطينية وترتبط بشخصية تاريخية معروفة لنا جيداً ؛ كما يمكن تحديد زمن وقوعها بالكثير من الثقة بعام ٦٣٢ . وعلى الرغم من ذلك فهى ليست بأقل تلفيقاً من سابقتها . وتقترن هذه الرحلة باسم عبادة بن الصامت[١١٥] أحد الأنصار من الخزرج ممن آمنوا بمحمد قبل هجرته من مكة ، وكان من أقرب المقربين إليه ومن رجالات بدر ؛ وقد لعب فيما بعد دوراً فى فتح مصر وولى على حمص بالشام . وفى عام ٢٣ هـ غزا الروم مع معاوية وبلغ عمورية Amorium[١١٦] . وقد توفى بالرملة عام ٣٤ هـ = ٦٥٤ عن اثنين وسبعين عاماً[١١٧] .

أما رحلته فقد عرف عنها واقعتان فقط ، حفظ الأولى منهما ياقوت واعتمد عليه القزوينى فى روايته[١١٨] ، وهى تتعلق بزيارته للرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف على مقربة من القسطنطينية وقد شغل هذا الموضوع فيما بعد الأدب الجغرافى وتردد صداه فيــه أكثر من مرة . والقصة معروفة جيداً وتوجد لها ترجمة فى اللغتين الروسية والأوكرانية[١١٩] . ويبدأ عبادة بن الصامت حكايته كالآتى :

« بعثنى أبو بكر رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب ؛ قال فسرت حتى دخلت بلد الروم فلما دنوت إلى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم ، ودفعنا فيه إلى دير وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرداب فى الجبل ، فقلنا لهم إنا نريد أن ننظر إليهم ، فقالوا أعطونا شيئاً فوهبنا لهم ديناراً فدخلوا ودخلنا معهم فى ذلك السرداب وكان عليه بابٌ حديد ففتحوه فانتهينا إلى بيت عظيم محفور فى الجبل فيه ثلاثة عشر رجلا مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود وعلى كل واحد منهم جُبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم إلى أرجلهم ، فلم ندْرِ ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك إلا أنها كانت أصلب من الديباج وإذا هى تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافاً إلى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال محصوفة ولخفافهم

ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم ير مثله ، فكشف عن وجوههم رجلاً بعد رجل فإذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء وإذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور وبعضهم موفورة شعورهم وبعضهم مطمومة وهم على زى المسلمين ، فانتهينا إلى آخرهم فإذا هو مضروب الوجه بالسيف ، وكأنه فى ذلك اليوم ضرب ، فسألنا أولئك الذين أدخلونا إليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم يدخلون إليهم فى كل يوم عيد لهم يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى إلى باب هذا الكهف فنقيمهم أياماً من غير أن يمسهم أحد فننفض جبابهم وأكسيتهم من التراب ونقلم أظفارهم ونقص شواربهم ثم نضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التى ترونها ، فسألناهم من هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان فذكروا أنهم يجدون فى كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بُعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً غير هذا » | . 55

أما الواقعة الثانية من قصة عبادة والتى حفظها لنا المؤرخ الشهير الدينورى فقد بقيت مهملة إلى الآن : ولعل مرد ذلك إلى أنها نسبت سهواً إلى عبد الله بن الصامت وليس إلى عبادة ؛ ومسئولية هذا السهو تقع فى أغلب الاحتمال على النساخ لا على المؤرخ . ولإعطاء فكرة عن الأسطورة نورد القصة بحذافيرها :

« وذكر عن عبد الله بن الصامت قال وجهنى أبوبكر رضه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب قال فسرت حتى أتيت القسطنطينية فأذن لنا عظيم الروم فدخلنا عليه فجلسنا ولم نسلم ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام ثم صرفنا يومنا ذلك ثم دعا بنا يوماً آخر ودعا خادماً له فكلمه بشىء فانطلق فأتاه بعتيدة فيها بيوت كثيرة وعلى كل بيت باب صغير ففتح باباً منها فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجهاً مثل دارة القمر ليلة البدر فقال أتعرفون هذا قلنا لا فقال هذا أبونا آدم عم ثم رده مكانه ، وفتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه فى وجهه تقطيب كهيئة المحزون المهموم فقال أتدرون من هذا قلنا لا قال هذا نوح ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء على صورة نبيّنا محمد صلعم وعلى جميع الأنبياء فلما نظرنا إليه بكينا فقال ما لكم فقلنا هذه صورة نبينا محمد صلعم فقال أبدينكم أنها صورة نبيكم قلنا نعم هى صورة نبينا كأنّا نراه حياً فطواها وردها وقال أما إنها آخر البيوت إلاّ أنى أحببت أن أعلم ما عندكم ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة بيضاء أجمل ما يكون من الرجال وأشبههم بنبينا محمد صلعم ثم قال وهذا إبراهيم ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة المحزون المفكر ثم قال هذا موسى بن عمران ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة لرجل له ضفيرتان كأنّ وجهه دارة القمر ثم قال وهذا داود ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة رجل جميل على فرس له جناحان ثم قال وهذا سليمن | وهذه الريح تحمله ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة شاب جميل الوجه 56 وفى يده عكازة وعليه مِدْرَعة صوف ثم قال وهذا عيسى روح الله وكلمته ، ثم قال إن هذه الصورة وقعت إلى الإسكندر فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت إلىّ »(١٢٠)

من الواضح تماماً أن الأمر يتعلق بحكاية ملفقة ، والدليل على ذلك ليس فى تفاصيل الحكاية وحدها والظروف التاريخية المحيطة بها ، بل أيضاً فى الموضوع نفسه وفى تاريخه الأدبى .

وهذه الحكاية نفسها توجد فى شكل أوسع وبتفاصيل جديدة لدى جغرافى بداية القرن العاشر (حوالى عام ٩٠٠) ابن الفقيه(١٢١) ؛ وثمت رواية أخرى لهذه القصة انتقلت إلى الصين وحفظها لنا أبو زيد السيرافى أووصلت عن طريقه إلى المسعودى ، وهى على لسان ابن وهب من أهل النصف الثانى للقرن التاسع . ويتبادر إلى الذهن سؤال محير هو متى نشأت هذه القصة عن رحلة عبادة بن الصامت ؛ فالمستشرق الروسى كريمسكى Krymski يرى أنها لا تتجاوز بأية حال القرن العاشر(١٢٢) ، ولكنه فى الترجمة الأوكرانية لبحثه يوكد دون تردد أنها ترجع إلى ما بعد القرن العاشر(١٢٣)؛ غير أن وجود الرواية الثانية لدى ابن وهب والدينورى ولدى ابن الفقيه أيضاً ، وجميعهم من مؤلفى النصف الثانى من القرن التاسع ، يضطرنا إلى الرجوع القهقرى بتاريخها واعتبارها مؤلفاً لا يتجاوز بحال منتصف القرن التاسع ؛ أما الرحلة إلى القسطنطينية فى عهد أبى بكر فإنها بالطبع لم تحدث على الإطلاق . ومن نافلة القول أن نضيف أنه تقترن باسم عبادة أقاصيص خيالية أخرى ؛ من ذلك أن ابن إسحاق(١٢٤) يورد قصة تنسب إليه مؤداها أن محمداً بعث سرية إلى ساحل البحر فلما نفدت ذخيرتهم قذف لهم البحر بدابة هائلة تغذت عليها السرية عشرين يوما ، وكان يمر تحت أحد أضلعها بعير براكبه .

وإلى جانب هذه الموضوعات الأسطورية والحكايات التى حفل بها أدب الحديث المبكر تجمعت فيه بالتدريج إلى جانب ذلك مادة جغرافية حقيقية ، خاصة فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية : وبعض من هذه الأحاديث الأخيرة تردد صداه فى الأدب الجغرافى بالتالى رغما من أنه قليلا ما احتوى على معلومات ذات أهمية ، ذلكم هو ما يسمى « بالفضائل » أى ذكر محاسن البلاد والشعوب . وفى العهود الأولى اقتصر الاهتمام فى الغالب على الأماكن المقدسة أو المقترنة بحياة محمد كالمدينة وبيت المقدس والشام ومصر واليمن ، ووفقاً لذلك صيغت مادة الأحاديث . فالشام مثلا تحميها الملائكة وسيسقط عن سكانها حساب اليوم الآخر بفضل أربعين صالحاً (أبدال) ؛ وهى ملجأ من جميع أنواع الفتن وبها يهلك الدجال(١٢٥). وشيئاً فشيئاً بدأت مادة هذه الفضائل تتخذ طابعاً دنيوياً فظهرت أماكن أخرى مثل البصرة وتلتها بقية المدن والبلاد المعروفة . وقد اتخذت الفضائل صيغة أقوال مأثورة تميزت بالإيجاز وبمناسبتها للمقام وغلب عليها طابع السجع . وفى هذه الصورة الأخيرة بدأ ينشرها ليس أهل الورع فحسب بل وأيضاً « الحكماء » أو « أهل البلاغة » مما جنح بها أحياناً للأسف الشديد نحو العناية باللفظ البليغ واللفتة البارعة على حساب الصحة والواقع .

وبالتدريج بدأت تأخذ مكانها إلى جانب الفضائل « المثالب » أيضاً . ومن المستحيل إغفال أوجه الشبه بين تطور هذا النمط الجديد من الأدب والطريق الذى سلكته المصنفات الأولى فى الأنساب بما اتسمت

به من إيراد الفضائل والمثالب المتعلقة بالقبائل المختلفة . ويقرب بين النمطين أيضاً الصيغة الموجزة المسجوعة كما يتضح من القطعة التى تبقت عن النسابة ابن لسان الحُمَّر والتى ترجع إلى العصر الذى نحن بصدده[١٢٦] .

هذا وقد ظهرت هذه الفضائل الدنيوية مبكراً ؛ فقد حفظ لنا المسعودى أنموذجاً منها يقترن باسم الخليفة عمر . وهو يبدأ بالطريقة الآتية :

« ذكر ذوو الرواية أن عمر بن الخطاب حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لى[١٢٧] المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره الترب والأهوية فى سكانها »[١٢٨].

وقد رد عليه « الحكيم » بوصف الشام ومصر والحجاز والعراق والجبال وخراسان وفارس والجزيرة ، وتوقف عن وصف الهند والصين وأرض الروم « فلا حاجة فى وصفها لك لأنها شاسعة نائية وبلدان كفرة طاغية ». ومن المؤسف أن تجد طريقها إلى هذه الوثيقة الطريفة زيادات متأخرة ، بل إنها لم تسلم أحياناً من داء الترادف والازدواج كما يتضح من وصف العراق . أما وصف مصر فيمكن أن يصلح كأنموذج فى هذا الصدد[١٢٩] | 58

إن اعتبار هذا الوصف « للحكيم » المجهول كذباً صراحاً فيه شىء من التعسف ، خاصة وأن اهتمام عمر بالمسائل الجغرافية شهدت به الرواية التاريخية غير ذى مرة ؛ وقد كلف عمر سعد بن أبى وقاص بعد واقعة القادسية (حوالى عام ٦٣٦) أن يصف له المواضع المجاورة لها ؛ وقد حفظ لنا هذا الوصف ياقوت[١٣٠] . وثمة وصف مشابه لهذا يبعث به عمرو بن العاص إلى عمر عقب فتحه لمصر ؛ غير أن وصف مصر هذا لم يكشف عنه إلا عند المؤرخين المتأخرين من عصر المماليك[١٣١] .

ولقد استمرت الأوصاف من طراز « الفضائل » محتفظة بمكانتها لحين ظهور الرسائل الجغرافية بالمعنى الصحيح . وأحد هذه الأوصاف مما يرجع إلى بداية القرن الثامن حفظه لنا المؤرخ الدينورى وهو يتعلق بالسويعات الأخيرة من حياة أيوب بن زيد إحدى الشخصيات التى اكتنفتها الأسطورة فى ذلك العهد؛ وقد اشتهر باسم ابن القرِّية نسبة إلى جدته ؛ وكان بدوياً أمياً . ووقتاً ما تمتع ابن القرية بثقة الحجاج ولكن لم يلبث أن انحاز إلى أعدائه ، ثم وقع فى قبضة الحجاج حوالى عام ٧٠٣[١٣٢]. وقبل أن يأمر الحجاج بقتله بالقسوة المعهودة فيه ، سأله :

« فما تبقى من نعتك قال ابن القرِّية ذهنى حديد وجوابى عتيد قال كيف علمك بالأرض قال ليسألنى الأمير عما أحبّ قال أخبرنى عن الهند قال بحرها دُرّ وجبلها ياقوت وشجرها عِطر قال أخبرنى عن مُكران قال ماؤها وَشَل وتمرها دَقَل وسهلها جبل ولصها بطل إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قلّوا ضاعوا قال فخراسان قال ماؤها جامد وعدوّها جاهد بأسهم شديد وشرهم عتيد وخيرهم بعيد قال فاليمن قال

أرض العرب ومتعدن الذهب قال فعثمان قال حرها شديد وصيدها موجود وأهلها عبيد قال فالبحران قال كُناسة بين مصرين وجنة بين بحرين قال فمكة قال قوم ذوو جفاء ومن سجيتهم الوفاء قال فالمدينة قال ذوو لطف وبرٍّ وخير وشر قال فالبصرة قال حرها فادح وماؤها مالح وفيضها سائح قال فالكوفة قال جنة بين حمـّاة وكـنّة العراق تحشدُ لها والشام يُدرّ عليها سفلت عن بردالشام وارتفعت عن حر الحجاز قال فالشام قال تلك عروس بين نسوة جلوس تُجلب إليها الأموال وفيها الضراغمة الأبطال »(١٣٣) .

59 غير أن هذه الفصاحة لم تنقده من الموت ؛ ويروى أن الحجاج صاح بعد مقتله : | « أى أدب فقدنا منك وأى كلام رصين سمعنا منك » . ذلك أن الحجاج نفسه كان مولعاً بأمثال تلك الأقوال البليغة الموجزة ؛ ويروى أنه أوصى واليه إلى أصفهان قبل رحيله قائلا « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران »(١٣٤) .

ومن غير الممكن بالطبع أن نبصر فى هذه الصنعة الأدبية رواية حرفية « للفضائل » كما وجدت فى العصر الأموى ، خاصة وأن ابن خلكان(١٣٥) قد حفظ لنا نفس هذه القصة فى صورة مخالفة ، كما وأن وصف مُكران لدى ياقوت ينسب إلى خلافة عثمان ويرد على لسان حكيم بن جبلة(١٣٦) (توفى عام ٣٧ هـ = ٦٥٧) وفى صورة مسجوعة أيضاً ، مما أسخط عليه الخليفة . أما ابن القرية فقد قلب له التاريخ ظهر المجن ، فالأصمعى اللغوى المعروف (توفى حوالى عام ٨١٣) يوكد أن ابن القرية لم يوجد على الإطلاق شأنه فى هذا شأن المجنون الشاعر(١٣٧) . ولاحاجة بالطبع إلى التطرف فى النقد إلى هذه الدرجة(١٣٨) ، ولكن حتى إذا وافقنا الأصمعى فى رأيه فإنه من المستحيل إنكار وجود نمط « الفضائل » الذى يكاد يكون أطرف محاولة فى ذلك العصر لصياغة التصورات الجغرافية فى قالب أدبى . وأحياناً يمكن الجزم بصورة قاطعة بأن بعض أمثلة « الفضائل » صحيحة الأصل وأنها ترجع فعلا إلى العصر الذى تشير إليه المراجع وتحتفظ بنفس القالب الذى صيغت فيه . وفيما يتعلق بوصف مكران بالذات فإنه يوجد تأييد طريف فى أبيات لأعشى همْدان(١٣٩) ، ذلك الشاعر الذى وقع فى أسر الديلم والذى قتله الحجاج عام ٨٣ هـ = ٧٠٢ . قال :

« وأنت تسير إلى مُكـّران فقد شحط الوِرْد والمصدرُ
ولم تك من حاجتى مُكـّران ولا الغزوُ فيها ولا المتجر
وخُبِّرت عنها ولم آتها فما زلت من ذكرها أُذعر
60 بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مُقتر |
وأن لِحَى الناس من حرها تطول فتُجلَم أو تُضفر
ويزعُمُ من جاءها قبلنا بأنّا سنُسْهَم أو نُنْحَر »(١٤٠)

ليس من العسير أن نبصر فى البيت الذى يرد فيه القول « بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مقتر »

إشارة إلى ألفاظ ابن القرية « إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قلو ضاعوا » . ومن ثم فإن تلك القطعة من « الفضائل » كانت ولا بد معروفة جيداً ومتداولة فى عهد أعشى همدان ، أى فى النصف الثانى من القرن السابع . لذا فإن احتمال ظهورها فى عهد الخليفة عثمان لا يمكن اطراحه كلية . والعصر الأموى يحفل بعدد غير قليل من أمثلة هذا النوع من الوصف الأدبى . وفى مجلس للخليفة هشام (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ = ٧٢٤ — ٧٤٣) يعطى خالد بن صفوان الخطيب المشهور وأحد بلغاء العرب (توفى عام ١٣٥ هـ = ٧٥٢)[١٤١] وصفاً لموطنه البصرة حفظه لنا واحد من أقل الكتاب شهرة فى النصف الأول من القرن العاشر وهو ابن القاص[١٤٢] .

ويقترن باسم الحجاج أول ذكر معروف لدينا عن الخارطات عند العرب . ففى عام ٨٩ هـ = ٧٠٨ بعث الحجاج إلى قائده قتيبة بن مسلم الباهلى فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذلك عندما استبطأ حصاره لبخارى ليرسل إليه « صورة » المنطقة ؛ ويقال إنه قد بعث إليه بتعليماته الاستراتيجية عقب ذلك اعتماداً على تلك الخارطة[١٤٣] . وفى الأصل العربى كما نرى تستعمل كلمة « صورة » التى حل محلها فيما بعد لفظ « مصور جغرافى »* . ورواية الطبرى التى حفظت لنا هذه الواقعة[١٤٤] ترتفع إلى مصدره الأساسى فى فتح تركستان وهو المدائنى (المتوفى حوالى عام ٢١٥ هـ = ٨٣٠) ، وأغلب الظن أنها تعكس حقيقة واقعة .

ويغلب الخيال أكثر على القصة الثانية التى يوردها لنا ابن الفقيه . قال :

« وبعث الحجاج إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلموا أو يقرُّوا بالجزية فأبوا فأمر أن تصوّر له الديلم سهلها وجبلها وعقابها وغياضها فصورت له فدعا من قبله من الديلم فقال إن بلادكم قد صوِّرت لى فرأيت مَطْمَعاً فأقِرُّوا لى بما دعوتكم إليه قبل أن أُغْزيكم الجنود فأخرب البلاد وأقتل المقاتلة وأسبى الذرية فقالوا أرنا الصورة التى أطمعتك فينا وفى بلادنا | 61 فدعا بالصورة فنظروا فيها فقالوا قد صدقوك عن بلادنا هذه صورتها غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال وستعلم ذلك لو قد تكلّفته فأغزاهم الجنود وعليهم محمد بن الحجاج فلم يصنعوا شيئاً وانصرفوا إلى قزوين »[١٤٥] .

إن عنصر الخيال المحيط بهذه القصة يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن المحاولات الأولى المستقلة للعرب فى رسم المصورات الجغرافية قد ارتبطت باسم الحجاج عن طريق المصادفة وحده[١٤٦] .

فإذا ما انتقلنا إلى الكلام عن الرحلات فى العصر الأموى فإن أول ما نلاحظه هو أن معظم وقائعها ليس من السهل فصله عن الأساطير . وترتبط بعض هذه الرحلات ببيزنطة ؛ وقد جاء فى قصة رواها كاتب من عهد المهدى العباسى (١٥٨ هـ — ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥) أنه فى عهد عبد الملك بن مروان

---

* يستعمل العرب للتعبير عن لفظ خارطة (Map) « المصور الجغرافى » ، بيد أن غلبة خارطة فى الاستعمال الحديث اضطرنا إلى إثباتها فى هذا الكتاب . وقد أخذ العرب عن الروم لفظ Carta (كارتا) بصيغة الجمع فقالوا قرطاس ؛ أما لفظ خارطة فقد عربه المصريون أيام محمد على عن الفرنسية Carte . ولم يكن الجغرافيون العرب على اتفاق تام فى استعمال مصطلح « المصور الجغرافى » ، فابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار يستعمل « لوح الرسم » بينما ورد فى بعض نسخ نزهة المشتاق للإدريسى « لوح الترسيم » (راجع مقال أحمد زكى باشا الذى ظهر بمجلة المقتبس — الجزء السادس من المجلد الخامس ص ٣٨٧) . (المترجم)

(٦٥ هـ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥) عاد إلى مصر أحد أهليها ممن كان فى أسر البيزنطيين منذ عهد معاوية (٤١ هـ — ٦٠ هـ = ٦٦١* — ٦٨٠) ، وأنه روى تفاصيل عجيبة عن حال الأسرى المسلمين هناك ؛ غير أن الحكم على صحة هذه الوقائع يحتاج إلى فحص وتدقيق عميقين للتواريخ ولتفاصيل أخرى[١٤٧]. ويروى لنا المقدسى[١٤٨] حكاية لشخص كان قد بُعث به مع رفيق له إلى « طاغية » (Tyrant) بيزنطة عام ١٠٢ هـ = ٧٢٠ ، ومما يؤسف له أن قصتهما أيضاً تقتصر على وصف الرقيم وأهل الكهف. ولدينا من نفس الحقبة تقريباً رواية طريفة عن أول محاولة فى الجغرافيا الإدارية والاقتصادية[١٤٩] ؛ ففى عام ١٠٠ هـ = ٧١٩ بعث الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى والى الأندلس السمح بن مالك الخولانى بأن « يخمِّس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها » . وكان السمح ادارياً ماهراً ، وهو أول من جعل قرطبة عاصمة للبلاد واستمرت هكذا إلى القرن الحادى عشر[١٥٠] ؛ وقد عنى بتنظيمها وتجميلها وأعاد ترميم القنطرة الرومانية التى اعتبرت فيما بعد من عجائب | الأندلس . 62 وقد استشهد السمح بعد عامين من ذلك فى غارة للعرب على جنوب فرنسا عند فتح أربونة Narbonne [١٥١]. ومن العسير بالطبع أن نحدد نصيبه من التوفيق فى تنفيذ رغبة الخليفة بوصف الأندلس وفى أى صورة تم ذلك ، إذ لم يصل إلى أيدينا فى الواقع أى أثر فى هذا الصدد . وأغلب الظن أن ڤستنفلد[١٥٢] لم يتنكب الصواب حينما وضع اسمه فى أول قائمته الزمنية (chronological list) للجغرافيين العرب . وعلى العكس من هذا يقف رسكا Ruska موقف التشكك من القصة ومن استطاعة الوالى أن يشغل نفسه بالمسائل الجغرافية ولمّا يمض على فتح العرب للأندلس أكثر من عشرة أعوام[١٥٣]. غير أنه توجد عوامل ليست فى مصلحة التشكك هذا ، ففى الواقع أن اهتمام السمح بن مالك بالأبحاث الجغرافية قد تردد صداه لا فى المصادر العربية وحدها بل وفى المصادر الغربية أيضاً . فالحوليات اللاتينية (Latin Annals) ، خاصة حوليات ايزيدور الباجى Isidorus Pacensis ، توكد لسبب ما اهتمامه بمسائل من هذا النوع ، كما توكد أيضاً اهتمامه بالاستطلاع والمراقبة فى أرض الأندلس[١٥٤] . ومن العسير بالطبع اعتبار هذا من محض الصدفة .

هذه خلاصة ما يتصل بالجغرافيا لدى العرب وما تردد صداه فى آثارهم الأدبية إلى منتصف القرن الثامن . وهو مجهود إذا قيس وفقاً للمفهوم الجغرافى الدقيق لبدا ضئيلا ؛ ولكنه من الناحية الأدبية يمثل أهمية كبرى . فمن خلال هذه الحقبة نبصر بوضوح ميلاد بعض الأنماط والصور التى بدأت تتشكل فيها بالتالى مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، وضعها فى أغلب الأحوال علماء لغويون . وهم قد جهدوا قبل كل شىء فى جمع وتنظيم تصورات عرب الجاهلية عن الأنواء وتدوين المادة الضخمة المتعلقة بالأماكن ؛ وهم المسئولون أيضاً عن إدخال نمط « الفضائل » فى المؤلفات الجغرافية والتاريخية . وإلى هذا العصر

* فى الكتاب وُجد سهواً عام ٦٣١ هـ بدلا من ٦٦١ هـ ، فوجب التنبيه . (المترجم)

بالذات ترجع أول إشارات ولو مبهمة عن ظهور مصورات جغرافية وعن الجغرافيا الوصفية فى المجالين الإدارى والاقتصادى . أما المعلومات العملية فى ميدان الجغرافيا فقد زادت العناية بتنظيمها أيضاً ولكن لم يتبق لنا أى أثر من ذلك . كما وأن بريد الدولة الذى خضع لتنظيم جيد فى العهد الأموى قد استدعى إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ؛ ومثل هذه الرسوم قد وجد بلاريب فى دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفى العصر العباسى فى وضع مؤلفات فى هذا الميدان وصلت إلينا . أما طرق البريد فقد نصبت على جانبها حجارة لتوضيح المسافات وهى ما يسمى بالأميال ؛ وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وقد عثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين وترجع إلى عهد عبد الملك بن مروان (أى قبل عام ٨٦ هـ = ٧٠٥)[١٥٥]؛ ومنذ عهد ليس ببعيد عثر على واحد منها قرب تفليس وأغلب الظن أنه يرتفع إلى نفس ذلك العصر[١٥٦] | 63

وتنعدم الجغرافيا الفلكية تماماً فى هذا العصر . وإذا حدث وأن وجدت فقد كان صداها ضئيلا وبين السريان وحدهم بحيث لم تصل إلى العرب . ومن المعلوم أن أسقف اليعاقبة ساويرس سبوكت Severus Sabokt ، وكان معاصراً لعمر وعثمان بل ولمعاوية فى الأعوام الأول لخلافته ، قد وجد الوقت الكافى ليشتغل بالفلك إلى جانب اشتغاله بمنطق أرسطو . ومن معاصرى الخلفاء الأمويين الأوائل يعقوب الرهاوى (٦٤٠ — ٧٠٨) الذى نال الشهرة كعالم لغوى ومفسر ، وكان أول من حاول فى اللغة السريانية إعطاء صورة متماسكة للتصورات العلمية فى ذلك العصر عن العالم وأقسامه وظواهره وذلك أثناء تفسيره لأسطورة التوراة فى خلق العالم ؛ وهو يورد فى سياق عرضه مقتطفات من بطلميوس[١٥٧]. ولم يكن بمقدور السريان أن يصبحوا أساتذة للعرب فى العصر الأموى بالرغم من أن هذا هو ما حدث فعلا فى أقل من قرن بعد ذلك . لذا فليس من الغريب ألا نعثر على أى أثر للجغرافيا الفلكية بين العرب فى ذلك العصر . ولكنها تندفع فجأة كسيل جارف فى نهاية القرن الثامن ولا تكتفى بإبراز فرع جديد فحسب بل تحدث تحولا ملحوظاً فى الفروع الأخرى التى تشكلت آنذاك . وهذه اللحظة بالذات هى التى يجب أن تعتبر بحق بداية الأدب الجغرافى العربى .

حواشي الفصل الأول

(١) — Sarton, Introduction, I, p. 230

(٢) — Müller, p. 523 — 526

(٣) شرحه ص ٤٠٩ . عن حياتهما راجع : Christ - Schmidt, II, p. 401

(٤) — Mzik, Ptolemaus und die Karten, p. 153

(٥) — Conti Rossini, Chrestomathia, p. 35 — 37;
Sarton, Introduction, I, p. 433

(٦) خلاصة كلام المؤلفين القدامى عن بلاد بلاد العرب الجنوبية يعطيه باللاتينية :
Conti Rossini, Chrestomathia, p. 1 - 37.

(٧) نالينو ، الفلك ، ص ١١٢ (= Racc., p. 175 - 176)

(٨) — Saussure, Commentaire p. 129 — 175
(في كتاب : (Ferrand, Introduction

(٩) — Nallino, EI, I, p 517

(١٠) ابن قتيبة ، راجع شكرى الآلوسى ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(١١) — Ruska, EI, III, p. 252

(١٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٨ – ١٣٣ (= Racc., p. 187—192)

(١٣) — Ferrand, Introduction, p. 143 - 144, note 1

(١٤) — Saussure, Commentaire, p. 143

(١٥) — Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95 — Wellhausen, Reste 2, p. 210.

(١٦) نالينو ، الفلك — (= Racc., p. 107, 109)
المعلوف ، مجلة المجمع العلمي العربي Samaha, Names, p. 7
Jacob, Beduinenleben^2, p. 158—160—Dvorac, p. 38—40

(١٧) — Hess, راجع Saussure, p. 105, 107

(١٨) راجع مثلا ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٧٠٤ [٨] و ص ٥٤٨ [٣٠ – ٣١]
ولدى البدو أيضاً : راجع Hess ص ١ – ٢ – نالينو ، الفلك ، ص ١٠٨ – ١٠٩ و ص ٣١٢ – ٣١٣
(= Racc. p. 172—173, 315 -316)

(١٩) الخالدى No I, 1—3 = Huber — Brockelmann, p. V

(٢٠) No XIX, 4 - 6 (p. 136—137) الخالدى ، Brockelmann, GAL, SBI, p. 403 —
=Huber Brockelmann, p. XXXIX — XL.

(٢١) (النص ص ٥ ؛ الترجمة ص ١٨) — Lyall, No I,1—3

(٢٢) — Hirschfeld, p. 55, No CXXV, 1—3:

راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ص ١٠٥ .

(٢٣) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2b

(٢٤) شرحه ص ٤٠٣ .

(٢٥) (الطبعة المنفصلة ، ص ٢) — Wüstenfeld, Bahrein und Jemâma, p. 174

(٢٦) — Kowalski, Korosi Czoma Archivum, II, 1926, p. 38—41 :

أنشدنا الرياشى :

غلبت أمه أباه عليـــه   فهو كالكابلى أشبه خاله

(ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، الجزء الرابع ، ص ١٢٢)

(٢٧) — Mzik, WZKM, XLV, p. 97

(٢٨) شرحه ص ٩٩

(٢٩) — Samaha

(٣٠) ناللينو ، الفلك ص ١٠٥ (= Racc., p. 170)

(٣١) — Michelson, p. 616 - 617, No. 307

(٣٢) ناللينو ، الفلك ص ١٠٦ (= Racc., p. 170—171)

(٣٣) — Samaha, Names, p. 6 — Horovitz, p. 119

(٣٤) ناللينو ، الفلك ، ص ١١٠ ، ٣١١ — ٣١٢ (= Racc., p. 174, 315—316)

ولكن راجع أيضاً : Hartner, EI III, p. 577

(٣٥) — Sablukov, p. 56

(٣٦) — Dvorac, p 41 - 42

(٣٧) ناللينو ، الفلك ، ص ٨٤ — ١٠٤ (= Racc. p. 153—169)

وأيضاً : Moberg, An-nasi', EI, III, p. 924—925

(٣٨) راجع : — Hartner, Zaman, p. 1307—1308

(٣٩) — Streck,Kaf, p. 658

(٤٠) — Kramers, EI, EB, p. 63

(٤١) — Golius, p. II sui. = Mehren, Udsigt, p. 80—81

(٤٢) — Wensinck, Navel, p, 4

(٤٣) — Streck, Kâf, p. 658 - 659.

وعن علاقة جبل قاف بالنظريات الإيرانية فى نشأة العالم (البندهشن)

راجع : Aga Oghlu, p. 246—248

(٤٤) راجع مجموعة المنحولات (Apocrypha) المصرية :

Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135.

ويشير فيه إلى : ROC, XVII, p. 247

(٤٥) راجع آراء العبريين فى هذا : — Hirschberg, p. 86, Note 1

و Reinaud, Introduction, p. CLXXVIII—CLXXX

قارن أيضاً غريمه (Grimme, II, 47) الذى يرى فى السبع أرضين تقليداً للسبعة سماوات ، لأن العبريين يعتقدون أن كل ما خلقه الله فى أعلى جعل له مثيلا فى أسفل .

(٤٦) — Kramers, Legacy, p. 83—84 p. 47

(٤٧) — BGA, III², p. 16

(٤٨) — ZKV, I, 1925, p. 107-108

(٤٩) — Wensinck, Ocean, p. 20, 37

(٥٠) — Mzik, WZKM, XLV, p. 85-108

وخاصة p. 97-108

(٥١) — BGA, III², p. 20-136

(٥٢) — Mzik, WZKM, XLV, p. 103

(٥٣) شرحه p. 106-107

(٥٤) شرحه p. 107

(٥٥) شرحه p. 108

(٥٦) — Ahreus, p. 132

(٥٧) — BGA, III², p. 16 — Wensinck, Ocean, p. 24

(٥٨) — Kramers, EI, EB, p. 63

(٥٩) — Horovitz, p. 141

(٦٠) شرحه p. 137-138

(٦١) شرحه p. 108

(٦٢) شرحه p. 123

(٦٣) — Streck, Djudi, p. 1106—Horovitz, p. 107-108

(٦٤) — Horovitz, p. 123-125

(٦٥) شرحه p. 125

(٦٦) شرحه p. 138

(٦٧) شرحه p. 93-94

(٦٨) شرحه p. 94-95

(٦٩) شرحه p. 94

(٧٠) شرحه p. 89-90

(٧١) شرحه p. 141 وأيضا القرآن (٥٨٢) : مصراً

(٧٢) — Horovitz, p. 101

(٧٣) شرحه p. 127

(٧٤) شرحه p. 131

(٥٧) شرحه p. 121-122

(٧٦) شرحه p. 137

(٧٧) شرحه p. 113

(٧٨) شرحه P. 125-127

(٧٩) شرحه P. 103-106

(٨٠) شرحه P. 115

(٨١) شرحه P. 102-103

(٨٢) — Reinaud, Introduction, p. CCCXI-CCCXIV - Horovitz, p. 150-151—Wensinck, EI, IV, p. 1236

(٨٣) — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 72-74, 287-288

(٨٤) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٤ (=Racc. .p, 184-185)

Wensinck, Handbook, p. 201

(٨٥) Wensinck, Handbook, p. 99

(٨٦) (مع ذكر المراجع) — Streck, (Kàf) p. 658,

(٨٧) شرحه p. 659

(٨٨) راجع :

— Wensinck, Handbook, p. 263

(٨٩) — Wensinck, EI, IV, p. 1235

(٩٠) — Fischer, Beiträge, p, 15

(٩١) — Wensinck, Handbook, p. 66

(٩٢) ابن الفقيه BGA, V, p. 3

راجع : Wensinck, Navel, p. 51

(٩٣) راجع : — Hirschberg, p. 22- 23—Wensinck, Navel, p XII

(٩٤) — Carra de Vaux, EI, I, p, 606-607

(٩٥) — Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135

مع الإشارة إلى ترجمة القرآن لسافارى Savary ص ٢١

Barbier de Meynard, Al Macoudi, I, p. 203—Sprenger, Mohammed, II p, 946

راجع أيضاً : Kimble p. 185

(٩٦) Kramers, EI, EB p, 63

(٩٧) ابن الفقيه : BGA, V, p. 4

(٩٨) شرحه : p. 4 –

مفصل أكثر ولكن يختلف عنه : ابن خرداذبه BGA, VI, p. 93

(٩٩) — Wensinck, Handbook, p. 50-51

(١٠٠) شرحه P. 40.

(١٠١) شرحه p. 180-183.

(١٠٢) شرحه p. 96-97

(١٠٣) يرويها فى صيغة أخرى ابن عبد الحكم ، راجع Torrey, p. 1

وقارن : Brockelmann, GAL, I, p. 148 : No I; SBI, p. 227,

مع اشارة : Carra de Vaux, Abrégé, p. 29

ابن الفقيه : BGA, V, p. 3-4

(١٠٤) ترد مع مشك Meshek (عبرية)

(١٠٥) قرب الاسكندرية راجع اليعقوبى : BGA, VII, p. 342

(١٠٦) — Ferrand, Le Wakwak.

(١٠٧) — Wensinck, Tree, p. 37.

(١٠٨) — Ferrand, Le Wakwak, p. 214-215.

(١٠٩) — De Goeje, Selections, p. 23-24; Brockelmann, GAL, SBI, p. 403

(١١٠) — Goldziher, Muh Studien, II, p. 161.

Levi Della Vida, EI, IV, p. 700-202.

(١١١) — Sprenger, Mohammed, I,p. 460—Barbier de Meynard, AlMaçoudi, IV, p. 28-29.

(١١٢) — Chauvin, VII p. 50-55 — Basset, Temìm, p. 3-26

(١١٣) — Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 4, SB, II, p. 162.

(١١٤) حاجى خليفة ، I ، ص ٣٧١ رقم ١٠٠٨ : إفحام الممارى بأخبار تميم الدارى

Basset, Temîm, p. 6.

(١١٥) ابن سعد ، الثالث / الثانى ، ص ٩٣ – ٩٤

— Caetani, Chronographia, p. 364, 24 — Caetani, Annali, VI, p. 185.

(١١٦) الطبرى ، الأول ، ص ٢٧٩٨ ، والفهرس ص ٣٠٩

(١١٧) ابن سعد ، الثالث / الثانى ، ص ٩٤

(١١٨) ياقوت ، المعجم ، الثانى ، ص ٨٠٦ – ٨٠٧ – القزوينى ، الأول ، ص ١٦١

(١١٩) — Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 58-59.

(١٢٠) الدينورى ، ص ٢١ – ٢٢.

(١٢١) ابن الفقيه BGA, p. 140-143.

(١٢٢) — Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 3

(١٢٣) Krymski, Rozvidkip. 117.

(١٢٤) Wüstenfeld, Ibn Ishak, p. 992.

وقراءات أخرى لدى الطبرى، الجزء الأول ، ص ١٦٠٥–١٦٠٦

راجع الدميرى ، الجزء الثانى ، ص ١ De Goeje, Brandan, p. 63

(١٢٥) — Wensinck, Handbook, p. 224.

(١٢٦) — Rosen, k Fihristu, p. 239-241.

(١٢٧) (فى نص المسعودى بدل « لنا » توجد « لى »)

(١٢٨) — Barbier de Meynard, Al-Maçcudi, III, p. 123-130.

(١٢٩) شرحه ص ١٢٥ – ١٢٦

(١٣٠) ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٨

(١٣١) — Description de l'Égypte, I, 581-582 — Nallino, Il Valore, p. 22.

(١٣٢) ابن خلكان الأول ، ص ٢٣٦ – ٢٤٣ — Perrier, p. 200-201.

(١٣٣) الدينورى ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦

(١٣٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٩٤ : « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران » .

راجع حبيب الزيات : Les Couvents, p. 343

(١٣٥) ابن خلكان ، الجزء الأول ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠

(١٣٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٦١٣ . أبيات الأعشى . قراءة أخرى :

عمر وقنداييل : ابن قتيبة ، العيون ، الجزء الثانى ، ص ١٩٩

(١٣٧) (كتاب الأغانى ، الجزء الأول ، ص ١٧٦ و ١٦٩) = Rescher, Abriss, I, 2, p. 207.

(١٣٨) عن ابن القرية راجع كاتيانى (Caetani, Chronographia, p. 1015, No 34)

(١٣٩) — Wensinck, A'scha, p. 496

Brockelmann, GAL, I, p. 62, No 7; SB,I, p. 95

Rescher, Abriss, I, p. 149-150.

(١٤٠) — Geyer, p. 328, No 20 – Goutta, p. 15

ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٦١٣ – البلاذرى ، ص ٤٣٣ –٥٣٤

شيخو ، المجانى ، الخامس ، ص ١٨٣–١٨٤

(١٤١) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الرابع ، ص ١٦٠ – ١٦٥ .

(١٤٢) جرجس افندى صفا ، ص ٤٤١ – ٤٤٢

(١٤٣) — Wellhausen, Das arab. Reich, p. 271
Périer, p. 235—Gibb, The Arab Conquests, p. 35.

(١٤٤) الطبرى الثانى ، ص ١١٩٩

(١٤٥) ابن الفقيه ، BGA, V, p. 283

(١٤٦) من المحتمل أن بيزلى يعنى هذا بقوله : Beazley, I, p. 409
« The maps or repesentatrions drafted by provincial administrators were put under contribution » . (قبل العصر العباسى)

(١٤٧) التنوخى ، « الفرج » ، الأول ص ١٣٨ – ١٤٧ : « روى نجيد كاتب ابراهيم بن المهدى أن ابراهيم حدثه أن مخلداً الطبرى الكاتب للمهدى على ديوان الرسائل أخبره أنه كان فى ديوان عبد الملك يتعلم . . . » .

(١٤٨) المقدسى ، BGA, III ص ١٥٣ – ١٥٤ . راجع :
الطبعة الأوكرانية ص ١٢٧ . Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 26-27, no 21

(١٤٩) — S. Vila, Atti, p. 545 — Dozy, Recherches, I, p. 76-78 —
— Caetani, Chronographia, p. 1245,3
راجع عن المصادر :
– السمعانى ، ص ١٨٢ – ابن حيان موجود لدى : المقرى ، الجزء الثنى ، ص ٨ ؛ وراجع أيضاً المقرى الجزء الأول ص ١٤٥ – ابن عذارى ، الجزء الثانى ، ص ٢٥–٢٦ .

(١٥٠) — Levi-Provençal, L'Espagne, p. 202-203

(١٥١) — Caetani, Chronographia, p. 1288,40 — Wellhausen, Das Arab. Reich, p. 213

(١٥٢) — Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 2, No I

(١٥٣) — Ruska, GZ, 33, 1927, p. 524
وأيضاً قبله : Meyer, III, p. 267, Note 2

(١٥٤) — Renaud, Invasion p. 16, Note I
Caetani, Chronographia, p. 1288, 40
Simonet, Historia, p. 155-157

(١٥٥) — RChr É Ar, I, p. 13-16, No 14-17

(١٥٦) — Krachkovskia, EV,VI, p. 88-91, illustration, 16

(١٥٧) — Mzik, Ptolemaeus, p. 158 and note 13

الفصل الثاني

بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب[1]

64 يرجع أصل الجغرافيا | العلمية عند العرب إلى الفلكيين اليونان . فإذا ما تم الاتفاق على هذه الحقيقة الثابتة وانتقلنا منها إلى تاريخ التطورات الأولى للعلم فى قالبه العربى لجابهنا لأول وهلة عدد غير قليل من المشاكل المعلقة التى ما تزال تفتقر إلى الحل حتى الآن . وسيتضح لنا منذ البداية أن التأثير اليونانى لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية ، فقد تقدمه الهندى ثم الإيرانى الذى يرتبط بدوره بالهندى . وإذا كان المذهب اليونانى قد أخذت كفته فى الرجحان منذ بداية القرن التاسع ولم يلبث أن غلب عقب ذلك إلا أن المذهبين الأولين ظلا مع ذلك محتفظين ببعض أهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى فى المناطق البعيدة جداً عن موطنهما كالأندلس ، وظلت بعض النظريات المرتبطة بهما عالقة بالجغرافيا العربية | 65 إلى عهد أبعد من ذلك . وقد أدى أحياناً تداخل التأثيرات وتشابكها إلى خلق صورة متضاربة الألوان أصبح من العسير تتبع سير التطور التاريخى خلالها .

وثمة سؤال آخر لا يزال يفتقر إلى إجابة شافية وهو لماذا ظهرت الجغرافيا العلمية عند العرب فى العصر العباسى فقط ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن ؟ ولماذا كان نقلها فى أول الأمر من الإيرانيين غالباً على الرغم من أن الأمويين كانوا أقرب إلى المهد القديم للحضارة الهلنستية (Hellinistic Civilization)* فى أنطاكية والإسكندرية حيث لعب السريان فى العادة دور الوسيط ؛

ويبدو مغرياً الفرض القائل بأن العباسيين فى اتجاههم السياسى نحو إيران قد ارتبطوا بالثقافة الإيرانية أيضاً . وقد عرف بلاط الساسانيين المنجمين[2] بينما لا نسمع شيئاً عنهم بين العرب فى العصر الأموى ، بلى إن لفظ « منجم » لا يقابلنا فى الشعر قبل عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠[3] . ولعله ليس من محض الصدفة أن يلعب المنجمون دوراً ملحوظاً عند وضع الحجر الأساسى لبناء بغداد عام ١٤٥ هـ = ٧٦٢ ، بل ويقال إن الخليفة المنصور استعان بمعرفة الطالع (horoscope) لاختيار موقع عاصمته الجديدة[4] . ويرد اسم اثنين من المنجمين فى هذه المناسبة ، وكانا كما هو الحال فى ذلك العصر فلكيين أيضاً وعلى معرفة

---

* العصر الهلنستى Hellinistic هو عصر انتشار الحضارة اليونانية فى المشرق عقب فتوحات الإسكندر ؛ وقد أثرت هذه الحضارة فى حضارة الشرق وتأثرت بها وأخرجت مزيجاً من الاثنين . وهذا اللفظ يستعمل فى مقابل العصر الهلينى Hellinic وهو عصر الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها ، أى قبل الغزو المقدونى . ويقول سارطون إنه « قد أحسن اختيار هذه العبارة إذ توحى بالهلينية بالإضافة إلى شىء آخر غريب عنها ، شىء مصرى أو شرقى » . (المترجم)

تامة بالتراث العلمى لعصرهما . أحدهما هو نوبخت الذى انحدرت من صلبه دوحة إيرانية احتلت مكاناً مرموقاً فى ميدانى العلم والسياسة فى العصر العباسى[٥] ، أما الآخر فهو ما شاء الله الذى وإن كان يهودياً إلا أنه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الإيرانى[٦] ، وسيرد بالتالى ذكر استعماله « لزيج الشاه » الذى يرجع أصله إلى العهد الساسانى . والتأثير الإيرانى يمكن تتبعه ليس فى الأسماء فحسب بل أيضاً فى المصطلحات التى وجدت طريقها إلى أوروبا الوسيطة بفضل الترجمات اللاتينية لمصنفات ما شاء الله الذى يرد اسمه باللاتينية على صورة Messahallath أو Messeallah[٧] . ويمكن افتراض وجود علاقة بين هذا التراث الإيرانى والمدرسة الطبية الشهيرة لعهد الساسانيين بجنديسابور[٨] | التى وإن كان أطباؤها جلهم من المسيحيين إلا أن لغتهم كانت الفارسية . 66

ونادرا ما اتسمت المصنفات الفلكية الإيرانية التى وصلت العرب فى ذلك العصر بالأصالة ، فهى كانت عادة تعكس العلم الهندى الذى وجد طريقه أيضاً إلى العرب مباشرة . وتصور الرواية العربية هذه الصلة بالعلم الهندى على الطريقة الآتية : فقد كان من بين أعضاء السفارة الهندية إلى بلاط المنصور فى عام ١٥٤ هـ = ٧٧١ أو عام ١٥٦ هـ = ٧٧٣ عالم هندى هو مانكا Manka أو كانكا Kanka أحضر معه من الهند رسالة فى الفلك بجداولها أطلق عليها فى الترجمة العربية التى عملها الفزارى ويعقوب بن طارق اسم «كتاب السند هند»[٩] . وكثير من جوانب هذه القصة غير واضح ابتداء من التردد فى الوقوف عند تاريخ محدد ، الأمر الذى يزيد فى تعقيده وجود رواية أخرى عن سفارة ثانية فى عام ١٦١ هـ = ٧٧٧ ـ ٧٧٨[١٠] . غير أن أصل هذه الرسالة قد أمكن تحديده بكل ثقة وبدرجة كبرى من اليقين ألا وهو رسالة « براهما سفوطا سدانتا » Brahmasphutasiddhanta التى وضعها فى عام ٦٢٨ براهما غبتا Brahma Gupta[١١] ، ولفظ « سيدانتا » قد تحول فى الوسط العربى تحت تأثير الاشتقاق الشعبى إلى « السند هند » الذى تنعكس فيه التسمية العربية لشطرى الهند ، أى الهند والسند . ومعنى « سيدانتا » فى الأصل هو «المعرفة والعلم والمذهب»[١٢] ، ثم لم يلبث أن أطلق اصطلاحاً على كل مصنف فى الفلك . والرسالة تحوى مقدمة وجيزة أرفق بها عدد من الجداول الفلكية فى تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حسبت هذه الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين وهى ما تسمى بالكلبا Kalpa التى تقوم على فرض مؤداه أنه فى بداية العالم كانت الشمس والقمر والكواكب مجتمعة على خط واحد وأنها سترجع إلى نفس الوضع فى نهاية العالم[١٣] .

وقد ظلت هذه النظرية معروفة فى أوروبا لعهد طويل ، ولنذكر بهذه المناسبة أنه قد وردت فى « الكوميديا الإلهية » لدانتى Dante الأبيات الآتية :

«كان الوقت لحظة الصباح الأولى ، وقد ارتفعت
الشمس محاطة بنفس تلك النجوم التى كانت

ثصحبها منذ الأزل ، عندما حرك الحب الإلهى
تلك الأشياء الجميلة لأول مرة »[١٤] .

والبرهان على ما بلغتة هذه النظرية من انتشار بين العرب يتضح من موضع فى «كتاب الشعر والشعراء» لابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٦ ﻫ = ٨٨٩ م) . فهو عند شرحه لبيت أبى نواس فى وصف الخمر :

تُخُيِّرت والنجـوم وقف   لم يتمكن بها المـــدار

كتب يقول :

« يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيرها من هناك وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها فهلك الخلق بالطوفان وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارجاً عن الحوت . ولم أذكر هذا لأنه عندى صحيح بل أردت به التنبيه على معنى البيت ونظر هذا الشاعر فى هذا الفن »[١٥] .

وفيما بعد استعمل الفلكى أبو معشر حساب التوقيت الذى يبدأ من الطوفان ، لأن الطوفان حدث فى لحظة اقتران جميع الكواكب فى نهاية دائرة البرج[١٦] .

ومن العسير التكهن بالصيغة التى اتخذها كتاب « السند هند » فى الوسط العربى إذ أن نصه لم يحفظ لنا ، ومن العسير كذلك التكهن بطبيعة الدور الذى قام به كلا المترجمين فى هذا الصدد فالفزارى كان إلى عهد غير بعيد ، وذلك لتضارب المعلومات حوله فى المصادر الإسلامية ، يقصد به شخصان . وإحدى أيادى نالينو Nallino العديدة على العلم هى إثبات اسمه الحقيقى[١٧] . وقد استعمل الفزارى فى كتابه الأسس والمناهج الهندية فى الحساب لوضع جداول فلكية جديدة — زيج[١٨] . وقد حفظ لنا الفزارى على العموم أصل المذهب الذى أطلق عليه فى العلم العربى « مذهب السند هند » ولكنه أجرى فيه بالطبع تعديلات وإضافات جوهرية وقام بتحويل حساب التوقيت الهندى إلى « سنى العرب » كما تقول المصادر ، أى أنه استبدل بنظام الكلبا حساب السنين القمرية المستعمل لدى المسلمين[١٩] ، أما إضافاته فقد بدت فى الاتساع الملحوظ فى المادة المتعلقة بأراضى الخلافة ؛ وفى القطعة من زيجة التى حفظها لنا المسعودى[٢٠] والتى يرد فيها تعداد البلدان الإسلامية يلاحظ اهتمامه بالعامل التاريخى وهو شىء غريب على الهند تماماً ، فلديه يظهر لأول مرة الرباط بين التاريخ والجغرافيا[٢١] الذى أصبح بالتالى طابعاً مميزاً لجميع مصنفات الأدب الجغرافى فى اللغة العربية . ومادة هذه القطعة تشير إلى أنها دونت عقب عام ١٧٠ ﻫ = ٧٨٦[٢٢] بقليل ويلوح أنه إلى نفس تلك الحقبة ترجع الصيغة النهائية لزيج الفزاوى .

إن نشاط الفزارى ومعاصريه كان بلا شك فاتحة عهد جديد فى تطور الفلك والجغرافيا الرياضية

عند العرب ، وكان هو وما شاء الله الذى مر ذكره أول من وضعا الأسطرلاب[٢٣] بين العرب. وربما أفاد فى هذا من الرسالة السريانية لساويرس سبوكت التى ترجع إلى منتصف القرن السابع ، غير أنه من الصعب إصدار حكم فى هذا الصدد لأن آثار الفزارى لم تصل إلينا كما وأن آثار ما شاء الله فى نفس الموضوع معروفة لنا فى ترجمتها اللاتينية الوسيطة فقط . ويلاحظ أن الفزارى قد نظم قصيدة فى النجوم مفتتحاً بهذا سلسلة الشعر التعليمى الذى ازدهر بشدة فى العصور التالية .

وأقل من ذلك بكثير معرفتنا بمصنفات الداعية الثانى للمذهب الهندى وهو يعقوب بن طارق [٢٤] معاصر الفزارى. واعتماداً على بعض الوقائع يمكن أن نفترض أن المعين الذى استقى منه مادته كان أوسع ولم يقتصر على رسالة براهما غوبتا وحدها بل شمل عدداً من الآثار الأخرى. ولكن مصنفاته هو أيضاً مع الأسف الشديد لا يمكن الحكم عليها إلا من عناوينها ، ويبرز من بينها كتاب « تركيب الفلك » الذى يزعم أنه قد جمع بين دفتيه المعلومات التى استقاها من العلماء الهنود أعضاء السفارة الثانية إلى بلاط العباسيين فى عام ١٦١هـ = ٧٧٧ — ٧٧٨[٢٥] ، أى بعد خلافة المنصور . أما قيمة مؤلفاته فيدل عليها ما لقيته من تقدير علماء مثل البيرونى[٢٦] ، أو ابراهيم بن عزرا الذى عاش بعد ذلك بوقت طويل فى الأندلس النائية وفى إيطاليا .

هذا وقد ثبتت قواعد نظام « السند هند » فى الفلك العربى على أساس عدد من الرسائل الهندية فى عهد المنصور وبقى سائداً سيادة مطلقة حوالى الخمسين عاماً إلى عصر المأمون حين بدأ يزحمه المذهب اليونانى[٢٧] ؛ غير أنه لا يمكن القول بأية حال أنه قد اختفى مرة واحدة بأجمعه ، فأكبر رياضى عصر المأمون قاطبة وهو الخوارزمى الذى سيرد ذكره مراراً قد وضع جداوله الفلكية « السند هند الصغير » اعتماداً على النظام الهندى[٢٨] . وقد استمر متداولا على أية حال إلى آخر القرن الحادى عشر وأفاد منه بحاثة كبار مثل البيرونى[٢٩] الذى كان إلى جانب الترجمات العربية يعرفه معرفة جيدة فى مصادره الأصلية[٣٠] . أما فى أراضى الخلافة الغربية فقد استمر الاهتمام به زمناً أطول ، كما يظهر ذلك من مثال ابراهيم بن عزرا[٣١] وغيره . وإحدى القواعد الجوهرية لهذا المذهب ظلت إلى حد ما مرتبطة بالمصنفات الجغرافية العربية على الدوام وامتد تأثيرها فى بعض المجالات على العلم الأوربى إلى أيام كولومبس ، أعنى بذلك مسألة حساب خط الزوال أى خط منتصف النهار (meridional) من الشرق ، وأيضاً نقطة ابتداء ذلك الحساب . ذلك أنه قبل مجىء النظام اليونانى كانت الأطوال عند العرب تقاس ابتداء من خط منتصف النهار عند الأرين Arine أو « قبة الأرض » الموجودة فى مكان ما من الشرق . وفى القرن العشرين فقط أصبح من الممكن إلى حد ما استكناه جوهر هذه النظريات ونفض غبار الغموض الذى تراكم على ممر قرون طويلة ؛ وكانت أول محاولة فى هذا الصدد للمستشرق الفرنسى رينو Reinaud [٣٢] .

ووفقاً لنظرية العلماء الهنود فإن خطوط الطول يبدأ تعدادها من خط منتصف النهار الذى يمر بوسط المعمورة حيث توجد جزيرة لانكا Lanka التى عرفها العرب باسم سرنديب وتعرف حالياً باسم

سيلان والتى زعموا أنها تقع على خط الاستواء . والنقطة التى يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار كانت تسمى عند العرب « قبة الأرض » أو « القبة » وهى تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب . ومن جزيرة لانكا أومن هذه « القبة » كان ابتداء حساب الأطوال الجغرافية عند الهنود[٣٣] . وبحسب تصوراتهم فإن خط زوال لانكا كان يمر على مدينة أوجينى (اجين Ujain الحالية من أعمال مالوه Malwa بالهند الوسطى) حيث كان يقوم مرصد مشهور[٣٤] . وفى صورتها العربية تحولت أجين إلى أزين ، وهذا قريب من شكلها عند بطلميوس وهو أزين Ozene ؛ ثم نتيجة لنقص معهود فى الكتابة العربية تتحول أزين ببساطة إلى أرين Arine . أما الجزيرة نفسها فنظراً لعدم احتفاظها باسمها الهندى عند العرب فقد تمت زحزحتها سهواً فى تجاه الغرب مستمرة على خط الاستواء بحيث أصبحت حسب تصوراتهم تحتل مكاناً وسطاً بين الهند والحبشة[٣٥] ؛ ونتيجة لكل هذا فقد ثبتت لدى العرب النظرية القائلة بأن حساب الأطوال وفقاً لمذهب الهند يبدأ من خط زوال الأرين ، وهذا بدوره جر إلى خلط مفعم بالنتائج بين « قبة الأرض » والأرين ، بل أدى إلى ظهور مصطلح « قبة الأرين » . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى اتخاذ لفظ أرين شيئاً فشيئاً لمعنى المركز على الإطلاق[٣٦] ؛ وفى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) يعرف الجرجانى الأرين فى معجمة | للمصطلحات « التعريفات » كالآتى :

70

« الأرين محل الاعتدال فى الأشياء وهى نقطة فى الأرض يستوى معها ارتفاع القطبين فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل وقد نقل عرفاً إلى محل الاعتدال مطلقاً »[٣٧] .

ولم يختف حساب الأطوال ابتداء من الشرق اختفاء تاماً حتى بعد دخول المذهب اليونانى . ففى القرن العاشر أثبت الجغرافى وعالم الآثار المشهور الهمدانى ، وأصله من جنوب جزيرة العرب ، أقول أثبت الهمدانى فى كتابه « صفة جزيرة العرب »[٣٨] أطوال « مدن العرب المشهورة » بما فى ذلك مكة والمدينة ابتداء « من الشرق » وأشار إلى أن مصادره هى الفزارى ومعاصر الفزارى المشهور حبش المروزى. وقد اهتم هونغمان Honigmann فى الآونة الأخيرة بدراسة هذه المادة وحللها تحليلا دقيقاً[٣٩] .

ولم يكتف مذهب السند هند بإدخال مصطلح « قبة الأرض » والأرين فى الجغرافيا العربية بل أدخل أيضاً عدداً من النظريات الأخرى ، أحياناً عن طريق الرواية الإيرانية مع زيادات مختلفة . ويروى البيرونى أن بعض الجغرافيين قد حدد موقع جزيرة جمكوت Djamkut[٤٠] على درجة ٩٠° إلى الشرق من جزيرة لانكا أى فى نهاية المعمورة ،ويذكر أن اسمها عند الهنود هو ياماكوتى Yamakoti ، بالرغم من أن ذكرها لا يرد لديهم . وهكذا فإن جمكوت فى الشرق تقابل « جزر السعادة » (الخالدات) عند بطلميوس فى المغرب [٤١] . وفى أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠° درجة إلى الشرق من « جزر السعادة » و ٩٠° درجة إلى الشرق من « قبة الأرض » يضع البيرونى بدلا من جمكوت قلعة كنكدز Kangdez

الأسطورية التى كما تزعم الرواية الإيرانية قد بناها الملك كيكاوس أو الملك جم فى أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠° درجة إلى الشرق من « جزر الخالدات » و ٩٠° درجة من « قبة الأرين »[٤٢] ! بل إن هذه القلعة قد ظهرت فى نهاية القرن السادس عشر كأنها موجودة فعلا وذلك فى كتاب فارسى الجغرافيا هو « آئين أكبرى » الذى تم تصنيفه بالهند[٤٣] .

ومن الغريب بمكان أن نظرية « قبة الأرض » الموجودة بالأرين ربما وجدت طريقها إلى أوروبا ، بل وربما أدت هناك إلى ظهور نظريات كانت لها نتائج بعيدة المدى . ففى أثناء أسفاره بالمشرق بين عامى ١١١٠ — ١١١٤ اعتنق اديلارد الباثى Adelard of Bath ، مترجم الجداول الفلكية للخوارزمى النظريات العربية الأساسية عن قبة الأرض والتقسيم المنظم لها ، ويلوح أنه أول من أدخل ذلك المصطلح إلى أوروبا فى ترجمته اللاتينية لتلك الجداول حوالى عام ١١٢٦ | [٤٤] ؛ وجاء فى قوله « الأرين أو قبة الأرض تقع على خط الاستواء فى النقطة التى تتلاشى عندها العروض ويمكن تحديد النقاط الرئيسية لأى مكان من خط زوال الأرين » . ونفس هذه الفكرة قد دعا إليها المترجم الشهير جيرارد الكريمونى Gerard of Cremona (١١١٤ — ١١٨٧) وقد حملها على ما يبدو من طليطلة Toledo[٤٥] . وفى القرن التالى لهذا اعتنقها عدد من كبار علماء القرون الوسطى الأوروبية مثل روجر باكون Roger Bacon والبرت الكبير Albertus Magnus[٤٦] . وكانت التصورات عنها مبهمة أحياناً ، ففى إحدى الخارطات التى ترجع إلى عام ١٢٧٢ زحزحت الأرين صوب الشمال[٤٧] .

وقد لعب بطرس الآيى Petrus de Aliaco أسقف كمبرى Cambrai (١٣٣٠ — ١٤٢٠)[٤٨] دوراً خطيراً بالنسبة للعلم الأوروبى والكشوف الجغرافية التالية ، خاصة بفضل رسالته « صورة العالم » Imago Mundi التى تم تصنيفها حوالى عام ١٤١٠ وتم طبعها حوالى عام ١٤٨٠ — ١٤٨٧[٤٩] . وإذا كانت الرسالة فى حد ذاتها لا تمثل أهمية كبرى من وجهة نظر الدراسات العربية ، إذ لاتتضمن فى الواقع سوى بضع مقتطفات من الترجمات اللاتينية لابن رشد وابن سينا وهالى Hali* والفرغانى[٥٠] ، إلا أنه من الغريب ملاحظة أن نظرية الأرين تظهر فيها بحذافيرها فى المتن وفى الخارطة على السواء[٥١] . وأكثر غرابة من ذلك أن يعرفها خريستوفر كولومبس Christopher Columbus فقد حفظت لنا تعليقاته الشخصية على النسخة التى كان يمتلكها من كتاب « صورة العالم » Imago Mundi[٥٢] . ومن

* نقل المستعرب الكبير هذا الاسم من كتاب نيوتن: Newton, Travels and Travellers in the Middle Ages, London 1926
وقد جاء فى ذلك الكتاب فى ص ٢٤ ما نصه :

« Many citations are given from Arab authors, Averroes, Hali, Alfragan, Avicenna and so on »

وإننى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الشكل اللاتينى كان يراد به اسم العالم العربى على بن رضوان (توفى عام ١٠٦٨ م) شارح « كتاب الأربعة » Tetrabiblos . لبطلميوس . (المترجم)

هذا يتضح أن نظرية الأرين هى المسئولة بالذات عن ظهور نظرية الشكل الكمثرى للأرض عند كولومبس ، ومؤداها أنه يوجد فى نصف الكرة الغربى من الأرض وفى مواجهة « قبة الأرين » مركز آخر للأرض على موضع أكثر ارتفاعاً من رصيفه الموجود بالجهة الشرقية(٥٣) . وهكذا فمهما بدا الأمر غريباً اليوم فإن النظرية الجغرافية العربية قد لعبت دوراً ما فى كشف العالم الجديد ، وليس ببعيد أن يكون تأثير هذه النظرية هو الذى دفع دانتى — الذى يدين بالكثير للتراث الإسلامى كما أثبت البحث الحديث — إلى وضع « المطهر » Purgatory على جبل فى الجانب الغربى من نصف الكرة الجنوبى(٥٤) ، كأنما يعكس بهذا التصورات المسيحية عن وجود الفردوس الأرضى فى أقصى الشرق فى مكان ما وراء البحار(٥٥). هذا ولم تختف نظرية قبة الأرين من الجغرافيا الأوروبية إلاّ عقب الرحلات الكبرى حول الكرة الأرضية (٥٦) .

72

ولم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها إلى العرب مباشرة فحسب ، بل وصلتهم أحياناً فى ثوبها الإيرانى . ويتضح هذا بصورة جلية من بعض المصطلحات التى دخلت فى الاستعمال العلمى لدى العرب مبكراً واستمرت باقية فيه ؛ وأحد هذه المصطلحات هو اللفظ الذى يطلق عادة على الجداول الفلكية أعنى بذلك لفظ زيج (وجمعه زيجات ، وزيجة ، وأزياج) ، وأصلها من الفارسية زيگ ، وبالبهلوية زيك(٥٧) ، ويقصد به السدى الذى تنسج فيه اللحمة ، ثم أطلق على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية لخيوط السدى . وثمة تفسير آخر لمؤرخ العلوم الدقيقة عند العرب شوى Schoy وهو أن لفظ زيج من الفارسية زه Zäh أو زيق Zik بمعنى الوتر والخيط الذى يستعمل فى المقاس (٥٨) ؛ غير أن هذا التفسير لم ينل القبول رغم أنه يجد بعض التعضيد فى كلام للبيرونى ، وذلك أثناء محاولته وضع ترجمة دقيقة للفظ اليونانى « قانون » χανών(٥٩) . وقد أطلق لفظ زيج عند العرب على أى مصنف فلكى بجداوله ، أما الجداول نفسها فقد حملت أحياناً الاسم العربى « جداول » (جمع جدول) Tables ، كما استعمل فى نفس معنى جداول تقريباً اللفظ اليونانى « قانون » الذى وصل إلى العرب على ما يبدو فى شكله السريانى .

وبعض البحاثة أراد أن يبصر آثار النفوذ الشرقى (الهندى — الإيرانى) فى أن الأوصاف الأولى للأقاليم السبعة ، التى ربما ساعد على اعتناق نظريتها التصورات الإيرانية عن السبع كشورات(٦٠) ، تورد مناطق كل إقليم ابتداء من الشرق كما لدى الفرغانى مثلا(٦١) . ومن المستحيل بالطبع نفى هذا تماماً ، رغم أن نظرية الأقاليم السبعة لم تثبت لدى العرب فى الواقع إلا بعد أن كانوا قد تعرفوا على النظريات اليونانية ، وربما حدث ذلك عن طريق السريان أيضاً(٦٢) .

ومن بين المصنفات الفارسية لم يحدث تأثيراً كبيراً على العلم العربى إبان نشأته إلا مصنف واحد فقط ، لم يكن ذا قيمة كبيرة فى حد ذاته لأنه يقوم على الأرصاد والجداول الهندية لا الفارسية ، وهو المعروف

عند العرب باسم « زيج الشاه » أو « زيج الشهريار » ومعناه زيج الملك[٦٣] . واصله البهلوى معروف باسم « زيك شتروآيار » (Zik-i Shatroayar) ويبدأ حساب توقيته ببــداية ملك يزدجرد أى فى اليوم السادس عشر من شهر يونيو عام ٦٣٢ ، وهو يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان[٦٤] . وكما هو الحال 73 دائماً فإنه من العسير الحكم على أصله الذى لم يصــل إلينا ، ولكنه | لعب دوراً خطيراً فى قالبه العربى[٦٥] ، وقد أفاد منه كما رأينا ما شاء الله[٦٦] كما وأن نظرياته لم تكن غريبة على محمد الخوارزمى[٦٧] أكبر دعاة المذهب اليونانى . ولما ثبتت جذور المذهب الأخير بدأ يبطل استعمال « زيج الشهريار » ولكنه لم يختف تماماً وكثيراً ما اعتمد عليه الفلكى حبش المروزى[٦٨] ، ونال انتشاراً واسعاً على يد أبى معشر البلخى (المتوفى عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٦) الذى اشتهر فى أوروبا الوسيطة باسم Albumasar[٦٩] ، وذلك بقصصه المنمقة فى تاريخ هذا الزيج وأهميته . وأبو معشر أصله من بلخ ، انصرف فى أول أمره إلى دراسة التوحيد والحديث ، ثم فكر فى أداء فريضة الحج . أما ما حدث له فى هذا الصدد فيرويه لنا ياقوت فى معجمه « إرشاد الأريب » قال :

« كان بكر كر من نواحى القفص* ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شىء من النجوم فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأعرق فيه حتى الحد وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام أيضاً »[٧٠] .

ومن بين المصنفات العديدة لأبى معشر هذا « زيج » يعتمد على خط نصف نهار قلعة كنكدز التى مر ذكرها أى أنه يرتفع إلى الأرصاد الهندية فى قالبها الفارسى[٧١] . وحتى القرن السابع عشر كان لدى حاجى خليفة فكرة واضحة عن هذا الزيج عندما كتب يقول[٧٢] :

« زيج أبى معشر . . . وهو مجلد كبير ألفه على مذهب الفرس وأثنى على هذا المذهب وقال إن أهل 74 الحساب من فارس وغيره | أجمعوا على أن أصح الأدوار أدوار هذه الفرقة وكانوا يسمونها سنى العالم وأما أهل زماننا يسمونها سنى أهل فارس » .

ولعله بسبب هذه « الأدوار » قد أطلق على جداوله فى موضع آخر اسم « زيج الهزارات » أى « زيج الألوف »[٧٣] حيث نبصر فى القسم الثانى من التركيب لفظاً فارسياً كذلك . وكان اهتمام أبى معشر بالأدوار الكونية (Cosmic Cycles) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظريات المتعلقة بأدوار حياة العالم وبمسألة طول « السنة الكبرى » الذى حدده بطلميوس كما حدده الهنود والعرب أيضاً بست وثلاثين

* قريباً من بغداد . (المترجم)

ألف سنة . ولمجهود أبى معشر فى هذا الصدد أهمية خاصة فى تاريخ العلم البشرى ، وترجمة رسالته الكبرى « المدخل إلى علم أحكام النجوم » أو « المدخل الكبير » التى قام بها هرمان الدلماتى Hermann of Dalmatia حوالى عام ١١٤٠[٧٤] قد ساعدت بشكل خاص على ترويج تلك النظريات فى الغرب[٧٥] . هذا وقد شغلت مسائل التقويم (Chronology) وحساب الأزمنة ذهن أبى معشر بوجه عام فلم يحصر نفسه فى نطاق العلم الهندى — الإيرانى ؛ ونبصر من قطعة كبيرة تبقت من مؤلفه المفقود « الألوف » أنه كان يجهد فى توضيح معنى « النسىء » الذى كان يعمل به عرب الجاهلية ، وهو شىء أشبه بالشهر الكبيس . ذلك أنه حتى فى العصر الذى عاش فيه كان المعنى الحقيقى لهذا اللفظ قد نسى تماماً[٧٦] .

وأبو معشر هو آخر الدعاة الكبار للمذهب الإيرانى ، بالرغم من أنه كمحمد الخوارزمى قد أخذ طرفاً فى نشر المذهب اليونانى . غير أن المذهب الإيرانى لم يهجر بعده بصورة نهائية[٧٧] ، ففى الأندلس مثلا كانت الأطوال تقاس أحياناً إلى نهاية القرن الحادى عشر « بمذهب أهل الفرس » الذى كثيراً ما أشار إليه إلى جانب « مذهب الهند » مصنف « جداول طليطلة » The Tables of Toledo ومخترع الاسطرلاب المكمل أبو اسحق إبراهيم الزرقالى[٧٨] الذى اشتهر فى أوروبا باسم (Arzahel) بفضل رسالته فى الاسطرلاب .

ولعل « زيج الشاه » كان أكثر مصنفات المذهب الفلكى الإيرانى انتشاراً فى اللغة العربية ، بل وربما كان الوحيد من نوعه إذ لا علم لنا بوجود ترجمات لمصنفات أخرى ؛ ومن المحتمل أن الفرس لم تعرف فى هذا الفن كتباً غيره . أما تلك المصنفات المنحولة ، خاصة فى التنجيم (Astrology) ، والمنسوبة أحياناً إلى زردشت Zoroastra[٧٩] وبزرجمهر ، والتى وجدت انتشاراً واسعاً فى الأدب العربى ، فليس لها أهمية جدية أضف إلى هذا أنها كثيراً ما ترجع إلى التراث اليونانى لا الإيرانى رغماً من أن عناوينها تشير إلى العكس .

وقد أخذ المذهب اليونانى يضيق الخناق على المذهبين الآخرين فى الجغرافيا الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، ويمكن القول بأنه قد أصبح بحق المذهب السائد منذ منتصف القرن التاسع . والمقاومة الضعيفة التى ظهرت من المذهبين الهندى والإيرانى ترجع فى جوهرها إلى أن أغلبية المصنفات التى تمت ترجمتها عنهما من قبل قد حملت طابعاً عملياً خالصاً واقتصرت على إيراد القواعد وشرح طريقة استعمال الجداول دون الاهتمام بسرد البراهين والأدلة[٨٠] ؛ فالفلكى المكتفى بها لم يكن بوسعه أن يرقى فوق مرتبة المحاكاة الصرفة والتقليد المحض إذا لم يتمرس فى التحليل النظرى ويتمكن من الأسس ويتدرب تدريباً كافياً على الأرصاد الشخصية القائمة على الملاحظات الدقيقة على أمد طويل . وسرعان ما أحس العرب بحاجتهم إلى هذا المنهج عندما تعرفوا على مصنفات إقليدس Euclides وبطلميوس ؛ وليس أفضل فى هذا الصدد من إيراد ألفاظ البتانى عن بطلميوس . قال :

« إذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تدفع صحته ولا يشك فى حقيقته فأمر بالمحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يُستَدْرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبَّرْخُس (Hipparchus) وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ولأنها سمائية جسيمة لاتدرك إلا بالتقريب »(٨١) .

ويبدو جلياً أن شمول التراث الهلنستى واتساع مداه واستيعابه المنظم لدى العرب ، هو الطابع المميز فى تاريخ نفوذ العلم اليونانى إلى العرب لدى مقارنته بالهندى والإيرانى . ففيما يتعلق بالتراث الهندى والإيرانى نلتقى بمصنفات منفردة تدين بظهورها لمجهودات فردية ، وذلك بعكس التراث اليونانى الذى بدأ العمل فيه بطريقة منظمة . فمنذ عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ = ٧٨٦ — ١٩٣ هـ = ٨٠٩) تم إنشاء « خزانة الحكمة » أو « بيت الحكمة » وهى أشبه بأكاديمية للترجمة ملحقة بها مكتبتها الخاصة ، وقد أضفى المأمون (١٩٨ هـ = ٨١٣ — ٢١٨ هـ = ٨٢٣) على المؤسسة طابعاً رسمياً | 76 | حينما أمدها بهيئة علمية خاصة وبعث من أجلها البعوث إلى بيزنطة لجلب المخطوطات اليونانية . ولم تلبث بغداد أن أضحت مركزاً لحركة الترجمة العلمية وشارك فى هذا ممثلو جميع الطوائف الدينية من مختلف أصقاع الخلافة . وقد بلغ النشاط فى الترجمة درجة عالية حتى لم تكن لتنقضى عشر سنوات أوعشرون دون أن تظهر للكتاب الواحد ثلاث أو أربع ترجمات . وفى زمن قصير انتشرت بين العرب مؤلفات ابقراط Hippocrates وجالينوس Galenus وأرسطو وإقليدس وأرخميدس ومنيلاوس Menelaus وأبولونيوس Appollonius ومارينوس الصورى Marinus of Tyre ، وهى تمثل فى مجموعها القاعدة الأساسية للعلم اليونانى(٨٢) . ولم يلبث أن احتل مكانة خاصة فى هذه المجموعة اللامعة من الأسماء شخص بطلميوس* الذى بدأ به عهد جديد فى تاريخ الفلك والجغرافيا عند العرب . أما تبيان أهمية مؤلفاته بالنسبة للعلم العربى بصورة مفصلة متكاملة فأمر يحتاج إلى بحث خاص يتطلب بدوره الكثير من البحث والتقصى . وقد تجمعت فى خلال العشرين عاماً الأخيرة مادة كبيرة وتعددت الأبحاث بصورة ملحوظة ، ولكنه رغماً من أن التواريخ قد تكون واضحة أحياناً إلا أن استنباط علاقة الترجمات المختلفة بعضها ببعض ودور كل منها لا يزال يقوم إلى الآن على أسس واهية .

ويمكن القول على وجه التحديد بأن الاهتمام الأساسى قد تركز حول مصنفيه الكبيرين وهما رسالته فى الفلك وتقع فى ثلاث عشر كتاباً بجداولها (ή μεγάλη σύνταξις μαθηματιχή أى « الجامع ») و « المدخل إلى الجغرافيا » (ή γεογραφιχὴ ύφὴγεσις) المعروف عادة باسم « جغرافيا » . والأول

---

* كلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaius الذى عرفته العرب باسم بطلميوس القلوذى فلكى مصر عاش فى مصر الرومانية . وأفضل ما يوجد فى العربية للتعريف به وبآثاره هو القسم المفرد له فى كتاب سارطون « العلم القديم والمدنية الحديثة » الذى عرب وطبع بالقاهرة منذ عهد غير بعيد . (المترجم)

منهما قد أخذ فى شكله العربى اسم « المَجِسْطى » Almadjisti (أحياناً بكسر الميم « المِجِسْطى » Almidjisti) وفيما بعد دخل أوربا الوسيطة فى صورة المجسط Almagest[٨٣] وهذه التسمية تعطينا بلا شك صيغة التفضيل (Superlative) فى اللغة اليونانية μεγίστη (أى « الأعظم ») . وقد أطلقت على المصنف علامة على الاحترام والتقدير الذى فاز به ، وهكذا فهم العرب الأمر[٨٤] . ولعل التسمية ترتفع إلى المترجمين العرب إذ لم تقابل إلى الآن فى المصـــادر اليونانية ؛ وقد أطرح الآن الرأى القائل بأن التسمية مركبة من اللفظين μεγάλη σύνταξις على طريقة النحت[٨٥] .

ومنذ عام ١٩٢٨ لاحظ أحد البحاثة بالكثير من الاكتئاب أنه « لا يوجد شىء أكثر خلطاً ولا اضطراباً من مسألة الترجمات العربية لكتاب المجسطى لبطلميوس»[٨٦] ويرجع هذا الاضطراب إلى أن معظم هذه الترجمات كما هى العادة لم تصل إلينا بل عرفت فقط من بعض الإشارات والشذرات المأخوذة عنها ، فضلا عن أن الترجمات المصلحة المختلفة التى نما عددها على مر الزمن | قد طغت فى بعض الأحايين على 78 الأصل تماماً وقضت على إمكانية الحكم عليه . ويصدق هذا القول على الترجمة الأولى المعروفة باسم« النقل القديم » وهى التى عملت ليحيى بن برمك[٨٧] (توفى عام ١٩٠ هـ =٨٠٥) ، أى قبل عام ١٨٧ هـ =٨٠٣ دون شك ، وهو عام نكبة البرامكة . وهناك أساس للقول بأن هذه الترجمة تمت عن السريانية[٨٨] ، وهى كانت ما تزال فى أيدى الفلكيين الأوائل مثل البتانى والصوفى[٨٩] غير أنها بإجماع الآراء لم تكن ذات قيمة كبرى . وتفوقها الترجمة التى عملت فى عصر المأمون والتى قام بها الحجاج بن يوسف* حوالى عام ٢١٢ هـ = ٨٢٧ — ٨٢٨ ، وحفظت لنا فى بضعة مخطوطات لا تمثل الأصل دائماً[٩٠] ، ويبدو أنها هى أيضاً قد نقلت عن السريانية[٩١] . ولم يقف الجهد عند هذا فقد شارك فى ترجمة المجسطى عالم يمكن اعتباره أكبر مترجمى القرن التاسع قاطبة وهو حنين بن إسحق (حوالى عام ١٩٤ هـ = ٨١٠ — ٢٦٠ هـ = ٨٧٣)[٩٢] ، وقد صلح ترجمته بالتالى الفلكى الشهير ثابت بن قرة الصابى الحرّانى (٢١٩ هـ = ٨٣٤ — ٢٨٨ هـ — ٩٠١) الذى سنلتقى به عند الكلام على مصنفات بطلميوس فى الجغرافيا . والعلاقة بين ترجمتى حنين وثابت غير واضحة إذ أن ثابتاً نفسه قد نسب إليه عدد من المؤلفات الشخصية حول المجسطى[٩٣] .

ومهما يكن من شىء فإن هذا الوضع يقف دليلا على ما بلغته حركة الترجمة من حيوية وانتظام ابتداء من عصر المأمون ، ويوكد الاهتمام العميق بكتاب المجسطى الذى ترك أثراً محموداً فى تقدم الفلك والرياضيات[٩٤] لا بين العرب وحدهم بل وفى أوروبا الوسيطة . ومن فضل القول أن نضيف أن الترجمات العربية لعبت أيضاً دورها فى أوروبا الوسيطة ، فأولى ترجمات المجسطى العربية إلى اللاتينية قام بها جيرارد الكريمونى منذ عام ١١٧٥ [٩٥] .

---

* هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى عاش فى عهد الرشيد والمأمون بين حوالى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ و ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ ، وهو مترجم أصول إقليدس فى الهندسة . (المترجم)

وكان بطلميوس على الأصح فلكياً ورياضياً أكثر منه جغرافياً[٩٦] ، ومن ثم فإن رسالته فى الجغرافيا تمثل فى جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المسكونة فى العالم . ويعتبرها أحد كبار البحاثة المعاصرين « مقدمة لوضع مصور جغرافى » وليست « بجغرافيا » وذلك وفقاً لمفهوم الجغرافيا الذى تطور فيما بعد . ووفقاً 79 لرأيه فإن هدف بطلميوس كان المعاونة فى رسم صورة الأرض لا وصفها[٩٧] . ويرجع الفضل فى ظهور « جغرافيا » بطلميوس فى قالب عربى إلى المترجمين والفلكيين أيضاً ولكن اهتم بها اهتماماً جدياً كذلك ممثلو الجغرافيا الوصفية . أما تاريخ الرسالة فى العالم العربى فنستطيع تتبعه بصورة أفضل بكثير عما هو الحال مع « المجسطى » وذلك بفضل الترجمة العربية المصلحة التى حفظت لنا والتى تم نشرها منذ زمن غير بعيد . ولكن حتى فيما يتعلق بهذا أيضاً يجب تكرار القول بأنه لا يزال يوجد عدد من النقاط الغامضة ، على الرغم من بحث هونغمان Honigmann الممتاز الذى ظهر عام ١٩٢٩ والذى بين فيه الخطوط الرئيسية لتاريخ هذه المسألة . وتذكر المصادر العربية ما لا يقل عن ثلاث ترجمات مختلفة لهذه الرسالة ، ترتبط جميعها بأسماء لامعة ؛ إحداها عملت للكندى (توفى حوالى عام ٢٦٠هـ = ٨٧٤) الفيلسوف المقرب من بلاط العباسيين ، أو ربما عملها بنفسه[٩٨] ، والزعم الأخير موضع للشك خاصة إذا ما علمنا أن الترجمة وصفت بأنها « رديئة » . أما الترجمة الجيدة فهى من عمل ثابت بن قرة (توفى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠١)[٩٩] ، وثمة ترجمة ثالثة يشير إليها ابن خرداذبه (بين ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ و٢٧٢ هـ = ٨٨٥) وذلك فى ألفاظ توحى بأنها من عمله هو . فهو يقول « فوجدت بطلميوس قد أبان الحدود وأوضح الحجة فى صفتها بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة »[١٠٠] . وكما دلل نولدكه Nöldeke[١٠١] فإن الاتجاه الأدبى لابن خرداذبه والمركز الذى كان يشغله فى الإدارة يقف ضد الزعم القائل بأنه كان يستطيع الترجمة عن اليونانية أو السريانية ، ولعل الأمر يتعلق بتنقيح أسلوب الترجمة « الرديئة » التى مر القول عليها والتى عملت من أجل الكندى . أما ثابت بن قرة فهو من صابئة حرّان بالجزيرة وينتمى إلى مدرسة حران العلمية التى حفظت لنا التراث اليونانى بعناية أدق مما فعلت بغداد . ومن العسير القول بأنه ترجم رسالة بطلميوس دون إحداث أى تغيير فيها ، بل المحتمل أنه قد أجرى تعديلات فى النص ليكون أكثر قبولا وفائدة للعرب المعاصرين له[١٠٢] . وجميع هذه الترجمات لرسالة بطلميوس فى الجغرافيا ترد بعناوين مختلطة مضطربة ، الأمر الذى يزيد فى تعقيد المسألة[١٠٣]. غير أنه لحسن الحظ وصلتنا ترجمة مصلحة معدلة لعلها من أقدم الترجمات وهى لأكبر رياضى وفلكى فى النصف الأول من القرن التاسع هو محمد بن موسى الخوارزمى ، ويمكن اعتبارها 80 فى الوقت ذاته أول رسالة أصيلة فى الجغرافيا الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم ، وسيرد الكلام عليها فى حينه بالتفصيل .

ومما يزيد فى تعقيد مسألة الترجمات العربية لبطلميوس أن العرب باستثناء الأثرين اللذين مر ذكرهما ، قد عرفوا لبطلميوس مصنفات أخرى . وطريقة الاقتباس دون الإشارة إلى المصادر أدت إلى خلق صورة

شديدة الاضطراب والخلط ، وقد قام هونغمان بدور ما فى تبديد بعض هذا الخلط . وثمة أهمية جوهرية بالنسبة لنا تمثلها تلك المصنفات التى ظهرت لها ترجمات مستقلة فى العالم العربى ويمكن تتبع آثارها فى مؤلفات الجغرافيين بالمعنى الواسع للفظ أى خارج دائرة الاختصاص الضيقة . وليس من المستطاع الجزم بانتماء جميع هذه المصنفات إلى الأدب الجغرافى ، مثال ذلك كتاب بطلميوس فى التنجيم «كتاب الأربعة» Τετραβιβλος أو quadripartitum [١٠٤] الذى يحتوى على أربع مقالات فى تأثير النجوم على مصير العالم ، وهو بمثابة ذيل للمجسطى وترجع الترجمة الأولى له إلى عهد المنصور وتنسب إلى أبى يحيى ابن البطريق (توفى حوالى عام ٨٠٠) والد المترجم المشهور[١٠٥] ، وأخرى أحدث منها تنتهى إلى العصر الذهبى فى خلافة المأمون ، ويقوم بدور المترجم حنين بن إسحق وثابت بن قره . كما وأن الكتاب قد شرح أكثر من مرة[١٠٦] ولكنه لم يطبع إلى الآن فى صورة تامة . وقد ضمن الجغرافى وعالم الآثار المشهور الهمدانى قطعة كبيرة منه فى « الجغرافيا التنجيمية » فى كتابه فى وصف جزيرة العرب[١٠٧] .

وقد اكتسب صيتاً واسعاً ترجمة «الجداول الفلكية المبسطة» Πρόχειροι Κανόνες المستخرجة من «المجسطى» والتى ترتبط أحياناً « بجدول المدن الكبرى»[١٠٨] Επισήμων πόλεων κανόνες ؛ ولا تزال غير واضحة تماماً صلة هذه المصنفات ببعضها البعض حتى فى المحيط اليونانى . وكما وضح منذ عهد غير بعيد فإن المصنف الأخير يمثل كتاباً مستقلا[١٠٩] ، بينما لايرجع تأليف « الجداول الفلكية المبسطة » إلى بطليموس بقدر ما يرجع إلى ثاون Theon الشارح المشهور للقرن الرابع[١١٠] . ومهما يكن من شىء فإن هذه الجداول هى المسئولة بالذات عن ظهور ذلك المصنف الذى عرف فى العالم العربى باسم « زيج بطلميوس » والذى لا علاقة له البتة بالمجسطى[١١١] . ويبدو أن معرفة العرب بهذا الزيج منذ عهد | الرشيد 81 كانت عن طريق السريان[١١٢] ؛ وأغلب الظن أنه قد قام بدوره فى تثبيت لفظ « زيج »[١١٣] وانتشاره فى العالم الإسلامى بصورة نهائية ، بحيث استمر يتمتع بتداول واسع على مدى تاريخ الجغرافيا الرياضية عند العرب وبقى كذلك فى عهد ورثتهم الفرس والترك .

ولا تزال مستعصية على الحل مسألة أصل كتاب آخر تعزوه العرب دون أى مبرر إلى بطلميوس وهو «كتاب الملحمة» ، ولايقصد بالملحمة هنا المعركة بل « التنبؤات » وذلك لعلاقته بالتنجيم[١١٤] . وهذا الكتاب هو المصدر الأساسى لياقوت فى معجمه الجغرافى دون جميع الزيجات الأخرى وعليه بنى تحديده لأطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة[١١٥] . وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريباً[١١٦] ، جمعها هونغمان بدرجة تتفاوت قرباً وبعداً عن الكمال . والمقارنة التى أجراها بينه وبين بقية المصادر جعلته يفترض أنه على صلة ما بالترجمة « الرديئة » التى كانت تحت تصرف الكندى[١١٧] والمختلفة تمام الاختلاف عن الترجمة المصلحة للخوارزمى[١١٨] ؛ وهى كالأخيرة تضم عناصر بطلميوسية وأخرى عربية . وليس من الممكن توضيح طبيعة العلاقة الزمنية بين «كتاب الملحمة» وكتاب

الخوارزمى ، وقد لوحظ أنه رغماً عن الطابع التنجيمى الغالب عليه فهو يعطى أحياناً تحديدات عن بطلميوس أدق من تلك التى يعطيها الخوارزمى[١١٩].

ويقصد ياقوت فى معجمه « بكتاب الملحمة » مصنفاً معيناً يرتفع إلى تراث علمى ذى مفهوم مستقل . ويجىء استعمال الكلمة عادة فى صيغة الجميع «كتاب (أو أبواب) الملاحم » ويقصد به فى الأدب العربى التعبير عن جميع ضروب التنبؤات التى ازدهرت فى العالم الإسلامى ، خاصة التنبؤات ذات الطابع الأخروى أى المتعلقة بالعالم الآخر والتى نشأت فى محيط لا علاقة له البتة ببطلميوس . وهذه التنبؤات ظهرت فى بادئ الأمر فى مجموعة الأحاديث الصحيحة وفى أدب الترغيب والترهيب ، وقد وجدت لها تربة صالحة فى الدوائر الشيعية ولم يكن من النادر نسبتها إلى أئمتهم[١٢٠] . والذى دفعنا إلى هذا الاستطراد من الحديث على الجغرافيا الرياضية إلى الحديث عن أدب الملاحم التوافق فى التسمية وخوف الخلط مع « كتاب الملاحم » المنسوب لبطلميوس . 82

وقد أدى التاريخ المعقد للترجمات العربية لبطلميوس إلى ضرب من الازدواج فى الجغرافيا الرياضية العربية يرتبط باسمه ويقوم أساساً على سؤال مؤداه إلى أى مصدر بالذات ترتفع الرواية العلمية لهذه الترجمات ، هل إلى « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس أم إلى « الجداول المبسطة » لثاون ؟ ومما يزيد فى غموض هذه الصورة ما علق بهذه المصادر من شوائب مختلفة . بيد أن كل ذلك لا يحول دون الاعتراف بالدور الرئيسى الذى لعبته مصنفات بطلميوس فى تطوير الأدب الجغرافى العربى ، وقد اقترنت باسمه على الأقل ثلاثة مصنفات أخرى جرى تداولها فى العالم العربى . فليس غريباً إذن إزاء هذا الاستيعاب الشامل للتراث اليونانى فى ميدان الجغرافيا أن يتقهقر إلى الصف الثانى التأثير الهندى والإيرانى الذى كان سائداً من قبل .

غير أن الأمر لم يقف عند حد الاستيعاب الأدبى ، سواء بالترجمة أو التعديل ، بل تعداه إلى ما وراء ذلك . وقد كان البتانى مصيباً فى قوله إن بطلميوس قد دعى إلى « المحنة والاعتبار بعده » . ففى هذا العصر بالذات بدأ العرب فعلا يجمعون بين الاستيعاب النظرى للعلم اليونانى والتطبيق العملى لنظرياته فى أبحاثهم المستقلة ، الأمر الذى تجاوزت أهميته نطاق عصرهم بكثير . فقد وصلوا إلى حساب خط منتصف النهار وضبطوا العروض والأطوال الجغرافية ووضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على أساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم فى هذا المضمار ، ورسموا خارطات لا تقل جودة عن النماذج اليونانية . ويخلو وصفهم لهذه الخارطات من ذلك العنصر الأسطورى الذى دفعنا من قبل إلى التشكك فى إمكان وجود خارطات إسلامية فى العهد السابق لهذا .

وقد أحس العرب فى أنفسهم النضج التام لإعادة تجربة اراتوسثينيس Eratosthenes فى تحديد مقاس درجة من خط منتصف النهار ، دفعهم إلى هذا جرأة معهودة لدى جميع ممثلى الحضارات

الفتية[١٢١]. وبغض النظر عن النتائج التى توصلوا إليها فإن المحاولة فى حد ذاتها جديرة بالإكبار خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أنه لم تجر منذ أقدم العصور سوى ثلاث تجارب مستقلة لقياس الأرض — إحداها لإيراتوسثينيس والثانية لبطلميوس والثالثة للعرب ، وأن جميع معلومات أوروبا الوسيطة فى هذا الصدد إنما تعتمد عليها اعتماداً كلياً[١٢٢]. وقد اختيرت لهذا القياس المفازة الواقعة بين تدمر والرقة على الفرات وواد فى أرض الجزيرة قرب سنجار بين درجتى عرض ٣٥° و٣٦° شمالا[١٢٣] . وانقسمت اللجنة المكلفة بذلك العمل ، وذلك بعد اجتماعها فى النقطة المركزية ، إلى فرقتين اتجهت إحداهما جنوباً على خط منتصف النهار على بعد درجة واحدة ، بينما اتجهت الفرقة الأخرى على نفس المسافة ولكن صوب الشمال . ثم رجعتا إلى نقطة البداية وأجروا مقارنة بين النتائج التى توصلوا إليها ثم استخلصوا النتيجة النهائية . وقد أجريت هذه التجربة عام ٨٢٧ واتسمت الروايات عنها بطابع يسوده الاضطراب من ناحية 83 والخيال من ناحية أخرى . ويروى ابن يونس ، وهو من فلكيي أواخر القرن العاشر ، أن إحدى الفرقتين قد حددت مقاس الدرجة بسبعة وخمسين ميلا بينما حددته الأخرى بستة وخمسين ميلا وربع الميل ، وأنه حين عرضت النتائج على المأمون أخذ بالرقم المتوسط وهو ستة وخمسون ميلا وثلثا الميل[١٢٤]. وأغلب الظن أن هذه التفاصيل لا تخلو من العنصر القصصى ، ولكن تجدر بنا الإشارة إلى أن بعض الفلكيين ممن كانوا على علم بطريقة القياس هذه قد توصلوا إلى نتائج مكنت العلم المعاصر من حساب المعادل المترى (Metric Concordance) لمقاسات المأمون . هذا وعقب المحاولة الفاشلة لجوردان Jordan فى أواخر الثمانينيات من القرن السابق وذلك اعتماداً على الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية ، أجرى المستعرب نالينو Nallino فى عام ١٨٩٢ فحصاً عميقاً لجميع الروايات المختلفة عن المقاييس العربية لخط منتصف النهار بدقة فائقة حتى أن عالم الرياضيات شوى Schoy لم يأخذ عليه فى عام ١٩٢٧ سوى فروق ضئيلة[١٢٥] . وقد وضح من هذه القياسات أن الميل العربى كان يساوى أربعة آلاف ما يسمى « بالذراع السوداء » التى ارتبطت باسمها كما هو الشأن دائماً أسطورة ما . وهذه الذراع السوداء كانت أقل من نصف المتر قليلا (٤٩٣٣ر٠ متراً لدى نالينو و٤٩٣٢ر٠ متراً لدى شوى)[١٢٦]. وقد نشأ الخطأ فى حساب العلماء السابقين لها من اتخاذهم ذراع « مقياس النيل » Nilometer المشهور بالقاهرة كوحدة للقياس . وهو يتجاوز نصف المتر بقليل (٥٤ر٠ من المتر لدى شوى)[١٢٧] ولذا فإن الميل العربى المستعمل هنا يقرب طوله من كيلومترين (٢ر١٩٧٣ متراً عند نالينو أو ٨ر١٩٧٢ متراً عند شوى)[١٢٨]. ودرجة خط منتصف النهار مقدارها عند نالينو ٦٧ر١١١٨١٤ متراً[١٢٩] وعند شوى ٩ر١١١٧٢٠ متراً[١٣٠]. فإذا عرفنا أن أكثر المقاسات انتشاراً فى القرن التاسع عشر وهو مقاس بيسيل Bessel قد قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ متراً[١٣١] ظهر لنا جلياً أن الخطأ فى مقياس العرب يقل عن الكيلومتر ، مما يمكن أن نرجعه فى يسر إلى النقص فى الأجهزة المستعملة فى القرن التاسع . إن هذه المحاولة الجريئة لمقاس الأرض تقف فى حد ذاتها دليلا

على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمى كبير وسريع الخطى ، مما جعلها تحتل بحق مكانة مرموقة فى تاريخ الجغرافيا والرياضيات[١٣٢]. ومما يوكد الأهمية التاريخية لهذا الحادث أن القياس التالى للأرض بعد 84 العرب لم يتم إلا فى أوائل القرنين السادس عشر والسابع عشر (فرنل Fernel وسنليوس Snellius)[١٣٣]. |

كان الحساب المأمونى لدرجة خط منتصف النهار أصح القياسات لعهده وأعمها انتشاراً ، غير أن العرب عرفت أيضاً غيره من القياسات وصلتهم عن اليونان والسريان واستمر بعض العلماء يستعملها من حين لآخر . ويمكن أن يرد أصل هذه الحسابات إلى أن علماء السريان والعرب لم تكن لديهم فكرة واضحة عن حقيقة المقاييس التى استعملها اليونان عند إجراء تلك القياسات وخير مثال لهذا هو حساب بطلميوس للدرجة بمقدار ستة وستين ميلا وثلثى الميل[١٣٤]، وذلك على أساس القياسات التى أجريت فى أرض الجزيرة بين حران وآمد والتى يتحدث عنها ياقوت فى مقدمة معجمه الجغرافى[١٣٥]. وقد كان تحديد الدرجة بمقدار خمسة وسبعين ميلا[١٣٦] ، وهو التحديد الذى أخذ غالباً عن السريان، أقل دقة واستعمالا من سابقه رغما من أنه ظهر فى عدد من المؤلفات الجغرافية ووجد عند فلكى كبير كالبتانى[١٣٧] . هذا وقد ارتبطت مقاسات الطول المستعملة فى الحياة اليومية بالقياس الأول ، وإذا حدث وان تراوحت مقاسات الذراع نظراً لتعدد أنواعه فإن الميل قد استمر ثابتاً ، على الأقل فى المعاملات الرسمية[١٣٨] ؛ كما استمر ثابتاً أيضاً الفرسخ وهو يساوى ثلاثة أميال ، أى ستة كيلومترات بالتقريب[١٣٩] .

وبفضل الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية وجد طريقه إلى أوروبا التحديد المأمونى للدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى الميل . ونتيجة لذلك فقد تكرر ما وقع للسريان والعرب مع اليونان ، ذلك أن العلماء الأوروبيين للقرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يلتفتوا إلى الاختلاف بين الأميال العربية وأميالهم ، الأمر الذى نشأت عنه أخطاء جسيمة أعان أحدها على اكتشاف كولومبس لأمريكا ، فهو قد احتسب الدرجة بمقدار ستة وخمسين ميلا إيطاليا وثلثى الميل ، فى حين كان الميل الإيطالى فى واقع الأمر يقل عن الميل العربى بمقدار ثلاثمائة وأربعة وثمانين متراً . وعلى ذلك فالدرجة الواحدة فى حساب كولومبس تقل بمقدار اثنين وعشرين كيلومتراً عن الدرجة العربية ، وبالتالى كان تقدير المسافة بين سواحل أوربا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل بكثير عن الواقع ، ولعل كولومبس لو علم بحقيقة الأمر منذ البداية لما أقدم على ركوب المحيط على سفنه الصغيرة التى لم يكن بوسعها حمل المؤن اللازمة لمثل هذه المهمة[١٤٠] .

وحساب درجة نصف النهار لا يعتبر الحدث الأهم لعصر المأمون ، ولكن يمكن اعتباره حدثاً فريداً فقط ، إذ أن النشاط سار قدماً وبخطى منتظمة فى محيط الفلك والجغرافيا الرياضية | . ففى خلافة 85 المأمون تم إنشاء مرصدين أحدهما ببغداد بحى الشماسية والآخر على جبل قاسيون عند دمشق ؛ وقد تركز مجهود المرصدين فى تحقيق جميع معطيات المجسطى تحقيقاً علمياً[١٤١]،وساق هذا إلى تحديد الموقع الجغرافى

لجميع النقاط الهامة من جديد . أما فيما يتعلق بخط نصف النهار الابتدائى فإن الآراء كما أسلفنا لم تتفق على نقطة واحدة ، فالفلكيون العرب بدأوا حسابهم إما على نمط اليونان ابتداء من أقصى الغرب متجهين صوب الشرق إلى درجة ١٨٠° من « المعمورة » ، أوقاسوا ٩٠° درجة إلى الشرق وإلى الغرب من خط منتصف النهار المركزى الذى يخترق « قبة الأرين » فى مركز الأرض على خط الاستواء(١٤٢). بيد أن هذا لم يمنعهم من بلوغ درجة عالية من الدقة فى حسابهم مما يمكن استنباطه من بعض الأمثلة . فالفلكيون أبناء موسى بن شاكر قد قاسوا عرض محلة باب الطاق ببغداد بثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة شمالا ، وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال . كما ضبط الماهانى (توفى حوالى ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ — ٢٧٠ هـ = ٨٨٤) عرض مدينة سامرا بأربع وثلاثين درجة واثنى عشر دقيقة شمالا ، بينما يشير التحديد المعاصر لأوبنهيم Oppenheim إلى ٣٤° درجة و١١ دقيقة و٥٠ ثانية شمالا(١٤٣) . أما البيرونى فإنه قاس فرق الطول بين بغداد وغزنة فى ٢٤° درجة و٢٠ دقيقة وذلك بطريقة تنم عن ذكاء وافر توصل إليها بنفسه ، هذا بينما أثبتت الملاحظة المعاصرة أن الفرق يبلغ ٢٣° درجة و٥٠ دقيقة(١٤٤) . ومما يقدم مثالا طريفاً للتصحيحات التى أجراها العرب فى قياسات الأطوال التى أخذت قبلهم هو اختزالهم التدريجى لطول البحر الأبيض المتوسط ، فاليونان وفقاً لبطلميوس قدروا طوله باثنين وستين درجة ، اختزلها محمد الخوارزمى إلى ٥٢° درجة وتلاه الزرقالى فى « جداول طليطلة »(١٤٥)فاختزلها إلى ٤٢°درجة أى ما يعادل طوله الحقيقى بالتقريب(١٤٦). وقد استمر هذا التراث فى حفظ الحساب الدقيق إلى نهاية عصر الابتداع العلمى « العربى » فى الشرق ، فالوغ بيك حدد عرض مرصده بسمرقند فى ٣٩° درجة و٣٧ دقيقة شمالا ، صححها الفلكى الروسى استروفه Struve إلى ٣٩° درجة ، و٢٨ دقيقة و٥٠ ثانية أى بفرق يقل عن دقيقتين(١٤٧) .

وتقرير فلكيى عصر المأمون فى تحديد المواقع الجغرافية يرجع أساساً إلى الأرصاد التى أجريت ببغداد عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ وبدمشق عام ٢١٧ هـ = ٨٣٢(١٤٨) ، ويعرف هذا التقرير باسم « الزيج المأمونى الممتحن » وهو وإن لم يصلنا فى صورته الأصلية إلا أن أثره كان بليغاً كما يتضح من المصنفات المماثلة لمعاصريه الخوارزمى والفرغانى . ومن الطريف ملاحظة أنه لا يخلو من رد فعل معين ضد التأثير المطلق للعلم اليونانى ، فهو خلو تماماً من أية أسماء من أسماء العالم الكلاسيكى كما وأن القليل من الأسماء الأعجمية الواردة فيه إنما يرتفع إلى مصدر سريانى(١٤٩). والمادة الرئيسية للحكم على « الزيج المأمونى » تستقى أساساً من الرسالة الشهيرة لأحمد بن محمد بن كثير الفرغانى «كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم » — وهى واحدة من أولى المصنفات العربية فى الفلك وتكاد تكون أكثرها شهرة فى أوروبا الوسيطة . ورغما عن هذا فإن اضطراباً بالغاً يسود المعلومات عن المؤلف ، ولم يقتصر هذا على الجهل بتاريخ وفاته بل تعداه إلى أنه لم يتضح حتى الآن هل يقصد بهذا الاسم شخص واحد أم شخصان مختلفان ، وأيهما

86

يرتبط باسمه إصلاح مقياس النيل . والأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن الفرغانى قد عاش فى النصف الأول من القرن التاسع وأن آخر ذكر له يرجع إلى عام ٢٤٧ هـ = ٨٦١[١٥٠] . وفى رسالته هذه يعطى الفرغانى موجزاً للمبادئ الأولية فى الفلك معتمداً على النظرية اليونانية فى الأساس ، دون أن يورد أية قواعد هندسية معقدة . ويهمنا فى هذا الصدد أنه أرفق برسالته هذه جدولا يبين الأماكن الهامة موزعة وفقاً للأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مع تحديد مواقعها الجغرافية ؛ وهذا الجدول كما أثبت البحث يمثل اقتباساً للفصول الخاصة بذلك فى « الزيج المأمونى » مما يسهل الحكم على الأخير إلى حد ما[١٥١] . وبفضل الفرغانى أخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأمونى » فقد ترجمت رسالة الفرغانى مرتين إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، كما ترجمت فى القرن الثالث عشر إلى لغات أوروبية أخرى ، وقد تمتعت بانتشار واسع وكانت معروفة جيداً لدانتى[١٥٢] ، وتعتبر الترجمة اللاتينية التى طبعت بفرارا Ferrara عام ١٤٩٣ من أوائل ما عرفه فن الطباعة فى أوروبا[١٥٣] . وفضلا عن ذلك فإن الفرغانى يعتبر أول فلكى عربى تعرف عليه العالم الأوروبى فى متنه الأصلى وذلك بفضل الطبعة الممتازة بالنسبة لعصرها والترجمة اللاتينية الجديدة للمستعرب والرياضى الهولندى يعقوب غوليوس Jacob Golius فى عام ١٦٦٩ . هذا وقد استمر صيته حياً فى أوروبا كمنجم إلى القرن الثامن عشر .

وإلى جانب « الزيج المأمونى » والترجمات العديدة المعدلة لمصنفات بطلميوس يقدم لنا هذا العصر المبكر لازدهار العلوم العربية أثراً ممتازاً من الآثار الجغرافية هو ما يسمى « الصورة (أى الخارطة) المأمونية » ؛ وبالطبع لم تحفظ لنا منها آثار أو بقايا مباشرة . غير أنه فى الوقت الذى أحاط بذكر 87 خارطات العصر الأموى من حين لآخر أساطير وخرافات لا تستند على أساس من الواقع فإن معلوماتنا عن خارطة المأمون صحيحة بدرجة تسمح لنا بتكوين فكرة ما عنها ، وهى ترتبط كما هو متوقع بخارطات بطلميوس وبخارطات مارينوس الصورى التى لم تصل إلينا . وقد رأى كل هذا بعينى رأسه المسعودى فى القرن العاشر ووصفه فى مصنفه الأخير الذى يعرض فيه بعض الشىء لنشاط حياته العام ، فقال :

« ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض[١٥٤] وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون واجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما »[١٥٥] .

ومن العسير علينا بالطبع استكناه الطريقة الفنية التى اتبعت فى عمل الخارطة المأمونية ، ولكن هناك ما يحملنا على الافتراض بأنها تتلخص فى مصور جغرافى موضحة عليه « أسماء الأقطار والمدن المعروفة فى كل إقليم » طبقاً للتقسيم المماثل من « زيج المأمون » . وفيها تم نهائياً استبدال الأسماء الكلاسيكية بأسماء عربية ،

غير أن حدود « المعمورة » والأقاليم قد حفظت لنا على الطريقة اليونانية ، أما الأطوال فقد حسبت على ما يبدو على أساس المذهب الإيرانى ابتداء من المشرق كرد فعل ضد الاتجاه الغربى للعلم ، أو ربما كان ذلك أكثر ملاءمة لطريقة الكتابة العربية من اليمين إلى اليسار(١٥٦) . وبالطبع فإن إعادة تصوير هذه الخارطة بحذافيرها أمر مستحيل(١٥٧) بالرغم من أن بعض الفلكيين قد أفادوا منها بطريقة منتظمة وحفظوا لنا مجموعة من الحقائق عنها(١٥٨) ؛ ولا يزال الكثير من الغموض يكتنف طبيعة الأسس التى رسمت عليها . وبالرغم من أن المسعودى يوكد أن الأرض قد صورت فيها وفقاً لمذهب بطلميوس إلا أن الزهرى الجغرافى الأندلسى للقرن السادس — إذا صح ما زعمه فى مقدمة مصنفه «كتاب الجغرافيا»(١٥٩) من أنه قد رأى الخارطة المأمونية — يعطى وصفاً مغايراً تمام المغايرة . وطبقاً لما جاء فى قوله فقد كانت مقسمة إلى سبعة أقاليم ستة منها تحيط بالسابع الموجود فى الوسط . وهذه الطريقة أكثر مطابقة للتقسيم الإيرانى للأرض إلى كشورات كما وصفه البيرونى فى | «كتاب التفهيم»(١٦٠) ؛ وإذا ما أخذنا فى حسابنا الميول 88 الإيرانية للمأمون وللدوائر المحيطة به فيجب ألا يدهشنا هذا فى شىء . بيد أن أقوال الزهرى تقف فريدة فى بابها بشكل يمنعنا من تغليبها على إجماع الآراء فى الجانب الآخر . وثمة نقطة لا يرقى الشك إليها وهى أن فكرة صنع خارطة للعالم من أجل المأمون لم تخل من تأثير فكرة اعتبارها رمزاً للسيادة العالمية وذلك على نهج إيران القديمة ، فقد حفظت روايات عديدة عن آثار مماثلة عملت من قبل للأكاسرة الساسانيين . وقد اعتبر كبار الحكام هذا وقفاً عليهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد ، كما سنرى من مثال السامانيين بخراسان والنورمان بصقلية(١٦١) .

ومهما كانت طبيعة الحل الذى سنجده للمشكلة المتعلقة بخارطة المأمون فإنه يمكن القول على أية حال وبدرجة كبيرة من اليقين أن فن الكارتوغرافيا (أى رسم المصورات الجغرافية) العربى قد ارتبط منذ البداية باسم بطلميوس بنفس القدر الذى ارتبطت به الجغرافيا الرياضية . وقد حفظ لنا العرب وورثتهم ذكرى بطلميوس إلى نهاية العصور الوسطى حفظاً فاق بكثير ما فعلته أوروبا الوسيطة فى هذا المضمار رغما من أنها تدين له بالكثير أيضاً . وقد نسيت خارطته تماماً فى الغرب وكانت خارطة الإدريسى حوالى عام ١١٥٤ هى الأثر الوحيد الهام فى الكارتوغرافيا الأوروبية قبل القرن الرابع عشر الذى يتمثل فيه التراث البطلميوسى(١٦٢) . وعرف كتابه المجسطى جيداً فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر وذلك بفضل الترجمة اللاتينية المنقولة عن العربية(١٦٣) ، ولكن « جغرافيا » لم يكتشف فى أوروبا للمرة الأولى إلا فى بداية القرن الخامس عشر(١٦٤) . ومن الطريف ملاحظة أنه يمكن تحديد تاريخ الكشف عن « جغرافيا » بطلميوس بالكثير من الدقة ؛ فبطرس الآيى المار ذكره والذى يرجع الفضل إلى كتابه « صورة العالم » فى اطلاع كولومبس على نظريات العرب فى الأرين ، قد استعمل عند تأليفه له حوالى عام ١٤١٠ كتاب « المجسطى » وحده ، ولم يكن له أدنى علم بكتاب « جغرافيا » لبطلميوس(١٦٥) . ولكن لا نلبث أن نراه

بعد ثلاثة أعوام فقط من ذلك يضع كتابه « الجامع فى الجغرافيا » Compendium Geographiae ويلخص فيه « جغرافيا » بطلميوس ؛ ثم طبع الأخير بأجمعه فى ترجمة لاتينية فى عام ١٤٧٨[١٦٦]. وفى تلك الآونة بالذات عملت له ترجمتان جديدتان من اليونانية إلى العربية[١٦٧] فى الدولة العثمانية فى عهد محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) نشرهما بالقاهرة (١٩٢٩) فى طبعة مصورة (facsimile) الأمير يوسف كمال[١٦٨] ، المعروف بنشره لعدد من الآثار الجغرافية . 89 وفى بداية القرن السادس عشر عندما رسم الملاح التركى پيرى ريس خارطة العالم معتمداً على أربع عشرة خارطة كانت موجودة تحت تصرفه ، وُجد من بينها ثمانى خارطات بطلميوسية[١٦٩] ؛ وهذا المثال يقدم صورة حية للأوضاع الثقافية فى تلك الحقبة التى بدأت فيها السيادة تتحول من الشرق إلى الغرب . وقد أتم الأتراك ما بدأته العرب فى مضمار الجغرافيا وعرضوا خلاصة ما قام به أسلافهم فى هذا الميدان . أما بطلميوس ومترجموه العرب فقد قدرهم الأتراك حق قدرهم ولكن الأمر الذى يلفت النظر حقاً هو أن تصورهم للجغرافيا كعلم لم يختلف كثيراً عما كان عليه الوضع أيام المأمون . ولا يخلو من الفائدة والتوجيه فى هذا الصدد تلك الخلاصة التى يقدمها لنا فى القرن السادس عشر حاجى خليفة فى سفره الضخم فى أسماء المؤلفين والكتب «كشف الظنون» ، ذلكم المرجع القيم الذى سنرجع إليه أكثر من مرة فى المسائل المتعلقة بالأدب الجغرافى . فى تعريفه لعلم الجغرافيا كتب حاجى خليفة يقول :

« علم جغرافيا . وهى كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ويقال جغراويا بالواو على الأصل وهو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة فى الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع كذا فى مفتاح السعادة[١٧٠]. قال الشيخ داود[١٧١] فى تذكرته جغرافيا علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يختلف حال السكان باختلافه انتهى . وهو الصواب لشموله على غير السبعة وجغرافيا علم لم ينقل له فى العربية لفظ مخصوص وأول من صنف فيه بطلميوس القلوذى فإنه صنف كتابه المعروف بجغرافيا أيضاً بعد ما صنف المجسطى وذكر أن عدد المدن أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة فى عصره وسماها مدينة مدينة وأن عدد جبال الدنيا مائتا جبل ونيف وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر وذكر البحار أيضاً وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها وذكر أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم وما يأكلون وما يشربون وما فى كل سقع مما ليس فى الآخر غيره من الأرزاق والتحف والأمتعة فصار أصلا يرجع إليه من صنف بعده ولكن اندرس كثير مما ذكره وتغير أسماؤه وخبره فانسد باب الانتفاع منه . وقد عربوه فى عهد المأمون ولم يوجد الآن تعريبه» [١٧٢] .

إن ألفاظ حاجى خليفة هذه لتدل على إدراكه العميق للأهمية الكبرى لآثار بطلميوس فى تاريخ الجغرافيا العربية طوال المدة ما بين القرنين الثامن والسابع عشر. ويمكننا أن نقرر بيقين تام أن التراث

اليونانى كان ذا أثر جوهرى فى ابتداء الجغرافيا الرياضية عند العرب ولكنه كما أبصرنا لم يطرد التراث الهندى الإيرانى نهائياً . بل إن التجديد المأمونى بنتائجه الفذة يجب اعتباره إلى حدما رد فعل ضد السيادة المطلقة للنفوذ اليونانى . وعلى العموم فقد عرفت الجغرافيا العربية على الدوام ازدواجا معيناً نشأ من غلبة أحد مصنفين على الآخر ، إما « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس ، أو « الجداول المبسطة » المنسوبة إليه ، والتى يرجح أنها من عمل ثاون . ويتمثل هذا الازدواج بوضوح كبير فى الاختلاف الذى يمكن ملاحظته بين « الجداول المأمونية » ، التى يمكن أن يضم إليها رسالة الفرغانى وبين « صورة الأرض » للخوارزمى[١٧٣] . وإذا أمكن القول بأن التأثير اليونانى على الجغرافيا العربية هو المسئول عن ظهور أربعة آثار فذة فى الفترة الأولى من تاريخ ذلك العلم عند العرب ، وهى « خارطة المأمون » و« كتاب الملحمة » المنحول و« صورة الأرض » للخوارزمى وترجمة « جغرافيا » من عمل ثابت بن قرة ، فإن الأول من بينها فقط هو الذى يطابق فى جوهره « الجداول المبسطة » لثاون ، بينما ترجع الثلاثة الباقية بأجمعها إلى جغرافيا بطلميوس فى ترجمتها السابقة للترجمة العربية ، ومع تغييرات جوهرية فى مضمون الكتاب وتبويبه على ما يلوح . أما فى كتاب الملحمة فنلمس محاولة للتوفيق بين العناصر البطلميوسية والعربية[١٧٤] ، كما نلمس فى « صورة الأرض » محاولة للتوفيق بين خارطة المأمون وخارطات بطلميوس[١٧٥] .

هذا وسيبقى أبداً عدد كبير من مسائل تاريخ الفترة الأولى للجغرافيا العلمية عند العرب غامضاً بالنسبة لنا ، ذلك أن الآثار العربية الأولى فى هذا الميدان لم تصلنا ولا يمكن الحكم عليها إلا من خلال الاقتباسات المضطربة والإشارات العابرة التى قام بها علماء لم يكن بمقدورهم أن يعملوا حساباً لمطالب العصر الحديث . وهذا بدوره يدفعنا إلى الإمعان فى تقديرنا للأثر الوحيد الذى خلفه لنا هذا العصر ، أعنى الترجمة المصلحة لجغرافيا بطلميوس لمحمد الخوارزمى التى يمكن اعتبارها أول مصنف عربى فى الجغرافيا نعرفه معرفة مباشرة .

حواشى الفصـــل الثانى

(١) (أضيفت إلى الفصل الثانى المكتوب بالآلة الكاتبة الألفاظ الآتية :

« الكلمة التى قدمت بها محاضرتى التى ألقيتها بالجمعية الجغرافية للاتحاد السوفيتى فى ٢٣ يونيو ١٩٤٠ » :

« أرجو أن أوضح سلفاً أن هذه المحاضرة عن بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب لا تمثل بحثاً قائماً بذاته ، فهى فصل من مؤلف ضخم فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى . وقد تجمعت المادة لدى بالتدريج على شكل دروس ألقيتها على طلبة الجامعة ابتداءاً من عام ١٩١٠ . وكانت تمثل فى بدايتها ملاحظات ذات طابع عام تتعلق بمصنفات المؤلفين التى شرحت نصوصاً مختارة منها فى البرنامج الدراسى . وشيئاً فشيئاً تجمعت لدى مذكرات فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى قرأتها على تلامذتى أكثر من مرة بين عامى ١٩١٠ ، ١٩٣٦ .

« وقد عالجت الموضوع كفياو اوجى فجعلت هدفى بادئ ذى بدء أن أعرض للأدب الجغرافى من غير أن أحاول التأريخ لعلم الجغرافيا عند العرب أو لتأريخ الاستكشافات الجغرافية العربية ، بيد أن جميع هذه الميادين ترتبط ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً يجعل من العبث محاولة وضع فواصل اصطناعية بينها . غير أن الأساس الذى اعتمدت عليه هو عرض ما يسمى بالجغرافيا الوصفية والرحلات ، وفقط عندما استكملت المحاضرات فى شكل كتاب اقتنعت فى آخر الأمر بضرورة العناية بالجغرافيا الرياضية التى لم أهتم لها فى أول الأمر . وبهذا نشأ لدى فصلان جديدان لا أجد من نفسى المقدرة التامة لمعالجتهما ؛ أحدهما أريد أن أقرأه عليكم اليوم فى هذا الوسط العلمى حتى أكون على ثقة بأنى لم أرتكب هفوات كبيرة ») .

(٢) نالينو ، الفلك ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ (= Racc., p. 29)

(٣) الطبرى فى كتاب : — Ruska, GZ, p. 521
— Nöldeke, Geschichte des Perser, p. 85-86, 304-305
Christensen, p. 391

(٤) نالينو ، الفلك ، ص ١٤٤ — ١٤٥ (= Racc., p. 200)

(٥) نالينو ، الفلك ، ص ١٤٤ — ١٤٧ (= Racc, p. 199-202)
Massignon, Nawbakhti, p. 958-959

(٦) شرحه

(٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٤٦ — ١٤٧ (=Racc., p. 201-202)
Brockelmann, GAL, I, p. 249, No. Ia; SB,I,p. 391-392, No. Ic —
عن دور مؤلفات ما شاء الله فى أوروبا الوسيطة راجع مقالات : Shangin
Catalogus, T. XII, p. 210-216;
«the seven springs», p. 235-242;
Epistola Messallah, p. 707-718.

(٨) — Eberman, p. 61

(٩) راجع نالينو ، الفلك ، ص ١٤٩ : — Clark, p. 366; (= Racc, p. 203).

(١٠) — Nallino, Sun, Moon & stars; p. 95

(١١) — Nallino, EI, p. 517

(١٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ – ١٥١ (= Racc, p. 204-205)

(١٣) — Nallino, EI, I, p. 517 : " . . . . auf demselben Längengrad in Konjunktion"

نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ (= Racc., p, 205)

(١٤) دانتى ، الجحيم ، الجزء الأول

(١٥) أبن قتيبة ، ص ٥٤ . راجع : نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ الحاشية ٥ (= Racc , p. 205, not 2)

(١٦) Plessner, Tarikh ,p. 247

(١٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٦ – ١٦٢ (= Racc. p. 209-214)

Brockelmann, GAL, SBI. p. 391, No Ia

(١٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ (= Racc', p. 204)

Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95

(١٩) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢ – ١٦٣ (= Racc. p. 213-214)

(٢٠) — Barbier de Meynard, Al-Maçoudi, IV, b. 37-40

(٢١) — Kramers, EI, EB, p. 63

(٢٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٠ (= Racc., p. 212)

(٢٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٤٧ – ١٤٨ Sarton, Introduction, I, p. 530-531

(= Racc., p. 202-203)

(٢٤) — Sarton, Introduction, I, p. 530

(٢٥) — Nallino Sun, Moon & Stars, p. 59

(٢٦) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٤ – ١٧٣ (= Racc., p. 215-223)

(٢٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ ، ١٧٤ (= Racc., p. 204, 223-224)

(٢٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ – ١٧٥ (= Racc., p. 224)

(٢٩) — Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95

(٣٠) نالينو ، الفلك ، ص : ١٧٥ (= Racc., p. 225)

(٣١) نالينو الفلك ، ص ١٧٦ – ١٧٧ (= Racc., p, 225-226)

(٣٢) Reinaud, Introduction, p CCCXXXV – CCLY.

يقدم مينورسكى Minorsky تحليلا وافياً لجميع الآراء المعاصرة حول هذه المسألة :

Hudud, p. 188-190. No 13; p. 245-246, No 18-24, p. 335-336, No 60

(٣٣) — Kramers, Legacy, p. 93

(٣٤) — Nallino, Al-Battani, p. 165

(٣٥) شرحه

(٣٦) يوجد تحليل عميق للمادة فى هذا الموضوع على أساس نظرية الخرق لدى :
Ferrand, Notes, 202, p 17 20

(٣٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٤ – ١٥٥ ، ملاحظة ٤ (= Racc., p. 208, note 3)
وعلى بن محمد الجرجانى ، ص ١٦

(٣٨) — D. H. Müller, Al-Hamadani, I, p. 44-46

(٣٩) ذكره لدى : نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢ (= Racc. p. 213)
وتحليله لدى : Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 139-140

(٤٠) — Honigmann, p. 122, note 2 – Hudud, p. 188 190, No 13

(٤١) — Ferrand, Relations, II, p. 612, note 4 = Same, Notes, p 8, note 2

(٤٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ – ١٨٨ (= Racc., p. 234)

(٤٣) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 140, note 3

(٤٤) — J. K. Wright, Notes, p. 95

(٤٥) — Beazley, I, p. 403-404

(٤٦) — Kramers, Legacy, p. 93-94

(٤٧) — Taylor, p. 65-67

(٤٨) — Newton, p. 13

(٤٩) شرحه ص ١٤ – ١٥ — Kimble, p. 208-212

(٥٠) — Newton, p. 14

(٥١) — Kramers, Legacy p. 94; – photo and Translation : Newton, Frontispiece

(٥٢) — Newton, p. 15 — Kimble, p. 218 — Sarton, Inrtroduction, II, p 958 — J. K. Wright, Geogr Lore p. 459-460, No 2 — Kretschmer, p. 259 260

(٥٣) — Newton, p. 16-18 — Beazly, I, p. 405

(٥٤) — Kimble p. 184, 243-244

(٥٥) — Kimble, p 184 — Wensinck, Tree, p. 5

(٥٦) — Reinaud, Introduction, p. CCXXXV

(٥٧) نالينو ، الفلك ، ص ٤٢ (= Racc., p. 120)
Honigmann Die sieben Klimata, p. 117

(٥٨) — Schoy, Kibla, p. 1061

(٥٩) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 117-118

(٦٠) — Kramers EI, EB, p. 64

(٦١) الفرغانى ، ص ٣٢

(٦٢) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 112

(٦٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٥ – ١٨٦ (= Racc., p. 233)

ص ٢١٠ Nallino, Sun, Moon and Stars, p. 95 — (= Racc. p. 252)

(٦٤) — Honigmann Die sieben Klimata, p. 117-118

(٦٥) نالينو ، الفلك ، ص ١٨١ – ١٨٦ (= Racc., p. 229.233)

(٦٦) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٥ Nallino, Sun, Moon and Stars, 95 (Racc., p. 233)

(٦٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ (= Racc., p. 235)

(٦٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ (= Racc., p. 235)

(٦٩) — Reinaud, Introduction p. LIV - LV – Brockelmann, GAL, I, p. 221 — 222, No 6; SBI, p. 394-395 – Brockemann GAL 2, I, p. 250-251 — Suter, Abu Mashar, p. 105-106 – Sarton, Introduction, I, p. 568-569 — Shangin, Grecheskii Perevod Abu Mashara, No 10-11, p, 907-916

(٧٠) ياقوت ، الإرشاد الجزء الخامس ، ص ٤٦٧ .

(٧١) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ – ١٨٨ (= Racc., p. 229- 235)

(٧٢) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٨ – ٥٥٩

(٧٣) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 141

(٧٤) — Sarton, Introduction, II, 173

(٧٥) — J. K. Wright, Geogr, Lore, p. 82

عن الأدوار الكونية فى العالم القديم راجع : R. Wright, p. 13-14

ولدى العرب راجع ص ١٤ – ١٥ ، ٨٢ – ٨٣

(٧٦) نالينو ، الفلك ، ص ٨٧ – ٩٠ (=Racc., p, 155-158)

(٧٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ Nallino, Sun, Moon and stars, p. 95

(٧٨) — Brockelmann, GAL , I, p. 472, No 3; SBI, 862
Sarton, Introduction, I, p. 758-759

(٧٩) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ – ١٨٩ ، ٢١٠ – ٢١١
(= Racc., p. 234-235, 251-253)

(٨٠) شرحه ، ص ٢١٤ (= Racc., P. 254)

(٨١) نالينو الفلك ، ص ٢١٥ الترجمة ، الجزء الأول ، ص ٥ — Nallino, Al - Battani, III, p. 7 —
(= Racc., p. 256)

(٨٢) Nallino, Il Valore, p. 23

(٨٣) — Suter, Almagest, p. 320

(٨٤) نالينو الفلك ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ (= Racc., p. 261-262)

(٨٥) راجع : نالينو الفلك ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ (= Racc., p. 262-263)

Suter, Almagest, p. 329; راجع : Brockolmann, GAL, I, p. 203, note 2; SBI p. 363

(٨٦) — Tallgren, Survivance' II, p. 213, 19

(٨٧) — Zettersteen, EI, IV, p. 1245

(٨٨) نالينو ، الفلك ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ (= Racc., p. 262-264)

Tallgren, Survivance, p. 210-211

(٨٩) — Tallgren, Survivance, p. 214

(٩٠) — Brockelmann, GAL, I, p. 203, No I, SBI, p. 363 — Tkatsch, p. 70

Nallino, EI, I, p. 518 — Nallino, Tracce di opere greche, p. 346

(٩١) — Mieli, p. 85, note 3

(٩٢) — Nallino, EI, I, p. 518

(٩٣) — Wiedemann, Beiträge, LXIV, p. 213

(٩٤) — Sarton, Introduction, I, p. 273

(٩٥) شرحه ، ص ٧٤

(٩٦) — Schoy, Geography, p. 257

(٩٧) نقد مجيك Mzik لدى :

GJ, XCIII, 1939, No 3, March, p. 252

(٩٨) — Honigmann, Die sieben Klimata p. 113

(٩٩) شرحه ، ص ١٥٦

(١٠٠) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ٣

(١٠١) — Mzik, Afrika, p. V, note 2

راجع عن الخوارزمى وسهراب : Mzik BAH und G, III, P. XXIX

(١٠٢) — Nallino, Le Tabelle, p. 153

(١٠٣) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115-116

(١٠٤) — Sarton, Introduction, I, p. 277, No 19 — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 113

(١٠٥) نالينو الفلك ، ص ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٤٦ (= Racc., p. 256-257, 201)

Mieli, p. 69

(١٠٦) — Honigmann, Die sieben Klimata, p 116

(١٠٧) — D. H. Müller, Al - Hamdani, p. 28-44

(١٠٨) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 116' No 4

(١٠٩) — Roberto, Catalague, III, p. 142-146, No 522

(١١٠) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 120 - 121

(١١١) شرحه ، ص ١١٧

(١١٢) شرحه

(١١٣) شرحه ، ص ١٢١

(١١٤) شرحه ، ص ١٢٥ ، ١٣٣

(١١٥) شرحه ، ص ١٢٥

(١١٦) شرحه ، ص ١٢٦ — ١٣٠

(١١٧) شرحه ، ص ١٣٣ ، ١٥٥

(١١٨) شرحه ، ص ١٣٤ ، ١٥٥

(١١٩) شرحه ، ص ١٥٥

(١٢٠) — Macdonald, Malahim, p. 204-205 — Macdonald, Djafr p. 1037

(١٢١) — Nallino, Il Valore p 24

(١٢٢) تحليله لدى : Taylor, p, 67-68

(١٢٣) — Nallino, Il Yalore, p. 35 — Nallino, Al - Batlani, I, p. 164-165

(١٢٤) — Schoy Erdmessungen, p. 438-439

(١٢٥) نظرية ديكوردمانش مفعمة بالتخيلات راجع :

(Decourdemanche, JA, 11 Série, I, 1913, p. 427-444)

(١٢٦) — Nallino, Il Valore, p. 116— Schoy, Erdmessungen, p. 441,443

(١٢٧) — Schoy; Erdmessungen, p. 443

(١٢٨) — Nallino, Il Valore, p. 121 – Schoy, Erdm., p. 444-445

(١٢٩) — Nallino Il Valore, p 117 — Schoy, Erdm., p. 441

(١٣٠) — Nallino, Il Valore, p 117 — Schoy, Erdm., p. 442 — Globus, 1938, 330 — 110960 m.

(١٣١) — Nollino, Il Valore, p 117

(١٣٢) نالينو الفلك ٢٩٣ — ٢٩٤ (=Racc., p. 305)

(١٣٣) — Nallino Il Valore, p, 24 - 27

(١٣٤) ياقوت ، المعجم الجزء الأول ، ص ١٧

(١٣٥) — Nallino, Il Valore, p. 50 - 53

(١٣٦) — Nallino, Al - Battani, p. 164 - 165

(١٣٧) — Nallino, Il Valore, p. 120

(١٣٨) — Wiedemann, AGNT, I, p. 66, note 3

مع الإشارة إلى نالينو (Nailino, Il Valore, p. 105 - 117)

(١٣٩) نالينو ، الفلك ، ص ٢٩٣ (= Racc., p. 305)

(١٤٠) — Nallino, EI, I, p. 518

(١٤١) — Schoy, Geography, p. 263 - 264

(١٤٢) شرحه ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(١٤٣) — Kimble, p. 65

(١٤٤) شرحه ، ص ٦٣

(١٤٥) — Wright, Notes, p. 86

(١٤٦) — Schoy, Geography, p. 269

(١٤٧) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 123

(١٤٨) شرحه ، ص ١٥٦

(١٤٩) — Suter, EI. II, p. 69 - 70 — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136 —
Sarton, Introduction, I, p. 567 — Brockelmann, GAL. I, p. 221, No 2;
SBI, p. 392 — 393. (= Racc., p. 119) نالينو ، الفلك ، ص ٤٠

(١٥٠) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136, 154, 165

(١٥١) — Sarton, Introduction, I, p. 567 — Sarton, Osirs, V, p. 106

(١٥٢) الصورة في : Sarton, Osiris V, 141

(١٥٣) تفسيره قطع الأرض ، راجع : Dozy, Supplément II, p. 371
ولكن راجع أيضا : حدود العالم ، ص ٩

(١٥٤) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٣٣ – راجع :
Nallino, Al-Huwarizmi, p. 13, note 4 (= Racc., p. 473)

(١٥٥) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 155

(١٥٦) شرحه ، ص ١٤٣

(١٥٧) — Reinaud, Introduction p. CCXC

(١٥٨) الشواهد لدى نالينو (Nallino, Al- Huwarizmi, P. 13 = Racc., p. 474)
الذى يوجد لديه سبعون مؤلفاً ، راجع : (Bartold, Hudud p, 8, note 6)

(١٥٩) نظرية الكشورات وفقاً للمصادر الفارسية يعرضها بالتفصيل بلوشيه
(Blochet, L'Étude, b. 5 - 10)

(١٦٠) — Kramers, EI EB, p. 64 - 54

(١٦١) — Kimble, p. 188

(١٦٢) — Kimble, p. 215

حوالى عام ١١٦٠ بصقلية عملت ترجمة من الإغريقية . مباشرة ولكنها بقيت غير معروفة على العكس من ترجمة جيرار : راجع : Amari (Nallino) , III, p. 673, note I

(١٦٣) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 114

(١٦٤) — Newton, p. 14

Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica, IV, Fasc. III p. 1353 - 1359

(١٦٥) — Newton, p. 4 — Kimble, p. 215

(١٦٦) — Ritter, DI, XIX, 1930, p. 52 - 53

(١٦٧) راجع : Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica

(١٦٨) Bräunlich p. 19

(١٦٩) توفى طاشكبرى زاده عام ١٥٦١

(١٧٠) توفى داود الأنطاكى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٠ —

Brockelmann, GAL, II, p. 364, No 3

(١٧١) حاجى خليفة ، المقدمة ، الجزء الثانى ، ص ٦٠١ — ٦٠٣ ، رقم ٤١٣٠ —

توجد ترجمة موجزة لدى : Schoy, Geography. p. 258

أما الترجمة الكاملة فوجودة لدى : Mzik, ptolemaeus, p. 156 - 157, note 7

(١٧٢) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165

(١٧٣) شرحه ، ص ١٥٥ — ١٥٦

(١٧٤) شرحه

الفصل الثالث

جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى

91 إن مصنف الخوارزمى فى الجغرافيا وإن اعتبر فاتحة عهد جديد فى ميدانه الخاص به ، إلا أنه يجب ألا يعزب عن البال أن شهرة الخوارزمى التى طبقت الآفاق لا تقوم على هذا الكتاب . وقد اكتسب الخوارزمى بالفعل صيتاً عريضاً فدخل اسمه فى مصطلح علمى معروف لجميع تلامذة المدارس الذين لم يهتموا بالطبع بمعرفة أصل ذلك المصطلح . وهذه الشهرة لم تأت اعتباطاً ؛ وقد أطلق سارطون Sarton فى مقدمته لتاريخ العلم اسم « عصر الخوارزمى » على النصف الأول من القرن التاسع لأنه « أكبر رياضيي عصره وواحد من أكبر رياضيي جميع العصور على الإطلاق إذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف[1] » .

وكانت رسالته فى الحساب هى سبب وصول اسمه إلى أوروبا ، فهى أول أثر من نوعه يعرّف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندى . وهذه الرسالة مفقودة الأصل إلا أن ترجمتها اللاتينية للقرن الثانى عشر محفوظة فى مخطوطة فريدة بكمبردج بعنوان : Algorithmi de numero Indorum « الغوريثمى فى حساب الهنـــد » ، ونشرت فى منتصف القرن الماضى . وهى تبدأ بالصيغة الآتية : Dixit Algorithmi « قال الغوريثمى » ؛ ومن هذا يتبين جيداً أن اللفظ مستعمل كنسبة ، أى اسم علم ؛ ولكنه سرعان ما اتخذ فى شكله اللاتينى Algorithmus « الغوريثموس » معنى جديداً للحساب بالأرقام العربية وحل محل الطريقة القديمة « للمعداد » (Abacus) اليونانى الرومانى . ولم يلبث أصل الاسم أن نسى سريعاً وظهر عدد من الاشتقاقات الخيالية ، فتارة ينسب إلى فيلسوف ما يدعى « الغوس » Algus ، أو من ربط أداة التعريف العربية « أل » باللفظ اليونانى « أريثموس » ἀριθμός الخ . أما الاسم الحقيقى فقد توصل إليه قبل طبع مخطوطة كمبردج ، ولكن هذا لم يحل دون صيرورته إلى الأبد مصطلحاً على ضرب معين من الحساب ، رغماً من أن هذه التسمية تقوم على سوء فهم محض[2] .

وإذا كان اسم الخوارزمى قد ظل إلى الآن رمزاً لمصطلح فى الرياضة فيوجد فرع آخر منها قد ثبتت 92 عليه إلى أيامنا التسمية التى أطلقها عليه الخوارزمى. فرسالته «كتاب المختصر فى حساب الجبر والمقابلة » الموجودة أيضاً فى مخطوطة فريدة هى التى يرجع إليها الفضل ليس فقط فى خلق لفظ الجبر Algebra بمعناه الحديث بل وأيضاً فى بزوغ فجر جديد فى ميدان الرياضيات ، الأمر الذى لاينفى بالطبع وجود سابقين له فى هذا المضمار[3] ممن يتحتم البحث عنهم فى بابل القديمة كما يتضح من أبحاث غاندز C. Gandz ؛ ذلك أنه من المستحيل ، اعتماداً على هذه الرسالة ، القول بأن الخوارزمى هو الذى اخترع حساب الجبر ،

فإن تجربته هذه تستند على منهج المدرسة البابلية أو الإيرانية . ولكن فضله الأكبر يعود إلى أنه قد وضع فى اللحظة المناسبة مصنفاً فريداً فى بابه كان له الأثر المباشر فى تعميم الجبر على ممر القرون[٤] .

وقد كان للجداول الفلكية للخوارزمى حظ مماثل أيضاً فى تأثيرها البعيد المدى ، وهى ترتبط فى جوهرها على ما يبدو بترجمة « السند هند » للفزارى التى شغل الخوارزمى كثيراً بدراستها وعمل منها نسخة مصلّحة . وكشأن أى مصنف يحمل اسم الزيج فإن جداول الخوارزمى قد احتوت على مقدمة فلكية وافية هى بمثابة نظرية فى الفلك قائمة بذاتها[٥] . ويقف دليلا على علاقة جداول الخوارزمى بالتراث الهندى الإيرانى أن خط منتصف النهار الابتدائى يبدأ فيها عند الأرين وأن حساب الوقت فيها يسير وفقاً لتقويم يزدجرد . هذا وقد أعاد الفلكى الأندلسى مسلمة المجريطى (حوالى عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧) صياغة هذه الجداول ولكنه استعمل التقويم الهجرى وجعل نقطة الابتداء خط منتصف النهار المار بقرطبة . ولم تصل إلينا هذه الجداول ، كما لم تصلنا الجداول المصلحة للمجريطى ، ولكن حفظت الترجمة اللاتينية للأخيرة بقلم اديلارد الباثى Adelard of Bath التى عملت عام ١١٢٦ . وهذا الوضع يؤدى بلاريب إلى تعقيد مشكلة العلاقة بين كتاب الخوارزمى وتنقيحه للمجريطى ؛ وعلى أية حال فإنه يمكن القول بالكثير من الثقة إن الجداول الفلكية للخوارزمى فى صورتها الجديدة للمجريطى كانت أساساً للمؤلفات الفلكية المتأخرة فى أوربا الغربية[٦] .

ورغما عن الأهمية البالغة لمؤلفات الخوارزمى فإن المعلومات عن شخصه شحيحة للغاية . ونتيجة لسهو معين فى كتاب بروكلمان[٧] فقد نفذت إلى الاستعراب الروسى فكرة مفادها أن الخوارزمى مؤلف الجغرافيا شخص عاش فى القرن الحادى عشر وأنه لا علاقة له بالرياضى الفلكى الذى عاش فى القرن التاسع [٨] ؛ ومرد هذا الخطأ إلى أن تاريخ تدوين المخطوطة قد أخذ على أنه تاريخ تأليف الكتاب . ولايعرف عن سيرة الخوارزمى بالتحديد سوى أنه كان ينتمى إلى دائرة فلكيى المأمون وأنه كان وثيق الصلة « بدار الحكمة » المشهورة وأخذ طرفاً على ما يبدو فى التجارب العلمية المرتبطة فى بعض جوانبها بقياس محيط الأرض . وقد ورد آخر ذكر له مقترناً بوفاة الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٧[٩] ، ويلوح أنه قد توفى عقب ذلك بقليل . وقليل من الإلمام بمؤلفاته الرئيسية سيعاون فى توضيح الصورة النهائية التى صاغ فيها الخوارزمى مصنفه الجغرافى المتعلق بمدار هذا البحث . 93

يطلق على هذا المصنف اسم « صورة الأرض » وهى الترجمة المعهودة فى ذلك العصر للفظ « جغرافيا » اليونانى[١٠] ؛ ولكن الكتاب قد حمل فيما يظهر عدة أسماء ، فمثلاً يذكره أبو الفدا فى القرن الرابع باسم « رسم الربع المعمور »[١١] ؛ وتم تأليفه عقب وفاة المأمون بين عامى ٢٢١ = ٨٣٦ هـ و ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ كما أثبت ذلك بارتولد Bartold[١٢] . وقد حالف التوفيق فرين Frähn فدلل بالكثير من قوة الحدس ، وذلك قبل اكتشاف المخطوطة ؛ على أن القطع المجهولة المؤلف التى يوردها أبو الفدا إنما ترجع إلى هذا المصنف

لذلك الرياضى النابه[١٣] . وعلى هذا الأساس قام بدراستها المؤرخ البولندى ليليويل **Lelewel** وخرج بنتيجة غريبة مؤداها أن كتاب الخوارزمى يمثل ترجمة لرسالة وضعها باليونانية حوالى عام ٧٥٠ مؤلف إغريقى عاش فى أرض الإسلام وعرف كيف يفيد من المصادر الإسلامية[١٤] . ولكن نظرية ليليويل هذه قد انهارت من أساسها بالكشف عن المخطوطة التى وكدت صحة ماذهب إليه فرين[١٥] ؛

وقد لاقى مصنف الخوارزمى هذا نفس المصير الذى لاقته مصنفاته الأخرى ، فهو معروف لنا حتى الآن فى نسخة واحدة فقط موجودة بمكتبة استراسبورج ، ورغما من حالتها السيئة[١٦] فهى ترجع إلى رمضان من عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧[١٧] ، أى إلى ما بعد قرنين فقط من تاريخ تأليف الكتاب ؛ وقد عثر عليها بالقاهرة فى أكتوبر ١٨٧٨ المستعرب المعروف ب.اسبتا B. Spitta الذى كان آنذاك مديراً لدار الكتب الخديوية ، وانتقلت بعد وفاته (١٨٨٣) إلى مكتبة استراسبورج . وكان أول من لفت الأنظار إليها اسبتا نفسه وذلك فى مقالتين نشرهما عام ١٨٧٩ و١٨٨٢[١٨] ، وأصبحت منذ ذلك الحين موضوعاً لأبحاث عديدة . وأول بحث جدى حولها ظهر عام ١٨٩٥[١٩] بقلم نالينو ؛ وتلاه ابتداء من عام ١٩١٥ عدد من الأبحاث الخاصة | بقلم مجيك Mzik وهونغمان Honigmann (١٩٢٩) ؛ وفى عام ١٩٢٦ ظهرت طبعة كاملة لهذا الكتاب قام بتحضيرها مجيك ، غير أن الترجمة التى وعد بها لم تر النور بعد . ولعلها لن تراه إذا حكمنا من ألفاظ مجيك نفسه فى واحد من أبحاثه الأخيرة (١٩٣٦) ، وذلك لما يلازم هذه المهمة من مشقة وعسر . ويبدو أن مجيك قد توصل إلى نتيجة صحيحة مؤداها استحالة تنفيذ مثل هذا العمل قبل التمهيد له بتحليل عميق وفحص دقيق للأقسام المختلفة للكتاب[٢٠] . وعلى الرغم من جميع الأبحاث الجادة العميقة[٢١] فإن عدداً من المسائل المتعلقة بجغرافيا الخوارزمى لا تزال مستعصية على الحل .

94

ونظراً لغلبة الفلك والرياضة على الخوارزمى فقد وضع كتابه فى الجغرافيا على هيئة زيج ، أى جداول فلكية . والكتاب ليس بترجمة ولكنه ترتيب لمادة بطلميوس على هيئة جداول مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيا العربية وطائفة من التعديلات الأخرى . وليس بالمخطوطة مقدمة على الإطلاق ولو أنها وجدت قطعاً بالأصل . وتبدأ الجداول بعد البسملة مباشرة على هيئة عمودين فى كل صفحة مع تبيان المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين موضعاً . وهى موزعة على الأقاليم المختلفة بحسب الابتعاد التدريجى من خط الزوال الابتدائى الذى يمر كما هو الحال عند بطلميوس « بجزر السعادة » (الخالدات) فى أقصى الغرب من أفريقيا[٢٢] . ويتلو جدول المدن جدول الجبال وعددها مائتان وتسعون ، ثم يلى ذلك وصف البحار فالجزر : ويشمل القسم الأخير منها ، وهو أوسعها ، وصفاً للأنهار فى كل إقليم[٢٣] .

ويبدو جلياً من كل هذا أن تبويب الخوارزمى لمادته يختلف اختلافاً بيناً عن نهج بطلميوس فى كتابه

« المدخل إلى الجغرافيا » . وباستثناء المقالة الأولى لبطلميوس التى تحتوى إلى جانب القواعد الأساسية للكارتوغرافيا نقداً لمارينوس الصورى ، وكذلك المقالة الثامنة التى تعالج الطول النسبى لليوم فى مواقع مختلفة والتى تقدم جدولا للأربع وتسعين « أبرشية » (eparchy) Επαρχια (أى ولاية) الموجودة بالمعمورة ، أقول باستثناء تينك المقالتين فإن المقالات الباقية وهى من الثانية إلى السابعة ، قد تم توزيعها لدى الخوارزمى بطريقة مغايرة تمام المغايرة لطريقة بطلميوس ، فبطلميوس يعدد جبال وأنهار ومدن كل منطقة بينما يوزعها الخوارزمى على الأقاليم ويفحص كل ظاهرة على حدة . هذا ويبلغ عدد المناطق عند بطلميوس إحدى وعشرين منطقة ، بينما يبلغ عدد الأقاليم عند الخوارزمى سبعة ؛ وقلّ أن اتفقا على تحديد الأبعاد الجغرافية للأماكن المختلفة(٢٤) . كل هذا إن دلّ على شىء فإنما يدل دلالة واضحة على أن « صورة الأرض » للخوارزمى أبعد من أن تكون ترجمة حرفية لبطلميوس ، بل هى مسودة مصلحة تصليحاً جوهرياً لكتاب « المدخل إلى الجغرافيا » . وأكثر من هذا يجب أيضاً رفض القول الذى نادى به البعض من أن « صورة الأرض » ليست سوى قطعة من الجداول الفلكية للخوارزمى ؛ ذلك أن واقع الأحوال يوكد أن « صورة الأرض » مصنف قائم بذاته وأن علاقته بالجداول الفلكية أشبه بالعلاقة التى بين 95 « المجسطى » و« المدخل إلى الجغرافيا » عند بطلميوس (٢٥) .

هذا ويسترعى النظر بصورة خاصة تقسيم الخوارزمى للأقاليم السبعة حسب درجات العرض ، وهو تقسيم يختلف عن كل التقاسيم الأخرى المعروفة لدى العرب ويعتمد أساساً كما أثبت البحث الحديث على حسابات العلماء اليونان . وإذا كان مارينوس الصورى قد اعتبر خطوط ايراتوثينيس Eratothenes هى الحدود الجنوبية لأقاليمه فإن الخوارزمى جعلها الشمالية ، بينما نقل الحد الجنوبى للإقليم الأول الموجود على خط عرض ١٦° درجة و٢٧ دقيقة شمالا (مدينة مروه Meroe) إلى خط الاستواء واعتبر الحد الجنوبى للمعمور من الأرض هو خط عرض ١٦°درجة و٢٥ دقيقة جنوباً ، كما هو الحال عند بطلميوس . ومن المستحيل تخطئة الخوارزمى فى هذا فتقسيمه منتظم ونقله الأقاليم صوب الجنوب قد أجراه عن قصد ربما دفعه إليه أن سبعين من المدن الكبرى التى أوردها تقع جنوبى الحد الشمالى للإقليم وفقاً لتقسيمه هو . ولعله لا يخلو من مغزى بالنسبة للجغرافيا العربية بأسرها أن الخوارزمى لم يجد من يخلفه أو يسلك سبيله فى هذا التقسيم سوى سهراب الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر فهو يعتمد على الخوارزمى اعتماداً كلياً . وبالرغم من أن العرب قد كشفوا فى القرن التالى للخوارزمى عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقى لأفريقيا وفى الهند وجنوب شرقى آسيا فإن النظرية القائلة باستحالة السكنى فى الإقليم الحار قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة ، إذ حافظ جميع الفلكيين والجغرافيين المتأخرين دون استثناء على التقسيم القديم للأقاليم(٢٦) . وإذا كان تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم قد حظى ببعض الأهمية فى الجغرافيا القديمة لدى الأوائل فإنه قد أصبح قاعدة أساسية مقبولة من الجميع فى

المصنفات الفلكية بل والجغرافية عند العرب . هذا وقد أهملت إلى حد كبير القاعدة الهندسية التى بنى عليها التقسيم وتفاوتت الحدود الفاصلة بين الأقاليم من وقت لآخر. ولم يخل الأمر من وجود آراء غريبة فى هذا الصدد أحياناً[٢٧] كزعم المسعودى بأن جميع المدن الكبرى فى إقليم واحد تقع على خط عرض واحد[٢٨].

وإذا كان الخوارزمى قد أبدى الكثير من الجرأة العلمية فى تقسيمه الجديد للأقاليم فإنه قد أظهر أيضاً الكثير من الأصالة والابتكار فى خارطاته التى تختلف اختلافاً تاماً عن الخارطات المعروفة لنا من العهود التالية . وتقوم أهميتها قبل كل شيء على أنها تمثل أقدم ماوصل إلى أيدينا من آثار الكارتوغرافيا العربية ، ولكننا بكل أسف نفتقر إلى الوقائع والمعطيات الضرورية لنتمكن من الحكم عليها . ولدينا من المبررات ما يجعلنا نفترض أن رسالة « صورة الأرض» إنما تمثل شرحاً فقط لخارطة رسمت على طريقة بطلميوس[٢٩] ، وهذه الخارطة للأسف الشديد لم تصل إلينا ، | 96 فمخطوطة استراسبورج تحتوى على أربع خارطات فقط تمثل فى الغالب نماذج متناثرة ويغلب عليها أحياناً طابع الصدفة المحضة . وإحدى هذه الخارطات تستهدف إلى جانب ذلك هدفاً نظرياً هو تصوير خطوط السواحل بغرض توضيح المصطلحات التى يستعملها العلماء . ولايخلو من مغزى أن بعضها لايزال مستعصياً على الفهم إلى الآن رغما من المجهودات المشتركة فى هذا الصدد[٣٠] . وتقدم خارطة «جزيرة الجوهر» والجبال المحيطة بها مثالا طريفاً من ميدان الجغرافيا الأسطورية . وهذه الجزيرة يطلق عليها عادة اسم « جزيرة الياقوت » ، وكانت مثبتة منذ عهد بطلميوس على خط الاستواء فى أقصى الشرق[٣١] ؛ وتستند الروايات عنها فى الواقع على معلومات حقيقية عن جزيرة سيلان ولكن يطغى عليها لدى الخوارزمى تأثير الرواية العربية لأسطورة الإسكندر التى نالت انتشاراً واسعاً فى العالم الإسلامى آنذاك كما بين مجيك[٣٢] . أما الأهمية الكبرى فتنالها دون منازع خارطته للنيل التى يتضح منها أن مجراه كان معروفاً جيداً فى ذلك الوقت ؛ ويتفق رسم هذه الخارطة مع المذهب القديم فى الجغرفيا الفلكية[٣٣] ويقف دليلا على ذلك أن حدود الأقاليم السبعة قد بينت عليها بوضوح . كما تمثل أهمية جوهرية بالنسبة لنا آخر خارطة لديه وهى المبين عليها بحر مايوتيس Maeotis ، أى بحر آزوف Azov الحالى ، فهى على نقيض الخارطات السابقة تجعل الشمال فى أعلاها أى كما هو الأمر حالياً ، بينما يحتل الجنوب أعلى الخارطات الأخرى وهى الطريقة المتبعة فى الكارتوغرافيا العربية . أما خارطة العالم التى لم تخل منها فيما بعد أية نسخة من نسخ «أطلس العالم» للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب فلا أثر لها البتة عند الخوارزمى . وبيان خطوط الطول والعرض يمثل عنصراً هاماً لإعادة رسم هذه الخارطة ، غير أن المحاولات التى قام بها مجيك خلال دراسته العميقة الطويلة لأفريقيا وجنوب شرقى آسيا[٣٤] وشرقى أوروبا قد أثبتت أنه من العسر تنفيذ هذه المهمة ما لم تتوفر مادة علمية جديدة[٣٥] .

وكما هو الشأن مع جميع الترجمات العربية لكتاب بطلميوس فإنه أيضاً فيما يتعلق بكتاب الخوارزمى ،

لسنا على ثقة تامة أى نص استعمل أهو اليونان أم السريانى ؟ إن نالينو يرى أن كتابه لا يمثل ترجمة لبطلميوس بل يستهدف توضيح الخارطة التى أخذت عن المتن اليونانى لكتاب « جغرافيا » مباشرة ، لا عن المتن اليونانى السريانى . ويمكن فى كثير من الأحيان تفسير الاختلاف مع بطلميوس 97 فى أن مادته تعتمد على الخارطة ولم يأخذها عن « جغرافيا » . وقد وكدت أبحاث مجيك فرض نالينو القائل بأن الرسالة إنما تعتمد أساساً على الخارطة ، ولكنه يعتقد أن الخارطة نفسها تستند على النص السريانى[٣٦] . أما هو نغبان فيرى فى كتاب الخوارزمى محاولة للمزج جهد المستطاع بين « الخارطة المأمونية » وخارطة بطلميوس ، وأن تلك المحاولة لم يكتب لها التوفيق التام[٣٧] . والأسماء الجغرافية القديمة لاتزال كثيرة لدى الخوارزمى ولكنها ما لبثت أن أخذت فى الاختفاء من الجغرافيا الوصفية حتى أصبحت نسياً منسياً فى عهد ياقوت فى القرن الثالث عشر . وقد قام الخوارزمى نفسه بمحاولة لمقارنتها بالأسماء المستعملة فى عصره فأورد من وقت لآخر بعض التسميات الجغرافية الفارسية[٣٨] . هذا ويمكن القول بصفة عامة أن الخوارزمى قد أبدى فى مؤلفه هذا نفس الأصالة والابتكار اللذان ظهرا فى مؤلفاته الرياضية ، كما يجب أيضاً الاعتراف تبعاً لنالينو[٣٩] وبارتولد[٤٠] بأنه لا يوجد شعب أوروبى واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن مقارنته بهذا الكتاب الذى يعتبر أقدم أثر فى الجغرافيا العربية . وقد لعب كتاب « صورة الأرض » دوراً محدوداً فى أوروبا الوسيطة لدى المقارنة بمؤلفات الخوارزمى الأخرى ، غير أن بعض مادته فيما يتعلق بالعروض والأطوال قد وجدت طريقها إلى « جداول طليطلة » للزرقالى فى القرن الحادى عشر . وهذه الأخيرة قد ترجمت إلى اللاتينية وتمتعت بصيت عريض فى القرن الثانى عشر وما بعده[٤١] .

أما تأثير الكتاب على العلم العربى فقد كان هائلا . فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وجد مصنف آخر يكمله ويقترب منه اقتراباً شديداً بحيث يضحى من الممكن اعتباره مسودة أخرى للخوارزمى . ولايزال يحيط باسم مؤلفه الكثير من الغموض والإبهام ؛ وفى مخطوطة المصنف الفريدة الموجودة بالمتحف البريطانى ، وهى مخطوطة جيدة ترجع إلى عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ ، يدعو المؤلف نفسه فى المقدمة باقتضاب « أفقر الورى سهراب » . ومثل هذا الأمر نادر الحدوث بين المؤلفين العرب ، فضلا عن أن الاسم يبدو أجنبياً مما يدفع إلى الاشتباه فى أنه ربما قصد به التضليل أو أنه اسم مستعار . بيد أن المتن واضح بصورة جعلت الكتاب يثبت على اسم هذا المؤلف فى الدوائر العلمية منذ أن أصدر مجيك طبعة كاملة له فى عام ١٩٣٠[٤٢] . وإلى ما قبل هذا التاريخ ساد خلط كبير حول اسم المؤلف لاتزال آثاره ملموسة إلى أيامنا هذه ، فالبعض قد أطلق عليه اسم ابن 98 سرابيون[٤٣] خالطين بينه وبين الطبيب المعروف لذلك العصر[٤٤] ، بينما دعاه البعض الآخر أبا الحسن بن البهلول[٤٥] . ولايزال الشك يعتور عنوان الكتاب نفسه وهو « كتاب عجائب الأقاليم السبعة » الذى يرتفع إلى المخطوطة ذلك أن الكتاب لا يوجد به أى ذكر للعجائب . وربما كان مجيك محقاً فى قوله إن اسم الكتاب هو ببساطة « كتاب الأقاليم السبعة » .

أما تاريخ تاليفه فيمكن تحديده وفقاً للاستقراء الداخلى لمادته بين عامى ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ و٣٣٤ هـ = ٩٤٥ ، أى قبل دخول البويهيين بغداد . ويكشف المؤلف عن معرفة جيدة بالعراق بحيث لا يرقى الشك إلى أنه عاش بها ؛ وكان معاصراً لأبى زيد البلخى مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكنه يمثل اتجاهاً مخالفاً كل المخالفة لمذهب تلك المدرسة ، فمصنفه استمرار للمذهب اليونانى فى الجغرافيا ولو بطريقة تخالف بعض الشىء طريقة « صورة الأرض » للخورازمى . وتزودنا مقدمته بتفاصيل جوهرية تساعد فى وضع خارطة مسطحة مربعة (Plattcarte) اعتماداً على مادة الكتاب نفسه ؛ وهذا بدوره قد دفع مجيك إلى الافتراض بأنه ربما وجدت مثل هذه المقدمة فى كتاب الخوارزمى أيضاً ولكنها مفقودة فى مخطوطة استراسبورج . أما تبويب المادة لدى سهراب فيختلف بعض الشىء عما هو عليه الحال مع « صورة الأرض » ، ففى البداية يرد تعداد المدن وأقسام الأقاليم المختلفة ، ثم يلى هذا وصف البحار والجزر وتعداد الجبال (بحسب الأقاليم أيضاً) وبعد ذلك المنابع والأنهار ، وفى الخاتمة توزع هذه الظواهر على الأقاليم المختلفة . ومن هذا يتضح أن هذه التقسيمات هى نفس تقسيمات الخوارزمى ولكن تخالفها فى التسلسل ، والسبب الذى دعى إلى هذا غير واضح لنا . وأحياناً قد يختلف التوزيع حتى فى داخل الأقسام نفسها كما هو الحال مثلا مع مدن الأقاليم الثالث والرابع والخامس . ويمكن القول بصفة عامة بأن الاختلاف بين الاثنين فيما يتعلق بالمادة المستقاة من المصادر اليونانية طفيف للغاية ويتمثل بوجه خاص فى تشويه بعض الأسماء اليونانية والطمس الذى أصاب بعض الأرقام ؛ بيد أن هذا لم يحل بالطبع دون وجود قراءات لدى سهراب تفضل أحياناً قراءات الخوارزمى . وعلى وجه العموم ففى الأقسام التى يقربان فيها من بعضهما البعض يضحى من غير الممكن كما يقول مجيك إعداد طبعة علمية للكتاب الأول بدون الاعتماد على مخطوطة الثانى .

وتتمثل الأهمية الرئيسية لكتاب سهراب فى اتساع المادة المستقاة من المصادر العربية ، ويبدو أن غرضه كان إضافة مادة جديدة إلى ما جمعه الخوارزمى قبل قرن من ذلك ، فيجعل بهذا مصنفه أقرب إلى حاجة معاصريه ، ويصدق هذا قبل كل شىء على الأقسام عن الجبال وعن الأنهار خاصة . ووصف 99 المؤلف لشبكة | قنوات بغداد واف بصورة استرعت أنظار لوسترانج Le Strange منذ التسعينيات من القرن الماضى وزوده بمادة جوهرية فى وضع وصفه التخطيطى لأرض السواد وقتذاك[٤٦] . هذا وقد حمل وصفه لدلتا النيل المستشرق غست Guest إلى القول بأن سهراب قد عرف مصر معرفة مباشرة وأنه من أهليها[٤٧] ؛ وكما بين مجيك فإن مثل هذا الزعم لم يكن ليصدر إلا نتيجة للجهل بمصدر سهراب الرئيسى وهو الخوارزمى[٤٨] . ولايخلو من طرافة فى آخر الأمر ملاحظة أن لغة سهراب أكثر « استعراباً » وأن أسلوبه يحافظ على مستوى النثر العلمى المعتاد بينما يلاحظ فى أسلوب الخوارزمى وعورة فى اللغة ، وفى هذا دليل على أن أسلوب نثر الرسائل العلمية فى عصره لم يكن قد أوفى بعد على الغاية[٤٩] .

ولم يقف تأثير الخوارزمى عند سهراب وحده بل تعداه إلى غيره ، ولو أنه يجب الاعتراف بأنه من العسير أحياناً إدراك تأثير مصنف بعينه بقدر الإحساس بتأثير الاتجاه العام الذى يستهدف عرض المادة الجغرافية على هيئة جداول ، وهو ذلك الاتجاه الذى يستمد مادته من نفس المصادر اليونانية التى ترتفع إليها « صورة الأرض » . ولقد ارتبط هذا الاتجاه فيما بعد بالفلك أكثر منه بالجغرافيا الوصفية التى بدأت فى الظهور آنذاك ؛ ومن ثم فلنا الحق كل الحق فى أن نغفل بعض الشىء سير التتابع التاريخى ونقصر أنفسنا فيما يلى من هذا الفصل على الكلام على المصنفات الكبرى فى ميدان الجغرافيا الفلكية دونما حاجة إلى الكلام عنها مرة ثانية عند معالجة العصور التى تنتمى إليها .

وقبل الدخول فى هذا يجدر بنا أن نقدم نبذة موجزة عن معاصر الخوارزمى الأصغر وهو « فيلسوف العرب » الشهير يعقوب الكندى (المتوفى حوالى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤)[٥٠] . ويرتبط بهذا الاسم كما ذكرنا من قبل واحدة من أولى ترجمات جغرافيا بطلميوس ؛ وأغلب الظن أن تأثيرها قد ظهر فى تأليفه لكتابه « رسم المعمور من الأرض » الذى يشير إليه المسعودى[٥١] والذى لا نعلم عنه شيئاً للأسف . وتنال أهمية كبرى رسالته « فى البحار والمد والجزر » كما يدعوها المسعودى ؛ وقد استعملها الأخير فى الفصل الذى أفرده للمحيط الهندى[٥٢] ويرجع الفضل فى تعريف العلم الأوروبى بها إلى بحثين للعلامة ڤيدمان Wiedemann[٥٣] . وبالرغم من أن نظرية الكندى فى المد والجزر تستند على أفكار خاطئة إلا أنه من الطريف ملاحظة أنه قد اعتمد على الملاحظة والتجربة العلمية ليثبت صحتها[٥٤] . هذا وسنلتقى بأحد 100 تلامذته عند الكلام على تاريخ التطورات الأولى فى محيط الجغرافيا الوصفية .

وقد استمر اسم الزيج مطلقاً على الجداول الفلكية التى امتدت حياتها خلال عدد من الآثار المجيدة حتى اختتمت بجداول ألوغ بيك Ulugh Bek ، وهى جميعها بالتقريب تعطينا أطوال وعروض المواضع الجغرافية موزعة على الأقاليم السبعة . ويحتل المكان الأول من بينها زيج البتانى (حوالى ٢٤٤ هـ — ٣١٧ هـ = ٨٥٢ — ٩٢٩)[٥٥] الذى عاش بعد قرن من الخوارزمى تقريباً . والبتانى لا ينتسب إلى المدرسة البغدادية بقدر ما ينتسب إلى مدرسة صابئة حرّان ؛ ومن فضل القول التحدث عن مكانته فى تاريخ العلم البشرى ، ودليل هذا ذيوع صيته فى أوروبا الوسيطة تحت اسم Albategnius وأيضاً الاهتمام الكبير الذى أبداه نحوه رجيو منتانس Regiomontanus (١٤٣٦ — ١٤٧٦)[٥٦] بصدد حساب المثلثات الكروى (Spheric Trignometry) ، كما وأن ملاحظاته عن الكسوف قد أفاد منها فائدة كبيرة دنتورن Dentorn حتى فى وقت متأخر كعام ١٧٤٩[٥٧] . وقد أمضى البتانى حياته بأسرها تقريباً يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة ، من عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ إلى عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨[٥٨] . ورغما من أنه اعتبر نفسه مسلما إلا أنه كان أقرب فى أصله إلى صابئة حرّان الذين برز منهم فى ذلك العهد عدد من كبار العلماء يكفى أن نشير من بينهم إلى ثابت بن قرة الذى مر ذكره .

وترتبط باسم البتانى تصليحات لبعض آثار بطلميوس نخص منها كتابه « المقالات الأربع »(٥٩) ؛ غير أنه لم يصلنا من بين جميع مصنفات البتانى سوى الجداول الفلكية المعروفة باسم « الزيج الصابئ » وتحوى مقدمة وافية فى أكثر من ستين فصلا تعالج جميع مسائل الفلك ؛ وقد ذاع صيتها فى أوروبا بعد أن ترجمها إلى اللاتينية فى عام ١١٤٠ أفلاطون التيڤولى Plato of Tivoli . ولقد أبصرنا من قبل سعة إدراك البتانى فى تقديره لمكانة بطلميوس فى تاريخ الفلك العربى ، وسنقتصر الآن على تلك المواضع من زيجه التى تتعلق بالجغرافيا فى معناها الضيق .

ويمثل أهمية خاصة فى هذا الصدد الفصل السادس من المقدمة الذى يعطى وصفاً عاماً للأرض ويخص بالتفصيل البحار . وكما لاحظ نالينو فإن مادة هذا الفصل بأجمعه ترتفع إلى بطلميوس فى روايته اليونانية السريانية التى جرت فيها يد التعديل بصورة جوهرية(٦٠) . ويجب أن نلاحظ أن وصفه للبحار والجزر الموجودة بها قد أضحى بفضل ترجمة أفلاطون التيڤولى معروفاً لأوروبا منذ عهد مبكر وأن جميع التصورات التى انتشرت فى الغرب عن المحيط الهندى مثلا إلى عهد | 101 | الكشوف الجغرافية الكبرى إنما ترجع إلى البتانى(٦١) ؛ ومن الملاحظ أن المادة الجغرافية فى أوروبا المعاصرة لا يمكن مقارنتها بأية حال مع مادة البتانى من حيث القيمة العلمية(٦٢) . وقد اجتذب هذا الفصل أنظار العلماء الأوروبيين منذ أن كان الكتاب معروفاً فى مخطوطته الوحيدة بالأسكوريال فترجمه رينو(٦٣) ومرن(٦٤) قبل ظهور الطبعة العلمية لنالينو ؛ وهو ذو أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافى العربى إذ يقدم لنا أتم وصف للعالم عرفته العصور السابقة مأخوذ عن جغرافيى المدرسة اليونانية . وقد أفاد منه ممثلو الجغرافيا الوصفية من معاصرى البتانى كما توجد شذرات منه لدى ابن رسته والمسعودى وقدامة والجيهانى مأخوذة عن مصادر أخرى ولكن تكرر المادة حرفياً بحيث لا يمكن إنكار أثر البتانى عليها . ونصه كالآتى :

« وأما مواضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة فى الطول والعرض فقد أوضحنا بالقياس الذى قد ذكره بطلميوس ووافقه عليه غيره من القدماء أن الأرض مستديرة وأن مركزها فى وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قلّة . وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرة التى تسمى الخالدات التى فى بحر أوقياس الغربى(٦٥) وهى ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين فوجدوا ذلك اثنتىْ عشرة ساعة فعلموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى عمران الصين كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة أنها فى بحر أوقيانس الغربى وإذا غابت فى هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين وذلك نصف دائرة الأرض وهو طول العمران الذى وقف عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ميل من الأميال التى عملوا عليها فى مساحة الأرض ثم نظروا فى العرض فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهى إلى جزيرة ثولى التى فى برْطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة . وذكروا أن خط

الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهند والحبش فى جزيرة هناك من ناحية الجنوب من معدل النهار فتعترض هنالك وتحد ما بين الشمال والجنوب . والخط الذى يقطع هذا الخط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب فى النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة أنها فى بحر أوقيانس وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما وصفنا وموضعها موضع 102 التقاطع . والعرض من خط الاستواء إلى جزيرة ثولى يكون قريباً من ستين جزءاً وذلك سدس دائرة الأرض فإذا ضُرِب هذا السدس الذى هو مقدار العرض فى النصف الذى هو مقدار الطول كان مايظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سُدس الأرض وهو جزء من اثنى عشر جزءاً . وقدّروا بحر الهند وقالوا ان طوله يُعَدُّ من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار إلى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل وله خليج بأرض الحبش يمدّ إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربرى وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض أيْلَـةَ وهو بحر القُلْزُم طوله ألف وأربعمائة ميل وعرض طريقه الذى يسمى البحر الأخضر(٦٦) مائتا ميل وعرضه فى الأصل سبعمائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسى وهو بحر البصرة طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة وخمسون ميلا . ويكون بين هذين الخليجين أعنى خليج أيْلَـة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون ما بين هذين الخليجين ألفاً وخمسمائة ميل . ويخرج منه أيضاً خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمائة ميل . وفى هذا البحر كله أعنى بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وثلثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة فى أقصاه عند بلد الصين تسمى طَبَرْبُنَانى وهى سرنديب يحيط بها ثلثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة فيها مدن وقرًى كثيرة . فأما بحر أوقيانس الغربى الذى يدعى المحيط فإنه لا يعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية وهو بحر لا تجرى فيه السفن والستّ الجزائر التى فيه مقابل أرض الحبش هى الجزائر العامرة وتسمى أيضاً جزائر السُّعداء . وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غَدِيرة عند الخليج وهذا الخليج يخرج منه وعرض موضعه الذى يخرج منه سبعة أميال هو بين الأندلس وطنجة يُسمَّى سبطا يخرج إلى بحر الروم وفيه أيضاً من ناحية الشمال جزائر برطانية وهى اثنتا عشرة جزيرة 103 ثم يبعد عن العمران فلا يعرف أحد كيف هو ولا ما فيه . وأما بحر الروم ومصر فإنه يخرج من عند الخليج الذى يخرج من بحر أوقيانس الغربى عند الجزيرة التى تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه فى مكان ستمائة ميل وفى مكان سبعمائة ميل وفى مكان ثمانى مائة ميل وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريباً من رُومية طوله خمسمائة ميل يسمى بحر أذْرِيَس وخليج آخر يخرج

نحو أرض نربونة طوله مائتا ميل . وفى هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس يحيط بها مائتا ميل وسَرْدَانية يحيط بها ثلاثمائة ميل وقُبْرُس يحيط بها ثلاثمائة وخمسون ميلا وصِقِلّية يحيط بها خمسمائة ميل وإقْرِيطِش يحيط بها ثلاثمائة ميل . وبحر بُنْطُس يمد من لاذقة إلى القسطنطينية العظمى طوله ألف وستون ميلا وعرضه ثلاثمائة ميل يدخل فيه النهر الذى يسمى طَنَايِس ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التى تسمى مايُطِس وهو بحر ضخم وإن كان يسمى بحيرةً طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل وعرضه مائة ميل وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجرى كأنه نهر ويصب فى بحر مصر وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلثة أميال والقسطنطينية عليه . وبحر جُرجانَ وهو بحر الباب طوله من المغرب إلى المشرق ثمانى مائة ميل وعرضه ستمائة ميل وفيه جزيرتان قبالة جرجان كانتا فيما مضى عامرتين وهذه المواضع العامرة من موضوع بحر الأرض المعروف والله بذلك أعلم .

وقد قُسِمت الأرض بثلثة أقسام الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذى يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر وما بين بحيرة مايطس إلى بنطس فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربى وهو أوقيانس ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أوروفى . والقسم الثانى من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش وحدود هذه الناحية من المغرب البحر الأخضر ومن الشمال بحر مصر والروم ومن المشرق العريش ومن الجنوب بحر الحبش ويسمى هذا القسم لوبيا . والقسم الثالث جميع ما بقى من عمران الأرض إلى أقصى ذلك وحدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة ومن الجنوب بحر اليمن والهند ومن المشرق أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها ويسمى هذا القسم أشيا الكبرى . فهذه الثلثة الأقسام قد جمعت الأقاليم والكُوَر وسائر البلدان العامرة . وأما ما لا يُعْرف 104 عمرانه ولا خرابه فهو أحد عشر جزءاً من اثنىْ عشر جزءاً وأما الجزء الذى فيه العمران المعروف من موضع خط الاستواء ففيه البحور والمفاوز . فإن قال قائل هل فى هذه الأحد عشر جزءاً نبات وحيوان وعمران كان القول فيه من جهة القياس والرأى وأما ما كان من عمران الأرض قبلنا فإنه لا يجوز الحدّ والأفراق التى ذكرنا وأما الذى وراء ذلك فإنه لم يُجْرِه أحد إلينا ولكن الرأى والظن يقع على ما لا ينكره أحد من ذوى المعرفة على جهة القياس أن الشمس والقمر والكواكب تجرى عندنا فيكون بحركتها وقربها وبعدها صيف وشتاء ونبات وحيوان وعمران وما يعرفه كل أحد فإن كانت الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب مثل ما عندنا فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا وينبغى أن يكون كذلك . وتكون حصة الدرجة الواحدة من هذه الأميال المذكورة قريباً من خمسة وستين ميلا وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم . فأما طول المدن وعرضها على ما رُسِمَ فى كتاب صورة الأرض فإن مواضعها من الطول الذى هو مسافة ما بين المغرب والمشرق فإنهم ابتدأوا

به من الجزائر العامرة التى فى بحر أوقيانس الغربى إلى ناحية المشرق على حسب ما وجدوا أوقات كسوفات القمر خاصة بتقدم بعضها بعضاً فى البلدان فعلموا بذلك أن انتصاف النهار فى كل بلد يتقدم انتصاف النهار فى غيره من ناحية المغرب بأجزاء من أزمان معدّل النهار يكون مقدارها مقدار أزمان ما بين الكسوف فى البلديْن ومن ذلك ما أخذوه من الأخبار ممن يسلُك الطرق بالتقريب . وأما عروض المدن فإنهم أخذوها من قبل قياس الشمس فى أوقات انتصاف النهار فى البلدان فعرفوا بعدها وقربها من نقطة سمت الرؤوس على نحو ما بينا فيما تقدم من هذا الكتاب فعلموا بعد كل بلد عن خط الاستواء وهو مسافة ما بين الجنوب والشمال ورسموا تحت كل مدينة بعدها عن الجزائر الخالدات فى الطول وعن خط الاستواء فى العرض بالتقريب وقد أثبتنا ذلك على الرسم الذى وجدناه فى كتاب صورة الأرض المعروف وذِكْرَ أوساط البلدان والكُوَر المعلومة أيضاً ذكراً مفرداً كما فعل بطلميوس وهى أربعة وتسعون بلداً، . وقد يوجد فى هذا الكتاب خلل فى الأطوال والعروض وسنعيد ذكرما يحتاج إليه من ذلك فيما يستأنف من كتابنا هذا »*[٦٧] .

105 وبالطبع فهذا الفصل لا يستغرق جميع المادة الجغرافية الموجودة فى زيج البتانى . وجدول الأقاليم لديه يتفق بالتقريب مع الفرغانى ولكنه يختلف مع الخوارزمى بالطبع ، لأن هذا الأخير كما بينا من قبل يقف فريداً فى هذا الصدد ؛ والبتانى لا يضع هـذا الفصل فى القسم الجغرافى من زيجه بل بين الجداول المفردة للأجرام السماوية . ولا تخلو من الأهمية أيضاً جداوله الجغرافية التى لسبب ما لم تجد مكانها فى الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيڤولى ولذا فلم تصبح فى متناول أيدى العلماء إلا فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى وذلك فى الترجمة الكبرى لنالينو التى سبقت ظهور الطبعة الكاملة للكتاب. وهى تعطى ثبتاً بأسماء مائتين وثلاثة وسبعين موضعاً موزعة على مجموعتين مع تبيان العروض والأطوال[٦٨] . ولأول وهلة قد يظن أن البتانى كان يستهدف تتمة الخوارزمى لأنه يورد فى القائمة الأولى الأربع وتسعين ولاية «eparchies» للمعمورة الواردة فى المقالة الثامنة من كتاب بطلميوس والتى لم تجد مكانها فى « صورة الأرض » للخوارزمى . وفى كِلتَىْ جدوليه ، كما فى مقدمة زيجه أيضاً ، يورد البتانى فى الواقع ذكر مصدر واحد فقط بعنوان «كتاب صورة الأرض» . غير أنه من المستحيل أن يبصر فى هذا كتاب الخوارزمى وذلك لأسباب عديدة من بينها ، ولو أنه ليس أهمها ، أن الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيڤولى القائمة على الأصل العربى لكتاب البتانى تضيف بعد هذا العنوان « المعروف باسم جغرافيا » . وكما أثبت نالينو فالكلام يدور هنا فى الواقع حول الترجمة المصلحة لبطليموس التى عملها

* إن شرح هذه القطعة يحتاج إلى بحث خاص ، ولكن تسهيلا لفهمها نذكر أنه يقصد بالبربر والخليج البربرى بلاد الصومال ، أما سبطا فهى سبتة (Ceuta) . وبحر أذريس هو البحر الأدرياتيكى ، أما جزيرة قرنس فهى كورسيكا ، وأما لاذقة فهى بلاد اللاظ . ونهر طانايس يقصد به الدون الحالى ، أما بحيرة مايطس فهى بحر آزوف . ويريد ببحر جرجان بحر قزوين وبالباب ممر دربند . (المترجم)

ثابت بن قرة[٦٩] ؛ وهذا ليس بغريب فثابت من مواطنى البتانى فضلا عن أن الأخير قد تحاشى ، عن قصد فى أغلب الظن ، الاستفادة من النتائج العلمية التى وصل إليها فلكيو المأمون ، هذا إذا اعتمدنا فى حكمنا على عدم وجود أية مقتطفات من مصنفاتهم فى كتابه[٧٠] . وهو لاينبس ببنت شفة عن المقاسات التى أجراها أولئك لخط منتصف النهار ، ولكن من ناحية أخرى فإن صاحب الترجمة المصلحة لبطلميوس كان على علم بمصنف الخوارزمى فقد استعار منه بعض المعطيات[٧١] ، كما كان على علم أيضاً بالترجمات السريانية لبطلميوس[٧٢] .

وكما أبصرنا من قبل فجميع المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للجغرافيا الرياضية عند العرب يحيط بها الكثير من الغموض واللبس ؛ وهذا الحكم يصدق بدوره على مصادر البتانى . غير أن مصنفاته تمتاز على المصنفات الأخرى التى بين أيدينا الآن بوجود طبعة علمية لأحدها . إذ الواقع يثبت أنه لا توجد رسالة فلكية واحدة | عن العصر الأول تتمتع بطبعة علمية نموذجية مع ترجمة وتعليقات ضافية كما هو الحال مع « الزيج الصابئ » فى الأجزاء الثلاثة الكبرى لنالينو (١٨٩٩ — ١٩٠٧) . وتعتبر تعليقات نالينو بحق موسوعة لا مثيل لها لكل من يريد الخوض فى مسائل الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب . 106

وبعد قرن بالتقريب من البتانى وفى مصر الفاطمية ظهر مؤلف فى الفلك على هيئة جداول تمتع بنفس المكانة الممتازة التى تمتع بها زيج البتانى . وهو من عمل ابن يونس الذى على النقيض من البتانى حفظ لنا تفاصيل الوصف الهام لحساب خط منتصف النهار الذى تم فى عهد المأمون . وكما هو الحال مع فلكيي المأمون فإن ابن يونس ، واسمه أبوالحسن على الصدفى[٧٣] ، كان أيضاً فلكياً للبلاط ؛ وقد بدأ عمله فى وضع الجداول حوالى عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ على جبل المقطم بالقاهرة فى المرصد الذى ضُم فيما بعد إلى « دارالحكمة » التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحاكم واستمرت من عام ١٠٠٥ إلى آخر آخر عهد الفاطميين فى عام ١١٧١[٧٤] ؛ وهى تقدم لنا مثيلا للمنظمة المعروفة فى عهد هارون الرشيد والمأمون . أما الجداول فقد أتمها ابن يونس قبل قليل من وفاته (فى عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩) وأخذت عنوان « الزيج الحاكمى الكبير » نسبة إلى الخليفة الفاطمى لذلك العهد وهو الحاكم بأمر الله . وقد حفظ لنا الكتاب فى عدة مخطوطات غير كاملة ، نشر شذوراً منها وترجمات كوسان دى پرسيفال Caussin de Perceval ، ويحمل كتابه تاريخ العام الثانى عشر للجمهورية الفرنسية (١٨٠٣ — ١٨٠٤) . وقد قام المستعرب وعالم الرياضيات شوى Schoy بالكثير فى دراسة نظرياته فى العشرينيات من هذا القرن[٧٥] وبين ما قام به ابن يونس لا فى ميدان الفلك وحده بل أيضاً فى حساب المثلثات الكروى (spheric trignometry) حيث يجتذب الأنظار بشكل خاص قاعدة رياضية كشف عنها ابن يونس . ولا شك أن ابن يونس يعتبر أكبر الفلكيين العرب قاطبة بعد البتانى .

وتسبق الجداول مقدمة قصيرة تمتاز بالطرافة وتعرض بإيجاز لجميع تلك الأغراض العملية التى تستخدم الفلك والجغرافيا الرياضية فى مجال الشعائر الإسلامية . قال :

« . . . ولما كان للكواكب ارتباط بالشرع[٧٦] فى معرفة أوقات الصلوات وطلوع الفجر الذى يحرم به على الصايم الطعام والشراب وهو آخر أوقات الفجر وكذلك مغيب الشفق الذى هو أول أوقات العشا الآخرة وانقضا الإيمان والنذور | والمعرفة بأوقات الكسوف للتأهب لصلاته والتوجه إلى الكعبة 107 لكل مصل وأوايل الشهور معرفة بعض الأيام إذا وقع فيه شك وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر ومعرفة سمت مكان ما من مكان والاهتدا عند الضلال وكان رصد أصحاب الممتحن قد بعد عمره وكان عليه من الخلل ما وجد فى أرصاد من تقدمهم من أهل العلم والبطاش مثل ارشميدس وابرخس وبطلميوس وغيرهم أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأنبيائه الأكرمين بتجديد رصيد الكواكب السريعة السير وبعض البطيئة »[٧٧] .

كما تحتوى الجداول نفسها على مقدمة تبسط ما يحتاج إليه عملياً فى الرصد والحساب وكيفية استعمال الجداول سواء من الناحية الفلكية بمعناها الضيق أو من ناحية التوقيت وحساب المثلثات . والمهمة الأساسية لجداوله هى تصحيح الأرصاد السابقة ، فحصل بهذا على نتائج جديدة ؛ والأمر الذى يهمنا بصورة خاصة ، أى من وجهة النظر الجغرافية البحتة ، هو تحديدها لمواقع مائتين وسبع وسبعين مدينة وهو رقم لا يختلف كثيراً عن الرقم الوارد فى الجداول الجغرافية للبتانى السالف ذكرها .

وفى كلامنا على بداية الجغرافيا الفلكية عند العرب أشرنا إلى الدور الهام الذى قام به الزرقالى كوسيط بين الشرق والغرب ، كما وقفنا بعض الشىء عند « جداول طايطلة » التى لعب الزرقالى دوراً رئيسياً فى وضعها . وأبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالى ، الذى اشتهر فى الدوائر العلمية بنسبته « الزرقالى » وفى أوروبا الوسيطة باسم Arzachel (عاش حوالى عام ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ — ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧[٧٨]) كان فى بادئ أمره على أغلب الظن نقاشاً ، وتكمن هذه الحقيقة فى أنه لقب أيضاً بالنقاش . وكان يعمل فى تحضير الآلات الفلكية الدقيقة فاخترع اسطرلاباً جديداً بلغ حد الكمال ، ولم يلبث أن صار أكبر راصد لعصره . ومسقط رأسه قرطبة ولكنه أمضى حياته بأجمعها تقريباً بطليطلة التى كانت آنذاك المركز الثقافى لأسبانيا . ورسالته فى الاسطرلاب المسماة « صفيحة الزرقالى » (فى الترجمة اللاتينية Saphaea Arzachelis) كان لها تأثير لا نظير له على كافة العلم الأوروبى ، وترجمت فى ذلك الوقت إلى لغات عديدة كالعبرية واللاتينية والقشتالية | والإيطالية[٧٩] . وقد لعبت نفس هذا الدور أيضاً « جداول 108 طليطلة » الفلكية التى شارك فى وضعها الزرقالى مشاركة فعالة وعمل لها شرحاً خاصاً بها ؛ ولم يعثر على الأصل العربى لها إلى الآن غير أن الترجمة اللاتينية لجيرارد الكريمونى Gerard of Cremona فى القرن الثانى عشر معروفة فى أكثر من خمس عشرة مخطوطة ، الأمر الذى يدل على سعة انتشار الكتاب .

وقد كان لهذه الجداول أثر كبير فى النشاط العلمى للفونس « العالم » فى القرن الثالث عشر ؛ وأفرد لها ريجيومنتانوس Regiomontanus رسالة خاصـة ، كما وأن كوبرنيكوس Copernicus نقل

عنها كما فعل مع البتاني تماماً[٨٠] ، وفى الأعوام الأخيرة قام العالم الإسبانى خوسيه مياس ڤاليكروسا Jose M. Millás y Vallicrosa بأبحاث عديدة تبين جميع أوجه النشاط العلمى للزرقالى . ومما يصور أهمية نشاطه بالنسبة للجغرافيا أنه استغل الترجمات العربية لبطلميوس بما فى ذلك كتاب الخوارزمى أيضاً[٨١] ؛ ومن بين أعماله العامية حسابه لطول البحر الأبيض المتوسط إلى ما يقرب من الواقع وذلك فى ٤٢° درجة ، هذا بعد أن تم اختزال القياس البطلميوسى من ٦٢° درجة إلى ٥٤° درجة بواسطة فلكيى المأمون[٨٢] .

وبالطبع فلم تلعب جميع الزيجات فى تاريخ العلم العالمى دوراً يماثل الدور الذى لعبته جداول البتانى أو الزرقالى ، ولكن حتى تلك التى لا تجتذب الأنظار كثيراً قد تمثل أحياناً بعض الأهمية بالنسبة لنا لصلتها بالعلم الروسى . ففى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى عرّف خانيكوف Khanikoff الدوائر العلمية لأول مرة بالمخطوطة الفريدة التى كان يمتلكها وقتئذ وهى كتاب « ميزان الحكمة » لمؤلف يدعى الخازنى وذلك بنشره لمقتطفات منها فى مجلة الجمعية الشرقية الأميركية Journal of the American Oriental society [٨٣] . وسرعان ما اجتذب الكتاب الأنظار وتم الاعتراف به كأثر بارز فى ميدان الميكانيكا والفيزياء والهيدروستاتيكا (Hydrostatics) * كما اتضح أنه يمثل خطوة إلى الأمام فى دراسة الوزن النوعى التى بدأها البيرونى . وقد ظهر فى الآونة الأخيرة عدد من الدراسات عن هذا المصنف ، كما أن العمل يسير قدماً فى تحضير طبعة علمية كاملة له تأخذ فى حسابها إلى جانب مخطوطتنا المخطوطات التى تم الكشف عنها فى الهند منذ ذلك الوقت[٨٤] .

أما عن المؤلف نفسه فقد تجمعت الحقائق ببطء شديد ، وشيئاً فشيئاً بدأ يتضح أنه كان عبداً رومياً (بيزنطياً) عاش بمدينة مرو وأعتقه سيده ووفر له تعليماً جيداً ، كما اتضح أيضاً أن له مصنفاً آخر يهمنا بصورة خاصة فى ميداننا هذا وهو « الزيج السنجرى المعتبر » ؛ وهذه الجداول محفوظة فى مخطوطة فريدة بالفاتيكان ندين بمعرفتنا بها إلى المستشرق نالينو[٨٥] . وقد عملت الجداول بمرو حوالى عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ على أساس أرصاد ترجع فى الغالب إلى عام ٥٠٩ هـ = ١١١٥ — ١١١٦ وتعتمد على خط عرض مرو الذى حدد بسبع وثلاثين درجة وأربعين دقيقة[٨٦] . ومن الطريف أن الخازنى يورد فيها حسابات تقوم على الأدوار الكونية (Cosmic Cycles) للسدهانتا وأدوار « الألوف » لأبى معشر[٨٧] ، وهذا برهان آخر على أن المذهب الهندى — الإيرانى كان لا يزال متمتعاً ببعض الحيوية . أما الجداول فقد أخذت اسمها من اسم السلطان سنجر آخر السلاجقة الكبار (٥١١ هـ — ٥٥٢ هـ = ١١١٨ — ١١٥٧) الذى نشط الخازنى فى عصره ورفع جداوله إليه .

وفى القرن الثالث عشر ينتقل بنا إلى أفريقيا الشمالية الفلكى أبو على حسن المراكشى (توفى حوالى

* أى علم توازن السوائل الساكنة وضغطها (القاموس العصرى) . (المترجم)

عام ٦٦٠ هـ = ١٢٦٢)[٨٨] الذى يمثل بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا أيضاً لأنه سافر كثيراً فزار الأندلس وعرف شمال افريقيا من المحيط الأطلنطى إلى النيل . ومصنفه الأساسى هو « جامع المبادئ والغايات إلى علم الميقات » ؛ وفى القسم الأول منه يعالج مبادئ تلك العلوم التى يقوم عليها الفلك وهى الكوزموغرافيا (وصف الكون) والتوقيت وفن صنع الساعات الشمسية أى المزاول Gnomonics ؛ أما القسم الثانى فقد أفرد بصورة خاصة لصناعة أجهزة الرصد وطريقة العمل بها . وهو يقدم لنا كشفاً بأسماء مائتين وأربعين نجما رصدت عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ — ١٢٢٦ ، هذا إلى جانب جداول العروض والأطوال لمائة وخمسة وثلاثين موضعاً جغرافياً حقق منها بنفسه أربعة وثلاثين[٨٩] . ومن الطريف اتخاذه الأرين خطاً للابتداء ، وهو مذهب يرجع إلى التراث السابق لعهد المأمون . وقد أكمل تأليف هذا المصنف فى عام ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ ، وهو كغيره من الآثار الفلكية قد تعرف عليه العلم المعاصر قبل تعرفه على الآثار الجغرافية وأضحى جزء كبير منه فى متناول الأيدى فى ترجمة فرنسية من عمل العالمين الفرنسيين سيديو Sédillot الأب والابن (١٨٣٤ — ١٨٣٥ ، والتتمة عام ١٨٤٢) . وكما لاحظ رينو[٩٠] فإنه من المستحيل بالطبع إنكار أن المراكشى كان تجريبياً أكثر منه عالماً وأنه يقف فى المستوى العلمى دون ابن يونس بكثير ، إلا أن مصنفه يمثل خطوة هامة فى ميدان الجغرافيا الرياضية ولايزال وصفه لأجهزة الرصد فريداً فى نوعه إلى اليوم .

وفى العصر الذى كان يقوم فيه المراكشى بأرصاده الفلكية فى المغرب حدث بالمشرق تحول كبير نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد وقضائهم نهائياً على الخلافة العباسية . وهذا العهد الذى صحبه القضاء على عدد من آثار الحضارة استطاع رغم ذلك أن ينتج أثراً ممتازاً فى ميدان الفن الذى نعالجه الآن ، أعنى بذلك « الزيج الايلخانى » ؛ كما استطاع أن ينشئ منظمة واصلت بجدارة النشاط العلمى « لدار الحكمة » المأمونية والحاكمية ، أعنى بذلك مرصد مراغة الشهير. وكل من الجداول الفلكية | والمرصد يرتبطان 112 باسم واحد من أكبر علماء الإسلام قاطبة وهو نصير الدين الطوسى (٥٩٧ هـ — ٦٧٢ هـ = ١٢٠١ — ١٢٧٤)[٩١] ويكتب اسمه فى العلم الأوروبى أحياناً على هيئة ناصر الدين ، ولكن هذا كما أثبت نالينو[٩٢] يستند على محض خطأ إذ أن اسمه فى الواقع هو نصير الدين ليس غير . وقد كان نصير الدين يجيد اللغتين العربية والفارسية ويكتب بهما ، ويمكن اعتباره ممثلا للثقافتين العربية والفارسية على السواء : وفى مؤلفاته العلمية سار بالطبع على منوال المذهب العربية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتراث الأوائل . وقد مكنته مهارته السياسية الفائقة من أن يحتفظ بحياته | فى الظروف القاسية التى مرت بها إيران فى منتصف القرن 113 الثالث عشر ، بل وأن يزاول نشاطه العلمى كذلك؛ وحدث له أن أمضى فترة ليست بالقصيرة محتجزاً فى قلعة الاسماعيلية بألموت Alamut ، وما لبث أن وقع فى قبضة هولاكو ولكنه عرف كيف يحتفظ بنفوذه لديه معتمداً فى ذلك على ما يظهر على سمعته كمنجم ؛ وكان فى معية هولاكو عند

استيلائه على بغداد : وقد حالفه التوفيه فى العام التالى لذلك (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩) فأقنعه ببناء مرصد كبير بمراغة بأذربيجان حيث كان يوجد بلاط المغول .

وقد تم تزويد المرصد بأفضل أجهزة الرصد لذلك الحين حفظ لنا وصفها تلامذة الطوسى وزملاؤه فقدموا بذلك مادة لأبحاث قام بها بعض المتخصصين من الأوروبيين. واشترك نصير الدين أحياناً فى حملات المغول العسكرية ليجمع المخطوطات لمكتبة المرصد التى ضمت أربعمائة ألف مجلد ؛ وهو رقم مبالغ فيه كما يحدث عادة فى أمثال هذه الحالات . وكان من بين أمناء هذه المكتبة يوماً ما المؤرخ المعروف ابن الفوطى الذى كان وقع أسيراً فى يد المغول فأنقـــذه نصير الدين . وأعد المرصد خير إعداد ليس فى الأجهزة والآلات والكتب فحسب بل وأيضاً فى العدد الضخم من العلماء حيث وجد إلى جانب تلامذة الطوسى أبناؤه أيضاً ؛ وثمة روايات عن مشاركة علماء صينيين فى أعمال الرصد بهذا المرصد وهو أمر ليس مستبعد بالنسبة لدولة المغول . بيد أن المرصد لم يدم أكثر من جيلين ولم يسمع عنه شىء بعد النصف الأول من القرن الرابع عشر[٩٣] ؛ ولا تزال خرائبه ماثلة إلى أيامنا هذه بمراغة[٩٤] .

وكان نصير الدين الطوسى دائرة معارف بمعنى الكلمة ، فقد شمل نشاطه العلمى جميع العلوم سواء الإسلامية الصرفة أو العلوم الدقيقة . ويسترعى النظر ما قاله عنه فى عام وفاته العالم السريانى المعروف ابن العبرى ، وكان يعرفه معرفة جيدة ، بل واشتغل هو نفسه بالتدريس بعض الوقت بمراغة : قال :

« وفى هذا التاريخ توفى خواجا نصير الدين الطوسى الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة حكيم عظيم الشأن فى جميع فنون الحكمة . واجتمع إليه فى الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين . وكان تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى تحت حكم المغول . وله تصانيف كثيرة منطقيات وطبيعيات وإلاهيات وأوقليدس ومجسطى . وله كتاب أخلاق فارسى فى غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص أفلاطون وأرسطو فى الحكمة العملية . وكان يقوّى آراء المتقدمين ويحلّ شكوك المتأخرين و| المؤاخذات التى قد أوردوا فى مصنفاتهم »[٩٥] . 114

أما فى محيط العلوم الدقيقة فندين له بتصليحات عديدة لمؤلفات جميع علماء الأوائل تقريباً ممن عرفهم العرب ، وقد استمر الشرق الإسلامى يستخدم هذه الترجمات المصلحة لنصير الدين الطوسى إلى أيامنا هذه . من ذلك أنه أعد مسودة جديدة للمجسطى طغت على جميع الترجمات السابقة تقريباً . أما أرصاده لوضع جداول فلكية فقد بدأها فى سن متقدم من عمره وهو سن الستين ؛ ومع ذلك فقد وفق فى إتمامها خلال اثنى عشر عاماً وذلك حوالى عام ٦٧٠هـ =١٢٧١ رغماً من أنه يقرر فى مقدمة الجداول أن دورة الأرصاد الفلكية لا تتم فى أقل من ثلاثين سنة[٩٦] . وقد شارك فى وضع هذه الجداول فلكيون آخرون واستند حسابها على أساس خط منتصف النهار الذى يمر بمراغة ، وأطلق عليها اسم « الزيج الايلخانى » نسبة إلى اللقب الذى كان يحمله حكام إيران المغول . والكتاب مرتب على أربع مقالات الأولى فى التقاويم المختلفة

والثانية فى حركات الكواكب والثالثة فى تحديد الأوقات والرابعة فى حسابات تنجيمية مختلفة . هذه الجداول وإن لم تشتمل دائماً على إرصادات أصيلة إلا أنها اكتسبت صيتاً واسعاً فى الشرق الأدنى واستمرت مستعملة حتى إلى ما بعد ظهور جداول ألوغ بيك ، بل إنها نفذت إلى الصين وسيطرت سيطرة مطلقة على علم الفلك هناك . وقد اعتمد أحد علماء سمرقند ممن عاشوا بالصين على جداول نصير الدين الطوسى فى وضع تقويم خاص لأحد أحفاد جنكيزخان فى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢[٩٧] ، واستمر تأثيرها فى الصين إلى ما بعد زوال دولة المغول بها فى القرن الرابع عشر حتى طغت عليها فى القرن السابع عشر مؤلفات الجزويت الغربيين الذين اشتد نشاطهم فى ذلك الوقت[٩٨] .

وأغلب الظن أن « الجداول الايلخانية » قد وضعت أصلا بالفارسية ولكن يُعثر على عدد كبير من مسوداتها باللغة العربية ، بل وعدد من المسودات المصلحة والشروح[٩٩] . ويرجع الفضل لأحد تلك الشروح وهو لمحمود شاه قلجى فى تعريف أوروبا بهذه الجداول ، إذ نشر مقتطفات من هذا الشرح مع ترجمة المستشرق والفلكى الإنجليزى جون غريفز John Greaves سنة ١٦٤٨ — ١٦٥٠[١٠٠] . وكما هو الشأن مع بقية الزيجات فإن كمية المادة الجغرافية الخالصة فيه لا يستهان بها رغما من أنها تقتصر بشكل خاص على إيراد الأطوال والعروض[١٠١] . وينسب إلى نصير الدين الطوسى مصنف خاص فى الجغرافيا باللغة الفارسية ترتفع تسميته إلى المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب هو « صورة الأقاليم » الذى يحوم الشك حول صحة نسبته إليه والذى لا يمثل فى واقع الأمر سوى ترجمة فارسية لكتاب الاصطخرى على ما يبدو[١٠٢] .

115

ويجب أن نخص بالذكر من بين تلامذة الطوسى ومعاونيه العديدين قطب الدين مسعود الشيرازى (٦٣٤ هـ — ٧١٠هـ = ١٢٣٦ — ١٣١١)[١٠٣] الذى تجاوزت مواهبه العلمية حدود الجغرافيا الرياضية بكثير ، فهو كنصير الدين الطوسى كان جامعاً لصنوف المعارف مما حدا بأبى الفدا إلى أن يلقبه «بالمتفنن»[١٠٤] ؛ وهو قد فات نصير الدين فى بعض النواحى وأبدى أصالة أكثر منه . ويرى فيه بارتولد « فلكياً عظيما بحث عن طرق جديدة فى الفلك »[١٠٥] ، بينما اعتبره سارطون Sarton من كبار علماء الفرس عامة[١٠٦] .

والذى يهمنا بصورة خاصة اثنان من مصنفاته ارتبطا ارتباطاً وثيقاً ببعضهما البعض ، أحدهما « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » الذى فرغ من تأليفه عام ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ ، والآخر « التحفة الشاهية فى علم الهيئة » الذى يرجع إلى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ ، وهو يمثل إلى حد كبير مسودة مصلحة للمصنف الأول . و« نهاية الإدراك » ليس مصنفاً فلكياً بالمعنى الدقيق للفظ بل يعالج بصورة منظمة مسائل الكوزمولوجيا والجيودوسيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات[١٠٧] . وڤيدمان الذى اهتم كثيراً بدراسة هذا الأثر يعتبره أفضل عرض للفلك (الكوزموغرافيا) باللغة العربية يخلو من الرياضيات[١٠٨] . ويمثل بعض الطرافة فحصه لموضوع شكل الأرض وموضعها وحركتها[١٠٩] وحجمها[١١٠] . وهو أكثر

ميلا إلى نفى الحركة عنها[١١١]. وفى القسم الجغرافى يعرض وصفاً مفصلا للبحار والأقاليم مأخوذ كما هى العادة عن الفلكيين ولكن أكثر استيفاء ، بحيث يقدم لنا فى أحوال عديدة مادة تكفى لوضع خارطة . وتوجد لديه أحياناً معلومات هامة عن بلاد كالهند وجاوه[١١٢]، كما وأن معرفته بالمغرب لا بأس بها .

116 وعندما دخل الخان أرغون فى علاقات دبلوماسية مع فرنسا والبابوية تمكن قطب الدين من أن يريه فى عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ خارطة لبحر المغرب وسواحله مبين عليها بدقة مواقع مدن آسيا الصغرى كذلك[١١٣]. والشيرازى لم يظفر إلى هذه اللحظة بالاهتمام والتقدير اللائقين به فى الأوساط العلمية ولم ير النور حتى الآن أىٌّ من مصنفاته التى ذكرناها ؛ أما معرفتنا بنظرياته فنحن مدينون بها إلى ڤيدمان الذى أوضح فى كثير من أبحاثه المتناثرة[١١٤] آراء الشيرازى حول عدد من المسائل العلمية .

أما آخر الزيجات الذى يكتمل به عقد هذه السلسلة من الآثار فيقترن باسم حفيد تيمورلنك وهو الوغ بيك (٧٩٦ هـ = ٨٥٣ هـ = ١٣٩٣ – ١٤٤٩)[١١٥]؛ وقد بين بارتولد فى بحث مفصل مكانة هذا الأمير فى التاريخ والعلم* . وكان محباً للفلك خبيراً فيه فقد شيد على غرار إيلخانات إيران مرصداً هائلا بسمرقند فى سنة ٨٣٢ هـ = ١٤٢٨، ظهرت أطلاله فى حفريات عام ١٩٠٨ ولكن للأسف ليس بصورة تمكننا من الحكم على البناء بأجمعه ؛ ورغما من ذلك فإن ربع الدائرة (quadrant) فى الجزء المتبقى منه لايزال يحدث تأثيراً قوياً فى نفس من يراه[١١٦]. وفى هذا المرصد كان الوغ بيك يعمل مع عدد من العلماء بعضهم من آسيا الصغرى والبعض الآخر من إيران ، وظهرت آثار هذا النشاط فى جداول النجوم المعروفة باسم « زيج سلطانى جديد » أو بالاختصار « زيج ألوغ بيك » ، التى تم وضع معظمها حوالى عام ٨٤١ هـ = ١٤٣٧ . وأغلب الظن أنها وضعت أصلا بالفارسية ولكن ظهرت معها فى وقت واحد بالتقريب الترجمتان العربية والتركية وأعقبهما عدد من الشروح والتنقيحات . وترتيب هذا الزيج يكاد يطابق ترتيب الزيج الايلخانى ، فيلى المقدمة الطويلة المقالة الأولى فى معرفة التقاويم ، بينما تبحث المقالة الثانية فى معرفة الأوقات ، أما الثالثة ففى حركات الكواكب ، ثم الرابعة فى مواقع النجوم الثابتة . وبالطبع فزيج ألوغ بيك استمرار للتراث العلمى العربى فى مجرى من مجاريه ، فهو لم يكشف عن شىء جديد البتة . وقد أصبحت عمليات الرصد فى العصور التالية لذلك إلى العصر الحديث عسيرة التنفيذ فى الشرق الأدنى ، لذا فإن زيج ألوغ بيك يمثل الكلمة الأخيرة فى فلك العصور الوسطى بل والدرجة القصوى التى بلغها علم الفلك قبل اختراع المنظار المقرِّب (التلسكوب)[١١٧] .

أما مرصد ألوغ بيك فقد كان أقصر عمراً حتى من مرصد مراغة ، وأغلب الظن أن عمره لم يتجاوز حياة مؤسسة فأضحى منذ القرن السادس عشر 117 خرائب وأطلالا[١١٨]. هذا وكان من أكبر معاونى ألوغ بيك فى مرصده ومن واضعى الزيج على بن محمد القوشجى (توفى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤) الذى

---

* ظهرت بالاتحاد السوفيتى دراسة لعلامة أوزبكى يتناول فيها بالبحث نشاط أولوغ بيك كعالم . (المترجم)

اضطر إلى مغادرة سمرقند ووجد الملاذ بعد تجوال طويل لدى السلطان العثمانى محمد (الثانى) الفاتح بالقسطنطينية حيث أصبح المسئول الأول عن انتشار المعارف الفلكية والجغرافية فى الدولة العثمانية فقد تُرجم إلى اللغة التركية عدد من مؤلفاته العربية والفارسية[١١٩] . ولعله ليس من محض الصدفة أن ترجمت جغرافيا بطلميوس إلى العربية مرة أخرى فى عهد ذلك السلطان .

أما زيج ألوغ بيك فقد تجاوز عمره عمر المرصد بقرون عديدة وكان يستعمله « الموقتون » فى البلاد الإسلامية إلى عهد قريب ، كما وأن أوروبا قد عرفته فى القرن السابع عشر فى وقت واحد مع نصيرالدين الطوسى بفضل دراسات غريفز Greaves (١٦٤٨ ، ١٦٥٢) وهيد Heyd (١٦٦٥) . وقد ترجم مقدمة الجداول سيديو Sédillot (١٨٤٧ ، ١٨٥٣) أما فهرس النجوم فقد نشره فى طبعة علمية بول كنوبل Paul Knobl عام ١٩١٧[١٢٠] .

وزيج ألوغ بيك يختتم سلسلة تلك المصنفات الفلكية التى اقتفت أثر علماء عصر المأمون والتى لا تخلو من الأهمية بالنسبة للجغرافيا الوصفية رغما من اقتصارها على تحديد أطوال وعروض البلاد والمدن . .وليس من السهل حصر عدد من يمثلون هذا الاتجاه بصورة كاملة منتظمة ، بل إنه لا يوجد ما يدعو إلى ذلك لأننا فى الواقع عالجنا جميع الآثار الكبرى التى كانت فاتحة عهد جديد بالنسبة لعصورها ؛ وباستثناء حالات معينة فإنه لا توجد خارطات للمادة الجغرافية التى تحتويها ، فالفلكيون أنفسهم لم يحاولوا القيام بذلك كما وأن معظم الجغرافيين لم تكن لهم دراية بمسائل الفلك . والاستثناء الوحيد المثمر كما أبصرنا يمثله فى النصف الأول من القرن العاشر سهراب الذى حفظ لنا نفس النظام الموجود لدى الخوارزمى ولكنه اهتم كثيراً بإيراد المادة العربية المعاصرة له[١٢١]، ولايتطرق الشك إلى صلته بالرياضيات من جهة وبالجغرافيا الوصفية من جهة أخرى . وهذا الموضوع الأخير ، أعنى الجغرافيا الوصفية ، هو الذى سننتقل الآن إلى معالجة ظروف نشأته فى الخلافة العباسية .

حواشى الفصـــل الثالث

(١) — Sarton, Introduction, I, p. 563

(٢) — Suter, EI, I, p. 290-291

(٣) — Mieli, p. 82

(٤) — Mieli, p. 84-85 — Gandz, Osiris, V, p, 319-391

(٥) — Wiedemann, EI, II, p. 979

(٦) — Suter, Al-Huwarizmi, p. VIII-IX

(٧) — Brockelmann, GAL, I, P. 225

(٨) — Krymski, Ist. Arabov, I, p. 104, 110

(٩) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 9

نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ ، ملاحظة ٢ (= Racc., p. 224, note 2)

(١٠) حدود العالم ، ص ٩

(١١) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 18-19

(١٢) حدود العالم ، ص ٨

(١٣) — Nallino, Al-Huwarizmi p. 12

(١٤) — Lelewel, I, p. 21-29; Epilogue p. 47-60

(١٥) — Nallino Al-Huwarizmi, p. 18-19 — Mzik, Afrika, p. V—VI ; :
ولكن راجع : Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115

(١٦) — Mzik, BAH und G., III, p. VII-IX

(١٧) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 14

(١٨) شرحه

(١٩) ملخص باللغة الفرنسية : C. Nallino, Al-Khuwarizmi

(٢٠) — Mzik, Osteuropa, p. 163-164

(٢١) راجع منها : E. Wiedeman, Al-Khwarizmi, II, p. 978-979 — Sarton, Introduction, I, p. 563-564 — Mieli, p. 79-81 — حدود العالم p. 8-9

(٢٢) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 138-139

(٢٣) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 15-17

(٢٤) شرحه ، ص ١٧ — ١٨

(٢٥) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 160 - 191, note 3; against Suter, Al - Khwarizmi

(٢٦) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 161 - 162

(٢٧) — Kramers, EI, EB, I, p. 64

(٢٨) المسعودي ، التنبيه ، BGA, VIII ص ٤٤

(٢٩) — J. K. Wright, Geagr, Lore, p. 393 — Mzik, ptolemaeus, p. 162-163

(٣٠) — Mzik, Afrika, p. XI, note 1 — Mzik, BAH und G, III, p. 162

(٣١) — Ferrand, Relations, I, p. 115; II, p. 347, 595

(٣٢) — Mzik, Parageographische, p. 194 - 198

(٣٣) — Kramers, Al - Nil, p. 990

(٣٤) شرحه — Mzik, Parageographische

(٣٥) راجع أيضاً : Ferrand, Relations, II, p. 590 - 595

(٣٦) — Mzik, Afrika, p. VI - VII — Mzik, Ptolemaeus, p. 164. — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 393

(٣٧) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 156

(٣٨) حدود العالم ، ص ٨

(٣٩) — Nallino, Al - Huwarizmi, p. 53

(٤٠) حدود العالم ، ص ٧

(٤١) — J. K. Wright, Geographical Lore, p. 392

(٤٢) — Mzik. BAH und G, I, p. X—XI; V. 1930 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 406, No 6 — Mioli p. 114, 117, note 2

(٤٣) — Le Strange, Ibn Serapion, p. 1 - 76. 255-315 — Guest, Delta — Sarton, Introduction, I, p. 635 — Brockalmann, GAL, I, p. 227, No 6 — Huart, Littératuire. p. 297

(٤٤) — Ferrand, Relations, I, p. 112-113

(٤٥) — Seippel, p. 132 · 125

(٤٦) — Le Strange, Ibn Serapion, p. 1 - 76, 255 - 315, 739 — Baghdad, p. 586, 587, 592

(٤٧) — Guest, Delta, p. 305

(٤٨) — Mzik, BAH und G, p. 140 - 141

(٤٩) شرحه ، ص ١٠ ؛ والجزء الثالث ص ٢٩ — ٣٠ .

(٥٠) - Brockelmann, GAL I, p. 209-210, No 2; SBI, p. 372-374 — Reinaud, Introduction, p. LIV — CCCII Sarton, Introduction, I, p. 595—560

(٥١) المسعودى ، التنبيه BGA, VIII ، ص ٢٥ – حدود العالم ، ص ٩
Brockelmann, GAI, SBI p. 374, X

(٥٢) المسعودى التنبيه ، BGA, VIII ، ص ٥١

(٥٣) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 373, IV, physik, I

(٥٤) — De Boer, Al Kindi, p. 1096

(٥٥) — Sarton, Introduetion I, p. 602—603 – Brockelmann, GAL, I. p. 222 No 8. SBI, p. 337 — Mieli, p. 83, 88

(٥٦) — Nallino, Al — Battani, EI p. 709

(٥٧) شرحه و Mieli, p. 88

(٥٨) — Nallino, Al — Battani, EI, p. 709
Nallino, Al — Battani, I, p. VIII — IX

(٥٩) هكذا فى : EI, I, p. 709 ؛ ولكن راجع : Brockelmann, GAL, SBI p, 397,
وفقاً لنالينو (Nallino Al-Battani, I, p. XX,—XXIII) .

(٦٠) — J. K, Wright, Geogr Lore, p. 393 note 7

(٦١) شرحه ، ص ٢٨٠ – ٢٨١

(٦٢) شرحه ، ص ٩٦

(٦٣) — Reinaud, Introduction p. CCLXXXIII – CCXC

(٦٤) — Mehren, Udsigt, p, 13 — 18

(٦٥) هى جزر السعادة فى الطرف الغربى لأفريقيا فى المحيط الأطلنطى .

(٦٦) كما يفترض نالينو (Nallino, Al-Battani, I. p, 175 — 177) فإن المقصود بالبحر الأخضر هنا هو ذلك الجزء من البحر الأحمر الذى هلك فيه فرعون عند مطاردته للعبرانيين ؛ وقد نشأت التسمية من ترجمة غير دقيقة لاسم سريانى . ويخالفه فى هذا دى خويه (De Goeje, II (?) p. XXIII — XXIV) . أما مجيك (Mzik, Parageog p. 186, Note 21.) فيرى فى البحر الأخضر التسمية المعتادة للمحيط الهندى والمحيط المتصل به (شرحه ، ص ١٨٨ – ١٨٩) .

(٦٧) — Nallino, Al-Battani Text III p. 25. — Translation, I, p. 17 — 20, Comme-ntary, I p. 164 — 177. – Reinaud, Introduction, p. CCLXXXIII — CCXC; Text, p. CDLXI — CDLXIV — Mehren' Udsigt, p. 13 — 18 — Reconstr-uctjon of map : Reinaud, Introduction, p. CCLXXXII, No 1.

(٦٨) عن طريقته فى حساب خطوط العرض راجع : Schoy, Polhöhenbestimmungen : p. 16 — 19.

(٦٩) — Nallino, Le Tabelle, p. 162 — 163 — Nallino, Al — Battani I, p. XLII

(٧٠) — Nallino, Le Tabelle p. 163. Note 10

Nallino, Al — Battani, I, p. XLII

(٧١) — J. K. Wright, Geogr Lore, p. 393, Note 7

(٧٢) — Honigmann, Die Sieber Klimata, p. 111 — 135

(٧٣) — Reinaud, Introduction, p. XCIII — XCIV — Brockelmann. GAL, I, p. 224. No 14 SBI, p. 400 — 401 — Suter, Ibn Yunus, p. 456 — Sarton, Introduction, I, p. 716 — 717 — Mieli p. 109, 212

(٧٤) — Sarton, Introduction, I, p. 717

(٧٥) راجع : Sarton, Introduction I. p. 717

تحديد العرض لدى : Schoy, Polhóhenbestimmungen, p. 19 — 21

(٧٦) - Reinaud, Introduction, p. XCIV

(٧٧) — Reinaud, Introduction, p. XCIV — XCV

Reinaud, Notices sur les Dictionnaires p. 76.

(٧٨) — Brockelmann, GAL I, p. 472 — 473, No 3, SBI, p. 862 نالينو ، الفلك p. 170, 176, 188, 235 — 265 (= Racc. p. 221, 225, 235, 272)

Sarton, Introduction, I, p. 758 — 759 — Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 227 -230 — Mieli, p. 184 — 187

(٧٩) — Carra de Vaux, Les penseurs II, p. 229 - 230

(٨٠) شرحه ، ص ٢٣٠

(٨١) — J. K Wright, Georgr Lore, p. 79, 394

(٨٢) — Mehren, Udsigt, p. 27 - 28

(٨٣) المتن والترجمة — Khanikoff, JAOS, VI, p. 1 - 128 ; p. 1 - 78;

p. 79 - 107 زيادة المؤلف 107 - 128 زيادة المحرر

(٨٤) — Brockelmann, GAL, I, p. 494, No I; SBI, p. 902 — Sarton, Introduction, II, p. 216 - 217 — Wîedemann Al - khazini, p. 1006 - 1007

Mieli, p. 154 - 155 — Suter, Mathematiker, p. 122, No 296, p. 226

(٨٥) — Nallino, Al - Battani I, p. LXVII, p. 161, 269 - 271. 279 - 281

(٨٦) شرحه ، ص ٦٧

(٨٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٩ (= Racc., p. 227 - 228)

(٨٨) — Reinaud, Introduction, p. CXXXVIC- XXXVIII — Brockelmann, GAL, I, p. 473 - 474, No 7; SBI, p. 866 — Sarton Introduoction, II, p. 621 - 622 — Kramers, EI, EB, p. 64, 71 – Mieli, p. 210 - 211

(٨٩) عن طريقة ملاحظته للعروض راجع : — Schoy, Polhöhenbestimmungen, p. 21 - 33

(٩٠) — Reinaud, Introduction, p. CXXXVII,

(٩١) — Brockelmann, GAL, I, p. 508 - 512 No 8; SBI, p. 924 - 933 — Ruska, Al-Tusi, p. 1063 — Sarton Introduction. II, p. 1001 — 1013 — Reinaud, Introduction, p. CXXXVIII. — CXLI – Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 222 - 225 — Strothmann, Die Zwölfer schia — Mieli, p. 150 - 154 — Wiedemann, Beiträge, LXXV' p. 363 - 379 — Wiedemann, Al - Tusi, p. 289 - 316 — Browne, Literary History, II, p. 484 - 485; III, p. 17 - 18

(٩٢) — Nallino, OM, VIII, p. 43 - 44 (= Racc., II, 1940, p. 463)

(٩٣) راجع أيضاً عنه : — Schwartz, Iran, VIII, p. 1019; IX, p. 1403 - 1404, note 2, 3

(٩٤) — Minorsky, Maragha, p. 288

(٩٥) صالحانى ، ص ٥٠٠ – ٥٠١ . راجع : Browne, Lit History, III, p. 18

(٩٦) — Reinaud, Introduction p. CXXXIX – CXL

(٩٧) Schefer, Notice, p. 24 - 26 — Brockelmann, GAL, SBII. p. 297, No I, C Blochet, Catalogue, p. 169, No 6039

(٩٨) — Bartold, Kult, Mus., p. 85

(٩٩) — Brockelmann, GAL, I, p. 511, No 45: SBII, p. 298

(١٠٠) شرحه ، ص ٥١١ – ٥١٢ — Greaves

(١٠١) — Ferrand, Relations, II, p. 357 - 358

(١٠٢) — Miller, I, p. 22, No 22 — Sarton, Introduction, II, p. 1009, No 17
بالتفصيل فى كتاب : Mzik, Abbildungen p. 149
ومع وصف الخارطة لدى : G. Melgunof

(١٠٣) — Brockelmann, GAL, II p. 211 - 212, No I, SB II, p. 296 - 297 — Wiedemann, Kutb - al Din. p. 1252 - 1253 — Sarton, Introduction, II, p. 1017 - 1020 — Mieli p, 151, 154 note 8 — Reinaud, Introduction, p. CXLI – Honigmann, Die Sieben Klimata p. 162 – 163, 167

(١٠٤) — Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252

(١٠٥) — Bartold, Kult. Mus., p. 82

(١٠٦) — Sarton, Introduction, II, p. 1017

(١٠٧) شرحه ، ص ١٠١٨

(١٠٨) — Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252

(١٠٩) — Wiedemann AGNT, III p. 395 - 422

(١١٠) شرحه ، ص ٢٥٠ — ٢٥٣

(١١١) شرحه ، ص ٤٣١ — ٤١٧

(١١٢) — Ferrand, Relations II p. 612 - 613

(١١٣) رشيد الدين لدى : Blochet, L'Étude, p. 4

مخطوطة طشقند ، رقم A 236a

(١١٤) ذكرها لدى : Sarton, Introduction, II, p. 1020 —

Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252 - 1253

(١١٥) — Brockelmann, GAL, II, p. 212 - 213, No 3; SB II, p. 298 - Bouvat, p. 1077 - 1078 - Mieli, p. 263, 266 - 267 — Carra de Vaux, Les, Penseurs II, p. 225 - 226 — Bartold, Ulughbek, p. 107 - 111

Bartold, Kult. Mus. p. 94 - 96

(١١٦) الصورة لدى : Bartold, Kult. Mus., p. 95

(١١٧) شرحه ، ص ٩٤

(١١٨) شرحه ، ص ٩٥

(١١٩) — Brockelmann, GAL, II, p. 234 - 235, No 4; SB II, p. 326 - 330

Bel, EI, I, p. 304

(١٢٠) — Brockelmann, GAL, SB II, p. 298

(١٢١) — Kramers, EI, EB p. 64

الفصل الرابع

الجغرافيون اللغويون ورحالو القرن التاسع

118 فى القرن التاسع ظهرت لدى العرب جغرافيتهم الرياضية ؛ وقرب منتصف ذلك القرن بدأت تتشكل الجغرافيا الوصفيـــة ببطء ملحوظ فى أول الأمر كأنما كانت تتحسس الاتجاهات التى ستسلكها فى تطورها التالى ؛ ذلك أنها لم تجد أمامها نماذج معدّة لتسير وفقاً لها . وهذا الميدان لم يشتغل به ممثلو العلوم الدقيقة بقدر ما اشتغل به اللغويون الذين أخضعوا المادة لمطالبهم . ومن العسير علينا أن نحكم على المحاولات الأولى فى هذا المجال ، ذلك أنه لم يحفظ لنا فى معظم الأحوال من المصنفات إلا أسماؤها فحسب . وفى بداية النصف الثانى للقرن التاسع فقط بدأت تظهر مصنفات قائمة بذاتها ولكنها لم تعرف إلا فى روايات أو موجزات بأقلام بعض المتأخرين :

وقد سبق لنا الحديث عن بعض الأنماط الأولى فى صياغة المادة الجغرافية بواسطة اللغويين ، أعنى ما يعرف « بكتب الأنواء » التى ضمنها اللغويون جميع صنوف الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة الأخرى مصحوبة بتعليقات لغوية وغير لغوية . وقد ربط العرب الأقدمون الأنواء بحركات المنازل القمرية وأورثوها الخلف فى أغلب الأحيان على هيئة سطور قصيرة مسجوعة يكثر فيها غريب اللغة حتى احتاجت منذ القرن التاسع إلى الشرح والتوضيح . وقل أن وجد عالم لغوى من المتخصصين فى العهد الجاهلى لم ير من اللازم أن يظهر علمه بالأنواء فى هيئة رسالة خاصة . وتبدأ سلسلة هذه الرسائل فى الأنواء فى الحد الفاصل بين القرنين الثامن والتاسع بمؤرج السدوسى (توفى عام ١٩٥ هـ = ٨١٠)[1] أحد المقربين إلى المأمون عندما كان الأخير والياً على خراسان ؛ وتمضى السلسلة هكذا متصلة الحلقات على امتداد القرنين التاسع والعاشر ؛ ويمكن أن نكون فكرة عنها من خلال الاقتباسات العديدة الموجودة غالباً فى المعاجم العربية . ولعل أبعـــدها صيتاً على الإطلاق مصنف لأبى حنيفة الدينورى (توفى عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥) المعروف لنا على الأخص كمؤرخ . وأحد الأمثلة الفريدة لكتب الأنواء يقـــدمه لنا « تقويم قرطبة » The Calendar of Cordova المشهور لعام 119 ٩٦١ هـ ؛ وهو بالطبع ليس مصنفاً لغوياً بل مرشداً لصغار المزارعين يقدم لهم معلومات لا فى الزراعة فحسب بل وفى الفلك والطقس . ولإعطاء فكرة عن الأساس الذى يستند عليـــه يكفى أن نذكر فقط تقسيمه للعام إلى ثمانية وعشرين منزلا قمرياً ؛ كما وأن العنوان الذى اتخذه باللاتينية وهو **Liber Anoe**

ليس من العسير أن يتعرف فيه القارئ على اللفظ العربى أنواء*[٢] :

والفلكيون المتخصصون الذين أفردوا للمنازل القمرية رسائل خاصة قد وقفوا[٣] من مصنفات اللغويين موقف التشكك الذى له ما يبرره ، والفلكى الشهير عبد الرحمن الصوفى (توفى عام ٣٧٦ هـ = ٩٨٦) كتب يقول بصدد مصنف الدينورى السالف الذكر ، وذلك بعد قرن منه :

« ووجدنا فى الأنواء كتباً كثيرة أتمها وأكملها فى فنه كتاب أبى حنيفة الدينورى فإنه يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب فى ذلك وأشعارها وأسجاعها فوق معرفة غيره ممن ألفوا الكتب فى هذا الفن . ولا أدرى كيف كان معرفته بالكواكب على مذهب العرب عياناً فإنه يحكى عن ابن الأعرابى وابن كُنَاسة وغيرهما أشياء كثيرة من أمر الكواكب تدل على قلة معرفتهم بها وأن أبا حنيفة أيضاً لو عرف الكواكب لم يسند الخطأ إليهم »[٤] .

ولقد طغى الاهتمام اللغوى على المنهج الواقعى فى جميع الأحوال المماثلة تقريباً ؛ غير أن مقدار المادة كان من الضخامة بحيث كشف عن نواح أخرى للصورة . ففى بداية القرن التاسع وضع النضر بن شميل (توفى عام ٢٠٣ هـ = ٨١٨)[٥] ، وهو من أصحاب كتب الأنواء ، ما يشبه موسوعة قائمة بذاتها فى الحياة البدوية بعنوان « كتاب الصفات » . وترتيب مادة هذا الكتاب معروف لنا ، رغما من أن بعض عناوين محتوياته الداخلية قد أصابها الخلط والاضطراب . ويضعه ابن النديم ورّاق القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) المشهور كالآتى[٦] :

أ « كتاب الصفات وهو كتاب كبير ويحتوى على عدة كتب . . . الجزء الأول يحتوى على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء . الجزء الثانى يحتوى على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة . الجزء الثالث للإبل فقط . الجزء الرابع يحتوى على الغنم الطير الشمس القمر الليل النهار الألبان الكماة الآبار الحياض الأرشية الدلاء صفة الخمراء الجزء الخامس يحتوى على الزرع الكرم العنب أسماء البقول الأشجار الرياح السحاب الأمطار » . !

120

يتضح من هذا أن تبويب مادة الكتاب يمكن اعتبارها نموذجاً للمؤلفات من هذا النوع ، فهو يحفل بمادة مختلطة تحوى أمشاجاً من الجغرافيا الطبيعية والاثنوغرافيا والجغرافيا الحيوية وغيرها تفتقر إلى الكثير من الترابط والانسجام من وجهة نظرنا الحديثة . ويمكن أن نفترض أن طريقته فى العرض تشبه إلى حد كبير مؤلفات اللغويين من نفس الصنف وتتلخص فى سرد ألفاظ كل موضوع على حدة مع توضيحها بشواهد عديدة من أمثلة استعمالها فى الشعر الجاهلى . ومن الجلى أن بعض أوجه الحياة البدوية التى ورد وصفها فى المؤلفات التى من هذا النوع قد عولجت بتفصيل واف . وكتاب النضر هذا الذى لم يصلنا

* واجع فى هذا الصدد: Le Calendrier de Cordue.' Publi-par R. Dozy. Nouvelle èdition accompagnée d'une traduction francaise annotée par. Ch. Pellat. Leiden. 1961.

(المترجم)

قد نقل عنه كثيراً كما يزعم الوراقون معاصره الأصغر منه سناً أبوعبيدة (توفى عام ٢٢٣ ه = ٨٣٧) الذى أمضى معظم سنى حياته كالنضر بخراسان[٧] . ويمثل معجمه « غريب المصنف» محاولة مبكرة لتوزيع المادة اللغوية حسب الأنواع[٨] ؛ وبالطبع فإن المادة الجغرافية لديه قد وردت على نفس الصورة التى كانت عند النضر .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا الإقليمية (Regional) فقد انصرف اللغويون انصرافاً تاماً إلى جزيرة العرب . وقد لاحظ ياقوت بالكثير من الدقة ، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه ، أن الكتب التى صنفت فى أسماء الأماكن صنفان « منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة ... ومنها ما قصد به ذكر البوادى والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار»[٩] ، فأولئك « الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية » فهو ينسبهم إلى « طبقة أهل الأدب»[١٠] ، أى اللغويين كما أسميناهم فى هذه المناسبة ؛ وقد التقينا فيما بينهم بعدد غير قليل من الشخصيات المشهورة ولكن منهجهم جميعاً فى التأليف يكاد يكون واحداً .

ويجب أن يحتل مكانة أولى فى هذا التراث الجغرافى اللغوى ، وذلك ليس من ناحية الأسبقية الزمنية فحسب ، المؤرخ المشهور هشام الكلبى (توفى حوالى عام ٢٠٦ ه = ٨٢٠)[١١] وهو خبير ممتاز بالجاهلية وصاحب «كتاب الأصنام » الذى يكاد يمثل إلى الآن المصدر الأساسى للتعريف بأديان عرب الجاهلية ، وأيضاً كتاب كبير فى الأنساب هو « جمهرة الأنساب» . والاعتراف به كحجة فى هذه الموضوعات يوكده بشكل قاطع قول ياقوت « ما تنازع العلماء فى شىء من أمور العرب إلا وكان قوله أقوى حجة وهو مع ذلك مظلوم وبالقوارص مكلوم » [١٢]. ومن بين العدد الضخم من مؤلفاته يذكر لنا ابن النديم عشرة منها فى الجغرافيا[١٣] ، فنبصر من بينها «كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب » و« كتاب قسمة الأرضين » و«كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » . وإذا كانت هذه التسميات تتعلق بجزيرة العرب على نمط اللغويين فثمة أخرى على ما يظهر تعالج موضوعاً أوسع من ذلك وتبدى نواحى سيهتم العلماء كثيراً بمعالجتها فيما بعد ، فلديه «كتاب الأقاليم» ، ثم «كتاب البلدان الصغير وكتاب البلدان الكبير» . ومعرفتنا بجميع أوجه النشاط العلمى لابن الكلبى يجعل من العسير علينا أن نفترض أن مادة هذه الكتب قد تجاوزت نطاق الجزيرة العربية ، غير أن عناوينها التى تذكرنا بالأدب التاريخى الجغرافى المتأخر تعطينا الحق فى افتراض ذلك . ونفس الحكم يصدق بصورة أقوى على عنوان كتابه الذى أورده ابن النديم وهو «كتاب العجائب الأربعة » ، فهو يذكرنا بجميع صنوف كتب العجائب التى ازدهرت عقب ذلك بفترة طويلة . ومن المُغرى أن نفترض أن هذا الكتاب بالذات هو الذى نقل عنه الإدريسى كثيراً فى القرن الثانى عشر تحت اسمه المختصر «كتاب العجائب » مشيراً إلى اسم المؤلف على أنه حسن بن المنذر بدلا من هشام أبى المنذر . فإذا كان الأمر كذلك فإن ابن الكلبى إذاً هو أول

121

مؤلف بالنسبة لعصره يكتب فى موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب[١٤] . ويؤكد هذا تلك الاقتباسات التى ينقلها عنه ياقوت مشيراً فى العادة إلى «كتاب أنساب البلدان»[١٥] ؛ وهو يقصد فى أغلب الظن كتاب « اشتقاق البلدان »[١٦] المذكور فى مقدمته ، بل وربما أيضاً «كتاب البلدان» الوارد ذكره فى « الفهرست » . وهذه الاقتباسات تمس بعض المدن خارج جزيرة العرب مثل الكوفة[١٧] والرها[١٨] والمخرّم[١٩] قرب بغداد والنهروان[٢٠] . والرأى الذى نودى به أخيراً وهو أن ابن الكلبى ألف رسالة عامة فى الجغرافيا فى « عشر مجلدات »[٢١] يستند على محض وهم مرده إلى أن ابن النديم أورد أسماء عشرة من مؤلفاته .

ومهما يكن من شىء فابن الكلبى يمثل ظاهرة نادرة بين لغويى ذلك العهد بما اتصف به من اتساع الأفق ، ذلك أن أغلبهم قد اكتفى بوضع ملخصات لغوية عن بلاد العرب . وخير مثال لهذا الأصمعى المشهور (توفى حوالى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١)[٢٢] الذى يدين له العلم | بحفظ عدد من آثار الشعر الجاهلى؛ 122 فبجانب مصنف له فى الأنواء[٢٣] له أيضاً رسالة ذات طابع عام هى « رسالة فى صفة الأرض والسماء والنباتات »[٢٤] . بيد أن ياقوت يعتبره المصدر الأساسى عن جزيرة العرب بفضل مصنفه «كتاب جزيرة العرب»[٢٥] ؛ ويكفى أن نذكر أن اسمه ورد حوالى ثلاثمائة وخمسين مرة عند ياقوت[٢٦] . وكانت له أيضاً رسائل تبحث موضوعات أخص من ذلك ، مثل «كتاب مياه العرب»[٢٧] ؛ وقياساً على بقية مؤلفاته اللغوية الأخرى يمكننا أن نفترض بكل اطمئنان وثقة أن هذه أيضاً تمثل تعداداً لأسماء ومصطلحات مصحوبة بشروح موجزة وشواهد من الشعر . ويبدو أن رسالة تلميذه سعران بن المبارك «كتاب الأرضين والمياه والجبال والبحار»[٢٨] قد سارت فى نفس الاتجاه ولم تخرج مادتها عن نطاق جزيرة العرب .

ومن بين العلماء اللغويين الذين سلكوا نفس ذلك الاتجاه نلتقى بشخصية طريفة لأعرابىٍّ أمىٍّ يُدعى عرّام بن الأصبغ ؛ وهو لمّا أبصر إقبال الناس على مثل هذه الموضوعات أملى فى سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١ هـ = ٨٤٥) «كتاب أسماء جبال التهامة ومكانها »[٢٩] معتمداً فى ذلك على معرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب . وقد نال مصنفه انتشاراً وصيتاً واسعين ورواه علماء مختلفون من بينهم السيرافى المعروف[٣٠] (توفى حوالى عام ٣٦٨ هـ = ٩٧٩) الذى ندين له أيضاً بكتاب مستقل عن الجزيرة العربية هو «كتاب جزيرة العرب »[٣١] . هذا وقد حفظت لنا من مصنف الأعرابى مقتطفات هامة فى المعجمين الجغرافيين للبكرى وياقوت . والتحليل الدقيق الذى قامت به إلزا رايتمير Else Reitemeyer[٣٢] قد أثبت أن مصنف هذا الأعرابى كان يشمل مادة تخرج عن نطاق عنوانه ، فهو لم يقتصر على ذكر الجبال التى أولى اهتمامه من بينها لتلك الواقعة بين مكة والمدينة بل ذكر أيضاً المياه والنباتات الموجودة بها* .

* تحققت صحة هذه الفروض بالكشف عن رسالة عرام ونشرها . راجع فى هذا مقدمة الأستاذ عبد السلام محمد هارون لطبعته المحققة لمخطوطة «كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه لعرام بن الأصبغ السلمى » القاهرة ١٩٥٦ . (المترجم)

ومن المعهود فى الأدب العربى تكرار أسماء الرسائل بحيث يضحى من العسير القول هل نحن أمام مصنف مستقل أم رواية جديدة لمصنف سابق . ويمثل بعض الأهمية مصنف لمعاصر للدينورى هو اللغوى ابن لغزى الأصفهانى (قبل عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥)[٣٣] بعنوان «كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب» . وكما هو متوقع فإن المعلومات الجغرافية كما يتضح من وصف المخطوطة الوحيدة المعروفة[٣٤] لهذا الأثر يصحبها شواهد من الشعر القديم .

هذا النمط المتشابه للمصنفات الجغرافية للغويين المكرسة لجزيرة العرب وحدها بدأ يطرأ عليه التغيير منذ النصف الثانى للقرن التاسع فشمل مضمونه بلاداً وأقطاراً أخرى ، الأمر الذى ظهرت تباشيره عند ابن الكلبى كما مر بنا ؛ كما أخذت تتغير أيضاً العناوين وظهرت بالتدريج أنماط لم تلبث أن أصبحت الغالبة والمسيطرة بمرور الزمن . وأحياناً قد تكون المعلومات الموجودة بين أيدينا طفيفة للغاية ولكنها رغماً من ذلك لا تخلو من بعض الفائدة ؛ فأحد لغويى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهو وكيع القاضى الذى وضع رسالة فى الأنواء[٣٥] يقال عنه أيضاً « وله من الكتب. . . كتاب الطريق ويعرف أيضاً بالنواحى ويحتوى على أخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتمه »[٣٦] . وهنا يتضح لنا من مضمون الكتاب بل ومن عنوانه ظهور اتجاه جديد فى التأليف الجغرافى .

أما كبار العلماء فإنهم بالطبع لم يحصروا نشاطهم فى حدود ضيقة كاللغويين ، فعالم كالجاحظ (توفى عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٩)[٣٧] تنعكس فى مادته الجغرافية شخصيته الأدبية الفريدة بما تمتاز به من سعة الأفق وتنوع الموضوعات التى يطرقها وملاحظاته الفنية الدقيقة ؛ ولكنه من جهة أخرى كما هو معهود فيه يفتقر إلى الترتيب ، هذا إلى جانب ميله المعروف إلى الإمتاع على حساب الفائدة . وتقدم لنا مؤلفات الجاحظ العديدة فى الأدب مادة جغرافية ضخمة ؛ ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى كتابه الكبير «كتاب الحيوان» الذى يحفل بالكثير فى الجغرافيا الحيوانية والانثروبولوجيا والاثنوغرافيا على الرغم من غلبة الموضوعات الأدبية عليه ؛ وقد أصبح من الممكن الآن بفضل العرض الموجز لمحتويات الكتاب الذى قام به آسين بلاسيوس Asin Palacios [٣٨] أن يخوض الباحث فى خضمه المتضارب دون كبير عناء . أما مصنف الجاحظ فى الجغرافيا فلم يعثر عليه إلى الآن ومن ثم فليس من الممكن الحكم عليه إلا مما نقله عنه الآخرون ؛ أضف إلى هذا أن عنوانه غير معروف لنا بالضبط ولعل أقربها إلى الصحة هو العنوان الذى يورده المسعودى وهو «كتاب الأمصار وعجائب البلدان»[٣٩] . ويقابلنا أحياناً عنوان «كتاب البلدان»[٤٠] و«كتاب الأمصار»[٤١] ؛ أما الشذرة المحفوظة فى إحدى مخطوطات المتحف البريطانى فتحمل اسم «كتاب الأوطان والبلدان»[٤٢] وهو عنوان لا يقرب كثيراً من الواقع . ويتضح مما نقله عنه ياقوت أن الجاحظ قد تابع إلى حد ما نمط ما يسمى بالفضائل أو الخصائص الذى ازدهر فى العصر الأموى ، أى صفات ومحاسن الحواضر الكبرى ، حيث يدور الكلام أحياناً عن مواطنها أكثر مما يدور عن

البلاد نفسها . وفى هذه المقتطفات يتحدث الجاحظ عن أهل دمشق[٤٣] وعن عجائب البصرة[٤٤] ومساوئها[٤٥] وعن مساوئ مصر[٤٦] . ويؤكد هذا ويدعمه الاقتباسات العديدة الموجودة لدى جغرافيى العهد الكلاسيكى ، مثال ذلك ما ينقله المقدسى عن طريق الرواية الشفوية عن الجاحظ فى خصائص المدن العشرة الكبرى وهى بغداد والكوفة والبصرة والفسطاط والرى ونيسابور ومرو وبلخ وسمرقند[٤٧] ؛ ويسوقه هذا بدوره إلى إفراد فصل بأجمعه لخصائص الأقاليم المختلفة . وأحياناً قد يختلط بالمعلومات من هذا النوع ذكر مختلف أصناف العجائب التى تحولت بالتالى إلى نمط قائم بذاته من أنماط الأدب الجغرافى. وفى الفصل الذى أفرده للعجائب ينقل ابن خرداذبه عن الجاحظ خبراً عن الأهواز[٤٨] كما يفعل هذا أيضاً ابن الفقيه[٤٩] ؛ أما ابن حوقل فيروى حكاية أسطورية تتعلق بصخرة بهستون يذكر فيها على وجه التحديد أن مصدره «كتاب البلدان» للجاحظ [٥٠] .

لا شك أن كتاب الجاحظ عالج الكلام عن بلاد خارج نطاق العالم الإسلامى ولكن لم يحفظ لنا مع الأسف عن هذا سوى إشارة واحدة جديرة بالثقة ، ولكن فى مقابل هذا واسعة الانتشار وهى نظريته فى أن نهرى النيل والسند ينبعان من موضع واحد ؛ وهى نظرية ترتبط على ما يبدو بالنظرية اليهودية المسيحية القائلة بأن منابع الأنهار الكبرى موجودة بالفردوس[٥١] . وقد كانت هذه النظرية سبباً فى دهشة المسعودى ، الذى مكنته أسفاره العديدة من التعرف على حقيقة الأمر ، بصورة جعلته يقف عندها 125 أكثر من مرة . ففى كتابه المبكر «مروج الذهب» كتب يقول :

«وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان وهو كتاب فى نهاية الحسن وإن كان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّا الممالك والأمصار ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى السند»[٥٢]

وفى موضع آخر من نفس كتابه هذا يكرر المسعودى هذه النظرية بإيجاز وذلك بصدد كلامه عن وجود التماسيح فى مواضع أخرى[٥٣] ؛ ويعود إليها مرة أخرى وبتفصيل أكثر فى آخر كتبه «التنبيه والإشراف» حيث يقول :

«وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه فى الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان أن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التمساح فيهما وأن سبيل زراعتهم فى البلدين واحد ولا أدرى كيف ذلك وقع له وقد توجد التماسيح فى أكثر أخوار الهند . . وتلحق الناس وسائر الحيوانات منها الأذيّة على حسب ما يلحق أهل مصر وحيواناتهم»[٥٤] .

وليس غريباً أن تفسح هذه النظرية المجال لعالم رزين كالبيرونى ليصم الجاحظ بالبساطة والسطحية[٥٥] . وعلى العموم فقد قدر الجغرافيون مصنف الجاحظ هذا حق قدره ، وقد رأينا كيف كان موقف المسعودى

منه رغماً عن تخطئته للجاحظ ؛ وقال عنه ابن حوقل «كتاب نفيس له فى معرفة الأمصار»[٥٦] ، أما المقدسى فقد أبدى بعض التشدد وذلك بقوله «وأما الجاحظ وابن خرداذبه[٥٧] فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كبير فائدة» ، وعلى أية حال فإن تأثيره على الأجيال الأدبية التالية لا يرقى إليه الشك حتى أن ابن الفقيه مثلا اعتبر مقلداً له[٥٨] ، ويتضح هذا من ألفاظ المقدسى أيضاً «وإذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم»[٥٩] . ومن وقت لآخر كانت تظهر مقتطفات من كتاب الجاحظ هذا فى مجموعات أدبية بحتة ؛ وأحد كبار المعجبين بالجاحظ وهو الثعالبى (توفى عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٨) كان يعنى على مايبدو هذا الكتاب عندما أشار إلى «خصائص البلدان» للجاحظ[٦٠] .

وقد تم الكشف فى الآونة الأخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلا على اهتمامه الواسع بالجغرافيا ويمثل على وجه العموم أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ الحضارى للعالم الإسلامى ، كما يمكن اعتباره أول محاولة للعرب فى الجغرافيا الاقتصادية أو على الأصح جغرافيا الاستيراد (Import Geagraphy) . أعنى بذلك الرسالة الصغيرة الحجم المعروفة باسم «التبصر بالتجارة» التى عثر عليها بتونس العلامة العربى المعروف حسن حسنى عبد الوهاب ونشرها فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق*[٦١] . وبالرغم من أنه لم يرد أى ذكر لهذه الرسالة فى ثبت مصنفات الجاحظ[٦٢] إلا أن صحة نسبتها إليه لا يتطرق إليها الشك ، سواء من ناحية الاستقراء الداخلى لمادتها أولأن بعض العلماء نقل عنها كالثعالبى والنويرى فى موسوعته الكبرى التى وضعها فى عهد المماليك[٦٣] . وتنقسم الرسالة إلى بضعة أبواب تعالج السلع التجارية المختلفة وأسعارها ومزاياها والزائف منها ؛ وهنا يتناول البحث الكلام على الذهب والفضة والأحجار الكريمة ثم العطور والطيب والأنسجة والثياب . وأكثر الأبواب متعة هو «باب ما يجاب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار وغير ذلك» ، حيث يعدد لنا الجاحظ أسماء السلع المستوردة من مختلف الأقطار ابتداء من الهند والصين ، أحياناً فى شكل تعداد جاف وأحياناً بتفاصيل تختلف طولا وقصراً . ويرد بالطبع ذكر للبلاد الشمالية كخوارزم وبلاد الخزر وبلاد البلغار ؛ أما البابان الأخيران فيغلب عليهما طابع الارتجال ويحس منهما أنهما أضيفا مؤخراً ؛ فالأول منهما أفرد لجوارح الطير ممايستعمل فى الصيد والأخير لما يفضّل من صفات الأشياء سواء بين الحيوان أو الناس ، وهو لا يخلو من الحكمة والموعظة . ويغلب على الرسالة طابع الإفادة العملية ويندر أن تلجأ إلى الاستطرادات الأدبية . وقد تستعصى فى مواضع منها على الفهم نتيجة لمصطلحات غريبة أو غير مدروسة ولكن بعد التغلب على هذا فإن الرسالة تعتبر مصدراً من المصادر الأساسية للتاريخ والجغرافيا الاقتصادية للعالم الإسلامى . وقد كان المؤلفون المتأخرون على إلمام جيد بها ويتضح من المقارنات التى أجراها حسن حسنى عبد الوهاب أن ابن الفقيه مدين أيضاً بقدر غير قليل لرسالة الجاحظ هذه .

* طبعت بالتالى على حدة فى القاهرة . (المترجم)

إن التسلسل التاريخي لظهور المصنفات المختلفة لبعض أنماط الجغرافيا الوصفية لم يكن واضحاً على الدوام حتى للعرب أنفسهم فى العهد المبكر. فصاحب كتاب « الفهرست » مثلا يذكر أن أول من صنّف فى « المسالك والممالك » هو الأديب أبو عباس جعفر بن أحمد المروزى(٦٤)؛ وهذه الرواية يكررها ياقوت(٦٥) بالرغم من أن ذلك الشخص قد توفى بالأهواز حوالى عام ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ أى عندما كان ابن خرداذبه قد فرغ من المسودة الأولى بل وربما من الثانية لكتابه الذى يحمل نفس العنوان(٦٦) . ولم يحفظ لنا التاريخ أية معلومات عن كتاب المروزى هذا أو عن مصنفات أخرى له ، ومن المؤكد أنها لم تكتسب صيتاً ما أو ذيوعاً رغماً عن إشارة ابن النديم التى تحمل طابع الاستحسان والإشادة . وقد تنسب إليه حكايات من وقت لآخر عند الجغرافيين المتأخرين ، فابن الفقيه(٦٧) يروى عنه أسطورة تتعلق بحجر المطر(٦٨) كما ينقل عنه أيضاً روايات عديدة عن القبائل التركية ؛ وهذه الروايات تسوق إلى الافتراض بأن آثار المروزى كانت تضم مادة قيمة بالنسبة لاتحادنا السوفيتى خاصة فيما يتعلق بجغرافيا آسيا الوسطى.

ويلى هذا من الناحية الزمنية فى تثبيت نمط « المسالك والممالك » تلميذ الفيلسوف الكندى وصديقه أحمد بن محمد بن الطيب السرخسى (توفى عام ٢٨٦ هـ = ٨٩٩)(٦٩) وهو يمثل نوعاً نادراً من الكتاب فى ميدان الأدب العربى وذلك بجمعه على السواء بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة والأدب الفنى من جهة أخرى . ويمكن إرجاع اهتمامه بالأدب إلى اتصاله ببلاط الخليفة المعتضد الذى راح ضحية لسخطه عندما كان يشغل فى آخر سنى حياته وظيفة المحتسب ببغداد . وفى ميدان الأدب الجغرافى ينضم السرخسى من ناحية إلى المدرسة الرياضية الجغرافية ذات النزعة اليونانية وهذا بالطبع كان نتيجة لتأثير أستاذه عليه ، ومن ناحية أخرى نراه يهتم بالجغرافيا الوصفية من طراز « المسالك والممالك » ؛ فتوجد له فى المجال الأول رسالة « فى البحار والمياه والجبال »(٧٠) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصنف مماثل لأستاذه مما جعل المسعودى يربط بينهما دائماً عند وصفه للبحار ؛ ومن الجائز أنها نفس الرسالة التى يشار إليها أحياناً باسم « كتاب منفعة الجبال »(٧١) . ويذكر المسعودى(٧٢) فى موضع آخر أن السرخسى إلى جانب 128 ذلك « قد صنف . . . كتاباً حسناً فى المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها » ؛ وهو معروف أيضاً باسم « كتاب المسالك والممالك »(٧٣) . وينقل ياقوت منه كثيراً خاصة فيما يتعلق بعصر المعتضد(٧٤) الذى صحبه السرخسى فى بعض أسفاره .

ولو كانت جميع هذه المصنفات التى ذكرناها موجودة وفى متناول أيدى العلماء لاختلفت كثيراً لوحة التسلسل التاريخى لنشأة الأنماط المختلفة للجغرافيا الوصفية . ولكن ، وفى غير حاجة إلى دراسة القليل الذى حفظ لنا منها ، فإنه من الممكن أن نقرر على أساس ما أوردناه من حقائق أن الجغرافيا الوصفية بدأت تتخذ منذ النصف الثانى للقرن التاسع أنماطاً ثابتة كما هو الحال مع الجغرافيا الرياضية التى سبقتها بقليل . وفيها انفسح المجال لا للفلكيين والرياضيين بل للغويين بصورة خاصة ، فهم الذين

وضعوا كتب الأنواء والرسائل الجغرافية اللغوية عن جزيرة العرب . وقد اتسع شيئاً فشيئاً وصف المدن والأقطار المختلفة من طراز « الفضائل » أو « الخصائص » الذى يرجع إلى العصر الأموى ليصبح « كتب البلدان » ؛ وأحياناً تحت تأثير الموضوعات الأسطورية والرغبة فى الإمتاع والتشويق ليتحول إلى « كتب العجائب » . وأخيراً دفعت الرغبة الملحة فى تنظيم المادة ووصفها على هيئة طرق إلى ظهور كتب « المسالك والممالك » . وفيما بعد ستختفى من بين هذه المجموعة كتب « الأنواء » وحدها ، أما الأنماط الأربعة الأخرى فقد أبدت جميعها حيوية فياضة عاشت بها فترة طويلة من الزمن ولم تطرأ عليها سوى تغييرات طفيفة .

وإلى جانب هذه الأنماط المذكورة للجغرافيا الرياضية والوصفية ثبتت فى القرن التاسع أيضاً الصورة النهائية للقصص عن الرحلات وعن البلاد الأجنبية فى جميع ألوانها وأنواعها ابتداء من الرحلات الأسطورية إلى أوصاف الطرق العملية والمراحل أو السرد الجاف للأسماء ؛ ولايقل هذا الصنف عن سابقه من ناحية الكم حتى فى الأزمنة الأولى . وقليلا ما وصلتنا أوصاف مباشرة عن ذلك العهد إذ أن معظمها لم يحفظ منه شىء ؛ وفى كثير من الأحيان تقتصر مادتنا على فقرات يسيرة أومجرد ذكر الموضوع دون أية تفصيلات عنه . وهذا بدوره قد يشير أحياناً إلى اتساع مجال الرحلة ويمكّننا من تكوين فكرة 129 عن أنواع الرحلات المختلفة . وقد انتظمت الرحلات مناطق عديدة فلم تقتصر على المشرق وحده الذى ربط العرب به تاريخ طويل من العلاقات التجارية بل دخل فى نطاقها الغرب أيضاً .

وابتداء من هذا العصر نلتقى بأخبار رحلات علمية فريدة فى نوعها تستهدف فى معظم الأحوال أغراضاً عملية . ويحفظ لنا الإدريسى[٧٥] قصة مؤداها أن أخ الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩) وهو ابراهيم بن المهدى (المتوفى عام ٢٢٤هـ =٨٣٩)[٧٦] روى فى مصنفه « كتاب الطبيخ »[٧٧] أن الخليفة بعث إلى اليمن أشخاصاً ليعرفوا من أين يأتى العنبر وأنهم فى أثناء رحلتهم استقصوا أحوال سكان عدن وخاسك على ساحل المهرة[٧٨] وغيرها من الأماكن المأهولة بجنوبى الجزيرة . وتحمل هذه القصة جميع علامات الصحة ، إذ أن أهمية العنبر الأشهب (الذى يجب التفريق بينه وبين العنبر الأصفر) كوسيلة للعلاج وكضرب من الطيب أمر جد معروف فى ذلك العهد[٧٩] ؛ وكان يحصل عليه غالباً من السواحل الشرقية لأفريقيا قبالة اليمن[٨٠] ولعب دوراً ما فى اقتصاديات الخلافة ويذكره ابن يوسف معاصر الرشيد المعروف كمورد هام للخراج يعادل اللؤلؤ[٨١] .

وليس بمقدورنا أن نقف موقف الثقة التامة من جميع الروايات التى تقترن بشخصية هذا الخليفة ، أضف إلى هذا أن التاريخ الأدبى يدل على أنه كثيراً ما نسجت حول اسمه مختلف الموضوعات الأسطورية ؛ وقد لفت فرين ، واضع أسس الاستعراب الروسى خاصة فى ميدان الجغرافيا ، الأنظار إلى الرواية الآتية الواردة فى مصدر متأخر ، وذلك فى كتابه الكلاسيكى عن ابن فضلان .

« وكانت للخلفاء العباسية جواسيس من الرجال والنساء وكان عبد الله الشهير بسيد غازى يتجسس الأخبار من بلاد الروم عشرين سنة وكان سأله هارون الرشيد عن عجائب الأمور فكان يخبره كما حكى الإمام الدمشقى فى فضايل الجهاد »[٨٢] .

واستناداً إلى سمعة فرين العلمية ثبتت هذه القصة فى الدوائر العلمية وتناقلها عدد من العلماء ابتداء من رينو[٨٣] . ومن المؤكد أن العرب كانت لهم جاسوسيتهم المنظمة فى ذلك العهد خاصة فى آسيا الصغرى بالذات ؛ لكن هذه القصة التى لفت إليها الأنظار فرين لا تثبت عند التمحيص ، فهى أولا ترجع 130 إلى مصدر متأخر جداً لا يمكن اعتباره مصدراً موثوقاً به فقد نقل فرين هذه القصة عن مخطوطة « رسالة الانتصار »[٨٤] التى يبدو أنها من عمل المؤرخ البوسنوى على دده (المتوفى عام ١٠٠٧هـ = ١٥٩٨) [٨٥] من أواخر القرن السادس عشر الذى تستند شهرته أساساً على مصنف نقلى له أصاب نجاحاً ملحوظاً فى القرون الثلاثة الأخيرة ولكن قيمته التاريخية كما أثبت أحد المتخصصين فى فن التاريخ لدى العثمانيين « لاتساوى شروى نقير »[٨٦] ؛ أضف إلى هذا أن ذكر اسم عبد الله سيدى غازى يدل على أننا أمام رواية أخرى للأسطورة المعروفة عن سيد البطال بطل الملحمة العربية — التركية . والشخصية التاريخية الواقعية التى صيغ حولها هذا الموضوع الأدبى ترجع إلى منتصف القرن الثامن وترتبط بحملات الأمويين العسكرية على آسيا الصغرى ، وقد لقى عبد الله البطال مصرعه فى معركة ضد البيزنطيين عام ١٢٢ هـ = ٧٤٠[٨٧] ، ولم تلبث أن زحزحت الفترة التى عاش فيها إلى نهاية القرن العاشر لتتفق مع تطور الملحمة ؛ ثم تم ربطه بشخصية الرشيد الأسطورية لدى على دده حيث يظهر البطل فى دور لا تسنده أية وقائع تاريخية صحيحة .

ولعله ليس من محض الصدفة أن تقترن باسم حفيد الرشيد وهو الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧) سلسلة من الرحلات والبحوث الخاصة بالجغرافيا ، بالرغم من أن الباعث إليها فى بعض الأحيان كان مجرد عوامل خيالية بحتة . واثنان منها قد أخذ فيهما طرفاً بأمر من الخليفة الواثق رياضى شهير هو محمد بن موسى (توفى عام ٢٥٩ هـ = ٨٧٣)[٨٨] . ولايوجد ميل فى الآونة الحاضرة ليُبْصَر فى هذا اسم الفلكى المشهور محمد بن موسى الخوارزمى[٨٩] ناشر بطلميوس المعروف لنا جيداً ؛ وكان البعض قد نادى بهذا الرأى من قبل . أما الرحلة الأولى فقد توجهت بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم بين عمورية Amorium ونيقية Nicaea . ومما هو جدير بالملاحظة أن محمد بن موسى رفض أن يرى فى الجثث المحنطة أهل الكهف الوارد ذكرهم فى القرآن . والظاهر أن قصة الرحلة قد نالت بعض الانتشار حتى أثناء حياته ، إذ يرويها لنا ابن خرداذبه[٩٠] بألفاظ المؤلف نفسه ، وهى موجودة فى ترجمة روسية[٩١] ؛ كما يرويها لنا أيضاً السرخسى وبألفاظ المؤلف كذلك ، وروايته موجودة لدى المسعودى[٩٢] . ويميل علماء البيزنطيات المعاصرون إلى اعتبار هذه الرحلة واقعة تاريخية صحيحة[٩٣] . أما الرحلة الثانية 131 التى شارك فيها محمد بن موسى بأمر الخليفة

فقد بعث بها إلى طرخان حاكم الخزر[٩٤] وهى ترتبط برحلة سلاّم الترجمان المشهورة إلى سد يأجوج ومأجوج التى سيأتى ذكرها بالتفصيل عند الكلام على الرحلات إلى شرقى العالم الإسلامى .

ومن أهم الحوادث التى ساعدت على توسيع مدارك العرب عن أقطار الغرب فى عهد الواثق كان بلا شك حادث افتكاك مسلم بن أبى مسلم الجَرْمى[٩٥] من أسر البيزنطيين . ولسنا على بينة من حقيقة اسمه إذ يمكن قراءته الخُرْمى كما حدث أحياناً ، أو بصيغ أخرى . أما عن شخصه فلا يعرف سوى هذه القصة المتعلقة بإطلاق سراحه والتى حفظها لنا المسعودى ، وهى تمثل أهمية ليست بالضئيلة :

« الفداء الثالث فداء خاقان فى خلافة الواثق باللامس فى المحرم سنة ٢٣١ (الموافق سبتمبر ٨٤٥) ... : وفيه خرج مسلم بن أبى مسلم الجرمىُّ وكان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك من برجان والإبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبا رملة من قبل أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة يمتحن الأسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة ونفى الرؤية فودى به وأحسن إليه ومن أبى ترك بأرض الروم فاختار جماعة من الأسارى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك وأبى مسلم الانقياد إلى ذلك فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص »[٩٦] .

ولا تخلو التفصيلات الأخيرة من طرافة بالنسبة للتاريخ الفكرى للخلافة ، فهى دليل على أن المذهب العقلى للمعتزلة كان لا يزال سائداً إلى ذلك العهد ومتمتعاً بنفس القبول الذى تمتع به فيما بعد مذهب أهل السنة[٩٧] . غير أن الأهمية الجوهرية بالنسبة لنا فى هذه القصة هو القول بوجود مصنفات للجرمى ؛ وبالطبع لو كان قد تبقى لنا شىء منها لاستطعنا بلا ريب أن نصدر الحكم على كثير من المسائل المتصلة بتطور المعلومات الجغرافية عند العرب ، إلا أننا مع الأسف لانعرف فى الحقيقة من جميع مصنفاته سوى 132 شذرة واحدة لا يعتور الشك صحة نسبتها إلى الجرمى وهى المتعلقة بتعداد الولايات البيزنطية (Themata)* وما يرتبط بذلك من وصف نظم تلك الدولة . وقد حفظ لنا هذه القطعة ابن خرداذبه ويرجع تاريخها إلى عام ٨٨٥ هـ[٩٨] . وأغلب الظن أن المعلومات التى يوردها قدامة[٩٩] عن بيزنطة ترجع إلى الجرمى خاصة وأنه توجد من بينها إشارات إلى أوقات الإغارة على آسيا الصغرى[١٠٠] الأمر الذى نوه إليه المسعودى عند كلامه على مصنفات الجرمى . ومسألة الجزم بوجود مقتطفات وشذرات لدى المؤلفين المتأخرين نقلوها عن مصادر قديمة مفقودة أومجهولة العناوين من أصعب المسائل وأعسرها ؛ وقد أحسن بعض العلماء ، خاصة ماركفارت Markwart ، بميل شديد إلى أن ينسبوا إلى مسلم الجرمى جميع ما أورده الجغرافيون العرب بصدد الموضوعات التى ذكرها المسعودى عند كلامه على الجرمى[١٠١]. والأمر الوحيد

* أو البنود كما يسميها العرب . - (المترجم)

الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن مصنفاته كانت مصدراً هاماً للغاية فى معرفة العرب بالدولة البيزنطية بل وتقدم لنا لأول مرة معلومات مباشرة ومفصلة عن الصقالبة وجيرانهم . ويمكن أن نقرر وفقاً لرأى بارتولد أن مادته قد تناقلها جميع الجغرافيين المتأخرين حتى القرن الثالث عشر فى جميع العالم الإسلامى[١٠٢] دون أن يشيروا إلى مصدرها . ويظهر أن تسمية البحر الأسود ببحر الخزر ترجع إليه ؛ وهو قد عرف الصقالبة كجيران لمقدونيا من ناحية الغرب وميز عنهم البرجان أو بلغار الطونة كجيران لتراقيا من ناحية الغرب ولمقدونيا من ناحية الشمال .

وبعد نصف قرن تقريباً من مسلم الجرمى وذلك فى حوالى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠٠ وجد فى أسر البيزنطيين هارون بن يحيى الذى حفظ لنا حقائق هامة خاصة وصفه القيم للقسطنطينية فى ذلك العهد . ويبدو أن محيط معلوماته كان أضيق بعض الشيء من محيط مسلم الجرمى ؛ ولكن مما يزيد فى أهمية روايته أنه قد حفظ لنا قطعة كبيرة منها الجغرافى ابن رستة[١٠٣]، كما توجد مقتطفات منها لدى القزوينى[١٠٤] . وكان هارون بن يحيى قد وقع فى أسرْ قراصنة من أهل أطاليه Attaleia بآسيا الصغرى وذلك قرب عسقلان بفلسطين فساقوه بحراً وبراً إلى القسطنطينية وامتدت إقامته بعض الوقت زار خلاله رومه عن طريق سلانيك كما زار أيضاً أرض الصقالبة والبندقية ؛ وفى رومة حصل على معلوماته عن برغنديا والفرنجة وبريطانيا . وينصب الجزء الأساسى من روايته على وصف القسطنطينية ، 133 وقد لفت النظر إليه حتى قبل طبع كتاب ابن رسته المستشرق الروسى روزن Rosen فنشر النص مع ترجمة روسية منذ عام ١٨٧٩[١٠٥] وكتب عنه مقالا فى عام ١٨٨٧[١٠٦]. وفى القرن العشرين أخضع ماركفارت[١٠٧] الرواية جميعها لفحص دقيق ، كما أن علماء البيزنطيات وجهوا اهتمامهم فى الأعوام الأخيرة إلى وصفه للقسطنطينية[١٠٨] . هذا وقد ظهرت أبحاث عديدة واختلافات فى وجهات النظر حول الفترة التى يرجع إليها وصفه هذا ؛ فالبعض يميل إلى نسبته إلى عام ٩١٢[١٠٩]، هو فرض بعيد الاحتمال[١١٠]. ومما يلفت النظر أنه إذا كان وصفه للقسطنطينية لا يخلو من معلومات هامة طريفة تقوم على الملاحظة المباشرة فإن وصفه لرومة على عكس ذلك يقتصر على إيراد « العجائب » Mirabilia ويمثل رواية نقلية ترتفع إلى مصادر مسيحية شرقية ، على أغلب الظن سريانية ؛ وهذا الحكم يصدق على رواية بقية الجغرافيين العرب عن رومة[١١١] .

وقد لعبت السفارات إلى جانب الأسرى دوراً ملحوظاً فى توسيع نطاق المعلومات الجغرافية ؛ ولم تكن أخبار هذه السفارات حتى فى القرن التاسع نفسه شيئاً نادراً ولكن فيما يتعلق بالمغرب الإسلامى يجب أن نخص بالعناية شخصية حفظت لنا عنها معلومات جمة تلكم هى شخصية يحيى بن الحكم البكرى (١٥٣ هـ — ٢٥٠ هـ = ٧٧٠ — ٨٦٤) الملقب بالغزال لجماله والذى لعب دور الدبلوماسى مرتين . وهو شاعر فنان وعلى معرفة بعدد من اللغات ، وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثانى قد وجهه إلى بلاد الشمال ، إلى جتلاند Jutland على ما يبدو ، لمفاوضة النورمان الذين أغاروا قبل ذلك بقليل فى

عام ٨٤٤ على الأندلس ونهبوا اشبيليه . ويلوح أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تيوفيل . وقد حفظ لنا أخبار السفارة الأولى مؤرخ الأندلس فى بداية القرن الثالث عشر ابن دحية[١١٢]، أما الثانية فيرويها لنا فى القرن السابع عشر علامة المغرب المقرى[١١٣]؛ غير أنه تم فى الآونة الأخيرة العثور على معلومات لدى مؤلفين سابقين لهذا[١١٤] . وقد حفظ لنا إلى جانب التفاصيل عن الرحلة نفسها ، وهى تفاصيل تتسم بالاقتضاب والتشويش ، بعض شعر للغزال نفسه يمس جوانب من هذه الرحلة . ولايخلو من طرافة فى هذا الصدد مخاطبته اسيدات البلاط البيزنطى فى شعر عربى رصين تُستشف من خلاله تلك العواطف الوجدانية الجياشة التى حفل بها شعر التروبادور Troubadours . وقد نادى أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد غير طويل برأى مؤداه أن رحلة الغزال إلى بيزنطة هى الوحيدة التى حدثت فعلا بينما تستند رحلته إلى النورمان على محض اختلاق[١١٥] . بيد أنه من العسير الاتفاق مع هذا الرأى المتطرف لأن الرحلة فى واقع الأمر تحفل بتفاصيل واقعية ، بل إن شخصية الملك المذكور فى الرحلة والذى أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتاً طويلا قد تمكن أخيراً العلامة النرويجى زايبل Seippe' من إثبات شخصيته[١١٦] :

134

وقد اقتدى عرب المغرب بإخوتهم عرب المشرق فلم يقصروا اهتمامهم على المشرق وحده الذى ربطه بالعرب تاريخ طويل من العلاقات ، بل جهدوا أيضاً فى التعرف على الغرب والكشف عن بلاده غير المعروفة لهم . وعرب الأندلس رغماً من خوفهم من المحيط الأطلنطى الذى اقترن فى أذهانهم « ببحر الظلمات » الرهيب قد قاموا بمحاولات عديدة للكشف فيه ؛ ولكن نظراً لأنه لم يصلنا عن هذه الاستكشافات خبر متواتر فقد استمر مجهولا من العالم إلى أن أماط سره الأوروبيون . ويروى لنا المسعودى خبر إحدى تلك المغامرات فى عبارات موجزة مع الإشارة إلى مصنف له لم يصل إلينا :

« ويذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى أخبار من غرّر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه ومارأوا وإذ منهم رجل من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم فى مراكب استعدّها فى هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس »[١١٧]

ويمكن من الناحية الزمنية إرجاع هذه المغامرة إلى القرن التاسع ، أما النقطة التى بلغوها فهى مجال للتخمين والافتراضات[١١٨] .

وقد حفظت لنا بتفصيل أكثر من هذا أخبار رحلة من لشبونة قام بها ثمانية شبان أبناء عمومة لقبوا « بالمغرورين » ، أى المخاطرين . ويروى لنا قصتهم بشكل مفصل الإدريسى[١١٩] وذلك بمناسبة كلامه عن لشبونة ، فقد كان يوجد بها درب يعرف باسمهم هذا[١٢٠] ؛ ويعيد القصة أبو حامد الغرناطى ،

135 والعمرى[١٢١] . وجوهرها أن ثمانية إخوة عزموا على «ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه» فأبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوماً إلى موضع صخرى مخيف شديد الظلمة . ثم اتجهوا جنوباً مدة اثنى عشر يوماً إلى أن بلغوا «جزيرة الغنم» فأبصروا قطعان هائلة منها ؛ ثم توغلوا اثنى عشر يوماً أخرى فى نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوى بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة . وعندما بدأ هبوب الريح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبى الأعين إلى القارة التى بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها . وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبى مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم ، وكان موضع نزولهم البقعة التى قامت بها فيما بعد ميناء آسفى Asfi .

وواضح من هذا أن نقاطاً عديدة من هذه القصة تدخل فى محيط الأدب الشعبى «الفولكلور» (Folklore) العالمى للقرون الوسطى ؛ وقد استطاع دى خويه أثناء تحليله للأساطير الأوروبية المبكرة عن رحلة القديس براندان أن يكشف عن عدد من نقاط الشبه الطريفة بين القصتين ، مما يشير إلى مصدر مشترك[١٢٢] . وبالطبع فإن تحديد زمان ومكان رحلة «المغرورين» يفسح مجالا واسعاً للتخمين والافتراضات[١٢٣]. ويبدو أن وصف الرحلة يرجع إلى القرن العاشر كما يرى دى خويه ، وذلك قبل إنشاء ميناء آسفى[١٢٤]. ويميل بيزلى Beazley إلى الاعتقاد بأن الجزيرة الأولى الوارد ذكرها فى الرحلة هى جزيرة ماديره Madeira أما الثانية فيرى فيها إحدى جزر الكنارى Canaries[١٢٥] . وبخلاف هذا فإن أى قول يتعلق بالرحلة لا يخرج عن حيز الافتراضات التى لايدعمها الواقع ؛ ورغماً عن هذا فقد اعتقد المتخصصون فى جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة ربما ساهمت فى الحث على الرحلات المتأخرة التى قام بها الملاحون الأوربيون فى المحيط الأطلنطى[١٢٦]. وقد لاقت تسمية هؤلاء الملاحين بالمغرورين ، أو «المغرَّرين» كما تروى أحياناً ، انتشاراً واسعاً ؛ ومما يدعم صحة اشتقاق اللفظ الثانى الاستعمالات العديدة التى وردت لدى المسعودى[١٢٧] ، مما لا يفسح المجال للأخذ برأى متز Metz فى أنه يجب قراءتها «المغربين» أى الضاربين فى الغرب[١٢٨] .

إن مغامرة هؤلاء «المغرورين» تخرج بعض الشىء عن الحدود الزمنية الموضوعة لهذا الفصل ولكنها من ناحية أخرى تكمل سلسلة المحاولات العربية للتجوال فى الغرب فى ذلك العهد . فإذا ما ولينا وجهنا شطر المشرق مرة أخرى أمكننا أن نقرر بكل ثقة أن الاهتمام الرئيسى للعرب قد انصب حقاً على البلاد الواقعة إلى الشرق من العالم الإسلامى وأن أفق معرفتهم الجغرافية بتلك النواحى قد اتسع بصورة ملحوظة . وهنا يقتصر الحال فى أول الأمر بالطبع على مجرد ذكر 136 الرحلات المختلفة وقد يصحب ذلك سرد لمراحل الطريق ، وشيئاً فشيئاً يقابلنا عدد من الروايات عن هذه الرحلات احتفظ بها مؤلفون متأخرون أو أعادوا صياغتها فى قالب جديد . أما فى القرن التاسع نفسه فلا نكاد نلتقى بوصف لرحلات يسرده الرحالون أنفسهم :

وفيما يتعلق بالتجارة عن طريق البحر مع الهند وأرخبيل الملايو والصين فإن العرب قد ساروا على التقاليد القديمة لمنطقة جنوبى العراق وسواحل الخليج الفارسى فى العصر الساسانى . ويُروى أنه عندما سقطت ميناء الأبلة قرب البصرة فى يد العرب فى خلافة عمر وجد بها المسلمون سفناً صينية[١٢٩] . وواضح أن الفرس ظلوا حتى فى عهد السيادة العربية أكثر العناصر جسارة فى ركوب البحر ؛ ومن المعلوم منذ عهد طويل أن المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون Canton بالصين بلغت حداً من القوة استطاعت معه فى عام ٧٥٨ أن تضع يدها على المدينة وتنهبها وتغادرها عن طريق البحر[١٣٠]. وفى الآونة الأخيرة حالف التوفيق العلامة البولندى لفيتسكى Lewicki فعثر على شواهد تثبت زيارة بعض العرب للصين فى ذلك العهد[١٣١] ، وذلك فى تاريخ طائفة الإباضية من الخوارج ؛ ومصدر هذه الشواهد مصنف لأبى سفيان محبوب العبدى المتوفى فى النصف الأول من القرن التاسع[١٣٢] جاء فيه أن أحد شيوخ تلك الطائفة وهو أبو عبيدة عبد الله بن القاسم من أهل عمان كان عالماً كبيراً لعصره وتاجراً معروفاً اشتغل بتجارة المر . وكان قد سافر بتجارة له إلى الصين ؛ ولكن تاريخ الرحلة غير معروف لنا ولو أنه لاعتبارات شتى يمكن القول بأنها حدثت دون شك قبل نهب كانتون السالف الذكر فى عام ٧٥٨[١٣٣] . أما التاجر الإباضى الآخر فهو النضر بن ميمون الذى عاش بالبصرة على ما يظهر على حدود القرنين الثامن والتاسع ومن هناك سافر إلى الصين ؛ ولكن ليست لدينا أية تفاصيل عن رحلته هذه[١٣٤]. وعلى أية حال فإنه يمكن اعتبار هؤلاء التجار الإباضيين بمثابة ممهدى الطريق للتاجر المعروف سليمان ولابن وهب اللذين سنلتقى بهما فى رواية أبى زيد السيرافى التى دونت بعد قرن من ذلك .

يتضح لنا مما مر أن العرب قد جمعوا عن بلدان الشرق الأخرى مادة وجيزة منذ ذلك العهد المبكر السابق للقرن التاسع معتمدين فى ذلك على روايات لشخصيات عربية ؛ ويروى لنا ابن رسته حقائق عن الهند ينقلها عن شخص غير معروف لنا يدعوه أبا عبد الله محمد بن إسحاق ، وكان قد أمضى عامين من حياته فى قمار (أى خمير Khmer ، وهو الاسم القديم لكمبوديا)[١٣٥] وحدث هذا على أغلب الظن الظن فى بداية القرن التاسع[١٣٦] . ويعتبره بارتولد المصدر الأساسى عن الهند لا بالنسبة لابن رسته وحده ، وهو الذى نقل عنه فقرات معينة ، بل أيضاً « بالنسبة لابن خرداذبه وغيره من الجغرافيين العرب »[١٣٧] . وهذا لايعنى بالطبع أن مادتهم فيما يتعلق بتلك البلاد قد اقتصرت على أبى عبد الله وحده[١٣٨] ، إذ يلوح أن مثل هذه الحالات لم تكن نادرة .

137

وإلى نفس هذا العهد المبكر ترجع أول معرفة للعرب بالطريق البرى الذى يخترق آسيا الوسطى إلى الصين ، وذلك اعتماداً على الوصف الذى يقدمه تميم بن بحر المطوعى . وكما يتبين من نسبته فإنه لم يكن تاجراً أو عالماً بل انتمى إلى فئة المتطوعة من جنود الثغور الإسلامية الذين كثر عددهم على تخوم الخلافة خاصة فى آسيا الوسطى . وقد توجه تميم إلى خاقان الترك التغزغز بمهمة دبلوماسية على ما يظهر ؛ ويرجع

بارتوالد تاريخ هذه الرحلة مع بعض التردد[١٣٩] إلى الفترة بين عامى ٧٦٠ و ٨٠٠[١٤٠]. وحفظ لنا ياقوت[١٤١] أهم قطعة من هذه الرحلة أمكن بوساطتها الاستدلال على شخصية المؤلف الذى ترجع إليه القطعتان المجهولتا المؤلف فى معجم ياقوت وكتاب ابن خرداذبه[١٤٢] ؛ وبهذا فإن الأخير هو أول جغرافى عربى يحفظ لنا وصف الطريق البرى إلى الصين[١٤٣] . ويمكن أيضاً تتبع أثر تميم عند بعض الجغرافيين مثل أبى دلف وقدامة[١٤٤] بل وحتى عند الإدريسى[١٤٥]. وتميم هو أول عربى يمدنا بمعلومات عن التغزغز تستند على معرفة مباشرة بهم فى ديارهم[١٤٦]، وهو إلى جانب الأخبار الطريفة عنهم وعن غيرهم من القبائل التركية الأخرى يصف لنا عاصمة التغزغز خامجو Kan-Chou قرب طرفان Turfan[١٤٧] . وقد ورد لديه أيضاً ذكر لحجر المطر عند الترك ، الأمر الذى دفع ياقوت بهذه المناسبة إلى نقل الرواية الأكثر تفصيلا والمأخوذة عن المروزى الذى مر ذكره[١٤٨] . والفرض الذى نادى به ماركفارت وهو أن تميما قد زارا الأويغور على نهر الأورخون Orkhon قبل هجرتهم منه[١٤٩] قد ثبتت صحته فى الآونة الأخيرة بعد الاطلاع على مخطوطة ابن الفقيه التى عثر عليها بمشهد ، فهى تورد لنا قصة تميم بصورة أوفى مما لدى ياقوت[١٥٠] .

وباسم الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧) الذى مر الكلام عليه كمشجع للرحلات تقترن الرحلة الشهيرة لسلام الترجمان إلى الأصقاع الشمالية . وتتخذ هذه الرحلة | بالنسبة لوطننا 138 السوفيتى أهمية خاصة ، فليس غريباً إذن أن يرجع الاهتمام بها بين ظهرانينا إلى أكثر من قرنين فيكتب عن سلام الترجمان (Alsalemo Altargjeman) واحد من أوائل الأكاديميين لدينا وهو باير Bayer وذلك فى أول جزء من « التعليقات » (Commentaries) الأكاديمية[١٥١] . ولم تتغير كثيراً نظرة الدوائر العلمية فيما يتعلق بسلام فى السبعين عاماً الأخيرة ؛ وإذا كان اشبرنجر Sprenger قد اعتبر الرحلة منذ عام ١٨٦٤ « تضليلا مقصوداً »[١٥٢]، وهو موقف انضم إليه بالتالى غريغورييف Grigoriev[١٥٣] فإن مينورسكى Minorsky أيضاً ، وذلك فى عام ١٩٣٧ ، يرى فيها « حكاية خرافية تنتثر فيها بضعة أسماء جغرافية »[١٥٤]. إلا أنه لا يجب أن نهمل الآراء المعارضة لذلك ، فمنذ عام ١٨٨٨ اعتبر دى خويه[١٥٥]الرحلة واقعة تاريخية لاشك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء ، وقد أيده فى هذا الرأى[١٥٦] خبير ثقة بالجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomaschek[١٥٧]، وفى الآونة الحاضرة يرى عالم البيزنطيات ڤاسيلييف Vasiliev أنه من الممكن القول بأن سلاماً « قد نقل إلى الخليفة الروايات المحلية التى سمعها فى الأماكن التى زارها[١٥٨]» ، ويلوح لى أن هذا الرأى الأخير لا يخلو من الوجاهة رغماً من أن وصف الرحلة ، شأنه فى هذا شأن جميع الآثار من هذا النوع ، لا يمكن اعتباره رسالة جغرافية بل مصنفاً أدبياً يحفل بعناصر نقلية من جهة وانطباعات شخصية صيغت فى قالب أدبى من جهة أخرى :

ويجب قبل كل شيء ملاحظة أن القصة قد وصلت إلينا فى رواية جديرة بالثقة ، فابن خرداذبه يرويها لنا بألفاظ سلام نفسه[١٥٩] ويوكد فى آخر روايته[١٦٠] أنه قد سمعها فى بداية الأمر من سلام ثم أمليت عليه من التقرير الذى رفعه سلام إلى الخليفة[١٦١] . ومما يدعم صحة هذه الرواية قول المقدسى عن ابن خرداذبه بصدد هذا : « لأنه كان وزير الخليفة وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين » ، هذا إلى جانب أنه قد سمعها مباشرة من صاحبها[١٦٢]. وقد نالت القصة انتشاراً واسعاً فى الأدب الجغرافى العربى ، ورواها
140 الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون مع تفاوت فى التفاصيل ، مثل ابن رستة[١٦٣] وياقوت[١٦٤] وأبى حامد الغرناطى والإدريسى[١٦٥] والقزوينى[١٦٦] والنويرى[١٦٧] وغيرهم . وحفظ لنا الإدريسى بضعة تفاصيل منها وجدت على ما يظهر فى المسودة الأصلية لابن خرداذبه[١٦٨] التى لم تصل إلينا ، وسقطت من موجز كتابه الموجود بين أيدينا الآن .

وكان الدافع إلى إرسال هذه السفارة دافعاً خيالياً بحتاً كنفس الدافع الذى جعل الخليفة يبعث محمد بن موسى الفلكى ليستقصى خبر أهل الكهف . فقد تراءى للخليفة فى المنام كأنما انفتح السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج ؛ ولعل هذا الحلم المزعج قد سببته للخليفة الشائعات عن تحرك القبائل التركية فى أواسط آسيا نتيجة لقضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالى عام ٨٤٠ . هذا وإذا طرحنا جانباً كل التفاصيل نجد أن خط سير سلام[١٦٩] قد اتجه شمالا خلال أرمينيا وجورجيا (بلاد الكرج) إلى بلاد الخزر ، ثم اتجه من هناك شرقاً إلى بحر قزوين فوصل إلى بحيرة بلقاش Balkash وجنغاريا Zhungaria ، وعاد من هناك إلى سامرا بالعراق ماراً فى طريقه على بخارى وخراسان . وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دربند[١٧٠] ؛ ومن ناحية أخرى فإن من الممكن جداً أن يكون قد بلغ سور الصين العظيم كما أثبت ذلك دى خويه[١٧١]. ويمكن تفسير الخلط فى وصفه للحائطين بأن عصر الخوارزمى ، معاصر سلام ، قد عرف روايتين عن سدى ذى القرنين إحداهما تضعه فى الشرق والأخرى فى الشمال[١٧٢]. ومن المحتمل جداً أن سلاماً قد حاول إلى جانب تسجيل انطباعاته المباشرة أن يردد أيضاً وفى قالب أدبى الرواية الموجودة فى القرآن[١٧٣] عن سد يأجوج ومأجوج . ومن المستحيل بالطبع تحديد ميدان تجواله بالمنطقة الواقعة بين القريم والأورال كما فعل منذ عهد غير بعيد العالم الهنغارى زيتشى Zichy[١٧٤] الذى أبصر فى السد ممراً من ممرات جبال الأورال حصنته البلغار[١٧٥]. وأحد كبار العلماء المحدثين وهو خبير فى الجغرافيا التاريخية لأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى يختتم كلامه عن سلام بقوله : « لا يوجد أدنى شك فى أن سلاماً قام فى حوالى عام ٨٤٢ — ٨٤٣ مرحلة عبر فيها القوقاز ، وأرض الخزر متجهاً صوب الشرق ، ثم مر فى طريقه على برسخان وطراز (تالاس) وسمرقند راجعاً
141 إلى خراسان ؛ وهو قد أبصر بالفعل فى هذه الرحلة حائطاً أو ممراً جبلياً يشبه الحائط »[١٧٦] . وبهذا يمكن القول بأن سلاماً قد ظفر أخيراً ببعض الثقة لدى الدوائر العلمية :

لقد حاول البعض أن يعتبر رحلة سلام أسطورة خيالية وكفى ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن مصادر الأساطير الجغرافية فى الأدب العربى توجد فى ميدان غير هذا ، فهى ترتبط بالأقاصيص والحكايات البحرية عن بلدان الشرق كالهند وأرخبيل الملايو أوبلدان الغرب خاصة سواحل أفريقيا الشرقية . وقد بدأت هذه الأقاصيص تزدهر فى القرن التاسع فى موانى الخلافة كالبصرة وسيراف وعلى وجه خاص فى العاصمة بغداد . ونادراً ما أودع القصاصون حكاياتهم بطون الأسفار ، فهى فى الغالب وصلتنا بأقلام شخصيات أخرى كانت أحياناً من معاصريهم أومن ممثلى الأجيال التالية لهم .

ويبدأ سلسلة القصاصين المعروفين لنا « التاجر سليمان » الذى لا يعرف عنه أكثر من أن قصصه ترجع إلى حوالى عام ٢٣٧ هـ = ٨٥١ . وهو قد سافر مراراً بغرض المتاجرة إلى الهند والصين؛ ويصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت فيران Ferrand من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة[١٧٧] . وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين ، وقد أبحر من سيراف إلى مسقط على ساحل الجزيرة العربية ومن هناك إلى كلم على ساحل ملبار ، ثم مر بمضيق تالك شمال جزيرة سيلان وعبر خليج البنغال فوصل إلى جزيرة لنجبالوس (إحدى جزر نيكوبار) . ثم تقدم إلى كَلَه بَره على ساحل الملايو الغربى ومن هناك إلى جزيرة تيومن الواقعة إلى الجنوب الغربى من ملقا ، ومنها إلى رأس القديس يعقوب قرب سايجون ، ومن هناك إلى جزيرة هاينان فعبر المضيق الذى يفصلها عن أرض الصين ليصل إلى ميناء خانفو أوكانتون الحديثة بالصين . وكانت الرحلة البحرية من مسقط إلى الصين تستغرق أكثر من أربعة أشهر[١٧٨] . ولم يقتصر سليمان فى وصفه على ذكر المراحل ، أو « البربلوس* Periplus كما تقول اليونان ، وتقدير المسافات بالأيام وأحياناً بالفراسخ بل ترك أيضاً وصفاً حياً للسواحل والجزر والموانى المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة ؛ كما ثبت أن المعلومات التى أوردها عن كانتون تتميز بالتفصيل والدقة . ونظراً لعدم وجود أية معلومات عن سليمان نفسه فإن بعض كبار علماء الصينيات (Sinologists) مثل يول Yule وپليو Pelliot قد تشككوا فى نسبة القصص إليه ، كما ظهر رأى آخر يقول بأن هذه القصص لعربى زار الهند ؛ ومن الملاحظ أنه لا ترد فيها إشارة إلى سليمان إلا مرة واحدة[١٧٩]. غير أن فيران[١٨٠] قد لفت الأنظار إلى أن ابن الفقيه ينسب القصص صراحة 142 إلى سليمان،[١٨١] ولهذا فإن مسألة تأليفه لها لا يحوم حولها أدنى شك حتى بعد مرور خمسين عاماً على وفاته . وقد أضاف إلى القصص المنسوبة إلى سليمان ، وذلك بعد عشرين عاماً من هذا ، رحالة آخر هو ابن وهب[١٨٢] الذى يرجع نسبه إلى قريش وكان من الأعيان الأثرياء فلما سقطت البصرة فى يد ثوار

---

* لفظ « بربلوس » Periplus معناها باليونانية دورة ملاحية (Circumnavigation) ، وقد أطلق اللفظ على رسائل فى الملاحة يصف فيها اليونان سواحل البحار المختلفة . ومن أهم ما تبقى لنا منها هو « بربلوس البحر الأحمر » Periplus Mare Erythraeum الذى يرجع إلى القرن الأول الميلادى . (المترجم)

الزنج عام ٢٥٧ هـ = ٨٧٠ استقر رأيه على القيام برحلة طويلة من سيراف إلى الصين ؛ وقد حالفه التوفيق فوصل إلى عاصمة الصين وكانت فى ذلك الوقت خمدان Khumdan (أو سينانفو Sinanfu) ولوصفه أهمية خاصة إذ بعد قليل من ذلك فى عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٨ تم القضاء على المستعمرة العربية بكانتون نتيجة للحروب الداخلية فانقطعت بذلك الصلات المباشرة بين العرب والصين[١٨٣] وأصبحت آخر ميناء تصلها السفن العربية ميناء كاله أوكله بره بشبه جزيرة الملايو[١٨٤]؛ ولم يتجدد الاتصال بالصين إلا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر[١٨٥] .

وقصص سليمان وابن وهب قد دونها فى بداية القرن العاشر أبو زيد الحسن السيرافى[١٨٦] من أهل البصرة ، وهو الذى أعطاها شكلها المعروف لدينا الآن . والسيرافى نفسه لم يكن رحالة ولاعالماً بل كان على ما يظهر من المغرمين بأمثال هذه القصص التى كان من السهل جمع محصول وافر منها سواء فى مسقط رأسه سيراف أو فى البصرة . وقد التقى به المسعودى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦ ؛ ورغماً عن الخلط فى الأسماء فإن جميع الدلائل تشير إلى أن المسعودى قد أخذ عنه رواية ابن وهب[١٨٧] .

ومسودة أبى زيد السيرافى وصلتنا فى مخطوطة فريدة موجودة بباريس أضاف إليها النساخ مقدمة لا علاقة لها البتة بمحتويات الكتاب ؛ وزاد المشكلة تعقيداً أن المخطوطة تحمل عنواناً غير مناسب على الإطلاق هو « سلسلة التواريخ » . وقد اجتذب هذا الأثر أنظار العلماء منذ عهد مبكر فظهرت له منذ عام ١٧١٨ ترجمة فرنسية لم تلبث أن أثارت الريبة لدى البعض والاشتباه فى التدليس لدى آخرين . ويعود الفضل فى دراسة هذه المجموعة من القصص إلى رينو ، كما درسها فى القرن العشرين فيران* الذى يدين له العلم بوضع أساس متين لدراسة الرحلات البحرية التى قام بها العرب فى بحر المشرق .

وقد سارت هذه القصص البحرية فى سلسلة متصلة الحلقات فأبرزت لنا فى فرع من فروعها « أسفار السندباد » 143 التى طبقت شهرتها الآفاق والتى وجدت كمجموعة مستقلة قائمة بذاتها قبل أن تدخل ضمن مجموعة « ألف ليلة وليلة » الضخمة[١٨٨] ، وقد أثبت العلم أخيراً أنه من الخطل اعتبارها محض أسطورة خرافية تدور حوادثها خارج حدود الزمان والمكان ؛ إذ استبان من أبحاث رينو ودى خويه وفيران أن « أسفار السندباد » انبعثت فى نفس الوسط الذى نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفى نفس مواضعها أيضاً أى سيراف والبصرة وبغداد ، بل وفى نفس العصر تقريباً أى حوالى عام ٩٠٠[١٨٩]. ويتفق فيران وكازانوڤا Casanova فى أنها ترتفع إلى زمن أبعد بكثير من زمن القصص الأخرى لأنه لا يرد فيها ذكر للصين[١٩٠] مما يستدل منه أن تلك البلاد إما كانت غير معروفة البتة أو كانت معروفة قليلا فى العصر الذى تشكلت فيه الصورة الأولى « لأسفار السندباد»[١٩١]، ويرجع كازانوڤا تاريخها بالتحديد إلى عصر الرشيد[١٩٢]، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو ؛ وقد أمكن تحديد أماكن بعض حوادثها بالكثير من الدقة . هذا وكان لأسفار السندباد تأثير واضح على سير القديسين فى أوائل العصور الوسطى

* آخر دراسة لهذه القصص قام بها المستشرق الفرنسى سوڤاجيه G. Sauvaget (١٩٤٨) . (المترجم)

بأوروبا ، فأسطورة القديس براندان St. Brandan التى ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر[١٩٣] مدينة بالكثير فى بعض مواضعها لهذه القصص[١٩٤] ، كما يجب ألا ننسى أيضاً تأثير الرحلات البحرية على الأساطير الأخروية (eschatological) للمسيحية الأوروبية[١٩٥] .

وكما رأينا فإن القصص البحرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببلاد الشرق كالهند والصين ، ولكن يمكن أن يضم إلى هذه الأقطار أيضاً سواحل أفريقيا الشرقية خاصة بلاد الزنج المشهورة ، وهى تنطبق بوجه التقريب على زنزبار الحالية . ويشغل مكاناً مرموقاً فى هذه السلسلة كتاب تم تأليفه بعد ذلك بقليل فى حوالى عام ٣٤٢ هـ = ٩٥٣ ، أعنى مجموعة « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار وهو ربان من رامهرمز على الخليج الفارسى ؛ وليس لدينا أية معلومات عنه بخلاف ما تقدمه لنا قصصه نفسها ؛ ويجب ألا ينظر فيه إلى المؤلف بقدر ما ينظر فيه إلى القاص الرئيسى الذى دونت الحكايات من ألفاظه إذ يأخذ طرفاً فيها قاصّون آخرون من الربابنة والنواخذة والتجار الذين ينتمون خاصة إلى الفترة ٢٨٨ هـ — ٣٤٢ هـ = ٩٠٠ — ٩٥٣ ؛ وبعض قصص هذه المجموعة ترجع إلى نهاية القرن العاشر وفقاً لرأى فيران[١٩٦] .

والكلام فى هذه المجموعة لا يدور حول قصة واحدة متماسكة الأطراف كما هو الحال مع كتاب أبى زيد السيرافى ولكنه يتناول مجموعة من القصص المتفرقة | 144 التى تختلف طولا وقصراً فتتراوح بين عشر صفحات وبضعة أسطر ؛ كما تتميز مادتها أيضاً بالتنوع فتارة يقابلنا وصف قصير لنبات أوسمك أو عجائب ، وطوراً وصف لحادث فى البر أو البحر قد يتحول إلى قصة مغامرات أو دراما أخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية . ويحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حى سلس ويجيد الفن القصصى ويعرضه أحياناً بطريقة وجدانية مؤثرة ، ومن ثم فهى تمثل مصنفاً أدبياً ممتازاً لا يقل قيمة عن أفضل مواضع « أسفار السندباد » بل ويفوقها أحياناً . هذا وقد أصبح كتاب «عجائب الهند » فى متناول الأيدى فى طبعة فاخرة منذ الثمانينيات من القرن الماضى .

لقد عاش نمط القصص البحرية فى الأدب العربى قروناً طويلة ولكنه لم ينتج لنا آثاراً ممتازة كالتى مر بنا الكلام عليها . أما مجموعة الحكايات المعروفة باسم « مائة ليلة وليلة »[١٩٧] فإنها لم تدون قبل النصف الثانى من القرن الرابع عشر ولكنها ربما عرفت منذ القرن العاشر[١٩٨] ؛ ورغماً من أنه يثبت من قراءتها معرفتها « بألف ليلة وليلة » إلا أنها لا تعتمد عليها فى مادتها[١٩٩] . وتوجد بهذه المجموعة حكاية عن جزيرة الكافور[٢٠٠] تصف الرحلة البحرية إلى الصين ويرد فيها الكلام عن عاصمتها خمدان[٢٠١] ، وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحكاية ابن وهب[٢٠٢] ؛ أما مصادرها فتنتظم مجالا عريضاً يصل إلى كوزموغرافيا ابن الوردى فى القرن الرابع عشر[٢٠٣] . وسنرى كيف أن مسار هذا التطور للقصص البحرية على ممر القرون سيؤدى بنا فى القرن الخامس عشر إلى مرشدات الملاحة للربابنة العرب المشهورين فى المحيط الهندى الذين كان كان من بينهم ربان ڤاسكو دى غاما .

وفى الفترة التاريخية التى نعالجها فى هذا الفصل كان الطريق البحرى إلى الصين يعتبر أسهل الطرق المؤدية إلى تلك البلاد من أماكن نائية كسمرقند . ويحكى لنا المسعودى[٢٠٤]أن أحد « التجار من أهل سمرقند من بلاد ما وراء النهر خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى أتى العراق فحمل من جهازها وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى بلاد عمان وركب إلى كِلَّة وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ... ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة فى مراكب الصينيين إلى مدينة خانفوا وهى مرسى المراكب » .وبسبب إساءة لحقته عند جمع المكوس فقد سافر هذا التاجر إلى خمدان[٢٠٥] شاكياً فظفر باستخلاص حقوقه[٢٠٦] . وهكذا فإن الطريق الذى سلكه هذا السمرقندى يتفق بوجه عام مع الطريق الذى سافر به التاجر سليمان أو ابن وهب ؛ ومن المؤكد أن هذه الرحلة من آسيا الوسطى إلى الصين لم تكن الوحيدة من نوعها .

145

ولايوجد ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الطريق البحرى قد طغى على الطريق البرى نهائياً فى ذلك العصر ، فالمسعودى يحكى كذلك :

« وقد رأيت شيخاً جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط وقد رأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد علىجبال النوشادر إلى أرض التبت والصين[٢٠٧] » .

وهذا الطريق الأخير تعرفه المصادرالصينية أيضاً [٢٠٨] . ومن العسير أن نحدد بالدقة أى طريق سلكه إلى الصين بعد قليل من ذلك الراهب النجرانى الذى التقى به فى عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ صاحب كتاب « الفهرست » وحفظ لنا عدداً من حكاياته بلسانه ؛ وهو يبدأ فصلا من كتابه بالطريقة الآتية :

« مذاهب أهل الصين وشىء من أخبارهم : ما حكاه لى الراهب النجرانى الوارد من بلد الصين فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة هذا الرجل من أهل نجران أنفذه الجاثليق منذ نحو سبع سنين إلى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أناسى من النصارى ممن يقوم بأمرالدين فعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر بعد ست سنوات فلقيته بدار الروم وراء البيعة فرأيت رجلا شاباً حسن الهيئة قليل الكلام إلا أن يُسئل فسألته عما خرج فيه وما السبب فى إبطائه طول هذه المدة فذكر أموراً لحقته فى الطريق عاقته وأن النصارى الذين كانوا ببلد الصين فَنِيوا وهلكوا بأسباب وأنه لم يبق فى جميع البلاد إلا رجل واحد وذكر أنه كان لهم بيعة خربت قال فلما لم أر من أقوم لهم بدينهم عدت فى أقل من المدة التى مضيت فيها فمن حكاياته قال إن المسافات فى البحر قد اختلفت وفسد أمر البحر وقلّ أهل الخبرة به وظهر فيه آفات وخوف وجزائر قطعت المسافات إلا أن الذى يسلم على الغَرَر يسلك »[٢٠٩] .

والملاحظات الأخيرة التى يمكن أن يحس منها أنها ثمرة تجربة شخصية تدفع إلى الاعتقاد بأن الرحلة قد تمت على أية حال بطريق البحر .

إن حكايات الراهب النجرانى مقتضبة فى الواقع ولكنها تبلغ حد الطرافة[٢١٠] بالنسبة للتاريخ الحضارى

لذلك العصر وبالنسبة للأوضاع السائدة فى الصين آنذاك . وقد اجتذبت منذ القرن السابع أنظار المستشرق غوليوس ، كما يبدو ذلك فى تعليقاته على رسالة الفرغانى(٢١١)؛ وكانت معرفة العلماء بالجغرافيا العربية آنذاك فى مستوى جعل الشك وعدم التصديق يحيطان بالرواية إلى ما بعد قرن من ذلك التاريخ؛ 146 ولكن لم يلبث أن وكد صحتها رينو(٢١٢) وترجمها فيران فى القرن العشرين ترجمة علمية ضمنها صفحات مؤلفه عن الشرق الأقصى(٢١٣). ولقد صاغ صاحب « الفهرست » قصة الراهب النجرانى بألفاظ عادت بالغرم عليه هو نفسه ، فقد حدث أن ناشر « الفهرست » وهو المستشرق فليجل Flügel قد أخذ خطأ « دار الروم » ، وهو أحد أحياء بغداد ، على أنه عاصمة الدولة البيزنطية وبنى على أساس هذا نظرية واهية مؤداها أن ابن النديم زار القسطنطينية عام ٩٨٧ والتقى بالراهب النجرانى قريباً من آيا صوفيا . وقد كشف عن هذا الخطأ فى بحث مفصل المستعرب الروسى روزن(٢١٤) ، ولكنه لا يزال مع الأسف الشديد يتسلل من آونة لأخرى إلى العلم الأوروبى إلى أيامنا هذه(٢١٥) .

لقد كان القرن التاسع فاتحة عهد جديد فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ليس فقط لأن عدداً من الأنماط الجديدة قد رأى النور لأول مرة بل أيضاً لظهور رسائل ذات طابع عام وصلت إلينا فى صيغ مختلفة . وبمقدورنا الحكم على تلك المصنفات لا من مجرد ذكر عناوينها أو من المقتطفات التى حفظت لنا منها فى آثار متأخرة بل من أصولها الأولى التى ربما وجدت فى روايات ترجع إلى فترة تتلو بكثير تاريخ تأليفها .

حواشى الفصـــل الرابع

(١) – Brockelmann, GAL, I, p. 102, No 6; SBI, p. 160

نالينو ، الفلك ، ص ١٢٨ (= Racc., p. 188)

(٢) – Krachkovski, Arabsk. Kult V Ispanii, p, 18 – Reinaud, Introduction, p. XC – XCII – Dozy, Le Calendrier

(٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٣٤ – ١٣٦ (= Racc., p. 192 - 194)

Motylinski – Griffini, RSTOR., I, p. 423 – 438; 607-608

(٤) (= Racc., p 190) نالينو ، الفلك ص ١٣١ = Schjellerup, p. 32 –

(٥) – Brockelmann, GAL, I, p. 102, No 7; SBI, p. 161

أما عن هجرته من البصرة – (= Racc., p. 188) نالينو ، الفلك ، ص ٢٨ ، رقم ٢

بحسب ألفاظ أبي عبيدة (توفى عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥) فراجع : ابن خلكان ، الجزء الثالث ، ص

٥٤٩ = اليافعى الجزء الثانى ، ص ٨

(٦) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٥٢ = ابن خلكان ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٣ – ٥٥٤

Reinaud, Introduction p. LI – Flügel, – Gram Schulen, p. 60

(٧) – Brockelmann, GAL, I, p. 106 - 107, No 14; SBI, p. 166 - 167

(٨) – Gottschalk, p. 284 - 285

(٩) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ٩ – ٧

(١٠) شرحه ص ٧

(١١) – Brockelmann, GAL, I, p. 138 - 140, No I; SBI p. 211 - 212

Brockelmann, EI, II, p. 737 - 738

(١٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ١٥٨

(١٣) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٩٧

(١٤) – Kramers, EI, EB, p. 63

(١٥) – Heer, p. 5

(١٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧

(١٧) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٦٥٢

(١٨) شرحه ، ص ٨٧٦

(١٩) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٤٤١

(٢٠) شرحه ، ص ٨٤٧

(٢١) – Mieli, p. 81, note 6 bis

(٢٢) – Brockelmann, GAL, I, p. 104-105; No 11; SBI, p. 163-165
Haffner, EI, I, p. 509

(٢٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٩ ، رقم ٥

(٢٤) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 164, No 10

(٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٧ .

(٢٦) – Heer, p. 26, a

(٢٧) – Haffner, Quellenwerke, p. 69 No 45

(٢٨) الفهرست ، ص ٧١ Flügel, Gram, Schulen, p. 156.
ناشر « النقائض » : Bevan, I, p. XI

(٢٩) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 175

(٣٠) شرحه ، ولكن ريتمير Reitemeyer تتخذ موقفاً مخالفاً

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ – Heer, p. 27-28

(٣٢) – Reitemeyer, p. 247-254

(٣٣) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2 b

(٣٤) – Cheikho, Catalogue Raisonné, p. 112-113, No 184

(٣٥) نالينو ، الفلك ، ص ١٣٢ ، رقم ١٤ (= Racc, p.190)

(٣٦) الفهرست ، ص ١١٤

(٣٧) – Brockelmann. GAL, p. 152-153 No 2; SBI, p. 239-247 — Al-Djáhiz, p. 1043-1044 — Sarton, Introduction I, p. 597 — Rescher, Abriss, II, p. 274-296 — Reinaud, Introduction, p. LII-LIII, CCCXCII

(٣٨) – Asin Palacios, Libro de los Animales

(٣٩) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦

(٤٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٧٧

(٤١) حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٢ رقم ٩٩٠٤ (بحسب المسعودى)

(٤٢) – Rieu, Supplément, No 1129, 15 الورقة 199-219 — Brockelmann, GAL, SBI, p, 244, No 59;
وأيضاً فى دار الكتب المصرية ، أدب ، ١٨٤٤ ، الورقة ١٣٩ – ١٥٣ ا (نسخة من مخطوطة ٤٠٣ ﻫ)
فصل من صدر كتاب فى . . . .

(٤٣) ياقوت ، المعجم الجزء الثانى ، ص ٥٩٣

(٤٤) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٦٥١

(٤٥) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٧٩٢

(٤٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٥٥٢

(٤٧) المقدسى ، BGA, III ، ص ٣٣ (توجد تسعة فقط)

(٤٨) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٧٠

(٤٩) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص ١١٦

(٥٠) ابن حوقل ، BGA, II ، ص٢٦٦

(٥١) راجع : Krymski, Istoria Arabov, I, p. 101, note — Kramers, Al-Nil, p, 991 —

(٥٢) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧

(٥٣) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢ – ٥٣

(٥٤) شرحه ، BGA,VIII ، ص ٥٥ ؛ الترجمة لدى Carra de Vaux, Maçoudi, p. 82-83

(٥٥) راجع : Rozen, الترجمة : p. 204 المتن : p. 100; Sachau, Alberunis India, —

بسلامة قلبه : ZVO, III, p. 160

(٥٦) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٦٦ ؛

(٥٧) المقدسى ، BGA, III ، ص ٤ – ٥ ؛ راجع ص ٥ ، الملاحظة

(٥٨) Al-Djahiz, p. 1044 —

(٥٩) المقدسى ، BGA, III ، ص ٢٤١

(٦٠) المقصود «ثمار القلوب» ، ص ٤١١ ، ٤٣٨ ؛ راجع : عبد الوهاب : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد الثانى عشر ، ص ٣٢٤

(٦١) شرحه ، ص ٣٢١ – ٣٢٥ (مقدمة الناشر) ، ص ٣٢٦ – ٣٥١ (المتن) ، ص ٣٥٢ – ٣٥٥ (مقارنته مع ابن الفقيه) . تعليقات لغوية للكرملى ، المجلد الثالث عشر ، ص ٢٨٧ – ٢٩٥

(٦٢) Brockelmann, GAL, SBI, p. 244 No 54

(٦٣) عبد الوهاب ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الثانى عشر ، ص ٣٢٤

(٦٤) الفهرست ، ص ١٥٠ – Girgas, p. 193

(٦٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٤٠٠

(٦٦) حدود العالم ، ٩ – ١٠ · Kramers, EI, EB, p. 65

(٦٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ – ٨٤٢ (تختلف الأسماء بعض الشىء)

راجع : BGA, V, p. 329-330

(٦٨) يرد الكلام عن حجر المطر لدى تميم بن بحر ؛ راجع : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ .

وعنه عامة راجع : Grigoriev, Abu Dulaf, p, 31 — Rohr-Sauer, p. 50

(٦٩) الفهرست ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ Brockelmann GAL, I, p. 210 No 3; SBI, p. 375 —

Sarton, Introduction I, p. 597

عن السرخسى راجع Rosenthal

(٧٠) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ص ٢٧٥ — Reinaud, Introduction p. LIV, CCCII

(٧١) الفهرست ص ٢٦٢

(٧٢) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(٧٣) الفهرست ، ص ٢٦٢ — حاجى خليفة ؛ الجزء الخامس ، ص ٥٠٩ ، رقم ١١٨٧٠ — حدود العالم ، ص ١١ — Kramers, EI, EB, p. 65

(٧٤) Heer, p. 17 - 18 —

(٧٥) Jaubert, I, p. 64 —

(٧٦) Brockelmann, GAL, SBI, p. 223 —

(٧٧) وكتاب الطبيب Jaubert, I, p. 94 — ولكن راجع : الفهرست ، ص ١١٦

(٧٨) عن بلدة خاسلك ، راجع Schleifer ، ص ٣٠٥

(٧٩) Ruska, EI, I, p. 363 - 364 —

(٨٠) Devic, Les pays des Zendjs, p. 188 - 194 — Storbeck, p. 67-68 —

(٨١) Riedel, p. 257 , 261 —

(٨٢) Frähn, Ibn-Foszlan, p. XXV —

(٨٣) Reinaud, Introduction, p. LII —

(٨٤) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، راجع : الورقة ١٣٦/أ (Rosen, Notices sommaires, p. 144 - 145, No 194)

(٨٥) Brockelmann, GAL, II, p. 427, No 6; SB, II, p. 635 —

(٨٦) Babinger, GOW, p. 119 - 120 No 102 —

(٨٧) Battal p. 709; قارن : Wittek, p. 336 - 337 —

(٨٨) Brockelmann, GAL, I, p. 216, No 2; SBI, p. 382 —

(٨٩) Brockelmann, GAL, SBI, p. 382 No I —

(٩٠) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٠٦ — ١٠٧ — الترجمة ص ٧٨ — ٧٩

(٩١) Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 6 - 7 —

(٩٢) المسعودى ، المروج ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨

(٩٣) Vasiliev, Byzance, I, p. 8 - 9 note —

(٩٤) المقدسى ، BGA, III, ص ٣٦٢

(٩٥) Brockelmann GAL, SBI, p. 404 —

(٩٦) المسعودى BGA, VIII ، ص ١٩٠ — ١٩١ ؛ الترجمة لدى :
Carra de Vaux, Maçoudi p. 257 - 258 — Vasiliev, Byzance, p. 336 ;
Cf p. 203 - 204

(٩٧) (الترجمة غير دقيقة) – Goldziher, Vorlesungen, Zweite Auflage, p. 115

شواهد أخرى يسوقها : Wensinck, Mihna, p. 551

(٩٨) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٠٥ – ١١٣ ؛ الترجمة ص ٧٧ – ٨٦

(٩٩) شرحه ، ص ٢٥٥ – ٢٥٩ ؛ الترجمة ص ١٩٦ – ١٩٩

(١٠٠) شرحه ، ص ٢٦٩

(١٠١) حدود العالم ص ٤١٩ ، ٤٢٢ – ٤٢٣ الخ : راجع – Markwart, Streifzüge, p. 28 etc

(١٠٢) (حضرها للطبع وعلق عليها كوفالفسكى) – V. V. Bartold, SV, I,

(١٠٣) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١١٩ – ١٣٢

(١٠٤) القزوينى ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٧ – ٣٩٩ ، ٤٠٦ – ٤٠٧

(١٠٥) – Krachkovski, Opis, p. 1332, No 29; 1336, No 47

(١٠٦) – Rozen, ZVO, II, p. IV

(١٠٧) – Markwart, Streifzüge, p. 206 - 207

(١٠٨) راجع عن هذا : Hudud, p. 419, note 2

(١٠٩) قارن : Honigmann, Die Ostgrenze, p. 41

(١١٠) – Hudud, p. 419 note 2

(١١١) – Guidi L' Europa Occidentale p. 269 — Guidi Roma p. 7

(١١٢) – Fabricius — Jacob, Arabische Berichte, p. 37 - 42

(١١٣) – Vasiliev, Byzance I, p. 186 - 187

(١١٤) – Byzantion, XII, p. 1 - 24

(١١٥) شرحه ، ص ١٠ – ١٦

(١١٦) – Seippel, II, p. X — وأيضاً : Nansen, Nebelheim, II, p. 149 note

(١١٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩

(١١٨) – Beazley, I, p. 465 — Sarton, Introduction, II, p. 1062

(١١٩) آخر نشرة لنص الإدريسى لدى : Levi - Provençal, La péninsule

النص ص ١٦ – ١٨ = الترجمة ص ٢٣ – ٢٤ : الترجمة القديمة :

Jaubert, II, p. 26 - 29; ed. Dozy—De Goeje, p. 184 - 185 (المتن) p. 223 - 225

(الترجمة) — Carra de Vaux, Les Penseurs, II (ترجمة) p. 47 - 49

(١٢٠) – Lévi - Provençal, La Péninsule (المتن) p. 16 - 17

(١٢١) شرحه ، ص ٢٣ ، ملاحظة ٢

(١٢٢) – De Goeje, Brandan, p. 56 - 59

(١٢٣) التاريخ راجع : Hennig, II, p. 329 - 335

(١٢٤) De Goeje, Brandan, p. 59 - 65 –

(١٢٥) Beazley, III, p. 532 - 533, note 2 — Sarton, Introduction, II, p. 1062 –

(١٢٦) Beazley, III, p. 533 –

(١٢٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ : « أخبار من غرر وخاطر بنفسه » ؛ وأيضاً ص ٣٢٧ : « وليس يكاد يقطع من عمان بحر الهند فى تيرماه إلا مركب مغرر حمولته يسيرة » .

(١٢٨) Mez, p. 476, note 2 –

(١٢٩) الدينورى ، ص ١٢٣ ؛ قارن : Lewicki, RO, XI, p. 176. 180

(١٣٠) Mez, p. 480 (اعتماداً على : Chau Ju Kua, p. 14 Sui) — Lewicki, RO, XI, p. 176, 180 –

(١٣١) Lewicki, RO, XI, p. 173 - 186 –

(١٣٢) شرحه ، ص ١٧٧ — ١٧٨

(١٣٣) شرحه ، ١٧٩ — ١٨١

(١٣٤) شرحه ، ص ١٨١ — ١٨٢

(١٣٥) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١٣٢

(١٣٦) Hudud, p. 236 –

(١٣٧) حدود العالم ، ص ١٩

(١٣٨) قارن : Hudud p. 236

(١٣٩) Barthold Toghuzghuz, p. 873 –

(١٤٠) Barthold, Vorlesungen, p. 54 –

(١٤١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠

(١٤٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٨٢٣ = BGA, V, p. 30 - 31 =

(١٤٣) Barthold. Vorlesungen, p. 54 –

(١٤٤) Hudud, p. 268 –

(١٤٥) شرحه ، ص ٢٦٩

(١٤٦) شرحه ، ص ٢٦٨ — حدود العالم ، ص ١٠

(١٤٧) حدود العالم ، ص ١٩

(١٤٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ — ٨٤٢

(١٤٩) Markwart, Streifzüge, p. 81 –

(١٥٠) ابن الفقيه ، مخطوطة مشهد ، ص ١٦٩ — ١٧٠ — Hudud, p. 481 — Validov IRAN, p. 241 - 242

(١٥١) Bayer, Sallam p. 438 - 442 –

(١٥٢) – Sprenger, Reiserouten p. XV

(١٥٣) – Grigoriev, Abu Dulaf, p. 23

(١٥٤) – Hudud, p. 225

(١٥٥) (على حدة ص ١٧ – ٢٣) – De Goeje, De Muur, p. 103 - 109

(١٥٦) – De Goeje, De Muur, 116, p. 30

(١٥٧) – Tomaschek, WZKM, III, p. 103 - 108

(١٥٨) – Vasiliev, Byzance I, p. 9, note 2

(١٥٩) ابن خرداذبة ، BGA, VI ، ص ١٦٢

(١٦٠) شرحه ، ص ١٧٠

(١٦١) شرحه (الترجمة) ، ص ١٢٤ – ١٣١ –
Wilson, p. 20 - 25 — De Goeje, De Muur, p. 103 - 109, p. 17 - 23

(١٦٢) المقدسى ، BGA, III ، ص ٣٦٢ – ٣٦٥

(١٦٣) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١٤٩

(١٦٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٥٦ – ٥٨

(١٦٥) Jaubert, II, p. 416 - 420

(١٦٦) القزوينى ، الجزء الثانى ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ – ترجمة كارادى ڤو
(Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 43 - 47)

(١٦٧) النويرى ، الجزء الأول ، ٣٧٤ – ٣٧٦

(١٦٨) – Zichy, p. 191

(١٦٩) – Barthold, Kirgizen, p. 1101 — Markwart, Streifzüge, p. 89 - 90

(١٧٠) عن توضيح لفظ فى وصفه راجع : Y. N. Marr, p. 11 - 13

(١٧١) راجع : Markwart, Streifzüge, p. 86 — Tomaschek, WZKM, III p. 108

(١٧٢) – Mzik, Parageographische, p. 186, note

(١٧٣) القرآن ، ٢١ ٩٦

(١٧٤) – Zichy, p. 194 - 200 — راجع : Hudud, p. 225 note I

(١٧٥) – Zichy, p. 200

(١٧٦) – Ibn Fadlan, p. 197 - 198

(١٧٧) – Ferrand, Sulayman p. 18 (راجع : Sarton, Introduction, I, p. 572 — Sarton, Isis, VI p. 146) — Sauvaget, Relation de la chine

(١٧٨) – Ferrand, Sulayman, p. 18 - 19

(١٧٩) – Pelliot, p. 401-402

(١٨٠) Ferrand, Notes, p. 21-35 -

(١٨١) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص ١١ – ١٣

(١٨٢) Reinaud, Introduction, p. CCCXCIV — CCCXCV, CCCXCIX — Hudud, - p. 224 and index: Ibn Wahb

(١٨٣) Reinaud, Introduction, p. LXXIV, CCCXCIX -

(١٨٤) Mez, p. 481 -

(١٨٥) — Reinaud, Introduction p. LXXIV — LXXV -

(١٨٦) بارتولد فى نقده لكتاب Hirth — Rockhill, Chau Ju-Kua, p. 0165

(١٨٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣١٢ – ٣٢٠ ، ٣٢١ – ٣٢٤

(١٨٨) يعتقد كازانوفا Casanova (p. 125) أنه « من المستحيل فصلها عن ألف ليلة وليلة » .

(١٨٩) De Goeje, Brandan, p. 65 -

(١٩٠) Casanova, p. 119 -

(١٩١) Ferrand, Relations, II, p. 564 -

(١٩٢) Casanova p. 121 -

(١٩٣) De Goeje, Brandan, p 65, 75; -

وبراندان نفسه يرجع إلى القرن السادس (شرحه ص ٤٣)

(١٩٤) شرحه ، ص ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣

(١٩٥) Asin Palacios, La eschatologia p. 264 -

(١٩٦) Ferrand, Relations, II, p. 565 -

(١٩٧) شرحه ، ص ٥٦٤ و Ferrand, Note, p. 309, 318

(١٩٨) Gaudefroy — Demombynes, Les cents et une nuits, p. 351 -

(١٩٩) Ferrand, Note, p. 309 -

(٢٠٠) Gaudefroy — Demombynes, Les cents et une nuits, p. 68-77 -

(٢٠١) Ferrand, Relations, II, p. 570-573 -

(٢٠٢) Ferrand, Note p. 310-316 -

(٢٠٣) شرحه ، ص ٣١٨

(٢٠٤) المسعودى ، مروج الذهب ، الجزء الأول ، ص ٣٠٧ – ٣١٢

(٢٠٥) صحح هذا الإسم المشوه فى الأصل العلامة مينورسكى Minorsky (Hudud, p. 224)

(٢٠٦) لدى هارتمان (Hartmann, China, p. 877)

(٢٠٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣٤٩

(٢٠٨) Mez, p. 467 -

(٢٠٩) الفهرست ، ص ٣٤٩

(٢١٠) شرحه ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠

(٢١١) — Golius Notae, p. 76

(٢١٢) — Reinaud, Introduction, p. CLI — CLIII

(٢١٣) — Ferrand Relation, I, p. 129-131

(٢١٤) — Rozen, ZVO, IV, p. 401-404

(٢١٥) — Fück, ZDMG, 84, p. 117 and note 5

ولكنه يصححها في مقاله في دائرة المعارف الإسلامية (EI, III, p. 873) مع الإشارة إلى روزن .

الفصل الخامس

المصنفات العامة فى الجغرافيا فى القرن التاسع

الجغرافيا الإقليمية فى القرنين التاسع والعاشر

يعتبر ابن خرداذبه عادة أول مؤلف يصلنا عنه مصنف فى الجغرافيا الوصفية . وكما تبين لنا منذ برهة فإن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة ، فقد وجدت مصنفات أخرى مماثلة ترجع إلى تلك الفترة بل وإلى فترة سابقة عليها ؛ وهذه المصنفات الأخيرة معروفة لنا لا من أسمائها فحسب بل ومن مقتطفات وقطع كبيرة حفظها لنا المؤلفون المتأخرون . غير أن ذلك القول يمكن اعتباره صادقاً بمعنى أننا نلتقى لدى ابن خرداذبه بأول مصنف كامل على الرغم من أنه وصل إلينا فى رواية ملخصة عملت فى عصور متأخرة ولا تمثل المسودة الأصلية للمؤلف ؛ بيد أن هذا لا يمنعنا من الحكم على محتويات المصنف. ويلوح أن هذا المصنف الذى كان يحمل العنوان التقليدى «كتاب المسالك والممالك» لم يكن بالنسبة للمؤلف سوى حدث ثانوى عابر فى مجال نشاطه الأدبى ، لأنه لم يتحكم فى ظهوره نزعته الأدبية بل طبيعة المنصب الذى كان يشغله فى الدولة .

وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْداذبه فارسى الأصل وكان جده مجوسياً كما هو واضح من الاسم الذى حمله المؤلف. وقد حاول بعض العلماء فى الآونة الأخيرة تفضيل صيغة خُرَّداذبه[١] وهى محاولة لا غناء فيها على الإطلاق إذ كلا الصيغتين من أسماء تمجيد الخالق ولها اشتقاق واضح فى اللغة الفارسية الوسيطة . والصيغة الأولى للفظ وهى خُرْداذبه معناها «خُرْداد أفضل[٢]» ، أما الثانية وهى خُرَّداذبه فمعناها «خلقه خُرّ أفضل»[٣]؛ وهكذا فإن كلا الإسمين صحيح وليس ثمة حاجة لاطراح الأول الذى ثبت على ممر السنين منذ أن تعرف العلم الأوروبى على المؤلف . وفى العصور المتأخرة استعمل فى اللغة العربية لفظ خردادى لتسمية نوع من البلور الجبلى والأوانى المصنوعة منه[٤] . وكان والد المؤلف حاكماً على طبرستان جنوبى بحر قزوين فى أوائل القرن التاسع وذاع صيته بسبب التوفيق الذى أحرزه فى إخضاع 148 بعض مناطق الديلم التى لم تدخل ضمن أراضى الخلافة الإسلامية إلى زمانه . أما المؤلف فقد حصل على تعليم جيد وكان لوالده فضل كبير فى دراسته الموسيقى فتتلمذ ردحاً من الزمن على المغنى والموسيقى المشهور إسحق الموصلى[٥] ؛ غير أن مكانة أسرته حددت مستقبله بصورة جازمة فأصبح مقرباً من بلاط الخليفة المعتمد (٢٥٦ هـ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢) بسامرا ومن ندمائه أصحاب النفوذ ؛ وجميع مؤلفاته

البالغ عددها عشرة معروفة لنا من أسمائها فقط [٦] ومن المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها فى المراجع المختلفة . وجميعها على وجه التقريب تدور فى محيط الأدب الخفيف والحياة المرحة ، وقد يلاحظ فى بعضها وجود اتجاهات شعوبية إيرانية كما فى كتابه « جمهرة أنساب الفرس » ؛ وبعضها يستهدف إمتاع الكبراء والأغنياء مثل « كتاب الشراب » و« كتاب الطبيخ » ، وقد كشف أخيراً عن مخطوطة واحد منها هو كتاب « الملاهى والأسمار » ، وذلك ضمن مجموعة شخصية[٧] . وله فضلا عن ذلك كتاب فى « التاريخ » يعالج فيه كما ذكر المسعودى[٨] تاريخ الأمم قبل الإسلام ؛ وكما هو الشأن مع كل أديب فى ذلك العصر فإن ثبت مؤلفاته لم يخل من « كتاب الأنواء » ، وقد وقفنا عنده فيما مر بنا من القول :

ويبدو أن مكانته فى البلاط قد هيأت له شغل وظيفة هامة هى وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران ؛ ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذى دفعه إلى تأليف كتاب جغرافى استجابة لطلب أحد العباسيين . ولا نعرف على وجه التحديد التاريخ الذى شغل فيه ابن خرداذبه هذا المركز ، ولكن يبدو أن تأليف الكتاب قد استغرق وقتاً طويلا ؛ ويرى دى خويه أن المسودة الأولى ترتفع إلى حوالى عام ٢٣٢هـ = ٨٤٦ ، أما الثانية فلا تتجاوز بحال عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ . ولا تزال المسألة إلى أيامنا هذه باقية دون حل نهائى ، فبعض العلماء لا يزال يعتقد أنه ليست هناك سوى مسودة واحدة تعود إلى التاريخ الأخير[٩] رغماً من أن الأغلبية ترى رأى دى خويه [١٠] . وهذا الأخير يعتقد أن كلا المسودتين لم تصلا إلينا وأن الطبعة الحالية تمثل موجزاً متأخراً وجد فى مخطوطتين فقط . كذلك لسنا على يقين من عام وفاة ابن خرداذبه ، وإذا كان صحيحاً ما أورده حاجى خليفة ، معتمداً فى ذلك على مصدر غير معروف لنا ، من أنه توفى حول عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢[١١] فإن ابن خرداذبه يكون بذلك قد عاش عمراً طويلا لأنه ولد على ما يظهر حوالى عام ٢٠٥ هـ = ٨٢٠ .

أما قيمة كتابه « المسالك والممالك » فيمكن الحكم عليها من الاستشهادات التى سقناها فيما مر من الكتاب ؛ وستظهر محاسنه وعيوبه من خلال العرض العام لمحتوياته[١٢] . وهو يبدأ وفقاً للتقليد المعروف بالمعلومات المعهودة | 149 من محيط الجغرافيا الرياضية خاصة وصف شكل الأرض كما لدى بطلميوس[١٣] ؛ وقد بينا فيما سبق من الكلام كيف يجب أن نقف من ترجمة بطلميوس التى نقل عنها ابن خرداذبه . وبعد فصل قصير عن اتجاه القبلة بالنسبة لكل بلد يكرس المؤلف قسما كبيراً للكلام على سواد العراق فيذكر تقسيمه الإدارى وأنواع الضرائب التى تجبى منه ، مع إيراد ملاحظات عن تاريخها هنا وفى مواضع أخرى من الكتاب ؛ ويمكن على ضوء هذه التفاصيل وضع ميزانية الدولة الإسلامية لذلك العهد ، وأول من فعل ذلك المستشرق كريمر Kremer[١٤] . ويختتم ابن خرداذبه هذا القسم بتعداد الملوك القدماء من لدن

افريدون معتمداً فى ذلك على المصادر الفارسية فيذكر ملوك الفرس والروم والترك والصين ويذكر أحياناً ألقابهم التى يلاحظ من بينها « ملك الصقالبة قناز »* [١٥] .

أما القسم الرئيسى من الكتاب فيشمل وصف الطرق ، وذلك بدرجات تتفاوت فى التفصيل . فيبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا إلى آسيا الوسطى وجنوباً إلى الهند ، ويصحب ذلك ملاحظات عابرة عن التقسيم الإدارى والخراج مع استشهادات شعرية عند الكلام على الأمكنة أحياناً . ويمتاز بحيوية أكثر وصفه الطريق البحرى إلى الهند والصين حيث يبدو واضحاً تأثير « القصص البحرية » التى مر الكلام عليها . وفى خلال هذا الوصف يبدو واضحاً اهتمامه بمحصولات البحار والجزر ، كما يذكر بالتفصيل كيفية الحصول على الكافور ويصف الفيل ووحيد القرن ويتحدث عن البوذية لدى ملك جاوه وعن الطبقات (Castes) فى الهند[١٦] . أما فيما يتعلق بالغرب فإنه يصف الطريق إلى الأندلس ، ويسهب فى وصف الطرق المؤدية إلى بيزنطه مع إيراد تفاصيل ترجع إلى مسلم الجرمى كما بينا فى حينه . أما وصفه المسهب لرومه والذى قام بدراسته المستشرق جويدى Guidi فيرتبط بالمصادر المسيحية الشرقية وليست له أهمية تذكر ، شأنه فى هذا شأن جميع أوصاف رومه التى تركها لنا الجغرافيون العرب قبل الإدريسى[١٧] . ويصف طريق الشمال خلال أذربيجان والقوقاز كما يصف الطرق الخارجة من بغداد فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية ، فيذكر المنازل من البصرة وبغداد ومصر إلى مكة . ويختم هذا القسم بالكلام على طريقين مهمين للغاية كان يسلكهما التجار اليهود من أوربا إلى الهند والصين ، أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر ، والآخر يمر بأنطاكية إلى الفرات. وليس أقل أهمية من ذلك وصفه لطريق التجار الروس إلى الجنوب وهو الذى يمر بنهرى الدون والفولجا ثم يعبر بحر قزوين متجهاً صوب الجنوب[١٨] ؛ وهو يحمل على الاعتقاد بأنه مدخول على الكتاب ولكن يبدو أنه قد وجد فى المسودة الأصلية[١٩] ومنها وقع لابن الفقيه الذى يختلف مع متن ابن خرداذبه فى شىء بسيط هو أنه يتحدث عن تجار الصقالبة وليس الروس[٢٠] . وقد أدى هذا الموضوع إلى ظهور أبحاث عديدة[٢١] وله ترجمة علمية باللغة الروسية[٢٢] .

ولم يقتصر كتاب ابن خرداذبه على وصف الطرق بل أتْبِعَ ذلك أقساماً عديدة تحمل على الاعتقاد بأنها زيادات متأخرة أضيفت بمرور الزمن ، كالحديث مثلا عن تقسيم الأرض الذى يحفل بأخطاء عديدة ، وعن عجائب العالم وعن الأبنية المشهورة حيث يورد قصة عن فتح الأهرامات فى عهد ابن طولون . وينضم إلى هذا القسم من كتابه الوصف المعروف لنا لرحلة سلام الترجمان ، ويتلوه حكاية عن العجائب المختلفة والجبال والأنهار . وهنا وعلى حين فجأة تنتهى المخطوطة كأنما بدون خاتمة .

ليس من العسير أن نبصر أن كتاب ابن خرداذبه يقوم على عنصرين متميزين كل التميز عن بعضهما

---

* بالروسية Kniaz أى الملك والأمير ؛ ومن المحتمل أن الصقالبة قد أخذوها عن الجرمان . (المترجم)

البعض ؛ فمن ناحية يقابلنا عرض جاف للمادة الرسمية ولكنه يمتاز بأهمية كبرى ، ومن ناحية أخرى نلتقى بمجموعة من الغرائب Mirabilia الجغرافية المختلفة . ولانحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها فى قالب متجانس ، فضلا عن أن الكتاب يفتقر إلى الكثير من ناحية التبويب . وقد كان بمقدور المؤلف بلا شك الاطلاع على الوثائق الرسمية ، أى الأرشيف الحكومى ؛ ويشير إلى هذا المقدسى ، بل والمؤلف نفسه عند الكلام على مصادره . وقد كان لاهتمام المؤلف بالرحلات أن حفظت لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق فى عهود مبكرة ، الأمر الذى سبق الكلام عليه فى فصل آخر . ولاشك أن عدم التناسق فى مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض فى حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه[٢٣] ، غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيراً جداً فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين اليعقوبى وابن رسته وابن حوقل والمقدسى والجيهانى والمسعودى وذلك عن مخطوطة ثالثة هى أفضل المخطوطات جميعاً[٢٤] . كما أن العناية به ظلت قوية حتى بين المتأخرين فعرفه الإدريسى وابن خلدون كما عرفه جيداً الجغرافيون الفرس ، سواء المتقدمون منهم مثل المؤلف المجهول لكتاب « حدود العالم » أو المتأخرون مثل حمد الله قزوينى وميرخوند وخوندمير . ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة ، غير أن المادة التى جمعها كانت بمثابة الأساس المتين بالنسبة لكثيرين . وقد عرف كتابه فى الدوائر العلمية الأوروبية فى مخطوطتين منذ الستينيات من القرن الماضى وأصبح فى متناول الأيدى بفضل الطبعة العلمية التى استخدم فى إخراجها مخطوطة ثالثة أفضل من المخطوطتين الأولتين وظهرت مع ترجمة فرنسية لدى خويه De Goeje فى عام ١٨٨٩ . وقد اجتذب اهتمام العلماء الروس بصورة خاصة وصفة للطرق التى كان يسلكها الروس ، وقد ظهرت فى السنوات السبعينيات من القرن الماضى[٢٥] أبحاث هامة فى هذا للمستشرقين كونيك Kunik وروزن Rosen ، كما ندين بتحليل عام للكتاب للمؤرخ الكبير بارتولد[٢٦] . 151

وإلى طبقة موظفى الدولة ينتمى معاصر لابن خرداذبه هو الجغرافى والمؤرخ اليعقوبى ، واسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى اليعقوبى ؛ ويرد اسمه فى المصادر بصيغ مختلفة من هذا النسب الطويل فهو مرة أحمد الكاتب وأخرى أحمد بن يعقوب وتارة ابن واضح وطوراً اليعقوبى ؛ وجده الأعلى واضح كان من موالى الخليفة المنصور وشغل يوماً وظيفة الحاكم على أرمينيا ومصر ودفع حياته ثمناً لميوله الشيعية ؛ وقد ظلت هذه الميول الشيعية فى الأسرة إلى عهد مؤلفنا . وكان جده ووالده أيضاً من كبار عمال البريد ، ولايعرف على وجه التحديد ما إذا شغل اليعقوبى نفسه بعض المناصب الحكومية ولكن يمكن افتراض هذا من أسفاره العديدة . وعلى الرغم من أن مولده ببغداد إلا أنه غادرها مبكراً فعاش طويلا بأرمينيا وخراسان وزار الهند وفلسطين وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب . وكتابه فى الجغرافيا بعنوان « كتاب البلدان » معروف إلى يومنا هذا

فى مخطوطة فريدة كان قد جلبها من المشرق مخلينسكى A. Mukhlinski (١٨٠٨ — ١٨٧٧)[٢٧] الأستاذ بجامعة بطرسبرغ ، وهى الآن بميونيخ . وثمة مخطوطة أخرى كان يمتلكها المستشرق ف . كرن F. Kern (١٨٧٤ — ١٩٢١) ودخلت منذ عهد غير بعيد إلى المكتبة الملكية البروسية[٢٨] ولكنها لم تدرس حتى الآن[٢٩] . ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى حوالى سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ أى قبل قليل من وفاة المؤلف على ما يظهر التى حدثت عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ أو عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥[٣٠] .

وقد بدأت ميول اليعقوبى تتكيف منذ عهد مبكر ولم تلبث أن اتخذت اتجاهاً واضحاً نحو الجغرافيا بالذات ، وهو يبين هذا بجلاء فى مقدمة كتابه حيث يقول :

« إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأنى سافرت حديث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى . . . لدته ما هى وزرعه ما هو وساكنيه من هم من عرب أو عجم . . . شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم . . . ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمنزا ...[٣١] مسافة ذلك البلد وما يقرب منه من البلدان والـ ... لرواحل ثم أثبتُ كل ما يخبرنى به ممن أثق بصدقه واستظهر بمسئلة قوم بعد قوم حتى سألتُ خلقاً كثيراً وعالماً 152 من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبتُ أخبارهم ورويت أحاديثهم وذكرتُ من فتح بلداً بلداً وجند مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلا وأضيف كل خبر إلى بلده وكلما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمتْ عندى معرفته وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ولا يبلغ البشر النهاية وليست شريعة لابد من تمامها ولادين لا يكمل إلا بالإحاطة به وقد يقول أهل العلم فى علم أهل الدين الذى هو الفقه مختصر كتاب فلان الفقيه ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير مختصر كتاب كذا فجعلنا هذا الكتاب مختصراً لأخبار البلدان فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على ما لم نضمنه كتابنا هذا فلم نقصد أن نحيط بكل شىء وقد قال الحكيم ليس طلبى للعلم طمعاً فى بلوغ قاصيته واستيلاء على نهايته ولكن معرفة ما لم يسع جهلهُ ولا يحسن بالعاقل خلافه وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ومَنْ يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام وتأريخ ذلك فى سنته وأوقاته ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه فى شدة حره وبرده ومياهه وشربه »[٣٢] .

هذا وقد وفى اليعقوبى بوعده فخرج الكتاب وفقاً لمقاله ، إذ التزم فيه المؤلف بدقة الخطة التى وضعها فى تبويب مادته . غير أن العرض العام يخرج من حد التناسق بعض الشىء فقد أسهب المؤلف فى وصف بغداد وسامرا بحيث أخذ ذلك ربع الكتاب تقريباً . وبعد الفراغ من وصفهما يستمر فى قوله :

« وقد ذكرنا بغداد وسر من رأى وبدأنا بهما لأنهما مدينتا الملك.ودار الخلافة ووصفنا ابتداء أمر كل واحدة منهما فلنذكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة ومدينة على قسم أربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة وهو مطلع سهيل الذى يسميه الحُسّاب التَّيْمَن ومهب الشمال وهو كرسىّ بنات نعش الذى يسميه الحساب الجدى ونصفُ كل بلد إلى الربع الذى هو منه والذى يتصل به وبالله التوفيق »[٣٣] .

وقد التزم المؤلف فى جميع كتابه هذا المنهج فى الوصف أى حسب الجهات الأصلية الأربعة ، فالقطاع 153 الأول شمل الكلام على إيران وتركستان وأفغانستان مع فصول مفردة لحكام خراسان وسجستان ؛ والثانى يشمل غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية ؛ والثالث يشمل العراق الجنوبية والشرقية وشرقى الجزيرة العربية والهند والصين ؛ أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا . والقسمان الثالث والرابع من الكتاب مفقودان فى المخطوطة ؛ وثمة عشر صفحات من المخطوطة عبثت بها يد البلى بصورة ضاعت معها خاتمة وصفه للبصرة ووصفه لبلاد العرب الشرقية وخوزستان وفارس والهند وجميع الشمال وبداية الغرب[٣٤] .

ومن المستحيل إنكار النزعة التجديدية فى هذا التقسيم على أساس الولايات ؛ أما طرق المواصلات فقد نالت اهتماماً كافياً بالرغم من أن المراحل لم تضبط بالدقة التى التزمها ابن خرداذبه . واهتمام اليعقوبى يتجه بالذات إلى الجانب الاحصائى الطوبوغرافى ، وهو يولى عناية كبرى للخراج ؛ ولكن كتابه يحفل أيضاً بمسائل الاثنوغرافيا والصناعة والفنون . وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبى العلمية وتفرده بمعلومات وافية لا توجد فى المصادر الأخرى . ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامرا أهمية منقطعة النظير ، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفاً لأفريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أراضى الخلافة على يد الفاطميين وأنه أورد أخباراً قيمة عن الأندلس من بينها خبر إغارة النورمان عليها فى سنة ٨٤٤ حيث ترد فى صدد ذلك عبارته التى اشتهرت بالتالى وهى « الذين يقال لهم الروس » ، مما أدى إلى اشتهار اسم اليعقوبى فى الدوائر العلمية وظهور عدد من الأبحاث حول هذا . وأول من لفت الأنظار إلى ذلك فرين فى عام ١٨٣٨[٣٥] اعتماداً على المخطوطة التى اكتشفها مخلينسكى قبل ذلك بقليل ؛ وقد جمع فرين بما عهد فيه من الدقة كل ما استطاع جمعه عن المؤلف وكتابه ؛ وفى نفس العام بين سنكوفسكى Senkovski لجمهرة القراء أهمية الاكتشاف الذى قام به فرين وذلك فى مقال له بعنوان « أصل الروس » O Proiskhojdenii Russov[٣٦] . وبعد عشرة أعوام من هذا تمكن رينو استناداً على بحث فرين من تعريف الدوائر العلمية العريضة فى أوروبا بشخصية المؤلف وذلك فى مقدمته المشهورة فى الجغرافيا العربية[٣٧] . وقد أصبح المتن فى متناول الأيدى بفضل الطبعات الجزئية والترجمة بقلم دى خويه (١٨٦٠) وينبول Juynboll (١٨٥٦١) وتلى هذا أن ضمنه هركفى Harkavi فى عرضه العام (١٨٧٠)[٣٨]

ورجع إليه كونيك مرة أخرى فى مقال واف عالج فيه مسألة ذكره للروس[٣٩]. ولم تلبث أن ظهرت طبعة جديدة للكتاب بواسطة دى خويه (١٨٩٢) ، وتم تتويج كل هذا بظهور ترجمة نموذجية للكتاب بقلم ڤييت G. Wiet (١٩٣٧) تحتوى على تعليقات وافية .

أما من الناحية الأدبية فإن كتاب اليعقوبى يمتاز على كتاب ابن خرداذبه بصورة قاطعة رغماً من أنه قصد به نفس الوسط من القراء الذين كتب من أجلهم ابن خرداذبه . 159 وهو قليلا ما يكترث للنظرية الجغرافية بل هدفه إعطاء لوحة عامة للبلدان لمن يريدون الإلمام السريع بها . وقراؤه ، باستثناء المطلعين والراغبين فى المعرفة ، هم على ما يبدو موظفو الدولة العديدين الذين كانوا يبتغون تعريف أنفسهم ببلد أو آخر قبل الذهاب إليه . وهو ليس بعرض جاف للطرق على طراز ابن خرداذبه بل يقرب أكثر من النمط المتأخر « لكتاب المسالك والممالك » كما عرفته المدرسة الكلاسيكية فى القرن العاشر ، أضف إلى هذا أن أسلوبه علمى مبسط وسهل المأخذ . ويحس فى الكتاب نزعة المؤلف إلى التحليل العقلى ، ولا عجب فهو يخلو من أى أثر للعجائب Mirabilia التى افتتن بها المؤلفون الآخرون .

وقل أن تقابلنا اقتباسات أو نقل من كتاب اليعقوبى لدى المؤلفين المتأخرين ، غير أن القليل الذى وجد منها يرجع إلى أسماء معروفة فى ميدان الجغرافيا مثل الإدريسى وياقوت وأبى الفداء ، ويعتبره الأخير مصدراً هاماً يمكن وثوق به . وبخلاف مصنفه الجغرافى هذا فقد وصلنا عن اليعقوبى أيضاً كتاب فى التاريخ هو « تاريخ اليعقوبى » فى جزئين ، وهو مصنف له مكانته فى ميدان التاريخ أضف إلى هذا أنه يحفل بالمادة الجغرافية أو على الأصح الاثنوغرافية . وعلى أية حال فوفقاً لما جاء فى المقدمة التى سقنا شذرة منها فيما سبق من الكلام فإن اليعقوبى يعتبر نفسه جغرافياً قبل كل شىء . هذا وقد كان مجال نشاطه الأدبى من السعة بحيث لم يكن غريباً عليه قرض الشعر ، وتنسب إليه فى هذا الصدد أبيات قالها حين زيارته للطولونيين بمصر[٤٠].

وعلى النقيض من اليعقوبى فإنه يغلب عند البلاذرى جانب التاريخ على جانب الجغرافيا ، بل إنه يحتل مكانة مرموقة فى الميدان الأول لمحاولته تطبيق المنهج البراغمى (Pragmatic) فيه ؛ ويمكن اعتباره ليس جامعاً فحسب بل ومؤرخاً بمعنى الكلمة . ولقد حفظ لنا البلاذرى مادة هامة فى محيط الجغرافيا التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها فى عرض للأدب الجغرافى . وكان البلاذرى مقرباً أيضاً من بلاط الخلفاء كمعاصريه اللذين مر ذكرهما قبل قليل ، ولكن لا فى مرتبة الموظف الكبير بل فى مرتبة أكثر تواضعاً وهى التدريس ؛ وكان من تلامذته الشاعر والأديب الذى استخلف « ليوم واحد » عبد الله بن المعتز . ويجب أن نطرح القصة التى تحيط بأصل لقبه وهو أنه سمى بذلك لأنه كان يفرط فى أكل البلاذر حتى مات من جراء ذلك ، إذ ليس مألوفاً لدى العرب إضافة النسبة عقب وفاة صاحبها ، فضلا عن أن جده قبله كان يحمل هذا اللقب[٤١] .

ويهمنا من الناحية الجغرافية مصنفه الأصغر «كتاب فتوح البلدان » وهو أشبه بتاريخ للفترة الأولى
156 للفتوحات الإسلامية ، ويمثل للأسف موجزاً للكتاب الأكبر . أما مضمونه فيشمل قصة كفاح محمد ضد أعدائه بعد هجرته إلى المدينة ، وحروب الردة ، وفتح الشام والجزيرة وأرمينيا ومصر والمغرب والعراق وفارس ، مع ذكر بعض الحوادث التالية لذلك . وتتركز قيمة الكتاب فى أنه لا يمثل تاريخاً عسكرياً جافاً ؛ بل إن البلاذرى يورد بكل دقة الأخبار المحلية عن السكان والهجرات والأبنية الشهيرة . وهو يقدم لنا تفاصيل عديدة من مجال التاريخ الحضارى كمسألة دخول اللغة العربية الدواوين ، وعن الخراج ، وعن مسائل السكة ، وتاريخ الكتابة العربية . وقليلا ما يشير البلاذرى إلى مصادر مكتوبة ، ولعل هذا يفسر وجود عدد من الأخطاء التاريخية فى صلب الكتاب . ولايخلو من أهمية بالنسبة لنا فى الاتحاد السوفيتى المادة التى يوردها عن أذربيجان وأرمينيا والتى ترجمت إلى الروسية . وفى الأعوام الأخيرة أخذ يتحقق مشروع إصدار طبعة علمية لكتابه الكبير فى التاريخ الذى انتظرت الدوائر العلمية طويلا صدوره ، وهو ذو قيمة كبرى فى ميدان التاريخ الإسلامى ولكنه يختلف فى تبويبه عن بقية المؤلفين* .

وقرب نهاية القرن التاسع كانت أنماط الأدب الجغرافى تقف متنوعة فى صورها ، فإلى جانب المصنفات التى وضعت من أجل الإداريين وعمال الدواوين نلتقى بكتاب جامع على منهج مؤلفات الجاحظ قصد به إمتاع المثقفين ذلكم هو «كتاب البلدان » لابن الفقيه الهمدانى الذى تم تأليفه حوالى عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولا نعلم عن المؤلف شيئاً ما ، وكل ما استطاع أن يذكره عنه صاحب « الفهرست » فى نهاية القرن العاشر أنه كان من أهل الأدب وأن اسمه أحمد(٤٢) ؛ وأغلب الظن أنه من مدينة همدان Hamadan بإيران وكان خبيراً بالرواية والأدب وله كتاب آخر عن الشعراء معروف من عنوانه فقط . ومؤلفه الجغرافى كان فى الأصل ضخم الحجم يشتمل على خمسة أجزاء فى حوالى ألفى صفحة على ما يقال ، ولكنه معروف فقط فى مختصره الذى عمله على الشيزرى فى عام ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ ، أى بعد حوالى مائة عام من تاريخ تأليفه .

وينقل ياقوت عن المسودة الأصلية شذرات كبيرة ؛ أما المقدسى فيقف من الكتاب موقف الحذر حين يقول :

« ورأيت كتاباً صنفه ابن الفقيه الهمدانى فى خمس مجلدات سلك طريقة أخرى ولم يذكر غير المدائن العظمى وأدخل فيه فنوناً من العلوم مرة يزهد فى الدنيا ودفعة يرغب فيها ووقتاً يبكى وساعة يضحك ويلهو وأما كتاب الأمصار للجاحظ فصغير وكتاب ابن الفقيه فى معناه غير أنه أكثر حشواً وحكايات

---

* يعنى المؤلف بذلك « أنساب الأشراف » وقد أخرجت دار المعارف بالقاهرة الجزء الأول منه ، ونرجو أن يحالفهم التوفيق فى إخراج بقية أجزاء هذا السفر الهام . (المترجم)

158 واحتججنا بأننا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرج فيها الناظر إذا مل ، وربما كنت أنظر فى كتاب ‖ ابن الفقيه فأقع فى حكايات وفنون انشأ أين كنت من البلدان ولم أستحسن أنا هذا »[٤٣] .

والحق إلى جانب المقدسى ، إذ أن ارتباط أسلوب ابن الفقيه بأسلوب الجاحظ أمر غير مشكوك فيه وغلبة هذا الأسلوب لديه شىء واضح للجميع ؛ وليس كتابه إذا حكمنا من مختصره مصنفاً جغرافياً بالمعنى الدقيق للكلمة بل مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامى تذخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص . وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارئ العام لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد . وبعض الأمثلة التى سقناها فيما مضى تصور بما فيه الكفاية ذوق ابن الفقيه الأدبى . ومصادر ابن الفقيه متنوعة بشكل كبير فجميع المؤلفين الذين مر ذكرهم على وجه التقريب وجدوا مكاناً فى مصنفه وأحياناً فى مقتطفات كبيرة كالجاحظ[٤٤] وابن خرداذبه والتاجر سليمان[٤٥] والبلاذرى وربما الجيهانى أيضاً[٤٦] . والمقدسى محق أيضاً من ناحية أخرى وهى اتهامه لابن الفقيه بالافتقار إلى خطة يسير عليها فى مؤلفه ، ويكفى لإثبات هذا أن نورد عناوين الفصول ورؤوس الموضوعات التى يعالجها فى القسم الأول من كتابه : فى خلق الأرض والبحار المحيطة بها وما فيها من العجائب ، الفرق بين الصين والهند ، مكة والكعبة ، الطائف ، المدينة ومسجدها ، فرق ما بين تهامة ونجد ؛ اليمامة ، والبحرين ، اليمن ، انقلاب الهزل إلى جد والجد إلى هزل ، فى مدح التجوال ، مصر والنيل ، البلاد الواقعة إلى جنوبها (النوبة والحبش والبجة) ، المغرب ، المقدس ، دمشق ، العراق ، الروم ، مدح الآثار المشهورة وذمها ، الكوفة وقلعة الخورنق (مع مجموعة من الملاحظات التاريخية والاستشهادات) ، البصرة ، فارس ، أذربيجان ، أرمينيا الخ . ولإعطاء فكرة عن ميله إلى الحشو والاستطراد الذى أشار إليه المقدسى من قبل نذكر أنه عند الكلام على عين ماء قرب همدان وقع ابن الفقيه فى ثلاثة استطرادات مختلفة أحدها عن الماء مع مدح الماء العذب والثانى محاورة بين منتصر للعراق وممجد لهمدان ومنقص من شأنهما والثالث فى حب الأوطان . ويسوق الاستطراد الأخير إلى الاعتقاد بأن ابن الفقيه أصله من همدان .

ومنذ حوالى خمسة عشر عاماً اكتشفت بمدينة مشهد مخطوطة تحوى الجزء الثانى من المسودة الكبرى لكتاب ابن الفقيه ويبدأ على وجه التقريب بالكوفة . ولعل الدارسة والفحص الدقيق قد يسفران عن تفاصيل هامة فيه ، غير أن الفكرة العامة عن ‖ مصنفه ستستمر فى الغالب على ما كانت عليه دون تبديل . 159 وإذا كان كتاب ابن الفقيه لا يرقى إلى مصاف عدد من مؤلفات معاصريه فى ميدان الجغرافيا إلا أنه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحياناً على مستوى أعلى إذ يقدم لنا لوحة معبرة للنزعات والاتجاهات الأدبية للمجتمع العربى المثقف فى نهاية القرن التاسع[٤٧] . وابن الفقيه غير مجهول للمستشرقين الروس فهو إلى جانب ما يورده من معلومات عن تركستان والقوقاز[٤٨] يصف طريق سير التجار اليهود والروس ،

وقد نقل ذلك عن ابن خرداذبه . وهو موضوع دفع إلى ظهور عدد من الأبحاث من بينها بحث خاص لكونيك Kunik[٤٩] ؛ ومن الممكن أن تلقى مخطوطة مشهد ضوءاً على بعض جوانب هذه المسئلة .

ومعروف بصورة أفضل من هذه للمؤرخين الروس الجغرافى الفارسى أبو على بن رسته الذى كتب بعد عشر سنوات من ابن الفقيه وذلك بين عامى ٢٩٠ هـ =٩٠٣ و٣٠٠ هـ = ٩١٣ . ويرى ماركفارت أن تاريخ تأليفه لكتابه يرجع إلى عام ٣١٠ هـ = ٩٢٣ ، ذلك لأنه يعتبر المصدر الأساسى لابن رستة كتاب الجيهانى فى الجغرافيا الذى تم تأليفه بحسب رأى ماركفارت فى حوالى ذلك الوقت[٥٠] . ومن العسير بالطبع قبول هذا الرأى ، بل إن بارتولد يتشكك فى صحة الزعم القائل بأن ابن رسته قد رجع إلى ابن فضلان فى قصته عن الروس . ويلوح أن الرأى الأكثر قبولاً الآن هو أن الكتاب قد تم تأليفه بعد قليل من عام ٢٩٠ هـ =٩٠٣[٥١] ، ويندر الآن وجود من يقول بإرجاع زمن تأليفه إلى عام ٩١٣ كما كان سائداً من قبل[٥٢] . وتستند شهرة ابن رستة لدينا على كتاب خفولسون Chwolson العتيق (١٨٦٩)[٥٣] الذى أثبت على مدى طويل الصيغة الخاطئة لاسمه وهى ابن دسته ؛ وهذا الكتاب لم يوضح سوى جانب واحد من المادة المتعلقة بوصف الشعوب التى كانت تقطن الاتحاد السوفيتى والأصقاع المتاخمة له . أما المؤلف نفسه فلا نعرف عنه سوى القليل وهو أن أصله من أصفهان وأنه كان بالحجاز على ما يظهر فى عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولم يتبق لنا من موسوعته الضخمة « الأعلاق النفيسة » سوى الجزء السابع فى الفلك والجغرافيا وهو موجود فى مخطوطة فريدة[٥٤] ؛ ويمكن أن يعتبر ابن رسته أستاذاً للكوزموغرافى القزوينى . وابن رسته يتوخى الحذر فى كتابته كى لا يتهم بحرية الفكر فهو يعتمد على شواهد من القرآن لإثبات التنجيم ، وعرضه للجغرافيا الفلكية والرياضية واف جداً ويعتمد فى ذلك على الفرغانى وأبى معشر المعروفين لنا جيداً ولكنه لا يخلو من تأثير عرض ابن خرداذبه[٥٥] . | 160 | أما الجغرافيا الطبيعية لديه فتبدأ بوصف مكة والكعبة مع تحديد الأبعاد بدقة متناهية ولكن وصفه يفتقر إلى الحيوية ؛ ويلى وصف المدينة قسم مكرس لجميع صنوف العجائب من العالمين النباتى والحيوانى وللمبانى الشهيرة ، ثم يعقب هذا وصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة بما فيها من المدن المشهورة . وفى وصفه للأقطار يفرد أهمية خاصة لإيران ولكنه لا يهمل الكلام على بلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء والعراق ومدينة بغداد ومصر . وفيما يتعلق بالقسطنطينية يحدثنا عن موكب الإمبراطور المهيب إلى أياصوفيا ، ثم يصف الكنيسة نفسها ويتحدث عن الساعة الموجودة بها والتى تنسب صناعتها إلى أبولون التيانى Apollo of Tean . وطبيعى أن تختلف قيمة كل قسم من كتابه عن الآخر ، ويظفر بأهمية خاصة كلامه عن صنعاء والإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالبة والشعوب الأورالية الألتائية (Ouralo-Altaic) * ونواحى

* هى المجموعة اللغوية التى تضم الترك والمغول والتنغوس من ناحية ، والمجر والفنيين Finns وغيرهم من ناحية أخرى . ويميل علماء اللغة الآن إلى فصل هذين الفرعين عن بعضهما البعض . (المترجم)

مدينة أصفهان . كما لا يخلو من الأهمية أيضاً كلامه عن مكة والمدينة ووصفه للأنهار ولنواحى طبرستان ووصف الطرق الوارد فى آخر الكتاب . ويلى هذا استطرادات يحس منها أنها إضافات عارضة ليس هناك ما يربطها على الدوام بالموضوعات الجغرافية (٥٦) .

أما من ناحية العرض والأسلوب فكتاب ابن رسته ينضم إلى ذلك النوع من المؤلفات المفضلة عند جمهرة القراء والتى قصد بها على ما يظهر كتبة الدواوين ، ولكن يتضح لديه الميل الأدبى أكثر مما لدى ابن خرداذبه . وأحياناً يقتصر العرض على سرد الأسماء ، ولكن يحس لدى المؤلف الميل إلى القصص فتوجد لديه مثلا قصة سلام الترجمان التى أسقطها الناشر لأنها تكرر النص المعروف لدى ابن خرداذبه .

وإذا كان ابن رسته فارسياً فقد كان قدامة بن جعفر أرامياً فهو ينتمى إلى أسرة مسيحية من عمال الدولة أقامت بالبصرة وكانت مقربة إلى العباسيين ؛ ولم يعتنق قدامة الإسلام إلا بعد إلحاح شديد من جانب الخليفة المكتفى (٢٨٩ هـ = ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ — ٩٠٨) ، وكان من جراء ذلك أن انفسح أمامه الطريق إلى المناصب العليا فشغل فى أواخر أيام حياته منصب صاحب البريد . ولم يكن هذا هو الشبه الوحيد الذى يربطه بابن خرداذبه بل إن جميع نشاطه وميوله الأدبية تذكرنا بذلك المؤلف ، فهو قد جمع بين العمل الإدارى والاهتمام بالمسائل الأدبية البحتة وترك لنا بضعة مؤلفات . وفى إحدى هذه المؤلفات يقدم لنا نظرية جريئة فى الشعر على طراز ما فعله ابن المعتز ، ينعكس فيها تأثير الفلسفة اليونانية التى من الجائز أن قدامة كان على معرفة بها وفقاً لتقاليد أسرته . وتاريخ وفاته غير معروف على وجه التحديد ويتأرجح بين عامى ٣١٠ هـ = ٩٢٢ و٣٣٧ هـ = ٩٤٨(٥٧) ، ومن المحتمل أن يكون وسطاً بين هذين التاريخين .

وليس لقدامة مصنف جغرافى بالمعنى الدقيق بل لديه مدخل من أجل عمال الدولة هو «كتاب الخراج وصنعة | الكتابة » . وليس فى الاستطاعة الحكم عليه ككل ، وقد تم تأليفه على ما يبدو 161 حوالى عام ٣١٦ هـ = ٩٢٨(٥٨) ، وكان يتكون من ثمانية أقسام لم يصلنا منها سوى أربعة فقط تمثل الجزء الثانى من الكتاب ، وقد نشر من بينها الشطر الذى يتعلق بالخراج . أضف إلى هذا أن حالة المخطوطة لا تبعث كثيراً على الرضى فقد وجدت طريقها إليها من حين لآخر ملاحظات توضيحية أضافها إليها النساخ(٥٩) . والجزء الذى فى متناول الأيدى الآن يذكّر كثيراً بكتاب ابن خرداذبه فقد انصب اهتمامه الأساسى على وصف طرق البريد والولايات مع إيراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضى وجباية الخراج ؛ كما يوجد به استطراد فى تاريخ الفتوحات الإسلامية يستند على البلاذرى . وترد فى صلب العرض معلومات من محيط الجغرافيا الرياضية وأوصاف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة كما يولى اهتماماً كبيراً لجيران العالم الإسلامى . وعلى العموم فمن الأفضل اعتبار القسم المطبوع من كتاب قدامة بمثابة تتمة هامة لابن خرداذبه إذ كثيراً ما يساعد فى تحقيق نقاط عديدة فيه لأنه يعتمد فى أغلب الأحوال

على الوثائق الرسمية لذلك العهد . وقد وضحت أهميته الكبرى فى هذا المجال من أبحاث العلامة اشبرنجر Sprenger (١٨٦٤) .

ومقدمة القسم المطبوع من كتابه تعطى فكرة جلية عن وجهة نظر المؤلف والغاية التى استهدفها والخطة التى سار عليها[٦٠] ، وهى تسمح بتقدير دور البريد فى الدولة العباسية ، وهو الغرض الرئيسى من كتابى ابن خرداذبه وقدامة .

« قال أبو الفرج يحتاج فى البريد إلى ديوان يكون مفرداً به ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحى مقصوداً بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شىء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار فى جميع النواحى على الخليفة أو عمل جوامع لها ويكون إليه النظر فى أمر الفُرُوانقيين* والموقعين والمرتبين فى السكك وتنجُّز أرزاقهم وتقليد أصحاب الخرائط فى سائر الأمصار والذى يحتاج إليه فى صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ والرسوم التى يحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التى بيناها فى غيره مما يضبط به أعماله وأحواله فاما غير ذلك من أمر الطرق ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحى فإنا لم نذكره ولا غنى بصاحب هذا الديوان 162 أن يكون معه منه ما لا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره وما أن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه وجد عتيداً عنده ومضبوطاً قِبَله ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسئلة عنه فينبغى أن نكون الآن نأخذ فى ذكر ذلك وتحديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل فى مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة وهو المنسك العظيم وبيت الله الأقدم ونأخذ بعد البلوغ إليه بذكر ما بعده من الطريق إلى اليمن ثم فى سائر الجهات المقاربة له وتسميته إن شاء الله » .

فى هذه المقدمة نبصر مرة أخرى كيف استحثت المطالب الدنيوية على تأليف الأوصاف الجغرافية التى انضمت إلى الجغرافيا الفلكية لتقدم لنا عرضاً عاماً شاملا مترابط الحلقات ابتداء من القرن التاسع .

وإلى جانب هذه المصنفات الجغرافية العامة فقد أسهم القرن التاسع فى تدعيم الأشكال المختلفة للجغرافيا الإقليمية المحلية ؛ وهذه الأخيرة لم يكن فى طوقها أن تدعى حق الانضواء تحت ما يمكن أن يعتبر عرضاً عاماً للأدب الجغرافى إذ كثيراً ما طغت فيها المادة التاريخية ، أو الأسطورية بتعبير أدق ، على الجغرافية . ولم يكن أمراً نادراً أن تتحول هذه المصنفات إلى مجموعات تعالج سير الشخصيات الكبرى التى اشتهرت فى الأماكن والبلدان المختلفة ، هذا إلى أنه يمكن أن يلاحظ فيها تطور طراز « الفضائل » .

* من فرانق معرب بروانك الفارسية وهو البريد أو الذى يدل صاحب البريد على الطريق . (المترجم)

المعروف لنا جيداً ، أعنى بذلك ذكر مناقب الأماكن المختلفة استناداً إلى الأحاديث النبوية . ونادراً ما تكون المادة الجغرافية فيها سهلة المأخذ إذ يجب انتزاعها انتزاعاً من الروايات والأخبار التى قلّ أن تمس المسائل التى نعالجها . وعلى أية حال فإنه يلاحظ فى هذا الميدان ميلاد أشكال جديدة حية تتعلق بالقواعد الجغرافية العامة ، بل إنه أنتج لنا فى القرن العاشر مصنفاً هاماً ؛ ومن العسير أن نستعرض جميع أمثلته ونماذجه ولكن من الضرورى أن نعطى فكرة عامة عن أشكاله المختلفة .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام العلماء فى ظروف ذلك العهد إلى « المدن المقدسة » ، كما اتجه اهتمام اللغويين من قبل إلى بلاد العرب . ونلتقى فى القرن التاسع بمؤلِّفَيْن على الأقل كتبا فى تاريخ مكة ،أحدهما هو الأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤ هـ = ٨٥٨)[٦١] والآخر الفاكهى (المتوفى حوالى عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥)[٦٢] ، وينحدر الأول من أسرة تنتسب إلى آل غسّان وتربطها الرواية بالحديث النبوى . وهذا 163 النوع من المصنفات فى تواريخ المدن انبعث نتيجة لاهتمام المسلمين بالأماكن المقدسة وحاجتهم إلى مصنف يكون أشبه بدليل جغرافى للتعريف بنواحيها ووصف الشعائر الدينية المرتبطة بهذا . وقد أسبغت عليها الأساطير القديمة التى ترجع إلى التوراة والتلمود طابعاً مميزاً فهى تتكون غالباً من مقدمة يليها وصف الكعبة وتاريخها المتأخر ووصف الأبنية المحيطة بها ، ثم يعقب هذا تعداد الدروب والأحياء بمكة مع ذكر عدد كبير من الأسماء ؛ أما المادة الجغرافية فضئيلة للغاية ولكنها ذات قيمة كبرى بالنسبة لتاريخ نشأة مكة ونموها[٦٣]. وقد تعاقب بعد الأزرقى عدد من المؤلفين كانوا متممين لعمله وتمتعت مؤلفاتهم بالشهرة عند الجمهور إلى الآونة الأخيرة . ويرجع الفضل فى إلمامنا بهذا الفرع من الأدب إلى أبحاث ڤستنفلد الذى نشر « أخبار مكة » فى أربعة أجزاء (١٨٥٧ — ١٨٦١) ختمها بآخر ممثل لهذا النمط الجغرافى وهو النهروالى من أهل القرن السادس عشر (توفى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢)[٦٤]

والطابع الغالب على تواريخ المدن هو أن تحتوى المقدمة على الجانب الجغرافى الذى يعطى وصفاً طوبوغرافياً للمدينة ، بينما تتحكم فى بقية مادة الكتاب السِّير ، أى تراجم حياة المشاهير من أهل تلك المدينة . ومن العسير الجزم هل وجدت مثل هذه المقدمة عند أول مؤرخ لبغداد وهو أحمد بن أبى طاهر طيفور (توفى عام ٢٨٠ هـ = ٨٩٣)[٦٥] ، إذ لم يعثر إلى الآن سوى على الجزء السادس من تاريخه وهو يحوى مادة تاريخية صرفة . ومثل هذه المقدمة موجودة عند خلفه المشهور الخطيب البغدادى (توفى عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١)[٦٦] الذى يقدم لنا فى « تاريخ بغداد » تراجم لنحو من ثلاثين وثمانمائة وسبعة آلاف شخص فى أربعة عشر جزءاً . وهذه المقدمة تمثل بالتقريب جميع المادة الجغرافية للكتاب ، وقد بينت أهميتها بالنسبة لتاريخ تخطيط المدينة الترجمة الفرنسية التى قام بها سلمون Salmon (١٩٠٤) . واستخراج المادة الجغرافية من هذا النوع من المصنفات لا يمثل على الدوام جهداً يسيراً ، ويصدق هذا بصورة خاصة على أضخم مصنف من هذا النوع فى الأدب العربى ، أعنى « تاريخ دمشق » فى ثمانى عشر

مجلداً لابن عساكر (توفى عام ٥٧١ هـ = ١١٧٦) ، خاصة وأنه يوجد فى طبعة لا تبعث كثيراً على الرضى .

هذا النوع من تاريخ المدن الذى يتضح فيه الميل إلى وصف خططها قد نال انتشاراً واسعاً فى الأدب العربى بحيث لا تكاد توجد مدينة كبرى فى العالم العربى إلا ولها مؤرخها من هذا النوع . وبعض 164 هذه المؤلفات يمثل أحياناً أهمية خاصة من وجهة نظر الجغرافيا التاريخية فى أوسع مدلولها ويصدق هذا بصورة خاصة على « تاريخ بخارى » للنرشخى (توفى عام ٣٤٨ هـ = ٩٥٩)[٦٧] . وقد كتب هذا المصنف بأسلوب لا يخلو من الصنعة ، وقدمه مؤلفه إلى نوح بن نصر السامانى حوالى عام ٩٤٣ ثم ترجم إلى الفارسية فى القرن الثانى عشر ، وهى التى وصلتنا وذلك فى صورة معدلة ترجع إلى أزمنة متأخرة . هذا وقد قدر مؤرخو تركستان قيمته منذ عهد طويل وأخضعوه لدراسة منظمة ، وفى الحقيقة أن التنقيحات والاختصارات والزيادات التى لحقت بهذا الكتاب[٦٨] تبرر بالكاد نسبته إلى النرشخى ، ولكن بالرغم من هذا الشكل الذى آل إليه أخيراً فإنه يحتفظ بالكثير من أخبار بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام وفى فترة الفتوحات العربية . كما لا تخلو من قيمة المعلومات ذات الطابع الجغرافى التى يوردها عن المناطق المأهولة حول بخارا والمبانى والمحاصيل وأساليب الحياة المتخلفة عن العهد السابق لدخول الإسلام إلى تركستان[٦٩] .

ويتميز بنفس هذه الدرجة من الطرافة كتاب مفقود هو « التاريخ فى أخبار ولاة خراسان » لعلى السلامى الذى يرجع تأليفه إلى حوالى عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ، وقد أفاد منه كثيراً المؤرخون المتأخرون مثل كرديزى وابن خلكان ، وعلى الأخص ابن الأثير الذى كان هذا الكتاب يمثل بالنسبة له المصدر الأساسى لتاريخ خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويتضح مما نقلوه عنه أنه كان كتاباً حافلا بشتى صور الحياة اليومية والمعلومات الجغرافية .

وقد اكتسب الأدب الجغرافى – الطوبوغرافى انتشاراً واسعاً خاصة فى مصر ، حيث يمكننا أن نتتبع منذ النصف الثانى للقرن التاسع ميلاد نوع فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم « الخطط » ، أى وصف الأحياء والنواحى . وقد استمر هذا النمط فى سيل لا ينقطع ، بل ليس من العسير أن نتبين آثار مولده لدى أول مؤرخ لمصر وهو ابن عبد الحكم (توفى عام ٢٥٧ هـ = ٨٧١)[٧٠] فى كتابه « فتوح مصر » ؛ وهو يقع فى خمسة أبواب يفرد الثالث منها لوصف خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية ؛ وقد ورد فى الشطرين الأولين من هذا الباب لفظ « خطة » . ويعوز المؤلف الكثير من الموهبة النقدية ، ومع ذلك فيجب تقدير كتابه بوصفه أول مؤلف يصل إلينا من هذا النوع . وأوضح دليل على قيمته أن المؤرخين المتأخرين قد أفادوا منه كثيراً ، ولا يقتصر هذا على المصريين وحدهم من أمثال المقريزى والسيوطى بل تعداه إلى غير المصريين مثل ياقوت : ويرى المقريزى أن أول من ألف فى هذا الباب هو محمد بن يوسف الكندى (توفى عام ٣٥٠هـ=٩٦١) صاحب كتاب « تاريخ ولاة مصر وقضاتها »[٧١] ،

165 إذ يبدو أنه وضع مصنفاً بعنوان « الخطط »[٧٢] لم يصل إلينا ، كما أن ابنه عمر بن محمد الكندى وضع رسالة بعنوان « فضائل مصر »[٧٣] سار فيها على نمط النهج القديم للمؤلفين الأوائل من العصر الأموى ؛ وفى الوقت نفسه جمع مؤرخ العهد الفاطمى ابن زولاق (توفى عام ٣٨٧ هـ = ٩٩٧)[٧٤] مجموعة من الفضائل من هذا النوع اعتماداً على الأحاديث النبوية ؛ وهو أيضاً ممن اهتموا بخطط مصر. هذا وقد استمرت الرواية الأدبية فى مصر متواترة أكثر مما فى غيرها من البلاد العربية الأخرى لذا فإن جميع الأنماط الأدبية التى تميزت ولو بقليل من الحيوية وجدت من يتممها ويسير فيها من رجالات الأجيال التالية . وفى القرن الحادى عشر وضع المؤرخ المعروف القضاعى (توفى عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢)[٧٥] مصنفه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، وهو مصنف اجتذب أيضاً أنظار ياقوت والمقريزى مرات عديدة . وفى القرن الثانى عشر وضع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز (المتوفى عام ٥٢٩ هـ = ١١٣٤)[٧٦] ، وهو طبيب وشاعر وفلكى وعالم بالطبيعيات أصله من الأندلس ، كتاباً بعنوان «الرسالة المصرية » قدم فيه من ناحية تراجم لسير المشاهير ومن ناحية أخرى وصفاً طوبوغرافياً ؛ وهو معروف بدوره جيداً للمؤلفَيْن اللذَيْن مر ذكرهما .

هذا وقد شقت الجغرافيا الإقليمية لنفسها طريقاً إلى المغرب ، ويمكن أن نشير فى خلال القرن العاشر إلى محمد بن يوسف الوراق (توفى عام ٣٦٣ هـ = ٩٧٣) الذى عاش فى القيروان وقرطبة وأفرد لوصف المغرب كتاباً يحمل العنوان المعهود لنا «كتاب المسالك والممالك »[٧٧] . ولم يصلنا هذا الكتاب ولكن البكرى يدين له لا بعنوان كتابه فحسب بل بمقتطفات عديدة كما يتضح ذلك من نقوله عنه[٧٨] . وأول من أدخل نمط الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس مؤرخها الكبير أحمد بن محمد الرازى التاريخى (توفى عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥)[٧٩] المشهور فى أوروبا باسم Elmore Elrasis ، والذى حفظ لنا مصنفه التاريخى فى ترجمة قشتيلية ترجع إلى عهد متأخر ونقلت بدورها عن ترجمة برتغالية مفقودة* . وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتاباً كبيراً فى طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية الستة التى نزلتها بعد الفتح . وبالرغم من أن استعمال مصنف مر بترجمتين أمر معقد فإن كتاب الرازى مصدر هام جداً لمعرفة الأحوال الجغرافية فى الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث ، أى عهد ازدهار خلافة قرطبة[٨٠] . ويبدو أنه وضع أيضاً مصنفاً خاصاً بقرطبة هو «كتاب فى وصف قرطبة » على طراز كتاب ابن طيفور فى وصف بغداد ؛ وترد فيه تفصيلات عن شوارعها وقصور الأعيان بها[٨١] .

* عثر على الترجمة البرتغالية وتم نشرها منذ وقت غير بعيد ، كما تم العثور على شذور من كتاب الرازى لدى بعض المؤلفين المغاربة . راجع عن حياة الرازى مادة الرازى فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم ليڤى بروڤنسال ، واستدرك عليها بالرجوع إلى كتاب الدكتور حسين مؤنس « فجر الأندلس » ، (ص ٥٦١ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٩) ، ومقال الدكتور لطفى عبد البديع الذى ظهر بمجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٢٧٢ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٥ . وأخيراً وليس آخراً المقال الوافى للدكتور حسين مؤنس بعنوان « الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس من البداية إلى الحجارى » (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٩ – ١٩٦٠) . (المترجم)

وليس فى وسعنا إحصاء جميع المؤلفات العربية فى الجغرافيا الإقليمية التى ظهرت فى العصور التالية لذلك ؛ وقد ظل الوصف التاريخى الطوبوغرافى من أهم الأنماط التى افتتن بها المسلمون إلى أيامنا هذه لا فى الأدب العربى وحده بل وفى الأدبين الفارسى والتركى أيضاً .

ومن بين المجموعة الضخمة لمصنفات هذا الأدب التى ترجع إلى القرن العاشر يجب أن نفرد مكانة خاصة لمصنف يقف فريداً فى نوعه هو « صفة جزيرة العرب » للهَمْدانى الذى يعتبره اشبرنجر Sprenger(٨٢) إلى جانب كتاب المقدسى أقيم ما أنتجه العرب فى الجغرافيا. ولم يكن هذا المؤلف معروفاً للعلم الأوروبى قبل السنوات التسعينيات من القرن الماضى ، بل إن معلوماتنا عنه لا تزال ضئيلة للغاية إلى الآن ؛ وهذا أمر قد حدث مراراً لعدد من كبار الكتاب العرب ممن جروا على أنفسهم ريبة أهل السنة فى الأجيال التالية . هذا ومما زاد فى تعقيد المسألة وفى جهل المؤلفين المتأخرين به أن اسمه ورد فى أشكال مختلفة ، فهو الحسن بن أحمد الهمدانى ، وتدل النسبة على أنه من قبيلة هَمْدان المعروفة فى جنوب الجزيرة العربية . وقد جرت النسبة إلى الخلط بينه وبين ابن الفقيه الهَمَدانى الذى مر ذكره والذى أخذ نسبته من مدينة همدان بإيران* ؛ وقد وقع ضحية هذا اللبس علماء كبار منذ منتصف القرن الماضى (٨٣) . ومما ساعد على زيادة الغموض أنه كان يشار إليه أحياناً باسم جده ابن أبى الدمين ، كما لقب أيضاً بابن الحائك الذى أطلقه عليه فيما يظهر خصومه . ولا يعرف عن تاريخ حياته سوى أنه ولد ونشأ بصنعاء وزار مكة وتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ بسجن صنعاء الذى كان سبب الزجّ به فيه كما تزعم الرواية قصيدة هزلية فى حق رسول الله ؛ ولكن الراجح أن يكون السبب فى ذلك دسائس أعدائه ضده .

وفى مصنفاته ترتسم أمام ناظرينا شخصية فذة لوطنى متحمس وعالم متعدد النواحى وشاعر : وقد مرت بنا الإشارة عرضاً إلى معرفته الواسعة فى محيط الجغرافيا الفلكية ؛ وهو لم يكن جغرافياً فحسب بل وخبيراً كبيراً بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ، خاصة آثارها القديمة (Archaeology) ؛ وهو أمر نادر بين العرب . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً | أنه استطاع فك رموز الكتابة العربية القديمة 168 فى جنوب الجزيرة(٨٤) ؛ ويقف مصنفه « الإكليل » الذى يقع فى عشرة أجزاء دليلا ساطعاً على سعة معارفه ؛ فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار بل وحتى بأدب الحميريين سكان جنوب الجزيرة فى القدم . ولم يكتف فى كتابه بعرض المادة الأسطورية التى تجمعت فى الأدب العربى بعد الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية : وإلى عهد قريب لم يعرف من كتابه هذا سوى الجزئين الثامن والعاشر وذلك بفضل أبحاث مولر Müller الذى يرجع الفضل إليه فى التعريف بالهمدانى فى القرن التاسع عشر. وقد نشر وترجم الآن الجزء الثامن بفضل مجهودات العلماء العرب ببغداد وأمريكا(٨٥) ؛ أما الجزآن الأول والثانى فقد كشف عنهما منذ وقت

---

* همدان بتسكين الميم القبيلة وبفتحها المدينة . (المترجم)

غير بعيد ببرلين المستشرق السويدى لوفجرين Löfgren ؛ وعثر على الجزء التاسع بمكتبة البارودى ببيروت[٨٦] . وهكذا لم يعد ثمة مجال فى الوقت الحاضر لتلك الفروض المتشائمة من جانب درنبورج Derenbourg الذى أصر على أن المؤلف لم يتمم من الكتاب سوى الجزئين الثامن والعاشر فقط[٨٧] . أما فيما يتعلق بالكشف عن الأجزاء الباقية فقد راجت إشاعة قوية عن وجود نسخة كاملة بمكتبة الإمام بصنعاء[٨٨] وأجزاء متفرقة باستنبول[٨٩] وفى جنوب الجزيرة العربية[٩٠] بل وفى أماكن نائية مثل جاوه[٩١] .

ولاشك أنه قد اتضح مما اقتبسناه عن الهمدانى فيما مر من هذا الكتاب أن « وصف جزيرة العرب » لا يمكن ضمه بأية حال إلى ذلك النوع من المؤلفات الجغرافية اللغوية المفردة لجزيرة العرب والتى سبق وعالجنا الكلام عليها فيما مر من الكتاب . والهمدانى كان بلا شك على علم تام بالمادة الجغرافية اللغوية التى عرفها المؤلفون السابقون له فى القرن التاسع ، كما كان أيضاً على معرفة تامة بالجغرافيا الفلكية الرياضية ؛ ويمكن تتبع كلا الاتجاهين بوضوح فى كتابه . ومن المستحيل بالطبع القول بأنه وفق فى المزج بينهما فى وحدة تامة منسجمة ، كما من العسير أيضاً القول بأن الهمدانى قد نفذ خطته الأولى بحذافيرها . ومن الواضح أن وصفه لليمن يعتمد على الملاحظة الشخصية مع الإفادة بالطبع من المادة الأدبية التى خلفها السابقون ؛ أما وصف بقية الجزيرة العربية فيعتمد فيه أساساً على الرحالة والحجاج الذاهبين إلى مكة كما يعتمد أيضاً بدرجة كبيرة على مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين فى جزيرة العرب ؛ بل إنه قد يسوق أحياناً شواهد من مصادر غير معروفة لغيره من المؤلفين . 170

وللهمدانى معرفة جيدة ببطلميوس ، وهو يبدأ كتابه بمقدمة رياضية جغرافية وافية يورد فيها ذكر المذاهب المختلفة لتحديد الأطوال والعروض كما يورد فيها أيضاً وصفاً عاماً لمناطق الأرض بحسب توزيعها على الأقاليم السبعة . أما القسم الأساسى من كتابه فقد كرسه لوصف جزيرة العرب ، وهو ينقسم إلى خمسة أبواب رئيسية فى وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . ووصفه بالطبع لا يسير دواماً على نسق واحد أو يتبع خطة محددة فهو يكثر من إعادة الكلام على المناطق التى ذكرها من قبل . وبينما تحتل اليمن مكان الصدارة فى كتابه نجد حضرموت لا تظفر منه إلا بالإشارة الطفيفة والذكر العابر ؛ وبصدد اليمن نراه يفصل فى الكلام على مساكن قبيلته همدان . وهو يكشف دائماً عن معرفة لا تجارى بالآثار والنقوش القديمة التى حاول أحياناً أن يفك رموزها ؛ كما تبدو جلية للعيان معرفته الجيدة بالرواية السماعية والأدبية فهو مثلا يعرف جيداً تقسيم اليمن قبل الإسلام إلى « مخاليف» (جمع « مخلاف » أى ناحية) . وفى خلال كلامه عن اليمن يعود القهقرى من وقت لآخر إلى ذكر حقائق ذات طابع تكميلى عن شمال الجزيرة العربية ولكنه على أية حال يختتم كلامه باليمن ويفرد قسما خاصاً لذكر عجائبها أوعلى

الأصيح خصائصها التى لا يشاركها فيها بلد آخر . ونفس هذا الطابع الفريد تحمله مجموعة الأشعار «الجغرافية التى استخرجها من دواوين الشعراء الأقدمين والوارد فيها ذكر الأسماء الجغرافية المختلفة ، وتضاف إليها أرجوزة جغرافية طويلة تقع فى خمس قصائد ومائة وسبعة وعشرين بيتاً هى أشبه بملحق للكتاب يصف فيها صاحبها أحمد بن عيسى الرّداعى طريق الحج فى بلاد العرب .

لقد تملك الهمدانى ناصية المادة الأدبية بأكملها ؛ ولم تكن مقدرته فى الملاحظة المباشرة بأقل من ذلك فى شىء . ولايزال كتابه محتفظاً إلى أيامنا هذه بقيمته العلمية ؛ وقد أشار الرحالة مالتزان Maltzan المعروف بتجواله فى الجزيرة العربية إلى أنه كثيراً ما يساعد فى دراسة الجغرافيا المعاصرة لجزيرة العرب(٩٠). أما فى مجال الجغرافيا الإقليمية فإن كتاب الهمدانى يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبزه فى القرن العاشر إلا أثر واحد ذلكم هو كتاب « الهند » للبيرونى العظيم .

حواشي الفصـــل الخامس

(١) Kramers EI,EB, p. 65 — Brockelmann, GAL, SBL, p. 404 etc No 2 -

(٢) قارن : « هبة الشمس الجميلة » Barbier de Meynard, Livre des routes, p. 9, notel -

(٣) توضيح فريمان A. A. Freimann

(٤) أخطأ متز Mez في قوله إن ابن خرداذبه معناها « الكوب » Mez, Renaiss., p. 264

راجع توضيح زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ ، ملاحظة ٢ ، ص ٤٥ .

(٥) عن ابن خرداذبه كموسيقى ، راجع : Farmer, p, 169-170 and sui

(٦) الفهرست ، ص ١٤٩

(٧) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٣٧٨ ، ملاحظة ٢

(٨) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ١٣ ؛ الثاني ، ص ٢٧

(٩) Markwart, Streifzüge, p. 390 -

(١٠) حدود العالم ، ص ١٠

(١١) حاجي خليفة ، الجزء الثاني ، ص ١٠١ ، رقم ٢٠٨٦

(١٢) Ruska, GZ, p. 524-528 -

(١٣) Blachère, p. 22-24; يقتطف منها : kimble p. 50-51 -

(١٤) Kremer, Culturgeschichte, I, p. 268-269 -

(١٥) راجع : Kpymski, Narisi, p. 131

(١٦) Ferrand, Relations, I, p. 21-23 -

(١٧) Florilegium, p 267-269 -

(١٨) الترجمة لدى رينو : Reinaud, Introduction, p. LVIII - LIX -

(١٩) راجع : Rozen, ZVO, IV, p. 452

(٢٠) Bartold, SV, I, 1940 -

(٢١) De Goeje, Russes-Normands, p 39-40 — Hennig, II, p. 208-214, 356-360 -

(٢٢) Kunik-Rozen, II, p. 128-131 -

(٢٣) جمعها دى خويه (De Goeje, BGA, VI, p. XII - XIII)

(٢٤) راجع عنها : Rozen, ZVO, I, 1886, p. 225-226

(٢٥) راجع : Kunik-Rozen, II, p. 119-138 -

(٢٦) حدود العالم ، ص ٩ — ١١

(٢٧) راجع عنه : Kotwicz i Kotwiczowna, Coll. Orient, No 8 -

(٢٨) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 3

(٢٩) فى آخر زيارة له لألمانيا نقل عنها المستشرق الروسى بارتولد شذرات محفوظة الآن فى أوراقه بأرشيف أكاديمية العلوم السوفيتية .

(٣٠) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405 No 3

(٣١) النقاط المتتابعة تشير إلى طمس فى المخطوطة .

(٣٢) اليعقوبى ، BGA, VII ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ (قارن : Blachére, p. 117 - 118)
الترجمة لدى : Wiet, Jakubi, 1 - 3 (قارن : Mez, p. 265)

(٣٣) اليعقوبى : BGA, VII ص ٢٦٨ – ٢٦٩ = Wiet, p. 64

(٣٤) شرحه ، ص ٣٢٣ ، ملاحظة د

(٣٥) Frähn, Beleg, p. 131 - 147

(٣٦) Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 149 - 168
= Bibl dlia, Ch, XXIX, 1838, p. 45 - 58)

(٣٧) Reinaud, Introduction, p. LXI

(٣٨) Garkavi, Skazania, p. 59 - 71

(٣٩) Kunik — Rozen, II, p. 151 - 174

(٤٠) راجع مسألة صحة نسبتها إليه ، مع تحليل المتبقى منها لدى :
Z. M. Hassan, Les Tulunides, p. 271 - 273

(٤١) Brockelmann, GAL SBI, p. 216, No 3

(٤٢) الفهرست ، ص ١٥٤

(٤٣) المقدسى ، BGA, III ، ص ٥ – الاختلاف فى المخطوطات لا يؤثر فى الفكرة الأساسية .

(٤٤) الجاحظ ، ص ٢٩٦ ، راجع : Van Vloten, Naturphilosoph, p. 43, note 4

(٤٥) Ferrand, Relations I, p. 3 - 5
وخاصة : Ferrand, Note, p. 309, and 318

(٤٦) يرفض دى خويه (De Goeje, BGA, V, p XI) الفكرة على عكس « الفهرست » (ص ١٥٤) .

(٤٧) راجع : Sprenger, Reiserouten' p XVII - XVIII

(٤٨) Karaulov

(٤٩) Kunik Rozen, II, p. 138 - 151

(٥٠) Markwart, Streifzüge, p. 26

(٥١) Bartold SV, I, 1940

(٥٢) Hudud, p. 168, بحسب مقال : Umniakov, Compendium, p. 1139, note 5

(٥٣) Chwolson

(٥٤) يضيف بروكلمان مخطوطة بكامبردج ، لا علم لنا بها (Brockelmann, GAL, SBI p. 406, No 5)

(٥٥) Blachère, p. 34 - 44 –

(٥٦) راجع : Nallino, Il Valore (= Nallino, Cosmos, Ser. II. V. XII, p. 58, note 26)

(٥٧) سوء فهم لدى : Brockelmann, GAL, SBI, p. 406, No 8 — –

(٥٨) Nallino, Il Valore, p. 56 —Hudud, p. 168 –

(٥٩) Hudud, p. 291, note 3 –

(٦٠) قدامة بن جعفر ، BGA, VI ، ص ١٨٤ – ١٨٥ (المتن) ؛ ص ١٤٤ – ١٤٥ (الترجمة) – Blachère p. 55 - 57

(٦١) Brockelmann, GAL, I. p. 137, No I; SBI, p. 209 –

(٦٢) شرحه ، رقم ٢

(٦٣) Ruska, GZ, p. 590 –

(٦٤) Brockelmann, GAL, II, p. 381 - 382, No 3; SBII, p. 514 - 515 –

(٦٥) Brockelmann, GAL I, p. 138, No 5; SBI, p. 210 –

(٦٦) Marçais, EI, II p. 997 - 998—Brockelmann, GAL, I p. 329 No I; SBI. p. 562 - 564 –

(٦٧) Brockelmann, GAL, SBI, p. 211. No 6 — Krymski Istoria Persii, 1909, p. 6 - 7 وشرحه 1914, p. 191 - 192 — Bartold, Iran, p. 70 –

(٦٨) Markwart, Wehrot, p. 160-161 –

(٦٩) Minorsky, Narshakhi, p. 914 –

(٧٠) Brockelmann, GAL, I, p. 148, No I: SBI, p. 227 - 228 — Sarton, Introduction, I, p. 616 — Torrey, EI, II, p. 375 - 376 –

(٧١) Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 4; SBI, p. 229 - 230 –

(٧٢) Guest, GMS, XIX, p. 9 (3) –

(٧٣) Brockelmann GAL, SBI, p. 230, No 4 A –

(٧٤) Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 6; SBI, p. 230 –

(٧٥) Brockelmann, GAL, I, p. 343, No 3; SBI, p. 584 - 585 –

(٧٦) Brockelmann, GAL, I, p. 486-487, No 14; SBI, p. 889 –

(٧٧) المقرى ، الجزء الثانى ، ص ١١٢ الخ – Kramers, EI, EB, p. 67 — Pons Biogues, p. 80-81, No 39 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 233, No 4 A — LéviProvencal, Fés p. 41

(٧٨) Brunschwig, p. 151 - 152 –

(٧٩) – Brockelmann GAL, I, p. 150, No 2; SBI, p. 231 – Pons Boigues, p. 62-66, No 23

(٨٠) – Lévi – Provençal, Al-Räzi p. 1228

(٨١) المقرى ، الجزء الثانى ، ص ١١٨ – Pons-Boigues, p. 63, No 3 =

(٨٢) – Sprenger, Reiserouten, p. XVIII

(٨٣) – Löfgren, Hamdani Fund, p. 3 note 1

(٨٤) – Müller, Südarabische Studien p. 33

(٨٥) – Arendonk, Al-Hamadani p. 87

(٨٦) عيسى اسكندر المعلوف ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الخامس ، ١٩٢٥ ، ص ٣٢ .

(٨٧) – Derenbourg - Schefer, p. 18. – Löfgren, Hamdani–Fund, p. 8 note 1

(٨٨) أمين الريحانى ، ملوك ، الجزء الأول ، ص ٤٤

(٨٩) شكيب أرسلان ، ص ٤٣٩ – ٤٤٤

(٩٠) الإكليل ، الجزء الثامن : Krenkow L'A, IX, p. 291-202; I and VI شرحه ، p. 626-627

(٩١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٩١ ، ص ٤٤٠ – ٤٤١

(٩٢) – Müller, Das Buch der Arabischen Halbinsel, p. 299

الفصل السادس

المسعودى والرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية فى القرن العاشر

171 يعتبر القرن العاشر من الناحية السياسية عصر الاضمحلال النهائى للخلافة الإسلامية ، ولكن من ناحية أخرى يعتبر أيضاً عصر ازدهار الحضارة العربية أو « النهضة الإسلامية » Renaissance of Islam كما حلى لأحد المستشرقين أن يسميه (متز Metz) . وفى القرن العاشر كذلك بلغ الأدب الجغرافى العربى أوجه فى مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها . وهو يذخر بمصنفات هامة فى محيط الجغرافيا الإقليمية ، غير أن الإنتاج الأدبى فيه لم يقف عند هذا الحد فقد تم فى هذا القرن أيضاً تشكيل ما يسمى « بالمدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا العربية ، كما شهد أيضاً ميلاد أكثر آثار الكارتوغرافيا العربية أصالة وهو « أطلس الإسلام » . وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حداً كبيراً ، غير أن المهم بالنسبة لنا هو أن بعضهم قد جالوا فى بعض أصقاع اتحادنا السوفيتى أو الأصقاع المتاخمة لها . وفى هذا العصر بالذات نفذت الجغرافيا إلى الأنماط الأدبية المقاربة لها وأفرد لها مكان فى دوائر المعارف وفى المصنفات البيليوغرافية وفى معاجم المصطلحات ، كما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبى . وإلى جانب كل هذا يقدم لنا القرن العاشر شخصيات كبرى ذات جوانب متعددة ليست هى شخصيات جغرافية بالمفهوم الضيق للفظ .

ويحتل المكانة الأولى بينهم دون منازع المسعودى* « أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة فى القرن العاشر » ، على حد قول واحد من أفضل المتخصصين فى هذا الفرع من الأدب فى عصرنا[1] . غير أن آراء العلماء حوله أبعد من أن تتسم بطابع الإجماع ، فخبير آخر بالجغرافيا العربية — لا يخلو فى الحقيقة من بعض الميل إلى التناقض — يرى فى أسلوبه « قرابة ورحماً مع أسلوب الصحافة الحديثة » ، وفى شخصه « أنموذج المراسلين الصحفيين المعاصرين الذين يذرعون الأرض »[2]. هذا الحكم يقف دليلا آخر على عدم جدوى أمثال هذه المقارنات المبالغ فيها بين القديم والحديث ، ولايزال أفضل منهج لمعرفة شخص ما أو إلقاء ضوء على حياته هو التحليل الدقيق للظروف التى عاش فيها .

172 والمسعودى عربى صرف يرتفع نسبه إلى الصحابى مسعود ؛ وقد ولد على ما يظهر | ببغداد فى بداية القرن العاشر وأحاط إحاطة تامة بكل التراث الأدبى لعصره وبمختلف نواحى العلوم . غير أن ميدانه

---

* فى يناير من عام ١٩٥٨ أقيمت احتفالات بجامعة عليكرة بالهند بمناسبة مرور ألف عام على المسعودى وصدر بهذه المناسبة كتاب بعنوان : Al-Masudi Millenary Commemoration Volume, 1960 يحوى عدداً من الأبحاث الجيدة عنه . (المترجم)

الحقيقى فيما يبدو كان الرحلات الواسعة والاتصال المباشر بممثلى مختلف الطبقات ؛ وقد شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلنطى ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين ، ومن المحتمل أن يكون قد زار الصين وأرخبيل الملايو . وكثيراً ما يثبت فى مصنفاته تاريخ زيارته لمواضع معينة ، وهو أمر وإن لم يمكنا من تتبع خطاه إلا أنه على أية حال يعطى فكرة عن تجواله الواسع العريض .

ولعل شخصية المسعودى ككاتب يمكن أن تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسها يد الضياع ، ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين « أخبار الزمان » الذى يقع فى ثلاثين جزءاً والذى بدأ تأليفه فى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ ، و« الكتاب الأوسط» . غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات ضئيلة ليست بذات أهمية ، فضلا عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه[٣] . وهكذا فمن بين جميع مؤلفاته العديدة المعروفة لدينا بأسمائها نستطيع إعطاء فكرة عن نشاطه العلمى اعتماداً على اثنين منها فقط أحدهما هو « مروج الذهب ومعادن الجوهر»[٤] ، وهو أكثر مؤلفاته التاريخية الثلاثية إيجازاً ؛ وآخر يعكس مادة جغرافية بالمعنى الصحيح وهو كتاب« التنبيه والإشراف » . وكلاهما يقف مثالا حياً لصعوبة الفصل بين المؤلفات التاريخية والجغرافية . وقد تم تأليف الأخير منهما فى عام وفاة المسعودى ، وهو يقدم لنا فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلا لكل مؤلفاته ؛ ومقدمته تعطى فكرة محددة عن الخلط فى التبويب وعن الوفرة فى مادة كتبه التى لم تصلنا .

« ذكر الغرض من هذا الكتاب . قال أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى أما بعد فإنا لما صنفنا كتابنا الأكبر فى أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة وشفعناه بالكتاب الأوسط فى معناه ثم قفوناه بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الإشراف من الملوك وأهل الدرايات ثم أتلينا ذلك بكتاب فنون المعارف وماجرى فى الدهور السوالف وأتبعناه بكتاب الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار | ذكرنا فى هذه الكتب الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم 173 على الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة والأمم الخالية الداثرة الأكابر كالهند والصين والكلدانيين وهم السريانيون والعرب والفرس واليونانيون والروم وغيرهم وتاريخ الأزمان الماضية والأجيال الخالية والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم ومساكن الأمم وتباينها فى عاداتها واختلافها فى آرائها وصفة بحار العالم وابتدائها وانتهائها واتصال بعضها ببعض وما لا يتصل منها وما يظهر فيه المد والجزر وما لا يظهر ومقاديرها فى الطول والعرض وما يتشعب من كل بحر من الخلجان ويصب إليه من كبار الأنهار وما فيها من الجزائر العظام وماكان من الأرض برًّا فصار بحراً وبحراً فصار برًّا على مرور الزمان وكرور الدهور وما قاله حكماء الأمم فى كيفية شبابها وهرمها وعلل جميع ذلك والأنهار الكبار ومبادئها ومصابّها ومقادير مسافاتها على وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها والأخبار عن شكل الأرض وهيئتها وما قالته حكماء الأمم من الفلاسفة وغيرهم فى قسمتها والربع المسكون منها وحدّها وأنجادها وأغوارها

وتنازع الناس فى كيفية ثباتها وتأثيرات الكواكب فى سكانها واختلاف صورهم وألونهم وأخلاقهم ووصف الأقاليم السبعة وأطوالها وعروضها وعامرها وغامرها ومقادير ذلك ومجارى الأفلاك وهيآتها واختلاف حركاتها وأبعاد الكواكب وأجرامها واتصالها وانفصالها وكيفية مسيرها وتنقلها فى أفلاكها ومضاداتها إياها فى حركاتها ووجوه تأثيراتها فى عالم الكون والفساد التى بها قوام الأكوان وهل أفعالها على المماسة أم على المباينة عن إرادة وقصد أم غير ذلك وكيف ذلك ومما سببه وهل حركات الأفلاك والنجوم جميعاً طباع أم اختيار وهل للفلك علة طباعية فاعلة فى الأشياء المعلولة التى هو مشتمل عليها ومحيط بها والنواحى والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب وما على ظهر الأرض من عجيب البنيان وما قاله الناس فى مقدار عمر العالم ومبدأه وغايته ومنتهاه وعلة طول الأعمار وقصرها وآداب الرئاسة وضروب أقسام السياسة المدنية الملوكية منها والعامية مما يلزم الملك فى سياسة نفسه ورعيته ووجوه أقسام السياسة الديانية وعدد أجزائها ولأية علة لابد للملك من دين كما لابد للدين من ملك ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ولم وجب ذلك وماسببه وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول | الدول وتبيد الشرائع والملك 174 والآفات التى تحدث فى نفس الملك والدين والآفات الخارجة المعترضة لذلك وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتل من نفسه أومن عارض يعرض له وما نية ذلك العلاج وكيفيته وإمارات إقبال الدول وسياسة البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكايد فى الحروب ظاهراً وباطناً وغير ذلك من أخبار العالم وعجائبه ، وأخبار نبينا صلعم ومولده وما ظهر فى العالم من الآيات والكوائن والأحداث المنذرات بظهوره قبل مولده من أخبار الكهان وغيرهم وما أظهر الله سبحانه على يديه من الدلائل والعلامات والجرائح المعجزات ومنشأه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه وسواربه ومناسره إلى وفاته والخلفاء بعده والملوك والغرر من أخبارهم وماكان من الكوائن والأحداث والفتوح فى أيامهم وأخبار وزرائهم وكتابهم إلى خلافة المطيع . وذكرنا من كان فى كل عصر من حملة الأخبار ونقلة السير والآثار وطبقاتهم من عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم من فقهاء الأمصار وغيرهم من ذوى الآراء والنحل والمذاهب والجدل بين فرق أهل الصلاة ومن مات منهم سنة سنة إلى هذا الوقت المؤرخ ، وذكرنا فى كتاب منظم الأعلام فى أصول الأحكام وكتاب نظم الأدلة فى أصول الملة وكتاب المسائل والعلل فى المذهب والملل تنازع المتفقهين فى مقدمات أصول الدين والحوادث التى اختلفت فيها آراؤهم وما يذهب إليه من القول بالظاهر وإبطال القياس والرأى والاستحسان فى الأحكام إذ كان الله جل وعز قد أكمل الدين وأوضح السبيل وبين للمكلفين ما يبغون فى آياته المنزلة وسنن رسوله المفضلة التى زجرهم بها عن التقليد ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد وما اتصل بذلك من الكلام فى الفتوى والأحكام العقليات منها والسمعيات وغير ذلك من فنون العلوم وضروب الأخبار مما لم تأت الترجمة على وصفه ولا انتظمت ذكره رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب التنبيه

والإشراف وهو التالى لكتاب الاستذكار لما جرى فى سالف الإعصار نودعه لُمَعاً من ذكر الأفلاك
175 وهيأتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية | أفعالها والبيان على قسمة الأزمنة وفصول السنة
وما لكل فصل من المنازل والتنازع فى المبتدأ به منها والاستقصّات وغير ذلك والرياح ومهابها وأفعالها
وتأثيراتها والأرض وشكلها وما قيل فى مقدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق وما يغلب
عليها وتأثيراتها فى سكانها وما اتصل بذلك وذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل فى طولها
وعرضها وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة الخمسة والنيرين ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على
سائر الأقاليم وما خُصّ به ساكنوه من الفضائل التى باينوا بها سكان غيره منها وما اتصل بذلك من الكلام
فى عروض البلدان وأطوالها والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك وذكر البحار وأعدادها وما قيل فى أطوالها
وأعراضها واتصالها وانفصالها ومصبات عظام الأنهار إليها وما يحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها
وذكر الأمم السبع فى سالف الأزمان ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما باتت به كل أمة من غيرها
وما اتصل بذلك ثم تتبع ذلك بتسمية ملوك الفرس الأولى والطوائف والساسانية على طبقاتهم وأعدادهم
ومقدار ما ملكوا من السنين وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار ملكهم وملوك الروم على طبقاتهم من
الحنفاء وهم الصابئون والمتنصرة وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين وما كان من الكوائن
والأحداث العظام الديانية والملوكية فى أيامهم وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها
بالخليج وبحرى الروم والخزر وما اتصل بذلك من اللمع المنبهة على ما تقدم من تأليفنا فيما سلف
من كتبنا وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت وتواريخ الأمم وجامع تأريخ العالم والأنبياء
والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلعم وحصر ذلك وما اتصل به ومعرفة سنى الأمم الشمسية والقمرية
وشهورها وكبسها ونسيئها وغير ذلك من أحوالها وما اتصل بذلك من التنبيهات على ما تقدم جمعه
وتأليفه وذكر مولد النبي صلعم ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواربه وكتّابه ووفاته
والخلفاء بعده والملوك وأخلاقهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم وماكان
من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية فى أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥
للهجرة فى خلافة المطيع منبهين بذلك على ما قدّمنا ذكره من كتبنا ، وإنما اقتصرنا فى كتابنا هذا على ذكر
هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم واتصال ملكهم وماكانوا عليه من حسن السياسة
176 وانتظام التدبير | وعمارة البلاد والرأفة بالعباد وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم إليهم الإتاوة
والخراج وأنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم وأن مملكتى اليونانيين
والروم تتلوان مملكة فارس فى العظم والعزّ ولما خُصّوا به من أنواع الحكم والفلسفة والمهن العجيبة
والصنائع البديعة ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم منسّقة التدبير وإن كان اليونانيون قد دخلوا
فى جملة الروم منذ احتووا على ملكهم كدخول الكلدانيين وهم السريانيون سكان العراق فى جملة الفرس

[الأولى لغلبتهم عليهم فأحببنا أن لا نخلي كتابنا هذا من ذكرهم وإن كنا قد ذكرنا سائر الممالك التي على وجه الأرض وما أزيل منها ودثر وما هو باق إلى هذا الوقت وأخبار ملوكهم وسياساتهم وسائر أحوالهم فيما سميناه من كتبنا على أنّا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية ثم ما دُفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طوراً مشرقين وطوراً مغربين كما قال أبو تمام :

خليفةُ الخِضر مَن يَربعْ على وطن ... في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشأم قومي وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرّقتين وبالفسطاط إخواني

وكقوله أيضاً :

فغربت حتى لم أجد ذكرَ مَشرق ... وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتُهن ردَدنني ... جريحاً كأني قد لقيت الكتائبا

ونحن آخذون فيما به وعدنا وله قصدنا وبالله نستعين وإياه نسأل التوفيق والتسديد »[٥] .

والأبيات الأخيرة لأبي تمام التي يختتم بها المسعودي مقدمته تدل دلالة واضحة على مبلغ اهتمامه بالعرض الأدبي الذي يحتل أحياناً بالنسبة له المكانة الأولى . ولم يكن المسعودي بالطبع عالماً بحاثة على غرار البيروني ولا متخصصاً في الجغرافيا أو التأريخ بل كان أديباً قبل كل شيء وناشراً للمعارف على منهج الجاحظ أو ابن الفقيه مع ميل أكثر نحو الجدية ونحو الأسلوب القصصي . فهو قاصّ ماهر ، وفي كتابه الذي يغلب عليه التأريخ | وهو «مروج الذهب» يقابلنا أفضل تصوير للحياة الاجتماعية والثقافية في عصر الخلافة ، فليس غريباً إذن أن يفتتن به في السنوات السبعينيات من القرن الماضي شخص عرف بتقديره لهذا النوع من العرض التاريخي وهو المؤرخ الفرنسي ارنست رينان Ernest Renan[٦] . وقد أعاد المسعودي تنقيح كتابه هذا مرتين الأولى حوالى عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ والثانية حوالى عام ٣٤٥ = ٩٥٦ ، وفي هذا الكتاب فصول يغلب عليها الطابع الجغرافي وقد تتحول أحياناً إلى استطرادات مطولة ، مثال ذلك ما كتبه عن البحار والأنهار ، وقبائل العرب والكرد والترك والبلغار ، وعن دور العبادة عند جميع شعوب [العالم خاصة في القوقاز . وطريقة ملاحظاته عن هجرات القبائل وعن الهند وعن الزنج ؛ والفصل الذي أفرده للصقالبة أضحى منذ أكثر من مائة عام موضوعاً لبحث مستقل قام به شارموا Charmoy[٧] (١٨٣٤) ولبحث آخر لماركفارت[٨] في أوائل القرن العشرين . وعلى الرغم من تقدم النقد العلمي فلا يزال عدد من مشاكل هذا الفصل في حاجة إلى الحل . ومنذ عهد غير بعيد ظهر رأي جديد يقول بأن دولة الدّيره التي ذكرها المسعودي[٩] إنما هي إمارة كييف Kiev وأنه يجب أن نبصر في هذا اللفظ اسم دير Dir الذي حكم في وقت واحد مع أسكولد Askold[١٠] . ولا تقلّ قيمة عن هذا رواية المسعودي عن حملات الروس بعد عام ٩١٢ — ٩١٣ على سواحل بحر قزوين الجنوبية إذ لا يفصله عن حوادثها أكثر من عشرة أعوام[١١]

177

أما مصنفه الأخير «كتاب التنبيه » فقد اكتسب عن جدارة حق الانضمام إلى « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum على الرغم من أنه ليس مصنفاً جغرافياً بمعنى الكلمة ولاتشغل الموضوعات الجغرافية فيه حيزاً كبيراً . وهى تتركز بصفة عامة فى أول الكتاب على هيئة مقدمة تعطى عرضاً عاماً للجغرافيا الفلكية والطبيعية ، يلخص فيها المؤلف نظريات القرن العاشر فى خطوطها الجوهرية المعروفة ويفرد مكانة خاصة لنظرية الرياح حيث يقول :

« وأن الشمس إذا كان مسيرها فى الميل الشمالى عن معدّل النهار حمى الهواء فى ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبى فيجب من ذلك أن ينقبض الهواء الجنوبى ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالى ويحتاج إلى موضع أوسع إذ لا فراغ فى العالم فبالواجب أن تكون أكثر رياح الصيف عند من هو فى ناحية الشمال شمالية لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب إذ ليس الريح شيئاً غير حركة الهواء وتموجه وكذلك يجب أن تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس فى الشتاء فى الميل الجنوبى »[١٢] . 178

ويلى هذا وصف لصناعات مصر وتجارتها ومحاصيلها ، وهذا بدوره يسوق المؤلف إلى محاولة لتفسير المميزات النفسانية حسب تأثير المناخ على الناس . ولايخلو من بعض الطرافة فى هذا الصدد حكمه على أهل الشمال :

« وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضاً فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ولم يكن فى مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة ومن كان منهم أوغل فى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم فى الأبعد فالأبعد إلى الشمال »[١٣] .

أما الجغرافيا الوصفية فتعرض بالطريقة المعروفة لنا جيداً أى على أساس الأقاليم السبعة مع تفصيل أكثر فى وصف الإقليم الرابع الذى تقع فيه العراق . ويرد القول عرضاً عن عجائب الإسكندرية التى شغلت الناس منذ العصور القديمة وعن زلزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ . أما وصف البحار والأنهار فيصحبه وصف موجز للأقطار التى تجرى فيها أو تمسها مع استطرادات شتى كالحديث عن موقع بحيرة أرميه وبراكين فارس ، كما يستوفى القول فى فصل خاص عن البلاد الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من بحر قزوين . وفى القسم الاثنوغرافى من الكتاب يقسم الشعوب إلى سبعة مجموعات هى الفرس ، ويليهم الكلدانيون الذين يضم إليهم العرب واليهود ، ثم سكان أوروبا (اليونان والبيزنطيون والصقالبة والفرنجة) ،

ثم الليبيون والأفارقة عامة ، ويلى هذا الترك ، فسكان الهند والسند وأخيراً الصينيون ومعهم الكوريون . ومن الغريب أن توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية وذلك قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية فى أوروبا ؛ ولكن لا توجد لديه تسمية جامعة خاصة بهم . أما باقى الكتاب وهو ما يقرب من أربعة أخماسه فيغلب عليه الطابع التاريخى . وإن اتساع أفق المسعودى ليظهر بجلاء أيضاً فى مصنفه هذا وهو لا يقتصر على تاريخ العرب وحدهم بل يولى اهتماماً كبيراً لتاريخ إيران القديمة ولوصف المقاطعات البيزنطية بل ولتاريخ الكنيسة المسيحية .

ومن المستحيل إنكار ما يمتاز به المسعودى من تنوع النشاط العلمى وما يتصف به من موضوعية فى الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان ؛ فهو يسأل باهتمام ممثلى مختلف العقائد ويفحص بانتباه فائق كتبهم ويتعرف جيداً على آدابهم ، وكان موقفه محايد آإزاء النصارى واليهود والصابئة . وفى أثناء تحرك القرامطة على بغداد اطلع المسعودى على تعاليمهم وكتبهم بل وحادث دعاتهم الذين رفضوا تعاليم أهل السنة وأخذوا على عاتقهم تفنيدها دون معرفة جيدة بها[١٤] . وإن تعدد نواحى اهتمامه لمدهش حقاً فهو يجمع بشغف المعلومات عن اقتران البحر الأسود ببحر قزوين كما يجمعها أيضاً حول موضوع : هل يمكن لوحيد القرن أن يمكث سبعة أعوام فى بطن أمه ؟ وفى الإسكندرية يبحث بالكثير من الاهتمام انهيار منارة فاروس Pharos المشهورة فى زلزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ؛ وفى سجستان يورد أول خبر معروف عن طواحين الهواء[١٥] ؛ وفى المنصورة بالهند يراقب حياة ثمانين فيلا ملكياً . وإنه لما يدعو إلى الدهشة تمكنه من جمع وتحليل كل هذه المادة الضخمة .

غير أن منهجه فى التبويب لا يرقى إلى المستوى المطلوب فقد كان من الصعب عليه أن يأخذ نفسه باتباع منطق صارم سواء فى التفكير أو التعبير . وقد كان يزاول عمله بعجلة فائقة بحيث أضحى من العسير عليه أن يكون دائماً فى حالة تسمح له بتحليل المادة المتنوعة التى جمعها من مختلف المصادر عن شعوب نائية . وقد أبان دوزى Dozy فيما يتعلق بالأندلس أنه لم يكن واضحاً بالنسبة للمسعودى أحياناً الفرق بين أسماء الأعلام والأسماء العامة[١٦] . ومهما يكن من شيء فإن المسعودى يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره وكان دائماً يتطلع إلى الحصول على أحدث المعلومات عن البلاد التى لم يزرها بنفسه .

وطريقته فى التأليف تعتمد على العرض الأدبى لا على الإسناد ؛ ومن ثم فإنه نادراً ما يشير إلى مصادره . وما من شك فى أن مجال اطلاعه وقراءته كان واسعاً ، ولكن هذا لا يبدو لنا جلياً ، سواء عن قصد أو غير قصد ، خاصة فى معطياته الأثنوغرافية ، وهو شيء يعتبر بالنسبة لنا خسارة لا تعوض . وهو يشير بإيجاز إلى السابقين له فى مضمار الجغرافيا وفى حدود معلوماتنا عنهم ، فنلتقى عنده بأسماء الممثلين الرئيسيين لنمط المسالك والممالك[١٧] كالسرخسى والجيهانى الذى لم يصلنا مصنفه وابن خرداذبه المعروف لنا جيداً . وهنا يظهر لنا بجلاء سعة أفق المسعودى فهو لا يخشى أن يذكر أسماء الشخصيات التى كانت

ممقوتة فى عصره ، فمثلا يشير فى خاتمة تعداده للجغرافيين إلى كتاب « النواحى والآفاق » الذى يروى « الأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما فى البر والبحر » . ومؤلفه هو محمد[١٨] بن أحمد بن النجم
180 الذى اشتهر باسم ابن أبى عون الكاتب[١٩] وهو أحد أتباع الزنديق المعروف الشامغانى وقد أعدما سوياً فى عام ٣٢٢هـ = ٩٣٤[٢٠] ؛ ولعل هذه الظروف هى التى دفعت مؤلف كتاب « الفهرست » ، على نحو ما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، إلى أن يصفه بأنه « ناقص العقل »[٢١] ؛ وكان كتابه معروفاً لياقوت فى القرن الثالث عشر[٢٢] . ويختم المسعودى كلامه عن السابقين له باستطراد طريف يتحدث فيه عن أهمية المؤلفات القديمة والحديثة[٢٣] ؛ وتنعكس فيه بمهارة الخصومات الأدبية التى كانت تهز مختلف الدوائر الاجتماعية فى ذلك العصر . قال :

« فكل استفرغ وسعه وبذل مجهوده وقد يدرك الواحد منهم ما لايدركه الآخر وقد ذكرنا فى كتابنا هذا وما سلف قبله من كتبنا التى هذا سابعها أخبار العالم وعجائبه ولم نخله من دلائل تعضدها وبراهين توتدها عقلا وخبراً وغير ذلك مما استفاض واشتهر وشاهد من الشعر على حسب الشىء المذكور وحاجته إلى ذلك ونحن وإن كان عصرنا متأخراً عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين وأيامنا بعيدة عن أيامهم فلنرجو أن لا نقصر عنهم فى تصنيف نقصده وغرض نأمُّه وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء وقد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر وربما كان الآخر أحسن تأليفاً وأتقن تصنيفاً لحنكة التجارب وخشية التتبع والاحتراس من مواقع الخطأ ومن ها هنا صارت العلوم نامية غير متناهية لوجود الآخر ما لايجده الأول وذلك إلى غير غاية محصورة ولانهاية محدودة وقد أخبر الله عز وجل بذلك فقال وفوق كل ذى علم عليم[٢٤] . على أن من شيم كثير من الناس الإطراء للمتقدمين وتعظيم كتب السالفين ومدح الماضى وذم الباقى وإن كان فى كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة وأكثر عائدة وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
181 أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغى إليه ولا الإرادات تيمَّمُ نحوه ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم من المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها لا لشىء إلا نسبتها إلى المتقدمين ولِمَا يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى يخص بها ويُعنى بتشييدها وهذه طائفة لايعبأ بها كبار الناس وإنما العمل على ذوى النظر والتأمل الذين أعطوا كل شىء حقَّه من العدل ووفوْه قسطه من الحق فلم يرفعوا المتقدم إذ كان ناقصاً ولم ينقصوا المتأخر إذ كان زائداً فلمثل هؤلاء تُصنَّف الكتب وتدوَّن العلوم ».

أما ذوق المسعودى الأدبى فيتضح بجلاء من حكمه على الجاحظ فى كتابه « مروج الذهب » قال[٢٥] :

« وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صداء الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن

وصف ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغُرَر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين وكتاب البخلاء وسائر كتبه فى نهاية الكمال » .

ونحن نعلم جيداً أنه رغماً عن هذا الإعجاب فإن المسعودى لم يأخذ مصادره الأدبية على علاتها بل وقف منها موقف الناقد ، وقد أبصرنا من قبل كيف فحص باهتمام شديد رواية الجاحظ عن السند والنيل وكيف كان يقارن المادة المكتوبة بالمعطيات الواقعية فى وصفه للطرق المختلفة ذاكراً فى كثير من الأحايين أين ومتى التقى بالمسافرين ، المشهور منهم والمغمور ، فمن أولئك يذكر صاحب وصف طريق الهند والصين أبا زيد السيرافى . ومما يكفر عن افتقار مصنفاته إلى التنظيم والتبويب أنه لايتبع اتباعاً أعمى المنهج التأليفى السائد فى الجغرافيا العلمية آنذاك ، بل يفرد مجالا واسعاً للمعلومات الجغرافية المأخوذة مباشرة من الرحالين والتجار ، ‖ ولم يكن من النادر أن تتجه عواطفه نحو الأخيرين . وهو يلفت النظر 182 إلى التباين بين النظرية الموجودة فى الكتب والمشاهدات الواقعية فيما يتعلق بامتداد المحيط الهندى[٢٦]. أما الجغرافيا الفلكية فإنه لم يشعر نحوها بميل كبير ، وقد مر بنا فيما سبق رأيه الغريب القائل بأن جميع المدن الكبرى لإقليم ما تقع على خط عرض واحد[٢٧] .

ولم يكن بمقدور مصنفات المسعودى أن تظفر بانتشار واسع بسبب ضخامة حجمها ، غير أن الصغرى من بينها نالت صيتاً يعادل الصيت الذى ناله اسمه ومنهجه فى التأليف : ولعل هذا يفسر لنا لماذا نسبت إليه أكثر من مرة مصنفات منحولة كان أكبرها شهرة «كتاب أخبار الزمان وعجائب البلدان » أو « مختصر العجائب والغرائب » المعروف فى عدد كبير من المخطوطات خاصة بالمكتبة الأهلية بباريس Bibliotheque Nationale ، وهى التى قام بفحصها كارا دى ڤو[٢٨]. وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين ، أولهما وهو الأصغر يبحث فى خلق العالم وعجائب الأمم القديمة ، وهنا يفرد مكاناً خاصاً للأساطير المتعلقة ببحر الهند والتى ترتبط بعض الارتباط بكتاب « عجائب الهند » ؛ أما القسم الثانى والأكبر فيعالج التاريخ الأسطورى القديم لمصر ؛ وهو لا يعتمد فيه على المصادر اليونانية أو الروايات الهيروغليفية . وفى بعض المخطوطات ينسب هذا الكتاب إلى المسعودى[٢٩] ولكن يستحيل عقلا أن يكون من تأليفه سواء من ناحية الموضوع أو الشكل ؛ أضف إلى هذا أن المسعودى لا يذكره فى ثبت مؤلفاته وأن تلك الفصول من « مروج الذهب » التى يرد فيها الكلام عن مصر لا تذكّر فى شىء بكتاب « مختصر العجائب »[٣٠] سواء من ناحية العرض أو الترتيب . ويزيد فى تعقيد المسألة المحيطة بشخصية مؤلف الكتاب عامل آخر هو وجود مقتطفات منه فى خطط المقريزى منسوبة إلى ابراهيم بن وصيف شاه[٣١] ، وهو مؤلف معروف عاش فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) واشتهر بتاريخ له عن مصر يحمل شطره

الأول طابعاً أسطورياً كالذى فى « مختصر العجائب » ويصل إلى عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ فى بعض مخطوطاته ، وقد يمتد أحياناً إلى عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ وما يليه . وهذا الكتاب تمثله مسودات مختلفة تحمل عناوين متباينة[٣٢] ، وتوجد ترجمة تركية معروفة لمختصره تحمل عنوان « جواهر البحور ووقائع الأمور» 184 تمتد روايتها إلى القرن السادس عشر. وبتحليله لمخطوطة لينغراد بيَّن دورن أنه فيما يتعلق بمعالجته لتاريخ مصر القديمة فإنه يمثل أثراً من آثار « العصبية » القبطية[٣٣] . ورغما عن التشابه فى الموضوعات فإن « مختصر العجائب » لا يمكن أن يكون من تأليف ابن وصيف شاه لأن التواريخ الموجودة فيه لا تتجاوز القرن العاشر ، ويصبح من المريب أن يقف ابن وصيف شاه عند هذا العصر إذا كان الكتاب قد خرج فعلا من يده[٣٤] . والأرجح أنه يمثل مسودة لأحد مصادره فقط أو أنه يمثل مسودة أولية لكتاب جرت فيه يد ابن وصيف شاه بالتعديل . وقد عرف هذا المصنف مبكراً فى أوروبا وترجمه إلى الفرنسية ڤاتييه Vattier منذ عام ١٦٦٦ معتمداً على مخطوطة فقدت بالتالى ونسبه إلى شخص ثالث من نسج خياله[٣٥] . وكل هذا يقف برهاناً على ما أحاط بروايات هذا الكتاب ومسوداته المختلفة من اللبس والتعقيد . وتمثل الترجمة العلمية التى قام بها كارا دى ڤو (١٨٩٨) أهمية بالغة سواء فى محيط التاريخ الأدبى أو الفولكلور Folklore ؛ أما القول بأن « مختصر العجائب » من تأليف المسعودى فهو قول لا يستند على أساس من الواقع[٣٦] .

ورحلات المسعودى كما رأينا تشمل ميداناً واسعاً ووجدت انعكاساً كبيراً فى مؤلفاته ، ولكن رغماً عن هذا فقد دخل اسمه فى التاريخ لا كرحالة بل ككاتب . وعلى العكس من هذا برز فى عصره عدد من الرحالين ممن زاروا الأصقاع القريبة من الاتحاد السوڤيتى ونالوا شهرة واسعة بفضل أوصاف الرحلات التى خلفوها رغماً من أن أحدهم تمتع ببعض الصيت كشاعر أيضاً .

ويحتل ابن فضلان المكانة الأولى بينهم سواء من الناحية الزمنية أو الأهمية الذاتية وذلك بسبب رسالته المشهورة التى تجدد الاهتمام بها فى الأعوام الأخيرة بنفس الدرجة التى تمتعت بها لأول مرة منذ مائة وعشرين عاماً . وهذا الأثر بلا شك جدير بهذا الاهتمام خاصة فى الآونة الحاضرة بعد أن أصبح لأول مرة فى متناول أيدى الجميع فى طبعة كاملة تقريباً .

وفيه نجد أثراً طريفاً بالنسبة لعصره فهو يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية فى العالم الإسلامى والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها فى آسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التى كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولجا . وتحفل الرسالة بمادة اثنوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة ، وهى تمس عدداً من القبائل التركية البدوية 185 القاطنة آسيا الوسطى وعدداً من الشعوب التى كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً فى تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر . كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصى السلس ولغتها الحية المصورة التى لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدُّعابة التى ربما لم تكن مقصودة .

وقد تم إعداد هذه السفارة كطلب بلغار الڤولجا الذين أرسلوا رسولا إلى عاصمة الخلافة يرجون العون ضد ضغط الخزر عليهم من الجنوب وأن يُنْفَذ إليهم من يفقههم فى الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام الذى اعتنقوه منذ عهد غير طويل ، وقد أرسلت إليهم سفارة تحت رئاسة سوسن الرسى كان من أفرادها أحمد بن فضلان كفقيه ذى خبرة ؛ وعلى الرغم من عدم وجود أية معلومات عنه إلا أنه يحاول دائماً فى « الرسالة » أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسى. هذا وقد غادرت السفارة بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ ﻫ = ٢١ يونيو ٩٢١ ووصلت إلى بلغار فى الثامن عشر من المحرم عام ٣١٠ ﻫ = ١٢ مايو ٩٢٢ ؛ وقد مرت فى طريقها بهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى ، حيث التقى ابن فضلان فى سبتمبر من عام ٩٢١ بوزير السامانيين والعالم الجغرافى الشهير الجيهانى[٣٧] . ثم ساروا مع نهر جيحون إلى خوارزم عند بحر آرال وعبروا صحراء أوست أورت ثم نهر يايق فوصلوا إلى حوض الڤولجا . أما تأريخ وخط سير الرجعة فليس معروفاً لدينا إذ أن خاتمة « الرسالة » قد امتدت إليها يد الضياع .

ومن الطبيعى أن يكون علماء الشمال هم أول من سبق إلى لفت أنظار الدوائر العلمية فى أوروبا إلى ابن فضلان ؛ وقد حدث ذلك فى الدنمارك وروسيا . وظلت رحلته معروفة لمدة طويلة عن ياقوت وحده الذى حفظ لنا جزءاً كبيراً منها فى معجمه الجغرافى ؛ ثم أفرد لها المستشرق الروسى فرين Frähn بحثاً رائعاً كان أشبه ببراعة الاستهلال فى تاريخ الاستعراب الروسى واستمر ثمانين عاماً تقريباً لا يبزه شىء بل وحفز إلى ظهور عدد من الأبحاث بأقلام ممثلى مختلف الاتجاهات العلمية ، احتل من بينها مكانة مرموقة أبحاث روزن وبارتولد . وقد أدى الكشف عن مخطوطة مشهد فى السنوات العشرينيات من هذا القرن إلى اتساع المادة عن ابن فضلان بشكل ملحوظ ، وإذا صرفنا النظر عن خاتمتها المفقودة فإن هذه المخطوطة الأخيرة تمكننا لأول مرة من الحكم على الرسالة فى صورتها الكاملة . ولم تلبث دراسة ابن فضلان أن دخلت فى طور جديد بفضل البحث الذى قام به كوڤاليڤسكى A. P. kovalevski (١٩٣٩)[٣٨] ؛ ومن المستحيل بالطبع الجزم بأن جميع المسائل المتعلقة بمتن الرسالة قد حلت نهائياً ، بيد أن وجود مخطوطة مشهد سيمنع على أية حال من تكرار مثل تلك الأخطاء التى تسربت إلى مؤلفات هنغ Hennig الذى ينسب دائماً إلى ابن فضلان روايات المؤلف الفارسى عوفى الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر *[٣٩] .

وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن شخص ابن فضلان إلا أنه لم يقم هنالك أدنى ريب | حول صحة نسبة الرسالة إليه . وإذا كان البعض قد أبدى ارتيابه من وقت لآخر بشأنها ، كما فعل عالم الآثار اسبتزن Spitzin ، فإن ذلك يمس فى العادة بعض التفاصيل ولا يثبت على محك النقد الدقيق . ويختلف الأمر بالنسبة لرحلة أخرى خرجت من عاصمة السامانيين بخارى متجهة صوب الشرق والجنوب وهى تنسب

186

* نشر أحد العلماء السوريين طبعة جديدة لرحلة ابن فضلان بدمشق عام ١٩٥٩ ؛ كما وأن كوڤالفسكى أخرج بحثاً جديداً حول موضوع الرسالة . (المترجم)

إلى أبى دلف الينبعى الخزرجى . ورغماً عن وجود بعض المعلومات عن المؤلف إلا أن الرحلة نفسها كانت هدفاً للريبة والشكوك . وكما أن المؤلف قد عرف بكنيته فقد عرف أيضاً باسمه مِسْعر بن المهلهل ، وهى أسماء واسعة الانتشار فى وسط الجزيرة العربية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه وتشير إلى أصاله العربى الصريح ؛ أما نسبة « الينبعى » و« الخزرجى » فتؤكد علاقته بميناء ينبع على البحر الأحمر وقبيلة الخزرج بالمدينة ؛ ويبدو أنه أحد الأدباء العديدين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الإسلامية فى ذلك العصر من القيام برحلات عريضة . ويظهر أن الأقدار قد بعثت به كشاعر مدّاح متجول إلى بلاط نصر الثانى ابن أحمد السامانى (٣٠١ هـ = ٣٣١ هـ — ٩١٤ — ٩٤٣) ، وهو نفس الحاكم الذى سافر ابن فضلان فى عهده إلى البلغار . وفى أواخر أيام حكمه وصلت إلى بخارى سفارة من الصين حوالى عام ٣٣١ هـ = ٩٤٢ فاغتنم أبو دلف الفرصة وصحبها فى طريق العودة فعبر تركستان الغربية وتركستان الشرقية Sinkiang والتبت ودخل الصين عن طريق غير معروف[٤٠] ، ثم غادرها إلى الهند ومن هناك رجع إلى بلاد الإسلام عن طريق سجستان . ونلتقى به عقب ذلك فى بلاط الوزير البويهى الأديب المشهور الصاحب اسماعيل بن عباد (توفى عام ٣٨٥ هـ—٩٥٥) ، وهناك وضع « القصيدة الساسانية » الغريبة . وهى فى لغة ومكائد الشطار والصعاليك الذين اتخذوا لأنفسهم فى ذلك العصر اسم « الساسانيين » الرفيع* . وفى نفس تلك الأعوام وضع رسالته الثانية فى وصف مشاهد أذربيجان وأرمينيا وإيران مما سيأتى الكلام عنه فى موضعه . وربما كان الصاحب بن عباد هو الذى شجعه على وضعها ، إلا أن أبا دلف أهدى النسخة الأولى منها إلى أولئك الذين سبقت أيديهم عليه من قبل فى ما وراء النهر والذين لم يقطع صلاته بهم فيما يبدو ، أعنى السامانيين .

ولم يكن وصف رحلة أبى دلف معروفاً معرفة مباشرة حتى الآونة الأخيرة . وإحدى الخدمات العديدة التى طوق بها ياقوت أعناق العلماء هى حفظه لشذرات كبيرة منه ، كما نقل منه أيضاً معاصره الأصغر الكوزموغرافى القزوينى الذى يفتقر إلى الدقة كما هو ديدنه دائماً . وفى وقت واحد انصرف إلى دراسة الرسالة كل من ڤستنفلد (١٨٤٢) وشلوزر Schlözer (١٨٤٤) . وقام الأخير بطبعها وترجمتها إلى الألمانية ، مما أعتبر مجهوداً محموداً بالنسبة لذلك العصر ؛ وشارك فى ذلك 188 المستشرق فرين مشاركة فعالة . هذا ويرجع أول بحث جدى عن أبى دلف إلى العلامة الروسى غريغوريف V. V. Grigoriev (١٨٧٢) ، كما يعتبر البحث الذى قام به المستشرق روزن[٤١] ، وهو لمّا يزل طالباً بعد ، خطوة إلى الأمام فى دراسة الموضوع . غير أن النتائج التى خرج بها غريغوريف لا تبعث على الاطمئنان ، فهو يجد عند أبى دلف « خلطاً لا مثيل له فى العرض »[٤٢] ويعتقد أن « القصة لا تقوم على أساس من

---

* عن استعمال تلك الفئة لاسم « ساسان » الرفيع راجع مقال كرامرس Kramers فى دائرة المعارف الإسلامية واستدرك عليه بتعليق الإمام الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات الهمذانى (المقامة الساسانية) . (المترجم)

الواقع بل هى جمع لشتات ما قرأه وسمعه من آخرين [٤٣] » . وهذه الآراء قد رددها غريغوريف دون تعديل فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين الذى عقد ببطرسبورغ فى عام ١٨٧٦[٤٤] ؛ وقد ظلت تلك هى وجهة النظر السائدة إلى أيامنا هذه . وقد قام ماركفارت بدراسة خط سير أبى دلف إلى عاصمة الصين (١٩٠٣)[٤٥] ؛ ورغماً من أن بارتولد قد أماط اللثام فيما يتعلق بإحدى تحقيقات ماركفارت عن مدى الخطورة التى تكمن فى طيات فروضه إلا أنه عاد فاعترف بأن قصة الرحلة « مدلسة » (« قصة أسفاره التى لا شك أنها مدلسة ») ، واختتم كلامه بقوله « ومادامت قصة السفارة لا يسندها مصدر آخر يوكد صحتها فسيظل محتاجاً إلى جواب شاف مدى ارتباط هذه الرحلة ودوافعها بواقع الأحوال التاريخية»[٤٦]. وإلى نفس هذه النتائج بالتقريب انتهى أحد البحاثه المتأخرين ممن عالجوا هذا الأثر وهو مينورسكى (١٩٦٧) ، فهو يرى فى الرحلة سلسلة من الوقائع التى لا يربط بينها شىء ، بعضها حقيقى وبعضها من نسيج الخيال[٤٧] ، أما وصف طريق الرحلة فيرى فيه خلطاً وتعقيداً شديدين ويعتبره خلواً من أية قيمة عملية[٤٨] بحيث يضحى من الأفضل أن يؤخذ هذا الأثر بوصفه خلاصة للتصورات الجغرافية التى كانت سائدة فى شرقى العالم الإسلامى آنذاك عن الصين وآسيا الوسطى والهند ، يعرضها أبودلف عرضاً يفتقر إلى الدقة والمهارة أضف إلى هذا أن نسبتها إليه تعتمد على مجرد افتراض .

غير أن لهذه المسألة جانباً آخر أشبه ما عليه الأمر مع سلام الترجمان الذى مر ذكره يمنعنا من قبول ذلك الحل قبولا نهائياً : ذلكم أن رحلة أبى دلف إلى الصين واقعة حقيقية لاشك فيها . وتلك القصص الواردة على لسانه فى « الفهرست[٤٩] » ، وهو مصدر معاصر له تقريباً ، تحمل جميع الدلائل على رجحان حدوثها ولم تترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣)[٥٠]. هذا ويلاحظ أن روسكا Ruska ، الخبير الكبير فى تاريخ العلوم الدقيقة عند العرب ، يلفت النظر إلى أن قصة تسلق أبى دلف لجبل دماوند (دنباوند)* التى حفظها لنا القزوينى تمثل شيئاً طريفاً للغاية وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته والبعد بها عن مواطن الرِّيَب الواهية[٥١] .

هذا الفارق فى التقدير الإيجابى للكاتب والتقدير السلبى للقصة المرتبطة برحلته من بخارى قد اضطر الباحثين إلى ترك الباب مفتوحاً فيما يتعلق بمدى صحة نسبتها إليه لحين الحصول على معلومات جديدة ؛ وهو نفس الرأى الذى نادى به بارتولد وذلك عند تقييمه لمادة الرسالة من وجهة نظر التاريخ . وأول خطوة فى هذا السبيل كانت الدراسة الدقيقة لمسودة مصنف أبى دلف التى حفظتها لنا مخطوطة مشهد فى شكل رسالتين منفصلتين ؛ وهى نفس المخطوطة التى تضم قسما من مصنف ابن الفقيه وأيضاً رسالة ابن فضلان . وبالرغم من أن الترجمة والبحث الذى قام به رور زاور Rohr-Sauer (١٩٣٩)[٥٢] لايمكن اعتباره بأية حال من الأحوال دراسة شاملة إلا أنه قد تمخض عنه عدد من الاعتبارات الجديدة ،

---

* جبل دماوند Demavend قرب طهران وفى القاموس « دُنْبَاوَنْد » والعامة تقول دماوند » . (المترجم)

ذات طابع خاص وعام . فقد وضح أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال[٥٣] ، إذ ثبت مثلا صحة المعلومات التى أوردها عن والى سجستان فى ذلك العهد ، وكان العلماء يرفضون الاعتراف بصحتها منذ أيام غريغوريييف [٥٤] . وبعض التفاصيل المتعلقة بزيارته للصين وجدت توكيدها فى وصف السفارة المتأخرة التى بعث بها شاهرخ [٥٥] إلى تلك البلاد ، كما تم الاعتراف بدقة ملاحظة أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية . وفيما عدا هذا فيمكن القول الآن وبصفة قاطعة أنه قد ثبت أن روايته لا تمثل يوميات أو وصفاً للطريق بل تم تدوينها من الذاكرة وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة على ما يظهر ومع عدم مراعاة التسلسل التاريخى حين الكلام على زيارته للقبائل والأماكن المختلفة ؛ وإلى جانب ما شاهده بعينى رأسه أضاف أبودلف غير قليل مما سمع ولم يفرّق بين الاثنين[٥٦] . والخلاصة أنه لا توجد أدلة قاطعة تثبت أن الوصف لم يعتمد على رحلة واقعية أو أنه لم يكن سوى مجموعة من القصص المنسوبة إلى أبى دلف * [٥٧] .

هذا وقد وصل الرحالة العرب إلى أوروبا لا من ناحية المشرق وحده بل من المغرب كذلك . ولدينا فى ذلك أثر ممتاز | هو مصنف إبراهيم بن يعقوب الذى حفظ لنا جزءاً منه الجغرافى والأديب الأندلسى 190 للقرن الحادى عشر البكرى ، وأيضاً كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى . وإبراهيم بن يعقوب عالم أندلسى يهودى كان يشتغل بتجارة الرقيق وقد جال فى جنوب ألمانيا فى عام ٩٦٥ وقابل الإمبراطور أوتو Otto فى مجد برج Magdeburg[٥٨] وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة فى أوروبا الوسطى فى ذلك العصر ، ويحدثنا عن أربعة منها هى بلغاريا وبولندا والتشك وإمارة ناكون الأبدريتى Nakon of Obdorites . كما يورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا ، ومن الطبيعى أن يجتذب مصدرهام فريد فى نوعه كهذا اهتماماً خاصاً من جانب العلماء الألمان والسلاف الذين ندين لهم قبل غيرهم بأبحاث كثيرة ومتنوعة عن ابراهيم .

وجميع هذه الأبحاث تعتمد على كتاب كونيك وروزن (١٨٧٨ — ١٩٠٣) ، الذى بقى إلى الآن أفضل بحث فى هذا الموضوع . ويشمل الجزء الأول[٥٩] من هذا البحث نص وترجمة جميع ما حفظه لنا البكرى من رواية إبراهيم فى كتابه « المسالك والممالك » ، وذلك اعتماداً على المخطوطتين المعروفتين آنذاك (إحداهما للمستشرق الإسبانى غايانغوس Gayangos والأخرى موجودة بالقسطنطينية) . وتمثل الأبحاث العديدة التى قام بها جورج ياكوب G. Jacob ابتداء من عام ١٨٨٩خطوة إلى الأمام فى دراستها ، وكذلك أبحاث ڤستبرج F. Vestberg التى ترجع إلى نهاية القرنالتاسع عشر وبداية العشرين . والميزة الكبرى لياكوب ، إلى جانب تحليله العميق للمادة ، هى دراسته المنظمة لما حفظه لنا القزوينى عن إبراهيم وإفادته من مخطوطة جديدة للبكرى كشف عنها لاندبرج Landberg .

* ظهرت طبعتان للرسالة الثانية لأبى دلف فى الآونة الأخيرة ، إحداهما لمينورسكى (القاهرة ١٩٥٥) والأخرى لمستشرقين سوفيتيين هما بلغاكوف وخالدوف (موسكو ١٩٦٠) . (المترجم)

هذا وقد أدت المقارنة بين القزوينى والبكرى إلى ظهور فكرة معقدة لدى ياكوب عن وجود شخصيتين عربيتين زارتا ألمانيا ، وهو ما يسمى بفرض (hypothesis) « إبراهيم — الطرطوشى » الذى أصر عليه ياكوب أكثر من مرة خلال اثنين وأربعين عاماً(٦٠) ، رغماً عن أنه قد جر أحياناً إلى اعتراضات شديدة بسبب غرابته ومجافاته للواقع . وجوهر فكرة ياكوب يمكن إيجازه فيما يلى(٦١) :

فى وقت واحد بالتقريب وعلى حدة وجه الحكام العرب سفارتين إلى بلاط أوتو الأول ، إحداهما بعث بها الفاطميون من شمال أفريقيا بطريق البحر إلى إيطاليا فجنوب ألمانيا . أما الثانية وهى سفارة خليفة قرطبة فقد بدأت سيرها من أسبانيا وسارت فى محاذاة الأطلنطى وبحر الشمال مارة فى طريقها على بوردو وروان وأوترخت ، ثم عبرت شلزفيج إلى بادربورن وسست وفلدا إلى ماينز . وقد اشترك فى هاتين الرحلتين شخصيتان تركت كل منهما وصفاً لرحلتها ، ويحمل كل منهما 191 اسم إبراهيم بطريق الصدفة . فالسفارة التى خرجت من أفريقيا صحبها إبراهيم بن يعقوب وهو يهودى مغربى ، بينما صحب سفارة قرطبة إبراهيم بن أحمد الطرطوشى . وقد استقبل أوتو الأول كلا السفارتين فى عام ٩٦٥ بمجدبرج واستمع كلا الرجلين إلى حديث الإمبراطور عن أقطار أوروبا الوسطى . وعند عودتهما دوّن كل منهما انطباعاته وما سمعه عن الإمبراطور . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير اتفاقهما فى تفاصيل القصة .

ورغماً عما يحيط بهذا الفرض من التكلف والصنعة فإنه يقوم على أساس الاختلاف فى أسمى الرجلين كما ورد فى الشذور المتبقاة والتى باستثناء هذا تتفق فى فحواها . والبكرى يدعوه عادة إبراهيم بن يعقوب ، بينما يدعوه القزوينى بالطرطوشى ، ولكن يرد لديه مرة فى صورة « إبراهيم بن أحمد » . ومن هذه الصورة الأخيرة يتضح أنه مسلم وليس يهودياً ، الأمر الذى لا يرتقى إليه الشك فيما يتعلق بمصدر البكرى(٦٢). هذه المسألة المعقدة قد حلها العالم البولندى كوفالسكى Kovaleski فوضع بذلك حداً نهائياً « لفرض » ياكوب(٦٣) .

فعلى مدى الأعوام الطويلة التى قضاها كوفالسكى فى تحضير طبعة جديدة لرسالة إبراهيم بن يعقوب(٦٤) أمكنه أن يفيد كثيراً من مخطوطة اكتاب البكرى كان قد تم الكشف عنها حديثاً فى مراكش ؛ وقد وضح أن هذه المخطوطة ليست فى الواقع بذات قيمة كبيرة وأنها لا تخلو من العيوب ، فضلا عن أنه ينقصها القسم من رواية إبراهيم الخاص بالصقالبة . إلا أنها فى مقابل هذا تحمل الاسم الكامل للرحالة على شكل « إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى »(٦٥) بحيث أصبح من اليسير إثبات أن الاسمين السابقين إنما هما فى حقيقتهما لشخص واحد . ومما يوكد صحة هذا أنه قد تم فى الأعوام الأخيرة نشر عدد من الآثار الهامة فى محيط الأدب العربى الأندلسى التاريخى منه والجغرافى ، وأنه فى أحد هذه الآثار وهو من تأليف عبد المنعم الحميرى ، أحد رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، نلتقى بذات الوصف لمدينة لورقه Lorca بأسبانيا الذى ينسبه القزوينى إلى إبراهيم بن أحمد الطرطوشى مع اختلاف جوهرى هو أن

اسم أحمد هذا لا وجود له فى رواية الحميرى ، ومن ثم فإنه يجب أن يؤخذ ذلك بوصفه سهواً إمّا من القزوينى نفسه أومن أحد النساخ . وبهذا يزول اللبس والغموض الذى أحاط بتحديد شخصية المؤلف . ومما يدعم هذا أن المخطوطة المراكشية الجديدة للبكرى التى تنقصها رواية ابراهيم عن الصقالبة قد وردت بها فى مقابل ذلك عدة مقتطفات فى وصف الأندلس غير موجودة بالمخطوطات الأخرى ويظهر فيها اسم إبراهيم بن يعقوب بصفته حجة ثقة فى مسائل أسبانيا النصرانية ، كما ترد فيها أيضاً إشارة عابرة إلى محادثة له مع « قيصر الروم »(٦٦) . ولا شك أن المقصود بهذا هو الإمبراطور أوتو الذى وردت الإشارة إليه فى القطعة المعروفة لنا عن الصقالبة(٦٧) .

192

بذا يمكن القول بأنه قد ثبت بصفة قاطعة أنه قد عاش فى القرن العاشر رحالة عالم من الأندلس يدعى إبراهيم بن يعقوب اليهودى الطرطوشى نسبة إلى طرطوشة Tortosa بالأندلس ؛ وهو لم يكن تاجراً فحسب كما كان يظن عنه إلى الآن ، بل كان من المحبين لاقتناء الكتب وخبيراً ماهراً بأنحاء أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة الغربيين(٦٨) كما كان شخصاً مثقفاً دقيق الملاحظة يستطيع قراءة النقود الكوفية ويعرف عن نصر بن أحمد السامانى وسمرقند النائية والتوابل التى تجلب من الهند(٦٩) . أما وصف رحلته فلم يبق منه سوى شذرات عرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا والصقالبة وهى التى حفظها لنا العذرى والبكرى والقزوينى ، وانتقلت منهم إلى مؤلفين متأخرين مثل ابن سعيد الغرناطى وأبى الفداء والدمشقى وإلى الكاتبين التركيين سپاهى زاده والباكوى . ويبدو أن وصفه للأندلس الذى أماطت عنه اللثام المخطوطة المراكشية للبكرى ووجد أيضاً لدى القزوينى والحميرى كان واسع الانتشار ؛ ومن الممكن أيضاً أن ترجع إليه شذور عديدة فى نفس تلك الموضوعات عند المؤلفين الذين ذكرناهم ولكن لا توجد إشارة إلى مصدرها .

ومن الخطل الاعتقاد بأن رحلات العرب فى القرن العاشر قد اقتصرت على الشرق والشمال ؛ وسيرد الحديث عن الرحلات إلى الغرب فى الفصل القادم عند الكلام على ابن حوقل . وهناك احتمال بأن يكون الجنوب قد اجتذب أيضاً بعض الاهتمام ولكن لم يصل إلينا عن ذلك إلا النزر اليسير ؛ وتمثل أهمية جوهرية فى هذا الصدد رحلة ابن سليم الأسوانى (٧٠) إلى بلاد النوبة حوالى عام ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ ؛ وكان قد بعث به القائد الفاطمى جوهر الصقلى إلى ملك النوبة فى مهمة دبلوماسية ووضع كتاباً بعنوان «كتاب أخبار النوبة والمُقُرّة وعَلْوَة والبجه والنيل » . وفيه وصف دقيق لكل النواحى التى رآها ولسكانها وقد حفظت لنا شذرات منه لدى المقريزى(٧١) وابن إياس(٧٢) ؛ ويمتاز وصفه للنيل بالكثير من الدقة على الرغم من أنه يخضع أحياناً لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون هو الوصف الوحيد فى الأدب العربى للعصور الوسطى الذى يبين لنا المدى الذى وصلت إليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل ، ولم يكن لروايته أى تأثير على المصنفات الجغرافية التالية فوصف الإدريسى

مثلا | لمجرى النيل الأعلى يدل دلالة واضحة على مدى النقص الذى كان يعانيه ذلك المؤلف فى المصادر 193
الموجودة تحت يده والتى لم تكن إلى جانب هذا واضحة له على الدوام (٧٣) .

ومن الثابت أن ابن سليم الأسوانى لم يكن المثال الفريد للكاتب المغمور الذى أسدل عليه النسيان ستاره فى الأدب الجغرافى للقرن العاشر ، فإلى جانب كبار المؤلفين المعروفين لدينا جيداً والذين مر الكلام عليهم أو سيمر ، يوجد عدد غير قليل من الكتاب المجهولين الذين لم يعرف المسلمون عنهم لسبب ما سوى القليل ؛ وفوق ذلك فإن هناك ثلة لم تصل إلينا مؤلفاتهم أو أنها لاتزال فى طى المجهول . وعلى أية حال فإنه رغم افتقارنا إلى المادة فى صورتها التامة فيمكننا أن نقرر بكل اطمئنان أن القرن العاشر هو عصر الازدهار الخلاق للأدب الجغرافى العربى . وإنه لما يسترعى النظر حقاً ليس هو العدد الكبير من الكتاب المبرزين فحسب، بل هو ظهور حركة جديدة يمكن أن يطلق عليها بجدارة اسم «المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية » ، وقد استمرت هذه الحركة لمدة نصف قرن من الزمان تخرج مجموعة من المصنفات يسودها طابع الوحدة والانسجام .

حواشى الفصــل السادس

(١) Kramers, EI, EB, p. 67 –

(٢) Markwart, Streifzüge, p. XXXV –

(٣) Brockelmann, GAL, I, p, 143-145 No 6, SBI, p. 220-221 –

(٤) لا يزال العنوان يترجم أحيانا إلى الآن فى اللغات الأوروبية : «golden meadows»
بالرغم من أن جلدمايستر Gildemeister قد بين منذ عام ١٨٤٤ خطأ ذلك
(Gildemeister WZKM, V, p. 202-204)

(٥) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٢ – ٧

(٦) Renan, Mélanges d'histoire p. 253-275 –

(٧) Charmoy, Relations de Masoudy –

(٨) Markwart, Streifzüge, p. 95-160 –

(٩) المسعودى ، المروج ، الجزء الثالث ، ص ٣٤ .
Markwart, Streifzüge, p. 145

(١٠) قارن : Kvalen, Norwegian Settlements, p. 23 — Kvalen, Det norske gurdariki, II, 1, p. 33, 44; Mzik, WZKM, 46, 1939, p. 317 –

(١١) Bartold, SV, I, 1940 –

(١٢) المسعودى ، Nallino, Cosmos, XII, p. 60 = BGA. VIII, p. 12,
Carra de Vaux, Maçodi, p. 17-18

(١٣) المسعودى Nallino Cosmos XII = BGA, VIII p. 23-24
= Carra de Vaux, Maçoudi p. 38-36

(١٤) المسعودى ، BGA, VIII, p. 384 ص ٣٨٤ و ص ٣٩٦

(١٥) Sarton, Introduction. I, p· 638 –

(١٦) Dozy, Rechrches, I3, p. 168-170 –

(١٧) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(١٨) يوجد اختلاف حول الإسم : الفهرست ، ص ١٤٧ : ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٦ .
حيث يوجد : ابراهيم بن محمد الخ .

(١٩) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(٢٠) شرحه ، ص ٣٩٧ – ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ ؛
راجع : Bartold, IAN, 1918 p. 790

(٢١) الفهرست ، ص ١٤٧

(٢٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ = ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ .

(٢٣) المسعودى ، BOA, VIII ، ص ٧٥ – ٧٧, Carra de Vaux, Maçoudi, p. 110-111,

(٢٤) القرآن ، ١٢ ٧٦

(٢٥) المسعودى ، المروج ، الجزء الثامن ، ص ٣٤ - ٣٥

(٢٦) – Kramers, Legacy, p. 87

(٢٧) شرحه ، ص ٨٨

(٢٨) – Carra de Vaux, L'Abrégé

(٢٩) شرحه ، ص XXX

(٣٠) شرحه ،ص XXXIII

(٣١) شرحه ، ص XXXI

(٣٢) شرحه – Broekelmann, GAL, I, p. 335-336, No 5; p. — XXXIII
SBI, p. 574-575

(٣٣) – Rosen, Netices Sommaires, p. 167-173, No 220

(٣٤) – Cerra de Vaux, L'Abrégé, p. XXXIV

(٣٥) راجع : – Brockelmann, GAL, SBII, p. 1026, No 7 ; Carra de Vaux,
L'Abrégé p. XXVIII and XXXI

(٣٦) يذكر أصل الموجز تحت هذا العنوان حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٠ و ٦٤١ ، رقم ٤٢٧٢ :
الترجمة التركية بقلم يوسف بن نعمة الله الذى لا نعرف عنه كثيراً ؛ راجع :
Babinger GOW p. 121 No 105

(٣٧) – Validi, Ibn Fadlan, p. 6 — M. J. Haschimi, Biruni p. 21, note 2

(٣٨) [راجع طبعته الجديدة بخاركوف ، ١٩٥٦] – A. P. Kovalevski

(٣٩) – Hennig, II, p. 215-220, خاصة p. 216, 218, 221, 222

(٤٠) – Rohr-Sauer, p. 61

(٤١) – Krachkovski Dopolnenia p. 271, 8A

(٤٢) – Grigoriev, Abu Dulaf, p. 3

(٤٣) شرحه ، ص ١٩

(٤٤) – Grigoriev, Trudy, I, p. XXXIX, No 22, LVII

(٤٥) – Markwart, Streifzüge p. 74-75

(٤٦) – Barthold, Sandabil, p. 158

(٤٧) – Hudud, p 225

(٤٨) شرحه ، ص ٣٠٦

(٤٩) الفهرست ، ص ٣٤٦-٣٤٧ ، ٣٥٠ - ٣٥١

(٥٠) – Ferrand, Relations I, p. 132-134

(٥١) – Ruska, GZ, XXXIII, p. 591

(٥٢) – Rohr - Sauer

(٥٣) شرحه ، ص ٤١

(٥٤) شرحه ، ص ٤٢ – ٤٥

(٥٥) شرحه ، ص ٥٧

(٥٦) شرحه ، ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ – ٧١

(٥٧) شرحه ٧١

(٥٨) – Jacob, Studien, IV, p. 136 = Henngi

(٥٩) – Kunik, Rozen

(٦٠) – Jacob, Studien, IV, p. 127 - 150 — Jacob, Arab. Berichte, p. 11 - 18

(٦١) – Kowalski, Z hadan, p. 134

(٦٢) شرحه ، ص ١٣٥

(٦٣) شرحه ، ص ١٣٣ – ١٣٧

(٦٤) – Kowalski, Z jazdy, III - VI, 1934, p. 63 - 64

(٦٥) – Kowalski, Z hadan, p. 135

(٦٦) تاريخ ٣٠٥ هـ = ٩١٧ عرضة للشك – Lévi - Provencal, La Péninsule, p. 206 - 207

(٦٧) – Kowalski, Zhadan, p. 136

(٦٨) شرحه ، ص ١٣٧

(٦٩) – Jacob, Studien, II, p. 52

(٧٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, No 12

(٧١) – Guest, El - Maqrisi, p. 109, 115 — Quatremère, « Khitat » Al - Makrizi, Journal des Savants 1856, p. 327

(٧٢) – Arnold, Chrestomathia, p. 54, X

(٧٣) – Kramers, Al - Nil, p. 992

الفصل السابع

المدرسة الكلاسيكية لجغرافي القرن العاشر

لعل الاهتمام الواسع بالموضوعات الجغرافية فى القرن العاشر يتضح بصورة أكثر جلاء من سلسلة 194 المصنفات التى تعكس طراز « المسالك والممالك » . وهذا النمط من المصنفات الجغرافية يرجع فى الأصل إلى وصف للعالم الإسلامى وضعه رجل أصله من بلخ وأخذه عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران ؛ وعلى هذا الأخير اعتمد رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلا فى شمال أفريقيا[1] فصححه واستدرك عليه . وترتبط حلقات هذه السلسلة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً ، ويندرج فيها من ناحية أو أخرى عدد من المصنفات المماثلة ؛ وهى لا تنفصل عن سلسلة الخارطات المرتبطة بها ابتداء من أول أثر معروف لنا وتخضع لنظام دقيق لم تجر فيه يد التبديل . ومن الطبيعى أن يكون تأثير هذه المجموعة الأصيلة كبيراً جداً ؛ ويوجد مبرر كاف لأن يطلق على ممثلها الذين يرتبطون فيما بينهم ارتباطاً وثيقاً اسم « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا الإسلامية . كما يستحق أن يطلق على تلك السلسلة من الخارطات التى تستند عليها أساساً هذه المصنفات اسم « أطلس الإسلام» الذى يمثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا Cartography (فن رسم الخارطات الجغرافية) عند العرب[2] .

ولا تزال غير واضحة المعالم إلى الآن فى جميع تفاصيلها علاقة الحلقات الأساسية الثلاث ببعضها البعض ، على الرغم من أن دراستها قد سارت قدماً إلى الآونة الأخيرة . وفى بداية السنوات السبعينات من القرن الماضى كتب دى خويه يقول « لعله لم يعرف خلط على الإطلاق أشد من الخلط الذى يرتبط بأسماء الجغرافيين العرب الثلاثة : أبى زيد البلخى والإصطخرى وابن حوقل »[3] . ومن الطبيعى أن يرجع الفضل الأكبر فى بدء دراسة هذه المسألة إلى دى خويه نفسه ، فهو الذى بطبعه للكتابين المعروفين لنا من هذه المجموعة ، وذلك اعتماداً على المخطوطات المعروفة لعصره ، بدأ السلسلة المشهورة « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum ؛ كما وأنه حاول فى بحث خاص له أن يلقى ضوءاً على طبيعة العلاقة بين المؤلفين الثلاثة . وقد اتسعت المادة دون انقطاع خلال السبعين عاماً التى انقضت منذ ظهور ذلك البحث | وبرز فى الآونة الأخيرة جانب منهجى هام لم يكن قد وضح تماماً 195 حينما نشر دى خويه سلسلته تلك ، ذلك هو وجوب دراسة المتن والخارطات جنباً إلى جنب عند مؤلفى هذه السلسلة دون أن يفصل بينهما فاصل لأن المؤلفين أنفسهم لم يفصلوا بين الاثنين : وقد أبدى نشاطاً

فعالا فى هذا الصدد مواطن لدى خويه من المعاصرين لنا ، أعنى بهذا كرامرس Kramers الذى ندين له فى الأعوام الأخيرة بمجهود جبار فى إلقاء ضوء على هذه المسألة التى ما تزال على الرغم من كل ذلك مستعصية على الحل .

ومما يزيد فى وعورة المسألة قلة المعلومات عن المؤلفين أنفسهم . فالمؤلف الأول ، أى الذى لم يصلنا كتابه بطريقة مباشرة ، هو الوحيد الذى توجد لدينا عنه بعض المعلومات الصحيحة . وعلى النقيض من ذلك الوضع مع المؤلفين الآخرين اللذين وصل إلينا مصنفاهما ، فإنه لم يمكن العثور إلى الآن على أية أخبار عنهما فى المصادر الموجودة بين أيدينا . والمصنف الذى تبدأ به هذه السلسلة ندين به إلى عالم معروف لعصره هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى الذى ولد حوالى عام ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ بإحدى قرى بلخ وبدأ نشاطه كمعلم ثم اضطره الاهتمام بدراسة العلوم الشرعية إلى القيام برحلة إلى بغداد مركز الحضارة آنذاك فأقام بها ثمانى سنوات أدى فى خلالها على ما يبدو فريضة الحج ؛ ولم تلبث ميوله أن اتخذت اتجاهاً مغايراً لما كان عليه الحال فى شبابه فقد وقع تحت تأثير الفيلسوف المعروف الكندى (توفى بعد عام ٢٥٦ هـ = ٨٧٠) وأصبح من ألزم تلامذته به . وهكذا مر البلخى على نفس المدرسة التى مر بها السرخسى من قبل ، وهو أحد مؤلفى المصنفات الجغرافية المعروفين لنا . وعند رجوعه إلى بلخ لم يغادرها مرة أخرى واشتغل خاصة بمسائل الفلك والفلسفة كأستاذه الكندى وضعف لديه الاهتمام بعلوم الشريعة ، بل ثار الشك حيناً فى صحة عقيدته . وقد حدث أن قامت بينه وبين الجيهانى الجغرافى وزير السامانيين علاقة وطيدة حتى نصحه الأخير بالمجىء إلى بخارى ولكنه امتنع . وشغل البلخى فترة من الزمن وظيفة كاتب لأمير بلخ أحمد بن سهل (حوالى عام ٣٠٧ هـ = ٩١٩ — ٩٢٠) الذى لم يحكم لوقت طويل ؛ وكان البلخى بوجه عام يعتبر نفسه عالماً وأديباً من المشتغلين بالتأليف ؛ وارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنفاً لانعرف منها إلا أسماءها ، أو وجدت فى مخطوطات نادرة لم تفحص بعد . أما المصنف الضخم «كتاب البدء والتاريخ» الذى نسبه ناشره الأوروبى فى بداية الطبعة إلى البلخى نتيجة لسهو ساقته إليه بعض المصادر فقد وضح بالتالى أنه من وضع مؤلف عاش فى آخر القرن العاشر هو مطهر بن طاهر المقدسى .

وفى شيخوخته وذلك حوالى عام ٣٠٨ هـ — ٣٠٩ هـ = ٩٢٠ — ٩٢١ وضع البلخى مصنفه فى الجغرافيا الذى تختلف أسماؤه باختلاف المصادر ، فهو مرة « صور الأقاليم » وحيناً « أشكال البلاد » وتارة « تقويم البلدان » ؛ 196 وهذا التباين فى العنوان يدل على أن الكتاب لم يكن فيما يبدو معروفاً فى صورته الأصلية حتى فى العهد القريب من عهد المؤلف . وهو يمثل شيئاً أشبه بالأطلس مصحوباً ببعض التوضيحات ، ويمكن الحكم عليه من ألفاظ المقدسى الذى عاش بعد ذلك بنحو نصف قرن والذى لا تزال ألفاظه هذه مصدرنا الأساسى للتعريف بكتاب البلخى :

« وأما أبوزيد البلخى فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعدما قسمها على عشرين جزءاً

ثم شرح كل مثال واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب وترك كثيراً من أمّهات المدن فلم يذكرها وما دوّخ البلدان ولاوطئ الأعمال ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به فلما بلغ جيجون كتب إليه إن كنت استدعيتنى لما بلغك من صائب رأيى فإن رأيى يمنعنى من عبور هذا النهر ، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ »[٤].

ومن العسير بالطبع استخلاص أية تفصيلات من مثل هذا التحليل الموجز ؛ ويمكن فقط الإحاطة قليلا أو كثيراً بالشكل العام لكتاب البلخى من خلال التعديلات المتأخرة التى أدخلت عليه والتى يكتنف تاريخها غموض شديد . ومن الملاحظات التى أبداها المقدسى فى مواضع أخرى يمكن الوصول إلى أن أصل كتاب البلخى كان نادراً حتى فى عصره[٥] ؛ وعلى الرغم من معرفة ياقوت بوجوده إلا أنه يقتصر على الإشارة إلى الإصطخرى وحده تقريباً ، ولعله قد وجدت فى يده مسودة واحدة للكتاب[٦] فاعتبر أجزاء متفرقة منها فقط قديمة وترجع إلى البلخى . وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التى نسبت فى فهارس المخطوطات أو حتى فى الأصل إلى البلخى إنما تمثل فى الحقيقة مسودات لمصنف الإصطخرى أو ابن حوقل[٧] .

وتوجد مادة غزيرة فى متناول اليد للحكم على المصنفين الأخيرين . فإلى جانب المخطوطات الفريدة التى اعتمد عليها دى خويه فى إعداد طبعته فقد شهدت الأعوام الأخيرة الكشف على ما لا يقل عن اثنتى عشرة مخطوطة[٨] باستنبول وحدها ، بعضها قديم جداً ؛ وكلها تؤكد ازدياد الحاجة إلى طبعة جديدة للأجزاء الأولى من « مكتبة الجغرافيين العرب » . وعلى النقيض من وفرة المادة فيما يتعلق بالمخطوطات فإن معلوماتنا عن المؤلفَين لا تزال شحيحة كما كان عليه الحال من قبل ، وعلى أية حال فأقل كثيراً مما هو الشأن مع البلخى . هذا ويمكن أن نستنبط من اسم الأول منهما وهو أبو إسحق الفارسى الإصطخرى أنه من إيران الوسطى ؛ ويتضح من مطالعة كتابه أنه قد سافر كثيراً فزار بلاد ما وراء النهر 197 وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر . وقد عنون كتابه على الطريقة القديمة «كتاب المسالك والممالك» وأنهى أول مسودة له وأبو زيد البلخى على قيد الحياة وذلك حوالى عام ٣١٨ هـ — ٣٢١ هـ = ٩٣٠ — ٩٣٣ ، غير أن كتابه قد انتشر فى الشرق بوجه خاص على هيئة طوامير ترتفع إلى المسودة التى عملت حوالى عام ٣٤٠ هـ = ٩٥٠* .

والإصطخرى كغيره من جغرافيى هذه المدرسة يقتصر على وصف العالم الإسلامى وحده مقسما إياه إلى عشرين إقليما ، لا بالمعنى المعروف لنا عن الأقاليم كأحزمة عريضة تضم عدداً من درجات العرض (Klimata) ، بل كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات (Regions) . ويلى الكلام العام عن « الربع المعمور » وأبعاده وعن البحار وصف جزيرة العرب وبحر فارس (مع المحيط الهندى) والمغرب (مع

* ظهرت طبعة جديدة لكتاب الإصطخرى بالقاهرة منذ وقت قصير . (المترجم)

الأندلس وصقلية) ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران الجنوبية والهند وإيران الوسطى والشمالية (مع أرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر) ، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر[٩] . ويورد الإصطخرى عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويروى تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الأجناس . ومعظم التفاصيل تتعلق بالبلاد التى زارها ولكن قد يحدث أحياناً أن يكون للاوصاف الموجزة أهمية خاصة ، وقد لاحظ أمارى Amari مثلا أنه « يذكر القليل عن صقلية ولكن ما أورده جوهرى للغاية »[١٠] ؛ ويصدق هذا القول على ما ذكره عن جزيرة القلال بالبحر الأبيض المتوسط وهى ليست بعيدة عن سواحل فرانسا والمرجح أنها جزيرة فراكسينيتم Fraxinetum ، وقد احتلها العرب بين عامى ٨٨٩ و٩٧٢[١١] . ومعلوماته عن الصقالبة رغم تناثرها وقلتها لا تخلو من بعض القيمة . ويمكن القول بأن المحاولة التى قام بها هركفى Harkavi لجمع شتات هذه المادة ومقارنتها ببعضها البعض ، وذلك قبل ظهور طبعة دى خويه ، قد عفى عليها الزمن ؛ وعلى النقيض من هذا لا تزال تتمتع ببعض الأهمية مقالة المستشرق التشيكى دڤورجاك Dvorak (١٨٨٩) رغماً من افتقارها إلى التحليل الضرورى . وقد وضعت رواية الإصطخرى عن الخزر أمام المؤرخين صعوبات جمة إذ أنه جمع فيها دون فائدة تذكر بين روايتين مختلفتين كما حاول أن يثبت ذلك العلامة الهنغارى كموشكو Kmoshko (١٩٢١)[١٢] . غير أن هذه المشكلة قد حلت بعض الشىء عقب العثور على النص الأكمل لابن فضلان حيث اتضح أن القسم الخاص بالخزر الذى ينسبه ياقوت إلى ابن فضلان إنما هو فى الواقع للإصطخرى .

وكان لكتاب الاصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد الأدب العربى وحده ، فللكتاب عدد من الترجمات الفارسية ترتفع فى العادة إلى المسودة الأولى للكتاب مما دعا إلى ظهور الرأى القائل بأن الإصطخرى قد كتب فى الأصل باللغة | الفارسية[١٣] . ويمتد هذا التأثير من الناحية الزمنية إلى وقت طويل ، فعندما حصلت مكتبة شاهرخ فى القرن الخامس عشر على الأصل العربى للإصطخرى حفز ذلك حافظ آبرو إلى وضع مصنفه الجغرافى[١٤] ؛ أما الترجمة التركية للإصطخرى فترجع إلى عهد السلطان محمد الثالث فى حوالى عام ١٥٩٦[١٥] . 198

وأما فى الوسط العربى فقد أكمل عمل الإصطخرى معاصره الأصغر منه سناً أبو القاسم ابن حوقل الذى نعرف عنه إلى حد ما أكثر من سابقه . ومن اسمه يمكن أن ندرك أنه من مدينة نصيبين بالجزيرة ، كما يتضح من خلال ألفاظه أنه بدأ تجواله من بغداد فى رمضان عام ٣٣١ ه = مايو ٩٤٣[١٦] متخذاً التجارة مهنة له ، ولكنه ربما كان فى الحقيقة داعياً سياسياً . وقد انتظم تجواله أفريقيا الشمالية والأندلس ، وزار نابلى وبالبرمو وعرف عن كثب العراق وإيران وجزءاً من الهند . وقدظهر الاهتمام بالجغرافيا لديه مبكراً ، ومما حفزه إلى ذلك مقابلته للإصطخرى عام ٣٤٠ ه = ٩٥١ — ٩٥٢ التى يرويها فيما يلى :

« وكان أكثر ما حدانى على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة أنى كنت فى حالة الحداثة شغفاً بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحى ووكلاء التجار وقرَاءة الكتب المؤلفة فيها وكنت إذا لقيت الرجل الذى أظنه صادقاً وإخاله بما أسأله عنه خبيراً فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذى اعتقد فيه صدقه وقد حفظت نَسَقَه وتأملت طرقه ووصفه وأكثر ذلك باطلا وأرى الحاكى بأكثر ما حكاه جاهلا ثم أعاوده الخبر الذى ألتمسه منه والذكر ليسمع الذى استوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره فى ذلك بعد رؤية وأجمع بينهما وبين حكاية ثالثٍ بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات وكان ذلك داعية إلى ماكنت أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع . وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبه وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر وإذا الكتابان الأولان قد لزمنى أن أستغفر الله من حملهما واشتغالى بهما عن ما يلزمنى من توخى العلوم النافعة والسنن الواجبة[١٧] ولقيت أبا إسحاق الفارسى وقد صور هذه الصورة لأرض الهند فخلطها وصور فارس فجودها وكنت قد صورت أذربيجان التى فى هذه الصفة فأستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التى لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت فى مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه من غير أن ألم بتذكرة 199 أبى الفرج وإن كانت حقاً بأجمعها وصدقاً من سائر جهاتها وقد كان يجب أن أذكر منها طرفاً فى هذا الكتاب لكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواى ونصب فيه غيرى »[١٨] .

وتحت تأثير هذه الظروف تم تأليف كتاب ابن حوقل ؛ وهو أيضاً يحيط بمسوداته الكثير من اللبس ، ويحمل فى العادة عنوان «كتاب المسالك والممالك» بالرغم من أنه قد حفظت لنا أحياناً تسمية أخرى ترتبط بالحلقة الأساسية لهذه السلسلة وهى «كتاب صورة الأرض» . وقد رفع ابن حوقل المسودة الأولى من مصنفه إلى سيف الدولة الحمدانى (توفى عام ٣٥٦ هـ = ٩٦٧) ، وترجع المسودة الثانية إلى حوالى عام ٣٦٧ هـ = ٩٧٧[١٩]. وتمثل خطوة إلى الأمام بالنسبة للطبعة الأولى (editio princeps) لدى خويه تلك الطبعة الثانية التى نشرها كرامرس Kramers لأقدم مخطوطة لابن حوقل وهى مخطوطة استنبول التى يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ أى بعد مائة عام من تأليف الكتاب . ويميل كرامرس إلى القول بوجود ثلاث مسودات للكتاب مع فوارق يسيرة بين الأولى والثالثة[٢٠] .

والدراسة المباشرة لهذا الأثر توكد صحة ما ذكره ابن حوقل فى قصته عن مقابلته للاصطخرى ، فلدى مقارنته مع كتاب الأخير نجد أن يد التغيير والتبديل قد مست بصورة كبيرة الأقسام المفردة لمصر وأفريقيا وأسبانيا وصقلية كما أنه أجرى تعديلا أساسياً فى الأقسام الخاصة بالعراق وأرمينيا وما وراء النهر ، بينما تركت الأقسام المتعلقة بإيران بالذات دون أدنى تغيير . وقد ترسم ابن حوقل خطى السابقين

له فى تنظيم كتابه ، ولكن مادة الكتاب نفسها معروضة عرضاً دقيقاً مفصلا مع توضيح لبعض النقاط الجوهرية . ويمكن تطبيق قوله فى هذا الصدد على بقية مصنفات « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب . قال :

« وقد فصّلت بلاد الإسلام إقليما إقليما وصُقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحداً لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ، وأتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس بفارس لأنه يحتف بأكثر ديارها وشكلت عطفه عليها ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرّباً إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخاً من عُمان ويدعى ذلك الموضع رأس الجمجمة ثم ذكرت المغرب ورسمته فى وجهين وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان وما فى برارها من المدن وإن قلّت وأعقبتها بباقى صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وازيلى ورسمتُ على بحره مدنه الساحلية وشكلت طرقه إلى جميع أنحائها [200] وكيفيتها مغربه ومشرقه فى سائر جهاتها ، ثم ذكرت مصر فى شكلين حسب ما جرى رسم المغرب به وبطول العمل المرتب فيهما عن حال مدنها ومواقعها على المياه الجارية فى أرضها وما كان برسمها فى البعد عن المياه وخططت جبالها ومياهها بخلجانها وشُعَبها واتصال بعضها ببعض وانفصالها إلى البحر على حيالها وما يصب من ماء الفيوم إلى بحيرة أقنى وتنهمت ، ثم صورت الشام وأجناده وجباله ومياهه من أنهاره وبحره وما على ساحله من المدن وبحيرة طبرية وبحيرة زُغَرْوتيه بنى إسرائيل وموقعه من ظاهر الشام ، ثم بحر الروم وكيفيته فى ذاته وشكله فى نفسه وما عليه من الجانب الشرقى للروم من المدن والأعمال المحاذية لبلد المغرب وذكرت ما بقلورية للروم من المدن والأنكبردة والزنقة المعروفة ببليوتس والخليج الخارج من بحر الروم إلى المجاز المحيط على القسطنطينية ومياه بلد الروم وأكابر أنهاره ومدنه وكنت استوفيت صورة الأندلس فى أشكال المغرب فلم أعده شيئاً منها وقد رسمت فى هذا البحر الجزائر المسكونة ومادعت الحاجة إلى ذكره إذكان مسكوناً مشهوراً ، ثم ذكرت الجزيرة المشهورة المعروفة بديار ربيعة ومُضَر وبكر وكيفية دجلة والفرات عليها واشتمالها على حدودها إلى ذكر جبالها وسائر طرقها وأحوالها ، وأعقبتها بصورة العراق ومياهها وبطائحها وانصباب مياهها إلى البحر وما يُفتَرَّعُ ويُفرْعُ إليها من أنهارها وذكرت خوزستان على حدودها وأنهارها وما اقتضته صورتها وحالها وقنها بصورة فارس على تصور جميع أنهارها وبحيراتها ومواقع مدنها وصورة برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها وسبلها ، ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام ، ثم تلوتها بصورة أذربيجان وشكلت ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرّس والكُر إلى أن رسمتُ بحيرة خلاط وبحيرة كبودان وكلتاهما متصلتين بشىء من البحار وأثبت فيها جبال القبق ، ثم صورت الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على ما هى به وما انحذق منها بدخول بعض

مفازة خراسان وفارس على حدودها وذكرتُ إليها صورة الجيل والديلم وطبرستان وما يليها من بحر الخزر وبعض سبله إذ لم أحط علما بكليته وأتبعتها بصورة بحيرة طبرستان وجزيرتها ومصب ما إليها من المياه وما يصاقبها من الجبال وكمية ما للإسلام منها وحدودها ما لغيره من أقطارها وشكلت المفازة التى بين فارس وخراسان وجميع ما فيها من الطرق إلى النواحى المجاورة لها والمضافة إلى حدودها وما يليها من أعمال سجستان على ما يجاورها من بلاد الغور وجبالها ‖ ومصب مياهها إلى بحيرة زَرَّه وصورت خراسان وما فى 201 ضمنها من طخارستان وجبال الباميان وطوس وقوهستان بجميع مياهها الجارية وجبالها المشهورة ورمالها وطرقها المعروفة ، ثم صورت نهرجيجون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنه واسبيجاب والشاش وخوارزم إلى جميع ما يشتمل عليه من المياه ويحيط به من الطرق والمسالك .

فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها وهى مقسومة على الممالك وعماد ممالك الأرض أربع فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة فى السياسة وتقديم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر وقطبها إقليم بابل وهى مملكة فارس ؛ وكان حد هذه المملكة فى أيام العجم معلوماً فلما جاء الإسلام أخذت من كل مملكة بنصيب فأخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر وانضمت إليها هذه الممالك العظيمة ، ومملكة الروم يدخل فيها حدود الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسرير واللان والأرمن ومن دان بالنصرانية ومملكة الصين يدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التُّبَّت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم ومملكة الهند يدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدينهم ، ولم أذكر بلدان السودان فى المغرب والبُجه والزنج ومن أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مُهْملون فى هذه الخصال ولاحظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك ، غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحِكم ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة مصاقبة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم وبينهما وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن الذهب ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم ، فهذه الممالك المعروفة ولمّا زانت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من طرائف هذه الممالك المذكورة شرفت وعظمت »(٢١) .

من هذا يتضح أن ابن حوقل ، شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب فى وصف « دار الإسلام » خاصة إيران ؛ ولكنه كان يتجاوز فى حالات معينة بالطبع نطاق العالم الإسلامى ، فمثلا لا يخلو من بعض القيمة روايته عن هزيمة الروس للبلغار والخزر(٢٢) حوالى عام ٣٥٨هـ = ٩٦٩ ‖ حين كان المؤلف نفسه آنذاك بجرجان . وهذا الحادث يتفق مع حملة اسفياتوسلاف 202 Sviatoslav أمير كييف Kiev على الخزر عام ٩٦٥(٢٣) ؛ وقد ظهر فى الآونة الأخيرة رأى يقرن

هذا الحادث بجملة هارالد إيركسون Haralde Eriksson ملك النرويج[٢٤] . وإذا تركنا جانباً نقاط التشابه العديدة فإنه يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافيى هذه المدرسة فى شئون المغرب[٢٥] ؛ ويتضح هذا بصورة أقوى من خلال المخطوطة التى نشرها كرامرس وذلك لدى المقارنة بطبعة دى خويه ، ففيها يرد وصف مفصل لمنطقة البجه وتاريخهم ولإرتريا Eritrea [٢٦] مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر ؛ ويصف الواحات ثم يورد وصفاً مفصلا للغاية لموقع صقلية[٢٧] . وروايته عنها تمثل أهمية خاصة كما أثبت ذلك منذ منتصف القرن الماضى المستشرق أمارى Amari[٢٨] أكبر خبير بهذه البلاد والذى قدم لنا تحليلا دقيقاً لهذه المادة[٢٩] . وكثيراً ما انعكست المصالح التجارية لابن حوقل فى تضاعيف كتابه ؛ وتقدم المادة التى جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامى فى ذلك العهد . فهو قد التقى مثلا فى سجلماسة بجنوبى مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة المقيمين هناك ، ويمكن الحكم على مدى اتساع معاملاتهم التجارية من أنه قد أبصر صكاً بدين على أحد سكان واحة أودغشت بداخل أفريقيا قيمته اثنان وأربعون ألف دينار[٣٠] .

وتبرز الميول السياسية لابن حوقل من وقت لآخر جلية للعيان ، ومن الطريف فى هذا الشأن موقفه من أموى الأندلس فهو يقدم لنا فى مصنفه صورة من أدق الصور للأندلس فى العصر الأموى . ويرى دوزى Dozy فى ابن حوقل جاسوساً للفاطميين بلاريب[٣١] ؛ غير أن ليفى بروفنسال Levi-Provencal وهو أحد كبار الخبراء المعاصرين عن أسبانيا الإسلامية لا يرى فيه هذا الرأى القاطع إنما هو فى رأيه على أية حال من عملاء العباسيين أو الفاطميين . والأسباب التى دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه إذ يمكن إبصار عواطفه الفاطمية فى أنه كان من أوائل من قدموا معلومات وفيرة عن قرامطة البحرين الذين عرفهم فيما يبدو جيداً وعن كثب[٣٢] . وفوق ذلك فإن ابن حوقل قد عاش طويلا بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الثالث أى عهد ازدهار خلافة الأمويين بالأندلس ؛ وهو يورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس ويبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب وإلى مصر . وله معرفة جيدة بتجارة الرقيق الأوروبى التى كان يقوم بها تجار منقطعون لها ، لا فى الأندلس وحدها بل فى جميع بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط . ويقدم ابن حوقل صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربى والإدارى مبدياً دهشته لعجزه عن إدراك السر فى احتفاظهم باستقلالهم حتى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى ؛ ويمكن أن يؤخذ قوله بأنه يرى ذلك أمراً سهلا بمثابة إيعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل[٣٣] . غير أن ابن حوقل على أية حال لا ينفى الجانب الإيجابى للحضارة الأندلسية فهو يعترف بأن الخزانة العامة كانت عامرة بصورة لا يمكن مقارنتها فى المشرق إلا بالحمدانيين فى حلب ، أما عاصمتهم الزاهية فيدعوها ببغداد الثانية ويصف بالتفصيل جمال مدينة الزهراء ورونق حى الرصافة[٣٤] .

204

فليس غريباً أن يكتسب كتاب ابن حوقل فى المغرب صيتاً أوسع مما اكتسبه فى المشرق ، خاصة فى الأندلس . ويبدو أنه لم تنقل إلى الفارسية سوى مسودة الإصطخرى وحده[٣٥]، ولكن فى مقابل هذا فقد عرف منذ منتصف القرن الثانى عشر مختصر ابن حوقل المعمول فى الأندلس والذى يوجد فى مخطوطة بباريس ويحوى إضافات كثيرة ترجع إلى عهد الشخص الذى اختصره وذلك فى الفترة بين عامى ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ و ٥٨٠ هـ = ١١٨٤[٣٦] . وقد أضيفت إلى الأطلس المرفق بهذا المختصر خارطة للنيل مأخوذة من خارطة كتاب الخوارزمى[٣٧] مع زيادة مناسبة فى المتن . وفى القرن الثالث عشر هاجم المؤرخ والجغرافى الأندلسى المشهور ابن سعيد (توفى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٦٨ أو ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤) آراء ابن حوقل فى أخلاق عرب الأندلس مهاجمة عنيفة[٣٨] ، ولعل هذا ما حفزه إلى أن يكمل كتاب ابن حوقل فيما يتعلق بالأبواب الثلاثة التى أفردها للأندلس وصقلية وأسبانيا الغربية[٣٩] .

ويقدم ابن حوقل مثالا حياً لمحاولة المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا أن تقصر موضوعها على « دار الإسلام » ، وهو يبين ذلك فى قوله :

« ومملكة الإسلام فى حيننا هذا ووقتنا فإن طولها من حد فرغانة حتى يقطع خراسان والجبال والعراق وديار العرب إلى سواحل اليمن فهو نحو خمسة أشهر[٤٠] وعرضها من بلد الروم حتى يقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط بحر فارس نحو أربعة أشهر وإنما تركت فى ذكر طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس لأنه كالكم فى الثوب وليس فى شرقى المغرب ولا فى غربيه إسلام لأنك إذا جاوزت مصر فى أرض المغرب كان جنوبى المغرب بلاد السودان وشماله بحر الروم ثم أرض الروم ، ولو صلح أن يُجْعل طول الإسلام من فرغانة إلى أرض المغرب والأندلس لكان مسيرة ثلثمائة مرحلة »[٤١] .

205

إن محاولة قصر المادة على « بلاد الإسلام »[٤٢] مع إهمال الأقطار الواقعة خارجها تعتبر من أبرز مميزات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية ؛ وبالطبع فقد حاول الكتاب المعروفون لنا جيداً من أمثال ابن خرداذبه واليعقوبى وابن الفقيه وابن رسته ثم المسعودى إعطاء وصف منتظم لتخطيط العالم الإسلامى ونظامه الإدارى مع الاهتمام خاصة بوصف طرق المواصلات إلا أنه لم يكن من منهجهم الاقتصار على البلاد الإسلامية وحدها بل تكلموا عن البلدان غير الإسلامية كذلك ابتداء من الشرق الأقصى إلى الإمبراطورية البيزنطية ؛ كما وأنهم أولوا نفس القدر من الاهتمام لقصص العجائب بجميع أنواعها[٤٣] . أما المدرسة الكلاسيكية وإن كانت أكثر تشدداً فى أسلوبها وأكثر تمسكاً بالمنهج العلمى إلا أنها فى مقابل ذلك كانت أميل إلى تضييق أفقها الجغرافى بعض الشىء .

والطابع الثانى الأكثر تمييزاً لهذه المدرسة هو الدور الذى لعبته فيها الخارطات . وقد سبق أن نوهنا فى حينه وذلك بصدد الكلام على أول رسالة فى هذه السلسلة وهى مصنف أبى زيد البلخى أنه يمكن

من بعض النواحي اعتبارها أيضاً توضيحاً فحسب لمجموعة الخارطات. ومن المعلوم أن خارطات هذه الحلقة تسير جميعها على نمط واحد وتتشابه تمام التشابه لأنها فى الواقع ليست سوى مجموعة معدلة لخارطات «أطلس الإسلام»، أما المصنفات الجغرافية العربية من عمل العصور التالية لذلك فإنها باستثناء الإدريسى لا تضم سوى خارطات منفردة مستقلة عن بعضها البعض. وهذا بالطبع لا يعنى أن الخارطات المنفردة لم تعرف فى هذا العصر أيضاً، بل إنها فى الواقع كانت معروفة للعرب قبل ذلك. وقد مر بنا الكلام على خارطة الديلم التى عملت 206 للحجاج بن يوسف الثقفى، كما توجد أيضاً معلومات مهمة عن خارطة البطيحة، وهى منطقة المستنقعات قرب البصرة، رفعت وفقاً لرواية البلاذرى[٤٤] إلى الخليفة المنصور فيما يتعلق بتقسيم الأراضى[٤٥]. ويذكر صاحب «الفهرست»[٤٦] أن الفلكى المشهور ثابت بن قرة (توفى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠١) نسب لنفسه رسماً للأرض («صفة الدنيا») من صنع حرانى آخر، وقد أبصر مؤلفنا هذا الرسم بعينى رأسه على نسيج دبيقى* خام قد لوّن بألوان ثبتت بالشمع. وهناك رواية مماثلة لهذه مؤداها أنه لما نهبت خزينة الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ هـ = ٤٨٧ هـ — ١٠٣٦ = ١٠٩٤) وجدت خارطة كانت قد طرزت على نسيج تسترى** فى عام ٣٥٣ هـ = ٩٦٤ للمعز لدين الله الفاطمى وبُيِّن عليها مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق وطرزت أسماؤها بالذهب والفضة والحرير وكانت تقدر على ما يقال باثنين وعشرين ألف دينار[٤٧]. ومن العسير بالطبع التكهن بما كانت عليه هذه الخارطات وما هو نوعها، غير أنه ليس بمستبعد أن تكون من صنع أيد محلية. وعلى النقيض من هذا فإنه يقترن بالتراث العلمى التأليفى خارطات معروفة لنا فى نماذج محدودة وذلك فى الترجمة المصلحة لبطلميوس التى عملها محمد الخوارزمى، وهى التى عالجنا الكلام عليها بالتفصيل فى حينه؛ وقد افترض العلماء بالطبع أن خارطاته تسير إلى حدما وفقاً لمنهج بطلميوس الذى لا يمثله فى الوسط العربى المتأخر سوى الإدريسى.

وخارطات المدرسة الكلاسيكية لا علاقة لها البتة بهذه النماذج البطلميوسية إذ هى تمثل «أطلس الإسلام» الذى يعتبر نسيج وحده والذى يحوى دائماً وفى نظام لا يتغير إحدى وعشرين خارطة تتتابع بالصورة الآتية: أولاهن «خارطة العالم المستديرة»، تليها خارطات جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم، ثم أربع عشرة خارطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامى (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها ارّان وآذربيجان أيضاً والجبال وكيلان ومعها طبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر)[٤٨]. ومما يؤكد صحة الرأى القائل بأن هذا الأطلس إيرانى الأصل أن كل مقاطعة إيرانية تظفر فيه بخارطة مستقلة، فى الوقت

* دبيق بلد بمصر بين الفرما وتنيس خربت الآن، وكانت تشتهر بصناعة الثياب. (المترجم)

** تستر أو شستر بلد بإيران. (المترجم)

الذى خرج فيه الغرب بعدد أقل من الخارطات تنتظم مساحات جغرافية أكثر اتساعاً من رصيفتها الإيرانية . والغرض الأساسى من الأطلس هو تصوير « العالم الإسلامى » بالذات وذلك وفقاً لمفهوم هذا اللفظ عند الإصطخرى وابن حوقل كما اتضح من الشذرة التى أوردناها منذ قليل(٤٩) . 208

ولا يزال الغموض يكتنف الظروف التى أحاطت بظهور « أطلس الإسلام » ، ويميل اشبرنجر Sprenger(٥٠) ونالينو Nallimo(٥١) ، وذلك استناداً إلى إشارة مبهمة وردت بكتاب « الفهرست »(٥٢) ، إلى الاعتقاد بأن أبا زيد البلخى قد اعتمد فى الأصل على الخارطات التى وصفها الفلكى أبو جعفر الخازن . غير أن هذا الفرض لا يكاد ينهض على أساس ، فالخازن قد توفى على ما يبدو بعد عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١(٥٣) أى أنه كان أصغر سناً من البلخى بكثير ، أضف إلى هذا أنه لا توجد أية علاقة بين الخارطات نفسها وبين الجغرافيا الفلكية ، تماماً كما هو الشأن مع متنَى الإصطخرى(٥٤) وابن حوقل(٥٥) ؛ هذا إلى جانب خلوها من أى أثر للتقسيم إلى سبعة أقاليم المأخوذ عن جغرافيى المدرسة الرياضية ، بل إن لفظ « إقليم » نفسه يستعمل فى هذا الصدد للدلالة على المنطقة الجغرافية (Region) التى تصورها الخارطة . وجميع خارطات هذه المجموعة مستقلة كل واحدة عن الأخروات ولايمكن وصلها ببعضها البعض لتكوين خارطة عامة ، كما وأنه لا يوجد فيها أى أثر لخطوط الطول والعرض . ومما يوكد مرة أخرى انعدام الصلة بينها وبين الجغرافيا الفلكية هو أنه لا علاقة لها البتة بخارطات الخوارزمى ؛ وربما كانت الفكرة الأساسية التى قامت عليها هى تصوير طرق المواصلات .

ويسوقنا نظام توزيع هذه الخارطات إلى الافتراض بأنها ترجع فى أصلها إلى « أطلس إيران » القديم ولكن جرت فيه يد التعديل بصورة طفيفة ليتفق مع حاضر العالم الإسلامى آنذاك ، ثم أضيفت خارطة العالم والبحرين إلى خارطات المقاطعات الإيرانية الأصلية ؛ وربما ارتبطت خارطة العالم هذه بالخارطة « المأمونية » التى سبق الكلام عليها . أما بقية الخارطات فهى تمثل إما خارطات المقاطعات القديمة للدولة الساسانية وإما خارطات لمقاطعات كانت تخضع حيناً من الدهر لتلك الدولة على نحوما ، مثل بلاد العرب وأرمينيا وسواحل بحر قزوين وما وراء النهر وربما السند أيضاً . أما الشام وفلسطين فقد كانتا بالطبع من أراضى الدولة الرومانية الشرقية ولكن نظراً لأنهما كانتا تمثلان معبراً أساسياً للمواصلات يربط إيران بالغرب وبالبحر الأبيض المتوسط فقد نالتا أهمية خاصة بالنسبة للساسانيين . من هذا يتضح أن الأطلس قد وضع فى الأصل من أجل الإمبراطورية الساسانية القديمة ولم تمسه يد التعديل والتحوير إلا قليلا ليتفق مع حاجة المسلمين فى القرن العاشر(٥٦) . وقد لوحظ أن تقسيم الأقطار المختلفة إلى مقاطعات يتفق مع الطريقة التى اتبعها البلاذرى عند الكلام على فتوحها(٥٧) . 209

أما الخارطات نفسها فيمكن القول على وجه العموم بأنها تدل على معرفة بالحقائق الجغرافية أدق مما كان عليه الحال فى أوروبا لذلك العهد ، الأمر الذى يمكن الحكم عليه من خارطة الراهب الإسبانى

للقرن الثامن بياتوس Beatus[٥٨] . ويلاحظ أن الخارطات العربية خلو من صور الناس والحيوانات التى كانت تحفل بها الخارطات الأوروبية التى وضعت فى العصور الوسطى ، ولكن فى مقابل هذا بدا واضحاً فى « أطلس الإسلام » بوجه خاص ، وفى خارطة العالم المستديرة بالذات ، الجنوح إلى تصوير السواحل والأنهار تصويراً هندسياً ؛ ففى بعض خارطات الإصطخرى مثلا يصور البحر الأبيض المتوسط فى شكل كروى أو إهليلجى تقريباً[٥٩] . وخارطة العالم المشار إليها قد نالت انتشاراً واسعاً فى الأدب الجغرافى المتأخر ويمكن التعرف عليها دون صعوبة تذكر خلال جميع الرسوم التى نقلها القزوينى وابن الوردى فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر وكذلك فى خارطات الإدريسى المستديرة التى تنتمى إلى مدرسة أخرى ؛ بل وربما تعتمد عليها أيضاً الخارطة المستديرة الطريفة لمخطوطة كتاب محمود الكاشغرى الموجودة باستنبول ، وهو مؤلف من رجالات النصف الثانى للقرن الثانى عشر[٦٠] .

وهناك احتمال كبير فى أن يكون العرب قد عرفوا فى العصر الذى وضع فيه « أطلس الإسلام » خارطات من أصل آخر لا ترتبط به ويتردد ذكرها حيناً بعد حين فى مصادر مختلفة . فالمقدسى الذى سيرد الكلام عليه بعد قليل يذكر عرضاً أنه أبصر فى بعض مكتبات الأمراء والأفراد[٦١] ما لا يقل عن أربع خارطات . ومن العسير الحكم من هذه الملاحظات المتناثرة على أصل هذه الخارطات وصفتها وتأثيرها على الخارطات التالية ، أما فيما يتعلق « بأطلس الإسلام » فإنه توجد لدينا مادة وفيرة ، وبالرغم من أن تفاصيل كثيرة قد بقيت خافية علينا إلا أننا نستطيع بكل اطمئنان أن نعده الخطوة الثانية والأهم فى تاريخ الكارتوغرافيا العربية . أما الخطوة الثالثة والأخيرة فتمثلها خارطات الإدريسى المشهور .

وكما هو الشأن مع الخارطات فإنه يحيط بمتن مصنفات المدرسة الكلاسيكية عدد من المشاكل المعلقة ؛ والأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن توزيع المادة الجغرافية فيها يعتمد اعتماداً تاماً على الخارطات ويخضع بصفة عامة لمنهج صارم محدد ؛ فيبدأ وصف كل منطقة بالكلام على المدن والأنهار فالجبال فالسكان ، ويعقب ذلك وصف طرق المواصلات . ومثل هذا الترتيب ملائم للغاية لأنه يفسح المجال لضم أية كمية من المادة الجديدة المأخوذه عن الرحالين وعن الوثائق الرسمية أو التى تجمعت بنتيجة نمو المادة التاريخية | 210 أو الموجودة فى مظان أخرى. ولعل فيما زاده ابن حوقل على الأقسام المتعلقة بأفريقيا وأسبانيا ما ينهض مثلا حياً لهذا[٦٢] .

وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية هو المُقَدَّسى الذى يعتبره اشبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة »[٦٣] . وإذا شاب هذا الرأى بعض المبالغة من جانب عالم كان من أوائل من بحثوا فى هذا الموضوع ، وهو الذى اكتشف أول مخطوطة لمصنف المقدسى ، إلا أنه يمكن أن نسلم دون تحفظ برأى العالم المعاصر كرامرس Kramers الذى يرى فى المؤلف أكثر الجغرافيين العرب إصالة وفى المصنف نفسه واحداً من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة[٦٤] . وفى تحليله للكتاب يستدرك اشبرنجر

على نفسه بالكثير من الصواب فيقول «ولا أعنى بذلك أن كتابه فى الجغرافيا يفوق المؤلفات الحديثة فى هذا الفن ، إذ يعوزه من أجل ذلك تجربة الأجيال التالية . ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص فى اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التى جمعها لصياغة منظمة »[٦٥] .

ولعل اسمه فى حاجة إلى بعض التوضيح ، فهو كمعظم المؤلفين العرب غير معروف باسمه الكامل الذى يرد على صفحة العنوان بإحدى مخطوطات كتابه[٦٦] وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البنّاء الشامى المقدسى البشارى ؛ ولكنه اشتهر فى الغالب بإحدى نسبتيه الأخيرتين . والأولى منهما ترتبط بالاسم الذى أطلقه العرب على أورشليم التى إلى جانب « القُدْس » تدعى أيضاً « البيت المُقَدَّس» أو « بيت المَقْدِس » ، هذه الصيغة الأخيرة هى التى يتمسك بها اللغويون المتشددون[٦٧] ولاتزال تحتفظ بها إلى يومنا هذا إحدى الأسر العربية الكبرى وهى أسرة المَقْدسى (ينطقه العامة غالباً بضم الميم) ؛ غير أن صيغة المقَدَّسى واسعة الانتشار كذلك ؛ ولعل المؤلف نفسه يشير إلى هذه الصيغة الأخيرة فى قطعة شعرية يختتم بها كتابه حيث يُجرى لعباً بالألفاظ حول تعبير « حكمة مُقَدَّسة »[٦٨] . وياقوت فى القرن الثالث عشر كان يدعوه فى معظم الأحوال بنسبته البشّارى وأحياناً بأسمائه الأخرى مثل ابن البنّاء مثلا .

والاسم الأخير يرتبط بتاريخ حياته ، فقد ولد المقدسى فى عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ — ٩٤٧ ببيت المقدس وكان حفيداً لبنّاء اشتهر ببنائه لميناء عكا فى عهد أحمد بن طولون ؛ وتنعكس فى كتاب حفيده نفسه بين آونة وأخرى ميوله المعمارية التى ربما ورثها عن جده . أما أسرة | أمه فتنتمى إلى قرية بيَسّر من أعمال 211 قومس على مقربة من حدود خراسان وقد يسرت له عوامل النسب والقرابة التعرف على نصف العالم الإسلامى ، ودفعه ولعه بالأسفار إلى زيارة جميع أنحائه باستثناء الأندلس والسند وربما سجستان أيضاً . ويلوح أنه قد زار صقلية كما أثبت ذلك أمارى Amari الذى حلل روايته عن تلك الجزيرة[٦٩] ؛ أما معلوماته عن الأندلس فقد نقلها كما يذكر هو نفسه عن حاجين التقى بهما فى مكة عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧[٧٠] . ولكن معلوماته عنها كما بين دوزى Dozy[٧١] يسودها بعض الاضطراب وتفتقر إلى الكثير من الوضوح . ويلاحظ منها أن المؤلف لعدم معرفته المباشرة بتلك البلاد لم يكن بوسعه أن يفهم دائماً ما يروى له ؛ وزعماً عن هذا فإن روايته هذه مفيدة بل وقيمة جداً فى بعض الأحايين .

ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة ونشاطه الجم فى محيط الأدب والكارتوغرافيا فقد استطاع المقدسى وهو فى سن الأربعين أن يضع كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . ويبدو أن الكتاب قد وجد فى مسودتين ترتفع إحداهما وفقاً لألفاظ المؤلف نفسه إلى عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ — ٩٨٦[٧٢] ، أما الثانية وهى التى استعملها ياقوت فقد أكملت بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ وذلك فى عام ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ — ٩٨٩[٧٣] . ولايخلو من مغزى بالنسبة للأوضاع السياسية فى ذلك العهد أنه رفع المسودة الأولى

إلى آل سامان بينما قدم الثانية إلى الفاطميين . والمسودتان تنعكسان بوضوح تام فى المخطوطتين المعروفتين لدى الدوائر العلمية واللتين ترتكز عليهما الطبعة العلمية الموجودة بين أيدينا الآن(٧٤) . وغير معروف عام وفاة المؤلف على وجه التحديد ولكن من الراجح أن المقدسى توفى فى أواخر القرن العاشر وذلك حوالى عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ .

وفى أحد فصول مقدمته الطويلة كما وأيضاً فى استطرادات ذات طابع شخصى فى صلب الكتاب يحدثنا المقدسى عن منهجه فى التأليف . ولانملك إلا الاعتراف بأنه قد أبدى فى هذا الصدد الكثير من التمحيص والتدقيق فى المنهج . قال : « اعلم أننى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدى الصواب واستعنت بفهم أولى الألباب وسألت الله عز اسمه أن يجنبنى الخطأ والزلل ويبلغنى الرجاء والأمل فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلقته وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ومن قواعده أيضاً وأركانه وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوى العقول من الناس ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال فى الأطراف التى بعدتُ عنها ولم يتقدر إلى الوصول إليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبته وما اختلفوا فيه نبذته وما لم يكن له بدٌّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته وما لم يقرّ فى قلبى ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو قلت زعموا ووشحته بفضول* وجدتها فى خزائن الملوك .

وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التى قصدتها ولاطلب الفوائد التى أردتها ... فهذا ما وقع إلينا من المصنفات فى هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب وقد اجتهدنا فى أن لا نذكر شيئاً قد سطروه ولانشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم مع أنه لايعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر فى كتبهم أو دوّخ البلدان(٧٥) وكان من أهل العلم والفطنة . ثم إنى لا أبرئ نفسى من الزلل ولا كتابى من الخلل ولا أسلمه من الزيادة والنقصان ولا أفلته من الطعن على كل حال »(٧٦) .

يتضح جلياً من هذا القول أن المقدسى يقف موقف الناقد بل والمتعسف أحياناً من السابقين له فى هذا المضمار ؛ وهو يؤكد أكثر من مرة فضل كتابه على كتب الآخرين دون أن يبذل جهداً فى إخفاء فخره واعتداده به . وفى استطراد له فى وسط الكتاب ، وذلك فى الفصل المفرد للمغرب ، كتب يقول :

« فإن قال قائل إنك تركت كثيراً من العجائب فى هذا الإقليم لم تذكرها قيل له إنما تركنا ما ذكره مَن قبلنا فى تصانيفهم ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا وأوحش شىء فى كتبهم ضد ما ذكرنا ألا ترى أنك إذا نظرت إلى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه وبناه عليه وإذا نظرتَ فى كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم وإذا نظرت فى كتابنا

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها فصول ، وهكذا يترجمها . (المترجم)

وجدته نسيج* وحده يتيما فى نظمه(٧٧) ولو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصى الإسلام وأرانا أسبابه وألهمنا قسمته وجب أن نهى ذلك إلى كافة المسلمين ألا ترى إلى قوله تعالى قلْ سِيرُوا فى الأرض أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا وفيما يذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر»(٧٨) .

213

وينضم كتاب المقدسى إلى السلسلة التى بدأها أبو زيد البلخى ، ويمكن اعتباره آخر ممثل للمدرسة الكلاسيكية الإسلامية بالمعنى الدقيق . وتنعكس صلته بهذه المدرسة فى الخارطات أكثر مما فى المتن نفسه ؛ وخارطاته تعيد إلى الذاكرة الطابع البدائى لخارطات الإصطخرى ويلاحظ فيها تقدم المعلومات الجغرافية الذى ينعكس بوضوح فى الكتاب نفسه . أما تقسيم المناطق عنده — ويطلق عليها كذلك اسم أقاليم — فيختلف بعض الشيء عما عليه الحال فى « أطلس الإسلام » ، ولكن الفرق بين المشرق والمغرب واضح جداً لديه . وهو يمس أحياناً معطيات الجغرافيا الفلكية ولكن مساً رفيقاً(٧٩) ، كما وأنه يقصر وصفه على على العالم الإسلامى شأنه فى هذا شأن جميع ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، واضعاً فى اعتباره أمرين فحسب كما يقول هو نفسه :

« ولم نذكر إلا مملكة الإسلام حسب ولم نتكلف ممالك الكفار لأنها لم ندخلها ولم نر فائدة فى ذكرها بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها »(٨٠) .

لهذا فلا نجد أية معلومات لديه عن أوروبا الشرقية أو سواحل البحر الأسود ؛ غير أن وجود المسلمين بتلك الأصقاع يضطره أحياناً إلى الكلام عن البلغار والخزر(٨١) .

والفصول الأولى من الكتاب التى بمثابة مدخل إليه طويلة بعض الشيء ولاتخلو من الأصالة عند المقارنة بكتب السابقين له ، إذا تنعكس فيها شخصيته واضحة للعيان(٨٢) ؛ ومنها يستدل على أنه قد أعاد النظر فى المسودة بحيث يصبح من العسير تتبع الخطة فى كتابه . ويلى المقدمة التى اقتبسنا منها عدة مرات فى صلب كتابنا هذا وصف البحار والأنهار مع محاولة لربط وصف البحار كما هى العادة بنظرية مذهب البحرين . أما الفصل الذى يعقده للكلام على أسماء الأماكن (Toponomy) فيتناول فيه الحديث على المواضع المختلفة التى يجمع بينها اسم واحد والموضع الواحد الذى يحمل عدة أسماء . ويلى هذا فصلان يحويان وصفاً موجزاً لخصائص « الأقاليم » المختلفة والمذاهب الإسلامية . ويعترض السرد العام حكايته المشهورة للمغامرات التى مرت عليه خلال أسفاره وتجوالاته والتى يعرض لنا فيها لوحة من أمتع اللوحات التى تصور حياة المسلمين فى ذلك العهد رغماً من أن عرضه لا يخلو من الزهو والفخر بالنفس .

وأول من لفت الأنظار إلى هذه الحكاية هو دى خويه (١٨٧٥) الذى ترجمها إلى الهولندية ترجمة كاملة بالتقريب . ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى ترجمات أقسام منها بقلم كريمر Kremer (١٨٧٧) ونالينو

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها « تسيج » كما ورد بالأصل . (المترجم)

214 Nallino (١٨٩٥) ومؤلف هذا الكتاب (١٩٣٧) وغيرهم . | وقد ظهرت لها ترجمة كاملة بقلم رانكنغ Ranking وأزو Azoo (١٨٩٧) ثم أخيراً بقلم سوفاجيه Sauvaget (١٩٤٦)[٨٣] . وهذه الحكاية مكتوبة فى لغة مسجوعة تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة لذا فإنها تمثل أنموذجاً طريفاً لأسلوب المقدسى ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى . وإن الصعوبات التى تعترض فهم هذه القطعة قد جعلت من ترجمتها أمراً عسيراً ولكن على أية حال ليس بالدرجة التى تقف حائلا دون ترجمتها فى الظروف المعاصرة . وإليك النص الكامل لها* :

« ذكر ما عاينت من الأسباب[٨٤] . اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا فى هذا الباب وإن كانت مختلفة غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثانى ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم ، حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب ولقد سُمّيتُ بستة وثلاثين اسما دُعيتُ وخوطبتُ بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخراسانى وسلمى ومقرئ وفقيه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسيّاح ووراّق ومجلّد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى ومتؤدب وكرىّ ومتفقه ومتعلم وفرائضى وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها وكثرة المواضع التى دخلتها ، ثم إنه لم يبق شىء مما لحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقّهت وأدّبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت فى المساجد وذكّرت فى الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل وتكلمت فى المجالس | وأكلت 215 مع الصوفية الهرائس ومع الخانقاءيين الثرائد ومع النواتى العصائد وطُردت فى الليالى من المساجد وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى وصدقت فى الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً وصحبت عبّاد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق وقُطع على قوافلنا الطرق وخدمتُ القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت فى الطرق الفسّاق وبعت البضائع فى الأسواق وسُجنت فى الحبوس وأخذت على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم فى الشوانى وضرب النواقيس فى الليالى ، وجلّدت المصاحف بالكرى واشتريت الماء بالغلى وركبت الكنائس والخيول ومشيت فى السمائم والثلوج ونزلت فى عرصة فى الملوك بين الأجلّة وسكنت بين الجهال

---

* يورد المؤلف ترجمة دقيقة لهذه القطعة باللغة الروسية ويشرح الألفاظ الصعبة فى الهامش . أما نحن فنكتفى بالطبع بإيراد النص العربى كما هو دون إجراء تصحيحات فيه . (المترجم)

فى محلة الحاكه ، وكم نلتُ العز والرفعة ودبّر فى قتلى غير مرة وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق وأكلت الخبز والجلبان بالسيق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وجمّيز عسقلان السبيل وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لى بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات وكاتبنى السادات ووبخنى الأشراف وعُرضت على الأوقاف وخضعت للأخلاف ، ورميت بالبدع واتهمت بالطمع وأقامنى الأمراء والقضاة أميناً ودخلت فى الوصايا وجُعلت وكيلا وامتحنت الطرّارين ورأيت دُوَل العيّارين واتبعنى الأرذلون | وعاندنى الحاسدون وسعى بى إلى السلاطين ، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية 216 ورأيت يوم الفوّارة وعيد برباره وبئر بُضاعة وقصر يعقوب وضياعه* . ومثل هذا كثير ، ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنّا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ، ويميزه من غيره ، فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع . ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علىّ من التقصير فى أمور الشريعة ، ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، قد مسحت على القدمين وصليت بمُدْهامّتان ونفرت قبل الزوال وصليت الفريضة على الدواب ومع نجاسة فاحشة على الثياب وترك التسبيح فى الركوع والسجود وسجود السهو قبل التسليم ، وجمعت بين الصلوات وقصرتُ لا فى سفر الطاعات ، غير أنى لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتّة ، وما سرت فى جادّة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديماً ، وربما اكتريت رجالا يصحبونى وجعلت مسيرى فى الليل لأرجع إلى رفقائى مع إضاعة المال والهم » .

هذه القطعة تذكرنا بعض الشيء بالمقدمة المعروفة لليعقوبى ، ولكنها تمتاز عليها بحيوية أكثر فى العرض؛ وفى مدى بضعة قرون سنلتقى بابن بطوطة الرحالة التى لم تكن مشاهداته بأقل مما شاهده المقدسى هذا إن لم يزد عليه ، بل إن تجواله انتظم مجالا أوسع . غير أن عرض ابن بطوطة قد ذهب بأجمعه فى الرحلة ولا يوجد لديه أثر للحديث عن مصادره كما فعل المقدسى فى بداية كتابه بمهارة وبراعة فائقتين | . 217

ولا تقف فصول المدخل عند هذا الحد ، فقد رجع المؤلف إلى الكلام على الأماكن المجهولة الموقع وتعداد المدن والنواحى (« الأمصار والقصبات ») والنقاط المأهولة بها . ويلى هذا الكلام على تقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة المعروفة لنا ، وعلى موضع القبلة وامتداد « دولة الإسلام » . وجميع هذه الفصول الأولى من الكتاب تمثل ما يقرب من سدسه ، وفقط عند استيفاء الكلام فيها ينتقل بالقارئ إلى وصف البلاد الذى يخضع لتنظيم دقيق على طول صفحات الكتاب. وعند وصفه لكل قطر يقسمه عادة إلى ثلاثة

* فى هامش ص ٤٥ من المتن المطبوع لكتاب المقدسى جاء أن إحدى المخطوطات تقرأ بعد « قصر يعقوب وضياعه » ما يأتى : « والمهرجان والسذه (والسنده) والنيروز بعدن وعجبه وعيد الماوسرجه (المارسرجه) » . وفى الترجمة الروسية أدخل المؤلف هذه الألفاظ فى صلب المتن . (المترجم)

أقسام غير متساوية الحجم ، ففى القسم الأول يرد الكلام على أقسام المنطقة ومدنها والمواضع العامرة منها ؛ أما القسم الثانى فيبحث فى المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ؛ هذا فى حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات(٨٥) . وليس من العسير أن نلاحظ أن المقدسى قلّ أن يولى اهتمامه للجغرافيا الطبيعية كأن يصف مثلا الجبال والمياه إلخ ، ولكنه فى مقابل ذلك يقدم لنا لأول مرة مجموعة هائلة من المعلومات عن التجارة والمعتقدات والعادات .

ويبدأ وصف المناطق المختلفة ، وذلك وفقاً للترتيب المشار إليه ، بجزيرة العرب فالعراق فأقور* فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام التى ينتهى بها القسم الأول . أما القسم الثانى فيبدأ بالمشرق الذى يقسمه المقدسى إلى بلاد الهياطلة وخراسان والديلم وأرمينيا ومعها أذربيجان والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند ومفازة فارس . وهكذا نجد أن الجزء الأساسى من كتابه إنما يسير حسب المنهج العام للمدرسة الكلاسيكية على الرغم من استطرادات المؤلف العديدة .

ولعل لغة المقدسى وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب بل إلى أعسر أساليب « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Aabicorum اطلاقا . وإذا كان الاصطخرى يتبع أسلوباً مبسطاً فى كتابه ويمكن تفسير بعض الوعورة فيه بأن اللغة العربية لم تكن لغته الأصلية ، وأن ابن حوقل بدوره لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلى السجع فإن المقدسى قد أوفى على الغاية فى هذا الباب ، إذ بالرغم من تملكه لناصية اللغة نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة فيفسح المجال للسجع لا فى بداية الكتاب وخاتمته فحسب بل وفى صلبه أيضاً ، ولداع أو لغير داع . ويحفل متن المقدسى بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال لأنه كان يميل بعض الشىء إلى غريب اللغة . وهو يقول فى خاتمة أحد الفصول الأولى :

218 « وسنتكم فى كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم ونضرب من أمثالهم لتعرف | لغتهم ورسوم فقهائهم ، فإن كنا فى غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام لأنها إقليمى الذى به نشأت . . . ألا ترى إلى بلاغتنا فى إقليم المشرق لأنهم أصحُّ الناس عربية لأنهم تكلفوها تكلفاً وتعلموها تلقُّفاً ، ثم إلى ركاكة كلامنا فى مصر والمغرب وقبحه فى ناحية البطائح لأنه لسان القوم »(٨٦) .

ومن كتابه يتبين أن المقصود بهذا بالتأكيد ليس لغة الكلام التى لايلتفت إليها الأدباء عادة ، إنما يعنى بالذات الاختلاف فى استعمال الألفاظ الكتابية بين المناطق المختلفة .

ومن الواضح أن مثل هذا يصعِّب كثيراً من لغة المقدسى وأسلوبه ، ولعل هذا من الأسباب التى حالت دون ظهور ترجمة لكتابه إلى الآن ، شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية . والترجمة

* أقور أو أثور منطقة شمال العراق ، أى الجزيرة Mesopotamia . (المترجم)

الإنجليزية التى بُدئت فى الهند وقفت عند مصر ، أى فيما يمثل خمس الكتاب فقط . وفى السلسلة التى نظمها فيران Ferrand لترجمة مصنفات الجغرافيين العرب اقترح أن يعهد لوليم مارسيه Marçais بترجمة المقدسى ؛ وبالطبع فإن ذلك كان سيكون فتحاً جديداً فى دراسة المقدسى لأن مارسيه كان من بين معاصريه خير من يعرف النثر العربى القديم ؛ بيد أن الفكرة قبرت مع الأسف بوفاة فيران .

إن شخصية المقدسى لتختتم بجدارة المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية وسلسلة الجغرافيين الكبار للقرن العاشر ، غير أن شخصيته لا تتمتع بالكثير من الجاذبية والعطف ؛ فأسلوبه لا يخلو من التكلف فضلا عن أن اعتداده الشديد بنفسه قد يحدث أحياناً بعض الضيق للقارئ . ولكن من غير المستطاع أن يغمطه إنسان نصيبه من الفهم والذكاء وألا يعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة ؛ لذا فيجب الاتفاق مع اشبرنجر وكرامرس فى اعتباره جغرافياً عظيما وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة .

حواشی الفصل السابع

(١) — Bartold, Istoria izuchenia Vostoka, 2 ed, p. 54

(٢) — Kramers, El, EB, p. 66

(٣) — De Goeje, ZDMG, 25, p. 42

(٤) المقدسی ، BGA, III ، ص ٤

(٥) حدود العالم ، ص ١٣ — ١٤

(٦) — De Goeje, ZDMG, 25, p. 46

(٧) راجع : حدود العالم ، ص ١٧ والملاحظة ٣

(٨) — Ritter, DI, XIX, p. 55 - 56

(٩) — Nallino Cosmos. XII, p. 46

(١٠) — Amari Bibl. ar - sic. (versione), I, p. XXIV

(١١) — Hudud, p. 191 - 192, No 28

(١٢) — Kmoskó, p. 141 - 148

(١٣) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 408

(١٤) حدود العالم ، ص ١٥

(١٥) — Taeschner ZDMG, 77 (2), p. 39 - 40, note 3

(١٦) ابن‌حوقل ، BGA II ، ص ٥ = BGA, II^2 ، ص ٣

(١٧) — De Goeje, ZDMG, 25, p. 46 — Nallino, Cosmos, XII, p. 47 - 48 — Kramers, AO, p. 18

(١٨) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦

(١٩) — Kudrian, b. 84 - 85

(٢٠) — Kramers, AO, p. 17 — BGA, II^2 p. V

(٢١) — BGA, II, p. 7 - 10 = BGA, II^2, p. 5 - 10;
الترجمة حسب طبعة كرامرس (Kramers, Ibn Haukal)

(٢٢) — BGA, II, p. 14 = BGA, II^2, p. 15 — Kunik i Rozen, II, p. 171 - 172

(٢٣) — Markwart, Streifzüge, p. 474 - 475 — Bartold Bulghar, p. 823

(٢٤) — Kvalen, Dat norske Gurdariki, II, p. 3;
ولكن راجع : Mzik, WZKM, XLVI, p. 317

(٢٥) — Kramers AO, p. 18

(٢٦) — Kramers, L'Êrythrée, p. 573 - 574

(٢٧) — Kramers BGA, II^2 p. VI

(٢٨) — Amari (Nallino), I, p. 46 - 47, No 6

(٢٩) شرحه ، الجزء الثانی ، ص ٣٣٦ — ٣٥٤

(٣٠) — BGA, II, p. 42 = II², p. 61 = Kramers, Legacy, p. 102
(٣١) — Dozy, Hist. des Musulmans, III, p. 17, 21, 181 - 182
(٣٢) — Lewis, The Origins, of Ismailism. p. 99
(٣٣) رد على ابن حوقل فى آرائه عن أخلاق الأندلسيين الجغرافى الأندلسى ابن سعيد فى القرن الثالث عشر .
راجع : Moritz, Ibn Said
(٣٤) — Lévi - Provençal, La Civilization, p. 53 - 54
(٣٥) حدود العالم ، ص ١٥
(٣٦) — BGA,, II², p. V
(٣٧) — Kramers EI, EB, p. 69
(٣٨) المقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ — ١٣١
(٣٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٨ — ١٣٩ — و
Brockelmann, GAL, SBI, p. 408
(٤٠) — Kramers, Legacy, p. 80 - « four «, but the text
خمسة : BGA, II, p. 16 = BGA, II ², p. 17
(٤١) — BGA, II, p. 16 = II², p. 16 - 17 — Kramers, Legacy, p. 80
(٤٢) — Kramers, Legacy, p. 85
(٤٣) شرحه ، ص ٨٥ — ٨٦
(٤٤) البلاذرى ، طبعة De Goeje, ، ص ٣٧١ = طبعة القاهرة ، ١٩٠١ ، ص ٣٧٩ : فقدموا عليه ومعهم صورة البطيحة .
(٤٥) — Kramers, EI, EB, p. 66
(٤٦) الفهرست ، ص ٢٨٥ : ورأيت هذه الصفة فى ثياب دبيق خام بأصباغ وقد شمت الأصباغ .
(٤٧) — Quatremére, Mémoires géographiques II, p. 377 =
زكى محمد حسن ، ص ٥٣ Reinaud, Introduction, p. CCLXIII
(٤٨) — Kramres AO, p. 10
(٤٩) — Kramers, EI, EB, p. 66
(٥٠) — Sprenger, Reiserouten, p. XIII - XIV
(٥١) — Nallino, Cosmos, XII, p. 46, note 2
(٥٢) الفهرست ، ص ١٣٨
(٥٣) — Suter, Mathematiker, p. 58, No 124 Sarton,Introduction p. 664
(٥٤) الاصطخرى ، BGA, I ، ص ٣
(٥٥) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٤
(٥٦) — Mzik, die Karten, p. 28
(٥٧) — Kramers EI, EB, p, 66
(٥٨) الصورة لدى : Sarton, Introduction, I, p. 536; J. K. Wright, Geogr. Lore, 69 —
(٥٩) — Kramers Legacy, p. 87
(٦٠) — Kramers, EI, EB, p. 67

(٦١) المقدسى ، BGA, III ، ص ١٠

(٦٢) — Kramers EI, EB, p. 66

(٦٣) — Sprenger, Reiserouten, p. XVIII : « ... der grösste Geograph den es je gegeben hat »

(٦٤) — Kramers, Al - Mukaddasi, p. 765

(٦٥) — Sprenger, Reiserouten, p. XVIII = De Goeje, Eenige, p. 3

(٦٦) — Kramers, Al - Mukaddasi, p. 765

(٦٧) — Fischer, Al - Maqdisi, p 404 - 410

(٦٨) المقدسى ، BGA, III ، ص ٤٩٨ راجع : Schwartz, Iran, II, p. VI
Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, note 1

(٦٩) عن زيارته لصقلية : ص ٣٥٦ — Amari (Nallino), II, p. 354 - 363;

(٧٠) المقدسى ، BGA III ص ٢٢٣ ، ملاحظة ا ؛ ص ٢٣٥

(٧١) — Dozy, Recherches, I, p. 313

(٧٢) المقدسى ، BGA, III2 ص ، ٩

(٧٣) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣

(٧٤) عن مخطوطة اياصوفيا ، وهى أصل مخطوطة ليدن ، راجع : Ritter, DI, XIX, p. 57

(٧٥) راجع : Nallino, Cosmos, XII, p. 49 - 50

(٧٦) المقدسى ، BGA, III2 ص ٣ ، : ٥ – ٦

(٧٧) — Nallino, Cosmos, XII, p. 44 - 50 : « ... emergere sola ed unica nel suo genere »

(٧٨) المقدسى ، BGA, III ص ٢٤١ — راجع : Nallino, Cosmos XII, p. 49

(٧٩) — Kramers, EI, EB, p. 66 - 67

(٨٠) المقدسى ، BGA, III2 ، ص ٩

(٨١) شرحه ، ص ٣٦٠ = ٣٦١ — Markwart, Streifzüge, p. 3

(٨٢) — Kramers Al Mukaddasi, p. 765

(٨٣) — 1875 : De Goeje, Eenige, p. 2 - 3 : 1877 : Kremer, Culturgschichte, II, p. 429 - 432; 1895 : Nallino, Cosmos XII, p. 50 - 51; 1897 : Ranking — Azoo p. 73 - 80; 1937 : Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 746 - 747; Sauvaget, Hist. Arabes, translation of preface, p. 65 - 68, 68 - 69

(٨٤) المقدسى ، BGA, III2 ، ص ٤٣ – ٤٥

(٨٥) أكثر تفصيلا لدى : — Beliaev, MITT, I, p. 28

(٨٦) المقدسى ، BGA, III2 ، ص ٣٢

الفصل الثامن

جغرافيو القرن العاشر الآخرون

219 إن المصنفات التى وضعها جغرافيو المدرسة الكلاسيكية لتعجز عن أن تستوعب جميع نتاج الأدب الجغرافى فى القرن العاشر ، ولقد تبين لنا من خلال أحد الفصول السابقة أن عدد الرحالين الذين خلفوا آثار مدونة عن تجوالهم كان كبيراً جداً بحيث لا يضارعه كثرة إلا تلك المصنفات التى يصعب اعتبارها جزءاً من الأدب الجغرافى إما لأنه تعوزنا المادة اللازمة للحكم عليها أولأنها تدخل فى نطاق هذا الأدب بطريقة ما .

فمن بين مصنفات النوع الأول يتمتع واحد منها بصيت واسع فى الأدب الجغرافى القديم ولكنه غير معروف لنا حتى الآن بصورة مباشرة ، ومؤلفه هو وزير السامانيين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن نصر الجيهانى[1] الذى مر بنا ذكره أكثر من مرة بوصفه راعياً ومشجعاً للدراسات الجغرافية وللرحالين . وقد طوقت رعايته حيناً من الدهر مؤسس المدرسة الكلاسيكية أبا زيد البلخى ، كما خرج على عهده أيضاً أبو دلف فى أسفاره النائية ولعله قد رفع إليه الرسالتين اللتين وضعهما عن رحلته ، كما التقى به ابن فضلان خلال مروره ببخارى فى رحلته إلى الأصقاع الشمالية . ومن الجلى أن منصبه كوزير قد ساعده فى تأليف كتابه هذا الذى اعتمد فيه على المؤلفات السابقة له وعلى رصيد كبير من الأسئلة والاستفهامات .

ومصدرنا الأساسى للحكم على الطابع العام للكتاب هو المقدسى ؛ فقد كتب فى مقدمته المعروفة لنا جيداً يقول :

« أما أبو عبد الله الجيهانى فإنه كان وزير أمير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها وارتفاع الخُنَّس منها وقيام الظل فيها ليتوصل بذلك 220 إلى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم وجعل لكل إقليم كوكباً مرة يذكر النجوم والهندسة وكرّة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة وتارة ينعت أصنام الهند وطوراً يصف عجائب السند وحيناً يفصّل الخراج والردّ ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكور ولا رتب الأجناد ولاوصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقا وغرباً وشمالا وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار وبذلك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الجياد »[2] .

وبنفس هذا الأسلوب القاطع يقرر المقدسى أن ابن خرداذبه هو المصدر الأساسى للجيهانى: «ألا ترى أنك إذا نظرت فى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه وبناه عليه»[٣] ، وفى موضع آخر من إحدى مسوداته يدعم قوله هذا بأمثلة محسوسة فيقول : «ورأيت كتابه فى سبع مجلدات فى خزائن عضد الدولة غير مترجم وقيل بل هو لابن خرداذبه ورأيت مختصرين بنيسابور مترجمين أحدهما للجيهانى والآخر لابن خرداذبه تتفق معانيهما غير أن الجيهانى قد زاد شيئاً يسيراً»[٤] .

ومن العسير التسليم بصدق هذا الزعم استناداً على ألفاظ المقدسى وحده ؛ كما يجب أن نقرّ بحقيقة ثابتة وهى أن الشذور التى تبقت لنا من الجيهانى لا تتفق عادة مع ما هو معروف لدينا من نص ابن خرداذبه . غير أن هذا لا يعتبر رأياً قاطعاً فى حد ذاته لأن طبعة دى خويه إنما تمثل المسودة المختصرة لكتاب ابن خرداذبه وهى وحدها المعروفة إلى أيامنا هذه . وليس بدعاً أن نبصر فى رأى المقدسى بعض التشدد والمبالغة فقد عرف سلفاً بالتشدد فى الحكم على من سبقوه ؛ وفى مقابل هذا نجد المسعودى أكثر اعتدالا فى حكمه ، فهو حين الكلام على مصادره يقول بصدد الجيهانى :

«أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى . . . ألف كتاباً فى صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والانهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة»[٥] . 221

وما كان للمسعودى ، وهو يتحدث عقب هذا مباشرة عن ابن خرداذبه ، أن يغض النظر عن الصلة الوثيقة التى تربطه بالجيهانى لو وجدت تلك الصلة حقاً كما زعم المقدسى .

وبالرغم من إيجاز هذه الإشارات إلا أنها تمكننا من تحديد النمط الذى ينتمى إليه مؤلف الجيهانى ؛ فهو وإن انبعث من نفس الوسط الذى نشأت فيه أول حلقة معروفة لنا من المدرسة الكلاسيكية إلا أنه لا ينتمى إلى هذه الجماعة لأنه يرتبط ارتباطاً بيناً بالجغرافيا الرياضية من جهة ، ويوكد هذا تقسيمه المعمورة إلى سبعة أقاليم . ولدى المقارنة يمكننا أن نقرر بالكثير من اليقين أن استعماله للفظ «إقليم» إنما بمعناه الأول ، أى بوصفها أحزمة عريضة تنتظم المعمورة من الشرق إلى الغرب لا بمعنى المناطق الجغرافية كما هو الحال مع مفهوم المدرسة الكلاسيكية . كذلك لا يوجد ثمة مبرر للأخذ برأى هونغمان Honigmann[٦] الذى يعتقد أن المسألة تتعلق بفكرة اقتران الأقاليم بالكواكب . والسمة الثانية التى تميز كتاب الجيهانى عن تلك المدرسة هو اهتمامه البالغ بالبلاد الأجنبية وهو أمر غريب على المدرسة الكلاسيكية ، أضف إلى هذا أيضاً اهتمامه بالعجائب والغرائب المختلفة Mirabilia .

واستناداً إلى هذه الخطوط الرئيسية فإنه يمكن استشفاف بعض صلة الرحم بين هذا المصنف وكتاب ابن خرداذبه ، بل وكتب بعض المؤلفين الذين مروا بنا كاليعقوبى وخاصة الجاحظ وابن الفقيه ؛ فهذا الفن من المؤلفات فى الجغرافيا الوصفية يقدم معلومات واسعة متنوعة تستطيع أن تجتذب أنظار الطبقات المثقفة لمجتمع ذلك العهد ؛ وهذا ما يؤكده إلى حد ما المقدسى فى حكمه السلبى على الجيهانى . وقد استعمل

هذا الفن فى جمع شتات المعلومات عن العالم التى لم تجد طريقها إلى أدب الحديث أو الأدب الجغرافى فكانت بذلك فى حاجة إلى تنظيم أكثر وإلى صياغة علمية . ومن أسماء بعض المصنفات الأخرى للجيهانى[٧] التى أوردها صاحب « الفهرست » يتضح أنه كان على معرفة بالأدب الإيرانى كالذى ينعكس عند ابن المقفع والجاحظ ، وذلك نتيجة لاتصاله بآل سامان .

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نصدر حكماً مرضياً على تفاصيل ثابتة من كتاب الجيهانى كما حدث عند الكلام على الكتاب نفسه بوجه عام ، إذ أنه لم يعثر له على أثر إلى الآن . وقد ثبت أن ما تردد منذ نيف وعشرة أعوام فى ثنايا مقال خاص[٨] عن الكشف عنه بمدينة مشهد إنما يستند على محض لبس[٩] . واسم الكتاب فيما يبدو كان ، وفقاً للعرف السائد ، هو «كتاب المسالك والممالك » ولو أنه يظهر أحياناً عنوان أكثر تعقيداً هو «كتاب المسالك فى معرفة الممالك »[١٠] .

222

وليس من المستطاع إثبات تاريخ تأليف هذا الكتاب الذى كثرت حوله الآراء والمعلومات الخاطئة إلا بصورة تقريبية . ويفترض بروكلمان Brockelmann[١١] ، ويظاهره فى هنا هير Heer[١٢] وسارطون Sarton[١٣] ، أن الكتاب قد تم تأليفه بين عامى ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ و٢٩٥ هـ = ٩٠٧ . ولكن يضعف من هذا الرأى اعتبارات زمنية ، منها التقاؤه بجغرافيين ورحالة آخرين ، وأنه قد استوزر لأمير سامانى صغير السن هو نصر الثانى بن أحمد (٣٠١ هـ — ٣٣١ هـ = ٩١٤ — ٩٤٣) فى أوائل سنى حكمه[١٤] . ويدلل بارتولد استناداً على رواية كرديزى أن الجيهانى قد وضع مؤلفه فى ذلك الحين ، ومن ثم فهو يميل إلى الافتراض بأن ذلك قد تم قبل عام ٣١٠ هـ — ٩٢٢[١٥] . وتاريخ وفاة الجيهانى غير معروف لنا ؛ أما قول جرجاس Girgas[١٦] بأنه قد توفى عام ٩٥٦ فهو سهو واضح .

فإذا ما اعتبرنا أن الكتاب قد تم تأليفه قريباً من عام ٣١٠ هـ = ٩٢٢ فيجب أن نطرح جانباً بعض المزاعم القائلة بعلاقة الجيهانى بجغرافيي الجيل المعاصر له . ويرى بروكلمان[١٧] أن الجيهانى قد اعتمد فى وضع كتابه على كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وهو زعم لا تدحضه اعتبارات زمنية فحسب ، لأن قدامة كتب بعد الجيهانى أو على الأقل فى وقت واحد معه ، بل أيضاً ما نعرفه عن مصنف الأخير .

ويجب أن نأخذ بعين الحذر والارتياب قول صاحب « الفهرست » أن ابن الفقيه قد « سلخ » كتاب الجيهانى[١٨] . حقاً أن الطابع النقلى لكتاب ابن الفقيه ليس فى الوسع إنكاره ولكن كتابه يرجع تأليفه إلى ما قبل عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ ، أى قبل أن يخرج كتاب الجيهانى إلى عالم الوجود .

وليس هناك شك فى وجود صلة الرحم بين جميع هذه المصنفات فى شكلها ومضمونها ، ولعل هذا من الأسباب التى دفعت صاحب « الفهرست » إلى افتراض فرضه هذا ، وذلك إلى جانب فروض أخرى قام بتحليلها دى خويه تحليلا عميقاً[١٩] .

ويقف ياقوت فيما يبدو من كتاب الجيهانى موقفاً يسوده التحفظ ، فهو يذكره من بين السابقين

له[٢٠] وينقل عنه رواية واحدة ذات طابع غريب تتعلق بمشابهة أرض الصغد لصورة الإنسان[٢١] *

223 ولعل هذا يفسر من ناحية أخرى السبب فى أن ياقوت لم يفرد له فى معجم الأدباء سوى ملاحظة تافهة [٢٢] مليئة بالحكايات عن ضروب من تصرفاته الغريبة ويسوق بيتاً لأحد الشعراء فى ذلك . ويلوح أن المعرفة المباشرة بكتاب الجيهانى قد انقطعت مبكراً وأن معرفة المؤلفين المتأخرين به جاءت فيما يغلب على الظن عن طريق السماع ، فحاجى خليفة عندما يتحدث عنه لا يزيد عن تكرار ألفاظ المقدسى[٢٣] .

وليس أمامنا فى هذه الحال سوى طريقة واحدة لتكوين فكرة واقعية عن مضمون الكتاب وهى دراسة المادة التى حفظها لنا منه المؤلفون الذين نقلوا مادته . وطالما صحب هذه المادة ذكر اسمه فإنه يمكن الاعتماد على هذه الطريقة بالكثير من الثقة ؛ أما الاستنتاجات المبنية على مادة مجهولة المؤلف من شأنها أن تقود إلى بعض التزيد كما رأينا من مثال مسلمة الجرمى . ولعل مصير الجيهانى يكاد يكون شبيهاً لهذا فقد نسبت إليه فى العادة تلك المعلومات الحافلة عن أوروبا الشرقية التى لم يعرف مصدرها بالضبط ، وهى التى استقى منها ابن رسته والبكرى والمؤلفون الفرس مثل صاحب كتاب « حدود العالم » وكرديزى وعوفى . وفى حالات معينة لايوجد مجال كبير للشك فى نسبة بعضها إليه غير أنه ، كما ينصح بارتولد ، يجب إعمال الحذر فى أمثال هذه المواضع[٢٤] . وإذا كان كتاب الجيهانى مصدراً أساسياً عن الأقطار الغربية بالنسبة للمؤلفين الشرقيين فهو أيضاً قد جمع مادة وفيرة عن المشرق . وقد رأينا كيف اعترف المقدسى بأنه كان نشيطاً فى جمع المعلومات عن الأقطار المجاورة لخراسان خاصة وادى السند والهند عامة[٢٥] ؛ وهذه المادة الأخيرة بعينها هى التى تكاد تكون المصدر الوحيد ، أو على الأقل الأساسى ، للادريسى عن تلك البلاد . وليس أقل قيمة من ذلك ما أورده عن القبائل التركية وعن الشرق الأقصى[٢٦] ؛ وقد أثبت بارتولد أنه من الممكن أن يرتفع إليه واحد من أهم أوصاف الطرق التى تربط بين تركستان وعاصمة الصين[٢٧] .

ومما يثبت أن حكم المقدسى لا يخلو من الإجحاف شهادة مؤلف ذى مكانة كالبيرونى الذى لم يأنف من الرجوع إلى الجيهانى أو الاستشهاد به[٢٨] ؛ وفى أمثال هذه الحالات يتوكد ميل الجيهانى إلى طراز العجائب والغرائب . وأطرف من هذا معرفته الواسعة بالديانة المسيحية ، فالبيرونى فى كتابه « الآثار الباقية » ينقل عنه قصة معجزة حدثت بإحدى الكنائس القبطية بمصر ذكّرته بمعجزة « النار المباركة » ببيت المقدس[٢٩] ؛ وفى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » يروى عنه قصة

224 تتعلق بكنيسة اسطفانوس رئيس الشهداء برومة التى كان يوجد بها مذبح ثمين[٣٠] . ويقف دليلا على صلة الجيهانى بالجغرافيا الرياضية أن أحد ممثلى المدرسة الرياضية فى القرن الثانى عشر وهو الخرقى (توفى عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨) [٣١]

* رأينا تحاشيا للغموض أن نورد نص ياقوت بحذافيره . قال : « وقال الجيهانى فى كتابه الصغد كصورة إنسان رأسه بُنْجِيكَث ورجلاه كشانية وظهره وفر وبطنه كبوكت ويداه ما يَمَرْغ وبزماخر » . (المترجم)

قد أفاد من وصفه للبحار[٣٢] ، وهو أشبه بوصف البتانى الذى مر بنا ذكره فيما تقدم من هذا الكتاب . من كل هذا يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن كتاب الجيهانى رغماً عن النقد الذى وجهه إليه المقدسى يستحق اهتماماً كبيراً وأن العثور عليه سيكون من شأنه إلقاء الضوء على مسائل عديدة من ميدان الأدب الجغرافى العربى للقرن العاشر .

ويرتبط بكتاب الجيهانى إلى حد ما مصنف بارز يرجع إلى الربع الأخير من القرن العاشر وتم تأليفه فى المنطقة الواقعة حالياً فى شمال شرقى أفغانستان ، ذلك هو الكتاب الفارسى المجهول المؤلف « حدود العالم من المشرق إلى المغرب »[٣٣]. وبالرغم من أنه مكتوب بالفارسية إلا أنه يجدر بنا الوقوف عنده لا لأنه وجد زعم يقول بأنه ترجم عن العربية فى الأصل[٣٤] بل أيضاً لارتباطه الوثيق بالتراث العربى بحيث لا يكتمل الوصف العام للأدب الجغرافى بدونه .

والمخطوطة الوحيدة المعروفة لنا لهذا الأثر كشف عنها المستشرق الروسى طومانسكى Tumanski فى عام ١٨٩٢ ومن ثم فقد نسبت إليه فى الدوائر العملية فأصبحت تعرف باسم « مخطوطة تومانسكى المجهولة المؤلف » L' Anonyme de Tumanski . وبعد أبحاث كثيرة حول المصنف ظهرت طبعة مصورة له (FaesImile) قام بنشرها بارتولد فى عام ١٩٣٠ ، ثم تلى ذلك ظهور ترجمة إنجليزية علمية تصحبها تعليقات وافية بقلم مينورسكى فى عام ١٩٣٧ . ويمكن القول بلاتردد أنه لا يوجد مصنف جغرافى من العصر الكلاسيكى ظفر بترجمة مثل هذه جعلت منه بحق كنزاً فى متناول أيدى الجميع[٣٥] . ورغماً عن هذا فلا يزال الكتاب إلى الآن مجهول المؤلف ، ولكن ثبت بالتحديد أنه ألف حوالى عام ٣٧٢ هـ = ٩٨٢ لأمير ناحية كزكان أو كزكانان (جزجان فى شكلها العربى) من أسرة صغيرة حاكمة هى آل فريغون . والمؤلف فيما يبدو كان عالماً نقلياً لم يعرف التجوال أو الترحال ؛ وهو لا يميل إلى ذكر مصادره ولكنه يشير مرة أو مرتين إلى كتاب أرسطوطاليس فى «الآثار العلوية» Meteorology ويذكر أيضاً بطلميوس[٣٦] الذى استعمله بالطبع فى ترجمة عربية . وصلته بالأخير أمر لا يرقى إليه الشك فإن أسلوبه فى توزيع البلاد بطلميوسى صرف | ولكنه يهمل الأطوال والعروض ، ولو أن هذا لم يمنعه أحياناً من الاحتفاظ ببعض 226 الأصالة كوصفه للبحار السبعة . ولم يقف إغفاله ذكر المراجع حائلا دون التعرف على مصادره مع البحث العميق والتقصى ؛ ويرى بارتولد أن مصدره الأساسى هو الجيهانى وأنه أفاد بنفس القدر من مصنفات جغرافيى المدرسة الكلاسيكية خاصة من المسودات المختلفة لكتاب الإصطخرى . كما يمكن أن نذكر ابن خرداذبه كمصدر من مصادره الأساسية عن الأقطار الواقعة خارج العالم الإسلامى ؛ ويقيناً أنه اعتمد فى ذلك على نسخة كاملة منه لم تصل إلينا . وبالطبع كان تحت تصرف المؤلف آثار المؤلفين السابقين التى تنعكس فى أقسام مختلفة من كتابه ولكنها لم تلعب دوراً جوهرياً ، ولايزال الأمر يحتاج إلى دراسة دقيقة مهد لها السبيل إلى حد كبير العلامة مينورسكى .

ويشير المؤلف عدة مرات إلى خارطة تم إعدادها فيما يبدو قبل تأليف الكتاب ؛ وليس من المستحيل فى شىء أن يستند وصفه للبلاد على خارطة ولكن لم يلاحظ فى هذا الصدد أية صلة بينها وبين « أطلس الإسلام » المعروف . وينقسم الكتاب إلى واحد وستين فصلا[٣٧] ليست كبيرة الحجم ، فيتلوا المقدمة القصيرة سبعة فصول تعالج مسائل عامة كشكل الأرض وأحوال سكانها والبحار والجزر والجبال والأنهار والصحارى وتقسيم الأرض إلى مناطق . وهذه المناطق قد أفرد لمعالجتها اثنين وخمسين فصلا ابتداء من الشرق فى اتجاه الغرب ، ولو أن تتابعها يضحى أحياناً غير مفهوم لنا فهماً تاماً . ويحمل الوصف عادة طابعاً عملياً مقتضباً ، ويلاحظ لدى المؤلف الاهتمام بمسائل التجارة والمحاصيل المحلية .

ولا ريب فى أن مخطوطة طومانسكى المجهولة المؤلف كانت ذات أثر فعال فى الأدب الجغرافى التالى لها ، غير أن مسألة إلقاء ضوء على هذه الحقيقة مسألة عسيرة تتطلب فحص مصادر عامة ليست معروفة فى مجموعها لنا ، مثل المسودة المكملة لابن خرداذبه أو مصنف الجيهانى . وليس ثمة شك فى أن المؤرخ الفارسى كرديزى[٣٨] الذى سيأتى عليه الكلام فى حينه قد اعتمد فى القسم الجغرافى من كتابه على « حدود العالم » .

ويرتبط بنشاط الدوائر الثقافية القريبة من السامانيين ظهور أثر آخر كبير أُفرد فيه للجغرافيا مكان معين ، أعنى بذلك الموسوعة الفريدة فى بابها «كتاب البدء والتاريخ» . وفى المخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا الكتاب الموجودة باستنبول والتى تحمل تاريخ ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ ، كما وأيضاً لدى بعض المؤلفين المتأخرين مثل كوزموغرافى القرن الخامس عشر ابن الوردى ، أو ببليوغرافى القرن السابع عشر حاجى خليفة ، ينسب تأليف الكتاب إلى مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية أبى زيد البلخى[٣٩] ؛ وهكذا ظن ناشر الكتاب المستشرق الفرنسى هوار Huart عند طبع الأجزاء الأولى منه . غير أن فحص 227 النصوص التى نقلها المؤلف عن مؤلفين متقدمين ، هذا بالإضافة إلى اعتبارات زمنية[٤٠] ، قد أقنع المتخصصين بأن الكتاب من تأليف شخص غير معروف فى المصادر الأخرى أصله فيما يبدو من فلسطين ، وهو مطهر بن طاهر المقدسى الذى عاش بمدينة بست بسجستان ووضع كتابه عام ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ لأحد وزراء السامانيين[٤١] . وحاجى خليفة الذى يكرر لنا ألفاظ مقدمة الكتاب — وهو ربما قد رجع فى ذلك إلى مخطوطة استنبول آنفة الذكر — يقول عنه :

« وهو كتاب مفيد مهذب عن خرافات العجائز وتزاوير القصّاص لأنه تتبع فيه صحاح الأسانيد فى مبدأ الخلق ومنتهاه فابتدأ بذكر حدود النظر والجدل وإثبات القديم ثم ذكر ابتداء الخلق وقصص الأنبياء وأخبار الأمم وتواريخ الملوك والخلفاء إلى زمانه فى ثلاثة وعشرين فصلا وهو فى مجلد واحد»[٤٢] .

وفى طبعة هوار الذى كشف عن مخطوطة استنبول فى عام ١٨٧٧ ونشرها فى الفترة بين ١٨٩٩ و١٩١٩ مع ترجمة فرنسية فى ست مجلدات ضخمة[٤٣] نجد أن الكتاب ينقسم إلى اثنين وعشرين فصلا

تتفاوت من حيث الحجم والأهمية . فالفصل الأول على هيئة مقدمة تعالج مناهج المعرفة وحدودها ، والفصلان الثانى والثالث أفردا للالهيات (Theodosy) ، أما الفصل الرابع فلنظرية النبوة والخامس لبداية الخليقة والسادس للاهوت والسابع فى صفة السماء والأرض كما ورد فى الأديان ، ثم الثامن فى ظهور الإنسان على الأرض وانتشاره بها والتاسع فى الأخرويات (Eschatology) . ثم يعقب ذلك القسم التاريخى الذى يبدأ بتاريخ الأنبياء والرسل (الفصل العاشر) يليه تاريخ الفرس (الفصل الحادى عشر) فالأديان المختلفة (الفصل الثانى عشر) . وينتقل إلى التاريخ العربى بعد الفصل الثالث عشر وهو الفصل الذى يتكلم فيه عن الجغرافيا ، ويلى ذلك تاريخ العرب الأقدمين مع ذكر أنسابهم (الفصل الرابع عشر) فتاريخ محمد (الفصول ١٥ — ١٧) وصحابته (الفصل الثامن عشر) وتطور التعاليم الإسلامية (الفصل التاسع عشر) وتاريخ الخلافة إلى عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ ، أى فى خلافة المطيع العباسى (الفصول ٢٠ — ٢٢) .

وجميع هذه المادة الضخمة قد عرضت بلا تنسيق مما حدا بأحد العلماء المعاصرين أن يصف الكتاب ، خلافاً لرأى حاجى خليفة ، بأنه[٤٤] : «مجموعة مختلطة من المعلومات فى اللاهوت وتاريخ الأديان والتاريخ العام» . والقول بأن هذه المعلومات وفيرة ومتنوعة لا يمكن إنكاره بأية حال ، فمطهر بن طاهر المقدسى كان بحق | 228 جامعاً أكثر منه شيئاً آخر ولكنه لم يكتف بالمصادر المكتوبة بل أخذ عن عدد من الرواة الذين عرف كيف يتخيرهم ، فقد كانت له صلات باليهود وبالمجوس الإيرانيين بل وحتى بالهنود ؛ ويلاحظ أنه كان على معرفة جيدة بالحساب الزمنى للهنود الذى مر بنا القول عليه عند الكلام على بداية الجغرافيا الرياضية . وهو يعدد عمر العالم لدى الهنود بأربعة مليارات وثلاثمائة وعشرين مليوناً من السنين وذلك بالأرقام الدونغارية (Dvengaari)[٤٥] . وهذا المثال يقف شاهداً على أن اهتمام المؤلف بالجغرافيا إنما يتجه بالذات نحو الرياضة والفلك ، غير أن القسم المكرس للجغرافيا نفسها[٤٦] يهدف شيئاً أوسع من ذلك بكثير ، ويمكن الاستدلال على هذا من عنوان الفصل الثالث عشر وهو «فى صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق» . وفى الواقع نراه يبدأ العرض بتلك الأقسام المعروفة لنا من جغرافيي المدرسة اليونانية ، أعنى وصف الأقاليم السبعة[٤٧] والبحار[٤٨] والأنهار[٤٩] والأقطار المعروفة[٥٠] . ويظهر جلياً فى وصفه لبلاد الإسلام[٥١] تأثير المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ؛ وتلى ذلك أقسام ذات مادة مختلطة فى وصف المساجد المشهورة[٥٢] ووصف الطريق من العراق إلى مكة[٥٣] ووصف الثغور الإسلامية والرباطات[٥٤] وعجائب الأرض[٥٥] وغرائب الناس[٥٦] وبناة بعض المدن[٥٧] وأسباب هلاكهم[٥٨] . لكل هذا فإن مصادر «كتاب البدء والتاريخ» جدُّ متنوعة ، ويبدو هذا جلياً الآن بعد أن تعرفنا على الأدب الجغرافى العربى ؛ ولعل ارتباطه الوثيق بالمدرسة الكلاسيكية ينعكس فى اهتمامه الزائد بإيران ، أو «إيرانشهر» كما يدعوها ؛ وقد حدث هذا مرتان

فى كتابه[٥٩] . ولاريب كذلك فى التأثير البالغ للمدرسة اللغوية عليه وأيضاً المجموعات العديدة من صنوف العجائب Mirabilia ؛ وأخيراً نصل إلى أدب الحديث الذى وجد مكانه فى الفصل الأخير المتعلق بالأخرويات . من كل هذا يتبين لنا أن مضمون الكتاب متنوع جداً وأن المؤلف يفتقر افتقاراً تاماً إلى الأصالة . 229

فإذا ما انتقلنا من هذا إلى المادة التى يوردها فى مجال الجغرافيا الوصفية لألفيناها شحيحة فى الواقع ؛ وقد أثبت هذا فيران Ferrand عند فحصه للفقرات المتعلقة بالهند وأرخبيل الملايو[٦٠] . ومن الملاحظ أن ياقوت[٦١] يعترف بأنه أخذ عن طاهر المقدسى الرواية التى يذكر فيها أن الروس يقيمون بجزيرة موبوءة تحيط بها بحيرة[٦٢] ؛ وهذه الرواية معروفة بدورها لكل من ابن رسته وكرديزى وقد اجتذبت إليها أنظار الباحثين أكثر من مرة[٦٣] . ولا يخلو من طرافة نزوع المقدسى فى الفصل الجغرافى[٦٤] من كتابه وأيضاً فى الفصول الأخرى إلى النصح والإرشاد على حساب المادة التى يسوقها[٦٥] . لهذا ، وأيضاً بالإضافة إلى القسم الرياضى من الفصل الجغرافى ، فإن « كتاب البدء والتاريخ » ينضم إلى « رسائل إخوان الصفاء » التى ظهرت فى نفس ذلك الوقت تقريباً والتى تعرض فى الفصل المشابه لهذا نفس الآراء البطلميوسية التى ثبتت فى القرن التاسع[٦٦] .

ولعل هذا الاتفاق ليس وليد الصدفة المحضة فقد وردت لدى بعض مؤلفى هذه المجموعة ، الذين نادراً ما يشيرون إلى مصادرهم ، الإشارة إلى شخص يدعى المقدسى البستى . حقاً إن الأسماء الأولى تختلف ، كما وأن النسبة الثانية ترد أحياناً فى صيغة أخرى ، ولكن رغماً عن هذا فإن التقارب فى النسبة يثير بعض التساؤل خاصة على ضوء الشبه بين القسمين الجغرافيين الذى أشرنا إليه . أما مجموعة إخوان الصفاء نفسها فهى تمثل أهمية كبرى ليس فيما يتعلق بالقسم الجغرافى بقدرما يتعلق بالدور الذى احتلته الجماعة كظاهرة ثقافية كبرى لمنتصف القرن العاشر .

ففى هذا العصر الذى لحقت فيه عوامل الضعف والوهن بمذهب أهل السنة الذى ازدهر مدة قرن من الزمان عقب خلافة المتوكل ثم ضعفت شوكته نتيجة لارتفاع نجم البويهيين المعروفين بميولهم الشيعية ، أقول فى هذا العصر كان يجتمع بالبصرة جماعة من المفكرين فى محيط الدين والفلسفة اتخذوا لنفسهم اسم « إخوان الصفاء وخلان الوفاء »[٦٧] ، إشارة إلى إحدى حكايات « كليلة ودمنة »[٦٨] . ومن العسير معرفة ما إذا اتخذت هذه الجماعة شكلا معيناً أو أن نفوذها قد امتد إلى بغداد ، ولكن وضح فى الأعوام العشرة الأخيرة بما لا يدع مجالا للشك أنها كانت قريبة من دوائر الإسماعيلية وتنتصر لمذهبهم . ويجب ألا يعزب عن البال أنه 230 إلى هذا العصر بالذات يرجع تمكين سلطان الفاطميين بمصر ونشاط الدعوة الإسماعيلية بخراسان[٦٩] .

ولنشر آرائهم بين الناس قامت الجماعة بوضع إحدى وخمسين رسالة دون الإشارة إلى أسماء المؤلفين ؛ وقد حاولوا فى هذه الرسائل التقريب بين المنقول والمعقول ووضع فلسفة دينية جديدة[٧٠] : هذا وقد ظهرت هذه الموسوعة الفريدة فى نوعها فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)[٧١] ، على أية حال ليس بعد عام ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ إذ كان على معرفة جيدة بها الفيلسوف الأديب أبوحيان التوحيدى الذى يقدم لنا وصفاً دقيقاً لهذه الجماعة[٧٢] ولكنه كما هو العهد به دائماً لا يخلو من السخرية فى وصفه . هذا وقد أحاطت رسائلهم بجميع العلوم التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، من علوم تربوية ودينية وفلسفية ، مع جنوح واضح إلى المذهب اليونانى[٧٣] . واختيار المادة عندهم يتخذ طابعاً انتقائياً ملحوظاً ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليونانى ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضاً نفوذ الثنائية الغنوصية (Gnostic Dualism) والنظريات الإيرانية فى العناية الإلهية[٧٤] . وفى صلتهم بالعلم اليونانى بل وحتى فيما يتعلق بنظرتهم الفلسفية العامة إلى الوجود فإن أرسطو كان يأتى عندهم فى المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس Hermes وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس[٧٥] الذى تنال نظريته فى الأعداد أهمية خاصاً بينهم ، ومعرفتهم العامة بالفلسفة اليونانية تغلب عليها السطحية عند المقارنة بالكندى والفارابى[٧٦] . وفى بعض المخطوطات تضاف إلى الرسالة الحادية والعشرين عن الحيوان حكاية رمزية غريبة « فى شكوى الحيوانات من الإنسان أمام ملك الجن[٧٧] » ، وهى بمثابة تلخيص لجميع الأفكار الأساسية للرسائل بما فى ذلك الأفكار الجغرافية ؛ بل وتمتاز بأهمية أدبية فريدة ويمكن أن يبصر فى أسلوبها فى الكلام على ألسنة الحيوان تأثير كتاب « كليلة ودمنة » الذى أخذت هذه الجماعة اسمها منه .

وعلاقة العلوم المختلفة التى تعالجها هذه الموسوعة ببعضها البعض تبدو فى عدد الرسائل المفردة لكل منها ، فالرياضة والمنطق أفرد لها أربع عشرة رسالة ، والعلوم الطبيعية سبع عشرة رسالة ، بينما ظفرت الميتافيزيقيا وعلم النفس بعشرة رسائل ، والتصوف والتنجيم والسحر بإحدى عشرة رسالة[٧٨] . والفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا المصنف الجماعى يمكن تلخيصها فى أن كل ما يحدث فى العالم السفلى إنما هو انعكاس للعالم العلوى فحسب ، وأن كل ما يحدث على الأرض إنما يخضع لحركات النجوم[٧٩] . | وعلى 231 ذلك فليس من العسير أن نتكهن بنوع الجغرافيا التى يمكن أن نجدها لديهم ؛ وقد أفردت لها رسالة خاصة هى « الرسالة الخامسة فى العلوم التعليمية فى الجغرافيا أى صورة الأرض والأقاليم »[٨٠] ، وموضعها فى القسم الأول بين الفلك والموسيقى وذلك فى المجموعة العامة التى تشمل العلوم الرياضية والطبيعية ، الأمر الذى يفهم منه أننا إزاء عرض موجز للجغرافيا الفلكية الرياضية وفقاً للمذهب اليونانى ، أى للنظريات البطلميوسية . وفى بداية الرسالة تؤكد النظرية القائلة بأن الأرض مركز الوجود[٨١] ، ويتلو هذا وصف الربع المعمور[٨٢] والأقاليم السبعة[٨٣] كل على حدة . ويستغرق هذا الجزء الأكبر من موضوع الرسالة[٨٤] ، ثم يختتم كل ذلك كما هى العادة بعدد من الاستنباطات ذات طابع تعليمى (Didactic) القصد منها توضيح المغزى الباطنى للظواهر المحسوسة ؛ وإحدى قطع هذا القسم وهى المتعلقة بالشرق الأقصى والتى قام

232 بتحليلها فيران Ferrand[٨٥] تقف دليلا على أن المادة كما هو متوقع تحمل طابعاً نقلياً وليست بذات أهمية كبيرة . أما جداول توزيع الأماكن المأهولة وفقاً لكل إقليم فمشوهة للغاية[٨٦] كما هو الشأن دائماً مع المخطوطات . ورغماً عن ذلك فقد حاول الكارتوغرافى المشهور كيبرت Kiepert أن يضع على أساسها خارطة للعالم كما تصوره « إخوان الصفاء » .

وفيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا فإن المعطيات الجغرافية تتناثر فى بقية الرسائل ، وهى لا تخلو من أهمية فى بعض الأحيان رغماً من أنها قليلا ما تميزت بالأصالة . وتلعب نظرية الأزمنة الكونية (Cosmic Cycles) دوراً كبيراً فى « رسائل إخوان الصفاء » ؛ فقد عمل هؤلاء العلماء على تطوير النظريات القديمة للعالم الكلاسيكى ونظريات العلماء الهنود التى مر بنا ذكرها من قبل ، ولكنهم إلى جانب هذا أتوا بآراء طريفة فى مجال الجغرافيا الطبيعية[٨٧] والميتورولوجيا (Meteorology) . فهم قد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوى نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض ، كما تثبتوا من أصل المنابع والأنهار[٨٨] ولاحظوا أيضاً وجود التغير التدريجى فى موضع كل من اليابس والماء* . وقد تجاوزا عصرهم بكثير عندما نادوا بالنظرية التى مؤداها أنه بمرور الزمان تتحول الأراضى المزروعة إلى صحارى والصحارى إلى أرض مزروعة ، وتصبح السهول بحاراً وتتحول البحار إلى سهول وجبال[٨٩] ؛ وفى بداية القرن التالى لهذا يحاول العلامة البيرونى أن يثبت ذلك بأدلة محسوسة .

و« رسائل إخوان الصفا » التى صيغت فى أسلوب سهل لا تثقله المصطلحات والتى تضم دائرة واسعة من الموضوعات فى تركيب جلى واضح قد نالت انتشاراً واسعاً ولكن ليس فى الأوساط السنية بالطبع ، فالغزالى مفكر أهل السنة الكبير (توفى عام ٥٠٥ هـ=١١١١) يرى فى استنتاجاتهم ضلالا مبيناً[٩٠] . وقد تجاوزت شهرتهم بسرعة فائقة ليس حدود موطنهم فحسب بل وحدود الأدب العربى بمعناه الضيق ، فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس[٩١] مسلمة المجريطى « اقليدس الأندلس » ، وفى القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السريانى يعقوب (ساويرس) برشكّو (شككّو) Bar Shakko[٩٢] ، وفى القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية فى دولة تيمور[٩٣] ، كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوروبا الوسيطة . ويرجع الفضل فى تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى ديتريتشى Dieterici الذى أفرد لهم أكثر من عشرين بحثاً فى تحليل وترجمة ونشر معظم الرسائل . وترتفع هذه الأبحاث إلى العهد الذى لم تكن قد وضحت فيه بعد طبيعة الوسط الذى نشأت فيه جماعة « إخوان الصفاء » ؛ وفى الأعوام العشرة الأخيرة فقط عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية أصبح فى حيز الإمكان

---

* حدث سهو لدى المؤلف عند ما كتب « اليابس والأرض » بدلا من « اليابس والماء » . وفى الواقع أن ألفاظ J. K. Wright التى نقلها هى كالآتى : «gradual alteration in th the relative position of land and sea» (راجع كتابه Geographical lore, New York, 1925 ص ٨٣) . (المترجم)

فهم أفكارهم 233 داخل الإطار العام للقرن العاشر . أما بالنسبة للأدب الجغرافى وذلك فى مفهومه المستعمل فى هذا الكتاب فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطاً غير مباشر ولكنها لاتخلو من أهمية فى تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا لأنها تمثل أثراً ممتازاً فى نطاق التاريخ الثقافى لذلك العصر .

ولم ينتج المغرب الإسلامى فى القرن العاشر أية مصنفات جغرافية ممتازة حتى يتسنى لها انتشار واسع . ولقد ساهمت مصر والمغرب والأندلس فى هذا العصر بالكثير فى محيط الجغرافيا الإقليمية مما ورد ذكره فى موضعه ، ولكن المصنفات ذات الطابع العام كانت قليلة العدد وليست بذات أهمية تذكر .

ويمكن أن ينسب بشىء من التحفظ إلى هذا العصر مصنف لمؤلف يدعى إسحق بن الحسين نشرته منذ خمسة عشر عاماً أنجيلا كوداتسى Angela Codazzi ويحمل عنواناً فيه الكثير من أثر الصنعة هو «آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان» . وقد حُفظ لنا فى مخطوطة فريدة من مجموعة معروفة تمتاز بالأصالة بميلان وتقتصر كلية على مخطوطات من جنوب الجزيرة العربية . ولم يمكن العثور حتى الآن على أية معلومات عن المؤلف[٩٤] ويبدو أن الكتاب قد تم تأليفه بالأندلس ، الأمر الذى يمكن ملاحظته من استعماله لتعبيرات لغوية خاصة[٩٥] . وتحليل مصادر هذا الكتاب الذى قام به إلى جانب الناشرة مينورسكى وأومنياكوف Umniakov يشير إلى أن تأليفه قد تم فيما يغلب على الظن فى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر) ؛ ومن الجائز كذلك أن يمتد هذا التاريخ إلى قرن بعد هذا ، ولكن لن يتجاوز بأية حال عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢[٩٦] .

ومن الواضح من مضمون الكتاب أنه لم يحفظ صورته الأصلية بل يمثل فى العموم ملخصاً لمصنف أكبر من ذلك بكثير تستند فكرته الأساسية على وصف المدن الكبرى[٩٧] ، وهو نمط من الأدب الجغرافى أولع به الناس كثيراً فيما بعد . وليست واضحة لنا فى جميع تفاصيلها طريقة تصنيفة لمادته ، فبعد الكلام على المراكز الدينية وهى مكة والمدينة وبيت المقدس يأتى الكلام على بغداد ويتلو ذلك الحديث عن بلاد الشرق كالعراق والجزيرة العربية وفلسطين وإيران وما وراء النهر ، ثم عن الغرب كمصر والمغرب والأندلس ؛ ويفرد وصفاً خاصاً لرومه والقسطنطينية . ولسبب ما يعقب آسيا الصغرى الحديث عن « مدينة الزابج بالهند » ، وفى الخاتمة يأتى وصف بلاد الترك[٩٨] والخزر .

وتجىء الأوصاف بوجه عام قصيرة جداً وكثيراً ما يصحبها تحديد المواقع الجغرافية ، أى تبيان خطوط الطول والعرض . وقد يرد الكلام عن فتح مدينة ما فتعطى معلومات موجزة فى الجغرافيا الطبيعية والسياسية قد تتسع بعض الشىء كما هو الشأن مع القسم المفرد للأندلس . وتقل 234 المعلومات ذات الطابع الاثنوغرافى[٩٩] ولو أن الفصول المتعلقة بالخزر والترك ربما تمثل أهمية خاصة . ورغماً عن ذلك فقد ثبت فى بحثين خاصين غالحا هذه النقطة أن كتاب إسحاق بن الحسين لا يقدم عنهما سوى تفاصيل ثانوية تستند

على مصنفات لم تصل إلينا فى صورتها الكاملة أومعروفة فى مسودات أخرى :

وإسحق بن الحسين كما هو متوقع لا يستقى مادته من المدرسة الكلاسيكية وحدها بل من المتقدمين عليها كذلك ؛ ويمكن ملاحظة تأثير الخوارزمى وابن خرداذبة عليه ، ومن الواضح أنه كان أكثر اعتماداً على اليعقوبى وابن رسته . وفيما يتعلق بالأخير يستقى منه بشكل خاص فى الفصول المعقودة للخزر والترك ولو أنه لا يمكن استبعاد نقله عن مصنف الجيهانى الذى لم يصلنا ، وعلى أية حال فإنه يجب فيما يتعلق بهذا المؤلف الأخير إعمال الحذر الشديد[١٠٠] كما فعلنا من قبل . ومن العسير أن نحكم ما إذا كان الأدب الجغرافى المتأخر على علم بمصنف إسحاق بن الحسين ، إذ لم يعثر إلى الآن على ما يثبت ذلك . والرأى الذى نادى به نالينو من أن الإدريسى وابن خلدون قد أخذا عنه قوبل باعتراض شديد[١٠١] لأن تحديد الأسامى التى يوردها هذان المؤلفان يحتاج إلى براهين أقوى وأمتن من ذلك . وثمة رسالة مشابهة لهذا المصنف تم الكشف عنها فى إحدى مكتبات استنبول ولكن لم تنشر عنها أية تفاصيل بعد :

وبمصر الفاطمية ظهر كتاب كان له تأثير كبير على المؤلفات التالية ولكن لا يمكن الحكم عليه إلا من شذرات متفرقة . فقد وضع الحسن بن أحمد (أو محمد) المهلبى مصنفه «كتاب المسالك والممالك» للخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ هـ — ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦) ولذا فكثيراً ما ورد اسم الكتاب بعنوانه المقتضب « العزيزى »[١٠٢] . والعنوان الكامل للكتاب يقودنا إلى الظن بأنه من طراز « المسالك والممالك » المعروف لنا جيداً من قبل . وقد تبين من المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون أنه يستند أساساً على أوصاف الطرق خاصة طرق أفريقيا[١٠٣] ؛ وهو يمثل فيما يتعلق بالسودان بالذات أحد المصادر الرئيسية لياقوت[١٠٤] الذى ينقل عنه أكثر من ستين مرة[١٠٥] ؛ ولكنه لا يقتصر على أفريقيا وحدها فياقوت مثلا يرجع إليه أكثر من مرة بصدد مواضع مختلفة من الجزيرة العربية . وقد زار المهلبى سامرا وحفظ لنا ياقوت انطباعاته الشخصية عن أطلالها[١٠٦] ؛ وهو يوليه عناية خاصة من بين مصادره فيضعه جنباً إلى جنب مع المقدسى[١٠٧] 236 ويعرف مصنفه بالعنوانين اللذين ذكرناهما . وقد استعمله كثيراً أبو الفدا[١٠٨] ، وهو أيضاً لم يكتف بمادته المتعلقة بأفريقيا بمفهومها الضيق إذ يورد عنه خبراً عن جزيرة سقطرى وسكانها من النصارى النساطرة[١٠٩] ، كما يورد عنه عدداً من الروايات تتعلق بموطنه الشام . هذا وقد ظل كتاب المهلبى معروفاً معرفة مباشرة إلى أيام دولة التيموريين فاستعمله فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حافظ آبرو عندما وضع مصنفه فى الجغرافيا[١١٠] .

وجميع أنماط الأدب الجغرافى التى مرت بنا من قبل ظلت تعيش فى القرن العاشر فى مؤلفات ذات أصالة حقة فى بعض الأحيان . فمعروف لنا مثلا مصنف تلعب فيه دوراً أساسياً الرغبة فى إرضاء المطالب التعبدية وهو للفقيه أبى العباس أحمد بن القاص الطبرى الآملى الذى اشتغل بالتدريس فى آمل وتوفى

بطرسوس عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦[١١١] . وعنوان الكتاب فيما يبدو هو « دلائل القبلة » هذا إذا لم يكن حاجى خليفة[١١٢] ، قد استمده من تعبير ورد فى مقدمة المؤلف الذى يقول : « تتبعت من علم دلائل القبلة وزوال الشمس ومنازل القمر وطلوع الفجرين ومقادير الفىء وأوقات الصلاة مما ألفه الماضون قبلى » [١١٣]. ويصفه حاجى خليفة بقوله إنه « مختصر أكثرها تاريخ وحكايات عن أحوال الأرض » . هذا الطابع المزدوج لمحتويات الكتاب توكده المخطوطة الوحيدة المعروفة له والموجودة ضمن مجموعة شخصية ببيروت وأعطى وصفاً مختصراً لها باللغة العربية صاحبها نفسه[١١٤] ، كما أثبت أصلها فى عام ١٩١٤[١١٥] كاتب هذه السطور ولكنها لم تصل إلى أيدى الدوائر العلمية بعد[١١٦] .

ومحتويات المخطوطة واضحة على العموم رغم أن أسلوبها لا يخلو من الخلط ؛ وهى تنقسم إلى إحدى عشر فصلا تتفاوت فى أحجامها ؛ وتتضح الأهداف الأصلية للكتاب من فصوله الأولى ، فالفصل الأول يحدد القبلة والثانى يعالج علاقة النجوم بها والثالث يتحدث عن مواقع البلدان المختلفة بالنسبة للقبلة والرابع عن شكل الأرض والموقع المركزى الذى تحتله فيها الكعبة . أما الفصول التالية فتحمل طابعاً تغلب عليه الجغرافيا العمومية ، فالفصل الخامس يعالج الأطوال والعروض والسادس موقع مكة والجزيرة العربية من حيث الطول | والسابع البحار والثامن الأنهار والتاسع تقسيم الأرض إلى أقاليم والعاشر الجبال . أما أطول 237 الفصول وأكثرها افتقاراً إلى التجانس فهو الفصل الحادى عشر الذى يتحدث عن البلدان المختلفة والذى جمع فيه المؤلف بلا أدنى تنسيق كل ما ظنه ذا علاقة بموضوع كتابه . فهنا يرد وصف لمسجد مكة كما يرد الكلام على الكعبة والمدينة والبصرة مع وصف قلعتى الحضر والخورنق من عهد الجاهلية ، ثم بيت المقدس والقسطنطينية ورومة مع وصف أسوارها ، وكهف الرقيم وسد يأجوج ومأجوج ، فصنعاء ومعها إرم الأسطورية ، والإسكندرية والأندلس وأصفهان وطبرستان وسمرقند . ويختتم الفصل بتصورات عن نهاية العالم وتاريخ الخلافة الإسلامية إلى عهد الراضى الذى ولى الخلافة عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ .

ورغما عن الخلط فى كتاب ابن القاص فإن مادته الجغرافية واضحة بالنسبة لنا ، فالمؤلف فقيه يهتم بمسائل الجغرافيا الفلكية بالقدر اللازم لمطالب العبادة المختلفة التى أهمها تحديده اتجاه الصلاة ومواقيت الصلوات المختلفة . وإلى جانب هذا فهو يقدم خلاصة لما وقع إليه من « الفضائل » و« العجائب » عن البلاد والمدن المختلفة مستقياً ذلك من الحديث أو من المادة اللغوية . وفى الأحوال النادرة التى ترد فيها الإشارة إلى المصدر الذى ينقل عنه فقد أمكن التثبت من صدق قوله ، فهو مثلا يسجل وصفاً للبصرة مأخوذاً عن ألفاظ أحد أهلها وهو خالد بن صفوان (توفى عام ١٣٥ هـ = ٩٥٢ ـ ٧٥٣)[١١٧] من مشاهير البلغاء وكان مقرباً إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥ هـ ـ ١٢٥ هـ = ٧٢٤ ـ ٧٤٣) ووصف له بالفعل ذات مرة موطنه البصرة[١١٨] . أما وصفه لرومة فقد أخذه عن قصة هارون بن يحيى المعروف لنا جيداً ، والذى كان فى أسر البيزنطيين فى أوائل القرن العاشر[١١٩] .

ولعل مصنف ابن القاص لم يكن ليتمتع بشيء من الذيوع لواقتصر الأمر على المخطوطة الوحيدة التى أمكن الكشف عنها حتى الآن ، فنى الواقع أن آثار معرفة الآخرين به يمكن ملاحظتها لدى عالم رزين كالبيرونى ؛ غير أن الطريف فى الأمرأن البيرونى لايرجع إليه فيما يتعلق بمسائل الجغرافيا الرياضية بل بصدد قصة « النار المباركة » فى بيت المقدس(١٢٠) ، ولكن من الجائز أن يكون الدافع الذى حفز البيرونى إلى التعرف عليه هو القسم الفلكى الرياضى من كتابه .

ومثل ابن القاص ليس هو الفريد لعالم عربى ترك لنا مصنفاً فى الجغرافيا دون أن يكون هو نفسه عالماً جغرافياً أورحالة ، فالمؤلفات التى ترتبط بالجغرافيا من جانب واحد لا تقع تحت حصر ، غير أن إغفال ذكرها من شأنه أن يقدم صورة ناقصة للعرض العام لتاريخ الأدب الجغرافى . ويهمنا من وجهة نظرنا هذه فى القرن العاشر 238 تلك المؤلفات الببليوغرافية والاصطلاحية الفريدة فى نوعها ، وكذلك بعض مصنفات أخرى يمكن فى أحوال أخرى أن تندرج فى محيط الأدب الفنى .

لقد وضح فى الفصول السابقة من هذا الكتاب إلى أى مدى كان اعتمادنا على كتاب « الفهرست » المشهور ، ذلك الكتاب الذى يعتبر محاولة فريدة فى نوعها لعرض تاريخ الأدب العربى(١٢١) . وهو قد أصبح مرجعاً عاماً فى جميع فروع التاريخ والأدب والعلم العربية منذ السنوات السبعينات من القرن التاسع عشر بفضل الطبعة التى عنى بتحضيرها فليغل Flügel والتى لم تر النور إلا بعد وفاته . وفى العشرين عاماً الأخيرة فقط بدأت تبرز إلى الوجود إمكانية تكوين فكرة عامة عن الكتاب فى مجموعه بصورة أكثر دقة ووضوحاً ، كما بدت الحاجة ماسة إلى إخراج طبعة علمية جديدة له رغماً عن المجهود الكبير الذى كان قد بذله فليغل . ولم يكن السبب فى هذا هو الكشف عن مخطوطات جديدة للكتاب باستنبول فحسب ، بل أيضاً التطور العام لمنهج البحث العلمى منذ السنوات السبعينات(١٢٢) .

أما عن المؤلف نفسه فلا نعرف الكثير ، كما هو الشأن مع عدد غفير من المؤلفين . وجميع معلوماتنا عنه بالتقريب يجب استنباطها من كتابه نفسه(١٢٣) ، فاسمه الكامل وفقاً لمخطوطات الكتاب هو أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم الوراق البغدادى ، ومن هذا يتبين أن أباه كان يتاجر فى الكتب ببغداد . ويبدو أنه صحب أباه فى شئون تتعلق بتجارة الكتب فزار الموصل مراراً ؛ أما الزعم القائل بأنه قد زار القسطنطينية ، ذلك الزعم الذى لا يزال يتردد فى الأوساط العلمية إلى أيامنا هذه(١٢٤) ، فيستند على محض سهو لفت إليه الأنظار منذ عهد طويل المستشرق روزن . ويمكن أن نلمس فى كتاب ابن النديم وجود عواطف معينة نحو الشيعة .

وفى عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ — ٩٨٨ فكر ابن النديم فى وضع مصنف من أجل الوراقين ومحبى الكتب ، واتخذ لنفسه غاية معينة ذكرها فى مقدمة كتابه حيث يقول :

« هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة »(١٢٥) .

وقد أراد ابن النديم فيما يبدو للوهلة الأولى أن يقصر مهمته فى الكلام على العلوم « غير الإسلامية » ، فالمسودة الأولى لمصنفه تضم أربع مقالات فقط جمعت إلى جانب المؤلفات العربية الأصيلة | 239 الترجمات العربية للمصنفات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية المعروفة للمؤلف . وقد أفرد المقالة الأولى للفلسفة و« علوم الأوائل » معالجاً فيها إلى جانب الفلسفة المنطق والرياضة والطب . أما المقالة الثانية فللأدب الأسمار والخرافات وأساطير الأمم والسحر . وتحوى المقالة الثالثة الكلام على تاريخ الأديان وعن المذاهب والفرق المختلفة ، والمقالة الرابعة فى أخبار الكيمائيين . غير أن المؤلف أضاف إلى ذلك فى ذات العام نفسه ست مقالات أخرى كرسها « للعلوم الإسلامية » التى شغلت القسم الأول لما سُمِّيت « بالمسودة الموسعة » . وفيه يرد على التوالى تعداد المصنفات التى تتصل بعلوم القرآن والنحو والتاريخ والشعر والكلام ؛ وقد ظل المؤلف يضيف إلى كتابه إلى بداية القرن الخامس الهجرى تقريباً (التاسع الميلادى) . أما عام وفاته فغير معروف لنا . وقد استعمل ياقوت كتاب « الفهرست » فى المسودة الموسعة من عمل الوزير المغربى (المتوفى عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧)(١٢٦) ؛ ويلوح أنها حظيت بانتشار واسع .

ومن المؤكد أن ابن النديم لم يكن من أصحاب السير بل من جامعى أسماء المصنفات فى فروع العلوم المختلفة (ببليوغرافى(١٢٧)) ، وما خلفه لنا من تراجم الأشخاص نزر يسير إذ أنه لم يلق بالا إلى المؤلفين بقدر ما حصر اهتمامه فى مصنفاتهم ؛ وهو المجال الذى برزت فيه مقدرته بحق . وهو يعالج عدداً من المسائل المتعلقة بالكتابات القديمة وبالخط ، وقد نالت ملاحظاته عن كتابات الأمم المختلفة بما فى ذلك الروس(١٢٨) شهرة واسعة وبُذلت محاولات شتى لفك طلاسمها . وهو يولى اهتماماً خاصاً إلى المخطوطات التى وجدت بخط المؤلفين أنفسهم ، وكذلك إلى المكتبات الشخصية والنسخ الممتازة الموجودة بها . وصاحب « الفهرست » على إحاطة تامة بفروع العلوم المختلفة ويمكن الموافقة تماماً على رأى بارتولد فى أن هذا الكتاب « سيبقى على الدوام المصدر الرئيسى لمعرفة الأدب والعلم فى القرون الأربعة الأولى للإسلام »(١٢٩) .

ولم يفرد للجغرافيا فيه مقالة خاصة ولكن هذا لايقلل من شأن الكتاب بالنسبة لتاريخ علم الجغرافيا . فالجغرافيا لديه تنضم من ناحية إلى العلوم الرياضية ومن ناحية أخرى إلى التاريخ والأدب . وترد المعلومات عن المصنفات الجغرافية تحت أسماء المؤلفين عادة ؛ وقد أفدنا منها فى معظم الحالات السابقة للقرن العاشر . غير أنه إلى جانب هذا يضم « الفهرست » أحياناً وقائع ذات طابع جغرافى صرف فى غاية من الأهمية ؛ وقد سبق أن ذكرنا روايته لقصص أبى دلف ولقصة الراهب النجرانى الذى زار الصين . ويمكن أن

يضاف إلى هذا معلومات أخرى مثل معلوماته عن الهند وفرقها وعن الصين ، وهى تمثل أهمية كبرى 240 فيما يتعلق بتلك البلاد كما دلل على ذلك فيران Ferrand[١٣٠] أثناء تحليله لها .

وإلى جانب هذا المصنف البيليوغرافى وصلنا عن أواخر القرن العاشر مصنف فى المصطلحات العلمية لا يقل أهمية عن « الفهرست » ، ذلك هو كتاب « مفاتيح العلوم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى . وقد أصبح هذا الكتاب معروفاً جيداً للعلماء المتخصصين فى كافة فروع العلوم منذ الطبعة التى نشرها فان فلوتن Van Vloten عام ١٨٩٥ والتى تعتمد على أقدم مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٦ هـ = ١١٦٠ — ١١٦١[١٣١] ؛ أما أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ العلوم والثقافة فقد تم الاعتراف بها بحق على أنها لا تقل أهمية عن « الفهرست » و« رسائل إخوان الصفاء »[١٣٢] .

وقد ظهر هذا الأثر فى ذات الوسط الإدارى الذى برزت فيه إلى الوجود فى ذلك العصر طائفة من الآثار الممتازة فى منطقة إيران الشرقية التى نافست بغداد نفسها فى القرن العاشر . وكان أبو عبد الله الخوارزمى كاتباً للعتبى وزير نوح الثانى السامانى الذى ولى الحكم فى المدة ٣٦٥ هـ — ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ — ٩٩٧ ، وعاش بنيسابور حيث وضع كتابه بين عامى ٣٦٥ هـ = ٩٧٦ و٣٨١ هـ = ٩٩١ . وكان هدفه فى الأصل وضع مصنف للدواوين على هيئة معجم يشرح المصطلحات المستعملة فى جميع فروع العلوم المختلفة . وقد أفرد المقالة الأولى لعلوم الشريعة ولعلوم العربية المرتبطة بها ، وهى تقع فى ستة أبواب تضم الفقه والكلام والنحو والكتابة (الرسائل) والشعر (ومعه العروض) والتاريخ . أما المقالة الثانية فتعالج علوم « العجم » ويعنى بذلك اليونان والسريان والفرس والهند ، وهى تحتوى على تسعة أبواب فى الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء[١٣٣] .

هذا الترتيب يكشف عن مدى إحاطة المؤلف الجيدة بتصنيف العلوم عند اليونان[١٣٤] ، ولعله قد عرفه اليونانية والسريانية إلى جانب الفارسية التى كانت دون ريب قريبة منه . ولم يكن إلمامه بالمصادر العربية بأقل من تلك ، فهو كثيراً ما استعمل معجم الخليل ومصنفات الأصمعى اللغوية بل كان يرجع إلى مصنف مثل كتاب الشعر لابن المعتز . ولكتابه أهمية خاصة فيما يتعلق بخراسان وما وراء النهر التى عرفها أكثر من غيرها . ومعطياته عن مصطلح الرى فى تلك البلاد قد بحثها العلماء الروس أكثر من مرة[١٣٥] ولا تزال تحتفظ بأهمية واقعية إلى أيامنا هذه . والكتاب بأجمعه كما قال فان فلوتن يمتاز « بترتيب وإيجاز فى العرض قل أن يوجد مثيل لها فى المصنفات العربية »[١٣٦] .

والجغرافيا كعلم تحتل بالطبع مكاناً ثانوياً فى « مفاتيح العلوم » ؛ ويقتصر المؤلف على معالجتها من 241 الناحية الرياضية فحسب ، وهى تدخل فى الغالب فى باب الفلك (الباب السادس من المقالة الثانية) بحيث تشغل المكان الثانى[١٣٧] . وفيه يرد شرح مفيد جداً لجميع المصطلحات الأساسية المستعملة فى اللغة

العربية فى ميدان الجغرافيا الرياضية والفلكية ، تلك المصطلحات التى مر بنا الكلام عليها عند ذكر المصنفات المرتبطة بالمدرسة اليونانية . ويوجد هذا الباب فى متناول أيدى غير المستعربين بفضل الترجمة التى قام بها ڤيدمان Wiedemann مؤرخ العلوم عند العرب[١٣٨].

وإذا كان ابن النديم وأبو عبدا لله الخوارزمى قد وجها اهتمامهما الرئيسى إلى تصنيف العلوم فإننا نلتقى فى القرن العاشر بعدد لا يستهان به من مصنفات المنهج الأدبى اللغوى التى تمس علم الجغرافيا كذلك . وقد مر بنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أن دراسة الأعلام الجغرافية الموجودة فى النسيب الجاهلى قد دفعت إلى وضع مؤلفات من طراز «كتاب جزيرة العرب» أو «كتاب جبال تهامة» ، والآن فى القرن العاشر وفى عهد العباسيين نبصر ظهور عدد من الكتب الطريفة من طراز «كتب الديارات» التى جمعت فيها الأشعار الوارد فيها ذكر الديارات الشهيرة مع شروح وافية لها . وهى دون ريب لم تجتذب اهتمام المجتمع العربى والشعراء العرب بوصفها أماكن لعبادة المسيحيين ، بل اجتذبتهم بسبب الشهرة التى نالتها فى إنتاج النبيذ وبيعه . ففيها كان يمكن شراء النبيذ الجيد وإقامة مجالس الشراب المقتصرة ، سواء فى بساتين الدير أو فى محلات خاصة بعيداً عن أعين الرقباء من متشددى المسلمين . وفى هذه المجالس كان الشعراء ينشدون أشعارهم ، بل إن المجالس نفسها كانت توصف فى هذه الأشعار بطريقة حية تقدم لنا لوحة دقيقة لحياة ذلك العصر . وكان عدد هذه الديارات كبيراً ، وسرعان ما أحس اللغويون بالحاجة إلى وضع مرجع عام عنها كما فعلوا من قبل مع مواضع الجزيرة العربية الواردة فى الأشعار .

ويمكن الحكم على الاهتمام بهذا الموضوع من أن عدد المصنفات التى من هذا الطراز لا يقل عن العشرين[١٣٩] . أما ما حوته من مادة ضخمة حية عن الحياة الثقافية والاجتماعية للعصر فيتضح من ثنايا البحث الذى نشره منذ عهد غير بعيد العلامة العربى حبيب الزيات[١٤٠] . ومن المرجح أن البحث الذى وعد به فيشر Fischer عام ١٩٢٩ لن يكون أقل أهمية من ذاك* [١٤١] .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر تمتعت ثلاثة من «كتب الديارات» بشهرة خاصة ، وأحدها لمؤلف كتاب «الأغانى» المشهور أبى الفرج الأصفهانى[١٤٢] . وترجع معرفتنا بهذه الكتب عادة إلى شذرات متفرقة ، إلا أن واحداً منها وهو | للشابشتى معروف لنا معرفة مباشرة بفضل المخطوطة الفريدة 242 الموجودة ببرلين[١٤٣] والتى لا تخلو من السقط . وهناك زعم بوجود مخطوط طريفة مصورة لهذا الكتاب رؤيت فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)[١٤٤] . أما المؤلف فليست لدينا عنه أية معلومات بخلاف أنه كان أميناً لمكتبة الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ هـ — ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦)

---

* توفى فيشر عام ١٩٤٩ ، وليس لنا علم ببحث له فى هذا الموضوع . وهو نفس المستشرق الألمانى الذى ندين له باللبنة الأولى فى وضع معجم تاريخى للغة العربية . (المترجم)

وقارئاً(١٤٥) له . وقد أبدى ياقوت الذى كثيراً ما ينقل عن كتابه(١٤٦) تردداً واضحاً فيما يتعلق باسم المؤلف(١٤٧) ، أما ابن خلكان فإنه لم يستطع رغم بحثه وتقصيه أن يثبت أصل النسبة ، وافترض فى آخر الأمر أنها ديلمية الأصل(١٤٨)* . كذلك يحيط شك كبير بتاريخ وفاته وهل كان ذلك فى عام ٣٨٨ هـ = ٩٨٨ أم عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨(١٤٩) .

ولعل طبيعة وظيفته كقاص للبلاط هى التى حفزته لوضع مصنفه «كتاب الديارات»(١٥٠) ، ووفقاً لفكرته الأساسية فقد كان من المفروض أن يشمل الكتاب جميع أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر إلا أن المخطوطة البرلينية لم تحفظ لنا عن أديرة العراق إلا قسما ضئيلا ، بينما تفتقد أديرة الشام بالكلية(١٥١) . ونصيب مصر أقل بكثير من نصيب الجزيرة ، غير أن القسم الخاص بها كما هو واضح من بحث العلامة القبطى عزيز سوريال عطية(١٥٢) يحوى مادة قيمة . وكما هو الشأن مع المصنفات السابقة فإن مركز الثقل فى الكتاب لا يقوم على الوصف الجغرافى لتوزيع الأديرة وإن لقى بعض الاهتمام ، بقدر ما يقوم على القصائد الطويلة والحكايات المتعلقة بها . وهذه بالطبع لها قيمتها الذاتية وقد جمعها زاخاو Zachau فى كتيب خاص ويمكن للجغرافى أن يستقى منها معلومات غير قليلة .

ومن الثابت أن كتب الديارات لم تكن النمط الوحيد فى ذلك العصر الذى يقدم لنا معطيات جغرافية ؛ إذ يمكن استخراجها بصورة أيسر من المجموعات التاريخية الأدبية التى ذخر بها ذلك العصر أيضاً . ويجب أن نولى اعتباراً خاصاً فى هذا الصدد لثلاث مصنفات لأبى على المحسّن التنوخى (توفى عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤)(١٥٣) الذى تزايد الاهتمام بشخصه فى الآونة الأخيرة عند المؤرخين بسبب طبع قسم من أحد مصنفاته الأدبية منذ عهد غير بعيد(١٥٤) . 243 فى مصنفاته هذه تنعكس قصة حياته المضطربة التى قذفت به من البصرة إلى بغداد إلى الأهواز تارة فى منصب قاض وأخرى مدرساً وثالثة أديباً مفلساً ؛ ويبدو فيها مجهوده لابتكار القصص الجديدة وقوة ملاحظته واتباعه لمنهج أصيل فى معالجة كل ما يقع تحت ناظريه . وسأقتصر على إيراد مثال واحد طريف يهمنا من وجهة نظر الأدب الجغرافى .

ففى أكثر مجموعاته الأدبية شهرة وهو «كتاب الفرج بعد الشدة» الذى طبع فى القاهرة منذ وقت طويل أفرد الفصل السابع(١٥٥) للقصص المختلفة من عالم الحيوان ، كالفيلة(١٥٦) والأسود(١٥٧) والقردة(١٥٨) وكثير غيرها . وإذا اعتُبر بعضها مجرد حكايات للتسلية فحسب فإن البعض الآخر يتميز بالكثير من الحيوية والتفصيل بحيث يقدم للمتخصصين فى الجغرافيا الحيوانية (Zoological Geograply) مادة لاستقراءات علمية ذات أهمية . وفى كتاب التنوخى تنعكس تلك المصادر التى خلقت نمط «القصص البحرية» المعروف لنا ؛ وهكذا يقترن فى مصنفاته الأدب التاريخى بالأدبين الفنى والجغرافى .

---

* عن توضيح أصل اسم الشابشتى راجع ما جمعه الأستاذ كوركيس عواد فى مقدمة طبعته لكتاب الديارات . (المترجم)

وإلى جانب « القصص البحرية » المحببة إلى الجماهير وجد فى هذا العصر دون شك « الراهمانى » ؛ أى مرشد الطريق البحرى ؛ وهى أوصاف لطرق الملاحة يرجع أصل واحد منها إلى نهاية القرن العاشر ومؤلفه هو « المعلم » (أى الربان) خواشيربن يوسف الأركى الذى أبحر حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ على سفينة هندية على طول الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى لأفريقيا . وقد استعمل راهمانيه مؤلفو القرن الثانى عشر ، أما أخباره فقد حفظها لنا الربابنة الكبار للقرن الخامس عشر من معاصرى ڤاسكو دا غاما Vasco da Gama الذين صحبوه فى رحلته التى كشف فيها الطريق من أفريقيا إلى الهند[١٥٩] .

ويمثل القرن العاشر فى جميع ميادين الأدب الجغرافى خطوة هامة ، بل ويرى فيه البعض أوج الجغرافيا العربية . ومن الثابت أن عدد المصنفات لم يتعرض للنقصان فى العصور التالية ، ولكن يمكن الجزم بأنه لم يحدث كما حدث فى هذا العصر أن ظهر فى وقت واحد مثل ذلك العدد الضخم من الكتاب المبرزين ومن الآثار الكبرى الذى لا يزال تأثيره محسوساً إلى القرن العشرين .

حواشي الفصـــل الثامن

(١) راجع عنه : — Reinaud, Introduction, p. LXII - LXIV

Sprenger, Reiserouten, p. XVII - Bartold, Turkestan, p. 12 - 13.

حدود العالم ، ص ١٧ (الترجمة الإنجليزية ، ص ٢٣ — ٢٤)

Markwart, Streifzüge, p. XXXI — XXXII — Markwart, Bericht p. 303

Wiedemann, Beiträge, XXVII, 1912. p. 8 - 9 note 3 — Krachkovski,

« Blagodatny Ogon » p. 241 note 7

(٢) الترجمة ، راجع: Bartold, Turkestan, p. 12 - 13 (= Barthold, Turkestan, p. 12)

Hudud, p. XVIII

(٣) المقدسي BGA, III ص ٢٤١

(٤) شرحه III ، ص ٤ ، رقم ١ ؛ الترجمة راجع :

Bartold, Turkestan, p. 13 (= Barthold, Turkestan, p. 12)

(٥) المسعودي BGA, VIII ، ص ٧٥ —

Carra de Vaux, Maçoudi p. 109

(٦) — Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 178

(٧) الفهرست ، ص ١٣٨

(٨) — Janicsek, p. 15 - 26

(٩) — Z. Validi, GZ, XL. p. 368, note 1 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 407, No 9

(١٠) — Reinaud, Introduction, p. LXIII

(١١) — Brockelmann, GAL, I, p. 228, No 9

(١٢) — Heer p. 21, No 9

(١٣) — Sarton, Introduction, I, p. 635 - 636

(١٤) — Markwart, Streifzüge, p. XXXI — Hudud, p. 168

(١٥) — Bartold SV, I, p. 42

(١٦) — Girgas, p. 195

(١٧) — Brockelmann. GAL, I, p. 228, No 9

(١٨) الفهرست ، ص ١٥٤

(١٩) ابن الفقيه ، BGA, V ص XI

(٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧

(٢١) شرحه الجزء الثالث ، ص ٣٩٤ : راجع : Heer, p. 21 No 9

(٢٢) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢٣) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٠ ، رقم ١١٨٧٢ —

Frähn, Ibn Foszlan, p. XXIV - XXV

(٢٤) – Hudud, p. XVII — XVIII

(٢٥) – Reinaud, Introduction, p. LXIII

(٢٦) – Hudud, p. XVIII

(٢٧) حدود العالم ، ص ١٧ (Hudud, p. 24 =)

(٢٨) – Krachkovski, « Blagodatny ogon » p. 242 note 1 - 2 — Wjedemann, Beiträge, XXVII p. 8 - 9 note 3

(٢٩) – Krachkovski, « Blagodatny ogon », p. 230, 241

(٣٠) البيروني ، كتاب الجماهر ، ص ١٦٦

(٣١) – Wiedemann, und Kohl

(٣٢) – Nallino, Al-Battani, I. p. 166,167-169; II, p. XXIII — Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 8-9, note 3—Validi, Schwerter p. 42

(٣٣) حسب ترجمة مينورسكي (Hudud, p. VII, note 2) : مناطق (Regions)

(٣٤) – Kramers, EI, EB, p. 67

(٣٥) لقد تشنر ، راجع : Taeschner, DI, XXVI, p. 67

– راجع أيضاً : Minorsky, une nouvelle source, p. 1 - 8 ; Umniakov, VDI, No 3 (4), 1938, p. 211 - 218; Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 15

[راجع أيضاً: Minorsky, Addenda to the Hudud, BSOAS, XVII, 1955, p. 250]

(٣٦) حدود العالم ، ص ٦

(٣٧) حسب تعداد الكتاب نفسه (الورقة الأولى ، ب) ستون فصلا ، فقد أسقط « البجناق » (الورقة ١٨ ، ب) .

(٣٨) راجع : Kramers, EI, EB, p. 67

(٣٩) – Huart, JA, qsérie, XVIII p. 16

(٤٠) شرحه ، ص ٢٠

(٤١) شرحه ص ١٧ ، ٢٠ – راجع أيضاً :

Huart, Le Livre de la Creation—Brockelmann, GAL, SBI, p. 222, No 8

Sarton, Introduction I, p. 659 — Krymski, Istoria Arabov, I, p. 103, 125

Huart, Littérature Arabe, p. 282-283

(٤٢) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ٢٣ ، رقم ١٦٩٣ –
المتن : Huart, Le livre de la Création, I, p. 5-6
« فأمرنى أن أجمع له كتاباً . . . مصفى عن سقاط الغسالات وخرافات العجائز وتزاوير القصاص . . . » –
الترجمة ، الجزء الأول ، ص ٥

(٤٣) – Huart, Le livre de la Creation

(٤٤) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 222 No 8

(٤٥) – Sarton, I, p. 659 — Huart, Le Livre de la Création, II (المتن) p. 146; (الترجمة) II, p. 135

(٤٦) – Huart, Le Livre de la Creation, IV, p. 49-104; الترجمة p. 47-99

(٤٧) شرحه ، ص ٤٩

(٤٨) شرحه ، ص ٥٤

(٤٩) شرحه ، ص ٥٧

(٥٠) شرحه ، ص ٦١

(٥١) شرحه ، ص ٧٠

(٥٢) شرحه ، ص ٨١

(٥٣) شرحه ، ص ٩٠

(٥٤) شرحه ، ص ٩١

(٥٥) شرحه ، ص ٩٢

(٥٦) شرحه ، ص ٩٦

(٥٧) شرحه ، ص ٩٨

(٥٨) شرحه ، ص ١٠٢ — ١٠٤

(٥٩) شرحه ، ص ٥٤ ، ٩٧

(٦٠) – Ferrand, Relations, I, p. 116-117

(٦١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٨٣٤

(٦٢) – Huart, IV, p 66-67 = (الترجمة) p. 62-63

(٦٣) – Markwart, Streifzüge, 200, 556

(٦٤) – Huart, IV, p. 49-104

(٦٥) شرحه ، ص ٨٠ — ٨١

(٦٦) – Kramers, EI, EB, p. 67

(٦٧) – Brockelmann, GAL, I, p. 213-214, No 5 ; SBI, p. 379-380 — Sarton, Introduction, I, p. 660-661 — Mieli, p. 128-130 – De Boer, EI, II,

p. 489 - 440 — Krymski, Istoria Arabov I, p. 126 — Krymski, Istoria Persii, I, No 2, p. 171 - 172 — Levy, II, p. 362 - 400 — Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17 - 18

(٦٨) - Goldziher, Ichwan al - safa, p. 22 - 26

(٦٩) - Brockelmann, GAL, I, p. 213 - 214: SBI, p. 380

(٧٠) - Nicholson Literary History, p. 370

(٧١) - Massignon, DI, IV, p. 324

(٧٢) ابن القفطى ، ص ٨٢

(٧٣) - Arnold, Chrestomathia, p. 111

(٧٤) - Brockelmann, GAL, SBI, p. 380

(٧٥) - Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17

(٧٦) - Sarton, Introduction, I, p. 660

(٧٧) - Dieterici, Streit (الترجمة) - : وأيضاً بحثه Thier und Mensch

(٧٨) - Sarton, Introduction, I, p. 661 — Krachkovski, Arabskie Entsklopedii, p, 17 - 18

راجع مذهباً آخر لدى : Gibb, Arabic Literature, p. 68

(٧٩) - Ruska GZ, p. 592

(٨٠) إخوان الصفا ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ — ١٤٤ . القطعة لدى : Dieterici, Ichwan essafa, p. 59 - 65;

الترجمة راجع : Dieterici, Die Propaedeutik, 4th section, p. 86 - 99 - Levy, II, p. 377 - 381

(٨١) إخوان الصفاء ، الجزء الأول ، ص ١٢٨

(٨٢) شرحه ، ص ١٣٠

(٨٣) شرحه ، ص ١٣١

(٨٤) شرحه ، ص ١٣٤ — ١٤٢

(٨٥) - Ferrand, Relations I, p. 114 - 115.

(٨٦) - Dieterici, Die Propedeutik, p 191 - 199,

مع المتن مصوراً وخارطة من عمل كيبرت Kiepert

(٨٧) - J. K. Wright, Georgr. Lore, p 83 = Kimble, p. 169 - 170

(٨٨) شرحه ، ص ٣٩٥ — ٣٩٦

(٨٩) شرحه ، ص ٨٣ = Kimble, p. 170

(٩٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 380

(٩١) – Gonzalez Palencia, p. 262

(٩٢) – Ruska, Quadrivium, p. 5 — ZA, XII, 1897, p. 145

(٩٣) – Bartold, Kult, mus., p. 41

(٩٤) – Umniakov, Kompendium, p, 1139

(٩٥) شرحه ، ض ١١٤٠

(٩٦) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 2 B

(٩٧) – Kramers, EI, EB, p. 67

(٩٨) – Umniakov, Kompendium, p. 1140-1141

(٩٩) شرحه ، ص ١١٤١

(١٠٠) شرحه ، ص ١١٤٥ ؛ وراجع : Minorsky, Khazars, p. 149-150

(١٠١) شرحه ، ص ١١٣٨

(١٠٢) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٢ ، رقم ١١٨٧٥ – Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 9

(١٠٣) – Kramers, EI, SB, p. 67

(١٠٤) – Mez, p. 267

(١٠٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٣٨٠ – يفتقد لدى Heer

(١٠٦) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٩ – ٢٠

(١٠٧) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٧

(١٠٨) – Reinaud, Introduction, p. XCII-XCIII = Mehren, udsigt p. 25

(١٠٩) أبو الفداء ، الجزء الثاني ، ص ٣٧١ = Storbeck, p. 52

(١١٠) – Bartold, Hafiz; Abru, p. 3-4

(١١١) – Brockelmann, GAL, I, p. 180, No 5; SBI, p. 306-307

(١١٢) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٦ ، رقم ٥١٢٨

(١١٣) جرجس افندي صفا ، ص ٤٣٩

(١١٤) شرحه ، ص ٤٣٩ – ٤٤٢ ، ص ٥٧٨ – ٥٧٩

(١١٥) – Krachkovski, « Blagodatny ogon » p. 232-233

(١١٦) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 951

(١١٧) ياقوت ، إرشاد الأريب ، الجزء الرابع ، ص ١٩٠ – ١٩٥ ؛ راجع : الزركلي ، الجزء الأول ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥

(١١٨) جرجس افندي صفا ، ص ٤٤١ – ٤٤٢

(١١٩) راجع أعلاه الفصل الرابع

(١٢٠) Krachkovski., « Blagodatny ogon », p. 232-233 –

(١٢١) Fück ZDMG, 90. 2, p. 299-321 –

(١٢٢) Ritter, DI, XVII, p. 15-23 · Fück, ZDMG –

(١٢٣) Brockelmann. GAL, I, p 147-148, No 3; SBI, p, 226-227 — Ritter DI, – XVII, p. 17-23 = محمد يونس الحسيني ، ص ١٧٨ – ١٨٧ - Fück, ZDMG, 84, p. 111-124 — Fück, EI, III, p. 873-874 — Nallino, Racc., p. 47-50 — Sarton Introduction p. 662

(١٢٤) شرحه Fück. EI, III, p. 873 — Fück, ZDMG, 84, p. 111 - 1.4 — Sarton, –

(١٢٥) الفهرست ، ص ٢

(١٢٦) Brockelmann, GAL, SBI, p. 226-227. –

عن المغربي راجع : Zettersteen, EI, III, p. 117

(١٢٧) Fück, EI, III, p. 874 –

(١٢٨) Fren, Pism dr. Russov –

(١٢٩) Bartold Musl, Mir, p. 51 –

(١٣٠) Ferrand, Relations I, p. 118-130 –

(١٣١) Van Vloten, Mafatih al · olum, p. 6 –

(١٣٢) Sarton, Introduction, I, p 659 - Krymski, Istoria Persii p. 172 –

(١٣٣) Brockelmann, GAL, I, p. 244, No 1, SBI, p. 434-435 — Wiedemann, – Al-Khwarizmi, p. 979 - 980 Mieli, p. 96-97 — Beliaev, MITT, p. 29

(١٣٤) Bartold, Kult. Mus., p. 35-36 –

(١٣٥) Bartold, K istorii orosh., p. 17-18, 54-58 — Volin Mafatih, p. 217 -219 –

(١٣٦) Van Vloten, Mafatih al·olum, p. 5 –

(١٣٧) شرحه ، ص ٢١٥ — ٢٢٥

(١٣٨) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 37-40 –

(١٣٩) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٢ — ٢٩٥

(١٤٠) شرحه ، ص ٢٩١ — ٤١٨

(١٤١) Fischer, SBSAW, 81, 3 (1929) –

(١٤٢) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٢ – Heer, p. 23 – Sachau Klosterbuch, p. 6

(١٤٣) حبيب الزيات ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤ – Sachau, Klosterbuch

(١٤٤) شرحه

(١٤٥) Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14 –

(١٤٦) تحليله لدى : Heer, p. 88 - 98

(١٤٧) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٤٠٨

(١٤٨) De Slane, Ibn Khalikan, II, p. 263 –

(١٤٩) Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14 –

(١٥٠) راجع : Sachau, Arab. Erzählungen, p. 104 - 105, 115 - 119 –

(١٥١) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤

(١٥٢) A. S. Atiya, XXme Congrès, p. 77 –

(١٥٣) Brockelmann, GAL, I, p. 155 - 156, No 10, SBI, p. 252 - 253 — Paret, p. 710 — Wiener p. 39 - 41 –

(١٥٤) Margoliouth, Al-Tanukhi p. 137 - 146 –

(١٥٥) التنوخي ، الجزء الثاني ، ص ٧٣ — ٩٤

(١٥٦) شرحه ، ص ٧٣ — ٧٤ ، ٧٩ — ٨٠ ، ٨٧ — ٨٨

(١٥٧) شرحه ، ص ٧٥ — ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ — ٨١ ، ٨٨ — ٨٩

(١٥٨) شرحه ، ص ٧٨ — ٧٩

(١٥٩) Mez, p. 267 — Ferrand, Sofala, p. 394 - 395 –

الفصل التاسع

البيرونى وجغرافيو القرن الحادى عشر بالمشرق

---

244 بدأ القرن الحادى عشر مشرقاً بالنسبة للعلم العربى ؛ ففى عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ أتم تأليف كتابه المشهور « الآثار الباقية » علامة شاب هو البيرونى ، وهو كتاب لا مثيل له فى جميع آداب الشرق الأدنى . وفى خلال نصف قرن تقريباً من هذا التاريخ لم يتوقف البيرونى عن تزويد مختلف فروع العلم بمؤلفاته العديدة التى يمكن القول بأنها بلغت ذروتها بكتابه عن الهند ، ذلك الكتاب الذى وصفه روزن منذ أكثر من خمسين عاماً بأنه « أثر فريد فى بابه لا مثيل له فى الأدب العلمى القديم أو الوسيط سواء فى الغرب أو الشرق »[1] . وقد أحس العلماء بسمو شخصية البيرونى العلمية منذ بزوغ فجر الاستعراب العلمى ، فكاترمير Quatremère قد لفت إليه الأنظار قبل روزن بنصف قرن تقريباً[2] . وكلما توسع العلم وتعمق فى التعرف عليه وعلى مصنفاته كلما بدت شخصيته أكثر عظمة وسمواً . وفى أيامنا هذه أطلق سارطون على الفترة التى تشمل منتصف القرن الحادى عشر ، وذلك بالنسبة لتاريخ العلم العالمى ، اسم عصر البيرونى لأنه أكبر شخصية علمية عاشت فى ذلك الوقت . ولاتزال شخصيته العلمية آخذة فى النمو ، فقد تم العثور على مواد جديدة تؤكد أحقية هذا العالم الذى ينتمى إلى بلاد ما وراء النهر لكل ما ناله من تقدير وإجلال .

وحياة البيرونى أبعد من أن توصف بالهدوء والاستقرار ؛ ولا نملك إزاء هذا إلا الانحناء فى خشوع واحترام أمام النتائج العلمية الباهرة التى توصل إليها والتراث العلمى الحافل الذى أنتجه فى ظروف الزمان الذى عاش فيه . ولد البيرونى فى الثانى من ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ = ٤ سبتمبر ٩٧٣[3] بضاحية من ضواحى خوارزم ، ومنها أخذ نسبته البيرونى التى تنطق فى العربية بكسر الباء ولكن فى الفارسية تنطق الباء ممالة بعض الشىء (أى تليها e ممدودة) . ويمكن أن نجد إشارة إلى هذا فى إحدى النسخ التى كتبها بخط يده حيث يشكل اسمه بالعربية البَيْرونى أى بفتح الباء تليها ياء مسكّنة[4] ، يريد بذلك على ما يظهر أن يبين الصوت الممدود e الذى لا يوجد فى الكتابة العربية . 245 أما فى الاستعمال العربى العادى فقد سرى عليه اسم البيرونى بكسر الباء ، وهو الذى سنسير عليه أسوة بما حدث مع اسم المؤرخ الدينورى . والنسبة نفسها غير مستعملة كثيراً ، ولعله إلى جانب المعنى المعروف الذى يشير إليه السمعانى[5] وهو « رجل الضاحية » ، تختفى إشارة ما إلى أصل مغمور لمؤلفنا . وعلى ضوء هذا فقد لا يكون من قبيل المزاح والفكاهة أبيات البيرونى التى حفظها لنا ياقوت والتى يقول فيها[6] :

« . . . . : ولست والله حقاً عارفاً نسبى
إذ لست أعرف جدى حق معرفة وكيف أعرف جدى إذ جهلت أبى
إنى أبو لهب شيخ بلا أدب نعم ووالدتى حمالة الحطب »

وكنيته أبو الريحان غير واضحة بدورها(٧)، كما وأن نسبه مجهول تماماً . أما اسمه محمد بن أحمد فلا يفاد منه شىء البتة ، بل جرت العادة على استعمال هذه الأسماء عندما تكون الأسماء الحقيقية غير معروفة . ومهما يكن مدلول أبيات الشعر هذه فإن لغته الوطنية كانت الخوارزمية(٨) ، وتأتّى له أن يتلقى تعليما جيداً دعمته أسفاره العديدة وتجواله وتعطشه الشديد إلى المعرفة الذى ألهب مشاعره منذ سن مبكرة . ومنذ سن مبكرة أيضاً اتجه اهتمامه إلى نواح من العلم لم تكن معهودة للدارسين فى العصور الوسطى الإسلامية ، ويروى أنه عاش بخوارزم إذ ذاك عالم يونانى فكان يختلف إليه البيرونى حاملا أنواع النبات والبذور والثمار يسأله عن أسمائها اليونانية ويدوّن ذلك(٩). وقد لفت وهو لايزال شاباً أنظار رعاة الأدب فى دولة بنى عراق المحلية الصغيرة ، ولكنه لم يلبث أن اضطر عقب إحدى الانقلابات إلى مغادرة وطنه وهو فى سن العشرين ، فرحل إلى سواحل بحر قزوين . وفى جرجان التقى بأكبر أساتذته وهو الطبيب والفلكى المسيحى أبو سهل عيسى المسيحى ؛ وهناك أيضاً تمتع بعطف أمير جرجان وطبرستان قابوس بن وشمكير الزيارى(١٠)، الذى اكتسب بدوره بعض الشهرة كناثر وآخذ فى العلم بطرف(١١) ؛ وإليه رفع البيرونى أول مصنفاته الكبرى وهو « الآثار الباقية » . ويبدو أن ميل هذا الحاكم إلى الطغيان جعل الحياة عسيرة ببلاطه ، الأمر الذى تردد صداه فى أشعار متأخرة للبيرونى . وإلى هذا الوقت المبكر من حياته العلمية ترجع أيضاً الرسائل التى تبادلها مع معاصره الأصغر منه سناً ابن سينا الذى طبقت شهرته الآفاق فيما بعد ؛ وهى تقف دليلا | على عمق معرفته بالفلسفة وعلى حدة مزاجه(١٢). وفى حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ رجع إلى موطنه حيث كانت تتولى مقاليد الحكم أسرة المأمونيين التى ما لبثت أن وجدت نفسها بين شقى الرحى ، تتهددها دولتان قويتان هما دولة ايلكخانات سمرقند ودولة محمود الغزنوى التى كانت تنمو بسرعة متزايدة . ولم يلبث البيرونى أن تقاذفته الدسائس والمؤامرات السياسية ، فلما احتل محمود الغزنوى خوارزم أخذ البيرونى معه إلى غزنة عام ٤٠٨ هـ=١٠١٨ بوصفه عنصراً لا يُطْمَأن إليه . ولاتكاد تخلو مصنفاته المتأخرة بأجمعها من الشكوى المُرّة لما يلاقيه العلم من سوء التقدير ولمصيره الشخصى الذى انتهى إليه هو نفسه(١٣) . وليس فى الاستطاعة النفاذ إلى جوهر شكايته ، فهى بالنسبة لظروف ذلك الزمان كثيراً ماوردت على هيئة إشارات غامضة . ويبدو أن البيرونى ظل طوال ذلك الوقت مُرَاقباً من محمود الذى كان لايثق فيه ، ومن ثم فقد اضطر البيرونى دائماً إلى البقاء إلى جانبه بل ومصاحبته فى حملاته العسكرية دون أن يتمتع بحرية التنقل ، وقد عرف البيرونى فى هذه الفترة شظف العيش ولم تكن الأجهزة والوسائل العلمية فى متناول يده حتى يستطيع متابعة أبحاثه . ورغماً عن هذا فقد وضع

246

فى هذه الفترة بالذات عدداً من المؤلفات الضخمة من بينها كتابه المشهور عن الهند . وإلى خليفة محمود وهو ابنه السلطان مسعود رفع البيرونى كتابه الكبير « القانون المسعودى » . ويلوح أن وضعه آنذاك 247 كان قد تحسن بعض الشىء فخصص له راتب منتظم وتمتع بحرية التنقل ، ومن ثم فقد استطاع فى حوالى عام ١٠٣٤ أن يزور مسقط رأسه خوارزم ، ولم نعد بعدها نسمع بشكاياته[١٤] . والظاهر أن الأعوام الأخيرة من حياته كانت هادئة إلى حد ما ؛ وفى عهد مودود الذى خلف مسعود وضع البيرونى كتابه فى « الصيدنة » وهو آخر مؤلفاته الكبرى ؛ وتوفى البيرونى بغزنة فى الثالث من رجب عام ٤٤٠ هـ الموافق ١٣ ديسمبر ١٠٤٨ [١٥].

وعلى الرغم من أن اسم البيرونى يجد مكانه فى الأدب العربى فى ميدان الجغرافيا والرحلات[١٦] ، إلا أنه كما يتبين لنا من المصنفات التى مر ذكرها فإن البيرونى لم يكن جغرافياً ؛ أو على الأصح لم يكن جغرافياً بقدر ما كان مؤلفاً واسع المعرفة شمل نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له والتى تحتل من بينها العلوم الرياضية والفيزيائية المكان الأول بالنسبة له ، بل وربما كانت أيضاً العلوم التاريخية والطبيعية ليست أقل مكانة عنده من تلك ؛ ويؤكد هذا رسائله الموجزة التى وصلنا منها نحو العشرين ، وأيضاً ثبت مؤلفاته الذى وضعه بنفسه والذى يصل إلى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧[١٧] . وقد بلغ محيط دراساته حداً أصبح معه من الأيسر تعداد فروع العلوم التى لم تجتذبه إليها عما اجتذبه فعلا . فلا نستطيع مثلا أن نلمس أثراً لاشتغاله بعلوم الشريعة ، ويبدو أنه لم يذهب فيها إلى أبعد من الحد المفروض على كل مسلم مثقف . وإذا كانت اللحظات الأخيرة من حياته قد أمضاها كما تقول إحدى الحكايات[١٨] فى فحص حالة معقدة تتصل بالتركات فهذا يمكن تفسيره بأن هذه الموضوعات بالذات كانت ترتبط بمسائل الرياضة والجبر ؛ وقد أولاها الخوارزمى الفلكى المعروف من قبل الكثير من الاهتمام . وكانت العلوم الاجتماعية تمثل عند البيرونى أهمية كبرى ، وهو نفسه لم يكن غريباً على الشعر كما يتضح من الأبيات الشعرية التى خلفها لنا ؛ وعلى أية حال فقد كان على معرفة جيدة بالشعراء ووضع فى ذلك بضع مصنفات لم تصل إلينا . ومعرفته بالشعر تنعكس بصورة أكثر وضوحاً فى مؤلفاته ذات الطابع التخصصى ، ففى كتابه فى « الجواهر » مثلا يستشهد بما يقرب من ثمانين شاعراً عربياً[١٩] . ولم تصلنا مؤلفاته التاريخية التى عالج فيها تاريخ الفرق وتاريخ موطنه خوارزم وتاريخ الغزنويين الأول ، وليس ثمة ما يوجب الكلام عن الأهمية القصوى التى كانت ستمثلها جميع هذه المؤلفات ولكن يبدو أنها أصبحت نادرة الوجود منذ عهد مبكر ؛ فياقوت ، وهو الذى كان على علم بكتاب البيرونى فى تاريخ خوارزم ، لم يكن هذا الكتاب فى متناول يده عندما دون معجمه الجغرافى[٢٠] . ويبدو أن البيرونى لم يشعر بميل 248 إلى الفلسفة المجردة ، وفقط من مراسلاته مع ابن سينا فى سنى الشباب يمكن الاستدلال على معرفته بها . وهو لم يعتبر نفسه ذا خبرة فى ميدان الطب خاصة الجانب العملى منه ؛ وفى آخر كتاب له وهو كتابه فى « الصيدنة » يؤكد عدم عزمه على أن يمس مسألة الاستعمال الطبى للأدوية[٢١] .

ومجال نشاطه العلمى وأبحاثه هو الرياضة والفلك والعلوم المرتبطة بهما كالمتريولوجيا وجميع المسائل المتعلقة بحساب الوقت وصناعة أجهزة الرصد. ولعل زيارته للهند قد اضطرته إلى الاهتمام اهتماماً كبيراً بالمعادن وذلك نتيجة لولع الحكام المحليين بالأحجار الكريمة ؛ وقد جره هذا إلى إجراء عدد من التجارب القيمة فى الوزن النوعى ؛ وفى أواخر أيام حياته يقع اشتغاله بالصيدنة(٢٢) .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام البيرونى فى ميدان الجغرافيا إلى الجانب الرياضى والفلكى . ولكن يتضح من كتابيه « الآثار الباقية » و « الهند » ، وهما اللذات اقتصر عليهما تداول الدوائر العلمية حتى عهد قريب ، أن البيرونى لم يقف عند هذين الفرعين بل ضرب فى جميع فروع العلوم الأخرى بنصيب . أما مصنفاته التى تعرف عليها العلم الحديث منذ عهد ليس بالبعيد فإنها تثبت أنه كان ملماً بجميع المادة العلمية المعاصرة له . ويمكن إعطاء فكرة جيـدة عن مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية فى عصره مما دونه بصدد توزيع البحار على سطح الأرض ، وذلك فى مصنف لم يقصد به فى الواقع إلى علم الفلك إنما قصد به التنجيم . قال :

« أما البحر الذى فى مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سمى البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس ولا يُلَجَّج فيه إنما يسلك بالقرب من ساحله وهو يمتد من عند هده البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين(٢٣) ويعرفونه ببحر وَرَنك وهم أمة على ساحله ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة . . . وأما امتداد البحر المحيط الغربى من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف عن جنوب أرض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التى تنتبع منها عيون نيل مصر(٢٤) وفى سلوكه غَرَر(٢٥) لا تنجو منه سفينة ؛ . . [249] وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصى أرض الصين(٢٦) فإنه أيضاً غير مسلوك ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذى يسمى فى كل موضع من الأرض التى تحاذيه فيكون ذلك أول بحر الصين ثم الهند وخرج منه خليجان عظام(٢٧) يسمى كل واحد منها بحراً على حدة كبحر فارس والبصرة الذى على شرقيه تيز ومُكران وعلى غربيه فى حياله فرضة عُمان فإذا ما جاوزها بلغ بلاد الشحر التى يجلب منها الكندُر ومرّ إلى عدن وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقُلْزُم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بهما(٢٨) فيقال لجنوبيه بحر الحبشة وللشمالى بحر اليمن ولمجموعهما بحر القلزم وإنما اشتهر بالقلزم لأن القلزم مدينة على منقطعه فى أرض الشام حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو أرض البجة . . والخليج الآخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن(٢٩) إلى سفالة الزنج ولايتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ويتصل بعدها ببحر أوقيانوس المغربى وفى هذا البحر من نواحى المشرق جزائر الزابج ثم جزائر الديبجات وقمير ثم

جزائر الزنج ومن أعظم هذه الجزائر الجزيرة المعروفة بسرنديب ويقال لها بالهندية سيلانديب ومنها تجلب أنواع اليواقيت جميعها ومنها يجلب الرصاص القلعي وسُربزه ومنها يجلب الكافور . . . ثم فى وسط المعمورة فى آرض الصقالبة والروس بحر يعرف ببنطُس عند اليونانيين[٣٠] وعندنا يعرف ببحر طرابزنده لأنها لأنها فرضة عليه ويخرج منه خليج يمر على سور القسطنطينية ولايزال يتضايق حتى يقع فى بحر الشام الذى على جنوبيه بلاد المغرب إلى الإسكندرية ومصر وبحذائها فى الشمال أرض الأندلس والروم وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس فى مضيق يذكر فى الكتب بمعبرة هيرقلس ويعرف الآن بالزقاق يجرى فيه ماؤه إلى البحر المحيط وفيه من الجزائر المعروفة قُبْرُس وسامس وررودس وصقلية | وأمثالها . وبالقرب 250 من طبرستان بحر فُرضة جرجان عليه مدينة آبسكون وبها يعرف ثم يمتد إلى طبرستان وأرض الديلم وشروان وباب الأبواب وناحية اللان ثم الخزر ثم نهر اتل الآتى إليه ثم ديار الغزية ثم يعود إلى آبسكون وقد سُمى باسم كل بقعة حاذاها ولكن اشتهاره[٣١] عندنا بالخزر وعند الأوائل بجرجان وسماه بطلميوس بحر أرقانيا وليس يتصل ببحر آخر . . . فأما سائر المياه المجتمعة فى مواضع من الأرض.فهى مستنقعات وبطائح[٣٢] وربما سميت بحيرات كبحيرة أفامية وطبرية وزُغر بأرض الشام وكبحيرة خوارزم وأبسكون بالقرب من برسخان »*[٣٣] .

إن قرائن الأحوال تشير إلى أن البيرونى كان يعتبر هذا الفصل جماعاً للمعارف الجغرافية فى عصره ، وهو يعيد نفس هذا الكلام بإيجاز ولكن فى خطوطه الرئيسية فى كتابه « القانون المسعودى »[٣٤] . وإذا ما رجعنا بذاكرتنا إلى وصف البحار الذى يقدمه قبل قرن من هذا البتانى للاحظنا اختلافاً جوهريا بينه وبين البيرونى ، ذلك أن البتانى يسير على هدى المدرسة اليونانية فيقدم لنا الرواية الكلاسيكية القديمة دون تغيير تقريباً ، أما البيرونى فرغماً من تأثره بالعلم اليونانى إلا أنه يعمل على مزجه بالمعلومات الجديدة التى حصل عليها الجغرافيون العرب فى ذلك العصر . ومن الميسور أن نستنتج من عرضه هذا بوصفه ملخصاً شاملا لمعلوماتهم بعض الحقائق الجلية[٣٥] .

لقد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل أفريقيا الشرقى إلى خط عرض ٢٠ درجة جنوباً ؛ أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الظن والتخمين ولو أن علمهم بالكوارث التى كانت تتعرض لها السفن يشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشر بمضيق موزمبيق . ويتضح أنهم عرفوا أفريقيا كجزيرة رغماً من عدم توفر المعطيات الواقعية التى يمكن أن تبرر هذا ، ورغماً أيضاً من وجود أنصار عديدين لنظرية بطلميوس فى هذا الصدد . ويلاحظ عدم وجود أية إشارة فى كلامهم إلى وجود قارة جنوبية (Antipodes)[٣٦] ؛ وتندر معلوماتهم عن أوروبا

---

* بحر ورنك هو بحر البلطيق ؛ والبربر الصومال ؛ وجزائر الزابج أندونيزيا ؛ والديبجات ارخبيل لكديف وملديف ؛ وبنطس البحر الأسود ؛ ومعبرة هيرقلس بوغاز جبل طارق وأتل الفولجا ؛ وبحيرة آبسكون هى بحيرة أيسيق كول . (المترجم)

الشمالية وآسيا الشرقية كما كان عليه الحال تماماً من قبل . أما البيرونى فقد كان لديه عن جميع هذه المناطق معلومات وافية تعتمد لا على إلمامه التام بمؤلفات السابقين عليه بل وأيضاً على المعلومات التى حصل عليها من الرحالة والتجار. ولقد كانت لديه فكرة عن بحر البلطيق والبحر الأبيض الشمالى[٣٧] ، 251 وعرف الكثير عن سكان شمالى وشرقى أوروبا[٣٨] خاصة النورمان الاسكندنافيين الذين يدعوهم لا باسمهم المعهود فقط وهو الروس بل باسم الورنك[٣٩] أيضاً ، وهو قد سمع بقصة الملاح الذى ضرب فى الأصقاع الشمالية فبلغ بقعة لا تغرب فيها الشمس صيفاً[٤٠] ؛ ويورد لنا تفاصيل فريدة عن صناعة السيوف لدى الفرنجة والروس[٤١] . وفيما يتعلق بسيبريا فإنه أول من أورد لنا ذكر نهر أنغرا Angara والأقوام التى تقطن منطقة بحيرة بايكال Baikal[٤٢] . وقد كانت معروفة له أيضاً بلدان أفريقيا الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فهو يذكر أن هناك أصقاعاً جنوبية « يكون فيها الوقت شتاء عندما يكون لدينا صيفاً » .

ونظرية البحار كما عرفها البيرونى قد ثبّتت هذه التصورات فى الجغرافيا العربية لمدة طويلة ، إن لم نقل على الدوام . فياقوت الذى كثيراً ما نقل عن هذا المصنف للبيرونى[٤٣] ينقل عنه أيضاً بعد مضى قرنين الوصف المشار إليه عن البحار بحذافيره ودون أية تغييرات باعتباره أفضل ما عرفه عن توزيع البحار على الأرض[٤٤] ؛ ونفس القول يصدق على أبى الفدا[٤٥] وذلك بعد قرن من ياقوت . وتمتاز بالصحة والدقة آراء البيرونى الأصيلة حول عدد من المسائل الجغرافية . فمؤرخو علم الجغرافيا يشيرون بالكثير من الاحترام[٤٦] إلى بحثه لمسائل مثل دوران الأرض حول محورها ، وخضوع منابع المياه لقواعد الهيدروستاتيكا Hydrostatics ؛ وأنه كان محقاً عندما قال بأن وادى السند كان يوماً ما قاعاً للبحر ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج :

وإلى جانب العدد الكبير من الرسائل المختلفة فى الجغرافيا الرياضية ، والتى لم تكن فيما يبدو كبيرة الحجم ، ندين للبيرونى بمصنفات تشير أسماؤها إلى اهتمامه بالأنماط الجغرافية المعروفة لنا . فياقوت مثلا كثيراً ما ينقل عن مصنف له يحمل عنوان « تقاسيم الأقاليم »[٤٧] وذلك من نسخة خطية بقلم المؤلف ترجع إلى عام ٤٢٢ هـ = ١٠٣١[٤٨] . وجميع هذه المصنفات لم تصل إلينا ومن ثم فسنقتصر فى تحليل آرائه فى الجغرافيا على مؤلفاته الكبرى التى تحمل طابعاً جغرافياً صرفاً ؛ غير أن استيعاب جميع المادة الجغرافية الموجودة بها أمر يحتاج إلى دراسة خاصة 252 مهد لها الطريق أبحاث ڤيدمان Wiedemann رغماً من أن مؤلفات البيرونى التى تم الكشف عنها أخيراً لم تكن فى متناول يده . ولن نستطيع هنا سوى الإشارة إلى الخطوط الرئيسية لمؤلفاته مع الوقوف عند نقاط معينة لأهميتها بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العربى :

وأول مؤلفات البيرونى الكبرى من الناحية الزمنية وأكثرها شهرة فى العلم الأوروبى هو كتابه فى

التقويم « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذى انتهى من تصنيفه وهو فى سن السابعة والعشرين تقريباً بجرجان ؛ وقد أصبح فى متناول الأيدى منذ السنوات السبعينات للقرن الماضى بفضل مجهودات العلامة زاخاو Sachau . وفى الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إن لم يكن لطبعة جديدة فعلى الأقل إلى إضافة زيادات جوهرية إلى المتن الذى طبعه زاخاو . ويمكن بفضل المخطوطات التى كشفت منذ عهد غير بعيد ، ومن بينها واحدة بالاتحاد السوفيتى ، تدارك جميع الفجوات (Lacunae) الموجودة فى الأصول التى اعتمد عليها زاخاو والتى ترجع فى معظمها إلى عهود حديثة ، هذا بينما ترتفع المخطوطات التى تم العثور عليها أخيراً إلى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) وكثيراً ما تبين القراءة الصحيحة(٤٩) . والكتاب فى جوهره خلاصة للتقاويم المختلفة فلكية كانت أم شعبية ؛ وهو يقدم لنا وصفاً كاملا لجميع التوقيتات والأعياد المعمول بها عند الشعوب وفى الأديان المعروفة له كاليونان والرومان والفرس والصغد والخوارزميين والحرانيين والقبط والنصارى واليهود وعرب الجاهلية والمسلمين . ومصادره فى هذا الميدان غاية فى التنوع فهو يعتمد من ناحية على مؤلفات خاصة مفقودة بالنسبة لنا ، ومن ناحية أخرى على الرواية المتواترة التى تمتاز فى بعض الأحوال بقيمة نادرة . ويكفى فى هذا الصدد أن نلاحظ أنه وهو المسلم يقدم لنا أول وصف مفصل لنظام التوقيت عند اليهود(٥٠) . أما فى مجال الجغرافيا الرياضية فلاتقتصر الأهمية على المادة نفسها بل تنتظم أيضاً المنهج الأصيل الذى اتبعه البيرونى كتحليله المفصل لفكرته عن مساقط الخارطات (Cartographic Projections) الذى دفع أحد الأخصائيين المعاصرين إلى الاعتراف بأنه قد جمع إلى سعة العلم خيالا خصباً(٥١) . وكما هو الشأن مع بقية مصنفاته فكذلك تبرز هنا بجلاء المميزات التى تنفرد بها معطيات البيرونى التى أخذ الاهتمام يزداد بها وفقاً لاطراد الاكتشافات الجديدة وتقدم العلم المعاصر . ويمكن إدراك ذلك فى الآونة الحاضرة من الاهتمام المتزايد بحضارة الخوارزميين القدماء عندما وكدت الاكتشافات والأبحاث الأخيرة أهمية معطياته فيما يتعلق بلغتهم وتقويمهم .

ويلاحظ بوضوح فى هذا المصنف المبكر إحدى العلامات المميزة للبيرونى فيما بعد ، ذلك هو إحساسه القوى بقوميته الإيرانية | 254 . فالتراث الإيرانى فى تاريخ الحضارة البشرية يستأثر باهتمامه ، بينما يبدو العرب قبل الإسلام وكذلك دورهم فى الفتوحات الإسلامية فى صورة سلبية؛ وهو يوجه نقده بصورة خاصة إلى فاتح بلاد ما وراء النهر المشهور قتيبة الباهلى لقضائه على حضارة خوارزم(٥٢) . ولما كان البيرونى يحرص دائماً على التزام الموضوعية (Objectivity) فمن العسير اتهامه بمعاداة العرب(٥٣) ، فهو مثلا يعتقد أن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة الجديرة بأن تكون لغة العلم(٥٤) . وتقف تجربة حياته بأكملها برهاناً على هذا ؛ وقد عبر عن رأيه فى اللغة العربية فى آخر مصنفاته وهو كتاب « الصيدنة » الذى وضعه بعد خمسين عاماً تقريباً من تأليفه « للآثار الباقية » . ففيه يقول :

« وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة

منها فى الشرايين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها مع ألاّفها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لوخُلِّد بها علم(٥٥) لاستغرب استغراب البعير الميزاب والزرافة فى العراب(٥٦) ثم متنقلة إلى العربية والفارسية فأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف والهجو بالعربية أحبّ إلىّ من المدح بالفارسية(٥٧) . وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به إذ لاتصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية »(٥٨) .

وهكذا فلم يمنع الشعور القومى الإيرانى البيرونى من تفضيل اللغة العربية على الفارسية ؛ وهو وإن أبدى فى ذلك بعض المبالغة إلا أنه بقى مخلصاً لهذا الرأى طول حياته .

وقد دون البيرونى مصنفاته بكل تأكيد بالعربية التى كان بلا شك يمتلك ناصيتها ، سواء فى الأسلوب العلمى الصارم فى مجال الرياضة والفلسفة أو فى الأسلوب القصصى البسيط الذى يحفل به خاصة أحد 255 مصنفاته الأخيرة وهو كتابه | فى « الجواهر » . ورغماً من هذا فإن العربية لم تكن لغته الأصلية ، ولعل هذا من الأسباب التى أكسبته أسلوباً خاصاً لا يمكن بأية حال اعتباره سلساً . وفى مؤلفاته للخاصة يبدو ميله إلى الإيجاز الشديد ؛ وهو نفسه يعترف بأنه لا يكتب من أجل المبتدئين ، ولكنه حتى فى العرض القصصى العادى يجنح من وقت لآخر إلى الخروج عن المألوف المستعمل بل ويضحى أسلوبه عسراً وعراً يحتاج فهمه إلى إعمال الجهد . وقد تؤدى دراسة أسلوبه الكتابى إلى نتائج طريفة لو تفرغ لذلك أحد العلماء(٥٩) . وبالرغم من اعترافه بأفضلية اللغة العربية على غيرها من اللغات فإن هذا الحكم لم يخف عليه مناقصها ، فهو يقف موقفاً سلبياً تاماً من رسمها ، ففى كتابه « الصيدنة » يقول* :

« ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة هى تشابه الحروف المزدوجة فيها واضطرارها فى التمايز إلى نقط العجم وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها . فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة ، وذلك من الفعل عام قومنا ، تساوى به وجود الكتاب وعدمه بل علم ما فيه وجهله . ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما فى كتب ديسقوريدس وجالينوس وبولس وأوريباسيوس المنقولة إلى العربى من الأسامى اليونانية ، إلا أننا لا نثق بها ولانأمن التغاير فى نسخها »(٦٠) .

وعواطف البيرونى نحو الشيعة التى تنعكس فى كتابه « الآثار الباقية » قد اختفت بمرور الزمان ؛ ومن المحتمل أن يكون قد اضطر إلى خنق هذه العواطف فيما بعد أثناء إقامته فى الوسط السنى المتطرف لبلاط محمود الغزنوى . غير أن منهجه فى التفكير يدل على أن مثل هذه المسائل لم تمسه كثيراً وأن بعض الميول التى عرفها أيام شبابه قد حل محلها عدم الاكتراث بها(٦١) .

---

* هذه الفقرة والسابقة لها نقلتهما من مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ل ٣٠١٤ وكانت ملكاً لميرهوف (ص ١٥ ، ص ١٧) . (المترجم)

أما المصنف الثانى من الناحية الزمنية فيرتبط بمسائل الجغرافيا الفلكية وذلك بالمعنى الضيق لهذا المصطلح ، وهو كتابه « تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » المحفوظ حتى الآن فى مخطوطة فريدة باستنبول بخط يد المؤلف فيما يبدو وترجع إلى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥[٦٢]. وفى المقدمة النظرية لهذا الكتاب يدور الكلام حول تحديد العروض الجغرافية والاختلاف فى تحديد أطوال المواضع والتطبيق العملى للمناهج السائدة[٦٣] . ويبدى البيرونى ملاحظته عن أن العرب | قد اتبعوا ثلاثة مذاهب فى تحديد 250 المسافات ، فهم إما أن يكونوا قد أخذوا حسابات بطلميوس كما هى ، أو أجروا أرصادهم الخاصة وفقاً لمذهبه ، أواستقوا مادتهم فى آخر الأمر من أسفار الرحالة وسير البريد . وقد اتبع البيرونى فى نشاطه العلمى المذاهب الثلاثة ، مستعملا ملاحظاته الشخصية فيما يتعلق بمنطقة شرقى إيران[٦٤] . ولما كان من شأنه أن يبين دائماً التواريخ التى دون فيها هذه الملاحظات فإنه من الممكن تتبع تحركاته من الوجهة الزمنية بالكثير من الدقة[٦٥].

وللبيرونى فى كتابه هذا استطراد لطيف يوضح فيه بالكثير من الحق والصواب الوضع الأفضل الذى تمتع به جغرافيو العرب بالنسبة للمؤلفين اليونانيين فيما يتعلق باتساع رقعة أفقهم الجغرافى نتيجة لاتساع نطاق الحضارة الإسلامية كما يقول « غرباً إلى الأندلس وشرقاً إلى حدود الصين وأواسط الهند وجنوباً إلى الحبش وبلاد الزنج وشمالا إلى مساكن الترك والصقالبة »[٦٦]. وتتركز أهمية الكتاب كما هو الحال دائماً فى مواضع معينة من العسير الحكم عليها إلا من خلال نقاط مبعثرة ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم وجود طبعة للكتاب . وتمتاز بقيمة كبيرة آراؤه فى هذا الكتاب عن جيولوجيا خوازرم القديمة ، وهى آراء تكشف عن الكثير من سعة الأفق وعن جرأة فكرية نادرة[٦٧] . وفى القرن الخامس عشر نجد أن المقريزى يستشهد بكتاب البيرونى هذا عند كلامه عن محاولات القدماء لحفر قناة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط[٦٨].

ومن بين مصنفات البيرونى الكبرى المعروفة لنا نعرف معرفة أجود ثلاثة منها ترجع بالتقريب إلى وقت واحد هو حوالى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ ، أى عام وفاة محمود الغزنوى . أما أبعدها صيتاً فهو « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » الذى رفعه إلى خليفة محمود ؛ وعليه بالذات تعتمد شهرته فى المشرق[٦٩] . وهو لم يطبع إلا فى الآونة الأخيرة وذلك بفضل عناية المستشرق الألمانى كراوزه Krause [٧٠] غير أن العلماء رجعوا إليه دائماً بحيث أمكن تكوين فكرة عن الكتاب من خلال القطع المختلفة التى نقلوها عنه . وقد ترجم ڤيدمان[٧١] فصلين منه هما التاسع وهو فى وصف سكان الأرض وحدود الأقاليم وفقاً للأطوال والعروض ، والعاشر وهو الذى يبين لنا جداول أطوال وعروض المواضع المختلفة . وكان كتاب « المجسطى » النموذج الذى سار على هديه « القانون » ؛ فهو يقدم لنا فى اثنى عشر باباً موجزاً لعلم الفلك كله مع حساب التوقيت | وحساب المثلثات والرياضة والجغرافيا والتنجيم[٧٢] ؛ وهو يستند 257

على الآثار السابقة المصلَّحة كما يعتمد أيضاً على أرصاد جديدة[٧٣] . اما فيما يتعلق بشكله فهو تعداد ضخم للمدن كما هو الشأن عند الخوارزمى ، وهى موزعة فيه تبعاً للأقاليم المختلفة مع تبيان الأطوال والعروض . وتتمثل طرافة الكتاب بشكل خاص فى أن الهند والبلدان الشرقية للعالم الإسلامى تنال فيه من العناية أكثر ما نالته فى المؤلفات السابقة له ؛ أما من ناحية الشكل الخارجى فإن العرض لا يختلف عما هو عليه الحال مع الجداول السابقة عليه ، فهو يعتمد فى تحقيق عدد من معطياته على المصادر القديمة الموثوق بها مثل بطلميوس والبتانى[٧٤] . وهذا الكتاب بالذات هو الذى أفرد له المؤلفون المتأخرون مكان الصدارة من بين جميع مؤلفات البيرونى ، فالقفطى[٧٥] لا يذكر إلى جانبه مصنفاً آخر ، وياقوت يقول عنه إنه « يعفى على أثر كل كتاب فى تنجيم أو حساب »[٧٦] ، كما أفاد منه كثيراً أبو الفدا بل إنه يدين له بالكثير من الفضل فى مصنفه الجغرافى على ما سوف نراه[٧٧] .

وكتاب البيرونى المعروف باسم « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » والذى يرجع إلى ذلك العهد نفسه لا يتسق موضوعه مع اسمه تمام الاتساق ، فهو فى واقعه ليس بمقدمة تقتصر على التنجيم وحده كما يمكن أن يفهم من العنوان بل عبارة عن موسوعة كبرى تعرض بالتوالى لمسائل فنية ولمصطلحات الهندسة والحساب والفلك (وينضم إلى ذلك الجغرافيا وحساب الأوقات ووصف الأجهزة الفلكية) والتنجيم . وهو كتاب جديد فى نوعه يتميز بالاستقلال ، حفظ لنا فيه البيرونى قواعد المذهب القديم[٧٨] . وفى القسم الثالث المفرد للفلك نلتقى بقطع عديدة فى الجغرافيا[٧٩] ؛ وقد مر بنا الكلام عن إحداها وهى التى تعالج موضوع توزيع البحار على الأرض . أما القطع الأخرى فتبحث فى كيفية ضبط العروض والأطوال ، وفى الأقاليم وخط الاستواء وارتفاع الشمس وقبة الأرض ، وفى المذاهب الأخرى فى تقسيم الأرض بخلاف الأقاليم[٨٠] ؛ وجميع هذه القطع تقريباً معروفة فى الترجمة الألمانية لفيدمان[٨١] . وإلى جانب الفصول الأخرى فى الجغرافيا توجد قطعة بعنوان « ما يوجد من البلاد فى كل إقليم »[٨٢] ، وهى تختلف اختلافاً كبيراً عن الجداول الفلكية المعروفة للفرغانى 258 بالرغم من أن حدود الأقاليم عند الاثنين لا تتفاوت كثيراً[٨٣] . ويمتاز بالطرافة على وجه الخصوص القسم عن البحار الذى مربنا ، وتصحبه فى جميع المخطوطات المعروفة خارطة مستديرة تبين توزيعها[٨٤] ، وهو نفس الرسم الذى نقله عنه ياقوت .

وهكذا نجد أن هذا المصنف على نقيض تسميته الضيقة لا يمكن بأية حال اعتباره مقدمة فى التنجيم ، فهو فى أبسط مدلولاته عبارة عن محاولة لإبراز تلك العناصر العقلية (Rationalistic) التى يرتبط بها التنجيم . وهو إلى جانب بعض الرسائل الصغرى للبيرونى قد دفع أكثر من مرة إلى التساؤل عما إذا كان البيرونى نفسه يعتقد فى التنجيم أو أنه كان منجما كما تصوره فى أغلب الأحيان الأسطورة المتأخرة ؛ إن الإجابة على هذا التساؤل يجب أن تكون بالنفى ، فقد حفظ لنا عدد من القصص والإشارات المختلفة وكلها تؤكد أنه كان يقف من التنجيم موقف المستريب بل والمتهكم أحياناً . بيد أنه ليس هناك أدنى شك

فى أنه قد حدث له أن لعب دور المنجم شأنه فى هذا شأن جميع فلكيى ذلك العصر والوسط . أما القول بأنه كان المنجم الرسمى لبلاط محمود الغزنوى كما تصوره بعض المصادر المتأخرة فأمر مشكوك فيه ، ولكنه يظهر فى حالات معينة فى هذا الدور محاولا فيما يبدو أن يفسح المجال لغلبة العناصر العقلية كما فعل فى كتابه « التفهيم »(٨٥) .

وبخلاف الفصل الذى مر ذكره فقد أفاد ياقوت على وجه العموم كثيراً من كتاب البيرونى هذا ؛ والخلاصة التى عملها ڤيدمان(٨٦) له تعطى فكرة ما عن مقدار ما يدين به ياقوت إليه ؛ كما أن أبا الفدا قد عرفه جيداً(٨٧) . وثمة دليل على سعة انتشاره هو العدد الهائل من المخطوطات الذى وصلنا منه ؛ وإحدى هذه المخطوطات وهى ليست بأفضلها قام بنشرها بالزنكوغراف فى عام ١٩٣٤ رمزى رايت Ramsay Wright وزودها بترجمة إنجليزية مرافقة للمتن ، وهى تستند أساساً على الرواية الفارسية للكتاب. ولا تزال طبيعة العلاقة بين الروايتين العربية والفارسية غير واضحة تماماً حتى الآن ، وظهر رأى يقول بأن كليهما بقلم أبى الريحان(٨٨) غير أن علمنا بموقفه من الفارسية يدفعنا إلى أخذ هذا الرأى بالكثير من الحذر .

و« كتاب التفهيم » على عكس مؤلفات البيرونى الأخرى لم يُرفع إلى واحد من الحكام بل إلى سيدة من خوارزم تسمى ريحانة ابنة الحسين ، كانت على ما يلوح كثيرة الاهتمام بمسائل العلوم الدقيقة . ويمكن الافتراض بأنها كانت تنتمى إلى الأسرة الحاكمة بخوارزم وأنها قد رحلت إلى غزنة مع بقية أفراد أسرتها عندما أجلاهم محمود معه . أما القول اعتماداً على هذا بأن البيرونى كان موجوداً وقت تأليف الكتاب بخوارزم فهو قول لا ينهض على أساس(٨٩) . ومن ناحية الشكل نجد أن هذا الكتاب يختلف عن بقية مؤلفات البيرونى فهو معروض على هيئة أسئلة وإجابات ، وهو أمر كما يقول المؤلف « أحسن وللتصور أسهل »(٩٠) . ولعل البيرونى لم يتنكب الصواب فى حكمه هذا لأن ذلك الكتاب بالذات يمثل موسوعة مبسطة لعدد من علوم عصره ونال انتشاراً واسعاً على ما يبدو من عدد المخطوطات الموجودة منه .

أما كتاب البيرونى الذى كسب له الصيت والمجد فى الدوائر العلمية الأوروبية ، وأعنى به كتاب « الهند » فهو ينتمى إلى طراز آخر من المؤلفات ويقف فريداً فى نوعه إلى يومنا هذا . ولا حاجة بنا إلى الكلام عنه بالتفصيل ، فمنذ أكثر من خمسين عاماً قدم روزن عنه تحليلاً قيماً وكّدت قيمته على ممر نصف قرن من الزمان الاكتشافات التالية ولايزال محتفظاً بحيويته وجدته إلى أيامنا هذه . أما معرفة الدوائر العلمية به فندين بها إلى المستشرق زاخاو الذى ترجمه إلى الإنكليزية ونشر متنه العربى فى الثمانينيات من القرن الماضى اعتماداً على مخطوطة ترجع إلى عام ٥٥٤ هـ = ١١٥٩ منقولة عن الأصل الذى كتبه المؤلف بخط يده .

ومن المستحيل اعتباره كتاباً جغرافياً بالمعنى الضيق للفظ ؛ وهدف المؤلف الحقيقى يبدو فى العنوان الكامل للكتاب وهو « تحرير ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة »(٩١) . فالمكانة الأولى عنده

إذن تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة . فمقدمة الكتاب مثلا تعرض للهند عامة ، ويضم الفصل الثامن عشر ملاحظات متفرقة عن الأرض والأنهار والأوقيانوس المحيط وعن اتساع الأقطار المختلفة . وفى الفصل الخامس والعشرين يرد الحديث عن أنهار الهند ومنابعها . ويجب أن يضم إلى هذا بكل تأكيد المجموعة الهائلةمن المعلومات الاثنوغرافية المتناثرة بالكتاب ، وكذلك الفصول الهامة التى يعالج فيها الكلام عن ديانة الهند وحياتها الفكرية(٩٢) . وتتخذ أهمية استثنائية ظاهرة خاصة هى أنه إلى جانب المجموعة الضخمة من المادة الجغرافية التى يحتويها الكتاب بصفة عامة فهو يكشف عن معرفة عميقة بالتصورات الجغرافية والكوزمولوجية لدى الهنود(٩٣) وبالتالى يوضح لنا الكثير من المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للعلوم والآداب الجغرافية العربية . أماطريقة العرض فتتشابه فى جميع الفصول ، فالمؤلف يبدأ بسوق ملاحظات عامة تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من المؤلفين الهنود ، ثم ينظر فى المسائل التى عالجوها ويقارنها بنظريات المسلمين واليونان والإيرانيين معلقاً على هذا بملاحظاته الشخصية الفذة . أما ما يحفل به الكتاب من مادة علمية فهو شىء يقف نسيج وحده ولا يوجد له أى مثيل(٩٤) . 260

وللبيرونى كتابان كبيران معروفان لنا يرجع تاريخهما إلى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته ، إذ تم تأليفهما فى عهد السلطان مودود (٤٣٢ هـ — ٤٤٠ هـ = ١٠٤١ — ١٠٤٨) حفيد محمود الغزنوى الذى توفى فى عام واحد مع البيرونى . أحدهما هو مصنفه فى المعادن بعنوان « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر » الذى يبحث فى المعادن والفلزات خاصة الأحجار الكريمة حيث يفرد لما يقرب من الخمسين منها فصلا خاصاً لكل واحد . وقد نشر الكتاب منذ عهد غير بعيد المستشرق كرنكو Krenkow بحيدر أباد (١٣٥٥ هـ = ١٩٣٧) فى طبعة تمكن من إعطاء فكرة واضحة عن الكتاب ، كما أن عدداً من المقالات والأبحاث قد بينت أهمية مادته لا من الناحية العلمية الخالصة فحسب بل ومن ناحية التاريخى الحضارى كذلك(٩٥) . وقد جمع فيه البيرونى بين أبحاث قام بها على أساس تجربة طويلة الأمد ومعرفة جيدة بالأدب العلمى من جهة والأدب الفنى من جهة أخرى ؛ ولم يقتصر فى ذلك على الأدب العربى وحده . بل أفسح المجال لآداب اللغات الأخرى . ويمكن تكوين فكرة عن مصادره من الدراسة القيمة التى أفردها لذلك محمد يحيى الهاشمى ، فمن بين المصنفات الجغرافية الأصيلة أفاد بصورة خاصة من مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ومن الجيهانى كذلك . وكمية المادة الجغرافية فى هذا الكتاب كبيرة للغاية سواء كانت فى شكل ملاحظات قصيرة أوقصص مفصّلة ، غير أن استخراج هذه المادة يتطلب جهداً كبيراً لا يقل بحال من الجهد الذى تتطلبه المصنفات من هذا الصنف ، وذلك إما بمعاونة الفهرس أو بفحص الفصول المختلفة الخاصة بكل معدن أوفلز على حدة .

ومن هذا الطراز نفسه «كتاب الصيدنة فى الطب » ، وهو آخر مؤلفات البيرونى ، ولعله لم يتممه .

وقد تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد فى مخطوطة فريدة بمدينة بروسة بتركيا ولايزال معروفاً فى مقدمته فقط التى نشرها ماكس ميرهوف Max Meyerhhof . وكما رأينا من قبل فإن البيرونى لم يقصد به البحث فى الأثر الطبى للأدوية[٩٦] ، ولما لم يكن يعتبر نفسه متخصصاً فى هذه المسائل فقد استعان بخبرة طبيب من معارفه[٩٧] . والشذور التى نشرت من هذا الكتاب إلى الآن توكد أهميته البالغة ليس فقط بالنسبة للناحية التى يبحث فيها بل أيضاً بالنسبة لنواح عديدة من بينها الجغرافيا . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية ، الأمر الذى يدل على ما تمتع به من انتشار واسع . وقد اقتنع ميرهوف بعد بحث عميق أن هذا الكتاب يقف برهاناً على أن البيرونى عالم لا مثيل له فى جميع العصور الوسطى سواء فى عمق التفكير أو متانة منهجه فى البحث[٩٨] .

261

والمعلومات الواقعية التى يوردها البيرونى كانت معروفة لدى الجغرافيين المتأخرين الذين أفادوا منها كثيراً كما أبصرنا من مثال ياقوت وأبى الفدا والمقريزى . وعلى النقيض من هذا لم تجد نظرياته الأصيلة الفذة من يكملها أويواصل البحث فيها وبقيت غير مطبقة من الأجيال التالية ، وقد حدث هذا بوجه التحديد لمشروعه الهندسى لمساقط الخارطات[٩٩] كما هو الشأن مع كثير غيرها مما أبدعته هذه العقلية الفذة . وقد كان مصيره فى أوروبا الوسيطة أسوأ من هذا بكثير ، ويبدو أن الأندلس لم تعرف مؤلفاته جيداً . وفى الوقت الذى ترجمت فيه إلى اللاتينية أكثرية المصنفات الكبرى للعلماء العرب بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ظلت مصنفات البيرونى غير معروفة لأوروبا[١٠٠] . ويبدو أن الأقدار قد سخرت منه فتردد صدى شهرته فى مفهوم مناقض لسمعته وجد طريقه بشكل ما إلى اللغة الفرنسية . « فالأوسطى البيبورون » Maître Aliboron يقصد به كما يتضح من معجم الأكاديمية الفرنسية[١٠١] Dictionnaire de l'Acadèmie Francaise, 8 éd., 1931 : « الإنسان أو الحيوان الموصوف بالجهل والفدامة ، والمضحك والحمار » .

من هذا يتبين لنا أن العلم الأوروبى المعاصر هو الذى اكتشف حقاً البيرونى فى القرن التاسع عشر ؛ بل إن المادة توفرت فى السنوات العشر الأخيرة فقط لتمكننا من تقديره تقديراً جديراً بمنزلته . وإذا كان روزن على أيامه قد استطاع أن يوفيه حقه ، فالآن يستطيع بدوره علامة شاب يعد من خيرة العارفين بمصنفاته وهو كراوسه Krause أن يقول عنه بحق : « هكذا يبدو البيرونى أمام أعيننا بحاثة لا يعرف الكلل وعلامة وضع نصب عينيه أهدافاً بعيدة المدى ، ولكنه فى نفس الوقت تطلب الكثير من الآخرين . وكان أميناً فى منهجه العلمى لا تأخذه فى الحقيقة لومة لائم إذا ما أبصر تلاعباً حولها أو ضرباً من الإهمال ؛ لقد كان عالماً واسع الأفق ، وسعت معرفته العلوم الدقيقة لعصره ؛ وإن شوقه إلى البحث والتقصى يعود بالشرف لقومه وعصره ويقف قدوة لجميع العصور التالية » .

وإذا كان البيرونى قد غمط الفارسية حقها فى أن ترتفع إلى مصاف لغة علمية فإن واقع الأحوال حتى

فى عصره يشير إلى النقيض ؛ ولعله لم يكن على علم بذلك أو أنه تجاهله عن قصد . فقد وجد فى القرن السابق عليه مصنف مثل « حدود العالم » . وحتى إذا سلمنا جدلا بأن البيرونى لم يجد فى الأدب الجغرافى ما يجعله أهلا لحمل اسم العلم فإننا نجد أمثلة تدل على أن اللغة الفارسية قد استعملت فى ذلك العهد فى ميدان العلوم الطبيعية ؛ فبين عامى ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ و٣٦٦ هـ = ٩٧٧ وضع موفق الهروى ، وهو أحد المقربين من السامانيين ، كتابه فى الصيدنة باللغة الفارسية معتمداً فى ذلك كما | 262 | هو الحال مع كتاب البيرونى لا على العناصر العربية وحدها بل أيضاً على العناصر اليونانية والسريانية والهندية . وهو ذو أهمية لا بالنسبة لتاريخ الطب والكيمياء فحسب بل وبالنسبة لتاريخ اللغة الفارسية كذلك[١٠٢] . والطريف فى الأمر أن أقدم مخطوطاته ترجع إلى عام ٤٤٧ هـ = ١٠٥٦[١٠٣] ، أى أنها تكاد تكون معاصرة للبيرونى . وأما استعمال اللغة الفارسية فى محيط الأدب التاريخى والجغرافى فقد أضحى منذ ذلك العهد أمراً مألوفاً حتى فى الوسط الذى كتب فيه البيرونى ؛ ويبدو أنه لم يشاطره أحد ممن عاش فى ذلك الوسط موقف الريبة الذى وقفه من اللغة الفارسية .

وواحد من هؤلاء المؤرخين الذين كتبوا بالفارسية وهو كرديزى يذكر أنه استمع إلى البيرونى . وكرديزى ينتسب كما يتضح من اسمه إلى محلة تقع إلى الجنوب عن غزنة على الطريق إلى الهند ؛ ولم يمكن العثور على أية معلومات تتصل بسيرة حياته[١٠٤] . ويرجع الفضل إلى حد بعيد إلى دراسات المستشرق الروسى بارتولد فى تعريف الوسط العلمى بكتابه « زين الأخبار » الذى لم يطبع طبعة كاملة إلى الآن . وقد تم تأليفه فى عهد السلطان الغزنوى عبد الرشيد (٤٤٠ هـ — ٤٤٤ هـ = ١٠٤٩ — ١٠٥١) ، وهو يمثل فى جوهره مصنفاً تاريخياً يعالج تاريخ الأكاسرة وتاريخ محمد والخلفاء إلى عام ٤٢٣ هـ = ١٠٣٢ وتاريخ خراسان من الفتح العربى إلى عام ٤٣٢ هـ = ١٠٤١ . وقد أضيفت إلى الكتاب فصول عن العلوم اليونانية والتقاويم والأعياد الدينية لمختلف الشعوب . وفى القسم الأخير من الكتاب يرد الكلام على الأنساب والعلوم عامة ، وعقد فيه المؤلف فصلا عن الترك[١٠٥] يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لجغرافيا آسيا الوسطى وهو ذلك الفصل الذى قام بارتولد بدراسته دراسة مفصلة . أما الفصل عن الهند فيستشهد فيه مراراً بالبيرونى ، كما يدين فيه بالكثير إلى الجيهانى أيضاً[١٠٦] . وفى فصله عن الترك يذكر من بين مصادره ابن خرداذبه والجيهانى[١٠٧] . ومن بين المصادر التى لا يسميها يحتل ابن رسته مركزاً رئيسياً خاصة فى الأجزاء التى تمس أوروبا الشرقية ، هذا بالرغم من أن المؤلف لم يشر إليه ولو مرة واحدة[١٠٨] ؛ أما فيما يتعلق بالقسم التاريخى فإن مصنفه ينال أهمية خاصة لأنه يعتمد فيه إلى حد كبير على كتاب « تاريخ خراسان » للسلامى[١٠٩] الذى لم يصل إلينا والذى يرجع تاريخ تأليفه إلى منتصف القرن الرابع الهجرى (التاسع الميلادى) . وفى وصفه للصين يمثل أهمية قصوى وصفه للطريق بين طرفان Turfan وخمدان Khumdan عاصمة الصين آنذاك ؛ ولا تزال فى هذا الوصف جوانب عديدة غير واضحة ، ورغماً

263 من ذلك فلا يوجد شك فى أن هذا الطريق قد سار فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه طرق المواصلات بين الصين والغرب[١١٠] . هذا ونادراً ما نقل المؤرخون المتأخرون عن كرديزى ، كما وأن تأثيره على تطور العلم بالتالى لم يكن كبيراً على ما يظهر[١١١] .

وفى وقت واحد مع كتاب كرديزى هذا الذى يمثل فى جوهره مصنفاً تاريخياً ظهر باللغة الفارسية وفى آسيا الوسطى أيضاً وصف رحلة « سفرنامه » لناصر خسرو المشهور (٣٩٤ هـ — حوالى ٤٨١ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٨٨)[١١٢] . ولد ناصر خسرو ببلخ وعاش نيفاً وأربعين عاماً من حياته كعامل حكومى متوسط الحال بمدينة مرو فى خدمة السلاجقة الذين بدأ نجمهم يعلو آنذاك . ثم اعتراه تحول نفسانى عميق دفعه إلى التجوال سبع سنوات ، وأنهى أيامه كداعية للإسماعيلية بمنطقة بدخشان الجبلية . ويحتل شخصه مكانة مرموقة فى الأدب الفارسى وفى تاريخ الحركات الدينية فى الإسلام[١١٣] . أما فيما يتعلق بموضوعنا فسنقصر الحديث على روايته لأسفاره .

ففى مارس من عام ١٠٤٦ خرج من مرو يريد الحج فمر بنيسابور فى طريقه إلى الرى ، وفى أثناء مسيره يشير إلى أن الكثير من النشادر كان يستخرج إذ ذاك من جبل دنباوند (Demavend) . وفى طريقه مر على قزوين وتفليس وميافارقين وآمد (دياربكر) إلىحلب وطرابلس ؛ وفى معرة النعمان زار الشاعر الأعمى المشهور أبا العلاء المعرى. ثم أخذ طريق الساحل من بيروت فوصل إلى عكا ومنها قام بعدة زيارات إلى الأماكن المقدسة العديدة ومن بينها طبرية ؛ وبعد رجوعه إلى عكا استمر فى طريقه ماراً بحيفا والرملة وبيت المقدسحيث أقام مدة ما تخللها رحلات صغيرة إلى المدن القريبة مثل حبرون الخليل . ويمثل وصفه لبيت المقدس قسما من أهم أقسام كتابه ، مما مكّن لمدنيكوف Mednikov على أساسه أن يقدم وصفاً واقعياً للمسجد المعروف بمسجد عمر[١١٤] . ومن القدس أدى ناصر خسرو أول حجة إلى مكة فى ربيع عام ١٠٤٧ ، ومنها رجع إلى القدس فأخذ طريق البر ماراً بالرملة متجهاً إلى عسقلان ثم أخذ السفينة من مرفأ طينة الصغير إلى جزيرة تنيس بمصر عند بحيرة المنزلة . وفى جزيرة تنيس — وبها مدينة مزدحمة بالسكان — كان يقيم آنذاك أهل الحرف منالنساجين الذين اشتهرت صناعتهم فى الشرق بأجمعه ، ولكن كانت فى الغالب تحتكرها الحكومة ، وهىالنسيج المعروف بالطراز ؛ كذلك اشتهرت بصناعة الحديد والعطر . 264

هذا وقد امتدت إقامة ناصر خسرو بمصر من أغسطس ١٠٤٧ لعدة أعوام . وفى هذه الفترة أدى فريضة الحج ثلاث مرات كانت كلها عن طريق البحرمن القلزم إلى مرفأ الجار ، ومنها إلى المدينة ثم مكة . أما القسم الأساسى من وصف رحلته فقدكرسه لمصر وتم الاعتراف به منذ عهد بعيد كمصدر من أهم مصادر تاريخ وخطط مدينة القاهرة فى العهد الفاطمى[١١٥] . وهو يصف فى كثير من التفصيل التجارة وحياة المدينة ورسوم البلاط الفاطمي ونظام الإدارة فى عهد الخليفة الفاطمىالمستنصر : وبعدكل ما رآه

فى المشرق فقد أثار دهشته ما كانت تتمتع به مصر من رخاء وأمن . ويغلب على الظن أن يكون اعتناقه نهائياً للمذهب الإسماعيلى قد تم بالقاهرة ، وقد أصبح بالتالى داعية متحمساً لمذهبهم فى موطنه .

أما حجّته الرابعة إلى مكة فقد أخذ فيها طريقاً مغايراً ، إذ أنه ركب النيل إلى أسوان ؛ وبعد سفر شاق لمدة خمسة عشر يوماً من شهر يوليو عام ١٠٥٠ وصل إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها أخذ البحر إلى جدة . وفى زيارته هذه الرابعة يقدم وصفاً مفصلا لجميع المواضع والأبنية التى تهم الحجاج بمكة خاصة الكعبة وما يتعلق بها . أما قصة اجتيازه لجزيرة العرب فتمتاز بالكثير من الحيوية والمتعة ، فقد ذهب إلى الطائف حيث سمع فى نواحيها قصة ليلى والمجنون ، ثم سار فى محاذاة جبل الطويق ذى الصخور البازلتية فمر فى طريقه بواحة فلج إلى اليمامة فالبحرين على الخليج الفارسى . وقد اضطر إلى البقاء أربعة أشهر فى ظروف مرهقة بواحة فلج لم يكن يمتلك أثناءها من متاع الدنيا سوى سلتين مليئتين بالكتب لم تجدياه فتيلا مع السكان الجهلاء الذين كانوا يعيشون إلى حد كبير على قطع الطريق . وقد بلغ البصرة وهو لا يملك شيئاً ، ولكنه يقدم لنا فى مقابل ذلك وصفاً مفصلا وهاماً للأحساء التى كانت لا تزال تحت سلطان القرامطة(١١٦) . وفى البصرة تمكن من أخذ طريق العودة إلى وطنه بفضل معاونة وزير ثرى من أهل الأهواز ، فمر فى طريقه بمهرُبان وارجَّان وأصفهان ، ووصل إلى بلخ فى أكتوبر عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٢(١١٧) بعد صعوبات جمة صادفها فى الطريق . وهو يختتم كتابه بأمله فى أن يوفق فى القيام برحلة مماثلة إلى المشرق ؛ غير أن طريق حياته اتخذ اتجاهاً مغايراً فلم يكتب لهذه الرغبة أن تتحقق .

وسفرنامه يرتبط ارتباطاً ضئيلا بالرواية الجغرافية المدونة وقليلا ما يتحدث المؤلف عن التقائه بالعلماء فى المدن المختلفة التى زارها . ولا ريب فى أنه كان ملماًّ بالأدب الجغرافى لعصره ، غير أنه لم يهدف بكتابه غرضاً علمياً فهو ينتمى إلى نمط إلى مغاير لذلك . وعلى الرغم من دقته فى الملاحظة إلا أنه كان فى ذات الوقت يعتنق آراء جد خاطئة عن التركيب العام للعالم(١١٨) ؛ وكان هدفه أن يقدم وصفاً لما رآه وسمعه بنفسه ، وسرده بسيط فى أسلوبه ويخلو من أثر الصنعة ولكنه يتميز بالحيوية أحياناً ، كما لا يخلو من العنصر الدرامى . وهو فى مواضع من وصفه يفصل الكلام بصورة مرهقة عن الأبنية والآثار ، بالرغم من أن ذلك قد لا يهم القارئ كثيراً . أما تاريخ تأليف الكتاب فغير معروف لنا ، لكن الكتاب نفسه يعتمد إلى حد كبير على المذكرات التى دونها المؤلف أثناء الطريق وذلك وفقاً لألفاظه هو ؛ كما أنه يذكر فيه أنه عمل أحياناً رسوماً (Sketches) للطريق . والكتاب وإن أمكن ضمه من ناحية فكرته الأساسية إلى نمط «كتب الزيارات» (أى الحج) إلا أن هذه الفكرة لم تطغ على الانطباعات الأخرى التى أثرت فى نفس المؤلف والتى عرف كيف يبرزها لنا بحيوية فائقة . ومن المؤسف أن المسودة الأولى الكاملة له لم تصلنا ، بل وصلنا فى رواية موجزة إلى حد ما ربما قام بها شخص من أهل السنة حاول بدوره أن يزيل عنها جميع

عواطف المؤلف نحو الشيعة خاصة الإسماعيلية[١١٩] . وإلى جانب الترجمات الجزئية فإن الكتاب موجود الآن فى ترجمة روسية كاملة وجيدة* .

ويمكن من الناحية الزمنية أن ينسب إلى هذا العصر عالم معروف بمصنف له فى الجغرافيا ، ولو أنه لا يرتبط بشرقى العالم الإسلامى . وكانت رحلته من بغداد إلى الشام ومصر كناصر خسرو ولكن أغراضه تختلف عن أغراض الأخير تماماً ؛ ومما يزيد فى طرافة وصفه أنه ينتمى إلى وسط النصارى العرب الذين قلما ظهروا على صفحات كتابنا هذا ذلكم هو العالم الطبيعى ابن بطلان الذى نال شهرة عريضة فى عصره وخلف عدداً من المصنفات الطبية التى ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى[١٢٠] . وقد ولد ببغداد حيث درس الفلسفة والطب وتوفى بأنطاكية على ما يبدو عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦[١٢١] ولو أن المصادر غير مجمعة على تاريخ وفاته[١٢٢] . وأول من لفت إليه الأنظار البارون روزن فى دراسته المعروفة عن يحيى الأنطاكى الذى كان ابن بطلان معاصراً[١٢٣] له ؛ غير أن إشارة روزن إليه ظلت مجهولة فى الغرب شأنها فى هذا شأن عدد كبير غيرها من الأبحاث باللغة الروسية ؛ وقد وصل العلم إلى نفس النتائج التى وصل إليها روزن ولكن متأخراً وعلى حدة .

غادر ابن بطلان بغداد فى رمضان من عام ٤٠٤ هـ = ١٠٤٩ ووصف انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام فى رسالة إلى صديقه المؤرخ هلال بن محسن الصابى (توفى عام ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦)[١٢٤]. 267
وهذه الرسالة حفظها لنا ابن المؤرخ وهو محمد بن هلال (توفى عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤) فى مصنفه «كتاب الربيع »[١٢٥] ؛ وعنه نقلها ياقوت[١٢٦] وابن القفطى[١٢٧] فى القرن الثالث عشر . ويمكن من خلال هذه المقتطفات تتبع طريق رحلته بوجه عام كما فعل ذلك الأب شيخو[١٢٨] ؛ فمن بغداد سار فى محاذاة نهر عيسى مرتفعاً إلى الفرات حتى بلغ الأنبار والرحبة ، ثم عبر المفازة إلى الرصافة الهشامية . ويلوح أنه قد أمضى وقتاً طويلا بحلب وانطاكية واللاذقية ، وكانت المدينتان الأخيرتان فى أيدى البيزنطيين آنذاك ؛ ولأنه كان مسيحياً فقدا ستطاع أن يتعرف عليهما عن كثب كما فعل مع البلاد الإسلامية . ومن العسير معرفة ما إذا اقتصرت رسالته على وصف هذا الجزء من الرحلة أم أنها تناولت غيره أيضاً ، غير أن رجوع ياقوت إليه فيما يتعلق بوصفه ليافا ربما ينهض دليلا على أنه قد أتم وصف الطريق إلى مصر[١٢٩] . ومن خلال المصادر الأخرى نعرف أنه قد زار القسطنطينية[١٣٠] إلا أن ذلك قد تم عقب هذا بمدة طويلة .

ومما يزيد فى أهمية رسالته أنه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قل أن حفل بها العرب المسلمون ، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى وموقفهم من البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم الخ . وبالرغم من أن ابن بطلان كان أديباً وشاعراً إلا أن رسالته صيغت فى أسلوب

* توجد له أيضاً ترجمة عربية كاملة وجيدة بقلم الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ . (المترجم)

بسيط لا أثر للصنعة فيه ، هذا إذا استثنينا الافتتاحية بما يصحبها عادة من العبارات المتكلفة الموجهة إلى الشخص الذى بعث بالرسالة إليه . وهى بلا شك تعكس انطباعات حية مباشرة عن ذلك العصر المضطرب الذى لم يتجاوز فيه سلطان الخليفة فى واقع الأمر بغداد ونواحيها ؛ وكانت حلب آنذاك تحت حكم المرداسيين بينما كانت أنطاكية فى قبضة البيزنطيين ؛ أما مصر فقد سيطر عليها الفاطميون . ورغماً عن هذا فقد كانت حرية التنقل كما أبصرنا مكفولة لا فى داخل العالم الإسلامى فحسب بل حتى بين الدولة البيزنطية وأراضى الإسلام[١٣١] .

ويرتبط بعهد السلاجقة التالى لذلك كتاب باللغة العربية ذو أهمية بالغة بالنسبة للجغرافيا ، ذلك هو « ديوان لغات الترك »[١٣٢] لمحمود الكاشغرى الذى يعتبره بارتولد « الوحيد تقريباً الذى كتب بالعربية عن آسيا الوسطى معتمداً فى ذلك على معرفته الشخصية بتلك البلاد ولم ينقل عن مراجع مدونة »[١٣٣] . وقد تم تدوين كتابه ببغداد بين عامى ٤٦٤ هـ = ١٠٧٢ و٤٦٦ هـ = ١٠٧٤ كما يذكر ذلك هو بنفسه[١٣٤] ؛ وقد يثير هذا الاختلاف فى التواريخ بعض الشبهات رغماً من أن المخطوطة الفريدة المعروفة للكتاب والتى ترجع إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى قد أخذت عن المخطوطة الأصلية بيد المؤلف . ولاعتبارات تتعلق بمادة الكتاب فإنه لا يوجد ثمة شك فى أن تاريخ تأليفه يرجع إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . وليست لدينا معلومات على الإطلاق توضح سبب ظهوره ببغداد بالذات . والمعلومات الطفيفة عن حياة مؤلفه يجب استخراجها من صلب الكتاب نفسه ؛ فيتضح من ذلك مثلا أن المؤلف كان يجيد العربية إجادة تامة بالرغم من أنه كان تركى الأصل وربما انتمى فيما يبدو إلى أسرة القاراخانيين الذين حكموا بالمشرق ؛ وكان لأبيه صلة ما بمدينة برسخان القريبة من بحيرة ايسيق كول Issik Kol . وهو قد سافر كثيراً فى سهوب آسيا الوسطى وجال فى بلدان الترك وأجاد تقريباً جميع اللهجات التركية بآسيا الوسطى[١٣٥] . أما من ناحية اللغة فكتابه يمثل أهمية كبرى لا نظير لها ؛ وقد كان الكشف عنه بين مجموعة العلامة التركى المعروف على أميرى الدياربكرى (١٨٥٧ = ١٩٠٤)[١٣٦] ، ثم طبعه بتركيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ هـ — ١٣٣٥ هـ = ١٩١٤ — ١٩١٦) ، حدثاً هاماً فى تاريخ دراسة اللهجات التركية . ولا تقل عن ذلك أهميته من وجهة نظر الجغرافيا لأنه يقدم لنا مادة وفيرة من محيط الأدب الشعبى التركى ومعلومات وافية عن مواضع سكنى القبائل التركية تصحبها تفاصيل عديدة عن الجغرافيا التاريخية للبلدان التى يقيمون بها . والمادة التى يوردها المؤلف جديرة بالثقة وكثيراً ما دعمتها الاكتشافات الأثرية الحديثة فى آسيا الوسطى[١٣٧] .

أما الخارطة المستديرة التى حفظت بالمخطوطة والتى توفر على دراستها اثنان من العلماء هما ميلر Miller[١٣٨] وهرمان Hermann[١٣٩] فإنها تمثل أهمية قصوى ؛ ورغماً عن ذلك فلا يمكن القول بأن جميع المسائل المتعلقة بها قد وجدت الحل النهائى ، خاصة وأن الباحث قد درسها منفصلة عن متن محمود الكاشغرى .

وقول هرمان بأن أحد الأسماء الموجودة بالخارطة يقصد منه اليابان(١٤٠) قد أحاط به الكثير من التشكك ، كما أن افتراضه بأن الخارطة يجب أن تعتبر أثراً طريفاً وأصيلا كل الأصالة لايستند على أى أساس من الواقع(١٤١) . ولايزال من الصعب القول بما إذا كانت الخارطة معاصرة للمتن وهل رسمها المؤلف بنفسه . والمرجح أنها ترجع فى الأصل إلى خارطة العالم المستديرة «بأطلس الإسلام» للمدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا(١٤٢) ، ولكن واضعها استباح لنفسه حرية كبيرة فجعل مركز الخارطة مدينة كاشغر ومنطقة الأنهار السبعة (يدى صو Semirechie) مع مدينة بلاساغون ، وذلك بدلا من مكة . ومن المؤكد أنه كان يعتبر هذه المنطقة مركز مساكن القبائل التركية ، الأمر الذى يعززه متن الكتاب . ولا شك أن الخارطة قد عملت خصيصاً لتصوير هذه المنطقة والمناطق المتاخمة لها ، أما الأقاليم الأخرى فإن واضع الخارطة لم يهتم لها كثيراً ، ولعلها أضيفت مؤخراً إلى النواة الأساسية للخارطة ؛ على أية حال فإن تبيينها على الخارطة ليس من الدقة كما يجب . ولعل الفكرة الأساسية كانت متجهة نحو إخراج خارطة إقليمية ولكن على هيئة صورة «الخارطة المستديرة للعالم» ؛ إلا أن المؤلف قد ارتأى بالتالى أن يملأ الأجزاء الخالية منها بالأسماء المعروفة له ، ومن ثم أصبحت خارطة للعالم قائمة بذاتها . ويرجع الفضل لأمنياكوف Umniakov(١٤٣) فى إلقاء ضوء على التفاصيل المتفرقة لهذا الأثر الفريد فى الكارتوغرافيا العربية والذى يمثل أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية لجوف آسيا والمناطق المتاخمة له .

269

270

وبعهد السلاجقة أيضاً ، ولكن فى أخرياته ، يرتبط اسم شرف الزمان طاهر المروزى(١٤٤) الذى كان طبيباً ببلاطهم . ومنذ عهد غير بعيد أصبح معروفاً فى بعض المخطوطات مصنفه «طبائع الحيوان» الذى يبحث فى جوهره فى علم الحيوان ولكن القسم الأول منه يعالج الكلام على الأجناس البشرية والجغرافيا(١٤٥) . ولا يمكن تحديد زمن تأليفه إلا بصورة تقريبية ، فآخر تاريخ موجود به يرجع إلى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ ولكن توجد بالكتاب أخبار حوادث شهدها المؤلف بنفسه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر(١٤٦) . وأكثر رواياته قيمة هى تلك التى يرد فيها الحديث عن الشرق الأقصى — الهند والتبت والصين . هذا وقد تم الكشف من قبل عن شذرات منه لدى الكاتب الفارسى عوفى(١٤٧) فى بداية القرن الثالث عشر ، وكذلك عند ابن المهنّا فى بداية القرن الرابع عشر وهو مؤلف اشتهر بكتاباته عن اللغات الشرقية ؛ غير أنهما لم يقدما أية فكرة عن قيمة الكتاب بوجه عام(١٤٨) . ومهم بالنسبة لنا حفظه لعدد كبير من روايات الجيهانى مع الإشارة الدقيقة إليه ؛ وبهذا أمكن التعرف على عدد من الروايات المجهولة الأصل عند المؤلفين الآخرين(١٤٩) . وثمة أهمية خاصة تمثلها قصته عن سفارة بعث بها حوالى عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ «حاكم الصين والترك» إلى بلاط محمود الغزنوى ؛ وخبر هذه السفارة معروف لنا من كرديزى ولكن بصورة مبهمة(١٥٠) . وهى لم تسفر عن أية نتائج سياسية لأن محموداً رفض أن يدخل فى علاقات دبلوماسية مع الكفار ؛ ولكنها فيما يبدو قد تركت أثرها على العلم ، إذ يلوح أن وصف الطريق بين غزنة

وعاصمة الكيتان Kitans قد أخذ عن هذه السفارة . ويمكن أن نلاحظ عرضاً أن بعض الأسماء فى هذا الطريق مذكورة فى « القانون المسعودى » ، أى أن البيرونى قد استقاها على أغلب الظن من ذات المصدر : وأكثر أهمية من هذا رواية المروزى عن هجرات شعوب آسيا الوسطى التى استعارها عوفى والتى استعصت على الأفهام لحين التعرف من جديد على هذا المصدر الذى يسّر بعض الشىء فهم هذه المسألة وإرجاع حوادثها إلى منتصف القرن الحادى عشر(١٥١) .

ومن الملاحظ أننا عدنا إلى الكلام على البيرونى مرة أخرى فى آخر هذا الفصل الذى بدأناه بالحديث عنه . وهذا بالتأكيد ليس من محض الصدفة فالبيرونى هو تلك الشخصية الفذة التى طغت على شرق 271 العالم الإسلامى فى القرن الحادى عشر فى ميدان العلوم المتصلة بالجغرافيا ، خاصة الجغرافيا الرياضية . ورغماً عن هذا فإنه لم تصلنا عنه مصنفات جغرافية بحتة وذلك بالمعنى الذى حددناه من قبل ؛ ولعله ليس من قبيل المصادفة أن تنعدم أيضاً عند المؤلفين الذين مرذكرهم فى هذا الفصل . وهذا يعنى بلا شك أن الأنماط المعروفة فى الأدب الجغرافى التى نالت انتشاراً واسعاً قد انقطع الاهتمام بها فى القرن الحادى عشر بل وأخذت تختفى فى البلدان الشرقية . غير أن هذا يجب ألا يفهم منه أنها انقرضت تماماً ؛ إذ سنراها بعد قليل تنتعش انتعاشاً كبيراً بالمغرب وبوجه خاص فى الأندلس ، وهى مناطق سار فيها تطور الأدب بوجه عام بخطى أبطأ مما بالمشرق . أما فى المشرق فلم ترفع رأسها من جديد إلا أنه يلاحظ فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالذات ظهور أنماط جديدة وازدهارها بحيث يصبح من العسير القول بتدهور للأدب الجغرافى فى جملته حتى فى ذلك العصر .

حواشى الفصـــل التاسع

(١) – Rozen, ZVO, III, p. 147

(٢) – Quatremère, Des sciences chez les Arabes, p. 45

(٣) – Kreuse, Biruni, p. 2 – Meyerhof, Kitàb al - Saidana, p. 3

عام ميلاد البيرونى ٣٦٢ هـ = ٩٧٢

(٤) – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 528

(٥) السمعانى ، الورقة ٩٨ ب

(٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ص ٣١٣

(٧) – R. Wright, Al-Birüni, p. III

(٨) – Krause, Biruni, p. 2-3

(٩) الترجمة ، ص ٤٢ ، ٥٠ – – Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 14

Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 531

(١٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 154

(١١) – Krymski, Istoria Persiї, 1915, p. 525-528

(١٢) – Wiedemann, Al-Biruni, p. 59-60

(١٣) – Krause, Biruni, p. 6-7

(١٤) شرحه ، ص ٧

(١٥) شرحه – و (القرن الثالث عشر) Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 7

وهناك أيضاً الملاحظة رقم ٢ عن : « أنابة على الثمانين »

(١٦) – Brockelmann, GAL, I, p. 475

(١٧) الترجمة عند : Wiedemann, Albiruni, p. 66 95

المتن عند : Krause, p 30-43

(١٨) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٩ ؛ راجع : Wiedemann, Al-Biruni, p. 96

(١٩) – M. J. Haschimi, Biruni, p. 37-30 – Meyerhof, kitab—al-saidana, p. 15

(٢٠) ياقوت ، المعجم الجزء الثانى ، ٤٨٣ ؛ وأيضا : Heer, p. 41, h

(٢١) – Krause, Biruni, p. 8

(٢٢) شرحه

(٢٣) قرب الأرض بلغار المسلمين : – R. Wright, Al-Biruni, p. 121

(٢٤) الترجمة راجع : Validi, Schwrter, p. 40-41

(٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠ ، اقرأ : غرر بدلا من غزر – وأيضا :
غرو : R. Wright, Al-Biruni, p. 121

(٢٦) R. Wright, Al-Biruni, p. 122 –

(٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

(٢٨) زيادة فى : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١

(٢٩) زيادة فى ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١

(٣٠) Wright, Al-Biruni, p. 123 –

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٢

(٣٢) R. Wright, Al-Biruni, p. 124 –

(٣٣) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠ – ٢٢ Wiedmann, Beiträge, XXVII p. 3-7
— R. Wright, Albiruni, p. 121–124
مختصرة فى : « القانون المسعودى » ؛ راجع : Blacehre, p. 240-242—Kimble, p. 54-56

(٣٤) راجع : Validi, Schwerter, p 41

(٣٥) Kimble, p. 55-56 –

(٣٦) راجع : Wiedemann, Al-Biruni, p. 57-58

(٣٧) Validi, GZ, XI, p. 364 –

(٣٨) Validi, Schwerter, p. 46 –

(٣٩) شرحه ، ص ٤٤

(٤٠) شرحه ، ص ٤٠ ، ٤٧ – ٤٨

(٤١) شرحه ، ص ٢٧ وغيرها

(٤٢) Validi, GZ, XL, p. 364 –

(٤٣) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 19-25 –

(٤٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠

(٤٥) أبو الفدا و Validi, Schwerter, p. 41

(٤٦) Kimble, p. 56 –

(٤٧) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2-3 –

(٤٨) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٨

(٤٩) Zaleman. Al Biruni — Brockelmann, GAL, SBI, p. 872, 1 –

(٥٠) Krause, Biruni, p. 9 –

(٥١) Fiorini, p. 294 –

(٥٢) Krause Biruni, p. 9 –

(٥٣) راجع رأى زخاو فى الطبعة : Brockelmann, GAL, SBI, p. 870-871

(٥٤) – Krause, Biruni, p. 9

(٥٥) لا تستغرب – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 530 :

(٥٦) شرحه : فى الكواب ، راجع : Krause, p. 9

(٥٧) والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية .

(٥٨) الصيدنة : المتن لدى Meyerhof, Kitab al-saidana ص ١٣ : الترجمة ص ٤٠ – ٤١ :
وفقاً لكرنكو Krenkow راجع : RAAD, XIII, p. 422 ومع قراءات سيئة وأخطاء فى الطباعة
راجع : Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 530, note

(٥٩) راجع : Rozen, ZVO, III, p. 162, note 4 – Krause, Biruni, p. 15 – Sachau,
SBWA, Phil, hist - Kl., 73, p. 485=Wiedeman, al-Biruni, LX, p. 60

(٦٠) – Krenkow, Islamic Culture, VI, p 531, note

(٦١) راجع أيضاً : – Krause, Biruni, p 6; Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 48–50

(٦٢) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 874 – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 529
الصورة فى ص ٥٣٤ .

(٦٣) – Krause, Biruni, p. 9

(٦٤) – Ritter, DI, XIX, p. 54

(٦٥) راجع التصحيح فى : – Krause, DI, XXII, p. 268 — DI, XXV, p. 196

(٦٦) – Validi, OZ, XL, p. 370-371

(٦٧) – Volin, VDI, No 1, p. 192-196

(٦٨) – Wiedeman, Beiträge, XXVII, p. 1-2, note 2

(٦٩) – Brockelmann, GAL, SBI, p, 873, no 4

(٧٠) – Krause, DI, XXII, p, 267

(٧١) – Wiedemann, Beiträge, XXIX, p. 119-125

(٧٢) – Kause, Biruni, p. 10
راجع المحتويات فى : نالينو ، الفلك ، ص ٣٨ – ٤٠ (= Raccolt, p. 117, 38 – 118, 40)

(٧٣) – Krause, Biruni, p 10

(٧٤) – Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165-166

(٧٥) طبعة Lippert ، ص ٩٧

(٧٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣١١

(٧٧) راجع: Honigman, Die, sieben Klimata, p. 166 — Wiedemann, Al-Biruni, p. 88-99 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 873, 4 -

(٧٨) Honigmann, Die Sieben Klimata, 166 -

(٧٩) Wiedeman, Beiträge, XXVII, p. 3 -

(٨٠) البيرونى ، كتاب التفهيم ، راجع طبعة : R. Wright, Al-Biruni, p. 138-145, 236-241

(٨١) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 3-16 -

(٨٢) شرحه ، ص ١٦ — ١٨

(٨٣) Honigmann, Die, sieben Klimata, p. 166 -

(٨٤) والصورة فى ص ٧٠ Kramers, EI, EB, p. 68 -
إعادة رسمها بواسطة Lelewel, فى p. 126 Miller, V, p. 125-126;

(٨٥) راجع : Krause, Al-Biruni, p. 10-11 -

(٨٦) Wiedemann, Beitäge, XXVII, p. 19-25 -

(٨٧) راجع : Brockelmann, GAL, SBI, p. 873

(٨٨) R. Wright, Al-Biruni, p. III -

(٨٩) Wiedemann, Al-Biruni, p. 87 - Semenov, Al-Biruni, p. 106-116 -

(٩٠) أحسن والتصور أسهل

(٩١) تحقيق ما للهند Nazim, p. 6, note 2 – (= Meyerhof, Kitab Al-saidana, p 6, note 4) -

(٩٢) Ruska, GZ, XXXIII, p, 592 -

(٩٣) Kramers, EI, EB, p. 68 -

(٩٤) Mieli, p. 100 -

(٩٥) راجع تعدادها لدى : Brockelmann, GAL, SBI, p. 874, 11

(٩٦) راجع : Krause, Di, XXII, p. 266 Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 15,46

(٩٧) Brockelmann, GAL, SBI, p. 874, 27 -

(٩٨) Meyerhof, Kitab, al-saidana, p 52 -

(٩٩) Kramers, EI, EB, p. 68 -

(١٠٠) Mieli, p. 102, note 9 -

(١٠١) Dictionnaire de l'Académie Francaise, 8 ed., 1931, I, p. 39 — Lokotsch, p. 26, No 313 — Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 76. -
عن المراجع الأخرى انظر : Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 3, note 1

(١٠٢) Sarton, Introduction, I, p. 678-679 — Mieli, p. 121 -

(١٠٣) – Krymski, istoria Persii, 1914, p. 170

(١٠٤) راجع عنه أيضاً : حدود العالم ، ص ١٧ – ١٨ : و Bartold, Iran, p. 26 — Krymski, Istoria Persii, 1909, p. 3-4 — Romaskevich, MITT, I, p. 44-55 — Mieli, p. 119, note 13

(١٠٥) – Bartold, Ochet, 1897, p. 78-126

(١٠٦) – Minorsky, Une nouvelle souice, p. 309

(١٠٧) – Berthold, Gardizi, p. 137-138

(١٠٨) – Bartold, Ochet, 1897, p. 79

(١٠٩) – Barthold, Turkestan, p. 20-21

(١١٠) – Hartmann, China, p. 878-879 — Yule, Cathay, I, p. 140-141

(١١١) – Barthold, Gardizi, p. 138

(١١٢) عن تاريخ وفاته راجع : Krymski, Istoria Persii, 1915, p. 461, note 2

(١١٣) – Berthels, EI, III, p. 939-940 — Bertels, Nasir-i Khusrau — Browne, Literary History, II, p. 221-246 — Mieli, p. 116, 119, note14 — Sarton, Introduction, I, p. 768 — Mednikov, Palestina, II, p. 843-882 — Krymski, Istoria Persii, 1915, p, 451-506

(١١٤) – Mednikov, Palestina, II, p. 858, 864

(١١٥) زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٠ – ١٣ ، ١٨٠ – ١٨٨ .

(١١٦) تقريظه لدى : Lewis, p, 99 - 100

(١١٧) طريق السير وفقاً لروسكا (Ruska, GZ. XXXIII, p. 593-594)

(١١٨) – Kramers, Legacy, p. 88

(١١٩) – Bertels, Nasir-i Khusrau, p. 21 - Berthels, EI, III, p. 940

(١٢٠) – Brockelmann, GAL, I, p. 483, No 2; SBI, p, 885 — Brokelmann, Ibn Butlan, p. 392 — Cheikho, Poétes Arabes Chrétiens, III, p. 266 - 272, 392 — Sarton, Introduction, I, p. 730-731.

فى الأونة الأخيرة جمع المادة عن ابن بطلان شاخت ومير هوف .

(J. Schacht and M. Meyerhof, p. 14-15, note 14)

(١٢١) هذا التاريخ يشير إليه مؤرخ حلب المعاصر الطباخ ، راجع :

Cheikho, Poétes arabes chretiens. III, p. 392

(١٢٢) - Brockelmann, GAL, I, p. 483, no 2: « بعد عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ » ;SBI, p. 885 :

« بعد عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ » راجع : Rozen, Vasilii Bulgaroboitsa, p. 40,48

(١٢٣) شرحه – Rozen, Vas. Bulg., p. 036,038 - 053

(١٢٤) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 556 - 557, No 2

(١٢٥) شرحه ، ص ٥٥٧ ، فى أعلى

(١٢٦) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٣٨٢ – ٣٨٥ : أنطاكية =) – Heer, p. 22
(والجزء الثانى ، ص ٣٠٦ – ٣٠٨ : حلب ؛ والجز الثانى ، ص ٦٧٢ : دير سمعان ؛ والجزء الثانى ،
ص ٧٨٥ : الرصافة : والجزء الثالث ، ص ٧٢٩ : عم ؛ والجزء الرابع ، ص ١٠٠٣ : يافا)

(١٢٧) طبعة Lippert ، ص ٢٩٥ – ٢٩٨

(١٢٨) – Cheikho, Poètes arabes chrétiens, III, p. 272 - 277.
راجع : Rozen, Vasili Bolgaroboitsa, p. 039

(١٢٩) من المحتمل أنه ترجع إليه رواية عن اللاذقية ترتفع إلى عام ٤٤٦ ﻫ = ١٠٥٤ ، حيث يوجد بدلا من
اسم ابن بطلان اسم ابن فضلان : ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩ (الطبعة المصرية ، الجزء
السابع ، ص ٣١٢) . راجع : Kovalevski, p. 14, no 1
و Meyerhof, Kitab al-saidana. p. 57, note 23

(١٣٠) – Rozen, Vasilii Bolgaroboitsa, p. 044

(١٣١) ترجمة جزيئة لدى لوسترانج وروورخت – (Le Strange, Röhricht)
راجع : Brockelmann, GAL. SBI, p. 885, No 2
و Meyerhof, Kitab al-saidana

(١٣٢) – Brockelmann, Mitteltürkischer Wortschatz

(١٣٣) – Barthold, Vorlesungen, p. 58

(١٣٤) حدود العالم ، ص ١٦٨ (٤٦٦ ﻫ = ١٠٧٤ أو ٤٧٠ ﻫ = ١٠٧٧)

(١٣٥) – Barthold, Vorlesungen, p 93 95

(١٣٦) – Babenger, GOW, p. 402-404, No 374

(١٣٧) – Beliaev, MITT, p. 31-32

(١٣٨) – Miller, V, p. 142-148

(١٣٩) – Hermann, Imago Mundi, I, p. 21-28

(١٤٠) شرحه ، ص ٢٣

(١٤١) شرحه ، ص ٢٢

(١٤٢) – Kramers, EI, EB, p. 67

(١٤٣) – Umniakov, Samia staria turetskia karta mira

(١٤٤) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 903, No 2 A

(١٤٥) – Minorsky, une nouvelle source, p. 317-318

(١٤٦) شرحه ، ص ٣١٧

(١٤٧) – Muhammad Nizamuddin, p. 88-89, No 29

(١٤٨) – Minorsky, une nouvelle source, p. 318

(١٤٩) شرحه ، ص ٣١٩

(١٥٠) – Barthold, Vorlesungen, p. 89 — Minorsky, une nouvelle source, p. 319 320

(١٥١) شرحه ، ص ٣٢٠ – ٣٢٣

الفصل العاشر

جغرافيو القرنين الحادى عشر والثانى عشر بالمغرب

272 تكاد جميع المصنفات الجغرافية الكبرى التى تحدثنا عنها حتى الآن ترتبط بمشرق العالم الإسلامى ، وهذا دون ريب لا يعنى أن غرب العالم الإسلامى ، أقصد المغرب والأندلس بالذات ، لم يأخذ بنصيبه فى التطور العام لهذا الأدب ؛ غير أن الأدب الجغرافى فى تلك الأقطار اتخذ صبغة محلية وقلما كان يخرج عن نطاق البلاد التى ظهر فيها ، كما وأنه لم يُبْرِز إلى الوجود مصنفات نالت انتشاراً عاماً . ويمكن القول بأن التطور الأدبى ربما تأخر بعض الشىء هنا ؛ صحيح إنه يقابلنا حتى فى العهود المبكرة ممثلون ذوو باع طويل فى الجغرافيا الإقليمية مثل الرازى Elmoro Razis أو الرحالة الطريف فى نظرنا ابراهيم بن يعقوب ، غير أنه فقط فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر انبعثت مؤلفات معروفة لنا معرفة مباشرة وظفرت بمكانة رفيعة فى المشرق نفسه .

وفى هذه الآونة تعرضت البلاد العربية لغير قليل من الحوادث التى وجهت ضربات قاضية إلى وحدة العالم الإسلامى ، بالرغم من أن تلك الوحدة كانت فى غالب الأحوال ليست سوى فكرة فى أذهان الناس . ففى نحو عام ١٠٥٠ للميلاد تعرض النصف الشرقى من العالم الإسلامى لغارة السلاجقة ، بينما وقعت صقلية بأجمعها وجزء هام من أسبانيا بل ومن حين لآخر بعض المواضع على ساحل أفريقيا الشمالى تحت سيطرة المسيحية . وفى نفس ذلك الوقت بدأت تختمر فى أوروبا الفكرة الصليبية وأخذ العالم الإسلامى ينكشف بالتدريج للمسيحيين ؛ كذلك خَفَّت بعض الشىء حدة العلاقات السياسية بين العالمين ، ولكنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى فترة من الزمن إبان حكم السلاجقة والأيوبيين فى خلال صراعهم العنيف ضد الصليبيين . بيد أن جميع هذه الأحداث لم تؤثر فى النظريات الأساسية التى سادت الأدب الجغرافى ، ويمكن فقط أن نلحظ بعض المحاولات إلى الاقتراب من الجغرافيا الفلكية . فمثلاً فى نسخة معدلة لمصنف ابن حوقل يرجع تاريخها إلى عام ١٠٦٤ لا تظهر خارطة العالم مستديرة بل تتخذ شكلا إهليلجيا (elliptic) ، مما يتفق مع الفكرة الفلكية عن المعمورة[1] .

ومن الملاحظ أن تطور العلوم الجغرافية فى الأندلس كان أبطأ مما فى المشرق ، فمنذ القرن الحادى عشر 273 نلاحظ الاهتمام بأنماط كانت قد بدأت تتقهقر فى المشرق إلى الصف الثانى هذا إذا لم تكن قد اختفت تماماً .

ويقدم لنا مثالا طريفاً المحدث الأندلسى المشهور ابن عبد البر النمرى القرطبى (٣٦٨ هـ — ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ — ١٠٧١) الذى اكتسب شهرة واسعة كعالم فى الحديث ، وقد أخذ العلم بقرطبة التى كانت لا تزال

تتصف بجميع أبهة عاصمة الخلافة الغربية ؛ وهو لم يغادر الأندلس على الإطلاق وتوفى بشاطبة Játive فى التسعين من عمره تقريباً [٢] . وقد نالت مؤلفاته العديدة فى الحديث شهرة عريضة ولم يكن هو فيما يبدو غريباً على الموضوعات الأدبية ، ويتضح ذلك من أحد مصنفاته الأدبية وكذلك من شرحه المشهور لأشعار أبى العتاهية ، شاعر الزهد فى العصر العباسى . وبالحديث يرتبط أكثر مما يرتبط بالأدب مؤلفه الذى يمكن أن تكون له صلة بالجغرافيا ، أو على الأحرى بالاثنوغرافيا .

ويحمل الكتاب عنواناً طناناً قد يختلف أحياناً من مصدر لآخر هو « القصد والأمم فى التعريف بأصول العرب والعجم » ؛ وهو فى الواقع عبارة عن رسالة صغيرة تقع فى عشرين صفحة تقريباً ولا تكاد تذكر شيئاً عن العرب بل تعالج فقط مسألة ظهور الشعوب الغريبة التى ورد ذكرها فى الحديث . وبعض مادته مأخوذ من العهد القديم ، بل ومن أسطورة الإسكندر ذى القرنين كذلك ، وهى فى هذا تتفق بعض الشىء مع روايات المسعودى . وقد افترض نولدكه Nöldeke أن الرسالة إنما تمثل ذيلا فحسب لكتاب كبير لابن عبد البر فى أنساب القبائل العربية والصحابة وأن قيمتهما العلمية ليست بذات بال [٣] . ومثل هذا النوع من المؤلفات معروف لنا جيداً فهو يتمم محاولات العهد المبكر لتفسير الأحاديث النبوية تفسيراً جغرافياً ، وهى محاولات ترجع إلى عهد ابن عباس . وهذا بالتأكيد لا ينفى أن عناصر متفرقة منها يمكن أن تقدم بعض الفائدة فى محيط الجغرافيا إذا ما عرضت لتحليل مناسب . ولعل شيفير Schéfer كان مصيباً عندما نشر قطعة من رسالة ابن عبد البر هذه مصحوبة بترجمة فرنسية ، وهى القطعة الخاصة بأهل الصين ، وأكد أنه توجد بها إشارة دقيقة إلى عبادة الأسلاف كما توجد بها فكرة عن وجود قبائل الأينو Aino فى شمال الصين [٤] . وفيران Ferrand رغم تشككه بصدد هذه النقطة الأخيرة إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بمتن ابن عبد البر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو [٥] .

وإلى نفس هذا الوسط ينتمى مؤلف يحتل مكانة كبيرة بالنسبة لنا وهو أحمد بن عمر العذرى (٣٩٣ هـ — ٤٧٨ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٨٥) [٦] الذى يعتبر فى ذات الوقت تلميذاً أو أستاذاً لابن عبد البر [٧] ، تماماً كما كان تلميذاً وأستاذاً لابن حزم المشهور [٨] ، فجميعهم أبناء عصر واحد ووفقاً لما كان متبعاً فى الدوائر العلمية آنذاك فإنه لم يكن هناك ما يمنع أحدهم من التتلمذ على الآخر فى فرع من العلوم التى يجيدها الأخير . وقد توفى العذرى عام استيلاء الفونس السادس Alfonso VI على طليطلة Toledo . وميزة العذرى الكبرى على ابن عبد البر ليست فى رحلته إلى المشرق فحسب بل فى أنه عاش بمكة نحواً من تسعة أعوام [٩] ، ولذا فمن المنطقى أن تتصف معلوماته الجغرافية بالعمق ولا تعتمد على المادة المدونة فى الكتب وحدها بل وعلى انطباعاته الشخصية كذلك . ومن العسير معرفة أىٍّ من هذين الاتجاهين دفعه قبل الآخر إلى وضع مصنف خاص فى الجغرافيا ، غير أنه يتضح من العنوان وهو « نظام المرجان فى المسالك والممالك » أنه ربما ارتبط بالتراث المعروف لنا جيداً .

274

ولم يعرف لهذا المصنف إلى الآن أية مخطوطات ، ولكنه كان معروفاً معرفة جيدة للمؤلف التالى لهذا ، كما نقل عنه آخرون شذوراً ضخمة* . وقد كان العذرى أستاذاً للبكرى[١٠] المشهور الذى سيرد الكلام عليه بعد حين فى شىء من التفصيل لذا فليس من الغريب أن يمثل مصنفه مصدراً من المصادر الأساسية لمصنفات البكرى فى ميدان الجغرافيا ؛ كما وقد استعار منه الكوزموغرافى القزوينى كل المادة المتعلقة بأسبانيا[١١] وأوروبا الغربية[١٢] تقريباً ورجع إليه الإدريسى[١٣] وعرفه ياقوت جيداً . فنى وصفه لموطنه دلاية Dalias من أعمال المرية Almaria ينقل عنه بتفصيل واف[١٤] . ورغماً من معرفته بعنوان الكتاب[١٥] إلا أنه فيما يبدو لم يستعمله استعمالا مباشراً ، والمرة الوحيدة التى يتحدث فيها عنه كانت بمناسبة الكلام على تلميذه ابن حزم[١٦] . إزاء ذلك نجد من الصعب علينا إعطاء وصف لهذا الكتاب فى مجموعه ؛ ومن ثنايا القطع المنقولة عنه يتضح أحياناً أن اهتماماً كبيراً قد أفرد فيه لمختلف أنواع العجائب Mirabilia[١٧] . وأعتقد أن الكتاب لم يقتصر على الأندلس وحدها كما ظن البعض ، فالقطع التى نقلها عنه ياقوت مثلا تمس فى الواقع مدينة مكة . أما انتماء الكتاب إلى نمط المسالك والممالك فأمر لا ريب فيه ولكن هذا لا يعنى أنه ارتبط ارتباطاً مباشراً بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا بالمشرق إذ أن هذا النمط قد خضع لتعديل جوهرى بالأندلس كما سيتضح لنا عند الكلام على تلميذه المشهور البكرى . | 275

وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الأخير يلزمنا أن نؤكد مرة أخرى ضرورة رفض الزعم القائل بوجود شخص قائم بذاته يدعى ابراهيم الطرطوشى كما افترض ياكوب Jacob[١٨] عند كلامه على الرحالة الذى زار ألمانيا وأرض الصقالبة ؛ ومما زاد فى اللبس أكثر أن كرامرس Kramers يرجعه إلى القرن الحادى عشر ويجعل تاريخ وفاته تاريخ وفاة العذرى (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥)[١٩] . وكما رأينا فى حينه فقد أثبت كوفالسكى Kovaleski أن إبراهيم الطرطوشى هو فى حقيقة الأمر إبراهيم بن يعقوب نفسه الذى قام برحلة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، أما القول بوجود مؤلفين يحملان اسما واحداً فهو قول يجب إطراحه نهائياً .

وأبو عبيد عبد الله البكرى هو « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة » كما قال دوزى Dozy[٢٠] . وقد تعرف عليه الاستشراق الروسى أساساً بفضل حفظه لشذرات من مذكرات إبراهيم بن يعقوب الذى مر ذكره للتو . وبحث كونيك Kunik وروزن Rosen الذى اعتبر فتحاً جديداً بالنسبة لعصرهما قد أسدل الستار قليلا على النواحى الأخرى لشخصية البكرى ، فلم يتذكره الناس إلا بعد طبع مصنفاته الأدبية فى الآونة الأخيرة . وكان البكرى تلميذاً للعذرى وابن عبد البر ، ومن هذا الأخير تسلم إجازته

---

* عثر الأستاذ المصرى عبد العزيز الأهوانى على نص للعذرى فى جغرافيا الأندلس والظاهر أنه ناقص . وهو يعمل على تحضيره للطبع . (المترجم)

فى التدريس(٢١) . غير أنه كان ينتمى إلى وسط آخر سواء من ناحية أصله أو من ناحية شخصه : فهو لم يكن عالماً متفرغاً للحديث أو متفقهاً فيه بل كان أديباً ذا ميل واضح محدد نحو الموضوعات الأدبية ، لا يرفض حياة المتعة والخمر(٢٢) ، وكان موظفاً كبيراً ودبلوماسياً كما كان وثيق الصلة بمعاصريه من الأدباء كابن حيان وابن خاقان اللذين عرفهما عن كثب(٢٣) . ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، وكان جده وأبوه يوماً ما أميرين على مدينتى ولبه Huelva وشلطيش(٢٤) Saltès على ساحل البحر المحيط إلى الغرب من اشبيلية Seville ؛ وقد اضطر أبوه إلى مغادرة إمارته عندما غلب عليها العباديون أمراء إشبيلية ورحل مع ابنه إلى قرطبة التى احتفظت بعد سقوط الأمويين بأهميتها حيناً من الدهر كمركز ثقافى وكملاذ لأمراء الأقاليم الذين فقدوا سلطانهم . وهناك أتم البكرى دراسته بل وانتسب إلى المدينة فعرف أيضاً باسم القرطبى . ونقابله بعد ذلك لفترة من الزمن وزيراً لأمير المرية ، وقد قام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير الشاعر المعتمد بن عباد بإشبيلية . وبعد هزيمة الأخير على أيدى المرابطين Almoravides 276 رجع البكرى مرة ثانية إلى قرطبة وظل يزاول نشاطه الأدبى بها إلى وفاته فى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤(٢٥) .

ولم يتخذ اهتمامه بالجغرافيا طابعاً مستقلا بل كانت تخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية . وقد اشتهر البكرى كخبير فى الشعر والأدب الفنى اللذين أفرد لهما بعض الرسائل التى تنعكس فيها مجادلاته مع اللغوى الشهير للقرن العاشر أبى على القالى الذى نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس . وكان البكرى بطبيعته محباً للكتب فأولاها اهتماماً متزايداً وكان يلفها فوق الجلدة بقطعة من النسيج « إكراماً لها » كما قال هو نفسه(٢٦) . ورغماً من أنه لم يغادر الأندلس البتة إلا أنه ترك لنا مصنفين فى الجغرافيا تمتعاً بشهرة عريضة .

أحدهما بعنوان « المسالك والممالك » نحا فيه المنحى القديم فى وصف الطرق والمراحل وبين فيه بلدان العالم الإسلامى المختلفة . ووفقاً لتركيبه فهو كتاب جامع ولكن أسلوبه جاف ؛ وقد قصد به مؤلفه فى المكان الأول إرضاء مطالب الإدارة ولكنه لا يخلو من استطرادات ممتعة ويتضمن أحياناً وثائق هامة . ومن المستحيل نسبته إلى مدرسة البلخى ، وذلك لأسباب عديدة وليس فقط لأنه يخلو من الخارطات(٢٧) . وكان الفراغ من تأليفه حوالى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨(٢٨) ؛ غير أن النص لم يحفظ لنا كاملا بالرغم من أن مخطوطاته استمرت تظهر إلى الآونة الأخيرة(٢٩) ، وكل ما تبقى منه هو أوصاف أفريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان نواحى بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا ؛ وحتى هذا الموجود بين أيدينا لم يطبع بأجمعه . ومن أكثر أوصافه تفصيلا وصفه لأفريقيا الشمالية الذى أصبح فى متناول اليد بفضل طبعة وترجمة دى سلان De Slane(٣٠) . وفيه تمكن البكرى من الإفادة من كتاب يحمل نفس العنوان لمؤلف سابق من أهل القرن العاشر هو ابن الوراق(٣١) الذى مر بنا الكلام عليه ؛ ومن هذا القسم يتضح لنا معرفة البكرى العميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافئه وخلجانه العديدة . وفى مواضع أخرى توفرت لديه مصادر عديدة كمذكرات إبراهيم بن يعقوب فى وصف أراضى الصقالبة ، وهو القسم من كتابه الذى نشره

277 روزن . ولعله من الجائز أن يكون قد اطلع على وثائق قرطبة فاستخرج منها المادة اللازمة لوصف بعض الطرق(٣٢) . أما الأدب المدون فإنه كان بلا أدنى ريب معروفاً له معرفة جيدة ؛ ففى القسم الخاص بالصقالبة نلمس تأثير الجيهانى(٣٣) والمسعودى(٣٤) وابن رسته ، كما أن انتماءه إلى المغرب قد يسر له أحياناً الرجوع إلى مصادر كانت غير معروفة بالمشرق فقد أثبت المستشرق الإسبانى سيمونيت(٣٥) Simonet أن وصفه لجزر الكنارى The Canaries مأخوذ من كتاب « أصول الكلمات » Etymologia الشهير لأيزيدور الإشبيلى Isidorus Seviliensis ، أحد مشاهير أصحاب الموسوعات فى القرن السابع الميلادى(٣٦) . ويمكن القول دون تردد بأن المصنف بأجمعه يقوم أساساً على جهد المؤلف الشخصى وأنه يقدم إلى جانب المادة المدونة معلومات عديدة معاصرة له ، وقد كان الكتاب واسع الانتشار أفاد منه ياقوت(٣٧) ورجع إليه كثيراً الدمشقى كوزموغرافى القرن الرابع عشر(٣٨) *.

أما مصنف البكرى الثانى فى الجغرافيا فقد كان إحياءاً للمنهج القديم فى المعاجم الجغرافية الذى يرتفع إلى القرن التاسع ، وهى المعاجم التى وضعها اللغويون . وقد اضمحل هذا النمط فى القرنين التاليين لذلك حتى إنه لم يظهر مصنف ذو بال فى هذا الميدان قبل مصنف البكرى ، لذا فإن معجمه كان إيذاناً بفاتحة عهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبى . ومن خلال المقدمة تبرز أمامنا واضحة الأفكار الرئيسية التى سيطرت عليه وعلى ممثلى هذا الصنف من المؤلفات الجغرافية ، فهو يقول :

« هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف حتى لا يُدرك فيه لبس ولا تحريف . وقد قال أبو مالك الحضرمى ربّ علم لم تُعجم فصوله فاستعجم محصوله . فإن صحة هذا لاتدرك بالفطنة والذكاء كما يُلحق المشتق من سائر الأسماء ، وما أكثر المؤتلفَ والمختلفَ** فى أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ونبتل وثيتل ونخلة ونحلة وساية وشاية والنَّقَـرَة والنُّقْـرَة وجُنْد وجَنَد وجُسَّان وحسَّان وحُبْحُب وحَبْحَب وسنام وسَنَام وشبام وسَلْع وسَلَع والحَوْب والحَوْءَب وقَرْن وقَرَن وجُفاف وحِفاف وحُتّ وختّ وتَرِيم وتِرْيَم وتهامة ونِهامة بالنون وخزاز وجَرار وحَرَاز .

278 وكذلك ما اشتبه أكثر حروفه نحو سُمْنَ بالنون وسُمْيِ بالياء وشمام بالميم وسَقام بالقاف وشابة بالباء وشامة بالميم ونَمَلَى بالنون وقَمَلَى بالقاف وخَمَلَى بالخاء وجُرْزان بالزاى وجرذان بالذال والإلاهة وإهالة بتقديم الهاء على اللام والقاعة والقاحة . وقديماً صحف الناس فى مثل هذا .

---

* إن أفضل تحليل لهذا المصنف هو الذى يقدمه الدكتور حسين مؤنس فى مقاله الأصيل « الجغرافيا والجغرافيون فى الأندلس » الذى ظهر بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان السابع والثامن (١٩٥٩ — ١٩٦٠) . (المترجم)

** المؤتلف والمختلف ما تتفق فى الخط صورته وتفترق فى اللفظ صيغته . (المترجم)

قال ابن قتيبة قرئ على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب :

بأسـفل ذات الدّير أُفردَ جحشُها   فقد ولهت يومين فهى خلوج[٣٩]

فقال أعرابى حضر المجلس للقارئ ضل ضلالك إنما هى ذاتُ الدبْر بالباء المعجمة بواحدة وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد[٤٠] .

وقال أبو حاتم قرأت على الأصمعى فى شعر الراعى :

وأفرعن فى وادى الأمير بعدما   كسا البيد ساقى القيظة المتناصرُ[٤١]

فقال الأعرابى لا أعرف وادى الأمير . قال فقلت إنها فى كتاب أبى عبيدة « فى وادى دلاميد » ، فقال ولا أعرف هذا ولعلها جلاميد ففُصلت الجيم من اللام . قال أبو حاتم وفى رواية ابن جَبَلة « وادى الأُمَيِّل » باللام ، وكلها غير معروفة .

فهؤلاء عدة من العلماء قد اختلفوا فى اسم موضع ولم يدروا وجه الصواب فيه ، وسأبين ذلك فى موضعه إن شاء الله . . . .

وترتيب حروف هذا الكتاب ترتيب ا ب ت ث فأبدأ بالهمزة والألف نحو آرة ثم بالهمزة والباء نحو أُبْلى وأبان ، ثم بالهمزة والتاء نحو الأَتْم ، ثم بالهمزة والثاء نحو الأثَيْل والأثاية ، هكذا إلى انقضاء الحروف الثمانية والعشرين . فجميع أبواب هذا الكتاب سبع مئة وأربعة وثمانون باباً وهو ما يجتمع من ضرب ثمانية وعشرين فى مثلها فالحرفان من كل اسم مقيدان بالتبويب ، وأذكر باقى حروف الاسم وأبين المشكل بالمعجم والمهمل وأذكر بناءه وضبطه واشتقاقا إن عرف فيه وأنسُب كل قول إلى قائله من اللغويين والأخباريين المشهورين . وجميع ما أورده فى هذا الكتاب عن السَّكونى فهو من كتاب أبى عبيد الله عمرو بن بشر السكونى فى جبال تهامة ومحالها يحمل جميع ذلك عن أبى الأشعث عبد الرحمن بن عبد الملك الكندى عن عرّام بن الأصبغ السُّلمى الأعرابى[٤٢] * » .

فالبكرى إذن يواصل منهج عرام بن الأصبغ بدوى القرن التاسع الذى مر بنا الكلام عليه من قبل ، ويبدو 279 أنه لم يعرف مصنفات فى هذا النوع أكبر من هذا . ويجب ألا يبدو غريباً أن ترتفع مصادر البكرى إلى هذه المحاولات للغويين الأوائل ، إذ لا يوجد أساس للبحث عنها فى معاجم أنساب القبائل مثلما حاول أن يفعل فى الآونة الأخيرة بلاشير Blachére[٤٣] معيداً فى هذا الصدد ، وفى صورة أقل دقة ، مزاعم رينو Reinaud التى ترجع مائة عام إلى الوراء تقريباً[٤٤] . وإذا كان معجم البكرى هو أول ما وصلنا فى هذه السلسلة فإن هذا بالتأكيد لايعنى أنه كان أول من سبق فى هذا المضمار ؛ إذ من العسر اعتباره أول من ولج باب هذا الفن من الأدب الجغرافى . ولكن من المرجح أن يكون أول من استعمل الطريقة

---

* هذه القطعة نقلتها عن الطبعة الجديدة لمعجم البكرى التى نشرها السقا بالقاهرة فى أربعة أجزاء ١٩٤٥ — ١٩٥١ . (المترجم)

الأبجدية فى هذا الباب وإلا لما شرحها بمثل هذا التفصيل فى افتتاحيته ؛ ومهما بدت لنا هذه الطريقة سهلة ومطروقة فى العصر الحالى فإنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن أول معجم جغرافى يظهر بأوروبا (وهو معجم أورتلى Ortelius) كان فى القرن السادس عشر [٤٥] .

وكما هو الحال مع الخبراء الأول فى معرفة بلاد العرب القديمة فإن معجم البكرى ليس كتاباً فى الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوى ، ولايعالج جميع البلدان المعروفة بوجه عام مثل ما يعالج جزيرة العرب بوجه خاص . فهو قد جهد قبل كل شيء فى استغراق الأسماء الواردة فى القرآن والحديث وفى الشعر القديم وقصص المغازى الأولى وذلك عن طريق شرح الشواهد المتعلقة بها . وهذا المعجم الذى ورد نظام ترتيبه مشروحاً مفصلا فى الافتتاحية يبدأ بمقدمة كبيرة تبحث فى حدود الجزيرة العربية ومناطقها ونواحيها كالحجاز وتهامة واليمن ؛ وفى القسم الثانى من المقدمة يرد الكلام على القبائل العربية المستوطنة بها وعن هجراتها . وقد كانت الافتتاحية مصدراً لبحث خاص للعلامة ڤستنفلد الذى يدين له العلم بطبعة كاملة للمعجم .

نال المعجم تقديراً كبيراً لدى الجيل الأول من المستشرقين فى القرن التاسع عشر فاعتبره دوزى فريداً لا يمكن مقارنته بشيء آخر [٤٦] ؛ ولا شك أننا نوافقه فى أنه يمثل مرجعاً لا غناء عنه لكل من يشتغل بالتاريخ العربى القديم والجغرافيا والشعر الجاهلى ، ولكن يجب أن نعترف فى ذات الوقت بأنه إنما يعتمد فى الغالب على المادة المدونة وأن المكانة الأولى فيه تشغلها جزيرة العرب . ومن المنطقى أن يخمل ذكره وتتضاءل قيمته منذ أن أصبح معجم ياقوت فى متناول الأيدى ، لأن الأخير يفوقه بشكل ملحوظ سواء فى اتساع ملاحظاته المباشرة أو فى اهتمامه بجميع البلدان على قدم المساواة أوفى ضخامة المادة التى ينقلها عن المؤلفين الآخرين . ومن الطريف أن نلاحظ أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم ولكن لم يستطع الإفادة منه مباشرة ، وهو يقول ما نصه : « ولم أره بعد البحث عنه والتطالب له » [٤٧] . وهو من وقت لآخر يورد ذكره عن مصادر أخرى [٤٨] ، واستشهاداته من البكرى كثيرة [٤٩] ولكن نظراً لأنه يتحدث أحياناً عن كتابه الآخر « المسالك والممالك » [٥٠] فمن الراجح أن يكون قد أخذها بأجمعها من هذا المصنف الأخير . وإذا حدث وأن وقفنا موقف التحفظ من شهادة دوزى الحماسية عن البكرى فإنه يتحتم علينا موافقته فى أن البكرى هو أكبر جغرافيى الأندلس ، ولو أنه يجب أن نستدرك على ذلك بإضافة « أى للمدرسة اللغوية » .

ويجب ألا يقتصر الاستدراك على لفظ الأندلس وحدها ، ذلك أنه منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظل عدد كبير من المصادر الأدبية ، وبوجه خاص التاريخية ، يقدم مادة جغرافية ، إلا أن الأدب الجغرافى نفسه بدأ يتخذ شيئاً فشيئاً طابع التجميع لما خلفه المؤلفون السابقون . ولم يلبث حجم هذه المادة أن تزايد بشكل ملحوظ بحيث توالدت الرغبة فى توحيد جميع المعطيات التى جمعتها الأجيال

280

السابقة بطرق شتى فى قالب أدبى : ومما زاد فى تعقيد المسألة أن مفهوم الوحدة الجغرافية للعالم الإسلامى انكمش شيئاً فشيئاً نتيجة لاختلاف المصير التاريخى الذى أحاط بكل قطر من أقطاره . وإلى جانب كل هذا فقد قوى الاتجاه نحو الغريب والخارق والخارج عن المألوف ، بنفس الصورة التى انعكس فيها هذا فى المصنفات الجغرافية المتأخرة التى ظهرت باللاتينية فى أوروبا الوسيطة(٥١) .

ولعل الجهد فى البحث عن نمط جديد يمكن تفسيره على ضوء ظهور اتجاه جديد فى هذا العصر يرمى إلى الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية مرة أخرى . وهذا الاتجاه يبدو واضحاً عند الإدريسى بالذات ، ولكن يقابلنا أيضاً عند غيره ليس بدرجة أقل . وقد حدث أن مر بنا فى أحد الفصول الأولى من هذا الكتاب ذكر الزهرى جغرافى الأندلس لمنتصف القرن الثانى عشر وكيف ركز جهده فى وصف ما سميت « بالخارطة المأمونية للعالم » . وكما رأينا فإن تقسيمه الأرض إلى ستة أقاليم تحيط بإقليم سابع يقع فى مركزها وينقسم كل منها إلى ثلاثة أقسام إنما يرجع فى الأرجح إلى النظريات الإيرانية القديمة عن السبع كشورات التى تنعكس فى إحدى خارطات البيرونى . ومما يدعو إلى الأسف أن تحليل هذه المشكلة يزيد من صعوبته عدد من النقاط الغامضة التى تحيط بالمؤلف نفسه ، وأيضاً ذلك اللبس الذى يكتنف مخطوطات مصنفه(٥٢) ؛ وعلى أية حال فقد ثبت فى الآونة الأخيرة أن اسمه هو محمد بن أبى بكر الزهرى ويظن أنه عاش بغرناطة حوالى عام ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ ؛ وإذا لم تكن الآراء متفقة اتفاقاً تاماً حول اسمه فإن البعض يدعونه وفقاً لرأى دوزى بمؤلف المرية المجهول Anonyme d' Almerie(٥٣) . والمقتطفات التى نشرت عن مخطوطاته المختلفة 281 تتناول بوجه خاص مراكش والأندلس وصقلية(٥٤) ؛ وقد أفرد لأسبانيا فى مصنفه عناية أكبر ، أما تبويب الكتاب فيتمشى برمته مع وصف الأقاليم على التوالى ، كما يبدو من معطياته فى الجغرافيا الفلكية ميل واضح إلى جميع أنواع العجائب(٥٥) ؛ وهو فى هذا الصدد يقص علينا حكاية من أكثر الحكايات تفصيلا وقيمة ، تلك هى أسطورة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق بالصين التى تثمر أشجارها كل عام نساءاً بدلا من الفاكهة (٥٦) .

وخير مثال لمحاولة التقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية ، وهى محاولة لم تكلل بالنجاح التام ، هو كتاب الإدريسى Idrisi (أو Edrisi كما تعود أن يكتبه الأوروبيون منذ القرن السابع عشر) . وهو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى ، بل ولا نستطيع أن نضعه فى مصاف العلماء المبرزين الممتازين ، ورغماً عن ذلك فكتابه أكثر الكتب الجغرافية باللغة العربية رواجاً وصيتاً فى أوروبا ؛ إذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الإدريسى . وقد مر وقت كان فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى (٥٧) فى الدوائر العلمية الأوروبية ، أضف إلى هذا أنه لم يظهر مصنف مماثل له فى وسط مثل الوسط الذى ظهر فيه ، وهو ذلك الوسط الفريد نصف العربى ونصف الأوروبى الذى تقدمه لنا صقلية فى ذلك العهد ؛

ورغماً عن هذا الاهتمام الكبير بالإدريسي ، والذى يرجع إلى عهد قديم ؛ فإن معلوماتنا عن سيرة حياته نزرة للغاية ، وهى جميعها فى جوهرها إما أن تكون قد استمدت من نفس كتابه أو أنها تمثل روايات تردها الأحاديث المنقولة وظل مصدرها مجهولا بالنسبة لنا .

وينتمى أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس إلى بيت الأدارسة العلويين الذين طالبوا وقتاً ما بأحقيتهم فى الخلافة ، ولهذا السبب فقد اشتهر مؤلفنا باسم الشريف الإدريسى . وكان مؤسس دولة الأدارسة وهو إدريس الأول قد هرب من المشرق إلى مراكش وأسس إمارة مستقلة بنواحى سبتة Ceuta عام ١٧٢ ﻫ = ٧٨٩ ، ونال الشهرة بعد وفاته عام ١٧٧ ﻫ = ٧٩٣ كولىّ ولايزال يتمتع بهذا الصيت فى أفريقيا إلى أيامنا هذه . ويرتبط باسم ابنه إدريس الثانى (١٧٧ ﻫ — ٢١٣ ﻫ = ٧٩٣ — ٨٢٨) تأسيس مدينة فاس ؛ ولم تعمّر دولتهم لأكثر من عام ٣٧٥ ﻫ = ٩٨٥ . أما أجداد الإدريسى المباشرون فكانوا أمراءاً صغاراً بمالقة Malaga ، وهم أيضاً لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا إلى الرجوع إلى سبتة فى القرن الحادى عشر ، وهناك فيما يبدو ولد الإدريسى فى عام ٤٩٣ ﻫ = ١١٠٠ [٥٨] . 282

ويلوح أن صلة الأسرة بالأندلس لم تنفصم فالإدريسى نفسه تلقى العلم بقرطبة التى ظلت مركزاً ثقافياً كبيراً . وهو قد عرف قرطبة معرفة جيدة ، فالوصف الشامل الذى أفرده لها فى كتابه يحمل جميع آثار المعرفة المباشرة بالمدينة[٥٩] . وقد بدأ الإدريسى أسفاره منذ سن مبكر فزار أماكن لم تكن مألوفة فى ذلك العصر . ومعرفته الواسعة بأسبانيا ومراكش ليست أمراً غريباً ، ولكن يبدو من مواضع مختلفة من كتابه أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا بل وانجلترا ؛ وفى عام ٥١٠ ﻫ = ١١١٦ ، وهو لما يتجاوز السادسة عشرة من عمره زار آسيا الصغرى . وهذا جميع ما أمكن استنتاجه بالتحديد بشأن رحلاته ؛ والظاهر أنه لم ير بقية أفريقيا وآسيا . وفى عام ١١٣٨ عبر البحر فى ظروف يشوبها الغموض إلى جزيرة صقلية حيث كان يوجد بلاط روجر الثانى ببالرمو ؛ وقد ظل الإدريسى وثيق الصلة بروجر إلى وفاة الأخير فى فبراير من عام ١١٥٤[٦٠] ؛ ثم مرت عليه وهو بصقلية لحظات قلقة فى عهد خليفة روجر ، ولكنه رجع فى أيام شيخوخته فيما يبدو إلى مسقط رأسه سبتة وتوفى بها فى عام ٥٦٠ ﻫ = ١١٦٠ على أرجح الأقوال[٦١] .

وبمدينة بالرمو تقترن ذكرى أنضر فترة فى حياة الإدريسى ، وببالرمو أيضاً يقترن كتابه الكبير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »[٦٢] . وقد انبعثت فكرة الكتاب فى عصر ازدهار حضارة صقلية تحت حكم النورمان ويرجع الفضل فى ظهوره إلى روجر الثانى نفسه . ويؤكد هذا القول كلام المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب حيث يبين فى وضوح وجلاء دور الملك النورمانى فى ذلك ، ويصف لنا بالكثير من الحيوية الظروف الفريدة التى تم فيها تنفيذ هذه الفكرة الرائعة لإخراج مصنف جامع فى الجغرافيا . ففى خاتمة تمجيده لراعيه وولى نعمته يقول الإدريسى :

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته واطاعه البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً وفى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكاينة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة 283 التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه ويعدّ منه بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القسم عبيد الله بن خرداذبه(٦٣) وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب أبى القسم(٦٣) محمد الحوقلى البغدادى وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى وكتاب موسى بن قاسم القردى وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب إسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصرى وكتاب بطلميوس الأقلودى وكتاب أرسيوس الأنطاكى ، فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلا بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطة(٦٤) جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها(٦٥) فأحضر إليه لوح الترسيم(٦٦) وأقبل يختبرها بمقاييس(٦٧) من من حديد شيا فشيا مع نظره فى الكتب المقدّم ذكرها وترجيحه بين أقوال مولفيها وأمعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة(٦٨) عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها 284 مائة درهم واثناعشر درهماً (٦٩) فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وأن يولفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم وأن يسمّى هذا الكتاب بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وكان ذلك فى العشر الأول من ينير

الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم »[٧٠] .

فإذا غضضنا الطرف عن المحسنات البديعية فى المقدمة فإنه لايوجد ما يدعو إلى التشكك فى صحة الوقائع التى يوردها . حقاً إن المصادر الغربية لاتتحدث عن نشاط خاص لروجر فى ميدان الجغرافيا غير أن كلام الإدريسى يحمل جميع مقومات الصحة والواقع ، خاصة على ضوء ظروف الحياة الثقافية بصقلية فى ذلك العهد . كما لايوجد مايدعو إلى التشكك فى تاريخ إتمام الكتاب وهو يناير ١١٥٤ ، أى قبل أسابيع من وفاة روجر . ومعلوم أن الملك النورمانى كان فى أيامه الأخيرة فريسة لمرض عضال لايرجى الشفاء منه ، ولعل الرغبة فى أن يرى الكتاب الذى ترجع فكرة ظهوره إليه تاماً كاملا قبل أن يغادر الحياة تفسر طابع العجلة الذى اتسم به مؤلف الإدريسى فى أكثر من موضع خاصة فى القسم الثانى منه . وليس اعتباطاً أن يذكر أن روجر شغل بالموضوعات الجغرافية زهاء خمسة عشر عاماً ، إذ لو أخرجنا هذا الرقم من تاريخ إتمام الكتاب فإننا نحصل على عام ١١٣٩ ؛ ومعلوم لدينا من المصادر الغربية أنه عقب صلح سان جرمانو San Germano ، وفى الخامس والعشرين من يوليو بالذات من ذلك العام ، أنهى روجر بنجاح حروبه الطويلة واستطاع أن يمكّن لسلطانه فى صقلية وجنوبى إيطاليا[٧١] ومن ثم فيمكنه حينئذ أن يشغل نفسه بنشاط سلمى .

285

ويمكن أن نلاحظ بعض التناقض فى مخطوطات الكتاب المختلفة — ولعل مرد ذلك إلى أن المؤلف قد ترك مسودات عديدة للكتاب — حول الدور الذى لعبه الإدريسى نفسه فى وضع الكتاب إذ يدور الكلام فيه بضمير الغائب ؛ غير أن العنوان قد ينسب إليه أحياناً وليس إلى روجر . هذا ولايرقى الشك إلى أنه مؤلف هذا الكتاب ؛ ولعله مما يكمل الفائدة التى جنيناها من افتتاحيته لو أضفنا إلى ذلك رواية لمؤلف مشهور من أهل القرن الرابع عشر وهو الصفدى (توفى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣) الذى لم يقف عند حد الإفادة من تلك الافتتاحية بل ضم إليها مواد أخرى كما يتبين من بعض الحكايات التى يسوقها . قال :

« رجّار ملك من الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه أجّار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء — كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، من العدوة إليه ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم . فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه . فطلب منه شيئاً من المعدن ليدع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك وركب بعضاً على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص . فأعجب بها رجّار ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل وفضل له ما يقارب الثلثين فتركها له إجازة وأضاف لذلك مائة ألف درهم ومركباً مساقاً كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك — وسأله المقام عنده وقال له أنت من بيت

الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندى أمنت على نفسك . فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك . وكان يجىء إليه راكباً بغلة فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً — فقال له أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكياء وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالا وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته . فكان 286 إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسى حتى تكامل له ما أراد وجعله مصنفاً وهو كتاب نزهة المشتاق الذى للشريف الإدريسى » .(٧٢)

وروجر وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر كان على معرفة جيدة بالاثنتين ، وتكليفه لعالم عربى بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق . وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقى ، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف ؛ وتشهد على هذا مختلف المصادر بما فى ذلك الأشعار العربية التى كانت تنشد فى صقلية فى عهد روجر(٧٣) ؛ ولم يكن الأدريسى هو الوحيد الذى مجد من شأن روجر . ورغبة روجر فى الحصول على مصور للعالم يعمل خاصة من أجله تنعكس فيها نزعة شرقية صرفة . وإذا ما صرفنا النظر عن المحاولات الموغلة فى القدم للإسكندر وملوك إيران فى هذا الشأن فإننا نذكر بلاريب أنه قد مرت بنا فى هذا الكتاب محاولتان شبيهتان بهذه . ولاشك أن اهتمام المأمون بالجغرافيا(٧٤) ، وعلى الأخص بعمل « الخارطة المأمونية » إنما يرجع فى الأصل إلى رغبته فى تكوين فكرة عن العالم الخاضع لسلطانه . ونفس هذه الفكرة قد طبقتها المدرسة الكلاسيكية على دولة السامانيين (٧٥) .

يفهم من افتتاحية الإدريسى وكلام الصفدى أن العمل فى الكتاب قد مر بثلاثة أطوار وخلف وراءه ثلاثة آثار — أحدها أنموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم ؛ وثانيها خارطة مرسومة على الورق ، وثالثها كتاب خاص مبينة فيه الأسماء الجغرافية . وقد ثبت أن أقلها دواماً ومقاومة لطوارق الحدثان كانت الكرة الفضية التى يقال بأن الثوار حطموها ونهبوها عند اقتحامهم لقصر روجر فى عهد خلفه سنة ١١٦٠(٧٦) . ومن حسن الحظ أن الكتاب والخارطة قد حفظا لنا فى مخطوطات عديدة ولكنها بالتأكيد ليست معاصرة للمؤلف بأى حال من الأحوال ، كما وأنها ليست كاملة دائماً . بل إنه توجد إلى جانب ذلك مسودات مختلفة لها ، ولكن على الرغم من ذلك تمكّن فى مجموعها من بناء متن الكتاب والأطلس معاً . وقد بلغ عدد المخطوطات حالياً حداً كبيراً ، فإلى جانب المخطوطتين المعروفتين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر وهما مخطوطتا باريس وأكسفورد ، تنضم فى أوائل هذا القرن 287 مخطوطات استنبول ومخطوطة القاهرة (٧٧) . أما مخطوطة لينغراد التى تحتوى على القسم الثانى من الكتاب وحده ، والتى وصلت إلى المكتبة العامة من إيران فى عام ١٨٩٧(٧٨) فقد

كان زيبولد Seybold هو أول من أورد ذكرها فى الأدب العلمى الأوروبى[٧٩] ، ثم عكف على دراستها ميلر Miller[٨٠] وتوليو Tuulio[٨١] حيناً ما وسار على نهجهما بعض العلماء السوفيت مثل ڤولين Volin[٨٢] وبترون Petrun[٨٣]. ورغماً عن ذلك فإنها لاتزال فى حاجة ماسة إلى بحث خاص لما لها من أهمية . ويبدو أن الأمل فى العثور على نسخ من كتاب لإدريسى لايزال يراود الكثيرين حتى الآونة الأخيرة ، فمنذ خمسة أعوام تقريباً تواترت الأنباء بالكشف عن مخطوطة له فى شومين Shumen ببلغاريا[٨٤] ، إلا أن تقصى صحة هذا الزعم لم يتم مع الأسف . كذلك يحتاج إلى التقصى والتحقيق الزعم القائل بوجود كتاب الإدريسى فى إحدى مجموعات المخطوطات بمدينة الموصل[٨٥] ، ولعل الأمر كله يدور حول الطبعة القديمة التى عملت برومه كما حدث ذلك أكثر من مرة فيما يتعلق بفهارس مكتبات استنبول .

وعلى الرغم من العدد الكبير لمخطوطات الكتاب فإن من العسير القول بأن دراسة مؤلف الإدريسى بتمامه قد بلغت الدرجة المنشودة من الكمال ؛ والطبعة الوحيدة التى تشمل أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢ بمطبعة المديتشى Medici المشهورة بروما تحت عنوان مطول هو « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق »[٨٦] . وقد أصبحت هذه الطبعة نادرة الوجود وهى تمثل واحدة من أقدم الطبعات التى ظهرت فى أوروبا بالحروف العربية ، هذا بجانب أنها لا تقدم كتاب الإدريسى فى صورة مرضية لأنها تمثل رواية موجزة إيجازاً مخلاً يرجع تاريخها إلى فترة متأخرة وعملت بنابلس من أعمال فلسطين فى عام ٩٤٤ هـ =١٥٣٨ وأصلها محفوظ بباريس[٨٧] . وبنفس الصورة تمثل أهمية تاريخية فحسب تلك الترجمة اللاتينية لهذه الطبعة التى ظهرت بباريس عام ١٦١٩ والتى قام بها عالمان مارونيان Maronites كانا يشتغلان بتدريس اللغات الشرقية وهما يوحنا الحسرونى Joannes Hesronita وجبريل الصهيونى Grabriel Sionita[٨٨] . وهى تحمل عنوان « جغرافيا النوبى » Geographia Nubiensis ، وهى تسمية قادت إلى تثبيت خطأ فاحش بصدد المؤلف استمر لمدة قرنين فى الدوائر العلمية الأوروبية . ذلك أنه بسبب جهلهما باسم المؤلف فقد قرر المترجمان أنه نوبى الأصل ، لأنه فى الموضع الذى يرد فيه الكلام عن أن النيل يقطع أرض النوبة قرأ المترجمان « أرضنا » بدلا من « أرضها »[٨٩] ، أى أرض النوبة . أما الترجمة الكاملة لمتن الإدريسى فقد ظل العلم الأوروبى فى انتظارها إلى منتصف القرن التاسع عشر حينما ظهرت باللغة الفرنسية فى جزئين (١٨٣٦ — ١٨٤٠) بقلم جوبير Joubert (١٧٧٩ — ١٨٤٧) ؛ وهو أحد العلماء الذين اشتركوا فى حملة بونابرت على مصر . هذه الترجمة التى صيغت فى لغة فرنسية رصينة واعتمدت على المخطوطة الباريسية (وهى ليست أفضل المخطوطات) ظفرت فى أول الأمر بتقدير عال ولكن عكوف العلماء بالتالى على دراسة الإدريسى سرعان ما كشف عن عيوبها الأساسية بحيث لم تعد ترضى المطالب العلمية . وقد قام دوزى ودى خويه[٩٠] بتحليل مفصل للأخطاء الجسيمة الموجودة بها ، ومنذ ذلك الحين أعلن عدد من العلماء بأنه ليس من المستطاع الركون إليها فى أى بحث جدى[٩١].

288

لذا فإنه من الواجب إلى يومنا هذا الاعتماد على المخطوطات أو على الدراسات المفردة للأقسام المختلفة من الكتاب ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن تقدير كتاب الإدريسى فى مجموعه تقديراً صحيحاً .

وإلى جانب العنوان المشهور الذى مر ذكره آنفاً فإن كتاب الإدريسى يحمل أيضاً عنواناً آخر واسع الانتشار هو «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجارى» نسبة إلى راعيه وولى نعمته . وليس هناك فى الواقع أساس للتشكك فى أن الكتاب قد تم تأليفه فى يناير ١١٥٤ ، ولكن يجب ألا يفهم من هذا أن الأدريسى لم يجر فيه بيد التعديل والإضافة ؛ ويستدل من التباين فى المخطوطات على إمكان وجود مسودات شتى للكتاب . وقد استطاع الجغرافى الإيطالى باردى G. Pardi أن يستخلص[٩٢] من إغفال ذكر مدينة اسبوليتو Spoleto ، التى خربت بعد وفاة روجر ، أن المسودة الثانية للكتاب ، إذا جاز القول بذلك ، قد تم إعدادها بعد يوليو ١١٥٤[٩٣] .

وطريقة ترتيب كتاب الإدريسى بسيطة بالرغم من أنها لا تخلو من آثار الصنعة . فهو يقدم لنا فى أول الأمر وصفاً موجزاً للأرض التى يتصورها على شكل كرة طول محيطها اثنان وعشرون ألفاً وتسعمائة ميل ومعلقة فى الفضاء «كالمح فى البيضة» . وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل . وهو يتبع فى هذا مذهب بطلميوس المعروف لنا بتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم ، أى أحزمة عريضة فوق خط الاستواء ، غير أن الإدريسى أدخل على ذلك تجديداً بتقسيمه لكل إقليم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام رأسية هى التى يتفرغ لوصفها فى كتابه الواحد تلو الآخر مبتدئاً من الغرب ومتجهاً نحو الشرق . وكل وصف لقسم من هذه الأقسام يرتبط بخارطة ، بحيث إذا ضمت هذه الخارطات السبعون الصغيرة إلى بعضها البعض لتكوّن | 289 | من ذلك خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل ، الأمر الذى يستحيل فعله مع «أطلس الإسلام»[٩٤]* . ويبدو جلياً أن العيب الأساسى لمثل هذا المنهج هو فى أن وصف قطر ما يأتى موزعاً بين عدد من القطع الصغيرة المبعثرة هنا وهناك ، بحيث يتطلب جمعها مجهوداً ملحوظاً .

وأهم الأقسام بالطبع هى تلك التى أفردها لأفريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحى إيطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شىء ، وذلك خلافاً للأقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف[٩٥] . كذلك ينم وصفه لأوروبا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكتلنده وإيرلنده وسواحل بحر الشمال) عن المقدرة والمهارة التى اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهد . وقد بلغت معرفة الأدريسى شمالا بلاد البلطيق فعرف سغتونا Sigtuna (« سقطون ») وفنمارك Finmark (« فنمارك ») وتاڤستلاند Tavastland (« طبست ») .

---

* تم بالفعل ضمها بعضها إلى بعض وإخراج خارطة كبرى موحدة اهتم بطبعها المجمع العلمى العراقى وخرجت ببغداد منذ أعوام . (المترجم)

أما ألمانيا وبولندا وروسيا فإن وصفها يرد فى دقة أقل بكثير ولو أنه لا يخلو من اشتماله على مجموعة من المعلومات الهامة[٩٦] . وقد ظفرت رومانيا وسائر شبه جزيرة البلقان بتفصيل كثير ربما مرده إلى الحملات الصليبية التى كانت قد بدأت منذ عام ١٠٦٤ ، وأيضاً إلى نمو العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى — الرومانى والشرق الإغريقى — الصقلبى[٩٧] .

ويمكن اعتبار تحليل توماشك Tomaschek لرواية الإدريسى عن البلقان أنموذجاً لبقية أقطار أوروبا . فمادة الإدريسى فى هذا الصدد تمثل فى جوهرها تقريراً عن الأحوال التجارية ، فضلا عن أن الطرق التى يصفها هى بدورها الطرق التجارية[٩٨] . وكانت شواطىء نهر الطونه Danube فى عهد الإدريسى تتمتع بشىء من الهدوء فكان يرد إليها بالتجارة مختلف الشعوب كالإغريق والبلغار والولاخيين (الأفلاق) Wallachians والقومان Komans* . وفيما بعد لعبت دوراً كبيراً فى تلك التجارة الجمهوريات البحرية مثل البندقية Venice وجنوا Genoa وتلتهما راغوزة Ragusa ؛ ثم أخذ طرفاً بالتدريج تجار روسيا وبولندا والمجر وتلتها النمسا وبقية البلاد الألمانية إلى حدود الفلاندر Flanders[٩٩] . وقد استطاع الإدريسى أن يكوّن فكرة عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا من خلال استماعه إلى روايات التجار من العرب واليهود والإغريق والفرنجة ؛ وتمثل روايته فى هذا الشأن محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد فى بيزنطة فى ذلك العهد بالرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع ؛ وهى لن تفقد قيمتها على مر الزمن[١٠٠] . ومعطياته عن الجغرافيا الطبيعية للبلقان طفيفة ولكنه يقدم لنا الكثير فى مجال التاريخ ، وأكثر من ذلك فى وصف الوضع الاقتصادى للإمبراطورية البيزنطية وبلغاريا فى القرن الثانى عشر[١٠١] . ولم يخل الأمر بالطبع فى حالات معينة 290 من ضرورة إيضاح بعض المسائل الغامضة ؛ مثال ذلك أنه من غير المستطاع الاعتماد على الإدريسى فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص[١٠٢] . وهو حين يتكلم عن الميل لا يتضح دائماً ما إذا كان يقصد بذلك اللوغا Leuga الفرنجية أم الميليا Miglia الإيطالية أم الميل العربى[١٠٣] . كذلك يحيط نفس هذا الاضطراب بمفهوم مرحلة الطريق لديه وهى التى كان يستعملها جنباً إلى جنب مع الميل . وعلى أية حال فقد أثبت توماشك بصفة عامة أنه فيما يتصل بالمسافات القصيرة فإن الميل يساوى لديه ألفاً وخمسمائة وخمسة وخمسين متراً (أى أنه أقل من الميل العربى المعتاد الذى يبلغ طوله ألفاً وثمانمائة وثمانية وسبعين متراً) ، بينما تبلغ المرحلة البحرية نحواً من المائة ميل فى اليوم (١٥٥ كيلومتراً)[١٠٤] . وفى تحديده للطريق البرى بين كييف Kiev وڤلاديمير ڤولنسكى Vladimir Volynski وكّد لڤيتسكى Lawicki صحة مقاس الميل[١٠٥] ولكنه اختلف فيما يتعلق بمقاس المرحلة اليومية ، إذ لا يمكن فى رأيه أن تتجاوز العشرين ميلا (١١ و٣١ كيلومتراً)[١٠٦] .

---

* شعب من العنصر التركى كان يقطن سهوب روسيا الجنوبية وعرفه الروس باسم البلوڤتسيين Polovtsi وعرفته المصادر الإسلامية باسم القبچاق . أما اسم القومان فهو الموجود بالمصادر البيزنطية واللاتينية . (المترجم)

ومن المؤكد أن الإدريسى لم يجد تحت تصرفه مادة مفصلة عن كل البلاد كما وجد عن البلقان . فعلوماته عن الروس مثلا إنما هى تكرار لروايات ابن حوقل والجيهانى ، وهو يقسمهم إلى ثلاث قبائل[١٠٧] ، ولا يذكر من مدنهم الكبرى إلى جانب كييف ونوفغورود Novgorod إلا اسمولنسك Smolensk [١٠٨] التى حاول البعض أن يبصر فيها مدينة تموتاركان Tmutarakan [١٠٩] . وقد جاءت روايته على درجة من الضحالة حتى أنها لا تسمح بفهم ألفاظ أحد البحاثة الذى صرح بأن الخوارزمى هو مصدر الإدريسى عن أوروبا الشمالية والشرقية[١١٠] .

فإذا ما انتقلنا إلى الأقطار غير الأوروبية فإن الإدريسى لم يكن يعرفها معرفة مباشرة باستثناء أفريقيا الشمالية ، بل ولم يستطع أن يجمع عنها مادة حافلة كالتى جمعها عن أوروبا بفضل استفهاماته وأسئلته المتواصلة . ويجب الاعتراف بأن مادته فى هذا الصدد ليست بذات قيمة تذكر ، بل إن الكثرة الغالبة من البحاثة لا تعترف لها بأية قيمة إطلاقاً . ويرى نالينو أن تخطيط بلاد آسيا وأفريقيا غير الإسلامية عند الإدريسى إنما يعتمد على بطلميوس الذى استعمله فى الترجمات والتعديلات العربية[١١١]. وإلى هذه النتيجة نفسها وصل مجيك الذى بين أن الإدريسى إنما يعتمد اعتماداً كلياً على بطلميوس فى معلوماته عن داخل أفريقيا بحيث يضحى من العسير اعتباره مصدراً مستقلا فيما يختص بتلك المناطق[١١٢] . وعلى الرغم من قسوة هذه الأحكام إلا أنه من المستطاع أحياناً تلمس بعض | فوائد معينة لديه ، فبعض مؤرخى 291 الجغرافيا يرى أن الأدريسى فى وصفه لأفريقيا لم يترسم خطى بطلميوس دون وعى ؛ فوصفه لمجرى « النيل الغربى » ، أى نهر النيجير Niger ، قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر؛ وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقيا وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت مثل غانا وسلاً وتكرور[١١٣] .

أما اعتماده على بطلميوس فيما يتعلق ببلاد الشرق الأقصى فأمر لا يرقى إليه الشك ، وقد أثبت هذه الحقيقة بعد تحليل معلوماته عن الصين مثلا كل من ريختهوفن Richthofen [١١٤] ويول Yule . ومعلوماته عن جنوب شرقى آسيا بما فى ذلك الهند ضحلة للغاية ويشوبها الاضطراب[١١٥] ؛ وكثير من الأسماء الجغرافية فى هذا القسم ترتفع إلى بطلميوس ولكن هناك أسماء أخرى لم يمكن تحديدها بدقة إلى الآن[١١٦]. وعلى الرغم من هذا النقد الشديد فإن هذا القسم بدوره لا يخلو من بعض النتائج الإيجابية ؛ وتعليقات فيران على الجزء الخاص بالهند[١١٧] يؤكد إمكانية الحصول على معطيات قيمة فى وصف تلك البلاد ترتفع فى معظمها إلى الجيهانى[١١٨]* ، وقد لا يؤدى أحياناً تحليل مادة الإدريسى إلى نتائج قاطعة فالنتف التى أوردها عن الغز Guzz والتى ترجمت منذ عهد غير بعيد (القسم الثامن من الإقليم الخامس)[١١٩]

* نشر وترجم الجزء المتعلق بالهند العلامة الهندى مقبول أحمد الأستاذ بجامعة عليكرة . (المترجم)

تدل على أنه بجانب اعتماده فيما يبدو على رواية الجيهانى فإن الإدريسى يورد عدداً من الأسماء لم يمكن العثور عليها فى مصنفات المؤلفين الآخرين[١٢٠] .

ويمكن الحكم على مصادر الإدريسى لا من تحليل أقسام الكتاب المختلفة فحسب ، بل ومن ملاحظاته الشخصية فى افتتاحية الكتاب كما رأينا ذلك فى حينه . ومن العسير القول بأنه استهدف استيعاب جميع المصادر المكتوبة التى كانت فى متناول يده . ونصف مجموع الأسماء الجغرافية التى يذكرها يرجع فى الأصل إلى مؤلفين معروفين لنا جيداً من أمثال ابن خرداذبه واليعقوبى وقدامة والمسعودى والجيهانى وابن حوقل ؛ وقد مر بنا الكلام فى أول هذا الفصل عن مصدر آخر له هو العذرى ، أما إسحاق بن المنجم فإن نالينو يحاول أن يجعل منه مؤلف النص الذى نشرته كوداتسى Codazzi[١٢١] . والكاتبان الآخران اللذان أورد الإدريسى اسميهما واللذان مازالت شخصيتاهما مجهولتين لنا تماماً فإن أحدهما يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة وهو جاناخ بن خاقان الكيماكى الذى يرجع أصله كما يبدو من الاسم إلى قبيلة كيماك التركية بآسيا الوسطى .

ومن المؤلفين الذين كتبوا باللغات الأوروبية لا يذكر الإدريسى سوى بطلميوس وأوروسيوس Orosius (هروشيش)* مؤلف الجغرافيا العامة الشهير 292 الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى والذى كسب شهرة عريضة فى أوروبا الوسيطة . ويقيناً أن مصادره لم تقف عند هذا الحد فلدينا علم بأسفار وبعثات أرسلها روجر ، ولكن يلوح أن الإدريسى قد أفاد إلى جانب هذا من كثرة تسآله واستفهامه من الرحالة والحجاج . وقد لوحظ مراراً موقفه غير النقدى من مصادره ، سواء المدونة أو السماعية . ولن يدهشنا فى شىء اهتمامه بالكلام عن يأجوج ومأجوج[١٢٢] فقد شغلا مكانة كبيرة فى كل من الجغرافيا العربية والجغرافيا الأوروبية فى العصور الوسطى . كذلك يلوح أنه قد وضع أسطورة حياة القديس براندان St Brandan[١٢٣] موضع الاعتبار فجعل منها مادة جغرافية ذات قيمة ؛ كما يضحى من الميسور أن نفهم سبب اتباعه لرأى بطلميوس القائل بأن الطرف الجنوبى لأفريقيا متجه نحو الشرق وأن الأراضى الواقعة جنوبى خط الاستواء غير مأهولة[١٢٤] . وحتى فى وصفه لمدينة قريبة منه كرومه يفعل ذلك فى أسلوب يذكر بحكايات « ألف ليلة وليلة » ، معيداً فى هذا الصدد قصة ابن خرداذبه تارة وقصة يهودى « تائه » (Wandering Jew) تارة أخرى[١٢٥] .

لقد برهنت دراسة الإدريسى منذ بداية القرن العشرين على أن تحليل متن كتابه لا يمكن أن يتم إلا بتحليل مماثل لخارطاته جنباً إلى جنب مع المتن . غير أن هذا لم يصبح ميسوراً بصورة قاطعة إلا فى العشرينات من هذا القرن فقط ، وذلك بعد أن نشر ميلر جميع المادة الكارتوغرافية المعروفة فى المخطوطات العربية والفارسية . بيد أن مسألة العلاقة بين متن الإدريسى وخارطاته ليست من السهولة بالدرجة التى

* عرفه العرب باسم هروشيش ، راجع عنه وعن تاريخه ودوره كمصدر بالنسبة للمؤرخين والجغرافيين العرب مقال الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس . (المترجم)

تصورها افتتاحيته ؛ ومن ثم فإن الكثرة الغالبة من البحاثة يميلون إلى اعتبار الكتاب شرحاً للخارطات فحسب(١٢٦) ، وقد تردد أكثر من مرة الرأى القائل بأن المسافات المذكورة بالمتن ، سواء المراحل منها أو الأميال ، لا تستند فى الواقع على معطيات واقعية عن الطرق نفسها بل يعتمد على القياس المقرّب لمواقع الأماكن الجغرافية المختلفة على الخارطة(١٢٧) . ويمكن لأول وهلة إثبات أسبقية الخارطات على المتن من الدراسة المقارنة لكليهما ؛ فمن الملاحظ مثلا أن الأسماء الموجودة على الخارطة ترد فى صورة أصح وأقدم مما هى عليه فى المتن ، فضلا عن أن عددها أكثر(١٢٨) ، خاصة فيما يتعلق بأسماء الجبال والمدن(١٢٩) ؛ وإذا ما حدث العكس ووجدت فى المتن أسماء(١٣٠) لا أثر لها بالخارطات فمرد ذلك إلى أنه ليس من السهل تضمين كل ذلك الحشد من الأسماء داخل خارطة فى حين يسهل إيرادها فى متن الكتاب. غير أن الدراسة الفاحصة قد تسوق أحياناً إلى نتيجة مضادة | عند بحث موضوع الأسبقية هذا ، فتوليو Tuulio 293 الذى درس بعناية فائقة خارطة الأجزاء الشمالية من أوروبا وهى القسمان الثالث والرابع من الإقليم السابع قد وصل إلى نتيجة حاسمة مؤداها أن الخارطة تالية للمتن (١٣١) . لذا فإنه من غير الميسور إصدار حكم عام فى هذا الصدد يصدق على جميع أقسام الكتاب ؛ أما إذا أخذنا بمنطوق الافتتاحية فإنه يجب القول بوجه عام بأسبقية الخارطات . ولكن يجب الاستدراك على هذا بقولنا إنه فى حالات معينة ، خاصة عندما يدور الكلام على مناطق معروفة قليلا ، فإنه يمكن الافتراض بأن العمل فى كليهما قد سار جنباً إلى جنب ؛ أضف إلى هذا أن المتن فيما يبدو قد تعرض للتدوين فى أكثر من مسودة ، مرتبطاً فى ذلك بالخارطات أو مستقلا عنها ، كما وأنه من الممكن أن يضاف إلى الخارطة من المتن فيما بعد .

ومن العسير علينا أيضاً فى الوقت الحاضر الوصول إلى رأى قاطع حول أصل خارطات الإدريسى وصلتها بأصل بطلميوس . وكما ذكرنا من قبل فإن أطلس الأدريسى يضم سبعين خارطة ، يفتقد منها عادة فى المخطوطات واحدة أو اثنتان (١٣٢) . كما يوجد سوى ذلك فى مطلع الكتاب خارطة مستديرة للعالم(١٣٣) هى الوحيدة التى يمكن ربطها بمنهج « أطلس الإسلام » للمدرسة الكلاسيكية(١٣٤) . فالفكرة الخاصة بهذا الأطلس وهى المتعلقة بوجود بحرين كبيرين تنعكس بوضوح فى خارطة الإدريسى هذه ، ولكن تحديد سواحل البحر الأبيض المتوسط بها يقرب من الواقع أكثر مما هو الحال مع أية واحدة من الخارطات السابقة(١٣٥) . وجميع خارطات الإدريسى بما فى ذلك هذه الخارطة المستديرة تنفرد بدقة الرسم(١٣٦) وباطراح منهج الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية الذى تميزت به الفترة الثانية للكارتوغرافيا العربية ، أى « أطلس الإسلام » .

ومن الصعب القول هل كانت الكرة الفضية التى عملت لروجر على هيئة خارطة مستديرة للعالم أم خارطة كبرى « للأقاليم » . وفيما عدا بعض ملاحظات عامة فى الجغرافيا الفلكية فإن مقدمة الكتاب لا تذكر شيئاً عن المناهج الفلكية التى اتبعت فى تخطيط هذه الخارطات ، وهذا بدوره قد سهل لكرامرس

Kramers الافتراض بأن مثل هذه المناهج لم تستخدم في ذلك العصر وأن أنموذج الرسم لم يكن سوى خارطة قديمة من نوع الخارطات البطلميوسية مبين عليها الأسماء باللغة العربية على أغلب الظن[١٣٧] وأن الإدريسي كان يضيف إليها بالتدريج أسماء جديدة[١٣٨] . وحتى مثل هذا الفرض لا يمكن قبوله إلا بشيء من التحفظ . وفي دراسته لخارطة الإدريسي المبين عليها بحر الأدرياتيك اضطر العلامة الإيطالي فورلاني Furlani إلى التصريح بأن هذه الخارطة تقف بمعزل ، سواء عن متن « نزهة المشتاق » أو عن خارطات بطلميوس[١٣٩] . وقد وافقه على هذا الرأي نالينو[١٤٠] . 2

والفترة الثالثة في تاريخ الكارتوغرافيا العربية وهي المقترنة باسم الإدريسي[١٤١] تعتبر الأوج الذي بلغه فن رسم الخارطات الجغرافية عند العرب ، ولكن في الوقت نفسه تحمل في طياتها بوادر الاضمحلال رغماً عن الدقة الكبيرة في طريقة الرسم . ويظهر بوضوح تام أن فكرة الأطوال والعروض الجغرافية اختفت تماماً من الخارطة[١٤٢] ولكن يمكن ملاحظة بعض آثارها فيما يتعلق بالأقاليم الأولى[١٤٣] . والأقاليم لدى الإدريسي بوجه عام تتحول إلى أحزمة متساوية في العرض ، مما يدل على أن الأساس الفلكي الذي قام عليه تقسيمها قد نسي تماماً[١٤٤] .أما تقسيم كل واحد منها آلياً إلى عشرة أقسام فيقف دليلا على انحطاط الكارتوغرافيا العربية ؛ وتبيان خط منتصف النهار الابتدائي الذي يمر بجزر السعادة في طرف الخارطة فيه إشارة أخرى إلى تأثير مذهب بطلميوس[١٤٥] . وثمة برهان آخر على هذا التدهور هو أن فحص التفاصيل الموجودة بخارطات الإدريسي أشق بكثير من فحصها لدى الخوارزمي الذي يمثل بداية المذهب البطلميوسي عند العرب بقدر ما يمثل الإدريسي نهايته[١٤٦] . ورغماً عن هذا التقدير السلبي فإنه يجب على أية حال اعتبار أطلس الإدريسي أهم أثر للكارتوغرافيا العربية ، بل لعله أهم أثر لكارتوغرافيا العصور الوسطى بأجمعها[١٤٧] .

ويكاد اسم الإدريسي يقترن بصفة نهائية بكتابه « نزهة المشتاق » ولكن ثبت منذ عهد طويل أن لديه مصنفاً آخر في الجغرافيا عمله من أجل غليوم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦) ولد روجر وخلفه ، وذلك بعنوان « روض الأنس ونزهة النفس » . وفيما عدا العنوان فلا نكاد نعرف عن هذا المصنف إلا شذرات قليلة حفظهـا لنا في القرن الرابع عشر أبو الفـدا الذي أطلق على الكتاب عادة اسم «كتاب المسـالك (والممالك) »[١٤٨] . وفي بداية هذا القرن عُثر باستنبول على مخطوطة تمثل فيما يبدو قطعة من هذا المصنف الأخير تحمل عنوان « روض الفرج ونزهة المُهَج » يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٨ هـ = ١١٩٢ ، وهي تحتوي على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة . وقد عرف هذا المصنف في الدوائر العلمية باسم « الإدريسي الصغير » وذلك للتفريق بينه وبين كتابه الرئيسي « نزهة المشتاق »[١٤٩] . وعندما نشر ميلر هذه الخارطات سماها خطأً « أطلس الجيب »[١٥٠] ، بينما المخطوطة في الواقع ذات حجم طبيعي[١٥١] . ولايزال متن هذا الكتاب غير معروف لنا فيما عدا شذرات طفيفة ، ويمكن الحكم عليه فقط من خطاب 298

لزيبولد Seybold الذى كان يقوم بتحضير طبعة له[١٥٢] . وفى افتتاحية هذا الكتاب يذكر الإدريسى أن هدفه هو مجرد إعطاء موجز فحسب ، ولكنه مع ذلك يورد كمصادره نفس الاثنى عشر مؤلفاً اللذين مر ذكرهم ، ويضيف إلى هذا أنه قد ذكر إلى جانب ذلك كل ما شاهده بنفسه فى الغرب أو استوضح عنه الرحالة وأنه قد استغل جميع الإمكانيات التى قدمها له الملك روجر عند وضع الكتاب الذى يحمل اسمه وذلك خاصة فيما يتعلق بأخبار بلاد الروم كألمانيا وفرنسا وبروڤنس وغسكونية وبريطانيا ونورمندية واكويليه وتسكانيه ولانغوربادية والبندقية وهنغاريا والروس والقومان والكيماك ، إلى أن قال « ولم أترك بلداً من هذه البلاد لم أصفه وصفاً دقيقاً ، وإذا ما دعت الحاجة فعلت ذلك بالتفصيل* »[١٥٣] .

لكل هذا فإن موضوع العلاقة بين هذين المصنفين للإدريسى يجب أن يظل قائماً فهو حقاً موضوع شائك . ومما يسترعى الانتباه أن مصنف « الإدريسى الصغير » يضيف إلى الأقاليم السبعة المعروفة إقليما ثامناً[١٥٤] إلى الجنوب من خط الاستواء، بل إن وصفه يرد فى المتن كذلك[١٥٥] . كما أن بعض الغموض يحيط بالتواريخ أيضاً فقد لاحظ كرامرس فى ملخص استنبول إشارة إلى ابن سعيد ، مما أغراه حيناً من الوقت بأن ينسب الكتاب إلى القرن الثالث عشر[١٥٦] .

وكما هو الشأن مع معظم علماء عصره فقد كان الإدريسى إلى حد ما مؤلفاً جامعاً (Eneyclopaedist) ، بل وعرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل . ومنذ عشرة أعوام تقريباً عثر فى إحدى مكتبات استنبول على مخطوطة القسم الأول من رسالة له فى تحضير الأدوية (Pharmocognozia) . هذا وقد أثبت البحث التمهيدى الذى قام به ميرهوف Meyerhof[١٥٧] أن الكتاب لا يخلو من بعض الأهمية ولو أنه لا يمكن وضعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة فى هذا الباب كرسالة البيرونى مثلا ؛ ومن الطريف أنه لا يرتبط فى شىء باسم ثيوفراست Theophrast الذى يرجع إليه العرب عادة فى هذا الفن ، أو بكتاب « النبات » De Plantis المنسوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتاً لا يخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany ؛ أما الطب فإن الإدريسى لم يعتبره ميداناً له بل ترسم فى ذلك خطى الآخرين[١٥٨] . وهو يبذل جهده دائماً فى إيراد أسماء النباتات فى اللغات المختلفة ، بل إنه يميز بين التسميات البيزنطية (« إغريقى ») واليونانية القديمة (« يونانى ») . ولاشك أنه يدين بمثل هذه المعرفة إلى إقامته بصقلية حيث كان التراث اليونانى البيزنطى لايزال على قيد الحياة[١٥٩] .

ورغماً عن كل هذه التحفظات فإن مؤلفات الإدريسى فى الجغرافيا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة فى محيط الأدب الجغرافى العربى خاصة وفى النشاط العلمى لجميع العصور الوسطى عامة ؛ لهذا فإنه لما يثير الدهشة أن تظل مؤلفاته مغمورة الذكر فى القرون التالية لذلك ؛ وقد أبصرنا فى حينه كيف أن الحقائق

* نظراً لاستحالة الوصول إلى المتن فقد ترجمت هذه الألفاظ عن الترجمة الألمانية لزيبولد الموجود نصها بكتاب تيوليو Tuulio . (المترجم)

عن سيرة حياة الإدريسى نفسه كانت قليلة ومتناثرة . ومنذ بداية السنوات الأربعينات للقرن الماضى أورد دى سلان De Slane ، وذلك بصدد تقريظه لترجمة جوبير للإدريسى ، أسماء المؤلفين الذين أغفلوا ذكر أى شىء عن الإدريسى رغماً من أن الدلائل تشير إلى إمكان معرفتهم به[١٦٠] ؛ ويجب الاعتراف بأن مادتنا لم تنمُ منذ ذلك التاريخ ولو قليلا : وقد أراد بعض العلماء أن يبصر فى ذلك الصمت أمراً مقصوداً مرده إلى أن الإدريسى كان يعمل ببلاط ملك نصرانى بل ورفع إليه مصنفاً يمتدحه فى افتتاحيته ؛ ولعل الدوائر السنية اعتبرته مارقاً ، كما وأنه من الجائز أن يكون حجم الكتاب وخارطاته المعقدة قد جعل من مسألة استنساخه أمراً عسيراً مما كان سبباً فى إعاقة انتشار مخطوطاته .

ومن بين المؤلفين الذين استعملوا مصنفات الإدريسى استعمالا مباشراً اثنان ، أحدهما وهو ابن سعيد المغربى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر أخذ عن الإدريسى كل معلوماته عن أوروبا تقريباً[١٦١] ومقداراً لا يستهان به عن بلاد أخرى[١٦٢] ؛ أما الثانى وهو أبو الفدا الذى عاش فى بداية القرن الرابع عشرفقد نقل عن الكتاب الثانى للإدريسى كما رأينا . وأبعد إلى جهة الشرق من هذين فإن معرفة الناس بالإدريسى لم تكن واسعة ، ولايخلو من مغزى فى هذاالصدد أن خبيراً كبيراً بالأدب الجغرافى مثل ياقوت الحموى لايعلم عنه شيئاً على الإطلاق[١٦٣] ؛ وربما كان السبب فى هذا أيضاً الموقف السلبى الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الإدريسى . . ومما يسترعى النظر بوجه خاص شهادة الطبيب المصرى الأكفانى (توفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨) فى كتابه الفريد الذى يحلل فيه ستين علما من العلوم ويشير إلى أهم الكتب فى كل فرع منها[١٦٤] . ففى القسم الخاص بالجغرافيا يقول[١٦٥] :

« ولبطلميوس فى أحوال المساكن والأقاليم كتاب يعرف بجغرافيا تام فى معناه إلا أن أكثر مسمياته مجهولة عندنا لأنها أسماء أعلام نقلت بجلها من اللغة اليونانية . وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم فإن مؤلفه وإن كان عارفاً بالمسالك والممالك لجوبه الآفاق فإنه عرى من علم هيئة الأفلاك » . من هذا يتضح لنا أن محاولة الإدريسى للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت فى الشرق بوصفها محاولة فاشلة ، تماماً كما عرفها العلم الحديث[١٦٦] :

إن نشاط الإدريسى فى الجغرافيا فى قطر أوروبى يقع على الحد الفاصل بين حضارتين ألقى فى روعه أن تأثيره سيمتد على أوربا أكثر مما على العالم العربى . بيد أن شيئاً من هذا لم يحدث فقد بقى أثره الجغرافى مجهولا إلى بداية القرن السابع عشر فيما يبدو . صحيح أن الكارتوغرافى ميلر K. Miller أراد أن يبصر تأثيرا لخارطاته على خارطة مارينو سانودو Marino Sanudo التى نشرها ڤسكونتى Visconti عام ١٣١٨ — ١٣٢٠[١٦٧] ، وأيضاً على الخارطات القطلونية (Catalonian)[١٦٨] ، بيد أن كل هذا محض افتراضات نظرية . ويوسف كمال ، وهو من أفضل الخبراء فى الكارتوغرافيا العربية والكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة فى العصور الوسطى ، ينفى نفياً باتاً وجود أى تأثير مزعوم لمتن البكرى ولخارطات الإدريسى على أوربا

297

الوسيطة بل ويعتبر أى زعم من هذا القبيل ضرباً من « الهذيان العلمى » Scientific Hallucinations[١٦٩].
وإذا وجد ثمة تأثير فإنه دون ريب لم يكن للإدريسى نفسه بل للوسط الذى أمضى فيه زهرة عمره ؛ وبعض مؤرخى الجغرافيا والمسائل الملاحية يعللون هذا التأثير بأن أهل صقلية كانوا أساتذة الجنويين فى الملاحة وأن الأخيرين نقلوها بدورهم إلى الإسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز على التوالى[١٧٠] . هذا بلا ريب أمر لا تربطه علاقة مباشرة بالنشاط الجغرافى للإدريسى الذى يرجع الفضل فى التعريف به إلى الاستعراب الأوروبى ، لا فى القرن السابع عشر حين استعمل ملخص للكتاب بل فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين أصبح فى حيز الإمكان الاتصال بأصل الكتاب اتصالا مباشراً عن طريق مخطوطاته الأصلية .

وقد اقتنع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب الإدريسى كوحدة قائمة بذاتها وذلك لتعدد الأقطار التى يصفها وتنوع المادة التى يوردها ، لذا فإنه بعد المحاولة الفاشلة التى قام بها جوبير لترجمة الكتاب ترجمة كاملة اهتدى البحاثة إلى أن المنهج الصحيح هو الاقتصار على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . ووضع هارتمان Hartmann اللبنة الأولى لهذا منذ القرن الثامن عشر ببحثه عن أفريقيا عند الإدريسى[١٧١] ، وهو بحث وإن عفى عليه الزمن إلا أنه كان بالنسبة لعصره مجهوداً محموداً . وكان البحث المشهور لدوزى Dozy ودى خويه De Goeje[١٧٢] عن أسبانيا وأفريقيا الشمالية أول خطوة جدية فى هذا المضمار ، وقد أتم هذا البحث وأضاف إليه فيما يتعلق بأسبانيا العلامة ساقدرا Saavdra[١٧٣] . 298
ونفس هذه الدرجة العالية تتمتع بها دراسة الأجزاء الخاصة بإيطاليا وصقلية على يد أمارى Amari ، واسكياپارلى Schiaparelli[١٧٤] ، وهى دراسة هامة أيضاً فيما يتعلق بمسائل عامة تتصل بدراسة الإدريسى . والجزء الأقل أهمية من ذلك وهو الذى أفرده الإدريسى للشام وفلسطين قد ترجم ونشر عدة مرات (جلدمايستر Gildmeister[١٧٥] وبراندل Brandel[١٧٦] ومدنيكوف Mednikov[١٧٧]) ؛ كما قدم توماشك تحليلا ممتازاً لمادة الإدريسى عن شبه جزيرة البلقان ، ولكن لم ينشر النص أو ترجمة كاملة له . ولا تخلو من الأهمية فى الجوانب المتعلقة بها تلك الدراسات التى نوهنا إليها من قبل فيما يتعلق بالهند والشرق الأقصى .

وقد انبعث الاهتمام بالإدريسى من جديد فى السنوات الثلاثينات بصفة خاصة ، ويرجع الحافز إلى هذا نشر ك . ميلر لخارطاته . والدراسات التى ظهرت فى تلك الآونة كانت ذات علاقة مباشرة بأراضى اتحادنا السوڤيتى ، ونخص بالذكر منها أبحاث تالغرين توليو Tallgren - Tuulio . وقد كانت نقطة الابتداء فى دراسته وصف فنلندا لدى الإدريسى ، ولكنه لم يلبث أن أخضع لبحث عميق الأجزاء التى تمس الدنمارك والنرويج والسويد وألمانيا الشمالية واستونيا وشبه جزيرة كولا وشمالى روسيا ومناطق الدنيبر الأعلى : ونظراً لتطبيقه مناهج جديدة فى الدراسة فقد أثارعدداً من المشاكل والاعتبارات الخاصة ؛

وبوجه عام فإن أبحاثه تمثل خطوة جديدة فى دراسة الإدريسى عامة ، ويجب أن يعمل لها حساب خاص بصرف النظر عن المنطقة التى اختارها موضوعاً لبحثه[١٧٨] . ولاتخلو من فائدة رغم هدفها المتواضع دراسة هنرباخ Hoenerbach لوصف الإدريسى لألمانيا والبلاد المجاورة لها ، وكذلك مقال لڤتسكى Lewicki عن وصف الإدريسى لطريق من الطرق الخارجة من كييف. ولاشك أن الوضع الآن فيما يتعلق بالإدريسى أفضل بكثير مما كان عليه فى نهاية القرن الماضى ، بحيث أصبح فى الإمكان تقديم طبعة كاملة وترجمة « لنزهة المشتاق » . وقد فكر فيران Ferrand وغودفروا ديموميين G. Demombynes فى مثل هذا العمل بالفعل ولكن لم يكتب له أن يرى النور بسبب وفاة الأول . وفى الأعوام الأخيرة ترددت الفكرة أكثر من مرة ، فى هولندا حين ظهرت فكرة إخراج طبعة جديدة « لمكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum ، وكذلك فى المؤتمرات الجغرافية المنعقدة بإيطاليا حيث دار الكلام بشكل خاص عن الخارطات[١٧٩] . هذا وقد تضافرت حوادث الأعوام الأخيرة مع عسر المهمة نفسها على تأجيل تنفيذ هذا العمل إلى أجل غير مسمى* .

وفى خلال المائة عام التى أعقبت ظهور ترجمة جوبير أخذت صورة المصنف الجغرافى الأكبر للإدريسى تبدو واضحة المعالم بفضل الدراسات المستقلة لأجزائه المختلفة. كما توكد أكثر من ذى قبل صدق الحكم الذى أصدره عليه رينو R. inaud منذ مائة عام تقريباً | 299 حين قال « والإدريسى فى بعض النقاط قد ساعد بالأحرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحاً هائلا فى ميدان الجغرافيا ، يشبه فى هذا الصدد مؤلف استرابون Strabon[١٨٠] » ; ولن يفكر أحد الآن فى منازعة رأى بارتولد الذى يبصر فيه « محاولة للتنظيم والترتيب ولكن على حساب الدقة والتثبت » . ورغماً من كل هذا فإن الجميع يوافقون أمارى فى اعتباره الكتاب « أفضل رسالة فى الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى»[١٨١] سواء من الشرق أو الغرب ؛ وعلى هذا الحكم يقف الآن إجماع آراء المستعربين ومؤرخى الجغرافيا على السواء[١٨٢] .

وإذا ما رأى الأكفانى فى الإدريسى رحالة فقط وأشار إلى « جوبه الآفاق » فإن حكمه هذا يبعد كثيراً من الصحة ، ذلك أن الإدريسى فى حقيقة الأمر عالم جغرافى . أما الرحالة جواب الآفاق فقد كان معاصره الأكبر منه سناً أبو حامد الغرناطى ، بالرغم من أنه لم يدون انطباعاته عن الطريق فى شكل ملاحظات بل أحيا النمط الأدبى القديم « لكتب العجائب » فصنف مؤلفاً ذا طابع كوزموغرافى بحت ؛ وهو فى هذا ربما كان واضع لبنة جديدة فى الأدب الجغرافى العربى . وقد ولد بغرناطة عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ وكان اسمه الطويل بما يصحبه من كنى وأنساب مدعاة إلى الخلط الذى حدث أكثر من مرة ،

---

* تواترت الأخبار أخيراً بتأليف لجنة من المستشرقين بإيطاليا لتتولى هذه المهمة ، ومن المعتقد أن العمل سيوزع على عدد من العلماء من مختلف البلدان ليدرس كل واحد منهم المنطقة التى تمثل ميدان تخصصه . (المترجم)

فهو أبو حامد أبوعبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى الأندلسى الأُقليشى[١٨٣] القيروانى ؛ ويرد اسمه فى المراجع الأدبية فى صياغات مختلفة لهذه الأسماء العديدة ؛ أما أسفاره فمعروفة لنا من مصنفاته الشخصية . ففى عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤ قام بأولى رحلاته إلى مصر حيث استمع إلى بعض علماء القاهرة والإسكندرية[١٨٤] ، ثم رجع إلى وطنه ولكنه لم يمكث به طويلا فغادره مرة أخرى فى عام ٥١١هـ = ١١١٧ بنية الرجوع إليه مرة ثانية فيما يبدو ، وفى رحلته هذه مر على جزيرة ساردينيا وعلى صقلية فالإسكندرية فالقاهرة . وفى عام ٥١٦ هـ =١١٢٢ نلتقى به فى بغداد حيث أمضى أربعة أعوام متمتعاً بعطف الوزير المعروف برعايته للأدب والأدباء يحيى بن خبير[١٨٥] ، وقد رفع إليه الغرناطى أحد مصنفاته . وفى عام ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ نراه بأبهر فى إيران ، وفى العام التالى ٥٢٥ هـ = ١١٣١ يعبر بحر قزوين فيصل إلى مصب نهر الفلجا ، وفى خلال هذه الفترة قام بثلاث رحلات إلى خوارزم[١٨٦] . ونظراً لعلاقة بلغار بشبه جزيرة البلقان فمن الجائز أن يكون قد زار هنغاريا[١٨٧] وكان موجوداً بها فى عام ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ ؛ وهناك كان يمتلك منزلا بل إن ابنه الأكبر حامد تزوج بسيدتين من أهل تلك 300 البلاد وأقام بها نهائياً[١٨٨] . أما الأعوام الأخيرة من حياته فقد أمضاها بمركز الخلافة فكان ببغداد عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ وبالموصل عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وتوفى بدمشق عام ٥٦٥ هـ = ١١٧٠ .

ومن المصنفات ذات الطابع الجغرافى المنسوبة إليه نعرف على وجه التحديد واحداً فقط هو « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » الموجود فى عدد كبير من المخطوطات والذى نشره وترجم جزءاً منه فيران* . وتحفل مقدمة الكتاب بالتعبيرات العادية ذات الطابع الدينى ولكن يستنتج من ثناياها أن الكتاب قد تم تصنيفه فى عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ بالموصل بتوصية من عالم متصوف هو الإربلى ، وهو عالم معروف فى الأدب العربى[١٨٩] . وينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب[١٩٠] ، الأول منها يعطى « صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » ، ويشمل الثانى « صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » ، والثالث منها يتناول « صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار » ، أما الرابع فيحوى « صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور » .

ورأى رينو[١٩١] عن « تحفة الألباب » يشوبه الكثير من التحفظ ، ففى رأيه أن المؤلف « كان بوسعه تقديم خدمات كبرى فى محيط الجغرافيا والتاريخ الطبيعى لو أنه جمع إلى طبيعته المتشوفة إلى المعرفة نصيباً أوفر من الاطلاع وروح النقد » . هذا الحكم صحيح لا مجال للشك فيه ، ذلك أن محيط اطلاع المؤلف لم يكن واسعاً فهو لا يبرز من مصادره إلى جانب القرآن إلا عدداً ضئيلا جداً من المؤلفات . أما مادته الجغرافية ففقيرة للغاية ومضطربة كما أن ميله إلى الغرائب[١٩٢] واضح ملموس بحيث لا يمكن إنكاره ، ولكن عرضه يتميز بالحيوية والتفنن ويمكن بعد تمحيصه تمحيصاً دقيقاً استخراج نتائج طيبة فى

* نشره الآن دوبلر Dubler مع ترجمة اسبانية وتعليقات وافية بمدريد ١٩٥٣ . (المترجم)

مختلف النواحي : وقد أثبتت الدراسة العميقة التي قام بها ياكوب Jacob أن التحليل الدقيق لرواياته التي كانت تنسب قبلا إلى محيط الأساطير قد يكشف في كثير منها عن أسس واقعية وعن دقته الكبيرة في الملاحظة .

ويورد أبوحامد أسماء رواته بدقة ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم(١٩٣) ولهذا يمكن التفريق بسهولة بين مصادر مادته . وكثير مما يورده على لسان الغير لا يمثل في الواقع أهمية ما وذلك | 301 | لسهولة تصديقه للعجائب(١٩٤) واعتقاده فيها ، ولكنه على أية حال يبذل دائماً قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته . ففي القاهرة مثلا يتجاذب أطراف الحديث مع أحد أهل الحجاز عن عجائب الهند والصين(١٩٥) حيث أمضى ذلك الرجل هناك أربعين عاماً ؛ وفي بغداد يستفهم من أحد مسلمي صقلية عن ثوران بركان اتنا(١٩٦) ؛ وفي هنغاريا يجمع أخبارمفصلة من أهل البلاد عن القسطنطينية والمشاكل السياسية فيها(١٩٧) . وتنال أهمية خاصة روايته لما رآه بعيني رأسه ، وهو يمثل ثلث الكتاب بالتقريب(١٩٨) . واهتمامه بالأبنية والمعالم المختلفة قد خلف لنا مقداراً ملحوظاً من المعطيات الطريفة ، فهو قد رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق وذلك قبل فترة قصيرة من انهيارها عام ١١٤٥ . وكان واحداً من بين آخر من رأوا فنار الإسكندرية في صورته التامة ؛ وآخر من ذكره كان الإدريسي(١٩٩) . وبعين شمس قرب القاهرة رأى المسلة المعروفة التي سقطت عام ١١٦٠(٢٠٠) كما نفذ إلى داخل هرم خوفو(٢٠١) ؛ ويعلق ياكوب على هذا بقوله إن هذه ليست الحالة الوحيدة التي قد تثير اهتمام علماء الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) في كتابه(٢٠٢) ؛ ويصدق هذا القول على مجالات أخرى كثيرة . وإذا حدث وأن وجد لديه علماء التاريخ الطبيعي مادة طفيفة(٢٠٣) إلا أن معلوماته ذات قيمة كبرى فيما يتعلق باستفادة الإنسان من ثمار الطبيعة ، العضوية منها وغير العضوية(٢٠٤) .

وليس من المستطاع بطبيعة الحال مقارنة معلوماته عن أوروبا من ناحية الكم بما أورده غيره من الجغرافيين ، ولكن رغماً من ذلك نجد من بينها معطيات قيمة كذكره للألمان تحت اسم « نامس »(٢٠٥) ، ومثل حكايته عن هنغاريا التي مكنت العلامة البولندي لفتسكي منذ عهد قريب من إلقاء ضوء جديد على مشكلة أصل المسلمين الهنغاريين ووضعهم(٢٠٦) . ويرتبط بهذه المسألة الأخيرة وصفه لمدينة « رومية العظمى » التي يجب أن نبصر فيها القسطنطينية لا رومة نفسها ، وذلك رغم المحاولات العديدة لربطها بالأخيرة(٢٠٧) . هذا وقد تعرف العلم الروسي على أبي حامد منذ عهد طويل ، ويرجع الفضل في ذلك | 302 | إلى العلامة دورن Dorn الذي كان من أول العلماء الذين اشتغلوا بدراسة الغرناطي دراسة جدية وكان ذلك في عام ١٨٧٢ ، على الرغم من أن ذكر الغرناطي يرد في الغرب منذ عهد دربلو d'Herbelot

* يذكرنا باسم النمسا الذي أخذناه عن العثمانيين الذين أخذوه بدورهم عن الصقالبة، وهو الاسم الذي ينعت به هؤلاء الأخيرون الشعوب الجرمانية ومعناه لديهم « البكم » ، أي الأعاجم . (المترجم)

وفى روسيا منذ عهد فرين Frähn وشارموا Charmoy[٢٠٨] : أما بالنسبة لاتحادنا السوفيتى فإن معطياته عن حوض الفلجا الأوسط والأدنى وعن شعوب القوقاز تمثل أهمية كبرى . ولم يثبت حتى الآن على وجه الدقة موقع مدينة سقسين التى يفرد لها وصفاً مفصلا فى كتابه ، ومن الجائز أنها كانت على مصب نهر يايق أو نهر الفلجا نفسه[٢٠٩] . ونالت اهتماماً كبيراً قصة أبى حامد عن تجارة العظام المندثرة (من المحتمل أنها عظام الماموث Mamoth) التى نشطت بين سكان الفلجا الأدنى وخوارزم[٢١٠] ؛ وقد أثبت سارطون Sarton أن ذكر هذه العظام قد ورد عند مؤلفى العالم الكلاسيكى القديم . ويسوق لنا أبو حامد تفاصيل وافية عن شعوب القوقاز[٢١١] خاصة أصحاب الزرد («زره كران») وهم الكُبچى Kubachi[٢١٢] الحاليون . وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الجغرافيين العرب ابتداء من البلاذرى والمسعودى يتحدث عنهم إلا أن أبا حامد هو الوحيد الذى يتكلم عن طقوس الدفن عندهم ، وهى ترجع فيما يغلب على الظن إلى أصل إيرانى كما أثبت ذلك بارتولد[٢١٣] ؛ ومن الجائز أن أبا حامد نفسه لم يزر بلادهم وأنه سمع هذه القصص فى دربند . وهو أكثر الجغرافيين تفصيلا فى الكلام عن أسطورة سيف مسلمة[٢١٤] التى استرعت أنظار دى خويه منذ عام ١٨٧٥[٢١٥] . وأبو حامد أحد المؤلفين الذين تظفر روايتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب اتحادنا السوفيتى ، ولا تزال مادته فى هذا الشأن تنتظر بحثاً خاصاً يأخذ فى حسابه المادة التى تجمعت منذ عهد دورن .

ومن المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القرّاء لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى واستعمله كل من ابن الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهى[٢١٦] فى القرن الخامس عشر . وقد خمن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، | فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما 303 يلازمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص . وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه .

ومنذ هذه اللحظة أيضاً يتسع انتشار نمط آخر من الأدب الجغرافى وينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات التى كثيراً ما حملت عنواناً بسيطاً هو «الرحلة» ، وذلك على غرار «سفرنامه» لناصر خسرو . ولم تدون الرحلات على هيئة كتب «المسالك» المعروفة لنا بل دونت على هيئة «مذكرات يومية» مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر ؛ وكثيراً ما ارتبطت هذه الرحلات بالحج ،

ولكن هذا لا يعنى أن الحج كان يمثل دائماً المكانة الأولى فيها ، وهو ما رأينا مثاله من قبل فى « سفرنامه » . والرحلات تمثل بالأحرى انطباعات من « سنوات التجوال » للعلماء الشبان الذين كان هدفهم قبل كل شىء التعريف بأساتذتهم وبالعلماء الذين التقوا بهم ، متجاهلين تسجيل جوانب الحياة الأخرى. ويكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفن والصياغة الأدبية . ولعل أكثر الآثار قيمة دون منازع فى هذا المجال رحلة ابن جبير ولكنها ليست الأولى من الناحية الزمنية فى هذا الضرب من الأدب .

فأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربى (٤٦٨ هـ — ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ — ١١٤٨)[٢١٧] وأصله من إشبيلية ولكن لم يلبث أن غادرها إلى المشرق[٢١٨] بعد زوال دولة آل عباد التى شغل أبوه فيها مركزاً مرموقاً ، وكان هدفه الدراسة ، ولم يتجاوز عمره إذ ذاك السادسة عشرة بعد (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢) . وفى الشام تتلمذ على واحد من مواطنيه ممن أقاموا هناك وهو أبو بكر الطرطوشى[٢١٩] صاحب كتاب « سراج الملوك » المعروف . وفى بغداد استمع إلى دروس الغزالى[٢٢٠] وأصبح تلميذاً للغوى النابه التبريزى[٢٢١] الذى كان يدرس آنذاك بالنظامية وهى نفس المدرسة التى كان يدرس بها الغزالى . ومن بغداد أدى فريضة الحج بطريق الصحراء عام ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ ثم رجع إلى بغداد ليقيم بها بعض الوقت ، وغادرها إلى مصر فدرس بالقاهرة والإسكندرية على علماء المدينتين . وتوفى أبوه بالإسكندرية عام ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ ولعل هذا ما دفعه إلى الرجوع إلى وطنه وذلك بعد تجوال دام ثمانية أعوام . وسرعان ماذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكية بالأندلس ، وتوفى أثناء رحلة اضطر إلى القيام بها إلى مدينة فاس . وقد خلف لنا عدة مصنفات فقهيـــة[٢٢٢] ، ولم يكن الشعر غريبـاً عليه فقد حفظ لنا المقرى عدداً من قصـائده[٢٢٣] ، أما وصف رحلتـه فمفقود ، وكان يحمل عنـوان « الرحلة » أو « ترتيب الرحلة »[٢٢٤] ، وقد نقل عنه ابن خلدون[٢٢٥] والمقرى[٢٢٦] . وينقل عنه الأخير وصفاً شيقاً لغرق سفينتهم عند سواحل أفريقيا ولكن يرجع إلى مصنف آخر له يحمل عنوان « قانون التأويل » ، وهو أمر غير واضح لنا تمام الوضوح . ويبدو من الأسلوب ميل ملحوظ إلى الصنعة[٢٢٧] ؛ وفى موضع آخر يذكر لنا المقرى ولع ابن العربى بصنوف الغرائب[٢٢٨] ويورد أخباراً عديدة عن مقابلاته مع بعض العلماء والأدباء[٢٢٩] . وابن العربى يقدم لنا مادة ضخمة فى مجال الحضارة الثقافية والاجتماعية لذلك العصر .

304

وقد رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية كما ذكرنا من قبل ابن جبير . ولا غرابة فى هذا إذ ينتمى هو وأبوه إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين المثقفين ، وهم تلك المجموعة التى لعبت بوجه عام دوراً كبيراً فى تطوير الأدب العربى . ويرتفع نسب محمد بن أحمد بن جبير الكنانى إلى .

أسرة عربية عريقة ، فقد دخل أسلافه الأندلس فى القرن الثامن[٢٣٠] مع القائد المشهور بَلْج بن بشر ابن عياض القشيرى ؛ وكان اسم ابن جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته فقد حمله الكثيرون قبله[٢٣١] . وموطن الأسرة على ما يبدو كان بلنسية Valencia ، وقد ولد ابن جبير عام ٥٤٠ هـ = ١١٣٥ والتحق مبكراً بأعمال الدواوين والكتابة كأبيه[٢٣٢] وعمل مدة طويلة كاتباً لحاكم غرناطة من الموحدين ، ولم يلبث أن كسب الشهرة ككاتب وشاعر وله ديوان شعر متعدد الرواية ولكن المعروف عنه قصائد متفرقة ؛ كما ترك لنا أيضاً رسائل نثرية كسبت بعض الشهرة[٢٣٣] . ولم يكن بوسعه أن يشتهر فى الدوائر العلمية الأوروبية على أساس هذا ، أى قبل التعرف على رحلته التى ضمنت له مكانة مرموقة فى الأدب الجغرافى . 305

وفى سن مبكرة توجه إلى الحج فغادر غرناطة فى رفقة أحد الأطباء وذلك فى فبراير من عام ٥٧٨ هـ = ١١٨٣ . وخط سير رحلته معروف لنا جيداً بفضل الإشارات الدقيقة والتواريخ المحددة[٢٣٤] ، فقد مر بسبتة وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية ، ومنها ركب النيل إلى القاهرة . ثم غادرها إلى صعيد مصر فوصل إلى مرفأ عيذاب وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر . ونزل بجدة وأخذ قافلة إلى مكة حيث أقام هناك حوالى نصف عام ؛ ثم مر بالمدينة فى طريقه إلى الكوفة وزار بغداد وسامرا فالموصل فحلب ومنها إلى دمشق التى أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضى الإسلامية فقد كانت سواحل الشام آنذاك فى قبضة الصليبيين . ومن ميناء عكا أخذ ابن جبير سفينة مسيحية فنزل بصقلية وذلك بعد رحلة طويلة حافلة بالمشاق 306 لم تخل من كوارث هددت السفينة . وفى هذه المرة استطاع أن يتعرف على الجزيرة عن كثب ، وفى أبريل من عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ وصل إلى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين . ومن الجلى أن انطباعاته عن المشرق كانت قوية جداً وانعكست فى قصيدة له طويلة يشيد فيها بصلاح الدين الأيوبى الذى تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين ؛ ولم يمض وقت طويل فإذا بابن جبير لدى سماعه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (٥٨٣ هـ = ١١٨٧) يخرج فى رحلة ثانية تستغرق عامين (٥٨٥ هـ - ٥٨٧ هـ = ١١٨٩ - ١١٩١) ، ولكن لم تحفظ لنا تفاصيل عنها . كذلك نعرف القليل عن الأعوام الأخيرة من حياته ؛ وقد قام برحلة ثالثة إلى المشرق وهو شيخ كبير قد أحزنته وفاة زوجه فى عام ٦٠١ هـ = ١٢٠٤[٢٣٥] ، ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلا بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشتغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية فى عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ .

ورحلته الأولى فقط هى التى ترك لنا وصفها على هيئة يوميات فى كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه حوالى عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ . وعنوانه غير معروف لنا بالضبط ، ويوجد له عنوانان تغلب عليهما الصنعة هما « كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ، و« تذكير بالأخبار عن اتفاقات الآثار » ، ولكن كلاهما منحول على ما يظهر[٢٣٦] . ويمكن القول بأن العنوان ربما كان بكل بساطة « رحلة

الكنانى » نسبة إلى القبيلة التى ينتسب إليها . وعلى هذه الرحلة بالذات تعتمد شهرته الأدبية بين الأجيال التالية ؛ ولو أن هذه الشهرة قد اقتصرت بالطبع على المغرب . وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون مشيرين إلى اسمه تارة ومضمنين ببساطة قطعاً كبيرة منه فى مصنفاتهم تارة أخرى . فمن بين الرحالة أخذ عنه العبدرى وخالد بن عيسى البلوى (حوالى عام ٧٣٦ هـ = ١٣٣٥) وابن بطوطة المشهور أو راويته على الأصح[٢٣٧] ؛ ومن بين المؤرخين رجع إليه ابن الخطيب والمقريزى والفاسى وأيضاً المقرى[٢٣٨] الذى كما هى عادته قد حفظ لنا روايات عديدة هامة منه . وتلميذ ابن جبير هو الشريشى (توفى عام ٦١٩ هـ = ١٢٢٢) شارح مقامات الحريرى المشهور الذى حفظ لنا شذوراً كبيرة من رحلة أستاذه[٢٣٩] .

ورغماً عن ذيوع صيته فإن الدوائر العلمية الأوروبية لم تعرف إلى الآن سوى مخطوطة وحيدة لرحلته موجودة بلندن ويرجع تاريخها إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ . وقبل التعرف عليها وجدت عن ابن جبير معلومات مهملة متناثرة فى مصادر أخرى ؛ 307 وقد أصبحت الرحلة معروفة بفضل الطبعة الجزئية لدوزى وأمارى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية مادته عن صقلية بالذات . ولايخلو من طرافة أن نذكر فى هذا الصدد أن الشيخ الطنطاوى* الذى كان يدرس آنذاك ببطرسبرغ قد أخذ طرفاً فى تلك الطبعة[٢٤٠] . ولم تلبث الرحلة أن أصبحت فى متناول الأيدى بفضل الطبعة الكاملة التى نشرها المستشرق البريطانى رايت رايت Wright (١٨٥٢) فى بداية نشاطه العلمى ولما يتجاوز سن الثانية والعشرين ، ثم بفضل الترجمة الإيطالية الجيدة بقلم اسكياباريلى Schiaparelli (١٩٠٦)[٢٤١] . وبعد أكثر من نصف قرن أعاد دى خويه (١٩٠٧) طبعة رايت مع تصحيحات عديدة ؛ أما المخطوطة التى تم الكشف عنها خلال تلك الفترة بفاس فإنها لم تجلب تصحيحات ذات أهمية[٢٤٢] .

ووفقاً لمضمونها فإن « رحلة الكنانى » تمثل أهمية قصوى فى تصوير حياة ذلك العصر ، فهى تقدم وصفاً حياً لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين وصلاح الدين . وهى فى هذا تقترب كثيراً من مذكرات الأمير أسامة بن منقذ ، بالرغم من الاختلاف الكبير فى المنهج وطريقة العرض بين المؤلفين . وفى تحليله لرواية ابن جبير عن الشام اعترف الأب لامنز Lammens بأن ابن جبير[٢٤٣] يمتاز بقوة ملاحظة نافذة . وللرحلة قيمة فريدة فيما يتعلق بتصويرها لحياة مسلمى صقلية ، ففى طريق عودته مر ابن جبير فى ديسمبر من عام ١١٨٤ على ساحل صقلية الشمالى من مسينا Messina إلى ترابانى Trapani وبقى هناك إلى فبراير سنة ١١٨٥ يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية لإخوته فى الدين . والمهم فى روايته ليس وصفه لآثار العصور الوسطى

---

* هو أستاذ مصرى اشتغل بتدريس العربية بجامعة بطرسبرغ وتوفى بها عام ١٨٦١ . وقد ترك لنا كراتشكوفسكى بحثاً طريفاً عن حياته ونشاطه العلمى . (المترجم)

الممتازة بصقلية بل أيضاً لبلاط النورمان الذى لم يترك لنا الكتاب اللاتين المعاصرين شيئاً يذكر عنه[٢٤٤] .

وتعتبر رحلة بن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى . وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملا للقارئ العادى فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ، مثال ذلك وصفه لجمارك الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية . أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة ، وهو كثيراً ما يلجأ إلى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف الجهد فى تفهمه . كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوماً للقارئ . وبعد فهذا مصنف رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر .

ومن الطبيعى أن شخصيات لامعة كالبكرى والإدريسى وابن جبير لاتستغرق حلقة مؤلفى المغرب ، إذ نلتقى إلى جانبهم | بمصنفات أقل شهرة ولكنها لاتخلو أحياناً من بعض الصلة بهم ، أحدها هو «كتاب 308 الاستبصار فى عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول[٢٤٥] . ويدين العلم بمعرفته إلى كريمر A. Kremer الذى نشر المتن عام ١٨٥٢ معتمداً على مخطوطة ڤينا مع عرض مفصل لمضمون الكتاب باللغة الألمانية . ومخطوطة باريس التى استعملها لأول مرة أمارى[٢٤٦] قد ساعدت فى تغطية الفجوات الموجودة بمخطوطة ڤينا ، غير أنها لا هى ولا مخطوطة الجزائر عاونتنا على حل المشاكل المتعلقة بأصل الكتاب ومضمونه . أما ترجمة فانيان Fagnan (١٩٠٠) التى اعتمد فيها على المخطوطات الثلاث وزودها بكمية من الشروح والتعليقات فهى تمثل خطوة فى هذا السبيل ولو أنها لا تقدم لنا الكتاب فى صورته الكاملة[٢٤٧] . ولا يتطرق الشك إلى صلته بالبكرى غير أن باب الاستنتاج يقف عند هذا الحد ، ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى عام ٥٨٧ هـ = ١١٩١ ، ويتضح هذا من مضمونه[٢٤٨] . ويلوح لنا أن المؤلف أدى فريضة الحج فهو يصف الحرمين وصفاً مفصلا ثم ينتقل إلى الكلام عن مصر ويتحدث عن أهراماتها [٢٤٩] ؛ وبعد هذا ينتقل شمالا إلى الكلام عن شواطئ المحيط الأطلنطى ، ثم يورد لنا فى الغالب مادة البكرى[٢٥٠] واصفاً المدن وفقاً لترتيب جغرافى معين مضيفاً إلى ذلك بعض روايات المعاصرين[٢٥١] . وهو يجهد فى تسجيل جميع ما رآه فى طريقه وكل ما سمعه عن البلاد المحيطة[٢٥٢] ومن ثم فهو يختلف عن البكرى لا فى التبويب وترتيب المادة[٢٥٣] فحسب بل وأيضاً فى أنه يصف أفريقيا الشمالية وصف شاهد عيان[٢٥٤] ويقتصر فى عرضه على الجغرافيا الوصفية وحدها[٢٥٥] . وأغلب الظن أن المصنف لم يصلنا فى مسودته الأصلية ، فالعرض يرد على لسان من يدعى « الناظر» ، وهو الذى (نظر) فى الكتاب فى عهد أبى يوسف يعقوب الموحدى (الذى حكم ابتداء من عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤) وأضاف إليه روايات تتعلق بانتصار الخليفة وسفارة صلاح الدين الأيوبى إلى فاس فى عام ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ . أما مؤلف الكتاب نفسه فيأتى ذكره على ما يبدو تحت اسم « المؤلف » وتذكر إلى جانبه مصادر أخرى[٢٥٦] . وجميع هذه النقاط

309 لا تزال تنتظر المزيد من التوضيح إذ يحيط بها الغموض منذ أيام أمارى ؛ ومن الجلى أن الأثر لايبلغ مرتبة الآثار الأخرى كما وأن الاهتمام به لم يكن كبيراً[٢٥٧]* .

وعلى نقيض الأندلس والمغرب فمن الملاحظ أن مصر لم تخرج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مصنفات جغرافية ممتازة طبقت شهرتها البلاد العربية الأخرى ، غير أنها حافظت على الدوام كما كان عليه الحال من قبل على إنتاج تلك المراجع الرشمية فى الإحصاء والإدارة التى يمكن تقصى بدايتها فى المقدمات الأدبية المختلفة التى عملت من أجل كتاب الدواوين منذ العهد العباسى ثم تتبع تطورها فى الموسوعات الكبرى لعهد المماليك بمصر . هذا وقد احتلت الجغرافيا مكانتها كعلم فى تلك المراجع الرشمية وهاته الموسوعات الكبرى كغيرها من العلوم الأخرى ، بيد أن التحليل العميق لمادة هذه المصنفات من شأنه أن يساعد على استخراج معطيات هامة تتعلق بالأوضاع الداخلية أو الخارجية للأقطار المختلفة .

وإلى هذا العصر ينتمى مصنف من ذلك النوع وصفه ابن مماتى ، واتضحت قيمته منذ أيام هامر Hammer وڤستنفلد Wüstenfeld ووكد هذه الأهمية من أرّخوا لمصر الإسلامية مثل بكر Becker وبيوركمان Björkman . وتتميز شخصية المؤلف نفسه فى بعض نواحيها بطرافة لا تقل عن طرافة كتابه[٢٥٨] ، فابن مماتى (توفى عام ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩) ينتمى إلى أسرة قبطية عريقة شغل عدد من أفرادها مناصب كبرى فى دواوين الدولة المختلفة . ولما وضع صلاح الدين يده على مصر (٥٦٤هـ = ١١٦٩) اعتنق ابن مماتى الإسلام وشغل فى عهد صلاح الدين وخلفائه منصب رئيس ديوان الجيش والمالية . وبعد أن تدعم سلطان الملك العادل بمصر فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ اضطرت الدسائس ابن مماتى إلى الهرب إلى حلب حيث وافاه أجله المحتوم ؛ وقد سرد لنا سيرة حياته ياقوت الذى كان على معرفة تامة بنشاطه فى أواخر سنى حياته . وثقافة ابن مماتى الأدبية تقف فى أعلى مستوٍ لذلك العصر ، وقد خلف لنا عدداً من الآثار الأدبية يوجد اثنان منها ضمن مخطوطات جامعة لينينغراد[٢٥٩].

هذا وقد ساعده وضعه الحكومى فى الاطلاع على الوثائق الرشمية هذا إلى جانب معرفته الجيدة بالنظام الإدارى مما يضفى على كتابه « قوانين الدواوين » قيمة لامراء فيها . وإلى جانب الكلام على التعليمات الدواوينية البحتة فإن نصف الكتاب يبحث فى نظام الأراضى بمصر ويفحص فحصاً دقيقاً أنواعها ومساحتها وخراجها وغير ذلك من المسائل المتعلقة بها ؛ ولا حاجة لنا بالطبع إلى توكيد أهمية مثل هذه المادة . والكتاب معروف فى روايتين ، 310 غير أنه مع الأسف لاتوجد فى متناول اليد سوى القصيرة منهما ، أضف إلى هذا فى طبعة غير مرضية بل وموجزة أكثر (١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢)[٢٦٠] ، وهى ترجع إلى عهد السلطان العزيز (توفى عام ٥٩٥ هـ = ١١٩٨) وتشمل عشرة فصول . أما الرواية

---

* من المعتقد أن اسم المؤلف هو أبو الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن محشرة . وقد تناول الكتاب بالدرس والتحقيق أستاذ مصرى هو الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ونشره مع تعليقاته سنة ١٩٥٨ . (المترجم)

الأولى والأكبر فتضم خمسة عشر فصلا وظهرت فى عهد صلاح الدين ولكنها لاتزال معروفة فى المخطوطات فقط (٢٦١)* . ورغما من أن ابن مماتى لا يعد شخصية كبيرة فى ميدان الجغرافيا العربية إلا أنه خير من يمثل أحد اتجاهات ذلك الأدب فى مصر . وكما مر بنا فإن سيرة حياته تأخذنا إلى الشام وبذلك تسمح لنا بتركيز أنظارنا مرة أخرى على مشرق العالم الإسلامى حيث يبدو القرن الثانى عشر شاحباً فقيراً فيما يتعلق بالأدب الجغرافى ، فهو بهذا كأنما يهيئ الجو لظهور آخر أثر جغرافى ضخم للعهد السابق للغزو المغولى ، أعنى بذلك معجم ياقوت الحموى .

* نشر المؤرخ المعروف الدكتور عزيز سوريال عطية كتاب ابن مماتى بالقاهرة فى عام ١٩٤٣ ، مع مقدمة ضافية عن حياة المؤلف ونظام الأراضى بمصر فى عصره . (المترجم)

حواشى الفصـــل العاشر

(١) — Kramers, Legacy, 88-89

(٢) — Brockelmann, GAL, p. 367-368, No 1; SBI, p. 628- 629 — Pons Boigues, p. 147-150, No III — طبعة القاهرة ، ١٣٥٠

(٣) — Nöldeke, ZDMG 40,, p. 308

(٤) — Schefer, Notice, p. 9-11

(٥) — Ferrand, K'ouen Louen p. 443-445

(٦) — Lévi-Provencal, La Péninsule, p. XXIV, note 2 — Pons Boigues, p. 158-159, No 120

(٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ ؛ الجزء الرابع ، ص ٥١٧

(٨) شرحه ، الجزء الرابع ص ٥١٧

(٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ — Lévi-Provensal, La Péninsule, p. XXIV, note 2 — Pérès, MGD, p. 235, note 2

(١٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢

(١١) — Alemany, p, 126, 189 No 4

(١٢) — Jacob, Studien, I, p. 6-8; IV p. 138

(١٣) — Pons Boigues, p. 159

(١٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، الجزء الرابع ، ص ٥١٧ — ٥١٨

(١٥) شرحه ، ص ٥٨٢ : الجزء الرابع ، ص ٥١٧ — ٥١٨

(١٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٢٤١

(١٧) — Lévi-Provencal, La Péninsale, p. XXIII

(١٨) — Jacob, Studien, I, p. 8-10; II, p. 52; IV, p. 137-147

(١٩) — Kramers, EI, EB, p. 68

(٢٠) — Dozy, Récherches, I, p. 1849, p. 282

(٢١) — Wüstenfeld, El-Bekri, I, Vorwort, p. 3

(٢٢) — Dozy, Recherches, I, 1849, p. 297

(٢٣) — Dons Boigues, p. 162

(٢٤) — Dozy-Lévi-Provençal, III, p. 222 —Lévi-Provénçal, La Péninsule, p. 136, note 1

(٢٥) — Dozy, Recherches, I, 1849, p. 295-298

(٢٦) شرحه ، ص ٢٩٧

(٢٧) — Kramers, EI, EB, p. 68

(٢٨) — Lévi-Provençal, La Péninsule, p. 251, note 2 — Kramers, EI, EB, 68
not exact-459 = 1067

(٢٩) مخطوطة كيل Kiel لعام ٨٥١ هـ ؛ عن مخطوطة استنبول راجع :
Ritter, DI, XIX p. 57 p. (Kramers, EI, EB, p. 68 — خطأ : p, 43) —
Minorsky, Khazars, p. 143, note 1
مخطوطة مراكش راجع :
Kowalski, Relcia Ibrähima, p. 7-16

(٣٠) — Kunik i Rozen, I, p, 5-17 — González Palençia, p. 195

(٣١) — Kramers, Legacy, p. 88

(٣٢) — Kunik i Rozen, I, p. 6

(٣٣) شرحه ، جزء أول ، ص ٩ — ١٠ ، ١٧

(٣٤) شرحه ، ص ٨ — ١٠ ، ١٦

(٣٥) — Pons Boigues, p. 163 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 876, No 2

(٣٦) — Sarton, Introduction, I, p. 471-472

(٣٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣ ؛ راجع الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠

(٣٨) — Kunik i Rozen, I, p. 5

(٣٩) — Der Diwan des Abu Dn'aib, herausg. von J. Hell. Hannover, 1926,
Text p. 18, No 11, 27; translation, p. 30; cf : Brockelmann, GAL, I,
p. 41-42; SBI, 42-43, 71, No 1 — Bräunlich E., Abu Duaib-Studien,
DI, XVIII, 1929, p. 1-23

(٤٠) — Wüstenfeld, El-Bekri, I, p. 3

(٤١) شرحه ، ص ٤

(٤٢) شرحه ، ص ٣ — ٥ — (جزئياً) Blachére p. 255 -257

(٤٣) — Blachère p. 252-253

(٤٤) — Reinaud, Introduction, p. CVIII - CIX

(٤٥) — Reinaud, Notice, p. 68-69

(٤٦) — Dozy, Recherches, I, 1849, p. 304-305

(٤٧) ياقوت المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ – ٨ - Heer p. 21

(٤٨) شرحه ص ٨٠١

(٤٩) شرحه ، الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠

(٥٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٠٢ ، ٦٥٣ ، ٨٦٢

(٥١) — Kramers, EI EB, p. 68

(٥٢) — Brockelmann, GAL I, p. 476, No 3; SBI, p. 876 – Sarton, Introduction, II, p. 221, Kramers, EI, EB, p. 64 - 65, 69 — Amari (Nallino, I,) p. 60 - 61, No 27

(٥٣) — Dozy, Recherches, II, 1881, Appendice XXXV, p. LXXXIX

(٥٤) راجع تعدادها لدى : Basset, Extraits, p. 619 — Griffini, Estratti, p. 414 - 420

(٥٥) — Basset, Extraits

(٥٦) الترجمة والتحليل لدى : Ferrand, EI, IV, p. 1198 —

وأيضاً بحثه : Le Wakwak, p. 201 - 202

(٥٧) — Kramers, Legacy, p. 89

(٥٨) عن التواريخ راجع : Seybold, Edrisiana, p. 596, note 1

(٥٩) — Dozy et de Goeje, p. III

(٦٠) — Miller, I, heft 2 p. 41

(٦١) — Seybold, Al - Idrisi, b. 480

(غير صحيح : ١١١٦ = Brockelmann, GAL, SBI, p. 876 —)

Kramers EI EB, p. 68 (٥٥١ هـ = ١١٥٦ مشكوك فيه)

(٦٢) تحمل طبعة ١٥٩٢ الترجمة اللاتينية للعنوان وهى :

Oblectatio desiderantts in descriptione Civitatum Principalium et tractatuum et Provinciarum et insularum et urbium et Plagarum Mundi. Roma, 1592 : (راجع Schnurrer, p. 167, من أسفل)

(٦٣) هكذا فى المتن

(٦٤) Amari (Nallino), III, p, 462, nofe 1 —Tallgren, Finlande p. 5, note 2

(٦٥) لا يتعلق الأمر بالتحديد الفلكى للأطوال والعروض ؛ راجع :

Amari (Nallino), III, p. 463, note 2,

وذلك على عكس تالغرين (Tallgren, Finlande, p. 5, note 3)

(٦٦) إن فكرة إمارى Amari عن اللوح المبين عليه خطوط الطول والعرض يرفضها نالينو Nallino

راجع : Amari (Nallino), III, p. 690 - 691, nofe 3

(٦٧) الدائرة — Amari (Nallino) III, p. 463 : Compasso =

(٦٨) يعتقد أمارى (Amari (Nallino,), III, p. 464, note 1)
أنه قد بين عليها خط الاستواء والخطوط الأفقية الفاصلة بين الأقاليم إلى الشمال منه ، وأيضاً الخطوط الرأسية التى تفصل بين الأقسام العشرة لكل إقليم .

(٦٩) بحسب رأى نالينو (Amari (Nallino), III, p. 364, note 1)
فإن الرطل يساوى ١٤١٫٠٣٠ كيلو جراماً ، وبحسب رأى ميلر Miller حوالى ١٥٠ كيلو جراما
(Miller, 1, 2, 39) ; أما قطر الدائرة ، فقد كان فبحسب رأى امارى Amari ٩٠٫١ متراً .

(٧٠) وفقا لمتن إمارى Amari واسيكاباريللى Sehiaparelli
(M. Amari e C. Schiaparelli L'Italia, p. 4 -6 ; translation, p. 4 - 8 ;
مع تحليل امارى (Amari (Nallino), III, 2, p. 461 - 466) —
راجع أيضا المتن لدى: Tallgren, Finlande, p. 4-7 — Amari, Bibl. ar. Sic, p. 17-19
الترجمة فى الجزء الأول ص ٣٥ — ٤٣ —
Jaubert, I, p. XVI — XVII = de Slane, reviw of Joubert, p. 362 - 385 =
Miller, 1, 2, p. 37 sui = Reinaud, Introduction, p. CXVI-CXYIII —
Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 25

(٧١) — Amari e Schiaparelli, L'Italia, p. III

(٧٢) المتن لدى : Tuulio, Du Nouveau, p. 226 - 228
راجع أيضاً : Amari, Bibl. ar - Sic., p. 657 - 658
Tallgren, Finlande, p. 8 (قطعة) — : الترجمة — Amari (Nallino), III, 2,
p. 467 - 468; Amari, Bibl. ar - sic., II, p. 564 - 565 — Reinaud,
قارن : Introduction, p. CXIV - CXV — Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 11
Miller, I, 2, p. 37 - 38 — Pizzi p. 331 - 333
وعن مخطوطة نزهة المشتاق فى باريس (مجموعة Asselin) وبالقاهرة ، راجع :
Dehérain, De Sacy, p. 97, 111

(٧٣) — De Slane. review of Jaubert, p. 365 - 372

(٧٤) — Kramers, Legacy, p. 89

(٧٥) شرحه ص ٩٠

(٧٦) — Miller, I, 2, p. 39 — Tallgren, Finlande, p. 6, note 1

(٧٧) — Seybold. Al - Idrisi, p. 480 - Miller, p. 44 - 46 — Hoenerbach, Idrisi, p. 3 - 7
— Tallgren, Finlande, p. 15 - 19 — Tuulio, Du nouvean, p. VII - IX

(٧٨) — Ochet Imp. Publ. bibl. for 1897, p. 80-81

(٧٩) — Seybold, Al-Idrisi, p. 481

(٨٠) — Miller, I, 2, p. 46

(٨١) — Tallgren, Finlande, p. 16

(٨٢) — Volin, Al-Idrisi p. 220-222

(٨٣) — Petrun, Jurnal Nauchno-Issledovatelskoi Kafedry g. Odessy, 1, 7; II, 2.

(٨٤) — Kassner, Peterm. Mitteilungen, 79, 1933, p. 304

(٨٥) د . چلبي ، مخطوطات ، ص ٥٣ ، رقم ٩٣

(٨٦) — Schnurrer, p. 167-168, No 187

(٨٧) (القديم ، رقم 894) — Saavedra, p. 226 — De Slane, Catalogue, p. 391, No 2223 — Miller, I, 2 p. 43 — طمس

(٨٨) — Schnurrer, p. 168 — Günther, Edrisi, p. 113-123

(٨٩) — Dozy et de Goeje, p. VI, note 1

(٩٠) شرحه ، ص ٦ — ٢١

(٩١) — Seybold, Edrisiana, p. 591

(٩٢) — Pardi, p. 380 382

(٩٣) — H enerbach, Idrisi, p. I, note 3

(٩٤) — Kramers, EI, EB, p. 68 · Kimble, p. 57 — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 80-81

(٩٥) — Dozy et De Goeje, p. XXI

(٩٦) — Tomaschek, Zur Kunde, II, p. 4

(٩٧) شرحه ، ص ٥

(٩٨) شرحه ، ص ٩ ، ٩١

(٩٩) شرحه ، ص ١٥

(١٠٠) شرحه ، ص ٤ ، ٩١

(١٠١) شرحه ، ص ٩١

(١٠٢) شرحه ، ص ٦

(١٠٣) شرحه ، ص ٥

(١٠٤) شرحه : ص ٥ — ٦

(١٠٥) — Lewicki, Al-Idrisi, p. 95

(١٠٦) شرحه ، ص ٩٨

(١٠٧) توضيح جديد : Validj, Ibn Fadlan, p. 320-321

(١٠٨) — Garkavi, Trudy III Archeologich Syezda, I, p. 345-352

(١٠٩) — Grushevski, p. 34-35

(١١٠) — Mzik, Osteuropa, p. 193

(١١١) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 39, No 2, 42-44, 52

(١١٢) — Mzik, OLZ, XV, p. 403

(١١٣) — Kimble, p. 59

(١١٤) — Miller, 1, 2 p. 42

(١١٥) — Yule - Cordier 1, p. 141

(١١٦) شرحه ، ص ١٤٣

(١١٧) شرحه ، ١٧٢ – ١٩٩

(١١٨) — Beazly I, p. 435

(١١٩) — Volin, Al-Idrisi p. 220-222

(١٢٠) شرحه ، ص ٢٢٠ ، رقم ١

(١٢١) — Amari (Nallino), III, 2, p. 686, note 3 — Codazzi, p. 373-463

(١٢١) مثلا : Kramers, EI, EB, p. 68

(١٢٣) كتابه أيضاً — Reinaud, Introduction, p. CXVI — Géographie d'Aboulefeda, p. 263

(١٢٤) — Reinaud, Introduction, p. CXVI

(١٢٥) — Amari (Nallino), III, 2 p. 697, note 2

(١٢٦) — Mzik, Ptolemaeus, p. 165 - Kramers, Legacy, p. 90 — Hoenerbach, idrisi, p. 22-24

(١٢٧) — Mzik, Ptolemaeus, p. 166

(١٢٨) شرحه ، ١٦٥

(١٢٩) — Kramers, Notices, p. 26-27

(١٣٠) شرحه

(١٣١) — Tuulio, Du nouveau, p. 44-62

(١٣٢) — Kramers, Legacy, p. 90

(١٣٣) الصورة لدى : Kimble, p. 58 — Kramers Legacy, p. 90

(١٣٤) — Kramers, EI, EB, p. 68

(١٣٥) — Kramers, Legacy, p. 90

(١٣٦) — Mzik, Ptolemaeus, p. 165

(١٣٧) — Kramers, EI, EB, p. 68

(١٣٨) — Kramers, Notices, p. 28

(١٣٩) — Furlani, Le Carte

(١٤٠) — Amari (Nallino), III, 2, p. 701 note

(١٤١) راجع : Mieli, p. 201-202

(١٤٢) — Mzik, Ptolemaeus, p. 165

(١٤٣) — Kramers, Notices, p. 28

(١٤٤) — Honigmann, Die Sieben, Klimata, p. 181

(١٤٥) — Mzik, Ptolemaeus p. 165

(١٤٦) شرحه ، ص ١٦٦

(١٤٧) شرحه

(١٤٨) — Reinaud, Introduction, p. CXXI — Miller, I, 2, p. 43-44 Tallgren, Finlande p. 9

(١٤٩) — Miller, I, 2, p. 44 and 1, 3

(١٥٠) شرحه ، ١ ، ٣ ، ص ٦٧

(١٥١) — Tallgren, Finlande, p. 17-18, note 3, Letter of Nallino

(١٥٢) — Miller, I, 3, p. 67-68

(١٥٣) — Seybold cf : Miller, I, 3 p. 68 cf : Tallgren, Finlande, p. 6-10

(١٥٤) — Miller, I, 3 p. 68

(١٥٥) كرامرس عن الادريسى ، راجع :

Youssouf Kamal, Quelques éclaircissements, p. 106

(المسودة الثالثة « أنس المهج » ليست للإدريسى — فى نهاية القرن الثالث عشر)

وحسب رأيه كانت هناك أربعة مسودات :

كتاب روجر ؛ « وروض الأنس ونزهة النفس » الذى عمله لغليوم الأول ؛ ثم ثالثة هى التى عمل منها أحد مؤلفى القرن الثالث عشر كتاب « أنس المهج » —

راجع أيضاً : — Cerulli, OM, XXIII, No 1, p. 22-23, note 7

(١٥٦) — Kramers, EI, EB, p. 68-69

(١٥٧) — Meyerhof, Pharmakologie, p. 45, 225

(١٥٨) — Sarton, Introduction, II, p. 410

(١٥٩) — Mieli, p. 200, note 2

(١٦٠) — De Slane, review of Jaubert, p. 373 - 375

(١٦١) — Hoenerbach, Al-Idrisi, p. 19

(١٦٢) — Miller, I, 2, p. 50-51

(١٦٣) — Amari, Bibl. ar.-sic., I, p. XXVII = Amari (Nallino), I, p. 49

(١٦٤) — Brockelmann, GAL, II, p. 137, No, 3; SBII p. 169-170

(١٦٥) إرشاد القاصد إلى إسنا المقاصد (Sprenger Two works p. 85 - 86)

(١٦٦) — Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 181-183

(١٦٧) — Miller, I, 2, p. 51

(١٦٨) شرحه ، ص ٥١ — ٥٢

(١٦٩) — Kramers, Notices, p. 15, 17, 25, 28-29, 32

(١٧٠) — J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 81 with reference to De la Roncierè

(١٧١) — Hartmann

(١٧٢) — Dozy et De Goeje

(١٧٣) — Saavedra, p. 225 - 242

(١٧٤) — Amarie Schiaparelli, L'Italia, 1883,
بعض تصحيحات لدى : Seybold, Analecta-Arabo — italica, p. 213-215

(١٧٥) — Gildemeister, Idrisis Palestina

(١٧٦) — Brandel

(١٧٧) — Mednikov, Palestina, II, 921 - 937

(١٧٨) راجع نقده : H Jansky, OLZ, 36, p. 633-695

(١٧٩) — Furlani, p. 196-206

(١٨٠) — Reinaud, Introduction, p. CXX

(١٨١) — Amari (Nallino), III, 2, p. 701

(١٨٢) — J. K. Wright, Geogr Lore p. 80

(١٨٣) — Ferrand, Le Tuhfat al-albab, p. 17-18

(١٨٤) المقرى فى كتاب : Ferrand, Le Tuhfat, p. 14

(١٨٥) توفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥ راجع الفخرى (Derenbourg, Al-Fahri, p. 425)

قارن : Brockelmann, GAL, II, p. 161, No 1

(١٨٦) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 878 (Bactrien)

(١٨٧) شرحه (Russland)

(١٨٨) – Jacob, Studien, III, p. 71 — Lewicki, Al-Andalusi p, 108

(١٨٩) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 783 - 784 — Ferrand, Le Tuhfat, p. 284

(١٩٠) المحتويات عرضها ياكوب : (Jacob, Studien, III, p. 74 - 77)

أما المتن فراجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 36

(١٩١) – Reinaud, Introduction, p. CXI

(١٩٢) – Kramers, EI, EB, p. 69

(١٩٣) – Jacob, Studien, III, p. 92

(١٩٤) شرحه

(١٩٥) – Ferrand, Le Tuhfat, p. 106

(١٩٦) – Amari Bibl. ar-sic., I, p. 134 — Amari (Nallino), II. p. 504 - 505

(١٩٧) – Lewicki, Al-Andalusi, p. 109

(١٩٨) – Jacob, Studien, III, p. 93

(١٩٩) شرحه ، ص ٧٦ . لايرد ذكر لأبى حامد لدى أسين

(Asin Palacios, Al-Andalus, I, 2, p. 269)

(٢٠٠) – Jacob, Studien, III, p. 87

(٢٠١) شرحه ، ص ٨٩

(٢٠٢) شرحه ، ص ٨٦ – ٩١

(٢٠٣) شرحه ، ص ٨٣

(٢٠٤) شرحه ، ص ٨٤

(٢٠٥) شرحه ، ص ٩١ – ١٢٣

(٢٠٦) – Lewicki, Al-Andalusi

(٢٠٧) (راجع نقد زيبولد: – Moncada, (Seybold, Deutsche Literaturzeitung p. 1716

(٢٠٨) عن المراجع المبكرة راجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 15 - 16

(١٠٩) Barthold, Vorlesungen, p. 168-169; — Büchner, EI, IV, p. 89 — Ferrand, Le Tuhfat, p. 87-90 –

(٢١٠) Jacob, Studien, III, p. 77-79 — Sarton, Introduction, II, p. 412 –

(٢١١) Ferrand, Le Tuhfat, p. 82-83 –

(٢١٢) شرحه ، ص ٨٤ – ٨٥ – راجع أيضاً : Orbeli and Trever, Sasanidskii Metall, p. XV

(٢١٣) Bartold, ZVO, XIII, p. 0101-0104 –
راجع أيضا : Barthold, Daghestan p. 925 — Trever, p. 18

(٢١٤) Ferrand Le Tuhfat, p. 83-84 –

(٢١٥) De Goeje, Eenige Mededeelingen, p. 23-33 –

(٢١٦) تعدادهم لدى : Ferrand, Le Tuhfat, p. 18-19 –

(٢١٧) ابن خلكان (طبعة De Slane) الجزء الثالث ، ص ١٢ – ١٤ – المقرى الجزء الأول ، ص ٤٧٧ – ٤٨٩ – Pons Boigues p. 216-217, No 172 — Reinaud, Introdutcion, p. CXXIII — CXXIV

(٢١٨) المقرى الجزء الاول ، ص ٤٨٢

(٢١٩) ابن خلكان ، شرحه ، ص ١٣

(٢٢٠) شرحه – المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٢

(٢٢١) المقرى : الجزء الأول ، ص ٤٧٨

(٢٢٢) راجع ذلك لدى : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٨٣ – ٤٨٤ و Pons Boigues, p. 217
راجع أيضاً : Brockelmann, GAL, SBI, p. 298

(٢٢٣) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٩

(٢٢٤) Pons Boigues, p. 217 –

(٢٢٥) ابن خلكان (طبعة De Slane) ، الجزء الثالث ، ص ١٤

(٢٢٦) Pons Boigues p. 217 –

(٢٢٧) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٨٠ – ٤٨١

(٢٢٨) شرحه ، ص ٤٨١ – ٤٨٢

(٢٢٩) شرحه ، ص ٤٨٤ – ٤٨٩

(٢٣٠) Schiaparelli Ibn Gubayr, p. VIII

(٢٣١) شرحه ، ص ٧ – ٨

(٢٣٢) المصادر عنه جمعها زيبولد (Seybold, ZDMG, 63, p. 353-355)

(٢٣٣) مصنفاته لدى ابن الخطيب ؛ راجع : . Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XII - XIII

(٢٣٤) عن طريق رحلته راجع : Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XXV - XXVII

(٢٣٥) هكذا يقول ابن الأبار (Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. X, note 1)

في العادة يقال إنه بدأ رحلته في عام ٦١٤ ﻫ = ١٢١٧

(٢٣٦) هكذا يؤكد رايت (Wright, Ibn Jubayr, 2 ed. p. 9)

(٢٣٧) شرحه ، ص ١٧

(٢٣٨) شرحه ، ص ١٨ – ١٩

(٢٣٩) شرحه ، ص ١٩

(٢٤٠) – Krachkovski, Sheikh Tantawi p. 80

(٢٤١) – Schiaparelli, Ibn Gubavr; reviewed by de Goeje cf : W. Wright, Ibn Jubayr, 2 ed., p. 24

(٢٤٢) شرحه ، ص ٢٣

(٢٤٣) – Lammens, Causeries, p. 53 - 64

(٢٤٤) – Amari (Nallino), I, p. 52; III, p. 541 - 542, 544 - 546

(٢٤٥) هناك أيضا – Brockelmann, GAL, SBI, p. 879, No 5 b (Anonyme Paris, 2225 p. 878 - 879 = الاستبصار ؛ Fagnan, l'Afrique p. II : راجع)

(٢٤٦) – Amari (Nallino) I, p. 53, No 11

(٢٤٧) كذيل لترجمته أضاف فانيان Fagnan كذلك ترجمة روايته عن صقلية :

Fagnan, Centenario, I', 105 - 106

(٢٤٨) – Fagnan, L'Afrique p. IV

(٢٤٩) شرحه ، ص ، ٢ ، ٥

(٢٥٠) شرحه : ص ٤

(٢٥١) – Kramers, EI, EB, p. 69

(٢٥٢) – Reinaud, Notice sur les Dictionnaires, p. 106

(٢٥٣) – Fagnan, L'Afrique, p. VII

(٢٥٤) – Reinaud, Notice sarles Dictionnaires, p. 106

(٢٥٥) – Fagnan, L'Afrique, p. VII

(٢٥٦) – Amari (Nallino), I, p. 53 - cf: Fagnan, L'Afrique, p. 211 - 212

(٢٥٧) – Amari (- Nallino), I, p. 54

(٢٥٨) – Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 2; SBI, p. 572-573;

انظر خاصة : Krachkovski, Ibn Mammäti, p. 1-3

وأيضاً بحثه فى نفس الموضوع ص ٨٩ – ٩٠ Sarton, Introduction, II, p. 464

(٢٥٩) – Krachkovski, Ibn Mammati p. 3-4

وأيضاً بحثه فى نفس الموضوع ص ٩٠ – ٩٦

(٢٦٠) – Björkman, Beiträge p. 33

(٢٦١) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 573

الفصل الحادى عشر

جغرافيو القرن الثانى عشر بالمشرق

311 إذا حدث ولم نلتق بمصنف جغرافى هام فى شرقى العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر فإن هذه الظاهرة لا تعنى إطلاقاً أن المصنفات الجغرافية كانت قليلة العدد أو تنتمى إلى نمط واحد . فهنا تقابلنا كما كان عليه الحال من قبل جميع الأنماط الأساسية ممثلة فى الجغرافيا الفلكية التى تمس أحياناً الجغرافيا الوصفية ، وفى المعاجم الجغرافية سواء التى تعتمد على أساس لغوى أو أسس أخرى كالأنساب ، وأخيراً تأتى الرحلات . وإلى جانب اللغة العربية التى استمرت بها تقاليد القرون السابقة نما أيضاً بالكثير من الحيوية الأدب الجغرافى باللغة الفارسية وظهر بها فى هذا الصدد آثار تتميز بالكثير من الأصالة والإبداع .

وفى جوٍّ عربى خالص بالنسبة لذلك العصر يمكن أن نلاحظ ظاهرة طريفة ترتبط بمحيط حضارى مستقل بذاته ، مركزه خوارزم ومجاله جميع بلاد ما وراء النهر . ويمكن تقصى آثار ابتداء هذه الظاهرة فى تلك المنطقة بالذات إلى القرن العاشر ، أى فى العصر السابق لعصر البيرونى ؛ أما نهايتها فيمثلها الغزو المغولى ، أى بالتقريب تلك اللحظة التى كان يجمع فيها ياقوت مادة علمية ضخمة من مكتبات مرو من أجل معجميه المشهورين .

وبخوارزم وبلاد ما وراء النهر ترتبط معظم أسماء المؤلفين والمصنفات الذين سنتكلم عنهم فى نطاق القرن الثانى عشر ، وقد لاحظنا أثناء الكلام على الترجمة الفارسية لكتاب ابن حوقل كيف ظهر الميل إلى ربط الجغرافيا الوصفية بالجغرافيا الرياضية فى منتصف ذلك القرن ؛ ويمكننا أن نلاحظ الآن فى مصنف لأحد أهالى خيوه وهو الخرقى[1] محاولة مضادة لتقريب الجغرافيا الرياضية من الجغرافيا الوصفية . أما عن المؤلف نفسه فإن معلوماتنا تقتصر على القليل ، بل إن اسمه نفسه مجال لاختلاف كبير[2] .وتشير النسبة إلى صلته بمحلة صغيرة من أعمال مرو ، 312 وكان مقرباً من بلاط شاهات خوارزم ومن المحتمل أنه كان فلكياً للبلاط ، وقد عاش معظم حياته بخيوه[3] وتوفى على ما يظهر فى عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨[4]، أما أرصاده الأساسية فترجع إلى عام ١١٣٢[5] .

ويحمل مصنفه الرئيسى طابعاً فلكياً ينعكس فى العنوان نفسه وهو « منتهى الإدراك فى تفسير الأفلاك » . ويجب أن يقتصر حكمنا عليه من مضمونه العام ومن المقتطفات المنقولة عنه ، إذ أن المعروف من مخطوطاته لم ينشر بعد ؛ ويرجع الفضل فى دراستها لنالينو وڤيدمان . والمصنف كان على ما يظهر

معروفاً فى الشرق لمدة طويلة فحاجى خليفة يورد لنا تحليلا موجزاً لمحتوياته يعتمد فى أغلب الظن على رأى العين (de visu)[٦]

وهو ينقسم إلى ثلاث « مقالات » رئيسية يدور الكلام فى الأولى منها على تركيب الأفلاك وحركاتها ، وتعالج المقالة الثانية الكلام على شكل الأرض وتقسيمها إلى معمور وغير معمور وتحديد المواقع الجغرافية بحسب خطوط الطول والعرض ؛ أما الثالثة فتبحث فى التقاويم المختلفة وأشكال المجموعات النجمية[٧] . وللفصل الثانى من المقالة الثانية الذى يعالج الكلام على البحار أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا الوصفية ، وهو معروف بأكمله فى طبعة مستقلة وترجمة لاتينية بقلم نالينو[٨] . وينضم هذا الفصل بطبيعته إلى ذلك التراث من الجغرافيا الفلكية الذى مر بنا فى أحد الفصول السابقة وذلك أثناء إيراد ترجمة قطعة البتانى ؛ غير أن رسالة الخرقى لا تتفق معها تمام الاتفاق . ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ أن الخرقى ينقل عدداً من رواياته عن الجيهانى بل يبدأ الفصل المشار إليه بالرجوع إليه[٩] .

والخرقى فى الواقع عالم نقالة وليس ببحاثة ؛ ولا يخلو من مغزى فى هذا الصدد أنه أفرد فصلا « لقبة الأرض »[١٠] ؛ وقد لاحظ بارتولد فى حالات معينـــة صلته الوثيقة ببطلميوس[١١] . أما آراؤه فى الفلك فهى استمرار لنظريات الخازم من القرن العاشر وابن الهيثم من القرن الحادى عشر ونظراً لأن الأخيرين قد عرفا فى أوروبا الوسيطة فقد ورد ذكر مصنف الخرقى فى الرسائل اللاتينية القديمة[١٢].

أما مصنفه الثانى الذى لا يقل انتشاراً عن الأول ، وذلك إذا بنينا حكمنا على عدد المخطوطات المعروفة لنا منه ، فيحمل عنوان « التبصير فى علم الهيئة » 313 وهو يرتبط بالمصنف الأول ارتباطاً وثيقاً وأشبه ما يكون بمقتطفات منه ولكنها تقتصر على الجانب الفلكى فقط مع إهمال الأجزاء المتعلقة بالجغرافيا الوصفية مثل الفصل الذى مر بنا ذكره عن البحار والذى يمكن أخذ فكرة عنه من ترجمة ڤيدمان لمقدمتى المقالتين الأولى[١٣] والثانية[١٤] . أما بالنسبة لتطور الأدب الجغرافى فإن هذا المصنف الأخير أقل مساساً بالتأكيد بموضوع دراستنا من « منتهى الإدراك »

وإلى خيوه ينتسب أيضاً معاصر للخرقى هو الأديب العالم المشهور أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ هـ — ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ — ١١٤٤)[١٥] ، وسنقصر كلامنا على معجمه الجغرافى فقط وإن كان لا يمثل أهمية ذات بال بالنسبة لشخصيته العامة . أما مكانته فى الثقافة الإسلامية فتعتمد على شهرته كمفسر ممتاز على مذهب المعتزلة وكنحوى ولغوى ومؤلف لعدد من المصنفات الأدبية فى النثر الفنى . وقد ولد وتوفى بخوارزم ، وبالرغم من أن إحدى ساقيه كانت خشبية فقد عرف بأسفاره الواسعة وأمضى أعواماً طويلة بمكة حتى لقب « جار الله » ؛ وقد رأى ابن بطوطة قبره بالجرجانية[١٦] . وهو يمثل من ناحية تفكيره أنموذجاً طريفاً وفريداً لمؤلف نشط فى مجال الحضارة العربية بينما يرجع نسبه إلى أصل غير عربى ؛ بل إنه يؤكد على الدوام فى مقدمات كتبه قيمة اللغة العربية كأداة لتلك الحضارة .

وليس لمصنفه الجغرافى أية علاقة برحلاته بل يرتبط بدراساته وقراءاته ويحمل عنوان «كتاب الجبال والأماكن والمياه» ؛ وهو على هيئة معجم جغرافى من طراز معجم البكرى تقريباً . والزمخشرى وإن لم يكن على علم بهذا المعجم الأخير إلا أن مصادرهما واحدة وهى معاجم لغويى القرن التاسع التى تبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الجزيرة العربية مما ورد ذكره فى الأشعار وفى النثر العربى المبكر . والفرق الأساسى بين البكرى والزمخشرى هو أن الأول كان يستهدف فى الغالب الناحية الأدبية اللغوية بينما أولى الثانى اهتمامه إلى التفسير فجهد قبل كل شىء فى ضبط الأعلام الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية والقرآن والحديث . 314

ولقد كانت زيارته لجزيرة العرب ذات قيمة كبرى فى اضطلاعه بهذا العبء ، بل إن فكرة وضع مصنف من هذا النوع قد نشأت لديه هناك وشجعه عليها شريف مكة آنذاك ، وكان رجلا مولعاً بالكتب وعلى معرفة جيدة بالحجاز فقد زار معظم مواضعه الهامة[١٧] لذا فإن أكثر مادة الزمخشرى تفصيلا هى المتعلقة بجبال الحجاز وأوديته ومياهه ؛ والمؤلف يرجع فى معظم الحالات إلى رواية الأمير المذكور[١٨] . وقد ترك هذا أثره على جميع الكتاب فالأعلام التى استوفيت فيه استيفاء تاماً هى مواضع الجزيرة العربية وحدها ، وأندر من ذلك بكثير تظهر مواضع فلسطين والشام والعراق ومصر ، وبصورة استثنائية إيران وما وراء النهر ؛ هذا بينما لا يرد أى ذكر للأندلس أو الهند . وباستثناء الحالة التى أشرنا إليها فإن جميع مصادر الزمخشرى تكاد تكون مصادر مكتوبة وهى تمثل فى جوهرها مصنفات اللغويين الذين عالجوا هذا الموضوع قبله[١٩] .

بهذا تتحدد قيمة كتاب الزمخشرى بالنسبة لنا ولذلك فمن العبث البحث فيه عن أية مواد تتعلق بمناطق قريبة من موطنه كخوارزم وآسيا الوسطى ، إذ أن اهتمامه فى الواقع قد اتجه إلى ناحية أخرى . ولدى مقارنته بالبكرى تبدو مادته أقل تفصيلا ؛ وفقط من وقت لآخر تظهر لديه قراءات أفضل للأعلام الجغرافية . وقد عرف ياقوت كتابه وأثنى عليه[٢٠] ، ولكن لا يخلو من مغزى أنه لم يضمه إلى مجموعة المصنفات المكرسة لجزيرة العرب وأنه قلما ينقل عنه[٢١] . لهذا فليس غريباً ألا نلتقى به إلا نادراً حتى فى المراجع العلمية الحديثة بالرغم من وجود طبعة له لا بأس بها صدرت منذ عام ١٨٥٦ وقام بتحضيرها سالفردا دى غرافه Salverda de Grave تلميذ يينبول T. G. J. Juynboll[٢٢] ؛ وقد زود هذا الأخير تلك الطبعة بتحليل دقيق لمادتها ؛ وبحسب رأيه فإن مصنف الزمخشرى لم يكمل وأن مؤلفه لم يصغه الصياغة النهائية[٢٣] .

ولحسن الحظ لم يكن جميع مواطنى الزمخشرى قليلى الاهتمام بموطنهم مثله ، ويمثل طرف نقيض له فى هذا الصدد معاصره الأصغر منه سناً أبو سعد عبد الكريم السمعانى (٥٠٦ هـ — ٥٦٢ هـ = ١١١٣ — ١١٦٧)[٢٤] من أهالى مرو ؛ وقد اشتهر فى الدوائر العلمية الإسلامية 513 كمفسر وعالم بالحديث ولكن

شهرته الأساسية بالنسبة لنا هى كمؤرخ ، فقد أكمل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وألف تاريخاً معتمداً لموطنه مرو تواترت الأخبار أخيراً بالعثور على مخطوطته ونقل عنه ياقوت(٢٥) . ولمصنفه «كتاب الأنساب» علاقة مباشرة بالأدب الجغرافى بحيث يقدم لنا فرصة مواتية للتحدث عنه فى هذا الصدد .

وقد ساعد الوسط الذى نشأ فيه السمعانى على تنمية ميوله العلمية فهو ينتمى إلى أسرة عربية استوطنت مرو منذ عهد بعيد وخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء(٢٦) ؛ هذا وقد اشتهرت مرو بمكتباتها الحافلة بالكتب إلى عهد ياقوت . وتمكن السمعانى مبكراً من القيام بعدد من الرحلات فى «طلب العلم» وأمضى فترات تختلف طولا وقصراً فى مراكز العلم القريبة من موطنه مثل بخارى ونيسابور وأصفهان ، أو النائية مثل بغداد وحلب ودمشق والمقدس بل وعاش وقتاً ما بالحجاز ؛ ويتراوح عدد العلماء الذين سمع منهم بين أربعة آلاف وسبعة آلاف ؛ ويستلفت النظر أيضاً العدد الكبير لمؤلفاته فالقائمة الموثوق بها تورد ما يقرب من خمسين مصنفاً معروفة لنا جميعها من أسمائها فقط(٢٧) باستثناء «كتاب الأنساب» المذكور .

وقد جعل السمعانى هدفه من هذا الكتاب وضع مؤلف فى الأنساب التى اشتهرت بها شخصيات تاريخية فى مجال أو آخر ؛ وترد فيه الأنساب مرتبة حسب حروف المعجم ؛ وإذا كان بعضها يرتفع إلى أسماء أعلام قبلية أو تاريخية فإن الغالبية العظمى منها ترتبط بأسماء جغرافية للنواحى والمدن والأماكن المختلفة . وبهذا يضحى مفهوماً لنا أن القيمة الكبرى التى ينالها الكتاب ليست من ناحية مادته التاريخية فقط بل والجغرافية كذلك . وترد فيه الأنساب مزودة بالشرح الكافى مع ضبط الأعلام الجغرافية والتعريف بها تعريفاً دقيقاً ، ويصحب كل ذلك تعريف مختصر بسير الشخصيات التاريخية وذكر مصنفات العلماء الخ .

ولاشك أن السمعانى لم يكن أول من صنف فى هذا الميدان فمن بين السابقين له(٢٨) يرد عادة اسم الدارقطنى(٢٩) فى القرن العاشر وقد وضع مرجعاً فى «أسماء التابعين»(٣٠) ، ثم ابن 316 ماكولا فى القرن الحادى عشر وقد ألف فى «أسماء الرجال»(٣١) ولعل أقربهم رحماً بالسمعانى من حيث الموضوع هو ابن القيسرانى (توفى عام ٥٠٧ هـ = ١١١٣)(٣٢) الذى وضع مرجعاً فى الأنساب المتشابهة طبع منذ عام ١٨٦٥(٣٣) وأفاد السمعانى منه كثيراً . ومن هذا يتضح أن فكرة وضع مصنف من هذا الطراز لم تنشأ لأول مرة لديه ، غير أن المؤلفين الآخرين اختلفوا عنه من حيث أن هدفهم كان قبل كل شىء استيفاء ما يسمى «بعلم الرجال» (أى رواة الأحاديث النبوية) ؛ وقد وجد من أمثال هذه المصنفات عدد غفير ولكن فائدتها اقتصرت على مجالها فحسب ، لذا فليس غريباً أن يضفى النسيان ذيوله على من ذكرناهم من المؤلفين السابقين للسمعانى فى خضم العدد الهائل للمؤلفين الذين كتبوا فى هذا الموضوع وألا يحفل العلم الأوروبى بهم إلا فى مجال ضيق يهم المتخصصين فى أمثال تلك الموضوعات.

ولم تكن فكرة السمعانى تحقيق أسماء الأشخاص بل توضيح أصل واشتقاق الأسماء التى نُسبوا إليها ؛

وبذلك اتسع موضوعه بدرجة كبيرة خاصة فى المحيط الجغرافى ، وفى هذا يتركز الاختلاف الجوهرى فى المنهج بينه وبين الزمخشرى . وتحتل مكاناً بارزاً من بين الأنساب التى عالجها أنساب إيران وماوراء النهر ؛ وهو يسوق أحياناً مادته إلى العصر الذى عاش فيه بل وكثيراً ما اقتصر علمنا ببعضها على روايته وحدها ، مثال هذا ما يورده تحت نسب الصينى عن شخصيات مختلفة تحمل هذا الاسم وزارت الصين فى أغراض التجارة أو العلم ؛ وهو يسوق فى هذا الصدد تفاصيل قد تسمح أحياناً بإلقاء ضوء على مسائل تتصل بعلاقة الصين لا ببلاد ما وراء النهر وحدها بل حتى بمناطق نائية كالمغرب(٣٤) .

هذا وقد بدأ السمعانى فى وضع كتابه فى عام ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ ولم يلبث أن نال الشهرة التى يستحقها وأصبح خلال نصف قرن من ذلك مصدراً من المصادر الأساسية لياقوت الذى كان يحمل له تقديراً عالياً(٣٥) .

وكما هو الحال دائماً فقد لاح الكتاب بالنسبة للأجيال التالية هائلا ضخم الحجم وفى حاجة إلى الإيجاز فاختصره فى منتصف القرن الثالث عشر المؤرخ المشهور ابن الأثير بعنوان « اللباب »(٣٦) . واختصر هذا بدوره فى القرن الخامس عشر عالم جم النشاط هو السيوطى وذلك تحت عنوان « لب اللباب » . وهذه الكتب عرفتها الدوائر العلمية الأوروبية بفضل طبعاتها الجزئية منذ السنوات الثلاثينات من القرن الماضى ؛ أما كتاب السمعانى نفسه فقد تأخر ظهوره رغماً عن أهميته الكبرى إلى عام ١٩١٢ . وإخراج طبعة علمية مستوفاة لأثر ضخم متعدد النواحى مثل «كتاب الأنساب» أمر ليس باليسير ولعل ناشرى «سلسلة جب التذكارية » Gibb Memorial Series فعلوا خيراً حينما اكتفوا بنشر المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى على هيئة طبعة مصورة طبق الأصل (Facsimile) . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه المخطوطة ليست أفضل المخطوطات الموجودة وأن قراءتها تتطلب أحياناً غير قليل من العناء والمشقة وذلك لخطها الدقيق الذى تصعب قراءته فى بعض المواضع . ولدينا بالاتحاد السوفيتى لحسن الحظ مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية جلبت من تركستان ويمكن على ضوئها تصحيح مخطوطة المتحف البريطانى ، وهى من ناحية القيمة أفضل من الطبعة المصورة رغماً عن أن الاثنتين ترتفعان إلى أصل واحد على ما يظهر(٣٧) ؛ وعلى نقيض المختصرات المتأخرة التى عملت للكتاب والتى فقدت إلى حد كبير قيمتها العلمية حالياً فإن «كتاب الأنساب » للسمعانى سيبقى على أغلب الاحتمال محتفظاً على الدوام بقيمته فيما يتعلق بالمسائل التاريخية ، والجغرافية المرتبطة ببلاد ما وراء النهر .

318

وأحد السابقين لياقوت مباشرة قد أفاد ياقوت كثيراً من مصنفه ولكن لايمكن اعتباره عالماً على الإطلاق بل رحالة ، ورحالة ذا أهداف معينة ، وهو على الهروى (توفى عام ٦١١ هـ = ١٢١٥) ؛ وكما تدل نسبته فأصله من هرات ولكنه ولد بالموصل وارتبطت حياته بالبلدان الغربية للعالم الإسلامى(٣٨) . وقد أمضى معظم حياته فى التجوال حتى لقب « بالسائح » ، ولكن تجواله لم يكن فى طلب العلم أسوة

بعدد من الجغرافيين المعروفين لنا بل فى زيارة أضرحة الأولياء والمقامات الكثيرة التى سمع بها . وهذه التجوالات تقف أنموذجاً حياً لتلك الرياضة الروحية التى سيطرت بمرور الزمن على دوائر عديدة والتى عرضها لنا بالكثير من المهارة جولدتسهر Goldziher[٣٩] . وفى أواخر أيام حياته تمتع الهروى بنفوذ كبير لدى والى حلب وهو أحد أبناء صلاح الدين الأيوبى ، وشيد له الأمير مدرسة توفى بها ؛ وقد رأى قبره ابن خلكان[٤٠] .

ونظراً لأنه اتخذ فى تجواله مسوح صوفى متسول فقد استطاع أن يحصل على ما يقيم أوده فى الطريق مستغلا فى ذلك أحياناً معرفته بالسحر وجميع ضروب المخاريق . ويبدو اهتمامه بعرض الدنيا أنه كتب اسمه أو نقشه فى كل مكان زاره ، وقد أبصر ابن خلكان بعينى رأسه أمثلة لذلك بعد نصف قرن من هذا[٤١] .

وعلى أية حال فقد كان الهروى كاتباً نقالة يرتبط اسمه | ببعض المصنفات تارة من طراز «كتب الزيارات» 319 المعروفة لنا وهى أشبه بمرشـــد للحجاج ، وطوراً من طراز آخر معروف لنا أيضاً وهو طراز «العجائب» . وأشهر مصنفاته «كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات» الذى وإن لم يطبع إلى الآن* إلا أن الاقتباسات والترجمات العديدة منه تسمح بتكوين فكرة صحيحة عنه[٤٢] . وتحيط بالكتاب ظاهرة فريدة هى أن المؤلف اعتمد على ذاكرته اعتماداً تاماً أثناء تدوينه له ، ذلك أن الجانب الأكبر من أوراق الهروى ومدوناته فقد أثناء كارثة حلت بسفينته قرب عكا فى عام ١١٩٢ ؛ وهو يستدرك على نفسه أحياناً بقوله إن معلوماته عن بعض الأماكن التى لم يستطع زيارتها شخصياً قد أخذها ممن زاروها .

وقد بدأ الهروى تجواله من حلب فكانت الشام أولى الأقطار التى زارها ووصفها ، وقد حدث هذا بعد أعوام قليلة من زيارة ابن جبير . وأقام أثناء ١١٧٣ — ١١٧٤ ببيت المقدس تحت سلطان الصليبيين ، وهنا تظهر لنا جدوى اهتمامه بالنقوش فقد دون نقوشاً ذات قيمة تاريخية كانت بمسجد عمر واختفت بعد ذلك . وزار على ممر الوقت أضرحة الأولياء وأماكن العبادة المعروفة بمصر وبلاد العرب والعرا وإيران والهند كما زار أيضاً أراضى الدولة البيزنطية والقسطنطينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول من آل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) وجرت له محادثة مع الإمبراطور كما يزعم . وفى صقلية سنحت له فرصة مراقبة ثوران بركان اتنا Etna فى عام ١١٧٥ ؛ وهو وإن لم يزر الحبشة إلا أنه وصف الأماكن المشهورة بها عمن زاروا تلك البلاد .

وقد أسفر تحليل نقاط مختلفة من كتاب أنه لا يجب رفض مادة الهروى بحجة أنه رجل سهل التصديق لما يقال ومخادع ؛ وهذا هو موقف كاتب جغرافى واسع الاطلاع لا يخلو من الحذر مثل ياقوت . فهو رغماً من أنه يشير إلى اسمه مرتين فقط[٤٣] إلا أنه كما ثبت من البحث الذى قام به بلوخ Bloch قد رجع إليه فيما يقرب من ثمانين مرة أمكن تحديدها بدقة تامة . والواقع أن ما نقله ياقوت عن الهروى يفوق

* نشره المعهد الفرنسى بدمشق سنة ١٩٥٣ بعناية جانين سورديل تومين Janine Sourdel - Thomine . (المترجم)

هذا بكثير لأن بلوخ قصر بحثه على النقاط المتعلقة بالشام وفلسطين . وصواب رأى ياقوت فى أنه يمكن استخراج معلومات مفيدة من مصنف الهروى قد وكده العلم الأوروبى الحديث ، على الأقل فيما يتعلق بتلك الأقسام التى أخضعت لأبحاث مستقلة وهذا ينطبق على المادة الضخمة التى يوردها الهروى عن الصليبيين وفى وصفه للقسطنطينية[٤٤] ولثوران بركان اتنا . ومن الطريف ملاحظة أنه رغماً من سهولة التصديق لدى الهروى فإنه قد ذهب لمراقبة ثوران بركان اتنا | 320 | ليتحقق بعينى رأسه من زعم أحد العلماء المحليين الذى ادعى أنه قد رأى السمندر (Salamandar) يقفز فى اللهب دون أن يحترق . وقد تمكن الهروى من أن يثبت أن فوهة البركان هى التى كانت تقذف فى الواقع بحجارة ملتهبة فى اتجاه البحر[٤٥] .

ومن المؤكد أن كلا من السمعانى والهروى ، رغماً من اختلاف منهجيهما ، كانا أستاذين كبيرين لياقوت ، أعنى بذلك أنه قد نقل عنهما كثيراً ؛ ويمكن أن نحكم إلى حد ما على درجة هذا النقل بفضل وجود المصنفات الأصلية بين أيدينا . وإلى جانب هذين المؤلفين نعرف أيضاً من القرن الثانى عشر ، وفى النصف الثانى منه بالذات ، عدداً من صغار المؤلفين السابقين لياقوت والذين تعتمد معرفتنا بهم فى الواقع على مجرد ذكر ياقوت لأسمائهم . وهم جميعاً نجوم ليست من الدرجة الثانية فحسب بل الثالثة ، غير أن عددهم الكبير يقف دليلا على الطابع المميز لذلك العصر وبرهاناً على أن ياقوت قد جهد فى استيعاب جميع المادة السابقة له حتى تلك التى لم تتمتع بأهمية من المكانة الأولى . والسلسلة الطريفة لهؤلاء المؤلفين ممن ذكرهم ياقوت بالذات تساعدنا على إلقاء ضوء ساطع على شخصيته فى الفصل القادم .

وفى مقدمة معجمه التى يعطى فيها سرداً مفصلا لمصادره يذكر ياقوت أنه قد رجع إلى كتاب أبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى « توفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥) بعنوان « فيما اختلف وائتلف فى أسماء البقاع » ، فهو بهذا إنما ينتمى إلى المصنفات من طراز « المختلف والمؤتلف» المعروف لنا بما فيه الكفاية والذى كثر استعماله فى ترتيب أسماء الأعلام فى مختلف فروع الأدب ، أى ليس فى الجغرافيا وحدها بل فى التاريخ وتاريخ الأدب الخ . ويقدر ياقوت هذا الكتاب تقديراً عالياً ويرى فيه « تأليف رجل ضابط قد أنفذ فى تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً »[٤٦] ؛ ورغماً من ذلك فقد اطلع عليه ياقوت فى موجز لأبى موسى محمد بن عمر الأصفهانى[٤٧] (توفى عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥) الذى مر بنا شخصه فى صدد آخر ، وهو من رواة الأحاديث المشهورين[٤٨] وأهم من ذلك أنه وضع ذيلا لمعجم الأنساب لابن القيسرانى[٤٩] . ويتضح لنا من هذا المثال أن اهتمام هذه الجماعة من العلماء كان موجهاً قبل كل شىء إلى ما يسمى « بعلم الرجال » (أى رواة الأحاديث) . وإلى جانب هذا عرف ياقوت | 321 | ملخصاً آخر لكتاب الإسكندرى عمله أبو بكر محمد بن موسى الحازمى[٥٠] (توفى عام ٥٨٤ هـ = ١١٨٨) ، وهو كسابقه كان أيضاً من رواة الأحاديث[٥١] ولاشك أن اتجاهه كان مشابهاً لاتجاه أولئك . وقد قدر ياقوت مصنفه تقديراً عالياً فى بادئ الأمر ولكن عندما تعرف على مسودة أبى موسى تأكد لديه أن الحازمى

« قد اختلسه وادعاه واستجهل الرواة فرواه »[٥٢] . ومن الممكن جداً أن يتصل بهذا المصنف مصنف آخر للخازمى محفوظ فى مخطوطة باستراسبورج يبحث فيه « ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة المنسوب إليها نفر من الرواة والمواضع التى ذكرت فى مغازى رسول الله »[٥٣] .

وقد وكد صدق رأى ياقوت فى هذه الحالة ناشره ڤستنفلد فقد تمكن بفضل معاونة رايت Wright من أن يكشف بالمتحف البريطانى عن مخطوطة كتاب الإسكندرى تحت عنوان يشير إلى النمط المعروف لنا جيداً وهو «كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار والنواحى المذكورة فى الأخبار والأشعار[٥٤] » . ومن ثم فيجب أن نبصر فيه معجما جغرافياً من طراز معاجم اللغة ورجال الحديث وضع خصيصاً لتوضيح « المؤتلف والمختلف » من الأسماء ، وهو هائل الحجم ويضم حسب تعداد ڤستنفلد ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين اسما[٥٥] . وإزاء انعدام المصادر اللازمة لإجراء مقارنة صحيحة فمن العسير القول إلى أى واحدة من مسوداته الثلاث المعروفة لياقوت ترجع هذه المخطوطة ؛ غير أنه لدى مقابلته بمتن ياقوت تبدو ظاهرة طريفة وهى أن جميع مادة رسالة الإسكندرى قد ضمنها ياقوت فى معجمه . ورغماً عن أن المقتطفات ترد تحت ثلاثة أسماء مختلفة إلا أنها تنطبق دائماً على مادة مخطوطة المتحف البريطانى[٥٦] ويتجاوز عدد الحالات التى ينقل فيها ياقوت عنه الألفين[٥٧] .

إن تفصيلنا الكلام على هذا الاتجاه فى المصنفات الجغرافية للنصف الثانى من القرن الثانى عشر أمر هام جداً بالنسبة لنا ، لأنه يقف دليلا على سعة اطلاع | ياقوت المدهشة[٥٨] من ناحية وبرهاناً 322 على النشاط الكبير فى ميدان الجغرافيا لذلك العهد من ناحية أخرى . ومهما كان نوع الحكم الذى يصدره الإنسان على هذه المصنفات ، التى بالتأكيد لا يمكن مقارنتها بالآثار الكبرى لمدرسة البلخى — الاصطخرى— ابن حوقل ، إلا أنه توجد ثمة نقطة للتشابه بين الطرفين. ذلك أنه من المستحيل أن يتجاهل الإنسان أن أحد تلك المصنفات ، مهما كانت قيمته من الدرجة الثانية ، قد خضع لثلاث مسودات مختلفة فى نطاق ثلاثين عاماً فقط . ونظراً لأن الكتاب مصنف عادى فإن هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون ظاهرة استثنائية ، إذ تحملنا على الافتراض بأن النشاط العلمى قد استمر قدماً حتى ولو لم يتصف بالابتداع والأصالة .

ويمثل أهمية خاصة فى القرن الثانى عشر الأدب الجغرافى باللغة الفارسية . وقد حدث أن بينا أكثر من مرة أن هذا الاتجاه يرتبط فى تطوره ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا العربية وأنه فى أى عرض هدفه الاستيعاب يجب فحصهما معاً جنباً إلى جنب. وقد حدث فى بعض العهود أن قدم لنا الأدب الفارسى آثاراً أعظم بكثير من العربية ؛ وهو وإن رجع فى مصادره إلى نفس المادة التى استقى منها الأدب العربى إلا أن تأثيره كان محدوداً لأن اللغة حالت دون انتشاره فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى فاقتصر على المشرق وحده . وقد أتيحت لنا الفرصة لنبصر كيف أن المصنفات الأولى قد مرت فى المشرق على تعديلات وتغييرات عديدة أو أصبحت أساساً ومصدراً للمصنفات المتأخرة . وبالطبع لم تنشأ أنماط جديدة أو أصيلة فى الأدب

الجغرافى باللغة الفارسية ، وبذا يمكن أن توزع جميع الآثار المبرزة للقرن الثانى عشر على الأنماط المعروفة لنا.

وأحد هذه المصنفات يذكرنا بمصنف ابن حوقل وإلى حد ما بمنهج وصف البلدان والمدن المختلفة كما تم تطبيقه فى المغرب فى «كتاب الاستبصار» الذى مر بنا الكلام عليه فى الفصل السابق لهذا ، ذلكم هو كتاب « فارسنامه » لابن البلخى ، وهو أحد الآثار الأدبية القليلة التى تمخض عنها عهد سلاجقة فارس[٥٩] . ولا نكاد نعلم شيئاً عن المؤلف نفسه ، غير أن اسمه يشير إلى انتماء أسرته إلى مركز من المراكز الثقافية القديمة فى المشرق الذى ينتمى إليه أيضاً مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية : وكان المؤلف « مستوفياً » (أشبه ما يكون برئيس حسابات) فى عهد أحد السلاجقة[٦٠] ، وهو الذى كلفه بوضع هذا المصنف الذى يمثل وصفاً تاريخياً جغرافياً مفصلا لولاية فارس بإيران ؛ ويمكن إرجاع تاريخ تصنيفه إلى العشرة الأولى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، | 323 | وهى الفترة بين عامى ١١٠٦ و١١١٦[٦١] . والكتاب يبدأ بقسم تاريخى مفصل عن ملوك إيران قبل الإسلام[٦٢] ؛ ورغماً من أن لوسترايج Le Strange ، وهو أول من لفت الأنظار إلى هذا الأثر[٦٣] ، يتشكك فى قيمة القسم التاريخى منه إلا أن نيكولسون Nicholson يعتقد أنه لايخلو من بعض الأهمية بصفته أقدم ماكتب نثراً باللغة الفارسية فى تاريخ تلك الحقبة وأنه بالإضافة إلى هذا لا يعتمد على تاريخ حمزة الأصفهانى وحده كما ظن لوسترانج بل على عدد كبير من المصادر الأخرى[٦٤] ؛

وقد أفرد فيه قسم ليس بالكبير لفتح العرب لفارس[٦٥] ، ولكن يلى هذا القسم الجغرافى القيم الموجود فى ترجمة علمية بقلم لوسترانج[٦٦] . ومضمون هذا القسم يقرب إلى حد كبير من كتاب ابن حوقل فى واحدة من مسوداته العديدة[٦٧] . أما تبويب الكتاب فيتبع أيضاً النموذج المعروف لنا جيداً ، فبعد عرض قصير للتقسيم الإدارى للولاية[٦٨] يرد وصف لنواحيها المختلفة[٦٩] وللطرق الرئيسية[٧٠] ثم استطرادات مختلفة عن القبائل التى تقطن الولاية[٧١] ، ويلى هذا الكلام على الخراج[٧٢] . وواضح من هذا أننا بإزاء تكملة واستمرار لأسلوب المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكن مع الاقتصار على وصف ولاية واحدة .

وعلى ما يظهر فإن الكتاب لم يكتسب صيتاً واسعاً ، وهو معروف حتى الآن فى مخطوطتين فقط وثيقتى الصلة ولكنهما مكنتا على أية حال من إخراج الترجمة التى ذكرناها للقسم الجغرافى وأيضاً الطبعة الكاملة للمتن[٧٣] . أما فى محيط الأدب الفارسى فلا شك أن المؤلف قد ترك أثراً كبيراً ، ففى القرن الرابع نقل عنه كثيراً حمد الله قزوينى[٧٤] ، وفى القرن الخامس عشر أفاد منه كثيراً حافظ آبرو[٧٥] .

وبعهد آخر سلاجقة العراق طغرل الثانى (٥٧٣ هـ – ٥٩٠ هـ = ١١٧٧ – ١١٩٤) يرتبط مصنف جغرافى لأحمد طوسى يعكس نمطاً آخر فى الجغرافيا[٧٦] ، ذلكم هو أول كتاب باللغة الفارسية فى فى الكوزموغرافيا[٧٧] | 324 | وهو يذكّر بعض الشىء بالمصنف المعاصر له فى المغرب للغرناطى ولكن يغلب

عليه طابع أكثر جدية فضلا عن أن مادته أحفل بكثير من مادة الغرناطي[٧٨]. وعنوانه « عجائب المخلوقات » ، بل وتبويبه فى عشرة فصول (« قانون وأركان »)[٧٩] يكشف عن شبهه الشديد بمصنف زكريا القزويني الذى ظهر بعد قرن من ذلك[٨٠] . وكان تأليفه كما يجب أن يفترض من التاريخ الذى يسوقه المؤلف هو حوالى عام ١١٨٠[٨١] ؛ ويستند على محض خطأ التاريخ الذى يذكره حاجي خليفة (وهو عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠)[٨٢] ، وهو خطأ وجد طريقه إلى بعض المؤلفين الأوروبيين . أما عن المؤلف نفسه فلا نكاد نعلم شيئاً ، ويرد اسمه فى الغالب على أنه محمد بن محمود بن أحمد[٨٣] ويلوح أن أصله من همدان ، ودليل ذلك أشادته بتلك المدينة مما يفوق كثيراً ماكتبه عن طوس[٨٤] .

ودليل آخر على ارتباطه بموطنه استعماله الكثير لابن الفقيه وذلك فى مسودة تشبه إلى حد كبير مخطوطة « مشهد »[٨٥] المعروفة لنا . كذلك يكشف عن معرفة مباشرة كهذه بابن فضلان رغماً من أنه ينقل روايته بالكثير من الخلط[٨٦] ؛ ومعروفة لديه أيضاً مذكرات أبى دلف . وكما هو الأمر فى كثير من الأحايين مع جغرافيي العهود المتأخرة فإن المعلومات المتعلقة بالقرنين الحادى عشر والثانى عشر يسودها الكثير من الاضطراب لدى المقارنة بما عليه الحال مع العهد السابق لذلك الذى توجد عنه مصادر يمكن الاعتماد عليها أكثر[٨٧] .

والعدد الهائل لمخطوطات هذا المصنف الموجودة بأوروبا قد لفت النظر إليه ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ شعوب أوروبا الشرقية ؛ وقد حاز قصب السبق فى الكشف عن قيمته بالنسبة لهذا الموضوع المستشرق فون هامر Von Hammer الذى نقل عنه مقتطفات عديدة فى مؤلفه الذى ظهر عام ١٨٢٥ عن « أصل الروس» Sur les Origines Russes[٨٨] . وقيمة هذه المقتطفات كما هو الأمر دائماً ليست عالية ولكنها لعبت دورها فى البحث العلمى ، ففى عهد فرين Frähn لم تكن توجد مخطوطة لكتاب طوسى بسان بطرسبرغ فاضطر إلى الاستعانة فى بحثه المشهور عن ابن فضلان بما نقله هامر[٨٩] . وفقط بعد أعوام طويلة من ذلك تمكن دورن Dorn من الاستعانة بأشهر مخطوطة لطوسى بأوروبا وهى مخطوطة غوتا Gotha[٩٠]، وذلك فى أبحاثه عن بحر قزوين وسواحله . ويمتلك معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية فى الوقت الحاضر | مخطوطتين للكتاب لم تفحصا بعد فحصاً كاملا دقيقاً[٩١] .

وفى بعض مخطوطات طوسى ، خاصة مخطوطة غوتا ، توجد خارطات يبلغ عددها ستة فى العادة ، وهى لبحر قزوين والبحر الأبيض المتوسط وبلاد الجبال والسند والخليج الفارسى وبلاد العرب[٩٢] . ولعله من فحصها يمكن الافتراض بأنها ذات علاقة ما « بأطلس الإسلام » ؛ وقد لاحظ دورن عند نشره لخارطة بحر قزوين أنه مرسوم فى الواقع على طريقة الاصطخرى[٩٣] . غير أن أفضل الخبراء قاطبة بالكارتوغرافيا العربية ، وهو كونراد ميلر K. Miller الذى نشر جميع هذه الخارطات فى أطلسه نقلا عن مخطوطة غوتا[٩٤] المذكورة قرر أن « خارطات طوسى فريدة فى نوعها وغير عادية[٩٥] » :

وفى الواقع أن خارطتى الجبال وبحر قزوين فقط هما اللتان روعى فى تخطيطهما بعض العناية والدقة ، أما بقية الرسوم فتمثل فى الغالب مسودات وتخطيطات أولية .

وثمة مصنف فى الجغرافيا العامة باللغة الفارسية يسوقنا إلى عهد قريب من عهد المغول وهو كتاب « جهان نامه » لمحمد بن نجيب بكران الذى وضعه لآخر شاهات خوارزم إلا واحداً وهو السلطان محمد (٥٩٦ هـ = ٦١٧ هـ = ١٢٠٠ — ١٢٢٠)(٩٦) . وهو محفوظ فى مخطوطتين وأصبح معروفاً لدينا بالذات لأنه يدخل ضمن المجموعة الشهيرة التى كان يمتلكها طومانسكى Tumanski والتى تضم أيضاً مخطوطة « حدود العالم » المجهولة المؤلف . وتحمل مخطوطة « جهان نامه » فى هذه المجموعة تاريخ ٦٦٣ هـ — ١٢٦٥(٩٧) ، أى أنه قد تم نسخها بعد خمسين عاماً تقريباً من تأليف الكتاب*. ويرجع إلى طومانسكى نفسه الفضل فى التعريف بها لأول مرة وبشذرات منها ، ثم أضاف بارتولد مراراً إلى هذه الشذرات اعتماداً على المخطوطة الباريسية(٩٨) . والكتاب يمثل مصنفاً من النوع العادى فى جغرافيا العالم موجزاً بعض الشىء مما قد يحمل على الاعتقاد بأن المقصود به ليس سوى تعليق على مصور جغرافى (خارطة) لم يصلنا(٩٩) . غير أن بعض مادته عن آسيا الوسطى بالذات يمثل أهمية ما ؛ وقد لاحظ بارتولد فى وقته أنه يقدم تفاصيل قيمة عن جغرافيا ماوراء النهر وتاريخ القراخطاى(١٠٠) ؛ وقد ضمنت منه فى الآونة الأخيرة شذرات فى مجموعة المواد الخاصة بتاريخ التركمان(١٠١) . وبالرغم من أنه لا يمثل أهمية خاصة فى التاريخ العام لتطور الأدب الجغرافى 326 فإن مصنف محمد بكران لم يُهْمَل على أية حال فى نطاق المحيط الفارسى لهذا الأدب فرجع إليه فى القرن الخامس عشر حافظ آبرو (١٠٢) ، وفى نهاية ذلك القرن يقدم لنا سعيد جرجانى موجزاً له فى القسم الثانى من كتابه الذى يحمل العنوان التقليدى «مسالك وممالك »(١٠٣) .

ويوشك « جامع الحكايات ولوامع الروايات» لمحمد عوفى أن يكون أهم مصنف باللغة الفارسية بالنسبة للعصر السابق للغزو المغولى وذلك فيما يتعلق بمادته الجغرافية(١٠٤) رغماً من أنه لم يقصد به الجغرافيا فى حد ذاتها . ويرجع وقت تأليفه إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر. وعوفى أصله من بخارى وكان يفخر بأن جده الأعلى هو عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل(١٠٥) ؛ غير أن شهرة عوفى ومكانته إنما تعتمدان على كونه مؤلفاً كبيراً باللغة الفارسية . ونال انتشاراً واسعاً مؤلف له باللغة الفارسية أيضاً يغلب عليه طابع التاريخ الأدبى هو « لباب الألباب » . وقد أمضى عوفى أيام صباه ببلاد ما وراء النهر خاصة بسمرقند ولكنه أقام أيضاً بخوارزم ونيسابور ؛ ونظراً لاضطراب الأحوال بموطنه وتوتر أخبار الغزو المغولى فقد هاجر عوفى إلى بلاط سلطان البنجاب ناصر الدين قباجه وبعد هلاكه عام ٦٢٥ = ١٢٢٨ على يد ايلتتمش سلطان دلهى (٦٠٧ هـ = ٦٣٣ — ١٢١٠ — ١٢٣٦) التحق عوفى ببلاط الأخير ، وهو أول

* طبع بموسكو طبعة مصورة (facsimile) فى عام ١٩٦٠ . (المترجم)

أمير هندى يعترف به رسمياً خلفاء بغداد بالرغم من أن هذا الاعتراف قد تم قبل قليل من زوال الخلافة العباسية على أيدى الغزاة المغول(١٠٦) .

وإلى وزير ايلتتمش رفع عوفى مصنفه « جوامع الحكايات » الذى بدأ تأليفه قبل عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ وأتمه بعد عام ٦٣٣ هـ=١٢٣٦ . ورغماً من أن متن الكتاب لم يطبع إلى الآن طبعة علمية* إلا أنه يمكن تكوين فكرة واضحة عنه ليس فقط من الشذرات المتفرقة المنقولة عنه أو من طابعه العام بل أيضاً بفضل البحث الوافى الذى كتبه باللغة الإنجليزية محمد نظام الدين وقدم فيه تحليلا لا مثيل له لمضمون الكتاب يمتاز بالعمق والتفصيل(١٠٧) .

ومصنف عوفى ينتمى إلى ذلك الطراز من المجموعات الأدبية الذى انتشر بشكل خاص فى الأدب العربى ، أقصد مجموعة القصص التاريخية واليومية التى يقصد بها النصيحة والموعظة الحسنة وأحياناً الإمتاع . وهو يذكرنا من ناحية بكتاب التنوخى « الفرج بعد الشدة » الذى مر الكلام عليه ؛ ولاغرو فقد ترجم عوفى نفسه هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية حوالى عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣(١٠٨) ، | بل إن بعض 327 قصصه يتكرر فى مجموعته هذه . ولايخلو مصنف عوفى من درجة معينة من التناسق ولو أنه تناسق ذو طابع خارجى إلى حد كبير ، فهو ينقسم إلى أربعة أقسام يضم كل واحد منها خمسة وعشرين باباً ويختلف عدد الحكايات من باب إلى آخر . ويبلغ عدد الحكايات وفقاً لتعداد نظام الدين ألفين ومائة وثلاث عشرة حكاية(١٠٩) . ويضم القسم الأول منه الحكايات عن حكمة الخالق ومعجزات الأنبياء والأولياء وتاريخ الملوك والخلفاء وسير مشاهير الرجال . أما الثانى ففى بيان الأخلاق الحميدة والسِّير المرضية ، والثالث فى الأخلاق المذمومة ؛ أما الرابع فيرد فيه الكلام على الأحوال الغريبة وعجائب البحر والبر وطبايع الحيوان وطرف وملح لمشاهير الناس . وهكذا كما هو الحال دائماً مع المجموعات الأدبية نبصر فى كتاب عوفى موضوعات شتى تتابع داخل الباب الواحد دون أى نظام ، فيقابلنا إلى جانب التاريخ الأدب والنصائح والأخلاق بل وحتى ، كما يقول سارطون ، الكوزموغرافيا وعلم الحيوان(١١٠) .

وكمية المادة الجغرافية فيه ليست بالمهملة ، بل وأحياناً ذات قيمة كبرى . فإلى جانب النقاط العديدة المنتشرة خلال الأقسام المختلفة للكتاب تفوز الجغرافيا بمعناها الواسع بالبابين السادس عشر والسابع عشر من القسم الرابع(١١١) وتبدو خلال ذلك محاولة ملحوظة لعرض المادة فى صورة منظمة . ويرسم لنا فيهما عوفى لوحة عامة للعالم كما يراه الجغرافيون ويزودنا بمعلومات عن بعض الشعوب التى تقطن «الأقاليم» المختلفة . ويبدأ الفصل السادس عشر بفذلكة قصيرة فى الجغرافيا الطبيعية ، ويلى ذلك تقسيم العالم إلى سبعة « أقاليم » ؛ وفى هذا يتفق عوفى كثيراً أو قليلا مع المسعودى من الجغرافيين السابقين والقزوينى والدمشقى من الجغرافيين اللاحقين . ويتلو هذا الكلام على الصين وعاصمتها القديمة وفنها وحضارتها ،

* ظهر الجزء الأول منه باعتناء الدكتور محمد معين ، وذلك ضمن منشورات جامعة طهران . (المترجم)

وتتفق بعض معطياته فى هذا الصدد مع رواية أبى دلف المعروفة لنا . وتظفر بأهمية كبرى الروايات التالية لذلك عن القبائل التركية فى أواسط آسيا وشمال شرقى أوروبا . ويبدأ الفصل السابع عشر بالجغرافيا التاريخية للروم أى الدولة البيزنطية مع وصف لنظامها العسكرى والإدارة البلدية والطقوس الدينية والعلم اليونانى فى آسيا الصغرى . ووصف جزيرة العرب الذى يلى هذا تصحبه حكايات عن حضارة العرب قبل الإسلام وعن حياتهم البدوية . أما روايته عن الهند فتقتصر على ملاحظات قصيرة عن انتشار السحر فيها وعن التنوع الكبير فى شعوبها وأديانها . ويلى هذا قسم عن الحبش وأخلاقهم وعاداتهم ، ويختم هذا الفصل برواية مفصلة عن جزر بحر قزوين ومنطقة البلغار القريبة منه وقبائل أخرى ، وعن الرمال المتحركة وبلد النساء .

وكما يبصر من هذا السرد فالمعطيات الواقعية فى القسم الجغرافى تسير جنباً إلى جنب مع التفاصيل الأسطورية ؛ والمصنف فى مجموعه 328 يمثل أنموذجاً جيداً لكتاب وضع من أجل المطالعة الأدبية ولكنه ينتحى بعض الشىء ناحية العجائب Mirabilia . ومجموع الروايات الصحيحة فيه خاصة المتعلقة بالتاريخ القديم لشعوب اتحادنا السوفيتى ليس بالضئيل ؛ ويجب أن نتذكر دائماً أن عوفى ، كما وضح ذلك لأول مرة بارتولد ، هو المؤلف الإسلامى الوحيد الذى يورد اسم الأمير ﭬلاديمير Vladimir (١١٢) عند الحديث على اعتناق الروس للمسيحية . كذلك بين ماركڤارت Markwart الأهمية الفريدة لروايات عوفى عن شعوب بلغار ويورا Youra وسكان شمال أوروبا(١١٣) ، كما لاتخلو من بعض الأهمية مادته عن قبائل شرقى آسيا والقبائل التركية ؛ وقد أثبت بارتولد أنه أول كاتب فارسى يذكر الأويغور Uighur(١١٤) . بل وحتى فيما يتعلق بالشرق الأقصى توجـد لديه نقاط لاتخلو من الأهمية فقد لفت شيفير Schéfer الأنظار إلى قصته عن السادة العلويين الذين هربو بأنفسهم من اضطهاد الأمويين إلى الصين واتخذوها موطناً لهم وأصبحوا بالتالى حلقة وصل بين الصين وبلاد الإسلام (١١٥) .

هذا التنوع فى المادة التى يرويها عوفى يقف دليلا على العدد الهائل من المصادر التى رجع إليها واستقى منها ، وقد حلل لنا محمد نظام الدين(١١٦) بالكثير من المهارة نيفاً وأربعين منها مما أمكن إثباته دون ريبة . أما فيما يتعلق بمادته الجغرافية على وجه الخصوص فإنه لن يتأتى تكوين فكرة عنها إلا إذا أفردت لذلك أبحاث ودراسات مستقلة . ويبدو جلياً فى الأقسام العامة للكتاب تأثير مصنفات كمصنفات الجاحظ(١١٧) والبيرونى(١١٨) ، كما أن عدد المراجع التاريخية التى استقى منها مادته كبير للغاية(١١٩) . غير أنه يقتصر فى الفصول الجغرافية على الإشارة الغامضة إلى «كتاب الطبائع » و« مسالك وممالك »(١٢٠) ؛ وإذا أمكننا أن نبصر فى الأول بالكثير من الصواب « طبائع الحيوان » للمروزى(١٢١) من القرن الحادى عشر ، وقد مر عليه الكلام فى موضعه من الكتاب ، فإن القول بأن أى مصنف من نوع المسالك والممالك يقصد عوفى بالذات أمر عسير للغاية بإزاء العدد الضخم من المصنفات فى ذلك الباب . وكما هو

الأمر دائماً مع مصنفات القرنين الثانى عشر والثالث عشر فيوجد ما يبرر الافتراض بأنه قد استعمل آثار المؤسسين الأصليين لمدرسة القرن العاشر بصورة أقل مما استعمل مصنفات المتأخرين من هذه الجماعة :

ومؤلف عوفى يعتبر بحق مصنفاً كلاسيكياً فى الأدب الفارسى عرفه جميع الكتاب المتأخرين تقريباً ، ونخص منهم بالذكر حمد الله قزوينى وحافظ آبرو اللذين سنلتقى بهما فيما بعد . 329 هذا وقد ترجم « جوامع الحكايات » أكثر من مرة إلى التركية ، وممن ترجمه ابن عربشاه المشهور(١٢٢) (القرن الخامس عشر) كما رجع إليه كمصدر عام عدد كبير من البحاثة المعاصرين فى مختلف الميادين(١٢٣) . وهو هام بالنسبة لنا لأنه يبين مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية بين غير المتخصصين من أهل الأدب فى بداية القرن الثالث عشر ، أى قبل قليل من الغزو المغولى .

ونظرة عامة إلى القرن الثانى عشر بالمشرق تبين لنا أنه لم يأت فى الواقع بأية أنماط جديدة أو آثار كبرى كما حدث فى الماضى ، غير أن هذا بالتأكيد لا يعنى أنه لم تظهر فيه آثار لاتزال محتفظة بأهميتها العلمية إلى أيامنا هذه ، إذ يكفى فى هذا الصدد الإشارة ولو إلى السمعانى وحده ؛ وغفير عدد تلك المصنفات التى لم تستخرج منها بعد المواد التى تخص كل فرع من فروع العلوم . كما أن هذا العصر هو أول عصر تكتسب فيه المصنفات الفارسية أهمية أكثر من ذى قبل بل وتتمتع أحياناً بدرجة عالية من الأصالة . ولكن أن يُستنتج من هذا أن الأدب الفارسى قد تفوق على الأدب العربى فى ذلك العصر ، على الأقل فى محيط الجغرافيا كما حدث بالتالى فى محيط التاريخ ، لهو أمر سابق لأوانه حقاً . بل على العكس من هذا يقدم لنا القرن التالى لهذا عدداً من المصنفات الكبرى ، إن ليس فى أنماط جديدة فعلى الأقل بأهداف جديدة : ويشغل المكانة الأولى بينها دون منازع سواء من ناحية الأسبقية الزمنية أو القيمة الذاتية مؤلف ياقوت الذى يقدم لنا جماع ما عرف فى هذا الميدان فى الحقبة التاريخية السابقة للغزو المغولى ، ويحتل مكانة رفيعة لا مثيل لها سواء فى محيط الرحلات أو الجغرافيا بفروعها الفلكية واللغوية والوصفية :

حواشي الفصـــل الحادى عشر

(١) Brockelmann, GAL, I, p. 473, No 4; SBI, p. 863 — Kramers, EI, EB, p. 69 –
Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 — Sarton, Introduction, II, p. 204-205.
عن مقالات فيدمان راجع : Sarton, Introduction II, p. 205

(٢) Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 203 — Sarton, Introduction, II, p. 204 –

(٣) Wiedemann, Beitrage, LXX, p. 204 –

(٤) Kramers, EI, EB, p. 69 — Brockelmann, GAL, SBI, , p. 863 –

(٥) Nallino, Battäni, I, p. LXVI LXVII –

(٦) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص١٧٠ ، رقم ١٢١٢٤

(٧) Sarton, Introduction, II, p. 205 –

(٨) Nallino. Battäni, I, p. 169-172 (ترجمة) p. 173-175 (نص) –
راجع أيضا فيران : Ferrand, Relations, I, p. 170-171

(٩) راجع : حدود العالم ، ص ٢٨

(١٠) Ferrand, Notes, p. 17-20 –

(١١) حدود العالم ، ص ٧

(١٢) Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 — Sorton, Introduction, II p. 205 –

(١٣) Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 205-209 –

(١٤) شرحه ص ٢٠٩ — ٢١١

(١٥) Brockelmann, GAL, I, p. 289-293, No 12; SBI, p. 507-513 — Brockelmann, EI, IV, p. 1305 — 1307 — Sarton, Introduction, II, p. 271-272 — Reinaud, –
وأيضاً بحثه : Introduction, p. CV-CVI; Notice sur les dictionnaires, p. 78-82

(١٦) ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ص ٦

(١٧) يينبول فى كتاب : Salverda, p. 26-28

(١٨) شرحه ، ص ١٤ — ١٨

(١٩) شرحه ، ص ١٨

(٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ : له كتاب لطيف فى ذلك .

(٢١) Heer, p. 30, I — Salverda, p. 8 –

(٢٢) Salverda –

(٢٣) شرحه ، ص ٩

(٢٤) – Brockelmann, GAL, I, p. 329 - 330 No 2; SBI, p. 564 - 565 — Sarton, Introduction, II, p. 444 - 445 — Margoliouth, Al - Sam'ani, المقدمة p. 1 - 5 Bartold, Turkestan, II, p. 35 - 36 — Beliaev, MITT, p. 33 - 34 — Reinaud, Introduction, p. CX - CXI.

(٢٥) – Heer, p. 39, b

(٢٦) عن نسب السمعانى راجع : Margoliouth, Al - Sam'ani, p. 5

(٢٧) فهرست مصنفات السمعانى ، شرحه ص ٦

(٢٨) – Reinaud, Introduction, p. CVIII — CIX

(٢٩) – Brockelmann, GAL, I, p. 165, No 12 — Heffening, Al - Darakutni, p. 40-50

(٣٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p, 275 No 12

(٣١) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 602, No 4

(٣٢) – Brockelmann, GAL, p. 355 - 356, No 8; SBI, p. 603

(٣٣) – De Jong, Kitab al - ansab

(٣٤) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ =) – Schefer, Noiice, p. 11

(٣٥) (فهرس فستفلد غير تام : المعجم . الجزء السادس) – Heer, p. 39, note 5.

(٣٦) اسمه الكامل : « كتاب اللباب فى تهذيب الأنساب »

(٣٧) – Beliaev, MITT, p. 34

(٣٨) – Reinaud, Introduction, p. CXXVII – CXXIX – Brockelmann, GAL, I,p 478, No 8, SBI, p. 879 — Sarton, Introduction, II, p. 413 - 414 — Amari, (Nallino) I, p. 51 - 52, 199; II, p. 500 — Mednikov, Palestina. Translation, p. 948 - 966 – Schefer, Archives p. 587 - 609 – Bloch.

(٣٩) – Goldziher, Muham. Studien, II, p. 318

(٤٠) – Bloch, p. 14

(٤١) شرحه ، ص ١٣

(٤٢) راجع : حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ ، رقم ٧٥٠

(٤٣) – Bloch, p. 12

(٤٤) – Hartmann, DI, XIX, p. 296 - 298

(٤٥) – Amari Bibl. ar - Sic., I p. 136 — Amari (Nallino) II, p. 505

(٤٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ .

(٤٧) شرحه

(٤٨) – Brockelmann, GAL, I, p. 365-366, No, 11; SBI, p. 625

(٤٩) المتن ص ١٦٧ – ٢٢٤ – De Jong, Kitab al-ansab, p. XIV-XVIII;

(٥٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٨

(٥١) – Brockelmann, GAL, I, p, 366, No 12; SBI, p. 605

(٥٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ – ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ٣٢ – ٣٣

(٥٣) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 605, No 13, 3

(٥٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ . غير موجود لبروكلمان .

راجع : Catalogus, II, p. 608, No 811

(٥٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ – الفهرست ص ٣٤ – ٤٥

(٥٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٤ .

(٥٧) – Mednikov, Palestina, II, 2 p. 969, note 1

(٥٨) راجع : Heer, p 19 No 1

(٥٩) – Kramers, EI, EB, p. 69-70

(٦٠) – Nicholson, The Farsnama, p. X

(٦١) – Sarton, Introduction, II, p. 221

(٦٢) – Nicholson, Farsnama p. 8-113

(٦٣) – Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 4-5

(٦٤) – Nicholson, The Farsnama, p. XXII-XXIV

(٦٥) شرحه ، ص ١١٣ – ١١٩

(٦٦) – Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 17-30, 311-339, 865-889

(٦٧) – Kramers, EI, EB, p. 69-70

(٦٨) – Nicholson, Farsnama, p. 119-120

(٦٩) شرحه ص ١٢١ – ١٦٠

(٧٠) شرحه ص ١٦٠ – ١٤٦

(٧١) شرحه ص ١٦٤ – ١٧٠

(٧٢) شرحه ١٧٠ – ١٧٢

(٧٣) شرحه

(٧٤) – Le Strange, Deseription of The Province of Fars, p. 1-2 — Sarton, Introduction, II, p. 221

(٧٥) – Le Strange, شرحه , p. 3

(٧٦) – Sarton, Introductian II, p 413

(٧٧) – Ruska, OZ, p. 596

(٧٨) – Kramers, EI, EB, p 69

(٧٩) – Rosen, Coll, Scient., III, p. 144

(٨٠) – Kramers, EI, EB, p. 69

(٨١) – Ruska, OZ, شرحه

(٨٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ١٨٨ ، رقم ٨٠٧١

(٨٣) (يتشكك فى صحة الإسم) – Rosen, Coll. Scient., III, p 144

(٨٤) شرحه ص ١٤٥ . أثبت الإسم الحقيق : N. D. Miklukho - Maklai p. 186 - 188

(٨٥) – Beliaev, MITT, p. 20

(٨٦) – Kovalevski, p. 42

(٨٧) – Volin, Zap. IVAN, VI, p. 79

(٨٨) المتن ص ٩٦ – ١٠٢ – Hammer, Sur Les orig . russes, p. 32 - 39

(٨٩) – Frahn, Ibn Foszlan, p. LIX

(٩٠) – Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 364 - 381

(٩١) – Kovalevski, p. 42

(٩٢) – Sarton, Introduction, II, p. 413

(٩٣) – Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 365

(٩٤) – Miller, III/IV, No V, Tabl 12, No 5 (The Mediterranean); No I, Tabl. 21, No 10 (Arabia); No II, Tabl. 22, No II (Persian Sea); No XII, Tabl 36 No 13 (Sind); No XIV, Tabl. 41, No 6 (Djibal) ; No XVI, Tabl, 47, No 6 (Caspian Sea)

(٩٥) – Miller, I, I, p. 21

(٩٦) – Kramers, EI, EB, p. 70

(٩٧) حدود العالم ، p. VII (يوجد خطأ فى التاريخ الميلادى)

(٩٨) – Tumanski ZVO IX, p. 302 - 303 — Same, ZVO, X, p. 124

(٩٩) – Romaskevich, Djehan - name, p. 49

(١٠٠) – Barthold, Turkestan, p. 36 - 37

(١٠١) – MITT, I, p. 349 - 350

(١٠٢) – Tumanski ZVO, X, p. 124, note I (Bartold)

(١٠٣) - Romaskevich, Djehan - Name, p. 49

(١٠٤) - Browne, Literary History of Persia, II, p. 477 - 479 — Sarton, Introduction. II, p 602 -Krymski, Istoria Persii, II, p. 22 - 25 —Krymski, Istoria Persii, (Ukranian) I, p. 11, No 25

(١٠٥) توفى فى عام ٣١ للهجرة = ٦٥٢ — Houtsma, EI, I, p. 57

(١٠٦) - Awfi, EI. I, p. 537 - 538 — Iltutmish, EI, II, p 501

(١٠٧) محمد نظام الدين

(١٠٨) شرحه ص ١٤ — ١٨ ، ٩٤

(١٠٩) شرحه ، ص ١٩ ، ١٤٠ — ٢٦١

(١١٠) - Sarton, Introduction, II, p. 602

(١١١) تحليل للمحتويات لدى محمد نظام الدين ، ص ١٠٢ — ١٠٣ ؛ وبالتفصيل فى نفس المرجع ص ٢٤٧ — ٢٤٩

(١١٢) راجع أيضاً : - Bartold, ZVO, IX, p. 262 - 267; CB, I, p. 39 - 50

(١١٣) - Markawrt, Bericht p 261 - 334

(١١٤) - Barthold, Turkestan, p. 36

(١١٥) - Schefer, Notice, p. 3 - 4 — Muhammad Nizamuddin, p. 247

(١١٦) - Muhammad Nizamuddin, p. 35 103

(١١٧) شرحه ، ص ٩٦ — ٩٩ ، رقم ٣٤

(١١٨) شرحه ، ص ٣٧ ، رقم ١

(١١٩) شرحه ، حسب القائمة صفحات ٣٥ — ٣٦ ، رقم ٣ — ٤ ، ٨ — ١٧ ، ٣٠ ، ٣٦

(١٢٠) شرحه ص ١٠٢

(١٢١) راجع : شرحه ص ٨٨ — ٨٩ ، رقم ٢٩

(١٢٢) شرحه ص ٣١

(١٢٣) راجع الأبحاث الهامة إلى عام ١٩٢٩ لدى : Muhammad Nizamuddin, p. 31 - 32

الفصل الثانى عشر

ياقوت ومؤلفو النصف الأول للقرن الثالث عشر

330 يعتبر الغزو المغولى حداً فاصلا فى تاريخ القسم الشرقى من العالم العربى ؛ فابتداء من تلك اللحظة أخذت مراكز الحضارة الإسلامية تتزحزح بسرعة نحو الغرب ولم تلبث بغداد التى كانت حتى تلك اللحظة محتفظة بمكانتها كمركز علمى رغماً عن التدهور السياسى للخلافة العباسية ، أقول لم تلبث بغداد أن تنازلت عن ذلك المركز لحلب ودمشق ثم بصورة نهائية للقاهرة . ومن الممكن عمل خلاصة وافية لكل فرع من فروع العلوم فى العالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث عشر ، غير أنه لم يحدث فى الواقع أن اهتم العلماء لذلك باستثناء ياقوت ؛ فهو قد أحس إحساساً صادقاً بالحاجة إلى مرجع عام يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة لعصره . وقد حدث فعلا أن هلك جزء كبير من المادة التى كانت تحت تصرفه فى خضم المصيبة الكبرى التى اجتاحت العالم الإسلامى .

وأهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ، فهو فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الإسلامى تحت حكم العباسيين ، رغماً من أنها كانت فى واقع الأحوال أثراً من آثار الماضى . وهو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسطى[1] . ولتكوين فكرة عن حجمه يكفى أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعاً وتسعين صفحة . وهو جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (Ethnology علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبى (Folklore) والأدب الفنى وذلك فى القرون الستة الأولى للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه ، وذلك بين صغيرها وكبيرها ، من الخمسة آلاف[2] استطاع الناشر أن يحقق منها ما يقرب من ثلاثة آلاف من المصادر الأخرى .

ورغماً من القيمة الأدبية الكبرى لهذا الأثر فقد تعرف عليه العلم الأوروبى بعد مدة طويلة من تعرفه على الإدريسى وأبى الفدا خاصة ، وهذا الأخير هو الذى استمرت له السيطرة دون انقطاع إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً . حقاً إن اسم ياقوت قد ورد ذكره من وقت لآخر لدى علماء مدرسة الاستشراق الهولندية مثل غوليوس Golius فى طبعته للفرغانى (١٦٦٩) أو غرونوفيوس Gronovius (١٧٠٣) الذى لفت إليه الأنظار فى بحثه عن « نشأة وتطور وفائدة الجغرافيا »[3] 332

De Geographiae Origine, Progressu ac dulcedine ، كما عرفه كوهلر Koehler الذى نشر الجزء الخاص بالشام من جغرافيا ابن الوردى* (١٧٧٦)(٤) . بيد أن الاهتمام بمؤلف ياقوت قد انبعث فى القرن التاسع عشر فقط عندما تسربت مخطوطاته إلى أوروبا بالتدريج ؛ ويرجع الفضل فى هذا قبل كل شىء إلى اثنين من علماء الشمال هما راسموسن Rasmussen (١٨١٤) وفرين Frähn (١٨٢٣) اللذان كانا أول من نقل عن المعجم القطعة المشهورة لابن فضلان ؛ وكان فرين بالذات هو أول من كتب عن شخص ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحثه كما أثبت روزن بقيمته إلى أوائل القرن العشرين . ومن قبل روزن حاول باربييه دى مينار Barbier de Meynard أن يبخس من تقييم فرين(٥) لشخصية ياقوت العلمية ولكن الخطوات التى تمت بالتالى فى دراسة الموضوع أثبتت خطل رأيه ، ولعله يمكن توضيح موقفه التشككى بأن المتن الكامل للمعجم لم ير النور إلا فى عام ١٨٦٠ . وقد وكدت الأيام صدق رأى فرين ، بل ورأى سنكوفسكى أيضاً ؛ والأخير عندما نشر ترجمته(٦) لرواية ياقوت عن تفليس (١٨٣٨)(٧) وصفه بأنه «كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة فى تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى(٨) . . . وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره(٩) » . أما عملية نشر المصنف بأجمعه فى عهد فرين فقد كانت أمراً بعيد المنال إذ حال دون ذلك ليس فقط العيوب الموجودة بالمخطوطات الثلاث المعروفة آنذاك (كوبنهاغن وبطرسبرغ وأوكسفورد) بل أيضاً الحجم الضخم للكتاب . ومرت فترة نصف قرن تقريباً قبل أن يفكر أحد فى تنفيذ ذلك المشروع ، ولكن تم فى خلالها فحص مخطوطات أخرى للكتاب (باريس وبرلين ولندن)(١٠) وطبع مصنفين آخرين لياقوت أقلا حجما من المعجم . وفى الواقع أن طبع أحد هذين المصنفين الصغيرين ، الذى كانت الفكرة الأساسية من تأليفه أن يكون بمثابة مدخل للمعجم الكبير ، كان أشبه بالقوة الدافعة التى ساقت إلى التفكير فى طبع المعجم نفسه(١١) .

وكان طبع المعجم فى ستة أجزاء فى الفترة بين عامى ١٨٦٦ و١٨٧٣ إحدى الحدثات الجليلة ، بل وربما كانت أجلها ، التى طوق بها فرديناند ڤستنفلد عنق الاستعراب العالمى . وهذه الطبعة وإن وقفت على مستوٍ عال بالنسبة لحاجة العصر إلا أنها لا تستوفى تماماً المطالب العلمية لعصرنا بالنسبة لما يجب أن يكون عليه نشر النصوص وتحقيقها ، ورغماً عن هذا فإنه لايبخس من قيمتها تلك الاعتبارات والفروض التى أعرب عنها فليشر Fleischer ، أبرع ناقد للنصوص فى وقته ، والتى ظهرت فى الجزء الخامس للمعجم ؛ 333 كذلك لا تخلو من أهمية كبيرة فى هذا الصدد الفهارس المختلفة التى أفرد لها الجزء السادس . ولم ينكص ڤستنفلد أمام الجهد الهائل الذى تطلبه أحياناً تحقيق أسماء الشخصيات التاريخية التى ذكرها ياقوت ، مما استدعى منه الرجوع إلى عدد هائل من المصادر الأدبية . ولاتزال هذه الطبعة إلى الآن من أهم المراجع

* كان سهواً غير مقصود من المؤلف (Lapsus Calami) حين وضع اسم أبى الفدا بدلا من اسم ابن الوردى . (المترجم)

لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، ولم يأت بجديد إعادة طبع المتن بالقاهرة فى عام ١٣٢٣ هـ — ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦[١٢] ، رغماً من أن الناشر كانت لديه فكرة عالية عن مجهوده بالنسبة لطبعة ڤستنفلد[١٣] الذى لم يفعل شيئاً فى الواقع سوى أن أعادها بحذافيرها . ويمكن بالطبع أن تقابلنا أحياناً فى هذه الطبعة الثانية قراءات أفضل ، ولكن هذا يحدث من قبيل الصدفة البحتة[١٤] ، وأطرف من ذلك أن طبعة القاهرة هذه قد أضيف إليها جزآن بعنوان «منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان»[١٥] يستدرك فيهما الناشر ، وهو أمين الخانجى المعروف ، على مادة معجم البلدان . وقد تمس هذه الاستدراكات أحياناً نقاطاً عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة فى ذلك ، ولكنه فى أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث بأوروبا وأمريكا واستراليا . وهذه الإضافة وإن لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية إلا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة إلى بداية القرن العشرين*.

وقد كان مجهود ڤستنفلد بمثابة حجر الزاوية فى دراسة شخصية ياقوت نفسه ودراسة المادة التى تحتويها دفتا مصنفه . ولعله لم يتمتع جغرافى عربى بعدد من الدراسات مثل الذى أفرد لياقوت ، بل إن الناشر نفسه قد حاول فى مقالات منفردة إلقاء ضوء على سيرة حياته وعلى الأخص رحلاته . وبمرور الزمن ظهرت دراسات عن مصادره — وبالذات عن المادة التاريخية الجغرافية التى اشتمل عليها كتابه من ناحية عامة[١٦] ، وكذلك فيما يختص بالمؤلفين الذين نقل عنهم[١٧] . ونتيجة لظهور طبعة كاملة للمعجم فقد أضحى فى حيز الإمكان تكوين فكرة صحيحة عن عدد كبير من المؤلفات التى رجع إليها والتى لم تصبح فى متناول الأيدى إلا بعد ذلك بوقت طويل ؛ ويصدق هذا بالذات على مصنفات ابن الكلبى وابن فضلان وأبى دلف وابن بطلان وعدد آخر من المؤلفين ، فلا غرو أن نلتقى باسم ياقوت فى كتابنا هذا أكثر من اسم أى جغرافى آخر كمصدر عن المؤلفين السابقين . هذا وقد أخضعت المادة 334 الجغرافية التى جمعها ياقوت لدراسات مختلفة بحسب كل قطر أوعصر ؛ فمعروفة لنا محاولة باربييه دى مينار فى جمع وتنسيق مادته عن إيران ؛ كما توجد دراسة عن انعكاس صدى الحروب الصليبية فى المعجم ؛ بل ويوجد فهرس منظم خاص بالموضوعات الأدبية والشعبية (الفولكلورية Folkore) والاثنوغرافية التى يعالجها ياقوت مع سرد أسماء المراجع التى يستقى منها . وفى عام ١٨٩٠ حلل مدنيكوف Mednikov المعجم تحليلا عاماً فى محاضرة له لم تطبع بالتالى[١٨] ، كما بين طريقة تناول ياقوت لمصادره وكيف كان منهجه فى نقد النصوص ؛ كذلك لاتزال تحتفظ ببعض أهميتها إلى أيامنا هذه آراء روزن حول هذا الموضوع . من كل هذا يتضح لنا أن المجال قد هيئ لدراسة وافية عن ياقوت ، وأنه يستحق فعلا مثل هذه الدراسة . وبالنسبة لموضوعنا فإن سيرة حياة ياقوت ليست بأقل أهمية من مصنفه ، وهى برهان آخر على سعة الأفق والعبقرية التى تميزت بها الشخصيات العلمية التى شادت بمصنفاتها الصرح الهائل للحضارة العربية .

---

* ظهرت أخيراً ببيروت طبعة ثالثة للمعجم ؛ وهى أيضاً بدورها لم تأت بجديد . (المترجم)

واسم ياقوت يشير إلى أنه كان فى الأصل عبداً رقيقاً ؛ وقد جرت العادة بتسمية الأرقاء بأسماء الحجارة الكريمة والطيب كزمرد وكافور الخ . وقد حاول ياقوت فيما بعد استبدال اسمه باسم مقارب له فى اللفظ وهو يعقوب ولكن ثبت عليه ، سواء بين معاصريه أو لدى الأجيال التالية أو فى الدوائر العلمية ، ذلك الاسم الذى كان يطلق عادة كما ذكرنا على الأرقاء . أما نسبته وهى الرومى فدليل على أن أصله من بلاد الدولة البيزنطية وربما كان إغريقى الجنس . ونظراً لأن أباه كان غير معروف فقد تسمى بابن عبد الله كما جرت العادة فى مثل هذه الأحوال . وجميع هذه الأسامى كانت واسعة الانتشار وتسمى بها عدد كبير من الموالى من أصل رومى ؛ وياقوت نفسه يذكر فى معجمه الأدبى اثنين من معاصريه كانا يشاركانه اسمه مشاركة تامة ، أحدهما أبو الدرياقوت بن عبد الله الرومى الذى عُرف كشاعر وأديب وتوفى عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥[١٩] ، الآخر ياقوت بن عبد الله الرومى الذى عاش بالموصل واشتهر لا كأديب ونحوى فحسب بل وكخطاط أيضاً من مدرسة ابن البواب المشهور ؛ وقد قابله مؤلفنا بالموصل عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ وتوفى بعد خمسة أعوام من ذلك فى عام ٦١٨ هـ = ١٢٢١[٢٠] .

ويعرف ياقوت أيضاً باسم الحموى نسبة إلى التاجر الذى اشتراه وهو غلام ، وكان من أهل حماة . وإجماع الآراء أن ياقوت ولد عام ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ ، ولم يكن يفهم لغته الأصلية أوعلى الأقل لم يُجِدْها ؛ وقد أصبحت العربية لغته القومية ولكن يلوح أنه بالنسبة لأصله الأجنبى فإنه لم يبلغ درجة عالية من الفصاحة فيها ، ولو أن الذى لاحظ ذلك علامة متعسف كفليشر Fleischer[٢١] ؛ ولعله ليس من قبيل الصدفة أن نثره الفنى لم يبلغ درجة عالية من البلاغة أيضاً[٢٢] .

335

وعلى أية حال فقد نال ياقوت تعليما إسلامياً جيداً ، شأنه فى هذا شأن الأرقاء من الروم الذين التقينا بهم من وقت لآخر على صفحات هذا الكتاب . وقد جهد سيده الذى لم ينل حظاً وافراً من التعليم فى أن يوفر له هذا ، وكان تاجراً على سعة من العيش اضطرته مصالحه إلى الإقامة ببغداد فأراد أن يتخذ لنفسه كاتباً ماهراً يساعده فى أعماله التجارية . ويذكر لنا ياقوت من بين أساتذته اللغويين المشهورين العكبرى (توفى عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩) وابن يعيش (توفى عام ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥)[٢٣] وكثيراً ما اصطحبه سيده فى أسفاره التجارية وبعث به أحياناً بمفرده . ومن أكثر الأسفار التى تركت أثراً فى نفسه فى ذلك العهد رحلاته العديدة إلى جزيرة كيش التى ساعدت كثيراً فى توسيع أفقه الجغرافى . وجزيرة كيش أو كيس (وفى شكلها المعرّب قيس) تقع فى ذلك الجزء من خليج فارس الذى أسمته العرب بحر عمان ، وكانت لعهد ياقوت مركزاً من مراكز التجارة الخارجية للعالم الإسلامى تجمع فيها ممثلو مختلف الأقطار والشعوب ؛ وكانت الجزيرة غنية بالنخيل وغيره من الأشجار وأنواع النبات . وقبل ياقوت بقليل ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر زارها رحالة آخر هو بنيامين التُّطَيْلى Benjamin of Tudela وامتدحها كثيراً . وبعد مائة عام من ذلك ، أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، زارها ماركو بولو Marco Polo

البندقى ؛ وعقب هذا مباشرة أخذت تفقد أهميتها بالتدريج لهرمز على الساحل الفارسى ولم تلبث أن طواها النسيان فى آخر الأمر[٢٤] .

وخلال إحدى تلك الأسفار وذلك فى عام ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ علم ياقوت بوفاة سيده وإعتاقه له فأصبح بذلك حراً طليقا . ومنذ تلك اللحظة استقر ببغداد واحترف نهائياً مهنة استنساخ الكتب وبيعها ، الأمر الذى يذكرنا بصاحب « الفهرست » المشهور الذى مر الكلام عليه فيما تقدم من هذا الكتاب. ولكن ياقوت لم يلبث أن بدأ تجواله ابتداء من عام ٦١٠ هـ = ١٢١٣ ، ذلك التجوال الذى استمر ستة عشر عاماً إلى لحظة وفاته ، ولم تتخلله سوى وقفات قصيرة الأمد . ويمكن تكوين فكرة عن رحلاته هذه اعتماداً على الإشارات الواردة بمعجمه ، وقد ساهم فى ذلك ڤستنفلد إلى حد كبير . بدأ ياقوت تجواله ماراً بتبريز والموصل فى طريقه إلى الشام ومصر أولا ، وبعد ثلاثة أعوام منذلك ، أى فى عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ ، نبصره مرة أخرى بدمشق التى غادرها إلى حلب فإربل ثم أرمية فتبريز ومنها إلى إيران الشرقية . وأمضى عامين بنيسابور حيث علق قلبه حب فتاة من أهلها ، ثم غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو . وبمرو أمضى عامين متنقلا بين مكتباتها الشهيرة التى وصفها الكثيرون بحماس شديد ، ولم يلبث أن واتته فكرة الاستقرار بها نهائياً خاصة وأن فكرة وضع المعجم قد انبعثت لديه هناك فى عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ . وكان معتزماً زيارة خوارزم وبلخ عندما تواترت إلى مسامعه أخبار خروج المغول عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩ ثم استيلاءهم على بخارى فسمرقند ، فهرب ياقوت إلى خراسان تاركاً وراءه بعض مادته العلمية وفى طريقه مر بالرى وقزوين وتبريز إلى أن بلغ الموصل فدخلها فقيراً معدماً لا يملك شروى نقير غير أن عطف « الوزير الفيلسوف »[٢٥] ابن القفطى (توفى عام ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨) وزير السلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب[٢٦] ، أمكن له فرصة العمل بضعة أعوام فى معجمه الذى لم يلبث أن أتم تسويده فى عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ ورفع أولى مخطوطاته إلى ابن القفطى[٢٧] ، وكان نازلا عليه بحلب . وفى عام ٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ توجه مرة أخرى إلى فلسطين ومصر ثم رجع إلى حلب وأخذ على عاتقه ابتداء من أول يناير ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ تهذيب المعجم ولكن الوفاة عاجلته دون ذلك فقد انتقل إلى جوار ربه فى العام التالى لهذا وذلك فى العشرين من أغسطس عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ بخان عند أحد أبواب حلب ولمّا يتجاوز الخمسين . وقد وقف كتبه على مسجد ببغداد وكلف بتنفيذ وصيته هذه صديقه المؤرخ المعروف ابن الأثير[٢٨] فحملها إلى هناك . وخلال عام من وفاته زار حلب مؤلف كتاب التراجم المشهور ابن خلكان وذكر أن أهل العلم كانوا لا يزالوا يثنون عليه ويتذكرون فضله وأدبه[٢٩] . وأمام الظروف القاسية التى اكتنفت الأعوام الأخيرة من حياته يجب أن نعجب لا للعدد الضئيل من الأخطاء الذى وجد الطريق إلى مصنفاته بل لعدد هذه المصنفات الكبير وقيمتها العالية التى لا يتطرق إليها الشك . ويحتل المكانة الأولى بينها من وجهة نظرنا دون منازع معجمه الجغرافى الكبير الذى سنقصر حديثنا عليه الآ ن .

336

لقد انبعثت فكرته كما رأينا بمرو عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ ، ويبدو لنا الطابع المميز للكتاب من الظروف التى أحاطت بتأليفه[٣٠] . فقد حدث أن جمع ياقوت مجلس للإمام السمعانى ابن صاحب كتاب الأنساب المشهور ودار الكلام حول اسم موضع 337 بالجزيرة العربية ورد ذكره فى الحديث وهو حُباشة . وقد دلل ياقوت معتمداً فى ذلك على اشتقاق اللفظ على أنه يجب نطقه هكذا ، أى بضم الحاء ؛ غير أن أحد الحاضرين أصر على نطقه حَباشه بفتحها . وقد استعصى على ياقوت أن يجد مرجعاً ثقة يدعم به رأيه ، مع اكتظاظ مكتبات مرو آنذاك بالمراجع ، فعجز عن العثور على الشاهد . حينئذ عقد العزم على وضع معجم جغرافى جامع يكون مرجعاً عند الحاجة ولايقتصر على تفسير الأعلام الجغرافية فحسب بل ويبين أيضاً نطقها الصحيح . فهو فى جوهره إذن من نفس نمط المعاجم اللغوية التى تقابلنا منذ القرن التاسع ؛ بل إن هذا يستبين لنا من ألفاظ ياقوت نفسه عند وصفه للكتاب فى بداية مقدمته : «كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغُدران والأصنام والأبداد والأوثان »[٣١] ؛ ولهذا السبب فقد أطلق عليه اسم « معجم البلدان » .

وبالرغم من اتباعه لدرب مطروق سلكه قبله الكثيرون فإن ياقوت قد خشى أن يتهم بأن هدفه من وضع المعجم كان جغرافياً بحتاً ، لذا فقد جهد فى أن يدعم معطياته قبل كل شىء بالشواهد من القرآن والحديث[٣٢] . فهو يشير إلى أن آيات الخالق وبراهين قدرته منتشرة على الأرض بأجمعها لذا فإن قراءة الرحلات والاطلاع على وصف البلدان فيه فائدة كبرى وموعظة حسنة ، والرجل الورع ملزم بأن يتذكر ملاحظاته ويدونها أثناء أسفاره لفائدة معاصريه وفائدة الأجيال التالية . وياقوت لا يهمل التفصيل فى أهمية المعلومات الجغرافية من الناحية العملية ؛ وهو يعتقد أن النساخ وأهل الأخبار الذين يقفون من الأعلام موقفاً غير نقدى كثيراً ما أثبتوا الصور الخاطئة لها[٣٣] ، هذا بينما يحتاج فى الواقع إلى ضبط الأعلام جميع صنوف الناس ، فالحكام والمشرعون يحتاجون إلى معرفة تاريخ فتح المسلمين لبلد ما وكيف تم هذا الفتح وذلك لتحديد خراج البلد . كما يجب على أهل الحديث معرفة من اشتهر من أهل بقعة ما من العلماء والمجتهدين ؛ ويهم أهل الطب المعلومات عن المناخ والظروف الطبيعية كما يهم المنجمين مطالع النجوم ليحكموا على طوالع البلاد . ويلزم الشعراء وعلماء اللغة معرفة دقيقة بنطق أسماء الأماكن والأنهار والجبال والآبار كى لا يخطئوا فيصبحوا هدفاً لسخرية المثقفين من الناس . ويسوق ياقوت مثالا لهذا شرحاً « لمقامات الحريرى » 338 لعالم جليل من معاصريه كشف عن عجزه التام عندما حاول تحديد مواقع بعض المواضع[٣٤] . وجميع هذه العلل التى يسوقها ياقوت وجيهة فى حد ذاتها ، وهى تعطى مرة أخرى فكرة عن تلك الاعتبارات العملية المعروفة لنا من قبل والتى عاونت على ظهور الأدب الجغرافى وتطوره عند العرب ، هذا بالرغم من أن ياقوت لا يوردها بأجمعها .

وفى آخر مقدمة المعجم يورد ياقوت فى الكثير من التفصيل أسماء السابقين له فى مضمار الجغرافيا ،

ولكن لا يمكن القول إطلاقاً بأنه قد استوفى أسماء جميع من استقى مادته منهم[٣٥] . وقد حدث وأن عرضنا لعدد كبير منهم فيما مر من هذا الكتاب معتمدين فى ذلك أحياناً على ياقوت وحده وذلك لفقدان الأصول التى نقل عنها . ويختتم ياقوت المقدمة بتحليل لكتابه ولمنهجه فى التأليف[٣٦] ، وهى مسألة قد ألقى عليها روزن بعض الضوء فى بحثه المشار إليه . وقد رفض ياقوت فى كثير من الحدة والغيرة التماس من طلبوا منه مراراً اختصار كتابه ، وهو يستشهد فى هذا الصدد بحكاية للجاحظ فى عيوب اختصار الكتب[٣٧] .

ويلى المقدمة خمسة أبواب بمثابة مدخل للمعجم ، يعرض أولها للنظريات المختلفة فى صورة الأرض معتمداً فى ذلك على معطيات الجغرافيا الرياضية المعروفة لنا فى جوهرها . ويميل ياقوت إلى اعتبار الأرض كروية تتجاذبها أطراف الفلك من جميع النواحى كالمغناطيس . ويبحث الباب الثانى فى نظام تقسيم الأقاليم ، ولكن ياقوت يورد فيه أيضاً قائمة البروج الاثنى عشر والبلدان الواقعة تحت تأثيرها كما يعرض للطرق العملية المتبعة فى تحديد قبلة كل موضع من الأرض . وأما الباب الثالث ففى تفسير المصطلحات التى يرد ذكرها فى المصنفات الجغرافية كالبريد والفرسخ والميل ، وأيضاً النواحى كالإقليم والكورة والمخلاف والاستان والرستاق والطسوج والجند وآباد والسكة والمصر ، ثم يوضح مصطلحات الجغرافية الفلكية كالطول والعرض والدرجة والدقيقة ، ثم المصطلحات الخاصة بالخراج وغلة الأرض كالصلح والسلم والعنوة والخراج والفىء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة . ويعطى الباب الرابع تصنيفاً قصيراً للبلاد المختلفة التى فتحها المسلمون وذلك وفقاً للخراج الذى يجبى من كل منها . أما الباب الخامس فأشبه مايكون بمقدمة فى أخبار البلاد وسكان النواحى المختلفة وتوزيع الممالك بحسب مكانتها وعراقتها فتأتى فى المرتبة الأولى بابل وتليها الهند فالصين فالترك فالروم . وفقط بعد هذه الأبواب المدخلية (Introductory) التى تشغل خمسين صفحة من الكتاب* يبدأ المعجم بمعناه الدقيق .

وترد فيه أسماء المواضع بحسب الترتيب الأبجدى كما هو الحال مع المعاجم السابقة المعروفة لنا ؛ ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن الترتيب قد يختلف داخل الحرف الواحد أحياناً ، وهو أمر غير معهود لنا من قبل . وبعد إيراد الاسم يرد توضيح مفصل بالألفاظ لنطقه مع ذكر اختلاف القراءات. وكثيراً ما يسوق ياقوت اشتقاق بعض التسميات ويحاول توضيح منشئها وأصلها ؛ وكما هو ديدن جميع اللغويين العرب فهو يحاول أيضاً تفسير التسمية من صميم اللغة العربية ولايسمح بفكرة وجود أصل غير عربى لها إلا فى حالات نادرة . وهذا القسم الأول اللغوى يصحبه فى العادة شواهد من الشعراء العرب ممن يمكن الثقة فيهم لتحديد النطق الصحيح الذى قد يعتمد أحياناً على البحر والقافية ؛ ثم يلى هذا عادة بيان طول وعرض المكان مع تحديد البرج الذى يقع تحته .

339

* ظهرت فى عام ١٩٥٩ ترجمة إنجليزية لهذه الأبواب الخمسة مع تعليقات وافية وإشارات إلى المراجع ؛ وهى بقلم وديع جويدة وقد طبعت بدار بريل Brill بليدن . (المترجم)

أما القسم التاريخى الذى يعقب هذا مباشرة فيبحث فى أصل الموضع الجغرافى المذكور ونشأته والظروف التى أحاطت بذلك ، ومن سكنه والدور التاريخى الذى لعبه ؛ وكثيراً ما يصحب هذا الأخبار والأساطير المتعلقة به . وإذا جاء ذكر الموضع فى القرآن أوالحديث سيقت فى ذلك الشواهد ، وإذا كان قد فتحه المسلمون فيعرض لتاريخ هذا الفتح ؛ كما يورد على الدوام تقريباً أسماء كبار علمائه خاصة الفقهاء وأهل الحديث وأسماء أساتذتهم وتلامذتهم . وبخلاف هذا فليس من النادر أن يعطى ياقوت وصفاً دقيقاً للأمكنة والمدن التى زارها ويورد تفاصيل دقيقة عن الأبنية المختلفة والقلاع والمرافئ ، وهو كثيراً ما يقف أيضاً ليصف عادات وأخلاق القبائل والشعوب كما لا يهمل الكلام عن صنوف العجائب فى البلاد النائية . ويتخلل العرض أثناء ذلك ضروب من الحكايات الطريفة والنكات والقصص مع مختارات واسعة من الشعر ، وقد يضمنه قطعاً ورسائل بأجمعها من المؤلفين السابقين . ونتيجة لهذا فقد تنشأ لديه أحياناً مقالة قائمة بذاتها تمتد أحياناً إلى عشر أوخمس عشرة صفحة .

ومن الطبيعى ألا تظفر جميع مواد المعجم بمثل هذه الصورة الحافلة ؛ وإذا كان القسم اللغوى موجوداً على الدوام فإن التاريخى قد يختفى بالطبع عند الكلام على محلة مغمورة أوغير معروفة جيداً ، وفى هذه الحالة يختفى أيضاً القسم الفلكى ويرد تحديد موقع المكان بصورة تقريبية ؛ وأحياناً قد تقتصر المادة على سطر واحد فقط مع التعريف بالاسم بشكل عام .

وليست بنا حاجة الآن إلى التحدث بشكل خاص عن مصادر المعجم الجغرافى لياقوت فقد رجعنا إليه أكثر من مرة فى الفصول السابقة من كتابنا هذا واقتنعنا بأنه يجمع شتات المادة الجغرافية الضخمة التى تراكمت على ممر ستة قرون . و رغماً عن الميل اللغوى الملحوظ عند المؤلف فإن هذا المصنف الجامع ، كما تبين لنا أكثر من مرة ، لم يقتصر على الجغرافيا اللغوية أو الوصفية بل شمل أيضاً الرياضية وحفظ لنا فى هذا المجال معطيات من مصادر أخرى ليست معروفة دائماً ، الأمر الذى وضحه بالكثير من الدقة هو نغمان فى كتابه عن الأقاليم السبعة . كما يتوكد هذا فى مواضع أخرى من المعجم ؛ فمن بين جميع الزيجات (أى الجداول الفلكية) أولى ياقوت اهتماماً خاصاً لزيج أبى عون إسحاق بن على[٣٨] . وهو لم يكن معروفاً لخبير كبير فى الموضوع مثل نالينو Nallino الذى استطاع أن يثبت شبه هذا الزيج «بصورة الأرض» للخوارزمى[٣٩] وذلك اعتماداً على الشذور التى حفظها لنا منه ياقوت . من هذا يتضح لنا أنه حتى فى هذا المجال الذى لم يهتم له كثيراً فإن ياقوت وجد تحت تصرفه مصادر لم تصل إلى أيدينا .

ومادة ياقوت متنوعة للغاية ؛ وهو لم يقصر نفسه على العالم الإسلامى وحده كما فعل ممثلو المدرسة الكلاسيكية ، كما وأنه لم يفرد أهمية استثنائية لمواضع جزيرة العرب دون غيرها كما فعل ممثلو المدرسة اللغوية . وقد رأينا كيف وزع اهتمامه بالسوية على العالم الإسلامى والشرق الأقصى وأن هذا الحكم ينطبق أيضاً على معالجته لأوروبا الشرقية والشمالية . ومن الطبيعى أن معرفته بالمشرق أفضل بكثير من معرفته بالمغرب ،

ولكن فيما يتعلق بالأخير فإنه تقابلنا أحياناً تفاصيل تدل على معرفته الواسعة بأحواله . وقد أثبت أمارى Amari(٤٠) أن ياقوت هو المؤلف الوحيد الذى حفظ لنا شذرات من مصنفين مفقودين لمؤلفين من صقلية هما أبو على الحسن (حوالى عام ١٠٥٠)(٤١) وابن القطاع (توفى عام ٥١٥ هـ = ١١٢١)(٤٢) ؛ وهو يعتمد عليهما اعتماداً كلياً فى معلوماته عن الجزيرة . وعلى العكس من هذا فإن معرفته بإيطاليا على العموم لم تكن جيدة ؛ ونفس هذا الحكم كما لاحظ زيبولد Seybold يصدق على معرفته بقورسيقا ولا نغوبرديه وكلابريا ومالطة وغيرها(٤٣) .

وبخلاف المعجم الكبير فإنه يرتبط باسم ياقوت أيضاً مصنفان جغرافيان معروفان تم طبعهما قبل المعجم وهبطت قيمتهما عقب طبعه . أولهما وضعه بعد المعجم الكبير لهدف خاص وهو يحمل عنوان «كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» أى أنه بمثابة معجم للمواضع التى تشترك فى الاسم . ويتضح من ألفاظ ياقوت نفسه فى مقدمة هذا الكتاب أنه قد استخرجه من معجمه الكبير ليكون أسهل عند المراجعة . ومادته مقتضبة إلى أقصى حد ؛ كما أسقطت منه جميع تلك الاستطرادات التى تضفى أحياناً على مصادرها أهمية خاصة . ونظراً لأنه قد تم تأليفه عقب المعجم الكبير فقد أضحى فى حيز الإمكان إضافة تفاصيل صغيرة إليه غير موجودة بالمعجم ، الأمر الذى يجعل من المفيد الرجوع إليه فى أمثال تلك الأحوال . أما من ناحية الكم فمادته هو أيضاً | واسعة جداً إذ يورد فيه ذكر ألف وواحد وتسعين اسما تعالج أربعة آلاف ومائتين وواحداً وستين موضعاً جغرافياً . 341

أما المصنف الثانى الذى يحمل اسما تغلب عليه الصنعة هو « مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع » والذى طبع مسودته يينبول Juynboll(٤٤) فإنه ليس من عمل ياقوت نفسه . فهذا الكتاب الذى لا يمثل فى الواقع سوى موجز للمعجم الكبير قد عمله بعد مائة عام من ذلك على ما يظهر شخص يدعى صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحكم (توفى عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨) ؛ ولاتزال مسألة من هو المؤلف موضع نزاع(٤٥) ، فرينو Reinaud الذى فحص الطبعة بعناية فائقة خرج بنتيجة مؤداها أنه قد وجد على الأقل ثلاث موجزات أوثلاث مسودات تحت عنوان واحد ؛ إحداها فقط لياقوت ولكنها لم تصل إلينا(٤٦) . وإذا تذكرنا موقف ياقوت من الموجزات كما حدده هو بنفسه فى آخر مقدمته للمعجم الكبير فإن وجود مصنف له من هذا النوع عرضة لشك كبير . أما المسودة الثانية فيرجعها رينو إلى عبد المؤمن هذا ،(٤٧) بينما ينسب الثالثة إلى السيوطى(٤٨) المشهور وقد تم العثور عليها منذ وقت غير طويل(٤٩) . وطبعة يينبول فى ستة أجزاء(٥٠) قد أحيطت بالكثير من العناية والاهتمام* بحيث ساهمت مساهمة فعالة فى تيسير مهمة فستنفلد عند تحضيره لطبعة المعجم الكبير . وتقتصر أهميتها فى الوقت

* ظهرت له طبعة جديدة فى البلاد العربية لا أعتقد أنها تختلف كثيراً عن طبعة يينبول . (المترجم)

الحاضر على أنه يمكن بواسطتها أحياناً توضيح النقاط المغلقة فى المعجم الكبير ، كما ستستمر على الدوام مفيدة وقيمة تعليقات يينبول عليها .

وكان ياقوت أديباً واسع الأفق وكاتباً جم النشاط متعدد النواحى ؛ ومن دون حاجة إلى ذكر مصنفاته التى لم تصل إلينا فإنه يكفى أن نشير إلى معجم الأدباء الذى لايقل حجما أو أهمية عن معجمه الجغرافى بل وربما يفوقه فيما يتعلق بالمادة التاريخية والحضارية عن العالم الإسلامى . ومن المستحيل مقارنة ياقوت ببحاثة عالمى كالبيرونى أو رحالة من طراز المسعودى أو المقدسى ، غير أنه لدى المقارنة بجماعة الجغرافيين اللغويين من أمثال البكرى فإن ياقوت يبزهم أجمعين ، ليس فقط فى غزارة مادته وتنوعها بل أيضاً فى منهجه المستقل الذى ينطوى على الذكاء . اكل هذا فإن مصنفه الجغرافى يختتم بجدارة العهد السابق للغزو المغولى ، أما هو نفسه فيمكن اعتباره من أبرز رجالات عصره خاصة فى هذا الفرع من الأدب الذى نعالجه فى كتابنا هذا . ولايزال معجمه إلى أيامنا هذه يخدم غرضه ويلعب دوره كمرجع موثوق به ، مما يقف برهاناً ساطعاً على أهميته التى لا تضارع .

342

وبعد عامين من وفاة ياقوت توفى ببغداد معاصره الأكبر سناً منه (موفق الدين) عبد اللطيف (ابن يونس) البغدادى[٥١] ، الذى لم يكن عالماً لغوياً فى الأصل بل عالماً بيولوجياً (Biologist) ، ولم يكن مؤلف سفر ضخم جامع بل رسالة صغيرة عن مصر ذات أهمية جغرافية عامة ممتازة .

وسيرة حياته معروفة لنا جيداً بفضل الإشارة إليها فى عدد من المؤلفات من ناحية وبفضل الشذرات من سيرة حياته التى كتبها بنفسه (Autobiography) والتى حفظها لنا ابن أبى أصيبعة (توفى عام ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠) فى الفصل الذى أفرده له فى تاريخه للأطباء . وكان جد ابن أبى أصيبعة صديقاً حميماً لعبد اللطيف كما أن أباه قد درس الطب عليه . وقد ولد عبد اللطيف ببغداد عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وترعرع بها ودرس الأدب والكيمياء التى كانت تشمل آنذاك الكيمياء والطب . وكانت مراكز تلك العلوم قد أخذت منذ ذلك الوقت تنتقل غرباً لذا فقد توجه عبد اللطيف فى طلب العلم ، لا فى إثر ياقوت إلى بلاد ما وراء النهر بل إلى الشام ومصر . وقد بدأ ترحاله عام ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ من الموصل حيث استمع هناك إلى الرياضى الفقيه الذى ذاع صيته فى ذلك الوقت كمال الدين بن يونس ، وهو أحد العلماء الذين تمكنوا من حل المسألة الهندسية التى طرحها مع مسائل أخرى على العلماء العرب الإمبراطور فردريك الهوهنشتاوفنى Frederik of The Hohenstaufen [٥٢] . وبفلسطين استرعى عبد اللطيف أنظار صلاح الدين الأيوبى الذى كان يقاتل الصليبيين فوصله وعينه مدرساً بإحدى مساجد دمشق . وبعد وفاة صلاح الدين فى عام ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ انتقل عبد اللطيف إلى مصر وتمتع برعاية الأيوبيين وظل بها يدرس الفقه ويتابع أبحاثه فى الطب والنبات ؛ وقد يسرت له علاقته بالأيوبيين التعرف بعدد كبير من فطاحل العلماء بمصر والشام مثل عماد الدين الأصفهانى مؤلف سيرة صلاح الدين والقاضى الفاضل وزيره ،

وأيضاً موسى بن ميمون . وبمصر شهد عبد اللطيف المجاعة الهائلة والوباء الفتاك الذى حدث عام ٥٩٧هـ — ٥٩٨ هـ = ١٢٠٠ — ١٢٠٢ . وفى عام ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ نقابله مرة أخرى بحلب ومن هناك ذهب فى رحلة إلى آسيا الصغرى استمرت عدة أعوام ، وأمضى بعض الوقت ببلاط أمير أرزنجان قرب أرضروم . ومن المحتمل أنه فى أثناء رحلاته هذه تعرف عن كثب على أخبار المغول ، وقد حفظ لنا المؤرخ الذهبى (توفى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨)[٥٣] كثيراً من رواياته 343 عنهم . ورجع عبد اللطيف إلى بغداد فى شيخوخته وتوفى بها عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ .

وكان عبد اللطيف رجلا جم المعرفة ضارباً فى جميع فروع العلم بسهم ، كما كان عالماً دقيق الملاحظة فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذى يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل واضح إلى التجربة العلمية . ولم تقتصر معرفته على مصنفات العرب وحدهم بل عرف مصنفات اليونان خاصة أرسطو وديوسقوريدس وجالينوس . ولم يزاول مهنة الطب فقط بل كان أيضاً بحاثة فى العلوم الطبيعية عامة ، وهو قد طبق نظريات جالينوس على الموميات الموجودة بمصر وصحح بعض معطياته فى التشريح . وقد تمكن بعد معاينة مومياء من بوصير أن يثبت على نقيض جالينوس أن الفك الأسفل لا يتكون من عظمين بل من عظم واحد[٥٤] . ومثل هذا الاهتمام وتلك المقدرة فى التحليل الدقيق يسود جميع ملاحظاته سواء عن الطبيعة أو عن الناس فى جميع الملابسات .

وعدد مصنفات عبد اللطيف كبير بعضها فى العلوم الفقهية والأدب والبعض الآخر فى العلوم الطبيعية بالمفهوم الواسع للفظ كالنبات والطب والتشريح . غير أن شخصيته تنعكس بصورة جلية فى أثره المعروف لنا أكثر من غيره والذى يتصل اتصالا مباشراً بالأدب الجغرافى ، أعنى بذلك سفره الصغير عن مصر الذى عرفه العلم الأوروبى منذ نهاية القرن الثامن عشر والذى يحمل عنوان «كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» . وكما يقرر عبد اللطيف نفسه فإن كتابه ليس سوى ملخص لمصنف كبير له فى نفس الموضوع وأنه بدأ تأليفه فى رمضان عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٤ بالقاهرة وأتم تهذيبه ببيت المقدس عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ ورفعه إلى أحد خلفاء صلاح الدين وهو أخوه الملك العادل « لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شىء من أخبار بلاده وإن تراخت أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تناءت »[٥٥] .

وينقسم الكتاب إلى مقالتين تنقسم كل منهما إلى بضعة فصول ، الفصل الأول من المقالة الأولى يقدم ملاحظات عامة عن مصر ، طبيعتها وسكانها ؛ والثانى والثالث يصفان نباتها وحيوانها ،وقد أثبتت الأبحاث الخاصة فى تاريخ النبات أنهما يحتويان على معطيات ذات قيمة كبيرة[٥٦] . أما الفصل الرابع فطريف جداً فى فكرته إذ يصف فيه عبد اللطيف آثار مصر القديمة ، وكما هو معروف فإن الاهتمام بالآثار القديمة (الأركيولوجيا Achaeology) نادر ما وجد بين العرب ، وفى هذا المضمار يمثل

 عبد اللطيف حالة استثنائية . وأطرف من هذا أن عبداللطيف يعترض على التخريب الوحشى للآثار القديمة وإتلافها كما يعترض أيضاً على البحث عن الكنوز القديمة الذى يستند على الأساطير والمعتقدات الباطلة . وفى الفصل الخامس يصف الأبنية فى مصر المعاصرة له وأيضاً السفن ، بينما يبحث الفصل السادس فى صنوف الأطعمة والمآكل . أما المقالة الثانية من رسالته فتحتوى على ثلاثة فصول فقط ، الأول منها مكرس للنيل وفيه ينتقد عبد اللطيف مرة أخرى بعض المعتقدات الباطلة السائدة عن منابعه وعن أسباب حدوث الفيضان ؛ وقد حاول عبد اللطيف أن يقيس ارتفاع الفيضان كل عام على أساس الملاحظة المتابعة . أما الفصلان الأخيران فيقدمان وصفاً حياً لا يخلو من الرهبة لحوادث ٥٩٧ هـ — ٥٩٨ هـ = ١٢٠٠ — ١٢٠٢ التى اجتاح فيها مصر قحط هائل ووباء مروع . وقد دفعته نزعته العلمية كطبيب وبحاثة إلى الاحتفاظ بقوة ملاحظته ورباطة جأشه ، فهو يصف لنا بهدوء وبدقة تامة الحالات الرهيبة لأكل لحوم البشر وكيف كانوا يختطفون الأطباء الذاهبين لعيادة مرضاهم وكيف أحرق المجرمون الذين ثبتت عليهم تهمة أكل الغير وكيف وجدت جثث هؤلاء المجرمين مأكولة فى الصباح . وفى جميع هذه الظروف المروعة لم يفقد عبد اللطيف حب الاستطلاع وروح البحث المتأصلين لديه فأجرى عدداً من الملاحظات التشريحية والطبية . ولايزال كتابه فى هذا الصدد محتفظاً بقيمته كوثيقة إنسانية حية . وهو مهم ليس فقط من وجهة النظر الجغرافية الصرفة بل كوصف للأحوال التاريخية والاجتماعية لعصره ، ناهيك ما يحفل به من مسائل علمية متنوعة .

وقد تعرف الاستعراب الأوروبى على هذا الأثر مبكراً وأولاه اهتماماً جديراً به منذ الخطوات الأولى فى تاريخ تطوره ؛ فمنذ مستهل القرن السابع عشر جلب مؤسس الاستعراب الإنجليزى بوكوك الأكبر E. Pococke مخطوطة قديمة جداً من الشرق ، وهى موجودة الآن بالمكتبة البودلية Bodleyan . وكان يحلم هو وخلفاؤه بنشر هذا الأثر وترجمته ، بل وبدأوا فعلا ذلك أكثر من مرة ، ولكن يلوح أنه قد أحاطت بهذا الأثر طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر لعنة شريرة[٥٧] فلم تظهر الطبعة التى أعدها وايت White إلا عام ١٧٨٩[٥٨] ، وأعيد طبع المتن مرة ثانية فى عام ١٨٠٠[٥٩] وعنها ترجم الكتاب مرتين إلى الألمانية ومرة إلى اللاتينية ، كما نشرت وترجمت معه سيرة عبد اللطيف البغدادى لابن أبى أصيبعة . ولم يلبث أن تُوِّج هذا المجهود فى آخر الأمر بظهور ترجمة علمية مصحوبة بالشروح والتعليقات لسلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy (١٨١٠) ، أعنى بذلك بحثه المشهور «Relation d'Egypte» . وهى محاولة كانت بالنسبة لعصرها شيئاً ممتازاً ، ولايزال بحثه يحتفظ إلى الآن ببعض الأهمية التى يتمتع بها الأثر نفسه ، بل إن روزن لم يجد كفئاً له فى أوائل القرن التاسع عشر إلا بحث فرين المشهور عن ابن فضلان . وكان آخر من اهتم بتقدير الأثر حق قدره ممثلو النهضة الأدبية العربية المعاصرة الذين احتذب أنظارهم عبد اللطيف بشكل خاص فى السنوات الثلاثينات فأفرد له النقادة المعروف سلامة موسى

345 كتيباً (١٩٣٤) (٦٠) والمؤرخ محمد عبد الله عنان فصلا فى كتابه القيم « مصر الإسلامية » (١٩٣١)(٦١) :
وهكذا ظفر عبد اللطيف بتقدير المستعربين والعرب وتردد اسمه لدى علماء الحياة (biologists) والمؤرخين . ورغماً من أنه ينتمى إلى طراز من الناس يخالف تماماً طراز ياقوت إلا أنه يُعتبر بنفس الدرجة مثالا نموذجياً لعصره وبيئته بل ولجميع الحضارة العربية عشية الغزو المغولى :

ولم يكن الاهتمام بعلم النبات شيئاً غريباً على الجغرافيين العرب بل كان يمثل أحياناً هدفاً أساسياً لرحلاتهم ومصنفاتهم ؛ فبعد عبد اللطيف زار مصر عالم من الأندلس يحمل لقب « النباتى » ، كما أن كنيته « ابن الرومية » تشير إلى أن والدته من نصارى أسبانيا . أما اسمه فلم يختلف عن الأسماء المعهودة لدى المسلمين وهو أبو العباس أحمد بن محمد ، وقد ولد باشبيلية وتوفى بها على ما يظهر عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ بعد رحلات واسعة(٦٢) .

ورغماً من حمله للقب « الحافظ » (وذلك لحفظه القرآن) فإن ميوله على أية حال اتجهت نحو علم النبات بحيث اعتبره العرب من أكبر علمائهم فى هذا الفرع من العلوم . ولهذا ما يبرره فقد درس النبات نتيجة لاهتمامه المباشر به وليس بأغراض الطب فحسب كما جرت العادة . وفى البداية ساح فى أسبانيا وحدها وعلى محاذاة جبل طارق ثم عبر البحر حوالى عام ١٢١٧ إلى شمال أفريقيا ومصر وأدى فريضة الحج مدفوعاً دائماً بنفس أهدافه فى دراسة النبات . وقد حاول السلطان الأيوبى العادل أن يغريه بالبقاء بمصر لمعرفته الواسعة بالطب ولكن « النباتى » آثر الرحيل إلى الشام والعراق ليتعرف على نباتاتها غير الموجودة بالمغرب ؛ ولعله رجع إلى الأندلس عن طريق صقلية . وقد أودع نتائج ملاحظاته ودراساته كتابه الذى يحمل عنواناً عادياً وهو « كتاب الرحلة » ؛ ويتضح من المقتطفات المتبقية منه أن الكتاب قد كرس فعلا بتمامه للمسائل النباتية وحدها وحفل بمعلومات جديدة فى صددها مثال ذلك ما يورده عن نباتات سواحل البحر الأحمر . ومصنفه معروف إلى الآن فى مقتطفات كبيرة فقط حفظها لنا معاصره الأصغر وتلميذه عالم النبات الشهير ابن البيطار (توفى عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨)(٦٣) :

وانتساب جميع هؤلاء العلماء إلى عصر الموحدين يبرر الكلام عن مؤرخ قام بمحاولة طريفة لفصل المنهج التاريخى عن المنهج الجغرافى وهو الأمر الذى لم يحفل له كثيراً التأليف العربى كما رأينا ، ذلكم هو عبد الواحد المراكشى سمى الفلكى المعروف الذى مر بنا الكلام عليه(٦٤) . وقد ولد بمراكش عام ٥٨١ هـ = 346 ١١٨٥ ودرس بفاس وأقام بالأندلس وأدى فريضة الحج ثم استقر بمصر وكان بها أثناء استيلاء الصليبيين على دمياط (٦١٧ هـ - ٦١٩ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٢٢)(٦٥) :

ومصنفه الأساسى هو « كتاب المعجب فى (تلخيص) أخبار المغرب » الذى كرسه لتاريخ دولة الموحدين مع مقدمة قصيرة فى الحوادث السابقة لذلك ؛ وقد أتمه حوالى عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ . والكتاب معروف منذ السنوات الأربعينات للقرن الماضى بفضل طبعة دوزى Dozy ثم الترجمة الفرنسية

بقلم فانيان Fagnan . وتحقيقاً لرغبة مولاه يعطى المراكشى فى القسم الأخير من الكتاب وصفاً جغرافياً لدولة الموحدين ولكن يسبقه بالألفاظ الآتية التى يتضح منها أنه يعتبر هذا الموضوع غير مناسب على الإطلاق لمهنة المؤرخ :

« وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من لدن برقة إلى سوس الأقصى وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بُدّاً من الجرى على العادة فى سرعة الإجابة وامتثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل فى باب المسالك والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبى عبيد الله البكرى الأندلسى وكتاب ابن فيّاض الأندلسى أيضاً وكتاب ابن خرداذبه الفارسى وكتاب الفرغانى وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأى مولانا العالى بما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل جارين فى ذلك على ما سلف من عادتنا فى سائر الكتب »[٦٦] .

من هذا القول يتضح أنه قد وجدت لدى العرب رغبة صادقة للتفريق بين المادتين التاريخية والجغرافية وإخضاع كل منهما لمنهج خاص يقوم على أسس عامة ، ولو أنهم فى الواقع لم يتمكنوا من ترجمة ذلك فى صورة واقعية .

347 وقد أصبحت مصر الأيوبية التى لم تمسها وطأة الغزو المغولى ملاذاً للعلماء من الشرق والغرب | فكانت بذلك كأنما تهيأ لتتسنم مركز الثقافة العربية الذى أصبحته بالتالى نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد . هذا وقد داوم علماء مصر على الاحتفاظ بالتراث الذى نشأ هناك ، فنلتقى فى هذا العصر بمصنفات من أنماط معروفة لنا . فمن جهة يقابلنا ذلك النوع الفريد لجغرافيا الدواوين وهى مراجع إدارية واقتصادية عملت من أجل كتاب الدواوين ، وخير مثال لهذا كتاب ابن مماتى « قوانين الدواوين » الذى لم يكن الوحيد من نوعه . ومن جهة أخرى تجمعت بالتدريج ونمت مادة نمط « الخطط » ، وهى أوصاف تاريخية وإدارية للنواحى والأحياء المختلفة من المدن الكبرى . ولعل خير مثال لهذين الاتجاهين ما يقدمه فى مصنفاته الإدارى والجغرافى النابلسى (توفى عام ٦٤١ هـ = ١٢٤٣)[٦٧] .

واسمه الكامل وهو عثمان بن إبراهيم النابلسى الصفدى يشير إلى أن أصله من فلسطين ، ولكنه عاش بمصر وعمل بها فى عهد السلطان الأيوبى نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٩) ولعله لم يتفاد تأثير ابن مماتى حينما وضع مصنفاً مماثلا لمصنفه وهو « كتاب لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية » المعروف إلى الآن فى المخطوطات فقط . ويبحث القسم الأساسى من الكتاب كما هو الحال عند ابن مماتى فى نظام الدواوين المالية المختلفة التى يحتل من بينها مركز الصدارة ديوان الأحباس

الذى يعالج الأوقاف كما يعالج أيضاً جزءاً هاماً من الإدارة المالية، وهوالديوان الوحيد الذى كان بمقدوره أن يتخذ قرارات دون توقيع خاص من السلطان (٦٨) . وقد عين النابلسى حاكماً على الفيوم عام ٦٤١هـ = ١٢٤٣ فوضع خلال عامين(٦٩) وصفاً وافياً لها يوجد فى متناول الأيدى فى طبعة لموريتز Moritz . ومن العسير القول بأنه هل يتفق هذا المصنف مع المخطوطة الموجودة باستنبول والتى تحمل عنوان « إظهار صنعة الحىّ القيوم فى ترتيب بلاد الفيوم»(٧٠) ؛ وعادة يحمل مصنفه عنواناً بسيطاً هو « تاريخ الفيوم وبلاده » . وينتمى المصنف إلى طراز الجغرافيا الإقليمية (Regional) ويقدم فى عشرة أبواب وصفاً يمس فى الغالب الأماكن المأهولة من الفيوم(٧١) ؛ والأبواب التسعة القصيرة كأنما تخدم غرض مقدمة للباب الأخير. فبعد وصف عام مجمل للمنطقة ترد معطيات موجزة عن المناخ ومزاج السكان وأكثر تفصيلا من ذلك وصفه للنظام الهيدروغرافى (hydrographic) للمنطقة واتصال قنواتها بالنيل . وفى الباب الذى عقده عن السكان يتحدث عن انقسامهم إلى حضر وبدو مع سرد أسماء القبائل العربية . كما أفرد اهتماماً خاصاً 348 فى أبواب الكتاب المختلفة للمساجد والأديرة وأخيراً لطبيعة الأقاليم . ويلى هذا القسم الأساسى من الكتاب الذى يصف فيه المواضع المأهولة ، وهو حافل ومفصل بحيث يمكن من وضع خارطة تخطيطية لمنطقة الفيوم. وهو كجميع المصنفات من هذا الطراز يحفل بالتفاصيل المختلفة سواء فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بالمنطقة أو فى الجغرافيا الطبيعية . وقد مكنت هذه التفاصيل بدورها أحد العلماء من وضع قائمة بنباتات الفيوم(٧٢) بالرغم من أن النابلسى نفسه لم يكن البتة عالماً بالنبات كبعض السابقين له ممن مر ذكرهم للتو .

وقد ضربت الجغرافيا الإقليمية فى هذا العصر فى اتجاهات أخرى بالطبع ، ولم يكن مؤلفوها دائماً من أهل المنطقة الموصوفة نفسها . وغير واضح بالنسبة لنا مثلا لماذا أصبح خبيراً ممتازاً بجنوب جزيرة العرب والحجاز الأوسط شخص مثل يوسف بن يعقوب الدمشقى المشهور بابن المجاور(٧٣) الذى ولد بدمشق ونشأ وترعرع ببغداد (٧٤) . وكانت له صلات بالهند فقد أقام بعض الوقت بملتان ؛ وفى عام ٦١٠ هـ = ١٢٢١ عبر البحر من الديبل إلى عدن ، وكان ببلاد العرب على أية حال فى عام ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ — والتاريخ الأخير يقابلنا فى مصنفه(٧٥) ، لهذا فإن الرأى الغالب هو أنه قد تم تأليفه قبل عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ بقليل(٧٦) ؛ وهذا بدوره دفع إلى الافتراض بأن تاريخ وفاته . الذى يرجعه بعض المؤلفين عادة إلى عام ٦٩٠ هـ = ١٢٩١(٧٧) متأخر جداً على أغلب الاحتمال . وربما يمكن تفسير هذا التردد فى التواريخ بأن اسم ابن المجاور ليس اسمه الشخصى بل هو اسم عام استعمل للتوقير وحمله عدد من أفراد هذه الأسرة . ونفس هذا التردد فى الاسم يصدق أيضاً على مصنفه فهو بحسب آراء البحاثة السابقين يحمل عادة اسم « تاريخ المستنصر» ولكن نظراً لأن مادته لاترتبط فى شىء مع هذا العنوان الواسع الانتشار فمن المحتمل أنه يجب قراءته « تاريخ المستبصر» وفقاً لرأى آخر لبحاثة طرق هذا الموضوع (٧٨) .

وكان أول عالم يتعرف عن كثب على كتاب ابن المجاور هو اشبرنجر Sprenger ، فقدره حق قدره
349 (١٨٦٤) ووضعه أحياناً جنباً إلى جنب مع المقدسى[٧٩] . وابن المجاور قد زار تقريباً جميع النواحى التى وصفها ، ووصفه لبلاد العرب الجنوبية لا يعتمد على وصف المقاطعات والنواحى بل وصف الطرق فيورد المسافات ويذكر آثار كل منزلة ويتحدث عن أخلاق السكان وعاداتهم ويسجل الروايات والأساطير المحلية التى يشعر بميل شديد نحوها . ومعرفته بالتاريخ القديم ليست كبيرة فهو ليس بعالم نقلى ؛ وارتياب اشبرنجر فى معرفته بالأدب الجغرافى السابق له[٨٠] قد خفف منه دى‌خويه De Goeje كثيراً ، فقد اتضح له أثناء اشتغاله بإعداد ذلك الأثر للطبع أن عدداً من المصادر المكتوبة التى يرجع إليها ابن المجاور تدل على اطلاعه الواسع فى ذلك الأدب[٨١] وعلى معرفته العميقة لا بالشعر العربى وحده بل وبالفارسى أيضاً[٨٢] . وقد مكنته رحلاته البحرية من معرفة تلك المراجع الفريدة المعروفة باسم الراهنامجات (أى المرشدات الملاحية) التى ألقى ضوءاً على أهميتها المستشرق الفرنسى فيران Ferrand[٨٣] . وكان ابن المجاور على معرفة دقيقة بخطوط الملاحة فيورد مثلا ذكر المسافة بين نجران ببلاد العرب الجنوبية وجاوه[٨٤] ؛ ويلوح أنه كان مولعاً أشد الولع بالمسائل الملاحية وحفظ لنا شهادة فريدة ذات قيمة كبرى كما برهن فيران عن وجود أسطول ملغاشى قوى فى الأزمنة القديمة[٨٥] . غير أن أهمية ابن المجاور لا تقوم على هذه المعلومات المدونة بل على أساس ملاحظاته المباشرة عن الحياة العامة ، ومن العسير أن نلتقى بهذه الكمية الضخمة من المعطيات الطبوغرافية والحضارية والأسطورية لدى أى مؤلف آخر. وهى جميعها تكشف عن معرفة عميقة بالهند خاصة فى محيط الأثنوغرافيا والأدب الشعبى (الفولكلور)[٨٦] ؛ وهو يصف بالتفصيل عادات الزواج وطقوس العرس فى زبيد باليمن[٨٧] ؛ وفى بلد كمكة[٨٨] كما يسرد بحيوية فائقة التقاليد البدائية لقبيلة بجيلة التى تقطن محلة السرو بين الطائف وتبالة[٨٩] . وجميع هذه الروايات أيدها الرحالون فيما بعد ؛ فخبير لهجات جنوب الجزيرة العربية لا ندبرج Landberg الذى كانت لديه وقتاً ما فكرة نشر هذا الأثر[٩٠] استخرج منه مادة اثنوغرافية ضخمة[٩١] يمكن على ضوئها
350 تكوين فكرة واضحة عن مضمون تلك الأقسام من كتابه وعن سلاسة أسلوبه وسهولته[٩٢] .

وقسما كبيراً من « تاريخ المستبصر » ينوف على الخُمْس يشغله وصف مدينة عدن[٩٣] ؛ وهو قد عرف منذ وقت طويل يرجع بالتقريب إلى عهد الكشف عن المصنف نفسه . وكما هو ديدنه دائماً فقد قدم لنا فيران فى الآونة الأخيرة تعليقاً وافياً على جزء منه[٩٤] ، أما الطبعة الكاملة لهذا القسم فقد نشرها أخيراً (١٩٣٦) لوفغرين Löfgren[٩٥] . وكما هو الحال مع بقية أقسام الكتاب فإن وصفه لعدن يمثل خلطاً غريباً مبتكرا بين الرواية الأسطورية للتاريخ القديم والملاحظات الدقيقة للمؤلف نفسه . أما المادة الأثنوغرافية فوافرة جداً ، كما تتوفر لديه أيضاً المعطيات الطبوغرافية ؛ ومن الطريف ملاحظة أن بعض مخطوطات الكتاب تحمل صورة بدائية لتخطيط مدينة عدن[٩٦] .

وتاريخ مخطوطات هذا الكتاب معقد للغاية[٩٧] ؛ فإلى جانب المخطوطات التى وجدت طريقها إلى أوروبا بفضل مجهودات شيفير Schéfer[٩٨] أضيفت مخطوطتان أخريتان فى عهد دى خويه ولاندبرج[٩٩] ؛ ورغماً عن هذا فلم يقدر لأحد هذين العالمين أن يتخذ قراراً حاسما بإخراج طبعة كاملة للكتاب مع أن كليهما كان يعد العدة لذلك ، ولعل لوفغرين كان أكثر حظاً منهما فقد استطاع أن يضيف إلى تلك المخطوطات مخطوطة استنبول[١٠٠] وينشر قطعاً من كتاب ابن المجاور . والأثر حقاً جدير بطبعة كاملة ولو أنه من المبالغة بالطبع وضعه جنباً إلى جنب مع المقدسى كما فعل أول باحث فى الموضوع ، أو مع الهمدانى كما فعل آخر باحث[١٠١] . ومع ذلك فيمكن القول بدون تردد أن ابن المجاور كاتب أصيل له طابعه الخاص به وأنه ربما يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الاثنوغرافية .

من كل هذا يتضح لنا أن البلاد العربية لم تمسها جميعاً وطأة الغزو المغولى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فاستمرت تنمو وتترعرع بها الأنماط المعروفة للأدب الجغرافى . بل إن كاتباً كياقوت الذى اضطر إلى الفرار أمام جحافل جنكيز خان قد استطاع بالتالى أن يضع مؤلفاً كان بمثابة القول الفصل والخاتمة الحسنة فى ميدان المعاجم الجغرافية . وبعد سقوط بغداد فى أيدى المغول عام ١٢٥٨ انتقلت مراكز النشاط الأدبى للغة العربية كما ذكرنا من قبل إلى الشام وأبعد منها إلى الغرب . غير أن هذا لايعنى أن التأليف الجغرافى قد اختفى من المشرق كلية ؛ وكما هو معروف فقد ظهر باللغة الفارسية فى عهد المغول عدد من الآثار الممتازة فى مجالى التاريخ والجغرافيا . بل إن اللغة العربية نفسها قد عرفت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مصنفاً من أكثر مصنفاتها انتشاراً وتداولا بين جماهير القراء ، أعنى بذلك كوزموغرافيا القزوينى . وهذا المصنف كمعجم ياقوت يمثل الأوج كذلك فى نمطه الخاص به ، وهو ذلك النمط من التصنيف الجغرافى الذى ينتحى ناحية العجائب Mirabilia والذى أوفى على غايته واستنفد أغراضه فى كتاب القزوينى بحيث لم يكشف بالتالى عن أية طاقة جديدة فاكتفى المؤلفون باختصار كتاب القزوينى أو تنقيحه فى صورة أو أخرى :

حواشي الفصـــل الثانى عشر

(١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، المقدمة ، ص ٧

(٢) شرحه ، ص ١١

(٣) Gronovius, p. 16 (=Günther, Gesch. d. Erdkunde, p. 42, note 2) –

(٤) Kovalevski, p. 10 –

(٥) Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XV-XVI –

(٦) Senkovski, Bibl. dlia cht, XXX, p. 151-172 –

(٧) Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 192-195 (=ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص٧٥٨–٨٥٩) –

(٨) شرحه ، ص ١٩١

(٩) شرحه ، ص ١٩٥

(١٠) عن المخطوطات راجع : Kovalevski, p. 174-178

(١١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٥

(١٢) فى ثمانية أجزاء راجعها أحمد أمين الشنقيطى (توفى عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣) . راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن .

(١٣) الشنقيطى : راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن ، ص ٥٣٦

(١٤) (استبدل ص ٥٢٦ بص ٥٣٦ عند القراءة) Kovalevski, p. 179-180 –

(١٥) ياقوت ، المعجم ، التاسع والعاشر

(١٦) Heer –

(١٧) Bloch. – Heer –

(١٨) ألق مدنيكوف Mednikov محاضرته "Ob arabskom geograficheskom slovare yakuta» (معجم ياقوت الجغرافى باللغة العربية) بتاريخ ١٨٩٠/٢/٢٧ (راجع : Krachkovski, Pamyati N. A. Mednikova, p. 424, note 2)

(١٩) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السابع ، ص ٢٦٧ ، رقم ١٦٣

(٢٠) شرحه ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ ، رقم ١٦٤

(٢١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، مقدمة ، ص ٥٨ – ٦٥

(٢٢) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٣ ، الملاحظة السابعة

(٢٣) ياقوت ، الارشاد ، الجزء الثالث ، ص ٧٧

(٢٤) Streck, Kais, p. 695-697 –

(٢٥) Bartold, Vostok, IV, p. 126-138 –

(٢٦) عن سيرة ابن القفطى راجع : ياقوت ، الارشاد ، الجزء الخامس ، ص ٤٧٧ – ٤٩٤
و Mittwoch, EI, II, 423

(٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١٢

(٢٨) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٢

(٢٩) شرحه

(٣٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١

(٣٢) شرحه ، ص ٢ – ٣

(٣٣) شرحه ، ص ٣

(٣٤) شرحه ، ص ٥

(٣٥) شرحه ، ص ٧ – ٨

(٣٦) شرحه ، ٨ – ١١

(٣٧) شرحه ١١ – ١٢

(٣٨) شرحه ، الجزء السادس ، ص ٣١٧

(٣٩) – Heer, p. 24

(٤٠) – Amari (Nallino), II, p. 491

(٤١) – Heer, p. 44, f.

(٤٢) شرحه ، ص ٤٣ – ٤٤

(٤٣) – Seybold, Analecta Arabo-italica, p. 206-213

(٤٤) – Juynboll, Marâsid al ittilâ'

(٤٥) – Reinaud, Introduction, p. CXXXIII-CXXXV

(٤٦) – Reinaud, Notice sur les dictionnaires, p. 91-92

(٤٧) شرحه ، ص ٩٣ – ٩٩

(٤٨) شرحه ، ص ٩٩ – ١٠١

(٤٩) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 880, No 10, I, b

(٥٠) – Reinaud, Notice sur Les dictionnaires, p. 101-106

(٥١) – Brockelmann, GAL, I, p. 481, No 11; SBI, p. 880-881 - Houtsma, Abd al-Latif, p. 50

(٥٢) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 859-860, No 9 p. —Suter, AGNT, IV, Erlangen, 1922, p. 1-8

(٥٣) – Somogyi, DI, XXIV, p. 106-130

(٥٤) – De Sacy, Ralation, p. 418-420 - Sarton, Introduction, II, p. 599

(٥٥) عنان ، ص ١٠٦ – راجع : Brockelmann, GAL, SBI, p. 881, No, I.

(٥٦) – Meyer, III, p. 301-306

(٥٧) – Schnurrer, p 150-152

(٥٨) – White, Abdallatif's compendium.

(٥٩) – White, Abdallatif's historiae Aegypti

(٦٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 881

(٦١) عنان ، ص ٩٦ – ١٠٦ .

(٦٢) – Sarton, Introduction, II, p. 650-651 — González Palencia, p. 269-270 — Kramers, EI, EB, p. 70.

(٦٣) الأبحاث فى هذا :

Simonet, Glossario, p. CL, No 12 and note 4, p. XCIV, note I.

(٦٤) – Brockelmann, GAL, I, p 322, No 5; SB, I, p, 555 — Sarton, Introduction, II, p. 681 — EI, I, p. 70 — Dozy, Recherches, II, 1881, p. 461 — Pons Boigues, p. 413 – González Palencia, p. 161-162 — Reinaud, Introduction, p. CXXXV – CXXXVI

(٦٥) – Reinaud, Introduction, p. CXXXV

(٦٦) – Dozy, History of the Almohades, p. 252-253

(٦٧) عن هذا التاريخ راجع : Kramers, EI, EB, p. 71

و : Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 4, SB, I, p. 573

(٦٨) – Björkman, Beiträge, p. 33-34

(٦٩) – Moritz, Description du Faiyoum, p. 2

(٧٠) شرحه ص ٣ .

(٧١) سركيس ، ص ١٢١٠ .

(٧٢) – Salmon, Flore du Fayyoûm, p, 25–28

(٧٣) – Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 15 ; SB, I, p. 883, No 15 — Kramers, EI, EB, p. 70 – Ferrand, K'ouen Louen, p. 469-483 (على حدة ص ١٣٩)

(٧٤) – De Goeje, Ibn al-Modjawir, p, 31

(٧٥) شرحه .

(٧٦) شرحه ، ص ٢٣ .

(٧٧) – Brockelmann, GAL, SBI, p, 883, No 15

(٧٨) – Löfgren, Aden, p, 19

(٧٩) – Sprenger, Reiserouten, p. XXI-XXIV

(٨٠) شرحه ص XXI

(٨١) De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p. 24 –

(٨٢) شرحه ، ص ٢٥ .

(٨٣) Ferrand, L'Element Persan, p. 213, 257 –

(٨٤) (فى نقده لكتاب : Ferrand (G. Coedès, Le Royaume de Çrivijaya, p. 191 –

(٨٥) Ferrand, K'ouen Louen, p. 469 (على حدة ص ١٣٩) –
و (على حدة ص ١٤٦ – ١٤٩) p. 476-479

(٨٦) Löfgren, Aden, p. 20 –

(٨٧) De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p 26-28 –

(٨٨) شرحه ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٨٩) شرحه ص ٢٨ – ٣٠ .

(٩٠) شرحه ، ص ٣١ – ٣٣ .

(٩١) Landberg, Etudes, II, Datinah, 2, Commentaire, p. 826-829,859-869,908- –
913, 918-919, 999.

(٩٢) تعداد كامل للاقسام فى : Löfgren, Aden, p. 20, note 1

(٩٣) شرحه ، ص ٥ .

(٩٤) Ferrand, K'ouen Louen, p 469-483 (على حدة ص ١٣٩ – ١٥٣) –

(٩٥) عن شخصية ابن المجاور راجع : Löfgren, Aden, p. 19-21

(٩٦) Löfgren, (خارطة عدن ص ٧٠ ، ٥٠) –

(٩٧) شرحه ، ص ٢٠ – ٢١ .

(٩٨) Sprenger, Reiserouten, p. XXI –

(٩٩) De Gocje, Ibn al-Modjâwir, p. 30 –

(١٠٠) Löfgren, Aden, p. 7 –

(١٠١) شرحه ، ص ١٩ .

الفصل الثالث عشر

النصف الثانى من القرن الثالث عشر

---

352 يتميز القرن الذى أعقب الغزو المغولى بظهور عدد من الآثار الكبرى فى محيط الأدب الجغرافى تحتل بالنسبة لأنماطها نفس المكانة التى يحتلها معجم ياقوت ولو أنها لا تبلغ قيمته ; هذا وقد كسبت أسماء القزوينى وأبى الفدا والدمشقى صيتاً واسعاً سواء فى الشرق أو فى محيط الاستعراب الأوروبى : غير أن هذه الأسماء أخذت تفقد مكانها وتتقهقر إلى الصف الثانى منذ أواخر القرن التاسع عشر نتيجة للكشف عن مصنفات المؤلفين السابقين لهم ؛ ورغماً من هذا فقد أزاح البحث الحديث الستار عن جوانب جديدة فى كتبهم لم يكن قد التفت إليها البحاثة من قبل ولهذا فمن العسير القول بأن مادتها قد درست دراسة كافية إلى يومنا هذا . ومما يميز هذا العصر أيضاً كما يميز العصر السابق له تلك المصنفات الجغرافية أو المتعلقة بالجغرافيا التى تم تدوينها باللغة الفارسية والتى تمثل أوج ما بلغه هذا الفن من الأدب فى تلك اللغة .

وإلى جانب أوصاف الرحلات التى تتفاوت من حيث قيمتها يسترعى النظر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مؤلفان يرتبط أحدهما بمغرب البلاد العربية بينما يرتبط الثانى بمشرقها . فأبو الحسن على الغرناطى الذى اشتهر بابن سعيد ولد قريباً من غرناطة فى حوالى عام ٦١٠ هـ = ١٢١٤ ؛ ومصدر معلوماتنا عنه فى الغالب هو النبذة التى كتبها عن نفسه والتى حفظها لنا المقرى فى مصنفه المعروف[1] . وقد نال ابن سعيد حظه من التعليم باشبيلية وأمضى الجانب الأكبر من حياته متنقلا فى طلب العلم ؛ وكما عبر عن ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر فإنه قد تنقل فى تجواله « من المغرب الأقصى على المحيط الأطلنطى إلى الخليج الفارسى والتقى بأكابر العلماء ورأى أفضل الكتب »[2] . وقد صحب أباه فى أولى رحلاته إلى الحج عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ فزار شمال أفريقيا ومصر ؛ وفى طريق العودة توفى والده بالإسكندرية عام ٦٤٠ هـ = ١٢٤٣[3] فتخلف ابن سعيد بالقاهرة حتى عام ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ ثم غادرها إلى الشام وأقام حيناً من الدهر بالموصل وبغداد والبصرة . وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة 354 تمكن ابن سعيد من متابعة دراساته بمكتباتها البالغ عددها ستاً وثلاثين مكتبة والتى يصفها لنا بحماس يماثل الحماس والإعجاب الذى وصف به ياقوت مكتبات مرو لعهده . ثم رحل إلى حلب ودمشق فى صحبة المؤرخ الشهير ابن العديم وحج إلى مكة مرة ثانية[4] ؛ ونلتقى به فى عام ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ ببلاط أمير تونس ؛ وفى عام ٦٦ ٦هـ = ١٢٦٧ خرج فى رحلة أخرى فمر بالإسكندرية وحلب متجهاً إلى أرمينيا[5] حيث دفعه حب الاستطلاع

ليرى بعينى رأسه هولاكو الجبار (توفى عام ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥)[٦] ؛ وهذا التناقض فى التواريخ يسوقنا إلى التشكك فى صدق هذه الواقعة الأخيرة[٧]. وقد توفى ابن سعيد على قول إحدى الروايات بدمشق فى خلال عودته من هذه الرحلة وذلك فى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ ؛ وترجع رواية أخرى تاريخ وفاته إلى ما بعد هذا بأعوام طويلة فتذكر أنها قد حدثت بتونس فى عام ٦٨٥ هـ =١٨٢٦ . ويعتبر ابن سعيد بصفة عامة من أخصب الكتاب إنتاجاً على الرغم من أسفاره التى لم تنقطع ، هذا إلى جانب ميوله الواضحة نحو الأدب الفنى[٨] خاصة الشعر الذى نال فيه حظاً وافراً من الشهرة .

وكان ابن سعيد محباً لوطنه الأندلس وانعكس حنينه إلى الوطن فى أشعار عاطفية عميقة[٩] ؛ وقد رد على ابن حوقل لأنه ارتاب فى أخلاق أهل الأندلس[١٠] كما وأنه وضع سائر المدن التى زارها فى مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس . وقد عبر عن أحاسيسه هذه بإيجاز فى قوله[١١] :

« وأنا أقول كلاماً فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت فى بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت فى إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط ، فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلباً وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة أندلسية ولم أر ما يشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض أماكن فى تونس وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومبانى حاب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها إتقان »[١٢] . 355

أما فى الدوائر العلمية فقد لفتت الأنظار بشكل خاص مصنفاته التاريخية ، ذلك أن ابن سعيد سار على نهج أسرته فأتم مؤلفات كان قد بدأها جده وأبوه[١٣] وهى تعالج تاريخ العرب والبلاد العربية منذ الجاهلية إلى العصر القريب من حياة المؤلف . هذا وقد أصبحت تلك المؤلفات معروفة فى القرن العشرين عن طريق الأبحاث الخاصة[١٤] وعن طريق طبعات للفصول التى لم تمتد إليها يد الضياع[١٥] ؛ وهى تضم إلى المادة التاريخية جانباً ليس بالقليل من المعطيات الجغرافية ينعكس فيها بجلاء ميل المؤلف إلى الأدب الفنى ، من ذلك وصفه لصقلية الذى استخرجه موريتز Morits من إحدى مصنفاته التاريخية التى أشرنا إليها[١٦] وذلك فى مخطوطة كتب قسم منها بخط يد المؤلف نفسه .

أما نشاطه فى محيط الجغرافيا فإنه لايتصل بالأدب بقدر ما يتصل بالاتجاه الذى يمثله الإدريسى ؛ ويتضح ذلك من عنوان مصنفه «كتاب جغرافيا فى الأقاليم السبعة » ، وكأنه يشير بهذا إلى المذهب الذى ينضوى تحت لوائه المؤلف . غير أنه يجب أن نضيف إلى هذا أن المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لا يمكن القول بأنها قد حلت تماماً[١٧] ؛ ولايزال البحث الذى بكر به بارتولد منذ السنوات

التسعينات من القرن الماضى هو الدراسة الوحيدة حول هذا الموضوع وفيه ينعكس الاهتمام الخاص بمحتويات هذا الكتاب . غير أن عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا ليقف حجر عثرة فى سبيل دراسته دراسة صحيحة .

وترجع معرفتنا بهذا المصنف إلى قطعة واحدة ترتفع إلى بداية القرن الرابع عشر وتوجد نسخة خطية لها بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[١٨] . وقد اعتقد بعض البحاثة استناداً على إحدى النسخ بأن الكتاب من تأليف أحمد بن ياقوت الحموى وهو ابن ياقوت المشهور[١٩] ؛ إلا أن الواقع يكذب هذا الزعم ذلك أنه إذا كان تأليف القطعة يرجع حقاً إلى ما بين عامى ٧٢١ هـ = ١٢٣١ و٧٢٣ هـ = ١٢٣٣ كما هو مبين بها فإن هذا يعنى أن ابن ياقوت لم يكن عمره آنذاك ليقل عن سبعة وتسعين عاماً[٢٠] . وثمة قطعة أخرى من هذا الكتاب تحمل عنواناً مغايراً هو «كتاب بسط الأرض فى طولها والعرض »* ؛ ومن الطريف أن إحدى نسخ هذه الأخيرة التى استعملها أبو الفدا وعلق على هامشها 356 بملاحظاته العديدة محفوظة الآن بباريس[٢١] . وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بمسودات الكتاب إلا أنه يمكن القول بأن « جغرافيا » ابن سعيد تعتمد على الإدريسى اعتماداً كبيراً فى مادتها الأساسية وفى تبويبها فالأقاليم فيها مقسمة إلى سبعة وكل واحد منها مجزأ بدوره إلى عشرة أقسام ، ولكنه كما لاحظ هونغمان Honigmann[٢٢] « لا يترسم فى هذا مذهب بطلميوس إطلاقاً » ذلك أن مفهول « الإقليم » بمعناه الخاص الذى يقوم على الفكرة الفلكية قد أخذ يختفى شيئاً فشيئاً . ويزيد ابن سعيد على الإدريسى أنه قد بين عروض وأطوال جميع المواضع المأهولة بطريقة دقيقة يمكن معها إلى حد كبير تخطيط مصور جغرافى متكامل .

وعلى الرغم من الطابع النقلى الذى يغلب عليه إلا أنه يجب الاعتراف بأنه مصنف غنى حافل وأن ما أورده من معلومات عن أوروبا الغربية خاصة فرنسا وهنغاريا لا يخلو من الطرافة ، كما لا يخلو منها أيضاً وصفه لآسيا الصغرى ولمنطقة قسطمونى بالذات التى كانت آنذاك مركزاً للتركمان . وابن سعيد يقدم لنا معلومات عن الصقالبة الغربيين على سواحل بحر البلطيق ؛ وقد أخضع بارتولد مادته عن أوروبا الشرقية وآسيا الداخلية لدراسة ممتازة ؛ وهو على معرفة بالروس على سواحل بحر آزاق Azov ونهر الدون[٢٣] كما وأنه يورد بعض التفاصيل عن جبال القوقاز[٢٤] والشعوب القاطنة إلى الشمال والشرق منها كالبرطاس والغز والقومان والقبچاق[٢٥] ؛ أما معرفته بالصين فتعتمد فى الغالب على الإدريسى ولكنه كان على علم بالاسم التركى لبكين وهو خانبالق وباسم حاكمها لذلك العهد وهو محمود يلواج من أهل خوارزم ؛ وقد ساور الشك أبا الفدا فى صحة هذه الرواية الأخيرة فآثر ألا ينقلها فى مؤلفه الجغرافى[٢٦] .

وأبو الفدا بوجه عام يقف موقف المتشدد من ابن سعيد بل إنه يذكر فى مواضع من كتابه أنه قد اعتمد على روايته عن المغرب كل الاعتماد فى مبدأ الأمر لأن ابن سعيد مغربى ولكنه مالبث أن تبينت

---

* نشره مؤخراً معهد مولاى الحسن بتطوان بعناية Juan Vernet Gines الأستاذ بجامعة برشلونه . (المترجم)

له أخطاؤه فصار يتحاشاه[٢٧] . غير أن هذا الحكم القاسى لأبى الفدا لم يقره عليه العلم الأوروبى بصفة دائمة ، فأمارى Amari وهو من خبرة العارفين بالمصادر فى هذا الميدان قد أماط اللثام عن معرفة ابن سعيد الجيدة بجنوبى أوروبا[٢٨] وبإيطاليا بوجه خاص ؛ أما فيما يتعلق بنواحيها ومدنها مثل سردينيا وقورسيقا ونابلى وسالرنو وروما وبيزه وجنوه فقد أورد بشأنها عدداً من المعطيات الجديدة مما لم يعرفه المؤلفون الآخرون ، ولعله استقاها من التجار الأندلسيين والأفارقة[٢٩] .وهذا الحكم عينه يصدق بدوره على معرفته بسواحل أفريقيا الغربية والشرقية التى لم يزرها بنفسه بل استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئاً يدعى ابن فاطمة ولعله عاش فى القرن السابق على ذلك[٣٠] ؛ وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لأفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلا عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يضمون إليه فى ذلك العهد منطقة بحيرة تشاد[٣١]* . أما فى شرقى أفريقيا فإن ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو وعرف جيداً مدغشقر[٣٢] وربما ترتفع إليه تلك الرواية الهامة التى ينفرد ابن سعيد بروايتها دون المؤلفين العرب قاطبة والتى تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر[٣٣] . وكل هذه الاعتبارات ذات الطابع العام والخاص تقف دليلا على أن « جغرافيا » ابن سعيد تستحق اهتمام البحاثة المعاصرين ؛ ولايزال محتفظاً بقيمته ذلك الرأى الذى أفصح عنه بارتولد منذ نصف قرن حين قال : « ويمثل هذا المصنف لدى مقارنته بالإدريسى وأبى الفدا قائمة بذاتها .. ولم يستطع أبو الفدا أو المترجمون والناشرون أن يستغرقوا جميع مادته[٣٤] » ، أى أن المصنف لايزال فى حاجة إلى بحث خاص وعند ذلك فقط يمكن توضيح الجوانب الغامضة فيه توضيحاً كافياً .

وإذا استحال القول بأن ابن سعيد كان مؤلفاً مغموراً ، سواء عند العرب أو لدى العلماء الأوروبيين ، فإن الصيت الأكبر فى ذلك العصر بل وفى العصور التالية له كان من نصيب القزوينى الذى يكاد يكون أكثر الكتاب العرب قاطبة قرباً إلى الجماهير ؛ ذلك أن معرفة جمهرة القراء بالآثار الأدبية لم ترتبط بالطبع دائماً بأسماء كبار العلماء بل كانت فى أغلب الأحيان من نصيب تلك المصنفات المحببة إلى نفوسهم والتى تتجاوب مع رغباتهم . وإذا كان ياقوت قد بلغ الأوج فى نمط المعاجم فإن القزوينى يعتبر أكبر كوزموغراف ومبسط للعلوم من أجل الجمهور . وكما رأينا من قبل فإن ممثلى هذا النمط بدأوا فى الظهور منذ نهاية القرن

---

* لدى المترجم ما يحمله على الاعتقاد بوجود بعض الاختلاف بين هذا الكلام وبين النص الذى اعتمد عليه المؤلف ، لذا فقد آثر إيراده بحذافيره :

«The Author Ibn Said, on the thirteenth century, is very well acquainted, through the travels of ابن فاطمة with the Atlantic coast as far as the Senegal (which was thought to be connected with the Niger and even to belong to the same fluvial system as the Nile), and with the negro peoples living round lake Chad (p. 102, Legacy of Islam, 1960) (المترجم)

الثانى عشر ، وهم لم يقفوا عند حد عرض القوانين التى تتحكم فى نظامنا الشمسى فحسب بل اهتموا على السواء بجميع الظواهر التى تحدث على الكرة الأرضية فلعبوا فى وقت واحد دور الفلكيين والجغرافيين والجيولوجيين وعلماء المعادن والنبات والحيوان والاثنوغرافيا وبهذا يعتبرون إلى حد ما مكملين للجاحظ والمسعودى والبيرونى ولكن مع الافتقار إلى الأصالة فى البحث وعمق التحليل . وهم فى كثير من الأحيان قوم متصوفون ولكن بطريقة بدائية ، يرون فى كل شىء « معجزات الخالق » وكثيراً ما اتخذت رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب . وهم على عكس أولئك لم يهدفوا الإبداع والأصالة بل اكتفوا بالنقل والجمع 359 ولكنهم كانوا فى العادة أمناء فى نقلهم وبلغوا درجة رفيعة فى التصنيف التركيبى ؛ ومؤلفاتهم وإن افتقرت إلى عنصر الذاتية إلا أنها كانت تتطلع فى معظم الأحايين إلى الوضوح فى الأسلوب والتزام منطق فى العرض له سماته المميزة . والميزة الكبرى للقزوينى هى فى بلوغه بهذا النمط أقصى درجة من الإبداع الفنى ؛ وسينضم إلى هذا الاتجاه فى العصور التالية الدمشقى وابن الوردى[٣٥] .

والقزوينى بالطبع ناقل مثالى ويقدم لنا نموذجاً حياً لأدب عصر التدهور ؛ وهو بالرغم من اطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة إلا أنه لا يأتى بجديد أويصوغ نظرية أصيلة . وقد عاونته ثقافته على أن يفقه كل شىء وفقاً لطريقته الخاصة مما أدى به فى آخر الأمر إلى وضع مصنف تركيبى يجمع كل معارف عصره . والقزوينى ككاتب يتميز بالوضوح فى الأسلوب الذى يبلغ به فى واقع الأمر درجة رفيعة ، وهو بلاريب نابغة كمبسط للمعارف يعرض مادته العلمية فى كثير من المهارة بحيث لا تنفر القارئ العام . ولديه مقدرة فائقة فى تبسيط أكثر الظواهر تعقيداً وذلك بطريقة جذابة واضحة كما وأن أسلوبه يجمع بوجه عام بين البساطة والتنوع ولو أنه يقدم فى كثير من الأحايين صورة متداخلة الألوان (mosaic) من روايات المؤلفين السابقين عليه[٣٦] . ويرى أحد العلماء المعاصرين أن كوزموغرافيا القزوينى هى أهم أثر أنتجه كاتب عربى فى العصور الوسطى ؛ وكثيراً ما قارنه العلماء بهيرودوت Herodotus وبلينى Plinius ولعل هذه المقارنة لا تخلو من بعض الوجاهة على الرغم من أنه يجب الاعتراف بأن القزوينى لا يفضل هذين المؤلفين الكلاسيكيين سواء من ناحية الروح النقدية أو المنهج[٣٧] .

والقزوينى هو زكريا بن محمد ، ويجب عدم الخلط بينه وبين سميه حمد الله قزوينى المؤرخ والجغرافى الفارسى الشهير الذى سيرد الكلام عنه فى حينه . وقد ولد القزوينى فى عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ ، ورغماً من النسبة التى يحملها فهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة استقر بها المطاف فى العراق العجمى منذ عهد طويل . ومن الملاحظ أن لغته العربية يكثر بها الغريب ولاترتفع إلى مصاف اللغة الكلاسيكية مما يمكن أن يستدل منه على أنها لم تكن لغة طفولته[٣٨] . أما عن حياته وأساتذته فلا نعرف سوى النزر اليسير ، من ذلك أنه كان بدمشق حوالى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ وهناك وقع تحت تأثير الصوفى الشهير ابن العربى (توفى عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠)[٣٩] كما ربطته علاقة بالكاتب والأديب الكبير ضياء الدين بن الأثير

أخ المؤرخ المشهور وكان مقيما آنذاك بالموصل (توفى فى عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩)[٤٠] . ولاشك أن القزوينى درس الفقه لأنه تولى منصب القضاء بمدينتى واسط والحلة بالعراق . ومن العسير القول ما إذا بقى فى وظيفته هذه أم تركها عقب استيلاء هولاكو على بغداد ولكن من المؤكد أنه استطاع أن يتابع دراساته العلمية ؛ وقد توفى بعد ذلك بأمد طويل وهو فى سن متقدمة وذلك فى عام ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ .

360

ويرجع السبب فى شهرة القزوينى إلى أثرين قد يخلط الناس بينهما أحياناً فى مؤلف واحد ولكنهما مرتبطان على أية حال ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً ؛ أما الكتاب الأول فيمكن أن نطلق عليه من باب التجاوز اسم « كوزموغرافيا »* وأما الثانى فهو مصنفه الجغرافى ؛ وكلاهما يتمتع بانتشار واسع أضاف إلى تعقيد المشكلة المتعلقة بمسودة الكتابين . ويحمل مصنفه فى الكوزموغرافيا عادة اسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وقد رفعه مؤلفه إلى حاكم بغداد فى عهد المغول عطا ملك الجوينى[٤١] الذى سنلتقى به بعد قليل كعلامة أيضاً ؛ وكل هذا يشير إلى أن القزوينى قد بذل جهده فى أن يكيف حياته وفقاً للأوضاع الجديدة . والنصف الأول من عنوان الكتاب تكرار لعنوان مصنف مر بنا الكلام عليه لأحمد طوسى ؛ وكما هو واضح فإن العنوان يحدد بصراحة انتماء المصنف إلى نمط العجائب **Mirabilia** المعروف ؛ وقد عاون كثيراً انتشار هذا العنوان بين المصنفات التى من هذا الطراز على سهولة الخلط بينها . والكتاب ينقسم فى جملته إلى قسمين يعالجان الكلام على العالمين العلوى والسفلى كل على حدة ؛ وتسبق هذا مقدمة تحوى تصنيفاً عاماً لجميع الموجودات وذلك وفقاً للمذهب اليونانى كما وجد لدى أرسطو خاصة . والقسم الأول الذى يبحث فى العالم العلوى يتناول الكلام على الأجرام السماوية (الشمس والقمر والنجوم) وسكان ذلك العالم أى الملائكة ، وفى التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية وما يرتبط بها من أعياد ومناسبات ؛ أما القسم الثانى فكرس للأرض وظواهرها بأوسع معنى تحمله هذه الكلمة ففيه يرد الكلام بشكل عام عن العناصر الأربعة ثم عن كل واحد منها بشكل خاص فيعالج الحديث عن النار والهواء والماء وعن الشهب والرياح . ويحوى هذا القسم وصفاً لتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم مع بيان أسباب حدوث الزلازل وتكوين الجبال ونشأة الأنهار والمنابع والعيون ؛ ومحاولته لتدعيم هذه النظريات بتعليلات طبيعية وجيولوجية لا تخلو من الطرافة [٤٢] . ويلى هذا عرض سريع لممالك الطبيعة الثلاث وهى المعدنية والنباتية والحيوانية[٤٣] ؛ والمملكة الأخيرة تبدأ بالكلام على الإنسان وخصائصه الأخلاقية وتشريحه وتركيبه العضوى ومميزات الشعوب المختلفة ؛ ويعقب هذا الكلام عن المخلوقات الأخرى ابتداء من الجن والغيلان[٤٤] . ومن كل هذا تبدو لنا لوحة متعددة الألوان تحفل بمادة جغرافية وافرة كثيراً ما تكرر مادة مصنفه الآخر فى الجغرافيا .

---

* من المستحسن بهذه المناسبة أن نبين معانى ثلاثة ألفاظ هى كوزموغرافيا **Cosmography** أى علم وصف الكون وكوزمولوجيا **Cosmology** أى علم الكونيات وكوزموجينا **Cosmogeny** أى علم نشأة الكون ، وهى جميعها مشتقة من اللفظ اليونانى كوزموس **Cosmos** أى الكون والنظام . (المترجم)

361 عرفت كوزموغرافيا القزوينى | فى رواية قصيرة واسعة الانتشار توجد فى طبعات عديدة موجزة وفى مسودات جديدة قد تحمل أحياناً عنواناً مخالفاً للعنوان الحقيقى للكتاب : وتوجد أقدم مخطوطاته المعروفة لنا بميونخ ويرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٦٧٨ هـ = ١٢٨٠ أى والمؤلف على قيد الحياة[٤٥] ؛ وهى مزودة بالرسوم المصغرة (المنمنمات) Miniatures كما هو الحال مع عدد كبير من مخطوطات ذلك الكتاب ؛ والشيء الطريف فى الأمر أن علماء الحشرات Entomologists يفترضون أن ذلك ربما يكون قد تم تحت إشراف القزوينى نفسه[٤٦] . ويميز العلامة ڤستنفلد Wüstenfeld الذى ندين له بنشر الكتابين ، رغماً من أن المادة لم تكن بأجمعها فى متناول يده ، بين ثلاث مسودات لهذا الكتاب قام بتحضيرها حسب رأيه القزوينى نفسه[٤٧] ؛ إلا أنه تبين فيما بعد أن الأمر أكثر تعقيداً مما ظن ڤستنفلد : فمؤرخ العلوم الدقيقة المستعرب المعروف روسكا Ruska قد كشف النقاب عن وجود مسودة رابعة وذلك عند تحليله للفصول الأنثربولوجية والمعدنية من الكتاب خاصة الأسطورة المشهورة عن «حجر المطر» عند الشعوب التركية . وتنتمى أقدم مخطوطات الكتاب إلى المسودة الثانية التى وضح أنها أكثر المسودات انتشاراً فى اللغة العربية والتى توجد فى عدد كبير من المخطوطات . أما المسودة الثالثة فلا يوجد أصلها العربى ، وطابعها المميز هو أنه قد أضيف إليها الفصلان السابع والثامن اللذان يعالجان الكلام عن الشعوب و الحرف . وهذه المسودة الأخيرة ليست من عمل القزوينى وهى الأساس الذى اعتمدت عليه الترجمات الفارسية واستندت إليه المسودة الرابعة ؛ وهذه الأخيرة هى آخر المسودات من الناحية الزمنية وأكثرها انتشاراً إلى أيامنا هذه وتمتاز بالعدد الكبير من الزيادات التى أدخلت على فصولها المختلفة فهى وحدها مثلا التى تتحدث عن القبائل التركية فى القرن العاشر وهى وحدها كذلك التى تتضمن القطع المعروفة لنا جيداً لأبى دلف وابن فضلان والفصول عن الأحجار الكريمة للخازنى ؛ ولا يوجد ثمة شك فى أن هذه المسودة لا ندين بها لقلم القزوينى فالمخطوطة الأساسية لها تحمل عنواناً مغايراً وتعتبر نفسها شرحاً للقزوينى .

هذه المسودة الأخيرة بالذات هى التى طبعها ڤستنفلد ومن ثم فإن الكوزموغرافيا التى نشرها لا يمكن اعتبارها بأية حال الأصل الذى أعده القزوينى نفسه بل تمثل آخر رواية مصلحة للكتاب وترجع على ما يبدو إلى القرن الثامن عشر . وقد زاد ڤستنفلد من تعقيد المسألة بشكل ملحوظ بإسقاطه لقطع منها واستعانته بمخطوطات المسودات الأخرى لملء الفجوات المختلفة وبهذا يوجد بين أيدينا فى الواقع متن يقوم على أساس تحكمى (arbitrary) ولا يعكس أية واحدة من المسودات الموجودة بين أيدينا[٤٨] وهو أمر يجب عدم إغفاله بالنسبة لجميع المسائل المتعلقة بدراسة «كوزموغرافيا» القزوينى . لكل هذا فلا تزال الحاجة ماسة إلى طبعة علمية تعتمد قبل كل شيء على أقدم مخطوطات المسودة الثانية للكتاب .

وإذا كان من الواجب عدم تجاهل السابقين للقزوينى فى هذا المضمار فإنه يجب من جهة أخرى 362 الاعتراف بمصنفه كأكبر أثر | من هذا النوع كسب انتشاراً واسعاً فى جميع آداب الشرق الإسلامى . ومن

الطريف اكتشاف شبه كبير بين القسم المتعلق منه بالعالم العلوى والرسائل المسيحية المعاصرة فى الغرب والشرق[٤٩] ؛ ويصدق هذا بشكل خاص على المصنف السريانى المجهول المؤلف «علّث كل علاّن» («علة كل العلل») الذى يصفه زخاو Sachau بأنه مصنف فى الكوزموغرافيا لا مثيل له من حيث طرافته وأنه يهدف تقديم «كتاب عام لجميع الشعوب»[٥٠] ؛ ولا مشاحة فى أن روايات جميع هذه المصنفات إنما تشترك من حيث مصادرها .

ولا يقف برهاناً على الرواج الكبير الذى لقيته كوزموغرافيا القزوينى ذلك التباين والتعدد فى مسوداته ومخطوطاته فحسب بل أيضاً العدد الكبير من الترجمات والمسودات المعدلة التى ظهرت باللغات الأخرى ، فقد ظهرت المسودة الفارسية للكتاب فى وقت واحد بالتقريب مع مسودته العربية . ومعروف لنا ما لا يقل عن ثلاث مسودات بالفارسية هذا عدا الموجزات والمقتطفات ؛ بل إن القسم الثانى من الكتاب موجود فى رواية شعرية . أما المسودات المعدلة والترجمات باللغة التركية فقد أخذت فى الظهور منذ منتصف القرن الخامس عشر وظلت تتوالى فى سلسلة لا تكاد تنقطع خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر[٥١] ، بل إنه توجد ترجمة چغتائية* محفوظة فى مجموعة خانيكوف Khanikov الموجودة بالمكتبة العامة ببطرسبورغ[٥٢] . وبالطبع فإن الغموض لا يزال يكتنف العلاقة بين جميع هذه الترجمات والمسودات المصلحة بحيث يحتاج فحصها إلى نفس المجهود الذى يحتاج إليه فحص المسودات العربية للكتاب ؛ والأمر الذى لا يرقى إليه الشك هو أن عددها الكبير يقف دليلا على الرواج والانتشار والإقبال الذى لقيته كوزموغرافيا القزوينى . وقد امتد صيت الكتاب حتى بلغ روسيا الموسكوفية فى أواخر القرن السادس عشر فهو بهذا يوشك أن يكون المصنف العربى الوحيد الذى نفذ اسمه إلى الوثائق الرسمية لتلك الحقبة من التاريخ الروسى بل إن هذا قد ساق بدوره إلى افتراض مبالغ فيه عن ضخامة مكتبة ايڤان الرهيب . ويتلخص جوهر القصة[٥٣] فى أن السفير الموسكوفى الذى أرسل فى عام ١٥٦٥ إلى دولة نوغاى Nogai** كان قد كلف بالآتى : «ويقول الأمير تونمخات Tunemkhat : «لقد كتبت إلى الملك والأمير العظيم بشأن كتاب †az'a ibu imakh lukat فلم يرسل الملك الكتاب إلىّ» . وقولوا لميخائيل : إن ملكنا قد أمر بالبحث عن ذلك الكتاب فى خزائنه ولكن لم يمكن العثور عليه» . وليس ثمة مايدعو إلى الشك فى أن هذا العنوان المحرف إنما قصد به كوزموغرافيا القزوينى إذ من الصعب القول بأنه المقصود بذلك

---

* يطلق اسم الچغتائية على اللغة التركية الأدبية التى ازدهرت بآسيا الوسطى عقب الغزو المغولى وظهر بها أدب حافل كان من أكبر ممثليه على شير نوائى والسلطان بابر . وهذه النسبة مأخوذة من اسم چغتاى أحد أبناء جنكيزخان وكان أبوه قد أقطعه أقطار آسيا الوسطى عندما قسم إمبراطورية المغول المترامية الأطراف بين أفراد أسرته . (المترجم)

** اسم إمارة من الإمارات التترية التى تقاسمت الحكم عقب سقوط دولة الأوردوالذهبى فى أواخر القرن الرابع عشر ، ولا تزال تحمل هذا الاسم قبيلة مسلمة تتكلم لهجة تركية وتقطن فى منطقة القوقاز الشمالية . (المترجم)

† أى أنه يجب أن يرى فى هذه الألفاظ اسم «عجائب المخلوقات» . (المترجم)

مصنف آخر يحمل نفس هذا الاسم حتى ولو كان ذلك مصنف أحمد طوسى : ولعله من الخير البحث عن توضيح لهذه المسألة فى واقعة تاريخية معينة ؛ فقد حدث فى عام ١٥٤٩ أن وضعت قوات دولة موسكو يدها على سفارة كانت فى طريقها من قازان إلى القريم وكان فى حوزة هذه السفارة نسخة من كتاب يحمل نفس ذلك العنوان . هذه الرواية التى تقدم لنا تفاصيل الواقعة والتى ترجع إلى عصر ايفان الرهيب 363 تقدم ترجمة عنوان الكتاب على أنها « حكمة كل العالم » ولكن تضيف إلى هذا أنه « مدون باللغة الفارسية » ؛ وبهذا يصبح من العسير علينا أن نحدد بصفة قاطعة أىّ روايات القزوينى بالذات هى التى وجدت طريقها إلى أراضى دولة الموسكوف . هذا وقد ظلت كوزموغرافيا القزوينى متمتعة بالرواج بين الجمهور فى آسيا الوسطى حتى السنوات العشرينات من هذا القرن ولم يمر يوم إلا وظهرت طبعات جديدة لترجماتها فى اللغات المحلية المختلفة .

وثمة دليل آخر على الانتشار الواسع الذى تمتع به مصنف القزوينى هو أنه من الكتب العربية القليلة التى زينت بالتصاوير ؛ فهو مزود لا بأشكال وجداول فلكية فحسب بل أيضاً بالرسومات المصغرة (المنمنمات Miniatures) التى تبلغ أحياناً قمة الجودة والإتقان كما يظهر هذا من مخطوطة ميونخ التى مر القول عليها ، وأيضاً فى مخطوطة موجودة بمعهد الدراسات الشرقية . ونفس الرسوم تتكرر فى المسودات الغربية والفارسية على السواء ؛ وإذا حدث وغلب طابع الخيال على بعض رسوم النبات والحيوان وجميع أصناف الوحش فإن الرسومات المصغرة قد عاونت فى أحوال معينة على تفسير مسائل على غاية من الأهمية كتاريخ تصوير الكواكب مثلا وبعض مسائل التاريخ الطبيعى[٥٤] . وفى الختام يمكن أن يلاحظ أن معظم مخطوطات القزوينى ، شأنها فى هذا شأن المصنفات الكوزموغرافية المتأخرة للحرانى وابن الوردى تحتوى على خارطة مستديرة للعالم من طراز خارطة الإصطخرى[٥٥] .

أما مصنف القزوينى الآخر والذى يطلق عليه مع بعض التجاوز اسم « جغرافيا » فهو معروف بدوره فى روايتين تحمل إحداهما عنوان « عجائب البلدان » وترجع إلى عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٣ ، بينما تحمل الأخرى عنوان « آثار البلاد وأخبار العباد » ويرجع تاريخها إلى عام ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ ، وهى تختلف عن الأولى اختلافاً كبيراً وتضم زيادات هامة[٥٦] ؛ وطبعة فستنفلد تعتمد على الرواية الثانية .

ووصف الأرض موزع هنا على الترتيب المعروف لنا أى بتقسيمها إلى سبعة أقاليم ؛ وفى داخل كل إقليم يرد وصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار الخ وفقاً لحروف المعجم . وهو فى كلامه عن كل بقعة يتحدث عما يستحق الاهتمام فيها ويورد فى هذا الصدد تفاصيل تاريخية وافية كما أنه لا يهمل التفصيل أيضاً حين يتحدث عن سير مشاهير الرجال فى الأماكن المختلفة ؛ نلتقى من بين هؤلاء كما لاحظ براون Browne بعدد كبير من شعراء الفرس بحيث تعتبر رواياته أحياناً من أقدم ما وصلنا عنهم[٥٧] ؛ وهكذا فإن جغرافيا القزوينى تقترب من حيث طرازها من معجم ياقوت

364 الجغرافي بل إنه يستعير منه الكثير . وتوزيع المادة في هذا الكتاب على صورة سبعة معاجم مستقلة بحسب الأقاليم السبعة لا يجعله سهل المتناول ، كما وأن عدداً من الفقرات كتلك التي تتناول الحديث عن الجبال والبحار والأنهار المختلفة كثيراً ما تكرر بالحرف الواحد تقريباً نفس المعطيات التي وردت في مصنفه الكوزموغرافي(٥٨) . أما مادته الجغرافية فلا يمكن مقارنتها بمادة ياقوت أو بمادة الجغرافيين الأوائل من باب أولى ولو أنها لا تخلو من روايات طريفة ؛ كما يجب الاعتراف من ناحية أخرى بأنها تتميز دائماً بالإمتاع مثال ذلك أنه عند الكلام على الإقليم السادس يورد فقرة عن ايرلنده يتحدث فيها عن صائدي القيطس ، وفي الإقليم السابع يعدد الصور المختلفة عند الفرنجة لما يسمى « بالمحنة » (ordeal) سواء كان ذلك بالنار أو الماء أو القتال ، كما يتحدث أيضاً عن السحر والساحرات وحرقهن(٥٩) .

وجغرافيا القزويني بوجه عام لم تحظ بمثل ما حظيت به الكوزموغرافيا من رواج وانتشار ولكنها في مقابل ذلك معروفة في عدد من الترجمات الفارسية والمختصرات التركية(٦٠) . ويقدم لنا في بداية القرن الخامس جغرافي من أهل القوقاز يعرف بالباكوي رواية جديدة للجغرافيا لها أهمية قائمة بذاتها من بعض النواحي ؛ هذا وسيرد الكلام عن ذلك في حينه .

ولم يحدث حتى الآن أن تصدى أحد العلماء لدراسة مصادر القزويني ولو في المجالين التاريخي والجغرافي كما حدث مع ياقوت ؛ أما المجهود المثمر الذي بذله في هذا الصدد مولر Môller وڤستنفلد فيرتفع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما لم يكن تحت تصرف العلماء آنذاك المادة المتوفرة حالياً . وقد عدد ڤستنفلد ما يقرب من خمسين مؤلفاً من الذين رجع إليهم القزويني في تأليف جغرافيته ؛ ويلاحظ أنه يوجد من بينهم كبار المؤرخين والجغرافيين المعروفين لنا(٦١) ؛ ويمكن بالطبع زيادة هذا العدد بصورة ملحوظة في الآونة الحاضرة . وتسمح لنا الأبحاث التي أفردت لدراسة القزويني خاصة بتكوين فكرة عن مدى اطلاعه الواسع ومحيط قراءاته ، حتى ولو اقتصرنا في ذلك على ذكر ما مر في صفحات كتابنا حتى هذه اللحظة . والقزويني قد اطلع على تراث الأوائل عن طريق الرواية العربية كجميع العلماء العرب تقريباً ، وهو على معرفة جيدة بكتاب « المعادن » المنسوب خطأ لأرسطو كما كان على معرفة أيضاً بمؤلفات ابن سينا . أما من بين المؤلفين السابقين له في ميدان الجغرافيا فإنه لم يجتذبه كثيراً ممثلو « المدرسة الكلاسيكية » ولو أنه كما رأينا على معرفة « بأطلس الإسلام » ؛ وحيث أن هدفه الأساسي كان الإمتاع فقد اجتذبه أكثر من ذلك المؤلفون من طراز الجيهاني والجاحظ والمسعودي ولكن هذا لم يحل دون رجوعه مراراً إلى ممثلي العلوم الدقيقة ، فهو مثلاً يستشهد بالبيروني عند معالجته لمسألة كثر حولها الأخذ والرد أعني مسألة صلاحية الأقاليم للسكنى فيقول : « فإذا تأملت وجدت الناس محصورين في الأقاليم السبعة وليس لهم علم بحال بقية الأرض »(٦٢) . هذا وتمثل الرحلات بالنسبة للقزويني مادة ذات قيمة خاصة 365 وقد حدث أن أشرنا فيما سبق من هذا الكتاب إلى أنه قد حفظ لنا شذرات هامة مما دونه هارون بن يحيى

عن بيزنطة (٦٣) كما حفظ لنا أيضاً قطعاً من روايتي أبي دلف وابن فضلان . ومن الطبيعي جداً أن يكون القزويني قد أفاد فائدة محسوسة من السابقين له في هذا المضمار مثل أحمد طوسي الذي تحدثنا عنه وعن مصنفه الذي يحمل نفس العنوان فيما مر من هذا الكتاب . ومما يقف دليلا على سعة المادة التي جمعها القزويني تلك المصادر التي يوردها عن الأندلس فهو قد رجع إلى مؤلفات أبي حامد الغرناطي المعروف لنا جيداً وإلى العبدري السابق له كما يدين له العلم إلى حد كبير بحفظه لعدد من الشذور عن إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي . ويجب في آخر الأمر ألا نغفل مسألة هامة وهي أن القزويني قد استخدم مصادر لم تصلنا فهو مثلا قد أفاد من رواية عن رحلة في داخل أفريقيا لشخص يدعى أبا الربيع سليمان الملتاني لا يعرف عنه شيئاً البتة(٦٤) ومن المحتمل أنه لعب بالنسبة للقزويني نفس الدور الذي لعبه ابن فاطمة الذي أبحر على طول سواحل أفريقيا بالنسبة لابن سعيد . وحتى إذا ما اكتفينا بسرد عاجل للمصادر الثانوية التي استعان بها القزويني فإن اللوحة التي تتكشف لنا تبعث في الواقع على الكثير من الدهشة .

أما أثر القزويني في الأدب المتأخر فليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عنده بشكل خاص بعد كل : ما ذكرناه عن التعديلات والتصليحات التي مرت عليها مصنفاته ؛ وبالطبع قد وجد عدد من المؤلفين ممن اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً مثل الدميري عالم الحيوان المعروف(٦٥) . وإن عدم وجود طبعات علمية لمصنفات القزويني ليقف دليلا على أن العلم الأوروبي لم يفرغ من دراستها بعد ، وقد كان ظهور طبعة ڤستنفلد حافزاً لإيتيه Ethé على ترجمة الكتاب فبلغ إلى منتصفه ، ومما يسبغ على ترجمته أهميته خاصة تلك التعليقات والتصحيحات العديدة التي ندين بها لقلم فليشر Fleischer . وقد رجع العلماء مرة ثانية في القرن العشرين إلى منهج الاستقصاء المحدد لنقاط معينة من القزويني ، وهو ذلك المنهج الذي أنار السبيل إليه في مستهل القرن التاسع عشر المستشرق دي ساسي De Sacy بطبعه للأقسام المتعلقة بالمعادن والنبات والإنسان من كتاب القزويني والذي سلكه أيضاً ايدلر Ideler الذي أفاد في بحثه الممتاز (١٩٠٩) من وصف النجوم لدى القزويني(٦٦) ؛ وقد أيدهم في هذا المجال بشكل خاص في الآونة الأخيرة العلامة ياكوب Jacob الذي لم يقصر نشاطه على تحليل المادة المتصلة بإبراهيم بن يعقوب بل عالج أيضاً في أبحاث خاصة علم الطيور وعلم النبات لدى القزويني ؛ أما العلامة رسكا Ruska فبعد دراسة عميقة لقسم المعادن توصل كما رأينا إلى نتائج أساسية هامة تتعلق بتاريخ تدوين المصنف وذلك في مقال له يتميز بالدقة وعمق التحليل . ويقدم لنا مؤرخ العلوم ڤيدمان Wiedemann وذلك في مجموعة من المقالات تحليلا لعدد من المسائل التي عالجها القزويني من محيط الفيزياء والتاريخ الطبيعي ؛ ومثل هذه المادة كبير للغاية ومتنوع لدى الكوزموغرافي العربي ويكفي أن نلاحظ في هذا الصدد وجود ترجمات لعدد من الفصول الخاصة منها ما هو متعلق بالأرواح والمخلوقات العجيبة (انسباخر Ansbacher ١٩٠٥)(٦٧) ومنها ما يتعلق بآرائه في علم النفس Psychology (تيشنر Taescher ١٩١٢)(٦٨) ؛ ونتيجة لهذا فإنه يمكن أن نكرر بشأنه نفس الحكم الذي أصدرناه

فى أحوال عديدة عن بقية الجغرافيين العرب وهو أن مصنفاته أبعد من أن تكون قد استوفت حقها بعد من الدراسة ولو أن المادة قد تجمعت بصورة متزايدة تسمح من الآن بوضع دراسة خاصة عميقة عن هذا المؤلف ؛ بل إن العرب أنفسهم لم يعودوا فى الآونة الأخيرة يبصرون فى مؤلفاته مجرد حكايات طريفة فحسب تعج بمختلف العجائب الخارقة من صنع المخيلة(٦٩) ، كما حدث مع أوروبا لزمن طويل .

وابن سعيد والقزوينى هما أضخم الأسماء التى ظهرت فى محيط الأدب الجغرافى لنهاية القرن الثالث عشر وإلى جانبهما تتضاءل أسماء أولئك الرحالة الذين اكتسب كل واحد منهم أهمية معينة فى محيطه الخاص ولكنهم لم يلعبوا دوراً هاماً فى المحيط العام ؛ لهذا فإننا تفتقر إلى معلومات كافية عنهم وليس من النادر عن مصنفاتهم أيضاً . وليس من محض الصدفة أن الغالبية العظمى منهم قد اتجهت من المغرب إلى المشرق وأن أسفارهم تنضوى تحت النمط المعروف لدينا باسم « الرحلة » ولو أنه اكتسب طابعاً خاصاً فى هذا الميدان.

وأحد هؤلاء الرحالة كان أبو محمد العبدرى الذى ينتمى فى الأصل إلى مدينة بلنسية Valencia على ما يبدو(٧٠) . وتشير النسبة إلى أنه ينحدر من صلب بنى عبد الدار من بنى قصى وهذا الأخير هو الذى تنسب إليه الأسطورة توحيد قبيلة قريش(٧١) . أما سيرة حياة العبدرى فلا نكاد نعلم عنها شيئاً ويلوح أنه كان على صلة ما بمراكش لأنه بدأ أسفاره من موغادور Mogadar تاركاً أسرته مع قبيلة حاحه(٧٢) . وقد خرج فى رحلته يصحبه ابنه فى ديسمبر من عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ ووجهته مكة(٧٣) ، وفى البداية سارت الرحلة ببطء فى شمال أفريقيا وتوقف الرحالة خلالها وقفات طويلة بالمدن الكبرى . ومن مصر رافق قافلة الحج لأداء الفريضة(٧٤) ثم رجع إلى مصر عن طريق فلسطين فأمضى بعض الوقت بالقاهرة والإسكندرية وغادرها إلى وطنه ماراً فى طريقه بتلمسان وفاس ومكناسه حتى بلغ أزمور على المحيط وهناك أقام لبعض الوقت حتى تلحق به أسرته(٧٥) . هذا وقد أخذ فى رحلته طريق البر ذهاباً وإياباً وربما دفعه إلى هذا كراهية العرب المعهودة لركوب البحر(٧٦) ؛ وقد بدأ رحالتنا فى تدوين وصف رحلته وهو بتلمسان وكرسه بصورة خاصة للكلام على المدن الكبرى بشمال أفريقيا ؛ وابتداء من القاهرة يبدأ الوصف يفقد حيويته وتفصيله(٧٧) أما الرحلة نفسها فتمثل إلى حد ما لوناً جديداً عند مقارنتها بمن سبقوه فى هذا المضمار وهى تحفل فى واقع الأمر بكمية كبيرة من المعطيات الجغرافية إذ يقدم لنا المؤلف وصفاً دقيقاً وصحيحاً للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين(٧٨) . وقد لاحظ أحد العلماء الأسبان أن عرضه يتميز « بالصدق والدقة فى الرواية والحيوية والرشاقة فى الأسلوب » ؛ وقد تمكن هذا العالم فى أثناء رحلة قام بها فى الجزائر وتونس من أن يتحقق بنفسه من دقة ملاحظات العبدرى التى تتميز أحياناً بلون محلى خاص(٧٩) . غير أن الطابع الأساسى للمصنف لا تعكسه هذه المعلومات الجغرافية على الرغم من أنها لا تخلو من القيمة بجانب أهميتها ودقتها ، ذلك أن اهتمام المؤلف الرئيسى قد اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم والذين تتلمذ عليهم أحياناً ردحاً من الزمن

367

فى الأماكن التى يقيمون بها[٨٠] . وهو يغتنم أمثال هذه المناسبات فى سرده ليبين مهارته الأدبية فيسوق بعضاً من قصائده أو يصوغ الوصف فى نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة ؛ وقد لاحظنا من قبل أن هذا الاتجاه كان خاصاً بابن جبير ولكنه لم يغلب لديه بشكل يطغى على خيط القصة أما ابتداء من العبدرى فإن نمط الرحلة أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى ضرب من يوميات العلماء تتدهور أحياناً لتصبح محاولة من المؤلف ليبرز فيها المدى الذى بلغته معارفه[٨١] ؛ ويجب أن نستدرك على هذا بقولنا إن العبدرى لم ينحدر إلى ذلك المستوى فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلف إلا أنه يكتب فى نفس الوقت بحرية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة الممجوجة التى نلتقى بها لدى ممثلى الأجيال التالية ، أو يجعل من مصنفه مجموعة من التطبيقات الأدبية[٨٢] . ومن المؤكد أنه كان على معرفة بمن سبقوه فى هذا الاتجاه ؛ وهو عندما يضمِّن وصفه كلاماً من المسعودى أو البكرى إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل وإلى التساؤل هلاّ يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة[٨٣] ؛ ومن حسن الحظ أن هذا الرأى الأخير لايوجد كما رأينا ما يبرره تبريراً كافياً . وهو ينقل فى بعض الأحايين عن مواطنه ابن جبير ويورد أشعاره[٨٤] ؛ والعبدرى بوجه عام يميل إلى الشعر بشكل واضح ويضمن وصف رحلته عدداً كبيراً من قصائده الشخصية حتى تلك التى لا علاقة لها البتة بقصة الرحلة نفسها[٨٥] ؛ كما وأنه يختتم رحلته بقصيدة طويلة فى وصف الطريق . وقد شبه البعض العبدرى بابن بطوطة على غير أساس[٨٦] ذلك أن رواية ابن بطوطة القصة المكانة الأولى بينما يولى العبدرى اهتماماً كبيراً للقالب الأدبى. ويجب الاعتراف بأن معرفتنا بالعبدرى ضئيلة للغاية كما أنه لا توجد حتى الآن طبعة لمصنفه[٨٧] ؛ ولإعطاء فكرة عن معدل السرعة التى سار بها تطور العلم نذكر أن الشكوى التى عبر عنها شربونو Cherbonneau فى عام ١٨٥٤ بصدد جهل القراء الأوربيين به لم يمكن تداركها إلا فى عام ١٩٤٠ بفضل دراسة هنرباخ Hoenerbach [٨٨] .

وهناك احتمال فى أن يكون محمد العبدرى الذى لقب احتراماً باسم ابن الحاج ابناً لرحالتنا هذا ؛ وهو من مواليد فاس ولكنه توفى بالقاهرة . وقد نال الشهرة قبل كل شىء كفقيه[٨٩] ولو أنه من الطريف أن نلاحظ أن مصنفه الرئيسى الذى أفرده للكلام عن مختلف أنواع البدع يضم بين دفتيه مادة وفيرة فى الجغرافيا والاثنوغرافيا ، وهو نفس المصنف الذى قدم كمية هائلة من المعطيات لبحث خاص يتمتع بطرافة كبرى بعنوان « اصطلاحات وفن الطحانين والخبازين فى العصور الوسطى الإسلامية » (R. Mielck, Terminologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter, 1914) [٩٠] .

ولم تكن رحلة العبدرى المصنف الوحيد فى بابها فقد قام مغربى آخر يدعى (أبوعمر عبد الله بن رُشَيْد) الفهرى برحلة طويلة امتدت لبضعة أعوام من ٦٧٣ هـ — ٧٠٠ هـ = ١٢٧٤ — ١٣٠٠ بدأها من غرناطة وزار خلالها شمال أفريقيا ومصر والشام ووصف كل ذلك فى الأجزاء الخمسة التى تكون

« الرحلة »[٩١] ؛ ويحتل مكان الصدارة لديه سير العلماء المقيمين فى المواضع التى زارها ووصف المكتبات ودور العلم المختلفة . ولإعطاء فكرة عن ضخامة مصنفه نذكر أن الجزء الثالث منه المحفوظ بالاسكوريال قد أفرد بتمامه للكلام على علماء الإسكندرية والقاهرة بين عامى ٥٨٥ هـ = ١٢٨٦ و ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠؛ وذلك عندما كان المؤلف نفسه مقيما بمصر[٩٢] .

369 ومن الطبيعى أن نفترض أن مثل هذه الرحلات العلمية لم تسر فى اتجاه واحد فقط أى من الغرب إلى الشرق بل سارت أيضاً فى الاتجاه المضاد . وتوجد بمكتبة برلين مخطوطة لوصف رحلة تم تأليفه بمدينة الحلة على نهر الفرات فى عام ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ وهو لمؤلف غير معروف لنا عن قرب ويدعى الفضل بن يحيى الطيّبى[٩٣] . وفى هذا المصنف يرد الكلام عن رحلة لشخص يدعى على المازندرانى صحب فيها أستاذه على الأندلسى ، وكانا قد خرجا فى رحلتهما من دمشق فمرا على مصر فى طريقهما إلى الأندلس وبلاد البربر . ويرد فى سياق العرض ذكر لزيارتهما لجزيرة تسمى « جزيرة الرافضة » (ربما يعنى بذلك جزيرة جربه كما يفترض بروكلمان) ؛ ويغلب الخيال على الحقيقة عندما يدعى بأنه أمضى ثمانية أيام فى الجزر الخضراء (جزر الأزور Azores) بالبحر الأبيض (المحيط الأطلنطى) فى محادثة علمية مع رجل عرف بتفقهه فى القرآن هو شمس الدين محمد العالم ، وأنه اضطر لأسفه الشديد إلى مغادرته لأنه كان ينوى الإسراع فى العودة ؛ واسم بطل القصة يدفعنا إلى التشكك فى صحتها وإلى التساؤل أليست هذه القصة بحذافيرها من نسج خياله وذلك على الرغم من أن مخطوطة كتابه تحدد بالكثير من الدقة مسقط رأسه على أنه بمازندران[٩٤] . وعلى أية حال فإنه يمكن الخروج بنتيجة هامة هى أنه ابتداء من القرن الثالث عشر بدأ طابع الرحلة فى « طلب العلم » يطغى على نمط الرحلة وما لبث أن اتسع نطاق انتشاره على ممر القرون حتى بلغ الأوج بوجه خاص فى العهد التركى .

ويمثل الجغرافيا الإقليمية (regional) لهذا العهد بالشام مصنف يتميز بالطرافة وهو للمؤرخ عز الدين ابن شداد ، ويجب ألا نخلط بينه وبين كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبى المشهور بهاء الدين بن شداد الذى عاش قبل ذلك بقرن من الزمان . أما اسم مؤلفنا الكامل فهو أبو عبد الله محمد* بن على بن إبراهيم 370 الحلبى[٩٥] ؛ وأصله من حلب وقد شغل منذ سنى شبابه الأولى مناصب إدارية لدى الأيوبيين وكان يعد خبيراً فى شئون الميزانية والمالية ، الأمر الذى ينعكس بشدة فى كتابه[٩٦] . وقد عاش عز الدين فى أزمنة خطيرة فقد ولد عام ٦١٣ هـ = ١٢١٧ وأخذ طرفاً فى النشاط الدبلوماسى لعصره فشارك فى النضال العسكرى ضد الزحف المغولى . وفى عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ عندما استولت جحافل المغول على حلب[٩٧] هاجر عز الدين إلى القاهرة وهناك تمتع برعاية الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون[٩٨] ؛ وفى عام ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ تمكن من زيارة دمشق ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة وتوفى بها فى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥[٩٩]

* سقط اسم محمد سهواً فى المتن الروسى . (المترجم)

ويحمل مصنفه الأكبر اسم « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » ؛ ويجب ألا تصرفنا هذه التسمية عن مادة الكتاب فهو لايقتصر على تاريخ أمراء هاتين المنطقتين بل على العكس من ذلك نجد أن المخطوطات التى وصلت إلينا كثيراً ما تخلو تماماً من الأقسام المفردة لهم إما لأنها فقدت أو أنها لم تكتب منذ البداية . والكتاب يمثل فى الواقع دراسات مستقلة ذات طابع نصف تاريخى ونصف جغرافى للمقاطعات والمدن المختلفة(١٠٠) ، الأمر الذى يقرب الكتاب أحياناً من نمط الخطط المصرية .

وعلى الرغم من أن المصنف قد عرف منذ زمن طويل إلا أن الحكم عليه كان أمراً عسيراً حتى الآونة الأخيرة ؛ وفى الواقع أن هذا لم يعد أمراً ممكناً إلا عقب اكتشاف مخطوطة الڤاتيكان التى يغلب على الظن بأنها بخط يد المؤلف نفسه فهى التى مكنت كلا من كاهن Cahen(١٠١) ولودى Ledit(١٠٢) من كتابة مقاليهما عن هذا المصنف . والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء ليس من النادر أن يتبادل الثانى والثالث منهما الأماكن ؛ هذا وقد بدأ ابن شداد العمل فيه وهو بمصر . وهو أشبه بخلاصة للوضع فى العالم العربى شرقى البحر الأبيض المتوسط قبل تحركات المغول ، وقد انتهى ابن شداد من الجزء الأول الذى أفرده لشمالى الشام فى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ أما الثانى المفرد لجنوبى الشام فقد أتمه عام ٦٧٤هـ=١٢٧٥ بينما أنهى الجزء الثالث الخاص بالجزيرة فى عام ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦(١٠٣) ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ مسودته النهائية لايتجاوز عام ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠(١٠٤) . والجزء الأول من الكتاب فى قسمين يتناول الأول منهما الكلام على منطقة حلب بينما يعالج الثانى الكلام على قنسرين والمناطق الملاصقة لها (العواصم والثغور) وحمص ؛ أما القسم الثالث الذى كان سيتناول الحديث عن أمراء حلب فلا يوجد أثر له فى المخطوطات(١٠٥) . وينقسم الجزء الثانى من الكتاب إلى عـــدد مماثل من الأقسام فالقسم الأول منه مخصص لدمشق والثانى لمدن الشام الجنوبية وفلسطين باستثناء دمشق ، أما الثالث المفرد لأمراء دمشق فهو أيضاً معدوم الأثر(١٠٦) . ويوجد الجزء الثانى مستقلا بنفسه فى مخطوطة محفوظة بليدن تحت عنوان بجانبه التوفيق هو « برق الشام فى محاسن إقليم الشام »(١٠٧) ؛ وكما دلل حبيب الزيات(١٠٨) فإن هذا لا يعدو أن يكون تزييفاً فريداً مرجعه فى أغلب الظن إلى أحد النساخ لأن النص لا يختلف فى الواقع عن أصل الكتاب إلا فى مختصرات ضئيلة وفى بعض التغييرات فى صيغة العبارة . والجزء الثالث المكرس للجزيرة ينقسم بدوره أيضاً إلى ثلاثة أقسام وفقاً لمناطق ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر مع وصف أهم المدن الموجودة فى كل منطقة(١٠٩) . وهذا التقسيم وإن كان فى جوهره متعدد الجوانب إلا أنه يغلب عليه الطابع التاريخى الجغرافى ، ويمكن أن نحكم على محتويات الكتاب حتى ولو اكتفينا بسرد سريع لعناوين تلك الفصول العشرة التى يتكون منها القسم الخاص بدمشق(١١٠) :

(١) فى ذكر اشتقاق اسمها . (٢) فى ذكر من بناها وعدة أبوابها وقلعتها (٣) فى ذكر مسجدها الجامع (الجامع المعمور) (٤) فى ذكر مساجدها بباطنها وظاهرها (٥) فى ذكر المزارات بها بباطنها وظاهرها (٦) فى ذكر الخوانق والربط بباطنها وظاهرها (٧) فى ذكر المدارس (٨) فى ذكر ما بدمشق وظاهرها

371

من الكنائس والأعمار (٩) فى ذكر الحمامات بباطن دمشق وظاهرها (١٠) فى ذكر فضلها وما مدحت به نثراً ونظماً . وفى وصفه لحلب يزيد فى الفصول حتى يبلغ بها سبعة عشر فصلا (١١١) هذا بينما يميل وصفه إلى الاقتضاب فيما يتعلق بالمدن التى تقل أهمية عن ذلك ولو أنه لا يحيد فى شىء عن المنهج الذى سار عليه فى بقية الكتاب*

ولكتاب ابن شداد مزايا أخرى فمصادره مثلا متنوعة وقيمة للغاية ، وهو يسمح لنا دائماً بالتعرف على مصنفات لم تصل إلينا أحياناً بطريق مباشر(١١٢) . وأطرف من هذا أنه لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت ، ومهما يكن من شىء فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة(١١٣). ومن الجدير بالملاحظة أن ابن شداد كان حتى عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ يعتمد اعتماداً كلياً على رواية الغير(١١٤) ولكن ابتداء من ذلك التاريخ أخذ يبدو على عرضه طابع الأصالة التامة الذى يعكس بجدارة اتساع تجربته وملاحظته الشخصية . هذا ولم يفد المؤرخون المتأخرون كثيراً من كتاب ابن شداد (١١٥) باستثناء الأقسام المتعلقة بالشام وبدمشق بصفة خاصة والتى اجتذبت اهتمام جميع من عالجوا الكتابة فى أمثال هذه الموضوعات(١١٦). وتعتبر مادة ابن شداد فى تاريخ دمشق وخططها من أكمل ما قدمه عصره(١١٧) وقد تردد صدى هذا عند جميع المؤلفين الذين كتبوا عن فضائل دمشق فى العصور التالية له ؛ ومما يزيد فى أهمية ابن شداد أنه يكاد أن يكون الممثل الأخير للجغرافيا التاريخية على الأساس الإقليمى الذى درس الشام فى وحدة عضوية مع أرض الجزيرة .

ولعله من نافلة القول أن نستدرك بقولنا مرة أخرى أن تطور الأدب الجغرافى (أو التاريخى) فى اللغة العربية قد تردد صداه فى الأدب الفارسى . وقد كان عصر المغول بالنسبة للأدب الفارسى عصر ازدهار خاص ، ولعله ليس من محض الصدفة أن يرفع القزوينى مؤلفه كما رأينا إلى الجوينى ؛ ذلك أن هذا الأخير لم يكن موظفاً كبيراً من موظفى الدولة فحسب بل كان فى ذات الوقت عالماً مرموقاً ومؤرخاً كبيراً استطاع أن يقدر مصنف القزوينى حق قدره لأن المسائل الجغرافية لم تكن غريبة عليه ؛ وإلى جانب هذا فهو كان يستطيع الكتابة بالعربية كما وأنه استعمل المصادر العربية بالكثير من الحرية . وأصل علاء الدين عطا ملك الجوينى من خراسان وقد بدأ نشاطه فى خدمة الدولة فى وقت مبكر ولما توطد سلطان المغول أصبح جوينى كاتباً خاصاً للأمير أرغون الذى كلفه مرتين بالسفر إلى منغوليا . وفى عهد هولاكو وفق جوينى فى إنقاذ جزء كبير من مكتبة الإسماعيلية بالموت ، ثم لم يلبث أن عين منذ عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٢ — ١٢٦٣ حاكماً على بغداد وكان هذا يعنى فى واقع الأمر امتداد سلطانه على جميع البلاد العربية الخاضعة لسلطان المغول . وقد جهد جوينى كثيراً فى إعادة الحياة إلى ما كانت عليه فى المناطق التى قاست من وطأة الغزو

372

* نشر المعهد الفرنسى بدمشق القسم الخاص بحلب فى عام ١٩٥٣ بتحقيق المستشرق الفرنسى سورديل Sourdel ، والقسم الخاص بدمشق فى عام ١٩٥٦ بتحقيق الأستاذ سامى الدهان . وهذا هو جميع ما نشر من كتاب ابن شداد حتى هذه اللحظة بحسب علمنا . (المترجم)

المغولى حتى أن ابن عدوه اللدود وهو مؤلف تاريخ «كتاب الفخرى» يثنى ثناء جماً على خدماته . ولم تكن سنوات حياته الأخيرة سعيدة فقد أحاطت به الدسائس التى لم يكن ليسلم منها البتة كبار رجال الدولة آنذاك ومات كمداً فى عام ٦٨١ هـ = ١٢٨٣(١١٨) .

أما شهرته العلمية فتعتمد على مصنفه التاريخى المشهور «تاريخ جهانكشا»* الذى أوضح لنا بارتولد أهميته الفريدة أكثر من مرة ، وقد أتمه جوينى فى سنى شبابه وذلك فى عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ . وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام يعالج الأول منها تاريخ المغول وفتوحات جنكيزخان ويبحث الثانى فى تاريخ خراسان وشاهات خوارزم بينما يؤرخ الثالث للقتال ضد الإسماعيلية وحملة هولاكو على العراق . ومن هذا يتضح لنا أننا بإزاء مصنف تاريخى صرف ولو أنه يحفل بمادة جغرافية وافرة ؛ وقد لاحظ بارتولد بحق أنه المؤرخ الفارسى الوحيد الذى زار منغوليا 373 ووصف بلاد آسيا الشرقية اعتماداً على ملاحظاته الشخصية ؛ ومن الطريف أنه هو وروبروك Rubruquis قد وجها اهتماماً كبيراً إلى تأسيس قره قورم(١١٩) . هذا وقد أتم القسم الأخير من كتابه فى بعض النقاط معاصره الشهير نصير الدين طوسى الذى سبق أن تحدثنا عنه بالتفصيل فى أحد الفصول الأولى لكتابنا هذا ؛ ولعله ليس من فضل القول فى هذه المناسبة أن نضيف مرة أخرى أن هذا العصر بأجمعه قد تميز بازدهار الجغرافيا الرياضية فلمع فيه إلى جانب اسم نصير الدين طوسى اسم واحد من كبار علماء الفرس وهو قطب الدين شيرازى ؛ وقد ارتبطت أسماء عدد كبير من علماء هذا العصر كما تبين لنا من قبل بمرصد مراغة المشهور ؛ ويمكن اعتبارهم جميعاً ممثلين لوحدة الحضارة العربية الإيرانية .

وذكر مراغه وعلاقتها بالجغرافيا يسوقنا بدوره إلى الوقوف عند واحد من معاصرى هاتة الشخصيات البارزة ؛ وهو ينتمى إلى حضارة مغايرة الأمر الذى يوكد مرة أخرى الطابع الجماعى التركيبى الذى تميز به هذا العصر . ويستحيل علينا فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى أن نغفل اسم الممثل المبرز للحضارة السريانية ، أو على الأصح السريانية العربية ، ابن العبرى . هذا لا لأنه قد كتب بالعربية أيضاً ولا لأنه خلف مصنفات ترتبط بالجغرافيا بل لأنه أسهم بوجه خاص فى تطوير التراث العربى على نحو لا يقل عن معاصريه الفرس الذين تقدم ذكرهم . ولقد كان للحضارة السريانية فيما مضى تأثير كبير على العرب ؛ ونحن نذكر جيداً كيف كان العرب فى القرنين الثامن والتاسع تلامذة على السريان وكيف أنه فيما يتعلق بالجغرافيا بالذات فإن عدداً من الترجمات العربية لمصنفات بطلميوس قد تم نقلها دون ريب عن طريق الترجمات السريانية أما الآن وفى العصر الذى نعالج الكلام عليه فقد أصبح ذلك أثراً من آثار الماضى لأن الحضارة العربية اندفعت قدماً فى تطورها بحيث أضحى العلماء السريان المتأخرون يدينون لها بالكثير ؛ وليس أبلغ فى الدلالة على هذا فى القرن الثالث عشر من ابن العبرى الذى يعتبر أكبر كاتب موسوعى فى الأدب السريانى لذلك العهد بل ويمثل الأوج الذى بلغه تطور هذا الأدب .

---

* ترجم إلى الإنجليزية أخيراً . (المترجم)

واسمه بالعربية أبو الفرج غريغوريوس بن العبرى الملطى(١٢٠) ؛ وكنيته ابن العبرى تشير إلى أصله اليهودى وقد ساقت فى شكلها السريانى برعبرايا إلى التسمية اللاتينية برهبرايوس Barhebraeus التى ثبتت عليه فى العلم الأوروبى خاصة . وكان مواطناً ومعاصراً لمعظم كبار المؤلفين الذين مر ذكرهم فى هذا الفصل ؛ وقد ولد بمدينة ملطية عام ١٢٢٦ أى قبل ثلاثة أعوام من وفاة ياقوت وتوفى بمراغه عام ١٢٨٦ 374 أى بعد ثلاثة أعوام من وفاة القزوينى وجوينى . وكان متمكناً فى الأدبين السريانى والعربى على السواء وألف فى كل فرع من فروع العلوم المعروفة آنذاك مخلفاً فى كل منها مؤلفات جامعة تمثل خلاصة معارف عصره . أما بالنسبة لمواطنيه السريان فقد كان نشاطه العلمى فاتحة عهد جديد ، هذا على حين أنه اشتهر فى العلم الأوروبى غالباً كمؤرخ ولايزال يحتفظ ببعض هذه الشهرة حتى الآن . أما أهميته بالنسبة لنا فتتصل ببعض مصنفاته التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بالجغرافيا .

وأحد هذه المصنفات وهو « سلاكه خوننايه » (« صعود العقل ») الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٢٧٩ يمثل رسالة متكاملة فى الفلك والكوزموغرافيا تعرض باختصار « المجسطى » لبطلميوس مع إضافات مختلفة تقع فى قسمين أحدهما مكرس لشكل السماء والأجرام السماوية وأفلاكها والثانى لشكل الأرض والظواهر الجوية وما يرتبط بذلك . وفى هذا القسم الأخير يرد وصف لتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ولبحارها وجزرها وأنهارها ثم حساب الوقت ومسائل التقويم وأبعاد النجوم من الأرض وأحجامها بالنسبة للأرض الخ(١٢١) ؛ وكل هذا التقسيم يذكرنا بشدة بالمؤلفات العربية المماثلة فى ميدان الجغرافيا الرياضية مما سبق الكلام عنه فى حينه . ولعل تأليف هذا الكتاب يرتبط بالدروس التى ألقاها ابن العبرى فى مراغه بين عامى ١٢٧٢ و١٢٧٩(١٢٢) . وكما بين المتخصصون فى هذا الميدان فقد ظل هذا المصنف هو الرسالة الجديدة الوحيدة فى الجغرافيا الفلكية باللغة السريانية(١٢٣) ؛ وكشف بعض العلماء فيه عن معرفة جيدة بالبيرونى(١٢٤) ، الأمر الذى أيدته مصنفات أخرى لابن العبرى . ومن المحتمل أنه يرتبط بهذا المصنف الكبير « زيج » (جداول فلكية) وتقويم فلكى ، وقد ورد ذكر الاثنين معاً فى المصادر على أنهما مصنفان قائمان بذاتهما(١٢٥) . هذا وموسوعته الكبرى فى اللاهوت « منارث قدشى » (« منارة الأقداس ») التى يحلل فيها الأسس التسعة عشر للإيمان الصحيح تضم مادة جغرافية ضخمة(١٢٦) ؛ والمكانة الأولى بينها تحتلها المعرفة بوجه عام وتأتى بعدها فى المرتبة الثانية معرفة العالم الطبيعى ، وهنا ينتهز ابن العبرى الفرصة ليسوق ضروباً من المعلومات يمكن أن نذكر بصددها على سبيل المثال أنه يمكن عمل قائمة للأزهار التى ورد ذكرها لدى ابن العبرى (١٢٧) . وهذه الرسالة معروفة بأكملها فى ترجمات عربية(١٢٨) .

375 وفى شخص ابن العبرى ينعكس بقوة تأثير الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولعل هذا يبدو بصورة أقوى فى أثره العلمى الثالث الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا أعنى بذلك مصوراً له للعالم شبه مستدير يرتبط على السواء بكتابه « منارث قدشى »(١٢٩) وبتاريخه(١٣٠) ، وقد كشف عنه حتى الآن فى أربع

مخطوطات[١٣١] وتوجد أفضل نسخة فى مخطوطة باريسية لمعجم برعلى[١٣٢] . أما الأصل الذى اعتمد عليه ابن العبرى فى وضع المصور فيرتفع إلى القرن الثانى عشر[١٣٣] مكملا بهذا سلسلة مصورات العالم المستديرة المعروفة لنا من قبل ولكن لا علاقة له « بأطلس الإسلام » على الرغم من أنه يقسم العالم إلى سبعة أقاليم . ويقول عنه خبير الكارتوغرافيا العربية ميلر Miller إنه « من أصل إغريقى عربى انتقل إلى السريان دون شك من مصدر عربى »[١٣٤] ، ويرى أن فيه ما يذكر بالإدريسى[١٣٥] . ولم تجد المسألة حلا شافياً عند أول من قام بنشر هذا الأثر وهما شابو Chabot وغوتهيل Gottheil ؛ وأول من استطاع أن يلقى ضوءاً على مصادره هو هونغمان Honigmann الذى تمكن أثناء تحليله للأسماء الجغرافية[١٣٦] أن يثبت بنصيب واف من الاحتمال أن هذا الأثر يرتبط بالبيرونى أكثر من غيره[١٣٧] ، وقد ثبت من مصنف آخر لابن العبرى أن مؤلفنا كان على معرفة بمصنفات ذلك العالم الجليل . وعلى أية حال فهذه الخارطة تعد أفضل نموذج للكارتوغرافيا عند السريان[١٣٨] وتمثل أوج ما بلغه تطور هذا الفن عندهم .

ويقدم لنا هذا العصر فى الأدب السريانى أثراً آخر فى الجغرافيا فريداً فى بابه هو وصف رحلة قام بها أحد الأويغور من الصين الشمالية إلى العراق ومصر ، وهو مصنف لا شبيه له من حيث موضوعه فى جميع الأدب العربى لذلك العصر ؛ وقد حفظ لنا هذا الأثر فى سيرة الجاثليق ماريا باللاها الثالث (١٢٨١ — ١٣١٧) التى كتبها معاصر له مجهول الاسم[١٣٩] . وتتلخص قصة الرحلة فى أن اثنين من الرهبان النساطرة أصلهما من شمال الصين ، وهما الراهب الذى أصبح فيما بعد الجاثلين ماريا باللاها ومعلمه ربان برصوما ، قد عقدا العزم على الحج إلى بيت المقدس فخرجا من خانبالق مارين فى طريقهما على كاشغر وتركستان الصينية حتى بلغا العراق ، وهناك علما أن الطريق إلى بيت المقدس مقفل بسبب اشتعال نيران الحرب ؛ وبما أن الرجوع إلى وطنهما قد بدا لهما أمراً مستحيلا فى ذلك الوقت فقد اضطرا إلى البقاء بالعراق بصفة دائمة ولم يلبث أحدهما أن أصبح جاثليقا للنساطرة وحاز الآخر وهو برصوما على ثقة الايلخان المغولى أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١) الذى تمتع الجوينى برعايته . 376 ونظراً لرغبة الخان فى توثيق علاقاته بالحكام الأوروبيين فقد وجه برصوما فى عام ١٢٨٧ مبعوثا إلى رومه فأخذ الأخير طريق البحر من القسطنطينية إلى إيطاليا وهناك شهد ثوران بركان اتنا فى أواخر يوليو ١٢٨٧ وزار رومه وجنوه وباريس وتعرف عن كثب على جامعة الأخيرة ، ثم أمضى الشتاء بجنوه التى يثنى ثناء عاطراً على طقسها اللطيف وأقام برومه بعض الوقت قبل أن يأخذ طريق العودة فى عام ١٢٨٨ . وتوفى برصوما ببغداد عام ١٢٩٣ ، ويفترض البحاثة[١٤٠] أن سيرة ماريا باللاها ووصف هذه الأسفار من وضع مؤلف مجهول اعتمد على مذكرات برصوما نفسه لأن بعض التفاصيل تتميز بحيوية ووضوح يحتاجان إلى شاهد عيان* . وبالطبع

* ظهرت فى الآونة الأخيرة ترجمة روسية لهذا الكتاب الذى عرف من قبل فى ترجمتين فرنسية وإنجليزية . (المترجم)

فقد اهم الراهب قبل كل شيء بالمسائل المتعلقة بالعبادة ، ولكنه قوى الملاحظة شديد الانتباه ينعكس فى وصفه طابع الحدة الذى نلتقى بهعادة لدى الإنسان القادم من بيئة مغايرة . ومن الجلى أن مصنفات ابن العبرى وسيرة حياة ماريا باللاها قد تم تأليفها فى وسط نصرانى بحت وفيه انتشرت وعرفت من دون أن يكون لها أثر كبير فى التطور العام للأدب العربى ؛ غير أن المصنفات العربية لابن العبرى لم تقتصر قراءتها على الوسط النصرانى وحده ، وقد رأينا كيف أن مصنفاته السريانية نفسها قد ترجمت إلى العربية ؛ أما سيرة ماريا باللاها الثالث فقد وجدت بدورها طريقاً ولو فى صورة موجزة إلى مصنف عربى للقرن الرابع عشر يعرف باسم «كتاب المجدل» (١٤١)

إزاء كل هذا فمن العسير القول بحدوث تدهور فى الأدب الجغرافى فى القرن الثالث عشر ؛ حقاً إنه لم يشق طرقاً جديدة أو يبتدع أنماطاً لم تعرف من قبل ولكنه بلغ الأوج فى بعضها مثل الكوزموغرافيا . وسيقابلنا فى القرن الرابع عشر التالى لهذا ازدهار نمط جديد هو نمط الموسوعات الكبيرة التى يفرد فيها للجغرافيا مكان هام . أما من حيث الكم فقد ظل الأدب الجغرافى حافلا بمؤلفاته إلى بداية نهضة الأدب العربى فى القرن التاسع عشر . بيد أن النتيجة الحتمية للغزو المغولى كانت فى أن فقدت اللغة العربية سيطرتها نهائياً على المشرق واحتلت مكانها هناك اللغة الفارسية التى أخذت تظهر بها ابتداء من هذا العصر بالذات مصنفات تاريخية وجغرافية تمثل قمة الإنتاج الأدبى بالنسبة لعصرها فى جميع أقطار العالم الإسلامى . ومن الملاحظ فى القرن الرابع عشر أن المصنفات العربية الكبرى فى هذا المجال قد ظهرت بالشام ومصر اللتين احتفظتا بقصب السبق حتى العصر الحديث تقريباً هذا بينما توقفت العراق عن أن تلعب أى دور ذى بال فى هذا الميدان .

حواشى الفصل الثالث عشر

(١) – Pons Boigues, p. 306-310, No 260

(٢) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p, 136

(٣) – Ibn Sa'id, p. 440

(٤) – Reinaud, Introduction, p. CXLI

(٥) – Ibn Sa'id, p. 440

(٦) – Brockelmann, GAL, I, p. 337

(٧) من المحتمل أنه قد حدث خلط ها هنا فيا يتعلق بالقصة التى يرويها المقرى عن آخرين (الجزاء الأول ، ص ٧٠٧ ، وقارن ص ٧٠٦ السطر الثالث من أسفل) .

(٨) – Pons Boigues, p. 309

(٩) المقرى ، الجزء الأول ص ٦٤٨ = Schack, I, p. 178-181

(١٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ ، السطر ١٣ وما يليه .

(١١) شرحه الجزء الأول ، ص ١٢٨ ، السطر ١٧ إلى ص ١٢٩ ، السطر ١ .

(١٢) هاتان الفقرتان الأخيرتان أضافهما كراتشكوفسكى مؤخراً .

(١٣) – Brockelmann, GAL, SB, I, p. 576, I.

(١٤) – Trummeter

(١٥) – Cf. Amari (—Nallino), I, p. 41-42, No 10

(١٦) – Moritz, Ibn Sa'id, I, p. 292-305

(١٧) – Reinaud, Introduction, p. CXLII-CXLIII — Amari (—Nallino), I, p. 55-56, No 18

(١٨) – Rosen, Notices sommaires, p. 181, No 233

(١٩) – Derenbourg Schefer, t.-à-p., p. 39 — Brockelmann, GAL, SB, I, p. 577, 3 and 880, No 10, at the end.

(٢٠) – Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. VI, note

(٢١) – Brockelmann, GAL, I, p. 337,3 — Trummeter, p. 12, II, Geographisches, No 1

(٢٢) – Honigmann, Die sieben Klimata, p. 181 and note 4

(٢٣) – Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 232-235

(٢٤) شرحه p. 235-236

(٢٥) شرحه p. 236-238

(٢٦) شرحه p. 240

(٢٧) – Reinaud, Introduction, p. CXLIII

(٢٨) – Amari (—Nallino), I, p. 55-56

(٢٩) – Amari, Frammenti, p. 388-392

(٣٠) – Kramers, EI, EB, p. 69,70

(٣١) – Kramers, Legacy, p. 102

(٣٢) – Ferrand, EI, IV, p. 508 — Storbeck, p. 59-60

(٣٣) – Ferrand, Relations, II, p. 317-320 —Ferrand, K'ouen Louen, p. 445 446, 479, 204 sui = t. à p. 115-116, 149, 230 = Hudud, p. 205, No 29 ; Hennig, II, p. 314-319

(٣٤) – Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 241

(٣٥) – Blachère, p. 276-277

(٣٦) شرحه p. 278-279

(٣٧) – Streck, Al-Kazwini, p 901

(٣٨) شرحه .

(٣٩) شرحه .

(٤٠) – Reinaud, Introduction, p. CXLIV

(٤١) – Browne, Literary History, II, p. 483

(٤٢) – Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 37-40

(٤٣) – Reinaud, Introduction, p. CXLV — Streck, Al-Kazwlni, p. 901 — Sarton, Introduction, II, p. 868-869 — Ruska, GZ, p. 596

(٤٤) – Amari (–Nallino), I, p. 57

(٤٥) – Streck, Al-Kazwini, p. 901

(٤٦) – Bodenheimer, I, رسم 46,47, لوحة IV, cf. II, p. 305, note 34

(٤٧) – Streck, Al-Kazwini, p. 901

(٤٨) – Streck, Al-Kazwini, p. 902 — Brockelmann, GAL, SB I, p. 882

(٤٩) – Kramers, EI, EB, p 70

(٥٠) – Wright — Kokovtsov, p. 174

عن الطبعة والترجمة راجع : Kayser

(٥١) – Taescher, GLO, p. 37 and 38,

وخاصة الزيادة فى صفحة ١٤٤ .

(٥٢) – Streck, Al-Każwini, p. 902-903

(٥٣) – Sedelnikov, p. 165-167 — Krachkovski, Arabskie geografy, p. 756

(٥٤) – Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٥٥) – Kramers, EI, EB, p. 70

(٥٦) – Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٥٧) – Browne, Literary History, II, p. 483 ; III, p. 64-65

(٥٨) – Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٥٩) – Browne, Literary History, II, p. 483

(٦٠) – Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٦١) شرحه p. 903-904

(٦٢) – Honigmann, Die sieben Klimata, p. 168

(٦٣) – Hudud, p. 419 (=Wüstenfeld, El-Cazwini's Kosmographie, II, p. 406-407, 397-399).

(٦٤) – Streck, Al-Kazwini, p. 904

لعله ينبغى قراءتها المليانى ؛ راجع ياقوت ، المعجم الجزء الرابع ، ص ٦٣٩ ، الأسطر ١٣ – ١٤ حيث يروى نقلا عن المليانى قصة عن تنس(بعد عام ٦٢٠ ه = ١٢٢٣) ؛ راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٧٨، الأسطر ٢١ – ٢٣ .

(٦٥) – Streck, Al-Kazwini, p. 901

(٦٦) – Ruska, GZ, p. 596

(٦٧) – Ansbacher

(٦٨) – Taeschner, Die Psychologie Kazwini's

(٦٩) ع . م . العقاد ، الفصول ، ١٢٣ – ١٢٧ .

(٧٠) – Mohammed Ben Cheneb, Al-Abdari, p, 71-72 — Sarton, Introduction, II, p. 1065-1066 — Mieli, p. 211 and 212, note 6 — Reinaud, Introduction, p. CXXVI — Pons Boigues, p. 310-313, No 261 — González Palencia, p. 201 — Amari (–Nallino), I, p. 56, No 20

(٧١) – Levi della Vida, EI, II, p. 1243

(٧٢) – Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٧٣) – Bons Boigues, p. 310

(٧٤) – Cherbonneau, p. 172

(٧٥) شرحه p. 174

(٧٦) – Pons Boigues, p. 310

(٧٧) – Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٧٨) شرحه

(٧٩) – Pons Boigues, p. 313; cf. Gonzàlez Palencia, p. 201

(٨٠) – Mohammed Ben Cheneb , Al-'Abdari, p. 72

(٨١) – Brockelmann, Amelang, p. 167 -- Mohammed Ben cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٨٢) – Cf. Pons Boigues, p. 311

(٨٣) – Cherbonneau p. 172

(٨٤) – W. Wright, Ibn Jubayr, p. 16-17- Schiapaelli, Ibn Gubayr, p. XIV

(٨٥) – Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٨٦) – Pons Boigues, p. 311

(٨٧) ترجمة الشذور ، راجع شرحه ، Cherbonneau, p. 150-170-p. 311 — 313

(٨٨) – Hoenerbach, ZDMG, 94, 3, ص11 –Hoenerbach, Itinerar des 'Abdari, p· 193

(٨٩) – Brockelmann, GAL, II, p. 83, No 1; SB II, p. 95 - Brockelmann, Al-'Abdari p. 72

(٩٠) – Mielck, p. 6

(٩١) – Reinaud, Introduction, p. CXXVII, -- Devic, Litt. géogr. arabe, p. 389-390 (t. á. p., p. 28-29) — Pons Boigues, p. 314, No 264 -- Gonzalez Palencia, p. 201

(٩٢) – Reinaud, p. CXXVII

(٩٣) – Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 16 Kramers, EI, EB, p. 70 – Ahlwardt, V, p. 432, No 6132

(٩٤) شرحه

(٩٥) – Brockelmann, GAL, I, p 482, No 13; SB I, p. 883 – Ibn Shaddad, p. 445 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 146, No 362 — I. Guidi, محاضرات ص ٢٢

(٩٦) – Ledit, Al-Alak, p. 163

(٩٧) شرحه p. 165

(٩٨) شرحه p. 166

(٩٩) شرحه p. 167

(١٠٠) شرحه – Cahen, p. 110

(١٠١) – Cahen

(١٠٢) – Ledit, Al-Al'äk, p. 161-223 – Ledit, Ibn Saddäd, p. 586-608

(١٠٣) – Ledit, Al-A'läk, p. 166

(١٠٤) – Cahen, p. 109

(١٠٥) – Ledit, Al-A'läk, p. 167-169

(١٠٦) شرحه p. 169-170

(١٠٧) – Sauvaire, JA, Série 9, VI, 1895, p. 409. note a — Brockelmann, GAL SB I, p. 883, No 13

(١٠٨) حبيب الزيات ، المشرق ، المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٥٠٤ – ٥٠٥

(١٠٩) – Cahen, p. 110

(١١٠) – Ledit, Al-A'läk, p. 169-170

(١١١) شرحه p. 167-168

(١١٢) شرحه p. 173-178

(١١٣) شرحه — Cahen, p. 110 p. 178

(١١٤) – Cahen, p. 110

(١١٥) شرحه

(١١٦) حبيب الزيات ، المشرق ، المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٥٠٦

(١١٧) شرحه ، ص ٥٠٥

(١١٨) – Bartold, Djuwaini, p. 1115-1117 – Bartold, Iran, p. 73-74 — Sarton, Introduction, II, p. 1123-1124 – Kramers, EI, EB, p. 71 — Krymski, Istoria Persii, III, No I, p. 40-43 – Romaskevich, Djekhan-name, p. 50-52 Volin, — Orda, II, ch. II, p. 20-24 — Browne, Literary History, II, p. 434, 435, 443, 473; III, p. 20-21, 24-25, 65-67

(١١٩) – Bartold, Djuwaini, p. 1117

(١٢٠) – Brockelmann, GAL, I, p. 349, No 17; SB I, p. 591 — Brockelmann, Barhebräus, p 634-685 – Sarton, Introduction, II, p. 975-979 – Wright – Kokovtsov, p. 190-204 — Baumstark, p 312-320 – Chabot, p. 131-137 – Browne, Literary History, II, p. 468-469 — Nöldeke, Orientalische, Skizzen, p. 253-273

شيخو ، المشرق : المجلد الأول ، ص ٢٨٩ – ٢٩٥ ، ٣٦٥ – ٣٧٠ ، ٤١٣ – ٤١٨ ، ٤٤٩ – ٤٥٣ ، ٥٠٥ – ٥١٠ ، ٥٥٥ – ٥٦١ ، ٦٠٥ – ٦١٢

– Brockelmann, Syr. u. chr. – ar. Litt., p. 60-62

(١٢١) شيخو ، المشرق ، المجلد الأول ، ص ٥٠٧ – ٥٠٨

Wright - Kokovtsov, p. 194 - Baumstark, p 318, note 1 — Nau, Le Livre de l'ascension de l'esprit.

(١٢٢) Sarton, Introduction, II, p. 975

(١٢٣) شرحه

(١٢٤) – Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2

(١٢٥) – Wright - Kokovtsov, p. 194 — Baumstark, p. 318 - Sarton, Introduction, II, p. 975

(١٢٦) – Sarton, Introduction, II, p. 978, No 6 — Baumstark, p. 315, note 1 – Wright – Kokovtsov, p. 197 - 200

(١٢٧) – Gottheil, p. 39 - 55 (p. 40 - 46 والترجمة p 47 - 55 المتن)

(١٢٨) شيخو ، المشرق ، المجلد الأول ، ص ٤٥١

Cf. Cheikho, Catalogue, p. 10, No 31, 1

(١٢٩) – Kramers, EI, EB, p. 71

(١٣٠) – Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3

(١٣١) V, p. 168-172 : عن الوصف راجع شرحه Miller, V, Beiheft, Taf. 81; عن الصور راجع

(١٣٢) شرحه p 170

(١٣٣) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167

(١٣٤) – Miller, I, p. 9

(١٣٥) شرحة V, p. 169

(١٣٦) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167 - 168

(١٣٧) شرحه p. 167

(١٣٨) – Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3

(١٣٩) – Wright — Kokovtsov, p. 211 - 212, Note — Baumstark p. 325 - 326, g) and. p. 326, note 1 — Sarton, Introduction, II, p. 1068 – 1070

(١٤٠) – Sarton, Introduction, II, p. 1069

(١٤١) – Wright - Kokovtson, p. 182 - 183, note

الفصل الرابع عشر

القرن الرابع عشر

—

377 بدأ نصيب الأندلس والمغرب فى تطور الأدب الجغرافى يتضاءل بصورة ملحوظة فى القرن الرابع عشر؛ وكان السبب فى ذلك هو أن غرناطة قد أصبحت المركز الوحيد للعرب فى شبه الجزيرة الأيبرية ، وهى إن ظلت محتفظة بهالة من الحضارة السالفة إلا أنها كانت دائماً تحت رحمة جيرانها الشماليين . وقد أثبت نمط الرحلة بجدارة أنه أكثر الأنماط مقاومة ورواجاً غير أن اهتمام المغاربة به كان يتجاوز اهتمام الأندلسيين ، وظل هذا الاتجاه مزدهراً بين ظهرانيهم حتى اختتمه ابن بطوطة فاختتم بذلك فى نفس الوقت سلسلة الرحلات العربية ذات الأهمية العالمية . وباستتباب سلطان المماليك بمصر مدة قرنين من الزمان اقتضت ظروف الحكم أن تولى عناية خاصة للأدب الجغرافى فى جميع أنماطه التى عرفناها من قبل ، فنلتقى فى هذا العصر بنمطى الفضائل والخطط وقد ظل هذا الأخير مزدهراً بمصر حتى القرن التاسع عشر؛ كما نما بصورة خاصة نمط الموسوعات الذى ساد فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والذى يمثله عدد من المصنفات الضخمة التى تقع فى مجلدات عديدة . أما الشام فتقدم لنا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر مصنفين هامين فى الكوزموغرافيا هما مصنفا أبى الفدا والدمشقى ؛ وقد نال الأول منهما شهرة لم يبلغها غيره فى الدوائر العلمية الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأما إلى الشرق من الشام فإن الأدب الجغرافى يبدو لنا فى قالبه الفارسى وحده ، وإن أسماء رشيد الدين فضل الله وحمد الله قزوينى لتقف شاهداً على أن أهميته قد تجاوزت حدود بلاده . وقد رأينا من الأفضل أن نغض النظر عن التتابع الزمنى بعض الشىء فنؤجل الكلام على موسوعات عهد المماليك إلى الفصل التالى لهذا بوصفها نمطاً جديداً فى الأدب الجغرافى وسنختتم ذلك الفصل نفسه بوصف رحلة ابن بطوطة الذى يعتبر من الناحية الزمنية آخر أثر جغرافى كبير يظهر فى القرن الرابع عشر . أما الآثار العديدة الأخرى والتى تنتمى جميعها بالتقريب إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر فسيجرى فحصها وتحليلها فى هذا الفصل الواحد تلو الآخر متجهين من المغرب إلى المشرق .

وأول ما يواجهنا منها هو نمط الرحلة التى أخذت تعكس الاهتمام بالعلوم الطبيعية إلى جانب الأدب الفنى والتى تذكرنا إلى حد ما بما لاحظناه فى العصر السابق لهذا . وإلى هذا النمط ينتمى مصنفان لمحمد بن رشيد

378 الفهرى الأندلسى[١]* الذى ولد بسبتة فى عام ٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ وخرج من المرية لأداء فريضة الحج فمر فى طريقه بشمال أفريقيا ومصر وزار الشام أيضاً . وعند عودته اشتغل بعض الوقت بالتدريس فى غرناطة ثم أمضى بقية عمره فى كنف عثمان الثانى من بنى مرين بفاس إلى وفاته بها فى عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١. وإلى جانب مؤلفاته العديدة فى الحديث فإن له وصفاً لرحلتين مختلفتين من حيث العنوان ولكنهما تحملان أحياناً اسما جامعاً هو « الرحلتان » . أما الأولى منهما فيصف فيها طريقه فى أفريقيا والمرجح أنها وجدت فى عدة أجزاء ، غير أن ما تبقى منها موجود بمكتبة الاسكوريال وهو بخط يد المؤلف ويعالج الكلام عن علماء الإسكندرية والقاهرة فى نهاية القرن الرابع عشر ؛ وعنوانها الذى تغلب عليه الصنعة يعكس بحق مضمون هذه الرحلة وهو « ملء العيبة فى ما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكة وطيبة »[٢].
أما الرحلة الثانية فتتناول الكلام عن أهل الحديث والفقهاء الأندلسيين وقد فرغ من تأليفها فى حوالى عام ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ بسبتة . وكلا الرحلتين كانتا فى جوهرهما تمثلان الطراز المعروف لنا جيداً وهو « يوميات عالم » ، ومما يلفت النظر فيهما أن المؤلف إلى جانب اهتمامه بالأدب يهتم كذلك بالتاريخ الطبيعى . ومن الممكن تكوين فكرة واضحة عن كتابيه ومحتوياتهما ولو من خلال تلك الشذرة التى يفردها للكلام عن مصحف عثمان الموجود بمسجد قرطبة والتى نقلها عنه المقرى[٣] فى القرن السابع عشر ، وكذلك من خلال موقفه من صدق عقيدة الشاعر إبراهيم بن سهل[٤] أو الكاتب ابن حبيش الذى كان تلميذاً له[٥] .

وإلى هذا العصر نفسه بالتقريب ترجع « رحلة » محمد بن أحمد التجانى الذى لا علم لنا بتفاصيل سيرة حياته بل إن اسمه لم يثبت حتى الآن بصورة قاطعة[٦] . وكل ما يمكن استقراؤه من مصنفه أنه خرج من تونس لأداء فريضة الحج عام ٧٠٦ هـ = ١٣٠٩ فى صحبة أمير من بنى حفص هو يحيى بن زكريا ، وفيما بعد عندما أصبح هذا الأمير حاكماً على تونس صار التجانى من عماله المقربين إليه . وتاريخ وفاة التجانى كتاريخ ميلاده مجهول لنا جهلا كاملا .

ولما كان سير الرحالة بطيئاً ومجالها محدوداً فقد كان ذلك فى مصلحة الوصف إلى حد كبير إذ تمكن المؤلف بذلك من الوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته فى طريق سيره القصير . وقد برهنت رحلته على 379 أهميتها الكبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية عن جميع المناطق التى زارها وعن الأصقاع المجاورة لها . وهى تتناول مسائل الجغرافيا كما تتناول مسائل التاريخ الطبيعى وبوجه خاص التاريخ البشرى ؛ وكما جرت العادة فإنه يستشهد بمختلف المؤلفين ويقتبس أحياناً من الوثائق ، أما أسلوبه فى العرض فأدبى صرف ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولة التدليل على سعة معارفه ومهارته ككاتب فهو فى هذا الصدد أفضل بكثير من غيره من الكتاب الذين عالجوا التأليف فى هذا النمط . وبعد قرن من الزمان

---

* راجع المقال الذى دبجه يراع العلامة المغربى محمد الفاسى عن هذا الرحالة ونشر « بمجلة معهد المخطوطات العربية » (المجلد الخامس ، ١٩٥٩) . (المترجم)

قدره ابن خلدون تقديراً كبيراً وآفاد من مصنفه مراراً عديدة فى تلك الأجزاء من تاريخه التى أفردها لشمال أفريقيا[٧] . وقد دللت أبحاث أمارى على أن التجانى يقدم معلومات تاريخية وجغرافيه ذات قيمة كبرى من ذلك ما كتبه عن جزيرة جربه بل وعن صقلية نفسها . ولم تطبع رحلته حتى الآن* ولكن يمكن الاطلاع على شذرات هامة منها فى ترجمة روسو Rousseau التى ترجع إلى الخمسينيات من القرن الماضى[٨] وتستند على اختيار تحكمى للنصوص مع سوء فهم للمتن أحياناً . أما أمارى Amari وبل Bel فإنهما لم يتعرضا فى كتابيهما إلا لقسم ضئيل من الرحلة[٩] .

ومما لا شك فيه أن البحث الدقيق المتواصل فى المصادر سيمكن من الكشف عن مجهودات أكثر أصالة فى القرن الرابع عشر فى البلاد العربية ؛ ويقص علينا العمرى ، وهو من مؤلفى النصف الأول من هذا القرن وسيرد الكلام عنه فيما يلى ، أن أحد ملوك الزنج بعث بجماعة من ساحل أفريقيا الغربى لدراسة المحيط الأطلنطى[١٠] ؛ ومما يؤسف له أن قصته هذه جاءت عرضاً وبصورة مقتضبة ولكن يمكن بكل اطمئنان إرجاع هذه المحاولة إلى عام ١٣٠٠ — ١٣٠٧ ؛ وفيما عدا ذلك فمن العسير إضافة شىء ذى بال . أما فيما يتعلق بإمكان حدوث هذه المغامرة من وجهة النظر التاريخية فهذا شىء ممكن للغاية ، غير أن القول بأنها تمثل « المحاولة الثانية للمسلمين للكشف عن أمريكا[١١] » كما وصفها أحد العلماء العرب المعاصرين فهو قول لا يقوم على أسس وجيهة .

وتحتل مصر المكانة الأولى فى هذا العصر فيما يتعلق بسعة الإنتاج الأدبى فى محيط الجغرافيا موكدة بذلك استمرار تقاليدها الأدبية دون انقطاع بحيث يمكن أن نلتقى بجميع الأنماط الجغرافية المختلفة حتى تلك التى ترتفع إلى القرنين التاسع والعاشر . فإلى نمط الفضائل الذى وصفناه من قبل يمكن أن نرجع مصنفاً صغيراً للحسن بن عبد الله الصفدى الذى يجب عدم الخلط بينه وبين المؤرخ المشهور خليل بن أيبك الصفدى[١٢] ؛ أما حياته فلا نعرف عنها إلا القليل[١٣] ويبدو أنه كان من المقربين إلى السلطان الناصر ابن قلاوون الذى حكم مصر ثلاث مرات (كانت آخرها من عام ٧٠٩ هـ إلى ٧٤١ هـ = ١٣١٠ — ١٣٤١) . وهو ينتمى إلى فئة الموظفين المشتغلين بالأدب الذين حفل بهم هذا العصر ، وله تاريخ مختصر لمصر تحمل إحدى مخطوطاته عنواناً يغلب عليه التكلف هو « نزهة المالك والمملوك فى مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك » ؛ وحيث أن القسم الأول من الكتاب يعالج « الفضائل » فإنه يحمل فى بعض مخطوطاته العنوان المعهود لنا جيداً وهو « فضائل مصر » . أما القسم التاريخى من الكتاب فإن أقيم ما فيه هو ما جاء بصدد « الأتراك » أى السلاطين المماليك ، وهنا ندين له بوصف دقيق لحوادث السنوات الأخيرة للقرن السابع الهجرى بمصر ويبحث القسم الأول فى مختلف الفضائل الطبيعية والروحية لمصر ؛ وهو نمط معروف لنا جيداً وكان مبعثه فى الأصل كما أبصرنا من قبل هو الأحاديث النبوية المتعلقة بالجغرافيا : أما التواريخ المذكورة

---

* نشر متن الرحلة العلامة التونسى الكبير حسن حسنى عبد الوهاب فى عام ١٩٥٨ . (المترجم)

فى الكتاب فلا تتعدى الخمسة عشر عاماً الأولى من القرن الرابع عشر ؛ وهناك أساس للافتراض بأن الكتاب قد تم تأليفه فى عام ٧١٦ هـ = ١٣١٦ — ١٣١٧؛ وأحياناً قد يسوق النساخ تكملة هذا الكتاب إلى نهاية القرن الرابع عشر.

وقد كان لنمط الخطط ، وهى طراز من الجغرافيا التاريخية قائم بذاته ، ممثلوه فى هذا العصر أيضاً فهم كأنما كانوا يمهدون الطريق بهذا إلى الاكتمال الذى بلغه هذا الفرع من الأدب الجغرافى فى مؤلف المقريزى القيم . وبفضل الشذرات التى حفظها لنا المقريزى نفسه أصبح معروفاً لنا اسم أحد المصنفات الأساسية فى هذا المجال وهو لمحمد بن عبد الوهاب الزبيرى الذى اشتهر باسم ابن المتوج (توفى فى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠)[١٤] وكثيراً ما أطلق عليه لقب ابن القاضى ، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى نفس الوسط الإدارى الذى ينتمى إليه المؤلف السابق عليه ؛ أما كتابه فباستثناء حالات طفيفة تتعلق باختلاف القراءات فإنه يحمل عنوان «كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل» . ويقول عنه المقريزى إنه كان آخر مؤرخ للخطط[١٥] وأنه « يبين جملا من أحوال مصر وخططها إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة ، قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم فى وباء إحدى وستين ، ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة »[١٦] . 381

ومن الطريف أن المقريزى الذى استقى منه مادة وافرة عن بلاد مصر وآثارها المختلفة ومساجدها ومشاهدها[١٧] لا يشير إليه إطلاقاً فيما يتعلق بالقاهرة التى يغلب على الظن أنه لم يعالج الكلام عنها[١٨] ؛ كما ينقل عنه القلقشندى[١٩] فى موسوعته الدواوينية . ويشير حاجى خليفة[٢٠] عدة مرات إلى مصنفه ولكن فى عبارات تحمل على الاعتقاد بأنه لم يطلع على الكتاب نفسه بل كان يكرر ألفاظ المقريزى[٢١] ؛ وكما هو معلوم فإن ذلك المؤرخ الكبير للمؤلفات الإسلامية (Bibliograph) أبعد من أن يكون قد رأى رأى العين (de visu) جميع المصنفات التى تحدث عنها .

وإلى جانب المؤلفات الجغرافية من طراز الفضائل والخطط فإن مصر عرفت فى القرن الرابع عشر أيضاً المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضى حيناً فى شكل رسمى جاف وحيناً آخر موضحة بمعلومات إضافية ؛ وآخر هذه « الروكات » ، أى سجلات مسح الأراضى ، وأبعدها صيتاً هو « الروك الناصرى» المعروف والذى يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ . ويفترض دى ساسى أنه قد وجد أيضاً « روك » آخر تم وضعه فى عهد الملك الأشرف شعبان فى حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد نشر له هذا المستشرق ترجمة فى تذييلاته لكتابه عن عبد اللطيف البغدادى . وكما بين موريتز[٢٢] فإن هذا الأثر لا يمثل فى الواقع وثيقة رسمية بل هو عبارة عن مرشد عمل من أجل عمال الدواوين ويحمل عنوان « تقويم البلدان المصرية فى الأعمال السلطانية » ، وهو مضمن برمته فى مصنف متأخر من تأليف يحيى بن الجيعان الذى سيمر بنا الكلام عليه فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)[٢٣] :

والآن وقد فرغنا من الكلام على جميع هذه المصنفات التى لا تخلو أحياناً من الأهمية والفائدة فى محيطها فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا بأنها ليست هى التى تمثل الطابع المميز للأدب الجغرافى العربى بمصر فى ذلك العصر إذ أن شرف هذا يعود إلى سلسلة الموسوعات التى ظهرت إلى عالم الوجود فى ذلك العهد بالذات والتى سنتحدث عنها فى الفصل التالى لهذا . وفى الوقت نفسه 382 تقدم لنا الشام عالمين يختمان بجدارة هذا العصر ويحتلان إلى جانب أصحاب الموسوعات المكان الأول من بين مجموعة الكتّاب الذين لا يمكن تجاهلهم فى عرض عام للأدب الجغرافى عند العرب .

وكلا هذين المؤلفين لا ينتميان إلى الوسط الذى انتمى إليه الكتاب المصريون الذين ورد ذكرهم قبل قليل ؛ وأولهما وهو شمس الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى ولد فى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦[٢٤] أى قبل استيلاء هولاكو على بغداد بعامين فهو بهذا قد كان معاصراً منذ طفولته لسيل الحوادث الذى اجتاح العالم الإسلامى . وفى عام ١٢٦٠ الحق السلطانى بيبرس هزيمة نكراء بالمغول فى الشام فوضع بذلك حداً لتهديدهم لمصر ووثق العُرى بين مصر والشام اللتين ظلتا طوال عهد المماليك خاضعتين لإدارة واحدة ؛ كما كان المغرب بدوره فى ذلك العهد مسرحاً لحوادث كبرى فمنذ عام ١٢٦٤ لم يبق تحت السيادة العربية بأسبانيا سوى غرناطة . هذا وقد أمضى الدمشقى معظم حياته بمسقط رأسه دمشق إماماً بمسجد الربوة ، ولقب بالصوفى لميوله التصوفية . ويبدو أن هذه الميول هى المسئولة عن اعتزاله العالم فى أواخر أيام حياته وإقامته بناحية من أعمال فاسطين حيث عاش عيشة الزهاد إلى وفاته فى عام ٧٢٧هـ = ١٣٢٧ ، أى قبل وفاة أبى الفدا بأربعة أعوام .

وعلى الرغم من جنوحه إلى التصوف إلا أنه خلف وراءه عدداً كبيراً من المؤلفات يكشف بعضها عن اهتمام ومعرفة جيدة بالعلوم الدنيوية ؛ وأكثرها شهرة وأهمية بالنسبة لنا هو كتابه فى الكوزموغرافيا « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » . وعلى نحو ما سنرى فإن طريقة تصنيفه للمادة تكاد تنطبق على طريقة القزوينى[٢٥] إلا أنه لا يكررها دون تدبر . وينقسم الكتاب إلى تسعة أبواب يشغل الأول منها المقدمة التقليدية فى شكل الأرض ووصف الأقاليم السبعة وفصول السنة وبعض الآثار القديمة ، أما الفصل الثانى فيبحث فى المعادن والجواهر والأحجار الكريمة بينما يصف الثالث الأنهار والعيون والآبار التى تناقل ذكرها التاريخ ؛ والباب الرابع مكرس للكلام على البحار أما الخامس فيتحدث عن البحر الأبيض المتوسط خاصة ويتضمن وصفاً مفصلا لميناء الإسكندرية بينما يعالج السادس الكلام على « بحر الجنوب » (أى المحيط الهندى) . أما اليابس فقد أفرد له البابان السابع والثامن فيرد فى أولهما الكلام عن « الممالك المشرقية » 383 ابتداء من الشرق الأقصى فى اتجاه الغرب وذلك على ثلاث مناطق متوازية تشمل الهند وإيران والشرق الأدنى ؛ ويعالج الثانى الكلام على القسم الغربى من الأرض « الممالك المغربية » فيبدأ بوصف مصر

ثم يتابع ساحل أفريقيا الشمالى ابتداء من برقة إلى المحيط ثم يلى هذا بالتتابع وصف مراكش والبربر والسودان والزنوج ، وتشغل الأندلس الجزء الأخير*.

وتقدير العلماء الأوروبيين للدمشقى لا يخلو من بعض التحفظ فهم يعتبرونه عادة دون الكوزموغرافيين الآخرين من وجهة النظر العلمية ، فمثلا دفيك Devic يراه دون القزوينى بكثير سواء من حيث المعرفة أو روح النقد[٢٦] . والدمشقى على نقيض أبى الفدا يهمل الجغرافيا الرياضية ولكن كتابه الذى يعتبر فى آن واحد مصنفاً فى الجغرافيا والكوزموغرافيا يفضل كتاب أبى الفدا من حيث تبويب مادته ولو أنه أقل ملاءمة لروح عصره[٢٧] ؛ وهو ذو أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعى[٢٨] لأنه يحفل بمعطيات وافرة فى النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض ؛ ويغلب على طابع الكتاب الميل إلى الروحيات ولكن ليست من ذلك الطراز البدائى البسيط . ومن تحليل مصنف آخر له يجادل فيه نصارى قبرص الذين تصدى للرد عليهم أيضاً مواطنه ومعاصره المشهور ابن تيمية يستبين لنا أن الدمشقى لا ينتمى إلى مدرسة المتصوفين القديمة المعادية لكل فكر فلسفى بل ينضم إلى ذلك الاتجاه الذى اقتفى أثر ابن العربى والذى يجيز تطبيق المنهج التشككى فى حدود معينة[٢٩] .

ومما يزيد فى قيمة كوزموغرافيا الدمشقى والمصنفات المشابهة له وجود معلومات غير قليلة فيها نفتقدها لدى المؤلفين الآخرين ، هذا إلى جانب الإشارة إلى مواضع جغرافية معينة تصمت عنها المصادر الأخرى صمتاً مطبقاً . وتحتل المكانة الأولى مادته عن الشام وفلسطين التى عاش كل حياته فيها والتى يعتبر كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها ، وفى الواقع أن وصفه لهذه البلاد يعتبر من أكمل ماعرف فى هذا الصدد[٣٠] ، وعند المقارنة به تهبط قيمة الأقسام الأخرى من كتابه المكرسة للكلام على البلاد الواقعة إلى الشرق من البلاد العربية خاصة مناطق المحيط الهندى[٣١] كما بين ذلك فيران Ferrand . أما فيما يتعلق بالهند نفسها فقد أدان العلماء الدمشقى بأخطاء عديدة[٣٢] .

وترد الإشارة فى مقدمة بعض المخطوطات إلى خارطة بالكتاب إلا أنه لم يمكن الكشف عنها حتى الآن فى أية واحدة من المخطوطات المعروفة[٣٣] ؛ بيد أنه إذا أخذنا فى الاعتبار أن جميع كتب الكوزموغرافيا من هذا الطراز كمصنف القزوينى والحرانى وابن الوردى قد وجدت بها خارطة مستديرة للعالم فإن الاحتمال يغلب بوجودها عند الدمشقى أيضاً . وبعض مخطوطات الكتاب يحمل عدداً كبيراً من الرسومات التخطيطية ، ويقدم لنا كونراد ميلر تحليلا لثلاثة منها يبين أحدها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ويوضح الآخر توزيع الشعوب على الأرض بينما يمثل الثالث رسما للبحر الأبيض المتوسط[٣٤] .

384

والدمشقى نادراً ما يشير إلى مصادره وهى جميعها أسماء معروفة لنا كابن حوقل والمسعودى والبكرى والإدريسى[٣٥] ؛ ويحتل مكانة بارزة من بينها معاصره أحمد الطيبى ، ولعله هو نفس ذلك المؤلف

* لا ضير فى أن نضيف أن الباب التاسع والأخير يبحث « فى وصف انتساب الأمم إلى سام ويافث وحام أولاد نوح » . (المترجم)

الذى ترد الإشارة إليه تحت لقب الوطواط الوراق (توفى فى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨) وهو من أوائل واضعى الموسوعات وسيرد الكلام عنه فى الفصل التالى لهذا . والرأى الذى أخذ به من قبل[٣٦] ومؤداه أن كتاب الدمشقى ليس إلا نقلا من كتاب هذا المؤلف الأخير لايستند على أى أساس من الواقع .

هذا وقد عرفت كوزموغرافيا الدمشقى منذ السنوات الستينات من القرن الماضى (١٨٦٦ ، ١٩٢٣) فى طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستعرب الدنماركى مرن Mehren ، غير أن المحاولات الأولى لدراسة هذا الأثر قد ارتبطت إلى حدما بنشاط الاستشراق الروسى . وبفضل انتشار مخطوطات الكتاب بين المجموعات المختلفة فقد بدأ الاهتمام به مبكراً ، فمنذ القرن الثامن عشر نشر المستشرق السويدى نوربرج Norberg مقتطفات صغيرة منه (١٧٩٨ — ١٧٩٩) وفكر فى إعداد طبعة كاملة له[٣٧] . وفى عام ١٨١٩ عندما وصلت إلى المتحف الأسيوى ببطرسبرغ مخطوطة من هذا الكتاب ضمن مجموعة روسو اهتم بها المستشرق فرين Frähn اهتماماً متزايداً حتى أنه تقدم فى العام التالى لهذا باقتراح إلى الأكاديمية بأن تقوم بطبعه[٣٨] ؛ ولما كان حجم الكتاب كبيراً فإن اقتراحه لم يكن يرمى فى الواقع إلى إخراج طبعة علمية للمتن بقدر ماكان يهدف إلى نشر مخطوطة بطرسبرغ ؛ وقد بدأ الطبع فعلا ولكنه حين وصل إلى الصفحة الثانية عشر بعد الثلاثمائة أتى الحريق على بقية الصفحات المعدة للتصحيح[٣٩] . ولهذا السبب أو لأسباب أخرى اضطر فرين إلى الإقلاع عن السير فيه ؛ وفى عام ١٨٦٦ فقط ، أى بعد مضى خمسة عشر عاماً على وفاة فرين ، جمعت الصفحات التى لم تمتد إليها النيران وجلدت وصدرت بوصفها مخطوطة ، ولم يتجاوز المطبوع منها المائة نسخة يضاف إلى هذا صفحة تحمل العنوان باللغة الفرنسية ولاتحمل أى توضيح آخر ؛ وقد بلغ المتن بالتقريب إلى وصف فلسطين وهو يضم ثلثى الكتاب . وفى ذلك العام نفسه ظهرت طبعة مرن الذى كان أول من اهتم بدراسة الدمشقى ولم يكن له أى علم بمجهود فرين ؛ وهو قد اعتمد فى ذلك على المخطوطة الموجودة بكوبنهاغن . وقد بدأ بنشر ترجمة لأقسام من الكتاب وعمل دراسات حول نقاط معينة منه (الشام وفلسطين ؛ شبه جزيرة البرانس الخ)[٤٠] ، ثم استعان بالمادة التى أعدها فرين فأخرج طبعة كاملة للكتاب قامت بنشرها أكاديمية العلوم الروسية . ونتيجة لتعرف العلماء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على المؤلفين السابقين للدمشقى وعلى مؤلفى الموسوعات أيضاً فقد تضاءل الاهتمام به بصورة ملحوظة وكان آخر بحث يتصل بكتابه هو بحث دهيران Deherain عن أفريقيا لدى الدمشقى الذى ظهر فى عام ١٨٩٨[٤١] : بيد أن هذا لا يمنع من القول بأن كتابه لا يزال يجتذب أنظار العلماء فيما يتعلق بمسائل معينة .

385

. وينتمى إلى نمط الكوزموغرافيا ، مرتبطاً بعض الشىء بمؤلف الدمشقى ، كتاب أحمد بن حمدان ابن شبيب الحرانى بعنوان « جامع الفنون وسلوة المحزون »[٤٢] . ولايزال الغموض بكل أسف يكتنف عدداً من المسائل المتعلقة بشخص المؤلف نفسه وبمسودة مصنفه التى توجد فيها اختلافات كبيرة تبعاً

لإختلاف المخطوطات(٤٣). والثابت فقط أنه كان بمصر فى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ ؛ ويبصر كرامرس فى مصنفه تأثير المنهج الذى اتبعه الدمشقى فى تبويب مادته ولكن يعتقد أن الكتاب قد اعتمد على أساس جغرافى مغاير(٤٤) وهو أمر يوكده توزيع الأقسام المختلفة للكتاب فى بعض المخطوطات(٤٥). فمثلا تتحدث المقالة الثانية فى مخطوطة لينغراد عن «الآثار العلوية والسفلية» أو بمعنى آخر عن العجائب التى يمكن ملاحظتها فى السموات وفيما بين السماء والأرض ؛ أما المقالة الثالثة فتتحدث عن «الدنيا وأحوالها والدهور والزمان». وهى تحفل بأمشاج من المعلومات المتعلقة بالتقاويم ولكنها تجمع إلى جانب ذلك مواد أدبية ذات طابع انتخابى تزينها الأشعار والأقوال البليغة ، وهذا بالطبع لايتعلق فى قليل أو كثير بالكوزموغرافيا كما وأنه من العسير تحديد ارتباطه بالمسودة الأولى للكتاب ؛ أما المقالة الرابعة فتشمل أنموذجاً جيداً للكوزموغرافيا عند الحرانى بل إن عنوانها نفسه يحدد مضمونها الأساسى وهو «فى عجائب الأقطار وغرايب البحار والأنهار والجبال والقفار» ، فهى تنضم إذن فى جوهرها لنمط العجائب (Mirabilia) المعروف لنا جيداً منذ القرن العاشر . وإزاء كل هذا فإن من السهل علينا أن ندرك السر فى أن قسما كبيراً من هذه المقالة قد أفرد لعجائب مصر التى يستقيها أساساً من مصنف إبراهيم بن وصيف شاه ولو أنه لايشير إليه بصراحة فى صفحات كتابه(٤٦) ؛ وهذا القسم بالذات هو الذى ضمنه بأجمعه تقريباً فى مصنفه فى الكوزموغرافيا سراج الدين بن الوردى وذلك بعد مضى قرن من الحرانى(٤٧) . أما تلك الأقسام من كتاب الحرانى التى تمس بحر قزوين فهى ليست سوى تكرار حرفى لمادة المسعودى والقزوينى(٤٨) . وعلى أية حال فإن كتاب الحرانى مثال جيد لما طرأ على مادة الكوزموغرافيات القديمة من تبسيط وتقريب إلى أفهام الجمهور فى العصور التالية حتى أصبحت تتمتع برواج كبير فى أوساط القراء كما يتضح لنا من كتب ابن وصيف شاه والحرانى وابن الوردى على التوالى .

وإلى جانب الدمشقى يجب أن نذكر شخصية معاصره ومواطنه أبى الفدا الذى احتل فى ميدان العلم مكانة أرفع من مكانته والذى يقول رينو Reinaud عن مصنفه الجغرافى وذلك قبل قرن من الزمان إنه يمثل «إلى جانب الإدريسى موئلفاً ضخماً فى مجاله» ويوكد فى ذات الوقت «أن العصور الوسطى الأوروبية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به» . ولا يزال هذا الحكم صحيحاً فى جوهره حتى أيامنا هذه ولكن يجب أن تعدل بعض تفاصيله على ضوء تطور البحث فى مجال الأدب الجغرافى منذ أن أصدر رينو حكمه هذا . وأبو الفدا على نقيض المؤلفين السابقين له ينتسب إلى فرع دوحة عريقة هى أسرة الأيوبيين التى تولت زمام الحكم فى الشرق فهو بذلك تربطه رابطة الرحم بصلاح الدين الأيوبى ، وإلى جانب هذا فهو يتفرد بين سائر الشخصيات التى تشاركه الحسب والنسب فى أنه لم يكن من بين رعاة الأدب والفن فحسب كما كان الكثيرون غيره بل كان إلى جانب ذلك مؤلفاً كبيراً خلف وراءه مصنفين كبيرين فى التاريخ والجغرافيا . وقد أدى انتسابه إلى تلك الأسرة الكبيرة أن تعددت الأسماء التى عرف بها ، فهو وإن ثبتت

عليه فى الأوساط العلمية الأوروبية كنية أبى الفدا إلا أنه غلب عليه فى الشرق لقبه عماد الدين أو لقب الإمارة الملك المؤيد ؛ أما اسمه فهو إسماعيل بن على الأيوبى. وسيرة حياته معروفة لنا جيداً بفضل ما خلفه لنا من ملاحظات وفيرة فى سيرة حياته الخاصة التى تذكرنا فى بعض خطوطها بسيرة حياة أمير شيزر أسامة بن منقذ الذى عاش بالشام أيضاً ولكن قبل قرن من أبى الفدا وخلف مذكرات ممتعة عن حياته الخاصة(٤٩) . هذا قد سارت حياة أبى الفدا بحسب ما يبتغى حتى اعتقد البعض أن الأقدار حابته كثيراً(٥٠) .

وإلى جانب ما منحته إياه الأقدار من ذهن صاف وقريحة فياضة وملكة شعرية وتملك لمختلف فروع المعارف إلا أنه برز كذلك بشجاعته وصفاته العسكرية ؛ وقد اعترف له معاصروه بالمرونة والاستعداد الدبلوماسى فاستطاع فى تلك الأزمنة الشديدة الاضطراب أن يحتفظ بما ورثه عن آبائه من أملاك بل وأن يوسع رقعتها . وكانت تلك الفترة التاريخية عصيبة حقاً فقد استمر الكفاح ضد الصليبيين من ناحية وضد تحركات المغول على الشام من ناحية أخرى ، أضف إلى هذا أن سلطان المماليك لم يكن قد ثبت بعد فى الشام بصورة قاطعة ؛ وعلى أية حال فقد كانت قرائن الأحوال تشير إلى أن سلطان مصر هو صاحب القوة الكبرى وقد أحس أبو الفدا بهذا ولعل ذلك هو السبب الذى جعله يثبت على ولائه لدولة المماليك . 388

ولد أبو الفدا فى سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ بمدينة دمشق التى كان قد التجأ إليها آنذاك أبوه أمير حماة ؛ وقد سارت مهمة تثقيفه فى الأدب جنباً إلى جنب مع تدريبه العسكرى وصحب أباه وهو فى سن الثانية عشر فى الحملة التى انتزعت من أيدى الصليبيين قلعة المرقب ، كما أخذ جانباً وهو فى سن السادسة عشرة فى إخراج الصليبيين من طرابلس ؛ وفى عام ٦٩١هـ = ١٢٩١ أخذ طرفاً فى حملة على أرمنيا الصغرى بقيادة السلطان لاچين ؛ وتنسب أسطورة أوروبية هذا الأخير إلى جماعة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) وتزعم بأنه قد وصل إلى فلسطين مع الصليبيين ولكنه لم يلبث أن أخذ جانب المسلمين ونال المكانة لديهم شيئاً فشيئاً حتى صار سلطاناً (٥١) ؛ ومن الخير أن نضيف أن هذه الأسطورة مجهولة تماماً فى المصادر العربية (٥٢) .

هذا وقد ربط أبو الفدا كفاحه مع المماليك نهائياً فى عام ٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ وذلك فى عهد خليفة لاچين السلطان الناصر الذى ظل أبو الفدا مخلصاً له طوال حياته . وفى عام ٧٠١ هـ = ١٣٠١ أخذ أبو الفدا طرفاً فى الحملة الثانية للمماليك* على آسيا الصغرى ، وقريباً من ذلك العهد قام بزيارة لبلاط السلطان بالقاهرة لأول مرة فقوبل بما هو أهل له من تقدير واحترام وأعيدت إليه حقوقه الشرعية بعد عامين من هذا فثبت أميراً على حماة . ومنذ تلك اللحظة استقر فى أملاكه ولكنه كان يُرى بالقاهرة فى المناسبات والأعياد كما أدى فريضة الحج بضعة مرات صحب فيها أحياناً السلطان الذى كان يأنس بصحبته ؛ وحوالى

* ورد فى الكتاب سهواً « المغول » بدلا من « المماليك » . (المترجم)

عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ اشترك أبو الفدا فى حملة أخرى على آسيا الصغرى . غير أن هذه الحياة النشطة الدائبة الحركة لم تحل دون اشتغاله بالأدب فإلى هذه الفترة بالذات يرجع تدوين القسم الأكبر من تاريخه الذى ظل يضيف إليه عاماً بعد عام حتى سنة ٧٢٩ هـ = ١٣٢٩ ؛ وفى الوقت نفسه وذلك عندما كان بحماة فى عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧ اشتغل أيضاً فى تأليف كتابه فى « الجغرافيا » . وقد كان التوفيق حليفه دواماً فى خططه السياسية فتم تنصيبه للمرة الثانية فى عام ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ أميراً على حماة وأصبحت الإمارة وراثية فى بيته ولقب بالملك المؤيد . وفى رحلة له إلى مصر زار الإسكندرية ونال شرف حضور استقبال سفراء نادرين مثل سفير خايمه Jaime (يعقوب) الثانى ملك أراغون Aragon وسفير ايلخان فارس ؛ وفى أثناء اصطحابه للسلطان فى تجواله بمصر العليا بلغ دندرة . وختم أيام حياته بسلام فى حماة وذلك فى أكتوبر سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ بعد أن تنبأ كما تزعم الأسطورة بأنه لن يتجاوز الستين شأنه فى هذا شأن جميع أفراد أسرته ؛ بل إن نسله نفسهم لم يكتب لهم البقاء طويلا فى عالم الأحياء فقد ورث ابنه بعده سلطان الأسرة بحماة وخلعت عليه الإمارة من سلطان مصر ولكن بعد وفاته فى عام ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ لم يستطع الحفيد أن يرتفع إلى مستوى الأحداث المعقدة لذلك العصر وقنع بالاحتفاظ بمظهر الإمارة إلى وفاته بحماة فى عام ٧٥٨ هـ = ١٣٥٧ فانقرض بذلك بيت أبى الفدا[٥٣] . ولاتزال مقبرة أبى الفدا حتى يومنا هذا بمدينة حماه قرب المسجد المعروف « بمسجد الحيايا »* الذى بناه أبو الفدا نفسه كما يمكن الاستدلال من نقش موجود بالمسجد حالياً يرجع تاريخه إلى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧[٥٤] ، وعلى مقربة من منارة المسجد أمر أبو الفدا بتشييد « تربة » له زودها بكفن ، وإذا لم يكن ثمة خطأ قد وجد سبيله إلى تاريخ النقش فإن أبا الفدا يكون بذلك قد أعد العدة لوفاته قبل أربعة أعوام من حدوث ذلك ، أى عندما بنى مسجده فى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧[٥٥] . وقد حفظت لنا الأقدار أثراً فنياً كان يمتلكه أبو الفدا ويمثله كاتباً أكثر مما يشير إليه كحاكم ، هو عبارة عن « قلمدان » ، أى وعاء للأقلام ، مصنوع من البرونز ونقشت عليه عبارة مناسبة وهو يعد أثراً طريفاً فى الفن الإسلامى[٥٦] .

وكانت حماه فى عهد أبى الفدا مركزاً للأدب والأدباء نلتقى فيها بعدد من الشعراء الذين تنافسوا فى مدح الأمير كالشاعر المشهور ابن نباته ، كما نلتقى فيها أيضاً بمواطنين من أهل المدينة نفسها كالشاعر الشعبى عمر المهار (توفى حوالى عام ٧١٠ هـ = ١٣١٠)[٥٧] . ولم يكن أبو الفدا نفسه غريباً على الشعر ، كما وأنه ضرب بسهم وافر فى كثير من العلوم كالفلك والطب والنبات إلا أن شهرته العلمية تعتمد أساساً على مصنفيه فى التاريخ والجغرافيا .

وأبو الفدا وإن كان معاصراً لماركو بولو Marco Polo (١٢٥٦ — ١٣٢٣) إلا أنه لم يكن رحالة ، فهو لم يعرف غير الشام والبلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد العرب ومصر والجزء الشرقى من آسيا الصغرى

---

* أى الأفاعى ، وهو جمع عامى لحية كما يستعمله أهل تلك النواحى . (المترجم)

وأرض الجزيرة العليا . أما بخلاف هذا فهو جغرافى نقالة كان يستقى مادته من الآثار المدونة وأحيانا من قصص التجار والرحالة التى سمعها بالشام ، وهو لم يكن بحاثة ولكن هذا لم يمنعه من وضع أثر لا يقل فى شىء عن معجم ياقوت . ومما لا شك فيه أن كتابه مصنف نقلى جمع مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة ولكنه أضاف إلى هذا عدداً ليس بالقليل من المعلومات الجديدة عن البلدان غير الإسلامية ؛ وهو فى تبويبه لمادته يكشف عن مقدرة ملحوظة فى التأليف . وليس فى مقدور أحد أن ينكر أن المكانة التى بلغها عند الأجيال التالية من العرب والفرس والترك ، وبين دوائر المستشرقين ابتداء من القرن السادس عشر ، إنما تقوم فى الواقع على أساس متين(٥٨) .

ويحمل مصنفه فى الجغرافيا عنواناً متواضعاً هو « تقويم البلدان » ؛ وقد أتم مسودته فى سبتمبر من عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ ولكن من الممكن القول بأنه ظل يزيد عليه حتى لحظة وفاته ؛ وتوجد بمكتبة ليدن مخطوطة له راجعها أبو الفدا نفسه . وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين الأول منهما أقل أصالة من الثانى (٥٩) ، وهو على هيئة مقدمة فى الكوزموغرافيا العامة تضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وعن خط الاستواء والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض ومساحتها وعن المصطلحات المستعملة فى الجغرافيا ؛ ويرد فيها وصف قصير للبحار والبحيرات والأنهار والجبال كما يوضح النظام الذى يسير عليه الكتاب(٦٠) . وأما القسم الثانى والأكبر فهو ينقسم بدوره إلى ثمانية وعشرين قسما ، أوجداول على الأصح مكرسة للكلام على المناطق الجغرافية المختلفة التى تسمى أيضاً بالأقاليم والتى يرد وصفها على الترتيب الآتى الذى قد يختلف اختلافاً ضئيلا وفقاً للمخطوطات : بلاد العرب ، مصر ، المغرب ، السودان ، الأندلس ، جزر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى ، الشمال (بلاد الفرنجة والترك) ، الشام ، الجزيرة ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، السند (البنجاب) ، الهند ، الصين ، جزر البحر الشرقى ، الروم (آسيا الصغرى) ، أرمينيا (ومعها أرّان وأذربيجان) ، العراق العجمى ، الديلم (وكيلان) ، طبرستان (ومازندران) ، خراسان ، زابلستان (والغور) ، طخارستان ، خوارزم ، ما وراء النهر . وهذا التعداد يبين لنا لأول وهلة أن تبويب أبى الفدا يعكس بدقة تأثير المدرسة الكلاسيكية للبلخى (٦١) كما وأن الاهتمام الذى يفرده لبلاد إيران يحس من خلاله تأثير « أطلس الإسلام » ؛ ويمكن أن نستنبط من هذا التبويب كيف أن أبا الفدا قد تحول عن الادريسى إلى التقسيم الذى اتبعه جغرافيو القرن العاشر ، أى أنه اطرح جانباً التقسيم إلى أقاليم فلكية مفضلا عليه التقسيم إلى مناطق جغرافية(٦٢) .

هذا وإذا كان أبو الفدا يفتقر إلى الأصالة فى طريقة تعداده للمناطق وتنظيمه لها إلا أنه بلا ريب يظهر الكثير من هذه الأصالة فى طريقة تبويبه للمادة داخل هذه المناطق . فكل واحدة من المناطق الثمانية والعشرين منسقة وفق نظام موحد وينقسم كل منها إلى جزئين يحتوى الأول على عرض عام للمنطقة وأخلاق سكانها وعاداتهم وآثارها القديمة وطرقها ؛ وتتفاوت هذه الأجزاء الأولى من حيث الحجم وفقاً لمساحة كل منطقة

390

وأهميتها الجغرافية أوتبعاً للمادة التي كانت تحت تصرف أبي الفدا عنها . أما الجزء الثاني لكل منطقة فيمثل جدولا يقدم رسوماً بيانية متتالية تحتوى على أسماء البلاد والنقاط المأهولة فيها والمصدر الذى اعتمد عليه أبو الفدا فى تحديد طولها وعرضها والإقليم الفلكى والجغرافى الذى تنتمى إليه ، هذا مع بيان الأسماء بدقة من جهة الإملاء وتقديم وصف عام للمدن[٦٣] : وأبو الفدا أول من اتبع نظام الجداول فى علم الجغرافيا وهى خطوة لا تعتبر شيئاً أصيلا إذ من الطبيعى أن نفترض منذ البداية أن أبا الفدا قد استعار فكرة الجداول من الزيجات التى كان يعرفها معرفة جيدة . غير أن أبا الفدا نفسه يذكر صراحة[٦٤] أنه قد سار على نهج الطبيب يحيى بن جزله (توفى عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠)[٦٥] 391 الذى وزع الأمراض فى مصنفه الشعبى « تقويم الأبدان» على هيئة جداول وفقاً للنماذج الفلكية . وربما تقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى التفكير فى أن الاثنين قد رجعا إلى مصدر مشترك ، غير أن أبا الفدا يذكر بصراحة أنه أخذ تلك الطريقة عن الطبيب بما فى ذلك عنوان الكتاب نفسه .

والمصادر المدونة التى اعتمد عليها أبو الفدا معروفة لنا على وجه العموم لأنه كان من عادته الإشارة إلى مصادره بدقة[٦٦] ؛ ففيما يتعلق بالأدب الكلاسيكى للقرن العاشر اعتمد أبو الفدا أساساً على الإصطخرى وابن حوقل ؛ ومن بين المتأخرين اعتمد على الإدريسى الذى عرفه لا فى كتاب « نزهة المشتاق » وحده بل وفى مصنفه الثانى الذى لم يصل إلينا[٦٧] ؛ كذلك استعمل معجم ياقوت وجغرافيا ابن سعيد ؛ ومخطوطة هذا المصنف الأخير التى اطلع عليها أبو الفدا محفوظة الآن بباريس[٦٨] . أما من بين المؤلفين الذين فقدت مصنفاتهم بالنسبة لنا فتحتل أهمية خاصة الفقرات العديدة التى نقلها عن المهلبى جغرافى العهد الفاطمى ، والتى تساعد على تكوين فكرة عن مؤلفه الجغرافى[٦٩] . وقد وجه أبو الفدا اهتمامه كما هو معروف إلى الجغرافيا الوصفية ، إلا أن الجغرافيا الرياضية تحظى كذلك بمكانة كبيرة فى كتابه إذا ما قورن ذلك بالحالة السائدة فى عصره[٧٠] .وكان مصدره فى هذا المجال هو البيرونى خاصة فى كتابه « القانون » ، وابن سعيد الذى مر ذكره ؛ وغير معلوم لنا أى « كتاب الأطوال » يعنى عندما يشير إلى ذلك ولكن الرأى الغالب أنه يقصد بهذا الترجمة العربية لإحدى مصنفات بطلميوس العديدة . أما فيما يتعلق بمصادره الشفوية فلا نستطيع إلا أن نقف موقف التكهن ؛ وهى بلاشك قد وجدت ويمكن أن نقدم مثالا لها الرواية التى ينقلها على لسان أحد التجار عن مصب نهر القلجا أو إشارته خلال كلامه عن الهند إلى رحالة زار تلك البلاد .

ومن الطبيعى أن تحتل الشام والبلاد المجاورة لها الأهمية الكبرى عنده من حيث وفرة المادة ؛ أما فيما يتعلق بأوروبا الشمالية والغربية فإنه لا يمثل أهمية كبيرة بجانب بعض المصادر الموجودة فى أيدينا الآن . وقد لوحظ أكثر من مرة تسرب الأخطاء إلى مادته عن عدد من الأقطار وذلك لأسباب مختلفة ، فمثلا وصفه لأفريقيا الجنوبية يمثل تقهقراً علمياً واضحاً عند المقارنة بمصدره البيرونى[٧١] . وقد لمسنا

عنده من قبل الخلط فى القسم الخاص بالهند ، من ذلك روايته التى ينقلها عن ابن سعيد والتى يزعم فيها خطأ أن البيرونى أصله من مدينة هندية[٧٢] وهى رواية لا تزال تتردد من آن لآخر إلى أيامنا هذه* ؛ كما يلاحظ لديه أيضاً بعض التخبط فى معلوماته عن الصين والتى استقاها من مصادر مختلفة[٧٣]

وجميع هذه التفاصيل تتكشف بوضوح فور الفحص الدقيق لكل قسم من الأقسام المختلفة لكتاب أبى الفدا ؛ وكتابه بوجه عام | 392 | مصنف تام مكتمل يمتاز بأصالة التبويب وبالوضوح فضلا عن أنه تمتع برواج كبير سواء بين الأجيال القريبة من المؤلف أو التالية له[٧٤] . وقد لخصه الذهبى[٧٥] معاصره الأصغر سناً منه (توفى فى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧) كما نال حظوة كبرى لدى الأتراك فرتبه فى القرن السادس عشر سپاهى زاده (توفى عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه وأخرجه بعنوان «أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك[٧٦] » ، وتوجد منه مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية بلينينغراد[٧٧] كان قد درسها المستشرق دورن Dorn[٧٨] ؛ ولم يقف سپاهى زاده عند حد إعادة صياغة المصنف بالعربية بل ترجم شذوراً منه إلى التركية ؛ أما فى إيران فقد خضع لتأثيره محمد صادق الأصفهانى من مؤلفى القرن السابع عشر[٧٩] .

وقد حدث هذا فى اللحظة التى عرفت فيها أوروبا أبا الفدا معرفة ليست أقل من معرفة الشرق به[٨٠] ؛ وفى الواقع إنه لم يفقه فى الشهرة هناك إلا مصنفان فى اللغة العربية بأجمعها هما القرآن و« ألف ليلة وليلة » . ويمثل كتابه واحداً من أوائل المصنفات التى ترجمت عن اللغة العربية ؛ وحاز التقدير كما يقول أمارى « لأسلوبه المتزن ونقده القويم »[٨١] . وقد ورد ذكره منذ منتصف القرن السادس عشر (فى عام ١٥٦١) لدى المستشرق الفرنسى بوستل Postell الذى يعد فى الرعيل الأول من بين المستشرقين . وفى القرن التالى لذلك شغل كثيراً بدراسته المستشرق الألمانى شيكارت Schickardt (١٥٩٢ — ١٦٣٥) ، ثم لم تلبث أن وجدت نسخة من المصنف ، لا الترجمة وحدها[٨٢] ، طريقها إلى مكتبة باريس[٨٣] . وعقب ذلك بقليل (١٦٥٠) وضع المستشرق والفلكى الإنجليزى غريفز Greaves أو غرافيوس Gravius (١٦٠٢ — ١٦٥٠) اللبنة الأولى فى دراسة هذا الأثر دراسة نقدية بنشره لقسم من الكتاب[٨٤] ؛ وفى القرن الثامن عشر ظهرت إلى جانب دراسات لبعض نقاط الكتاب ترجمة كاملة له (١٧٧٠ — ١٧٧١) بقلم المستشرق رايزكه Reiske (١٧١٦ — ١٧٧٤) وهى ترجمة يغلب عليها مع الأسف طابع الاستعجال ؛ ثم لم يلبث أن توج كل هذا المجهود الكبير بظهور الطبعة والترجمة اللتين بدأ العمل فيهما فى بداية الثلاثينيات من القرن الماضى تلامذة المستشرق الكبير دى ساسى بايعاز منه وتحت توجيهه ؛ ولايزال هذا العمل حتى أيامنا هذه من أبرز ما أنتجه الاستشراق الفرنسى . وقد ظهر المتن الذى قام بإعداده رينو Reinaud

---

* بين أحد العلماء الهنود المعاصرين أن مصدر هذا الخطأ يرجع إلى أبعد من ذلك وهو كتاب « نزهة الأرواح » لشمس الدين الشهرزورى الذى تم تأليفه بين عامى ١١٩٠ و ١٢١٤ . (المترجم)

ودى سلان De Slane فى عام ١٨٤٠ مصحوباً بمقالة ضافية فى سيرة حياة أبى الفدا وعن مصنفه(٨٥) ؛ وأعقب ذلك فى عام ١٨٤٨ ظهور القسم الأول من الترجمة بقلم رينو ومقدمة عامة فى علم الجغرافيا لدى المشارقة تمثل فى حد ذاتها أثراً مستقلا بنفسه(٨٦) . وقد أتم الترجمة غيار Guyard بعد خمسة وثلاثين عاماً من ذلك التاريخ وظهرت هذه التتمة فى عام ١٨٨٣(٨٧) . وكان سير العلم قد تقدم بشكل محسوس منذ أن بدأ تنفيذ هذه الفكرة لذا فإن غيار أورد فى مقدمته لترجمة القسم الثانى قائمة بأسماء الطبعات والأبحاث المختلفة التى ظهرت فى هذه الفترة والتى عدلت كثيراً من موقف العلماء إزاء أبى الفدا فى الثلاثينيات والأربعينيات من ذلك القرن بحيث بدا هذا المشروع لدى علماء الثمانينيات وكأنه قد عفى عليه الزمن وذلك بسبب ظهور طبعات لآثار أهم بكثير من مصنف أبى الفدا .

غير أن هذا لا يقلل فى شىء من قيمة الترجمة فى حد ذاتها ، فهى تمثل إحدى الترجمات القيمة فى هذا الميدان وستظل على الدوام محتفظة بأهميتها لأنها تقدم لنا فى صورة متكاملة مصنفاً قائماً بذاته لعب دوراً ليس بالصغير فى تطور العلوم عند العرب وغير العرب . أما المقدمة العامة لرينو Introduction Générale à la Géographie des Orientaux. Paris, 1848 فإنها تتمتع بأهمية استثنائية كما حدث وأن بينا ذلك فى مقدمة كتابنا هذا ؛ لا لأنها كانت البحث الرئيسى للتعريف بأبى الفدا وجغرافيته على ممر قرن من الزمان بل لأنها ظلت عشرات من السنين الدراسة العامة الوحيدة فى تاريخ الجغرافيا العربية (ويصدق هذا بعض الشىء على الفارسية والتركية) ولم يحل محلها حتى الآن أى بحث آخر* . وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه العلم فى الفترة التى مرت منذ ظهور المقدمة وعلى الرغم أيضاً من التغير التام الذى طرأ على الصورة العامة فى بعض الفترات التاريخية وفى بعض الجوانب فإن هذا الأثر لايزال على وجه التقريب المرجع الأساسى للتعريف بجميع الآثار الجغرافية العربية هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفترة التى انقضت منذ تأليفه . ويرتبط بهذه «المقدمة العامة» على الدوام اسم أبى الفدا الذى كان حافزاً ولو بطريق غير مباشر على ظهور هذا الأثر العلمى الذى يعتبر من أبرز منتجات الاستعراب الأوروبى.

وكما أسلفنا فى مرات عديدة فإن الأدب الجغرافى فى هذا العصر لم يجد تربة خصبة فى المناطق الواقعة إلى الشرق من الشام ، ولكن فى مقابل ذلك بلغ الأدب الجغرافى باللغة الفارسية أوجه فى هذا العصر بالذات . ويتبين لنا هذا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور « جامع التواريخ » الذى وإن كان فى جوهره أثراً تاريخياً صرفاً إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفاً فى الجغرافيا التاريخية أيضاً(٨٨) . وكان أبو الفضل رشيد الدين طبيباً فى الأصل وقد ولد حوالى عام ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ فى أسرة

* إن كتاب نفيس أحمد الباكستانى الذى وضعه باللغة الإنجليزية والذى تم تعريبه فى الآونة الأخيرة لم يستطع أن يشغل المكانة التى احتلها مؤلف رينو ، ومصداق هذا أن جماعة من العلماء الهنود قد قامت بنقل مصنف رينو إلى اللغة الإنجليزية منذ وقت غير بعيد ؛ أما الآن وبظهور كتاب كراتشكوفسكى فإنه يمكن القول بأنه قد ظهر فعلا كتاب يحل محل مقدمة رينو التى عفى عليها الزمن . (المترجم)

395 يهودية من همدان ، ولم تلبث مهنته أن قربته من بلاط الحكام المغول ايلخانات الفرس منذ عهد آباقا خان وظل محتفظاً بهذا النفوذ حتى كان فى واقع الأمر الوزير الأول فى عهد غازان والجايتو ؛ ولكن بوفاة الايلخان أو لجايتو سقط رشيد الدين فريسة لدسائس أعدائه الذين استغلوا فيما استغلوا حقيقة أصله اليهودى فلم يلبث أن نفذ فيه حكم الإعدام فى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ . هذا الأثر الكبير الذى استعان فيه رشيد الدين بخبرة عدد من العلماء ، وهو شىء جر عليه وقتاً ما تهمة السرقة الأدبية ، بدأ تأليفه فى حوالى عام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ وفرغ منه فى عام ٧١٠ هـ = ١٣١١ ؛ وهو يتألف فى صورته المعروفة لنا من جزئين أفرد الأول منهما لتاريخ المغول ويتكون بدوره من قسمين يحتوى الأول منهما على تاريخ القبائل التركية والمغولية مع تفاصيل مسهبة عن فروعهم وأنسابهم وأساطيرهم ، بينما يحتوى الثانى على تاريخ المغول منذ جنكيزخان إلى غازان . أما الجزء الثانى فيمثل شيئاً أشبه بالتاريخ العام وهو معروض أيضاً فى قسمين يشغل الأول منهما تاريخ إيران القديمة بينما يبدأ الثانى بتاريخ محمد فالخلفاء إلى عام ١٢٥٨ ويضم قطعاً خاصة عن الدويلات الفارسية وعن الإسماعيلية ومعلومات حول كفاح البابا ضد الأباطرة ؛ وفى الفصل الأخير المتعلق بالهند يعطى تحليلا خاصاً لبوذا ولتعاليمه . وكما لاحظ عدد من البحاثة[٨٩] فإن هذا المصنف لا مثيل له فى تعدد مصادره واتساع أفقه ، بحيث لا نلتقى بمصنف مثله لا فى هذا العصر ولا فى العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتباره « جدولا من الجداول العديدة التى تصب فى بحر التاريخ العالمى » ويجهد فى تبويب مادته من وجهة النظر هذه .

ولا يزال موضعاً للنزاع القول بوجود جزء مخصص للجغرافيا فى هذا المؤلف الضخم ؛ وعلى الرغم من أن رشيد الدين يتحدث فى شىء من التفصيل فى مقدمة سفره عن مضمون كتابه ، وعلى الرغم أيضاً من أن بعض الكتاب الفرس يشيرون إلى وجود هذا الجزء إلا أن أكثر العلماء يفترض سلفاً أن هذا الجزء كان مجرد أمنية لم يكتب لها التحقيق ؛ وعلى هذا كان رأى بارتولد[٩٠] . وفى الآونة الأخيرة جنح العلامة أحمد زكى وليدى إلى القول بأن هذا القسم قد وجد بالفعل[٩١] ؛ وعلى أية حال فإنه لم يتم الكشف عنه حتى الآن* . هذا وقد تعرض كتاب رشيد الدين لعدد من الأبحاث لا مثيل له ، تحتل من بينها الأبحاث الروسية مكانة مرموقة ؛ وجميع هذه الأبحاث تقدم لنا فكرة متكاملة الجوانب عن كل المسائل المتعلقة بالكتاب . وهو وإن اعتبر من ناحية امتداداً للمذهب العربى إلا أنه يقدم لنا من نواح أخرى مواد نادرة جداً فى محيط الأدب الجغرافى الإسلامى ترتفع إلى مصادر أوروبية بل وشرقية غير إسلامية[٩٢] .

هذا وقد خضع لتأثير رشيد الدين القوى معاصره حمد الله مستوفى قزوينى وانعكس ذلك بوضوح

* لقد تم الآن الكشف عن هذا القسم وذلك ضمن مخطوطة تحوى جميع مصنفات رشيد الدين « جامع التصانيف رشيدى » ، وهى المخطوطة الفارسية رقم س ٣٧٥ الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية . (المترجم)

فى نشاطه العلمى ؛ وهو أيضاً كان موضع اهتمام العلماء الروس[٩٣] . وينتسب قزوينى إلى أسرة من قزوين شغل أفرادها لمدة طويلة مناصب إدارية كان من بينها وظيفة المستوفى (أى مفتش الحسابات) ، وقد شغل حمد الله نفسه هذه الوظيفة فى أيام رشيد الدين . ولعله هو أيضاً بدأ نشاطه العلمى كرشيد الدين بالتأليف فى التاريخ فقد وضع فى البداية قصيدة تاريخية على غرار شاهنامه الفردوسى ، تلاها كتاب فى التاريخ العام بعنوان « تاريخ كزيده » أتمه فى حوالى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ وهو يتمتع بشهرة كبيرة فى الأدب . ويقدم لنا المؤلف فى الفصل السادس من هذا الكتاب الأخير وصفاً مفصلا لمسقط رأسه قزوين وذلك على طراز الرسائل الجغرافية التاريخية المعروفة لنا جيداً عن المدن الكبرى[٩٤] ؛ ويوجد هذا الكتاب فى متناول الأيدى فى ترجمة فرنسية ظهرت منذ السنوات الخمسينات من القرن الماضى ؛ وقد وكد الرحالة فى منتصف القرن التاسع عشر دقة ما أورده من معلومات[٩٥] . وإلى جانب هذا فلقزوينى مصنف جغرافى مستقل هو « نزهة القلوب » أتم تأليفه فى حوالى عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩[٩٦] . وتاريخ وفاة قزوينى غير معروف على وجه التحديد ولكنه يؤخذ فى العادة على أنه عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ : ويمكن اعتبار مصنفه مكملا للمذهب العربى الإيرانى من نمط الكوزموغرافيا المعروف لنا ، جامعاً إلى هذا بضع ملاحظات فلكية وطبيعية وجغرافية بأوسع ما يحمله هذا اللفظ من معنى . وينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاث مقالات وخاتمة ، ففى المقدمة ترد المعلومات المعتادة عن السماء والنجوم والفصول والتوقيت كما يرد وصف عام للأرض وللأطوال والعروض والأقاليم السبعة ، أما المقالة الأولى فتعالج الكلام على المعادن والنبات والحيوان بينما تتناول المقالة الثانية الكلام على الإنسان (خاصة من وجهة النظر التشريحية) ، ويلى هذا المقالة الثالثة المفردة للجغرافيا والتى تنقسم إلى أربعة أقسام يتحدث فى الأول منها عن مكة والمدينة والمسجد الأقصى وفى الثانى عن إيران مع استطرادات عديدة ؛ أما الثالث فعن الأقطار المجاورة لإيران والتى خضعت لها حيناً من الدهر بينما يتحدث فى الرابع عن المناطق التى لم تخضع لإيران مطلقاً ؛ وفى الخاتمة يعالج المؤلف الكلام عن جميع أصناف العجائب من مختلف أنحاء العالم[٩٧] : ويفضلها جميعاً من حيث القيمة الفصل الثانى من المقالة الثالثة عن إيران لأنه لا يعتمد على المصادر الكتابية فحسب بل وأيضاً على ملاحظات المؤلف الشخصية التى جمعها أثناء أسفاره الإدارية العديدة بنواحى إيران المختلفة ، زد على هذا أن المنصب الإدارى الذى ورثه عن أسرته[٩٨] إذا جاز القول بهذا قد ساعد قزوينى على الوصول إلى الوثائق الرسمية . ووفقاً للمذهب التقليدى القديم فهو لا يكتفى بالكلام على البلاد الإيرانية بل يتحدث عن بلاد كالجزيرة العربية وشرقى أفريقيا[٩٩] ، إلا أن المكانة الرئيسية عنده تشغلها آسيا الصغرى والعراق ، وبوجه خاص إيران : وقد أفاد قزوينى فائدة جمة من الذين سبقوه فى هذا المضمار خاصة ابن خرداذبه وياقوت وزكريا القزوينى ؛ وهو فى وصفه لفارس يعتمد إلى حد كبير على المسودة الفارسية لابن البلخى[١٠٠] . ولا يمكن إنكار حظه من المنهج

النقدى فهو لم يكتف بنقل معطيات من سبقوه بطريقة آلية ولكنه يكملها ويصححها أحياناً على ضوء الظروف السائدة فى عصره[١٠١] . وثمة أهمية كبيرة تنالها بشكل خاص معلوماته عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى السائد بإيران والبلاد المجاورة لها فى عهد المغول ، بل وفى عهد السلاجقة أيضاً حيث أفاد فى هذا الصدد من الوصف الرسمى الذى وضع فى عهد ملكشاه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[١٠٢] . ويعود إلى العلم الروسى فضل كبير فى دراسة معطيات قزوينى فى محيط التاريخ الاقتصادى والجغرافيا الاقتصادية[١٠٣] [١٠٤] ؛ وينال كتابه أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية وذلك بإعطائه وصفاً لإيران فى الفترة التى تعقب رحلة ماركوبولو مباشرة[١٠٥] .

لقد اتسع مجال الأدب الجغرافى باللغة الفارسية فى القرن الرابع عشر بصورة ملحوظة فلم يقتصر على المراكز الكبرى وحدها ؛ وإلى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ مثلا يرجع مصنف لشخص يدعى محمد بن يحيى[١٠٦] يحمل فى أغلب الأحيان عنوان « صور أقاليم سبعة » على الرغم من أنه لا يعكس هذه التسمية بأية حال[١٠٧] ؛ وقد تم تأليفه بكرمان[١٠٨] ورفعه مؤلفه إلى مبرز الدين محمد (٧١٣ هـ — ٧٥٩هـ = ١٣١٤—١٣٥٨) أحد أمراء كرمان[١٠٩] من المظفرية[١١٠] : وتبويب هذا المصنف الجغرافى الكوزموغرافى الذى حفظ فى عدد من المخطوطات[١١١] بعضها موجود بالاتحاد السوفيتى[١١٢] معروف أساساً من تحليل للمستشرق الروسى زاليمان Salemann [١١٣] ومن مقال للمستشرق الفرنسى هوار Huart . والفصل الأول منه عبارة عن مقدمة تليها المادة الجغرافية المعهودة ، أما الفصل الثانى فينقسم إلى سبعة أقسام وفقاً للأقاليم السبعة[١١٤] . ويبدى ريو Rieu الكثير من التشدد فى حكمه على هذا الكتاب فيصفه 397 بالايجاز المخل وبأنه يحفل بالأساطير والخرافات وحكايات الأطفال[١١٥] ؛ غير أن الكتاب لا يخلو إلى جانب المعلومات المعروفة لنا جيداً من تفاصيل قيمة خاصة فيما يتعلق بالمناطق الشمالية لإيران كما بين ذلك دورن Dorn ، بل إن القسم الخاص بأفريقيا يحتوى إلى جانب الحكايات على معلومات ذات أهمية مستقاة من مؤلفين عرب لم تصلنا مصنفاتهم[١١٦].

وقد امتد تأثير الأدب الجغرافى الفارسى على الشرق الأقصى وظل باقياً هناك إلى القرن الرابع عشر ؛ وقد بينا فى حينه الدور الذى لعبه فى هذا المجال مرصد مراغه ومؤلفات نصير الدين طوسى فى القرن الثالث عشر . وتمثل الخارطة الصينية الرسمية للمستعمرات « الغربية » التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ (أو عام ١٣٢٩ على الأصح[١١٧]) نموذجاً طريفاً لهذا التأثير ؛ وقد رسمت هذه الخارطة فى عصر حكم أسرة اليوان Yuan وعملت من أجل الفصل الثالث والأربعين من تاريخ اليوان « يوان شى » Yuan She ؛ وأول من أشار إلى أهميتها برتشنيدر Bretschneider (١٨٧٦)[١١٨] ثم أخضعها لبحث خاص البيرت هرمان A. Hermann (١٩٢٢) . وتبين هذه الخارطة بدقة حدود دولة « الخاقان الأكبر » والدول الثلاث التى دانت لسلطان أسرة جنكيزخان وهى دولة چغتاى فى آسيا الوسطى ودولة

أوزبك فى سهوب القپچاق ودولة أبى‌سعيد فى إيران . ويمكن أن نستبين من بين الأسماء الواردة فى المناطق الجنوبية من الخارطة اسم القسطنطينية ودمشق ومصر(١١٩) . والخارطة مخططة على هيئة شبكة مربعة أشبه ما تكون برسم هندسى (Diagram) منها بخارطة(١٢٠) ويحس فى كل نقطة منها اختلافها الكبير عن الخارطات الصينية القديمة . أما الأسماء الجغرافية فيها فتبدو فى صورة جديدة بحيث يصبح من العسير التعرف عليها فى الخارطات الصينية المألوفة ، كما أن توجيه الخارطة من الجنوب إلى الشمال يشبه المذهب الغالب على الخارطات العربية ويتعارض مع الأسس التى رسمت عليها الخارطات الصينية فى العهد المغولى ولو أن الكارتوغرافيا الصينية كانت تلجأ فى العادة إلى استعمال كلتا الطريقتين(١٢١) . ومن ثم فإنه لا يمكن تفسير نشأتها إلا على ضوء التأثير المباشر للكارتوغرافيا العربية على الكارتوغرافيا الصينية ، بل إن هناك أساس للاعتقاد بأن واضعها كان من ممثلى المدرسة العربية الإيرانية ؛ ومن الممكن أن الأسماء قد كتبت فى البداية باللغة المغولية ثم نقلت الخارطة عقب ذلك إلى الصينية(١٢٢) . وكل هذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الأهمية العالمية للجغرافيا العربية لم تكن قد تلاشت فى القرن الرابع عشر .

حواشى الفصـــل الرابع عشر

(١) — Brockelmann, GAL, II, p. 245-246, No 1; SB II, p. 344 — Sarton, Introduction, II, p. 1066 — Reinaud, Introduction, p. CXXVII — Pons Boigues, p. 317-318, No 270 — Kramers, EI, EB, p. 70

(٢) المقرى ، الجزء الثانى ، ص : ٣٥٢ ، الأسطر ٥ — ٧

(٣) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٩٩ — ٤٠٦

(٤) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٣٥٢ ، الأسطر ٥ — ٧

(٥) شرحه ، ص ٦٤٥ — ٦٤٦

(٦) — Brockelmann, GAL, II, p. 257, No 1; SB II, p. 368 — Kramers, EI, EB, p. 70 — Plessner, EI, IV, p. 806-807 — Amari (—Nallino), I, p. 80-81 No 54 — Amari, Bibl. ar.-sic., II, p. 41-81

(٧) — Plessner, EI, IV, p. 807

(٨) — Rousseau, JA, 4 série, XX, p. 572-08; 5 série, I, p. 101-168, 354-425

(٩) — Plessner, EI, IV, p. 807 (= Amari, Bibl ar.-sic, II, p. 41-81 — Bel, Benou Ghânya)

(١٠) — Hennig, III, p. 128-132

(١١) — Ahmed Zéki Pacha, p. 57

(١٢) — Kramers, EI, EB, p. 71

(١٣) — Brockelmann, GAL, II, p. 35, No 1; SB II, p. 33-34 — Krenkow, EI, IV, p. 57-58

(١٤) عنان : ص ٤١ — ٤٢ — Kramers, EI, EB, p. 71

(١٥) — Vollers, Ibn Doukmak, p. 6

(١٦) عنان ، ص ٤٢

(١٧) عنان ، عدد من المقتطفات ، ص ٤٢ ، الحاشية ٣

(١٨) عنان ، ص ٤٢

(١٩) — Björkman, Beiträge, p. 83

(٢٠) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٦ ، رقم ١٥٨١ ؛ شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ، رقم ٦٣ ؛ الجزء الثانى ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ قارن عنان ، ص ١٦٨

(٢١) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٧ .

(٢٢) — Moritz, Ibn al - Gî'ân, p. II

(٢٣) — Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 5; SB, II, p. 163 — Moritz, Ibn al - Gî'ân, p. III — قارن Kramers, EI, EB, p. 71

(٢٤) — Reinaud, Introduction, p. CL - Brockelmann; GAL, II, p. 130, No 1; SB II, p. 161 — Brockelmann, Al Dimashki, p. 1016 — Kramers, EI, EB, p. 70

(٢٥) — Kramers, Legacy, p. 92

(٢٦) — Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t. à p., p. 35)

(٢٧) — Kramers, EI, EB, p. 70

(٢٨) — Ruska, GZ, p. 596

(٢٩) — Fritsch, p. 36

(٣٠) — Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t.à p., p. 35)

(٣١) — Ferrand, Relations, II, p. 363-393

(٣٢) — Hudüd, p. 254

(٣٣) — Mehren, Cosmographie, p. VIII — Miller, V, p. 139

(٣٤) — Miller, V, p. 130-141

(٣٥) راجع عن المؤلفين والكتب الذين ينقل عنهم الدمشقي .

Mehren, Cosmographie, p. LXXXVII — LXXXVIII

(٣٦) — Mednikov, Palestina, Issledovanie, p. 282

(٣٧) — Mehren, Cosmographie, p. X

(٣٨) — Dorn, Das Asiatische Museum, p. 36

(٣٩) — Mehren, Cosmographie, p. XI

(٤٠) — Pozen, Meren, p. 40 - 41 — Mednikov, Palestina, Perevod, p. 1166-1167

(٤١) — Dehérain, 1898

(٤٢) — Brockelmann, GAL , II, p. 130, No 3; SB II, p. 161-162 — Rozen, Notices Sommaires, p. 175-176 No 224

(٤٣) — Brockelmann, GAL, SB II, p. 161, note 1

(٤٤) — Kramers, EI, EB, p. 70

(٤٥) راجع أيضاً : Rozen, Notices sommaires, p. 175-177, No 224

(٤٦) — Rosen, Notices sommaires, p. 177

(٤٧) — Brockelmann, GAL, SB II, p. 162
(٤٨) — Dorn, Mél. As., VI, p. 347 (p. 348-364 : شذور)
(٤٩) أسامة بن منقذ Hitti, Kitāb al-I'tibār
(٥٠) — Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 139-146 — Reinaud, Introduction, § II, p. XXXVIII
(٥١) — Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 141
(٥٢) — Lane Poole, p. 290 note 2
(٥٣) — Reinaud, Introduction, p. XXXI
(٥٤) — Mühlinen, p. 658
(٥٥) شرحه ، p 660
(٥٦) — Wiet, Catalogue, p. 81, No 11 and p. 196, No 152 (Collection Harari, No 179)
(٥٧) — Brockelmann, GAL, SB II, p. 1. No 1b
(٥٨) — Kramers, EI, EB, p. 70 ؛ ومع تشدد أكثر لديه : Kramers, Legacy, p. 91
(٥٩) — Blachère, p. 291
(٦٠) شرحه — Blachère, p. 291 — Reinaud et de Slane, Texte, p. 507
(٦١) — Kramers, EI, EB, p. 70
(٦٢) — Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 228
(٦٣) — Blachére, p. 291-292
(٦٤) — Cf. Reinaud et de Slane, Texte, p. 3. الترجمة : Reinaud, II, 1 Partie, p. 3; Cf : Blachère, p. 292
(٦٥) — Brockelmann, GAL, I, p. 485, No 8; SB I, p. 887-888
(٦٦) — Reinaud, Introduction, p. CDXLVII — CDXLIX
(٦٧) شرحه p. CXXI — p. 1143, note 3 الترجمة Mednikov, Palestina,
(٦٨) — Reinaud, Texte arabe, p XLV, note 1
(٦٩) — Mednikov, Palestina, Issledovanie, p. 282
(٧٠) — Amari (— Nallino), I, p. 58, No 24
(٧١) (p. 61) خاصة ، Kimble, p. 60 62
(٧٢) — Hudūd, p. 372
(٧٣) — Yule — Cordier, Cathay, I², p. 145, 258
(٧٤) عن ملخصات وتنقيحات مصنف أبي الفدا في الشرق راجع :
(٧٥) Reinaud, Introduction p. CDLIII — CDLIV

(٧٥) شرحه p. CDLIII

(٧٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 46,453, No 4; SB II, p. 44, 673 — Taeschner, DI, XIX, p. 39, note 1

(٧٧) – Rozen, Collections scientifignes, p. 35, No 69

(٧٨) – Dorn, Caspia, p. 167-169 = Dorn, Kaspi, p. 263-267

(٧٩) – Reinaud, Introduction, p. CDLIV

(٨٠) شرحه p. CDLV

(٨١) – Amari, (—Nallino), I, p. 58, No 24

(٨٢) – Çarra de Vaux, Les penseurs, II, p. 13

(٨٣) – Reinaud, Texte arabe; p. XLII, note 2

(٨٤) – Abulfedae Chorasmiae et Mavaralnahrae descriptio, ed. J. Gravius, London, 1650

(٨٥) راجع الحاشية رقم ٦٠

(٨٦) راجع الحاشية رقم ٦٦

(٨٧) – Guyard, II, deuxième partie

(٨٨) – Bartold, MI, I, 1912, p. 56-107 — Berthels, Rashid al-Din, p. 1213-1214 — Romaskevich, MITT, I, p. 52-54 — Volin, Orda, II, p. 27-29 — Bartold, Iran, p. 75-79 — Krymski, Istoria Persii, III, p. 44-48 —Ferrand, Relations, II, p. 361-362 — Schefer, Chrestomatie persane, p. 12-14 — Yule — Cordier, Cathay, III², p. 107-133 — Browne, Literary History, III, p. 68-87

(٨٩) – Validi, GZ, XL, p. 364-365 and note 1

(٩٠) – Bartold, Iran, p. 76 — Krymski, Istoria persii, III, p. 44, note 2

(٩١) – Validi, GZ, XL, p. 365-366, note 5—Validi, Schwerter, p. 47 and note 1

(٩٢) – Yule — Cordier, Cathay, III², p. 107-133

(٩٣) – Bartold, Iran, p. 79-81 —Krymski, Istoria Persii, III, p. 49-50 —Romaskevich, MITT, I, p. 54-55 — Reinaud, Introduction, p CLV-CLVI — Büchner. EI, II, p. 904-906 — Kramers, EI, EB, p. 71 — Ferrand, Relations, II, p. 405-407 — Le Strange, Description of Persia, p. 49-63 — Browne, Literary History, III, p. 87-100

(٩٤) – Browne, Literary, Historyp. 93-94 —Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257-308

(٩٥) – Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257

(٩٦) – Le Strange, Description of Persia, p. 54 — Browne, Literary History, III, p. 98-100

(٩٧) – Le Strange, شرحه p. 59-63

(٩٨) شرحه p. 53-54

(٩٩) – Ferrand, Relations, II, p. 405 407

(١٠٠) – Büchner, EI, II, p. 906

(١٠١) – Bartold, Iran, p. 80

(١٠٢) شرحه

(١٠٣) – Le Strange, Description of Persia, p. 54-55

(١٠٤) – Bartold, Mechet, p. 14 et sui. — Petrushevski, Khamdallakh Kazvini

(١٠٥) p. 50 شرحه Le Strange

(١٠٦) – Kramers, EI, EB, p. 71

(١٠٧) – Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. á p., p. 13)

(١٠٨) – Dorn, Mél. As. VI, p. 574, No 3

(١٠٩) شرحه VII, p. 43 44

(١١٠) – Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. à p., p. 13)

(١١١) شرحه p. 1-2 (t. à p., p. 13-14)

(١١٢) – Salemann, Mél, As., IX, p. 493 — Miklukho — Maklai, opisanie, p. 43-45, No 27

(١١٣) – Salemann, Mél. As., IX, p. 493-495

(١١٤) شرحه p. 494-495

(١١٥) – Huart, l'Afrique, p. 2 (=t. à p., p. 14)

(١١٦) شرحه

(١١٧) – Hermann, p. 278, note 1, Table. VIII

(١١٨) شرحه

(١١٩) شرحه p. 279

(١٢٠) شرحه p. 278

(١٢١) Ferrand, Tuhfat al-albäb, p. 88-89' nofe — شرحه Introduction, p. 48-48, note 2

(١٢٢) – Hermann, p. 280

الفصل الخامس عشر

موسوعات عصر المماليك — أسفار ابن بطوطة

---

399 وكد القرن الرابع عشر تفوق مصر الفكرى بوجه عام لا فى ميدان الأدب الجغرافى وحده ، فنحن نلتقى فى العصر المملوكى بأدب حافل قل أن نجد له مثيلا فى أى بلد من بلدان الشرق الأخرى[1] . وقد تعرفنا حتى الآن على عدد من المصنفات الجغرافية المتعلقة بمصر كما أننا سنتحدث عن أخرى غيرها ؛ بيد أنها ليست هى التى تكسب الأدب الجغرافى لهذا العصر طابعه المميز فإن شرف ذلك يرجع إلى نمط الموسوعات التى ازدهرت فى تلك الآونة والتى أفرد فيها للجغرافيا على الدوام مكانة مرموقة ، وهى التى تترك طابعها المميز بوضوح على القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتعتبر خير ما أنتجه ذلك العصر.

أما من وجهة نظر التاريخ الأدبى فإن الموسوعات تنتمى إلى طراز مصرى صرف من المؤلفات الوصفية التى وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك ؛ ويجب أن يضم إليها عدد من الأوصاف المستقلة فى جغرافيا مصر والشام وإدارتهما[2] مما حدث وأن عالجنا الكلام عليه من قبل وسنعرض له حين الحديث على القرن الخامس عشر. وكنمط أدبى فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد فهى ترتبط بعض الشىء بتلك المجموعات التى وضعت فى الإدارة والجغرافيا والمعروفة لنا من القرنين التاسع والعاشر ، ولكنها تختلف عنها فى أنه قد قصد بها دائرة أوسع من القراء . وعلى الرغم من أنها عملت أساساً من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابى والإدارى لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها ، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماماً كبيراً للأسلوب الأدبى . وهى بلاشك أوسع مجالا من المؤلفات السابقة لها ، كما أنها تعالج مسائل أعم وأكثر شمولا فى جميع فروع العلوم التى يريد المؤلف أن يعرف بها . ولا تقف أهميتها عند حد الجغرافيا وحدها بل إنها بنفس القدر تولى اهتمامها أيضاً إلى التاريخ والحضارة[3] ؛ وهى وإن كانت لا تخلو من بعض الصلة ‖ 400 بمصنفات الجغرافيا المبكرة إلا أنها إلى جانب هذا قد خضعت لتأثير قوى من ناحية المصنفات الكوزموغرافية للقرن الثالث عشر بحيث تستعير أحياناً طريقة تبويبها . والاختلاف الجوهرى الذى يميزها عن غيرها هو أن هدفها الأول لم يكن الإعلام بل الأدب الفنى ، كما أن مؤلفيها لم يروا فى أنفسهم علماء بل كتّاباً ، أعنى كتّاباً من موظفى ديوان الإنشاء كل زادهم هو بعض الخبرة فى الشئون الكتابية . وقد أدت وحدة الوسط الذى نشأت فيه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب ، وهو ترتيب يعكس أحياناً بوضوح تام أثر التدريب الصارم فى الشئون الكتابية .

وأكبر موسوعات القرن الرابع عشر هما موسوعتا النويرى والعمرى ، غير أنه وجد مؤلف سابق عليهما فى هذا الميدان من الناحية الزمنية ويمكن بوساطته تقصى أصل نمط الموسوعات هو محمد بن إبراهيم الوطواط الكتبى الوراق (توفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨)[٤] . ولقبه الوراق يشير بوضوح تام إلى أنه لم يكن من رجال الأعمال أو عمال الحكومة بل كان من المشتغلين بالكتب وربما كان من تجارها أو نساخها ، وعلى أية حال فقد كان وثيق الصلة بالأدب .

ولا تتوفر لدينا معطيات عن سيرة حياته إنما يؤخذ من ألفاظه أنه مغربى المولد مصرى الوطن والدار[٥] . وكان شاعراً أديباً اشتهر بمؤلف فى المختارات الأدبية نال رواجاً كبيراً كما هو الشأن مع المؤلفات من هذا النوع ، كما اشتهر أيضاً بكتاب آخر فى شعراء الأندلس غير معروف لنا عن كثب[٦] . ويمثل أهمية أساسية بالنسبة لنا مصنف له لم يطبع حتى الآن ويقف فى الحد الفاصل بين الكوزموغرافيا والموسوعة والمختارات الأدبية ، جامعاً بين هذه العناصر الثلاثة وأشبه ما يكون بحلقة موصلة إلى مصنف النويرى . وكما هو الحال دائماً مع أمثال هذه المؤلفات فهو يحمل عنواناً متكلفاً يختلف أحياناً فى المصادر والمخطوطات هو « مباهج الفكر ومناهج العبر » ؛ ويهدف المؤلف بكتابه إلى الموعظة والعبرة وهو كبقية الكوزموغرافيات غرضه تفسير « معالم » الطبيعة المختلفة ، لهذا فإنه يمثل موسوعة فى العلوم الطبيعية والجغرافيا ولكنه معروض فى أسلوب المصنفات الأدبية وموضح بالشواهد من شعر ونثر . وينقسم الكتاب إلى أربعة فنون الأول فى الفلك والأجرام السماوية والثانى فى الجغرافيا والاثنوغرافيا مع استثناء الشعوب المنحدرة من أولاد يافث وأولاد حام « لأن رائد العقل بهمت عليه أسماؤها فما عرج عليها ولاحام »[٧] والثالث فى الحيوان والرابع فى النبات . وكل فن ينقسم بدوره إلى تسعة أبواب [٨] ينعكس فى تتابعها تأثير نظام العرض المعهود فى كتب الكوزموغرافيا . 401 والفن الثانى المكرس للجغرافيا يبحث فى بابه الأول فى خلق الأرض وهيئتها ، ولعل مما لا يخلو من الطرافة اعترافه بكروية الأرض وحركتها[٩] ؛ والباب الثانى منه فى الجبال والمعادن والثالث فى البحار والجزائر والرابع فى العيون والآبار والخامس فى ذكر أسباب من سكن المعمور . أما السادس فيبحث فى ذكر البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها والسابع فى طبائع البلاد وأخلاق من سكنها من العباد والثامن فى المبانى التى بقى أثرها ووعظ خبرها والتاسع فيما وصفت به المعاقل والمنازل .

إن هذا المضمون يذكرنا إلى حد كبير بما هو معروف لنا فى المصنفات الكوزموغرافية خاصة كتاب القزوينى ، غير أن أسلوبه يختلف عنها اختلافاً كبيراً لأن الوطواط يقرر منذ البداية فى كل قسم من كتابه بالتقريب أنه لم يقصد إلى الإعلام أو إلى استنباط نتائج عملية من النظريات التى يعرضها ولكن يترك هذا للمتخصصين . فهو مثلا فى الفن الأول الذى أفرده للكلام على الفلك لا يمس الجانب التطبيقى منه وهو التنجيم[١٠] ؛ وكذلك الشأن مع الفن الثالث الذى يمس الحيوان نراه لايتعرض فى شىء إلى نفعها أو ضررها

أو تشريح أعضائها « إذ ذلك موضوع لهم فى كتب مدونة » . وهذا القول نفسه يصدق على الفن الرابع الذى يتعرض فيه للكلام على النبات فهو لايتحدث فيه عن منافع النبات ومضاره أو ذكر ماهيته وقواه وطبائعه بل يكتفى بذكر طرف من تجارب الفلاحين والطرق التى مارسوها فى علاجه والعناية به[١١] . ولاينفى مؤلفنا أن الهدف من كتابه هو تقديم جماع ما عرفه فى زمانه علماء العرب واليونان والسريان فيما يخص الأرض والسماء ، وفيما عدا ذلك فإنه يغلب عنده بصورة واضحة الميل الأدبى على الميل العلمى[١٢] فيحفل بنماذج من النثر والشعر من كل لون معروضة عرضاً جيداً يكشف عن خبرة كبيرة بالمسائل الأدبية ، وبهذا فإن كتابه لم يقف عند حد تلك العلوم التى أفرد لها « فنوناً » مختلفة فحسب بل يعالج « الأدب » فى معظمه[١٣] . وينعكس هذا بصورة أوضح فى طريقة عرضه للمادة فى كل باب ، فهو يصدر مواضع بحثه بالقول النقلى من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومذاهب فى التفسير ثم يعقب على ذلك بآراء العلماء من اليونان والعرب . ويلى هذا فى العادة توضيح لغوى تصحبه أمثلة من مجال الأدب بمفهومه الواسع كالنوادر والأمثال والشعر[١٤] ؛ وهو يستشهد بعدد كبير من الشعراء من مختلف العصور[١٥] كما يذكر أسماء عدد وافر من الكتب[١٦] .

والكتاب فى جوهره مؤلف نقلى بالطبع ، غير أن هذه الظاهرة يجب ألا تدهشنا فى محيط الأدب العربى ابتداء من القرن الثانى عشر ؛ وعلى أية حال فإن واحداً من البحاثة القلائل الذين فحصوا هذا المصنف فحصاً دقيقاً يثبت أنه أكثر جدية وأحفل مادة من كوزموغرافيا القزوينى[١٧] وأنه لايعكس ذلك الميل الواضح إلى العجائب كما هو الحال مع الكتاب الآخر . ومما يزيد فى صعوبة التعرف على هذا المصنف أنه لم يطبع إلى الآن ، وليس هذا فحسب بل أيضاً لأن مجموعات المخطوطات المختلفة لا تحتوى منه إلا على أجزاء متفرقة[١٨] ؛ والنسخة التامة الوحيدة المعروفة حتى الآن هى تلك الموجودة بالمكتبة المارونية بحلب والتى لفتت إليها الأنظار منذ القرن الثامن عشر أحد كبار ممثلى النهضة الأدبية فى الشام جرمان فرحات (١٦٧٠ — ١٧٣٢)[١٩] الذى وضع لها عناوين شاملة فى عام ١٧٢٧[٢٠] ؛ ثم قام بوصف هذه النسخة بالكثير من الدقة والتفصيل عالمان مختلفان من حلب[٢١] أحدهما هو الذى يجب الاعتماد عليه اعتماداً تاماً فى التعرف على الكتاب .

402

ونظراً لأنه مصنف نقلى متأخر لم يقتصر على الجغرافيا وحدها فإن « مباهج الفكر » لايمثل خطوة هامة فى تطور الأدب الجغرافى ؛ غير أنه لا يخلو من أهمية بالنسبة لنا لا فى وصفه لذلك العصر وذلك الوسط فحسب بل لأنه يسوقنا إلى التاريخ المبكر للموسوعات فيمكننا من تبين الصلة التى تربطها بالكوزموغرافيا وبالمصنفات الأدبية الأخرى . فهذا المصنف قد لعب بلاشك دوراً كبيراً فى تطوير هذا النمط ويرتبط ارتباطاً مباشراً بموسوعة النويرى ؛ وبرهان ذلك ليس فقط فى أن هذا الأخير ينقل عنه مراراً بل لأنه من المحتمل أن يكون النويرى قد استعار عنه طريقة التبويب إلى « فنون » محتفظاً أحياناً

بمحتويات الكتاب نفسها ؛ ففى القسم الخاص بالنبات مثلا يعيد النويرى تصنيف النبات كما دونه الوطواط[٢٢] ؛ ومن هذا نجد أن التفاصيل من ناحية والتبويب من ناحية أخرى يشيران إلى ارتباط وثيق بين الكتابين.

ويعتبر شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى النويرى (٦٧٧ هـ — ٧٣٢ هـ = ١٢٧٩ — ١٣٣٢[٢٣]) خير ممثل للوسط الذى عملت فيه ومن أجله الموسوعات ؛ وهو مصرى الأصل أخذ اسمه من اسم محلة غير كبيرة فى مصر العليا ، وقد اكتسب أبوه الشهرة ككاتب فى مختلف دواوين الحكومة وكان الابن من المقربين إلى السلطان الناصر الذى شمل أبا الفدا برعايته . وشغل النويرى لبعض الوقت منصب رئيس لكتبة إدارة الجيش بطرابلس الشام ثم فيما بعد منصب رئيس الكتبة 403 فى عدد من المقاطعات المصرية . ويرتبط على السواء بالأعمال الإدارية وبالإنشاء الأدبى مصنفه الأساسى الكبير الذى رفعه إلى الملك الناصر. وعنوانه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » يشير على وجه التحديد إلى المضمون الأدبى للمصنف والدور الحاسم الذى يلعبه فى هذا المقام لفظ «فن » . ويبين لنا المؤلف نفسه الطريق الذى سلكه فى تنفيذ فكرته فهو يذكر أنه فى بداية نشاطه الأدبى قد أولى كل جهده إلى « الكتابة » ، ثم تحول إلى « الأدب » بمفهومه العام عقب ذلك . وقد جعل هدف موسوعته تلخيص جميع العلوم الاجتماعية مما يحتاج إليه كبار الكتاب ؛ وهذا الوضوح فى الهدف يتفق تماماً مع ما هو ملحوظ فى كتابه من الانتظام الشديد فى العرض ولو أنه يقوم على أسس شكلية .

وإلى جانب الفنون الأربعة الموجودة لدى الوطواط يضيف النويرى « فناً » خامساً ويعدل كثيراً فى مادة « الفن » الثانى . وينقسم كل فن عنده إلى خمسة « أقسام » يحتوى كل واحد منها على عدد من الفصول يختلف مقدارها باختلاف الأقسام . فالفن الأول مفرد للسماء والأرض (ويشمل الجزء الأول من الطبعة المصرية) ، أما الفن الثانى فعن الإنسان (الأجزاء من الثانى إلى التاسع) والثالث للحيوان (الجزآن التاسع والعاشر) والرابع للنبات (الجزآن الحادى عشر والثانى عشر) والخامس للتاريخ . ولاتتفق الفنون فى أحجامها فالقسم التاريخى الذى يصل به المؤلف إلى العام السابق لوفاته (٧٣١ هـ = ١٣٣١) يشغل بالتقريب نصف الكتاب ، أى أنه يمثل فى الطبعة ما يقرب من تسعة آلاف صفحة من القطع الكبير ؛ وإلى جانب التقسيم إلى فنون ينقسم الكتاب إلى أجزاء يصل عددها إلى واحد وثلاثين جزءاً . وكان المؤلف خطاطاً كتب بخط يده أربع أوخمس نسخ تامة من مصنفه هذا قدرت قيمة كل واحدة منها بألفى درهم ؛ وكان بمقدوره أن يخط ثمانين صفحة فى اليوم .

والقسم الجغرافى من الموسوعة يشغل القسمين الرابع والخامس من الفن الأول ، وفيه نلتقى بكل المعلومات المعروفة لنا عن خلق العالم والظواهر الجوية (meteorological) والعناصر وقياس الوقت والفصول ، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال[٢٤] ؛ وهكذا نجد هنا أيضاً توافقاً ملحوظاً

فى المضمون مع الوطواط : ومعطياته فى الجغرافيا الإقليمية (regional) بوجه عام طفيفة للغاية عند مقارنتها بالمعلومات ذات الطابع العام ؛ وكما هو الحال مع الأقسام الأخرى من الكتاب فإن النويرى لا يدعى لنفسه أصالة خاصة بل يذكر بالتحديد أنه إنما يقتفى أثر السابقين له ويلقى بجميع المسئولية على عاتقهم . وتبدو أصالته الأساسية فى معالجته الأدبية لمادته وينعكس هذا بوضوح تام فى القسم الذى يفرده للنبات مثلا فهو يعالج الكلام على النبات من وجهة نظر الأدب ويورد عنه ما هو ضرورى فقط للتثقيف الأدبى ، فالنبات نافع للإنسان كغذاء أو عطر أو أدوية طبية ولكن توضيح ذلك لديه يجريه فى الغالب عن طريق إيراد الأشعار ولهذا فإن القزوينى مثلا يفوقه فى وصفه لعدد أكبر من النباتات[٢٥] رغماً من أن القسم النباتى لدى النويرى أكبر منه حجماً .

404

وقد أخذ النويرى وقتاً طويلا فى تأليف كتابه يصل إلى عشرين عاماً ، وهو أمر ليس بالغريب إذا أخذنا فى الاعتبار حجم الكتاب الهائل . وهذا يفسر لنا تفسيراً كافياً السبب الذى جعل الأقسام المبكرة من الكتاب تضم زيادات ترجع إلى تاريخ متأخر وأن المؤلف ظل يضيف إلى القسم التاريخى على هيئة حوليات من عام لآخر إلى قرب وفاته . وكتاب النويرى مصدر من الدرجة الأولى بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية المعاصرة له أو القريبة العهد منه ، أما بالنسبة للفنون الأخرى فإن أهميته تختلف باختلاف نوع المادة التى يعالج الكلام عليها فى كل فن .

وبفضل العدد الكبير من أجزائه المختلفه الذى وجد طريقة إلى مجموعات المخطوطات بأوروبا فقد بدأ الاهتمام بموسوعة النويرى منذ القرن الثامن عشر واجتذب الأنظار بصورة خاصة الجزء التاريخى منها . وقد بالغ العلماء أحياناً فى تقدير الأقسام المفردة لتاريخ الأزمنة السالفة ولكن لم يلبث أن تبين فى القرن العشرين أن النويرى مصدر ذو أهمية ثانوية فى هذا المجال بعد أن أصبحت فى متناول الأيدى معظم المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة تلك الأقسام . وعلى النقيض من هذا فإن كتابه سيظل على الدوام مصدراً ذا أهمية كبرى بالنسبة للفترة التاريخية القريبة من عهد المؤلف سواء كان ذلك عن شمال أفريقيا والأندلس وصقلية[٢٦] أم عن أقطار مثل دولة الأوردو الذهبى ؛ وقد بين أهمية النويرى بالنسبة لتاريخ تلك الدولة أبحاث تيزنهاوزن Tiesenhausen ثم وكدت ذلك الأبحاث الأخيرة التى ظهرت فى الاتحاد السوفيتى. أما الأجزاء الأخرى من موسوعة النويرى فإنها لم تجتذب كثيراً أنظار البحاثة على الرغم من أن القسم الذى يحتوى على سير مشاهير الرجال يمكن أن يقدم مادة لبعض الدراسات ؛ وتحليل كل من ڤيدمان[٢٧] وفيران[٢٨] للفصول التى تبحث فى العطور والأدوية والنباتات بوجه عام يبين أن الكتاب لا يخلو من مادة قيمة تهم الجغرافى كما تهم عالم النبات ومؤرخ الحضارة .

ومما كان يعوق التقييم العام لموسوعة النويرى هو عدم وجود طبعة كاملة للكتاب ؛ ولقد كان من أفضل خدمات العلامة المصرى أحمد زكى باشا (توفى فى الخامس من يوليو عام ١٩٣٤) هو مابذله من جهد

فى سبيل جمع نسخة كاملة من هذا الكتاب فى واحد وثلاثين جزءاً البعض منها فى الأصل والبعض الآخر مصور من مخطوطات استنبول والمكتبات الأوروبية(٢٩) . هذا وقد وصلت الطبعة التى بدأتها دار الكتب المصرية فى عام ١٩٢٣ إلى الجزء الثانى عشر* الذى ينتهى به الفن الرابع ؛ أما الأجزاء الباقية فتحتوى على القسم التاريخى . وبهذا أصبح من 405 الممكن تقدير هذا الأثر الجليل لعهد المماليك تقديراً أساسياً يتفق مع أهمية الكتاب الكبرى بالنسبة للأدب الجغرافى ولجميع تاريخ حضارة ذلك العهد .

ويظفر بأهمية أكثر منه بالنسبة لنا مصنف معاصره العمرى (٧٠٠ هـ — ٧٤٩ هـ = ١٣٠١ — ١٣٤٩) وإن لم تبلغ سمعته فى الدوائر العلمية سمعة النويرى(٣٠) . واسمه الكامل وهو شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمرى الدمشقى يدلنا على أنه خلافاً للنويرى لاينتمى من ناحية الميلاد إلى مصر ؛ ويرتفع نسب أسرته إلى عمر بن الخطاب وهو أمر تشكك فى صحته أحياناً بعض من لا يحبون الخير للناس ؛ أما أجداده الأقربون فقد استقروا منذ بعض الوقت فى البرلس بمصر السفلى(٣١) ولكنهم كانوا يحسون على الدوام بأنهم أكثر ارتباطاً بدمشق(٣٢) منهم بمصر فاحتفظوا باسم الدمشقى كنسبة أساسية ؛ وبدمشق ولد العمرى ولكنه شب وتعلم بمصر . وقد ربطته تقاليد أسرته كما هو الحال مع النويرى بعمل الدواوين ؛ وكما يذكر المقريزى فإن أسرته قد تولت رئاسة ديوان الإنشاء بمصر مدة قرن من الزمان تقريباً(٣٣) . وإلى جانب ممارسته للكتابة يومياً فقد تتلمذ العمرى على أساتذة مبرزين فى مختلف فروع العلوم ومعروفين بسعة الأفق نذكر من بينهم برهان الدين بن الفركاح الذى يتصل نشاطه العلمى بالجغرافيا أيضاً والذى سيرد ذكره حين الكلام على جغرافيا فلسطين فى ذلك العهد ؛ كما تتلمذ على أحد علماء البلاغة وهو شهاب شهاب الدين الحلبى(٣٤) . وعلى أية حال فإن العمرى لم يتخذ العلم مهنة له وقد شغل حيناً من الوقت وظيفة قاض بمصر وخلف أباه فى رئاسة ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الناصر ؛ وفى عام ٧٣٨ هـ = ١٣٣٨ كان عضواً فى بعثة الحج المصرية(٣٥) . ولم تلبث حدة طباعه أن ساقته إلى النزاع مع ولى نعمته فأمضى الأعوام الأخيرة من حياته بدمشق أشبه بالمغضوب عليه(٣٦) وبها توفى فى سن مبكرة لا بسبب الوباء الذى وقع بالشام آنذاك بل من الربـ Q.tartenfieber(٣٧) .

ولما كان العمرى يتمتع بثقافة عريضة وذوق أدبى مرهف فقد وقاه هذا من ضيق الأفق الذى يسوق إليه الوسط الدواوينى الذى أمضى فيه كل حياته . وهو لم يكن ناثراً فحسب بل وكان شاعراً أيضاً ؛ وتنسب إليه المصادر المختلفة ما يقرب من أحد عشر مصنفاً(٣٨) . وإلى جانب موسوعته الكبرى العديدة الأجزاء يمثل أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافى 406 سفر جامع متوسط الحجم قصد به العمرى عرض كل ما يحتاج إليه فى عمل الدواوين وذلك بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . وعلى الرغم من أنه قد قصد به أن

* كان ذلك فى اللحظة التى دون فيها المؤلف هذه السطور ، أما الآن أى فى عام ١٩٦٣ فإن الطبعة قد وصلت إلى الجزء الثامن عشر (١٩٥٥) . (المترجم)

يكون أنموذجاً فى فن الكتابة فقد أصبح بفضل المنهج الذى اتبعه المؤلف مصدراً هاماً بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية . ويرجع تأليفه إلى الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ = ١٣٤٠ يوم كان المؤلف يتمتع بخبرة واسعة فى فن الإنشاء ؛ وعنوانه « التعريف بالمصطلح الشريف» يحدد بدقة الغرض الرئيسى من الكتاب . وينقسم الكتاب إلى سبعة أقسام الأول منها فى رتب المكاتبات والثانى فى عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير والثالث فى نسخ الإيمان والرابع فى الأمانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسخات والخامس فى نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق والسادس فى مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسفرة به فى البحر والمناور والمحرقات والسابع فى أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه[٣٩] . والعلماء الذين توفروا بصورة خاصة على دراسة هذا الأثر مثل هارتمان Hartmann وغودفروا ديمومبين G Demombynes يقدرونه تقديراً كبيراً سواء فى تفاصيله أو فى مجموعه . وتحليل المقالتين الخامسة والسادسة المفردتين لمصر والشام ولوسائل المواصلات فى دولة المماليك يبين بجلاء الأهمية الكبرى لهذا الأثر من الناحية العملية ودقة المعلومات التى يشتمل عليها ، وهو أمر يجب ألا ندهش له إذ أن معظم هذه المعلومات لا تستند على الوثائق الرسمية فحسب بل وعلى معرفة المؤلف المباشرة بمعظم الوقائع . ومما يسترعى النظر أن المؤلف استطاع فى مثل هذا المصنف الجاف بطبيعته أن يرتفع إلى مستوى راق فى العرض الأدبى من غير أن يفقد فى ذات الوقت النظرة الشاملة إلى موضوعه . وقد كان لمعرفته الجيدة بأسرار البلاغة وتملكه بجدارة لناصية اللغة العربية أن تجنب بمهارة فائقة الإطالة والإسهاب وحصر اهتمامه فى الجوهرى ، الأمر الذى يميزه عن الكثيرين ممن كتبوا فى العصور التالية لذلك رغماً من أن أسلوبه لم يكن يتصف على الدوام بالسهولة . والترتيب المنطقى لمادة كتابه يجعل من هذا المصنف مصدراً حافلا لدراسة مختلف الموضوعات[٤٠] خاصة الجغرافية والتاريخية ؛ وبعد أن نفحص مصنف خليل الظاهرى الذى ألف كتابه بعد قرن من هذا سيستبين لنا بجلاء البون الشاسع الذى يفصل بين العمرى وبين أولئك الذين اقتفوا أثره فعالجوا نفس الموضوعات التى كتب فيها . ويبدو أن كتابه كان مرغوباً فيه للغاية فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قام بتنقيحه والزيادة عليه اثنان من أفراد أسرة المحبى الشامية المعروفة باشتغالها بالعلم وذلك بعنوان «تكثيف التعريف بالمصطلح الشريف»[٤١] . 407 وبفضل المخطوطة الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية فقد أصبحت هذه الرواية المعدلة للكتاب معروفة لدى المستشرقين الروس ولفت تيزنهاوزن الأنظار إلى أهميتها بالنسبة لتاريخ الأوردو الذهبى[٤٢] .

أما موسوعة العمرى فإنها تعادل من حيث الضخامة موسوعة النويرى ويبلغ عدد أجزائها السبعة والعشرين جزءاً موزعة بين دور المخطوطات المختلفة ؛ ولكن الموسوعة فيما يبدو كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءاً كما أثبت ذلك أحمد زكى باشا الذى استطاع بمجهوده الشخصى أن يجمع نسخة

كاملة منها بالقاهرة . وفى الواقع أن هذه النسخة التى جمعها أحمد زكى باشا والتى تعتمد أساساً على مخطوطات استنبول تحتوى على ستة عشر جزءاً مزدوجاً وتقع فى تسعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثمانين صفحة خطية ؛ وعلى الرغم من ضخامة هذا الحجم فإن مضمون الموسوعة أضيق بكثير من مضمون موسوعة النويرى إذ أن مادتها تقتصر على الجغرافيا والتاريخ وحدهما ؛ وينعكس هذا فى نفس العنوان الذى يذكرنا بمذهب قديم فى الجغرافيا العربية وهو « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ؛ وقد يحمل الكتاب أحياناً عنواناً مختصراً بعض الشىء ولكنه يفتقر إلى الدقة وهو « أخبار الملوك » . وينقسم المصنف إلى قسمين أحدهما مكرس للأرض والآخر لسكانها من مختلف الشعوب ، وينقسم القسم الأول بدوره إلى قسمين يطلق العمرى عليهما مصطلحاً لايجرى عادة فى الاستعمال وهو « النوع » ، ولعله أراد من ذلك أن يجعله مقابلا لاستعمال النويرى للفظ « الفن » . ويحمل « النوع الأول » عنواناً موجزاً هو « فى ذكر المسالك » ويجب أن يؤخذ هذا العنوان بمفهومه العريض ليشمل فى الواقع الجغرافيا العامة ؛ أما الباب الأول منه فيبحث فى أبعاد الأرض و« حالها » والثانى فى الأقاليم السبعة وهنا يرد استطراد طريف بعنوان « ممالك عُبَّاد الصليب » الذى سنعود إلى الكلام عليه . أما الباب الثالث ففى البحار وكل ما يتعلق بها وهنا يرد ذكر « القنباص » (معرب كومباس Compass وهو البوصلة) ؛ ويبحث الباب الرابع فى القبلة والأدلة عليها ، أما الخامس ففى الطرق . هذا فيما يتعلق بالنوع الأول فإذا ما انتقلنا إلى النوع الثانى فهو يحمل أيضاً اسما مقتضباً هو « فى ذكر الممالك » وينقسم إلى خمسة عشر باباً تصف على التوالى الدول والبلاد الآتى ذكرها ابتداء من الشرق فى اتجاه الغرب : الهند والسند ، ممالك بيت جنكيزخان ، الجيل (كيلان) ، الجبال ، الأتراك بالروم (آسيا الصغرى) ، مصر ومعها الشام والحجاز ، اليمن ، المسلمون بالحبشة ، السودان ، مملكة ملىّ ، جبال البربر ، أفريقيا ، مملكة بر العدوة (مراكش) ، الأندلس ، العرب البدو المعاصرين وأماكن سكناهم . والقسم الثانى من الكتاب الذى يبحث فى سكان الأرض من طوائف الأمم » ينقسم إلى خمسة أنواع ؛ أما النوع الأول منها الذى يبدو وكأنه يمثل مرحلة انتقالية فإنه يحوى مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان بل وطوائف العلماء مما يذكرنا بعض الشىء بالنمط القديم فى « الفضائل » ، أى مزايا البلدان والأشياء المختلفة ولو أنه يصوغه بالطبع فى صورة مختصرة وفى قالب أدبى . ويبحث النوع الثانى فى الديانات المختلفة بينما يبحث الثالث فى طوائف المتدينين ، أما الرابع | 408 فمكرس للتاريخ ويتضمن بابين أحدهما فى ذكر الدول التى وجدت قبل الإسلام والثانى فى ذكر الدول الكائنة فى الإسلام .

هذا هو مضمون كتاب « مسالك الأبصار » كما يعرضه المؤلف نفسه بإسهاب فى مقدمة الكتاب (الجزء الأول ، الصفحات من ٦ إلى ١٣) . والحكم على حجم كل قسم من أقسام الكتاب المختلفة وكذلك البحث فى مطابقة هذا التبويب لمضمون الكتاب الواقعى أمر عسير إذ أنه لم ير النور منه حتى الآن سوى

الجزء الأول (عام ١٩٢٤) ؛ غير أنه بفضل ما تم نشره من أقسامه المختلفة سواء من المتن نفسه أو في ترجمات (أفريقيا الشمالية وأوروبا الغربية والأناضول ودولة الأوردو الذهبي والصين) فقد صار من المستطاع تكوين فكرة عن الهدف الأساسي للمؤلف وهو أن يضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمي صرف بل على أساس أدبي عريض.

والمؤلف رجل نقالة جامع لصنوف العلوم وموسوعي (Encyclopaedist) ولكنه يتميز بالقليل من الأصالة ؛ وهو يعوض هذا النقص باطلاعه الواسع . وقد هيأ له عمله الحكومي الاطلاع على الوثائق كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من إخراج لوحة مفصلة في وصف العالم المعاصر له . وهو قد قصد من مؤلفه هذا قبل كل شيء إلى وضع مرجع جامع من أجل كتبة الدواوين كما هو الشأن أيضاً مع كتابه « التعريف » ، إلا أن هذا الأخير لا يرتفع من الناحية الأدبية إلى درجة « المسالك » ؛ كما أن الاختلاف بين المصنفين لا يقوم في جوهره على أساس أن«التعريف» إنما يحوى أرقاماً أكثر فحسب أو أن « المسالك » يتضمن مادة جغرافية أكثر كما دلل على ذلك هارتمان[٤٣] ، بل أيضاً في أن منهج العرض في الكتابين مختلف للغاية . « فمسالك الأبصار» يمكن أن يسد مسد كتاب عام للمطالعة لا من أجل الكتاب وحدهم بل وأيضاً من أجل الأدباء بوجه عام؛ ووضع كتاب كهذا يستلزم وفرة في الذوق الأدبي وقدراً معلوماً من الملكة النقدية ، وهما شيئان ضرب فيهما العمري بسهم كبير ولو أنه يجب ألا يدهشنا منه تصديقه للمعتقدات السائدة في عصره والتي لم تكن قد اطرحت بعد . وهو يطبق أحياناً المنهج العلمي بطريقة بدائية ولكنه على أية حال يفعل ذلك بالكثير من الأصالة ، ففي موضع من كتابه يقول : « ونأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عرفنا ، والتحقيق لأكثر مما نعرف بتكرار السؤال واحداً بعد واحد عما يعلمه من أحوال بلاده وما فيها وما اشتملته عليه في الغالب نواحيها ، وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق. فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبته ، وما اختلفت فيه أقوالهم أواضطربت تركته ، ثم إني أترك الرجل المسئول مدة أناسيه فيها عما قال ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ، فإن ثبت قوله الأول أثبت مقاله وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله ، كل هذا لأتروى في الرواية وأتوثق في التصحيح[٤٤] » .

409 وقد أحس العمري بالمطالب الأدبية لعصره إحساساً مرهفاً لذا فإن كتابه لا يمثل موسوعة تاريخية جغرافية فحسب بل وأيضاً مجموعة كبيرة من المنتخبات الشعرية تضم بوجه خاص الأشعار المرتبطة بالمواضع المشهورة[٤٥] ؛ وكما هو معروف فإن هذا العنصر قد لعب دوراً ليس بالضئيل في المعاجم الجغرافية المختلفة خاصة معجم ياقوت . وإذا كانت موسوعة العمري لا تخلو من الطرافة كمصنف أدبي قائم بذاته فهي أيضاً معين لا تنضب مادته فيما يتعلق بمختلف الأقطار ، ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نكتفي بإيراد نماذج معينة منه . فأماري Amari عند فحصه للقسم الخاص بصقلية وإيطاليا قد أثبت

أن المادة التاريخية فيه هى بوجه عام تكرار لما جاء فى مصنف أبى الفدا ، هذا بينما تمثل المادة الجغرافية أهمية خاصة لأن المؤلف استقاها من المؤلفين السابقين كما استقاها أيضاً من الوثائق الرسمية وروايات المعاصرين له(٤٦) . وهو بوجه عام على معرفة جيدة بمجريات الحوادث فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فمادته التى يقدمها مثلا عن مسلمى جزيرة بانتلاريا Pantellara قد أيدتها الوثائق الدبلوماسية التى تم الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ؛ أما فيما يتعلق بجزيرة صقلية فإن العمرى لم يقف عند مصنف الإدريسى وحده بل رجع أيضاً إلى مصنف مجهول بالنسبة لنا عن عهد النورمان(٤٧) . وأما إيطاليا كما وردت فى « مسالك الأبصار» فإن وصفه لها يعتمد فى الغالب على الإدريسى ، وهو يورد تعداداً للمدن الرئيسية بإيطاليا موزعة وفقاً للأقاليم والمناطق ويتناول بعضها بالوصف(٤٨) . وإلى جانب هذا فقد تسرب إلى كتابه الوصف الأسطورى القديم لمدينة رومة والذى يتكرر فى صورته التقليدية الأدبية عند عدد كبير من الكتاب على ممر القرون(٤٩) . وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى مصدر آخر من مصادر العمرى فريد فى نوعه وهو شخص من أهل جنوا يدعى دومينيك دوريا Dominic Doria كان قد سيق أسيراً إلى الشرق وعرف هناك باسم بلبان الجنوى وكان من مماليك الأمير المملوكى بهادور المعزى (توفى فى عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٩)(٥٠) ؛ أما فى الوسط العلمى الروسى فقد اجتذب هذا الجنوى اهتمام العلامة سرزنفسكى Srezneveski فذكره فى كتابه الذى أفرده لرحلة افناسى نيكتين Afanasi Nikitin (١٨٥٦)(٥١) . ويبدو أنه كان شخصاً واسع المعرفة لأن العمرى قد أخذ عنه فكرة جيدة عن عدد من البلاد والشعوب الأوروبية ؛ وهو يذكر مثلا أن الدور الرئيسى فى ذلك العصر كانت تلعبه فرنسا وأن ملك أسبانيا كان أشبه بنائب لملك فرنسا ؛ وهو يعلم أن الألمان أقوياء فى البر وحده . ولا شك أن هذا الجنوى قد زار بروفنس أيضاً كما أنه يورد معلومات وافرة عن لومبارديا وصقلية والبندقية وبيزا وفلورنسه وقطلونيا ، وعن جنوه بشكل خاص لأنه يفصل
410 القول عن تجارتها مع المشرق بصورة تدل على معرفته العميقة بهذا الموضوع . هذا وقد أ لقت به الأقدار فى ظروف معينة إلى آسيا الصغرى التى يعتبر وصفه لها من أقيم فصول كتاب العمرى(٥٢) خاصة تلك التفصيلات التى يوردها عن بلاد القرمان وطربزون(٥٣) ؛ ويبدو أنه لم يزر القسطنطينية لأن وصف العمرى لها لا يرد بألفاظه(٥٤) . أما روايته عن القاهرة والشام فإنها تحمل على الاعتقاد بأن ذلك الجنوى الذى جاب الآفاق قد عرفهما معرفة مباشرة ؛ وفيما يتعلق بالصليبيين فإن العمرى كان إلى جانب ما زوده به الجنوى من معلومات يتصرف أيضاً فى مادة غنية ومتنوعة .

وفى مقابل هذه الروايات التى يوردها عن الغرب فإن من الطريف أن نقدم مثالا لما يقوله عن الشرق الأقصى . فقد أثبتت الدراسة التى عملها شيفير للأقسام المتعلقة بالصين(٥٥) أنه يجب ألا نعتبر العمرى بالنسبة لهذه الأصقاع نقالة فحسب يكتفى بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة ؛ وهو يقدم لنا فيما

يتعلق بشمال الصين وحدها معلومات جمة مروية بألفاظ عدد ممن التقى بهم(٥٦) ؛ وكان هذا الضرب من الرحالة ينتمى إلى مجموعتين من الناس هما التجار ثم الفقهاء الذين ساقهم إلى تلك الجهات فى أغلب الظن حاجة الأقليات المسلمة المهاجرة إلى قضاة وأئمة . وكان من بين هؤلاء الرحالة عدد من أهل العراق وإيران وما وراء النهر ؛ وتوكد جميع قصصهم أن الصين قد فتحت أبوابها فى عهد المغول للتجار ولمن دفع بهم حب الاستطلاع إلى الضرب فى الأرض(٥٧) . وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل وطيور الصيد والحلى الثمينة بل وحتى الآنية المطلية بالميناء من حلب(٥٨) ؛ وتمس معلوماتهم(٥٩) مختلف أوجه الحياة فى الصين ولكن ليس فى عرض منتظم إلا أنه يتميز على الأقل بالإحاطة والشمول . وقد اهتموا اهتماماً خاصاً بوصف نظام الإدارة وطرق المواصلات والتجارة بالطبع وبما يتصل بذلك من حرف ومهن ؛ ولم تقف معرفتهم بحياة أهل الصين عند حد الجوانب المتعلقة بالنظام النقدى وحده بل تجاوزته إلى موضوعات شتى كمهارة الصينيين فى عمل الأسنان الصناعية .

هذان المثالان من الغرب والشرق يقفان دليلا على الأهمية الكبرى لموسوعة العمرى كمصدر لدراسة ذلك العصر ؛ وليس ثمة حاجة إلى القول بأنها لا تقل أهمية عن بقية موسوعات عهد المماليك بوصفها مصدراً من مصادر تاريخ الأوردو الذهبى ؛ إلا أنه تجدر الإشارة فى هذا المقام ولو عرضاً إلى أن ترجمة تيزنهاوزن لمادته عن الأوردو الذهبى [411] وما يرتبط بذلك من استنتاجات يتطلب الآن إعادة النظر فى نقاط معينة وتحقيق النصوص من جديد استناداً على المصادر التى تم الكشف عنها منذ ذلك الوقت وعلى الطبعات العلمية التى أصبحت فى متناول الأيدى فى الستين عاماً التى انقضت على ظهور هذا الأثر الذى يمثل فاتحة عهد جديد بالنسبة لدراسة تاريخ تلك الدولة . وإذا كان هذا هو مبلغ أهمية موسوعة العمرى بالنسبة للبلدان التى لم يزرها بنفسه فحرى أن تزداد قيمتها بالنسبة لبلاد دولة المماليك أى مصر والشام اللتين عرفهما المؤلف عن كثب ؛ وفى الواقع أن كلا مصنفيه يعدان من أهم آثار عصرهما فى هذا المجال . والعمرى رغماً من اتباعه للمذهب التاريخى التقليدى عرف كيف يحتفظ بشخصيته كمؤلف ، وقد لقيت مصنفاته تقديراً عالياً من الأجيال التالية التى تدين له بالكثير فى سبيل تطوير هذا الاتجاه .

ويرتبط بالعمرى ارتباطاً مباشراً مؤلف آخر موسوعة كبرى لعصر المماليك وهو القلقشندى ؛ ورغماً من أن نشاطه يدخل فى نطاق بداية القرن الرابع عشر إلا أن الفرصة مواتية للكلام عنه فى هذه اللحظة . والقلقشندى اسم معروف فى ميدان التأليف التاريخى بمصر الإسلامية بل وفى العالم الإسلامى بأجمعه لذلك العصر ؛ وإلى جانب معرفة العرب الجيدة به فقد عرفه جيداً أيضاً العلماء الأوروبيون منذ القرن التاسع عشر إلا أنه لم يكن من المستطاع إعطاء فكرة عن مجهوده العلمى بصورة شاملة إلا بعد ظهور كتابه فى طبعة مرضية تشمل أربعة عشر جزءاً وذلك فى الفترة بين عامى ١٩١٣ و١٩٢٠ ؛ ويرجع الفضل فى ظهور هذه الطبعة إلى مجهود ذلك العلامة المصرى الذى لم يعرف الكلل إلى نفسه سبيلا وهو أحمد

زكى باشا وثمة دراسة هامة لهذا الكتاب تستند على تلك الطبعة هو البحث الخاص الذى قام به بيوركمان Björkman عن مصنف القلقشندى ؛ وبالرغم من أنه يعالج موضوعه من وجهة نظر تاريخ تطور النثر الدواوينى بمصر الإسلامية إلا أنه يقدم لنا أساساً متيناً لتحليل المصنف من كافة نواحيه وذلك فى دراسة لم تتمتع بها أية موسوعة أخرى من موسوعات عهد المماليك .

وكما هو الشأن فى حالات مماثلة مرت بنا فإنه لايوجد اتفاق تام بين المصادر فيما يتعلق باسم القلقشندى ، ولعل مرد ذلك إلى الخلط بينه وبين ابنه الذى كان من رجالات الأدب أيضاً . ويتفق رأى الغالبية على أن اسمه هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على ؛ وقد ولد فى عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ بمحلة صغيرة قرب قليوب بمصر وإليها نسب إلا أنه من أصل عربى صرف فهو ينتمى إلى قبيلة فزارة التى استقرت بمصر عقب الفتح . وقد تلقى العلم بالإسكندرية وأصبح منذ عام ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ مدرساً للحديث والفقه ، غير أن ميوله الشخصية ذهبت به إلى اتجاهات أخرى فقد اهتم اهتماماً بالغاً بنسب القبائل العربية وله فى هذا الصدد مصنف لقى انتشاراً واسعاً عند القراء العرب فأكمله وزاد عليه فى مستهل القرن التاسع عشر (فى عام ١٢٢٩ هـ = ١٧١٤) العلامة العراقى السويدى . ولم يبق القلقشندى طويلا فى مهنته التدريسية فقد التحق منذ عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ بديوان الإنشاء الذى كان يرأسه آنذاك أحد أفراد أسرة العمرى من أقرباء مؤلف الموسوعة المعروف لنا ؛ هذا وقد ترك العمل بديوان الإنشاء أثره الخاص على نشاط المؤلف وهو قد ظل مرتبطاً به على ما يبدو إلى وفاته فى عام ٨٢١ هـ = ١٤١٨ ، 412 أى بعد سبعين عاماً من وفاة العمرى . وكان القلقشندى معاصراً لشخصيات كبرى وأحداث عظمى ففى عصره عاش بمصر ابن خلدون المشهور ، وشهد القلقشندى مثله زحف التتار على الشام تحت قيادة تيمورلنك .

هذا وقد حفزه عمله بديوان الإنشاء على وضع المصنف الأدبى الأكبر لحياته ، فقد بدأ العمل فى سفره الضخم فور انتقاله للعمل بديوان الإنشاء فى عام ٧٩١ هـ=١٣٨٩ ؛ وهو قد وضعه فى الأصل من أجل كتاب الدواوين وأطلق عليه اسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ؛ وقد أتم الجزء الرابع الرابع عشر منه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١٢ وظل يزيد عليه إلى حين وفاته . ولعله قد أحس بنفسه كبر حجم المصنف فدفعه هذا إلى اختصاره فى مجلد مكتنز بعنوان « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر »[٦٠] ؛ وبعض الصيغ الإنشائية التى عالجها فى هذا المصنف الأخير تعتبر أكثر تفصيلا مما جاء فى مؤلفة الضخم .

إن موسوعة القلقشندى تعتمد اعتماداً كبيراً على مصنفى العمرى كليهما ولكنها تتميز بدقة التبويب وبأن غرضها الأساسى هو أن تكون مرجعاً من أجل كتاب الدواوين أى عمال ديوان الإنشاء . وفيها يلخص المؤلف جميع المعارف التى يحتاج إليها الكاتب المثالى ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام على المداد والقلم والورق والخط إلى المعطيات الواسعة فى محيط الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة . وهو يقدم وصفاً

لنواحي مصر والشام بل ولجميع الدول التى لها أدنى علاقة بمصر مولياً اهتماماً خاصاً لنظامها السياسى والإدارى وأساليب « المعاملات » بين السكان ؛ وهو يوضح الأسس التى يقوم عليها نشاط الدواوين ويفرد عدداً من أجزاء كتابه لنماذج المكاتبات الدبلوماسية وقرارات تعيين الممثلين الرسميين وللوثائق الحكومية الرسمية من كل صنف . ولايكتفى القلقشندى بإيرادها فى صيغها الكتابية الخاصة فحسب بل يسوق نماذج من الوثائق الأصلية الموجودة « بالمحفوظات » Archives مما يجعل من كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامى والأقطار المتصلة به فى أوائل القرن الخامس عشر[٦١] .

وتنقسم الموسوعة من حيث التبويب إلى عشرة أقسام كبيرة فى هيئة مقالات غير متساوية الحجم ولا تتفق مع تقسيم المصنف إلى أجزاء ؛ ويوجد بالمقدمة تحليل دقيق لمهنة الكتابة وفضلها فى المجتمع البشرى . وفى المقالة الأولى من الكتاب (الأجزاء من الأول إلى الثالث) يعالج المؤلف الكلام فى ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له . ويفرد المقالة الثانية **413** (الأجزاء من الثالث إلى الخامس) للمعلومات من محيط الجغرافيا والتاريخ وهى تمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة . أما المقالة الثالثة (الجزآن الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التى تشترك فيها كل المكاتبات والولايات فيعرض للناحية الشكلية المتعلقة بالورق والكتابة ويبحث فى الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصيغ المختلفة . وتتناول المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها ؛ وتمثل هذه الوثائق سواء فى هذا القسم أو فى الأقسام الأخرى عنصراً جوهرياً فى أهمية هذا المصنف ؛ أما المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثانى عشر) فتقدم لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها ، وتحتل هذه المقالة مكانة هامة فى هذا الكتاب وذلك لأنها تلقى ضوءاً على النظام الإدارى المعقد الذى ساد فى عهد المماليك ؛ والنماذج التى يسوقها فى هذه المقالة حافلة بشكل غير معهود . أما بقية المقالات فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالسابقات عليها فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدم صوراً من المكاتبات مما لا يخضع للتصنيف ، كما تحلل المقالة السابعة (من نفس ذلك الجزء) الوثائق المتعلقة بالإقطاعات ؛ أما المقالة الثامنة (فى نفس الجزء أيضاً) فتبحث فى الأيمان وصور الأقسام المختلفة واليمين بينما تتحدث التاسعة (الجزآن الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الصلح والفسوخ والهدنة بين المسلمين والكفار ؛ وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فنوناً من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية إليها .

أما خاتمة الكتاب فتحتوى على أبواب تبحث أساساً فى وسائل النقل والمواصلات : فهنا يرد الكلام على البريد العادى وبريد الحمام كما يبحث فى طريقة نقل الثلج من الشام إلى مصر على ظهور الجمال وعلى

السفن ، وفى استعمال الإشارات النارية . وليس من العسير أن نبصر فى هذا التبويب اقتفاء القلقشندى لأثر كتاب « التعريف» للعمرى بل إنه يطبق فى بعض الأحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره ، وسيزداد اقتناعنا بقوة الصلة التى تربط بين هذين المصنفين فى جوانب أخرى كلما أو غلنا فى دراسة المصادر التى استقى منها القلقشندى .

ونلتقى على طول هذا الكتاب بمعلومات جغرافية متنوعة للغاية وتختلف باختلاف الموضوعات التى يتناولها بالبحث . وإلى جانب هذا فإن المؤلف قد أفرد المقالة الثانية من كتابه بأجمعها للجغرافيا وحدها ؛ وهى تمثل فى الحقيقة عرضاً تاريخياً جغرافياً مستقلا[٦٢] تحتل مركز الصدارة فيه مصر المملوكية ويدور العرض جميعه حولها . وفى بداية هذه المقالة ترد المعلومات التقليدية التى لا تتغير عن شكل الأرض على سبيل الإجمال ، ويلى هذا عرض تاريخى قصير للخلافة مع اهتمام بالجوانب التى انتعشت بشكل خاص فى مصر المملوكية كشعائر الخلافة ونظمها ومراسيمها . أما القسم الخاص بالجغرافيا بمفهومها الضيق من هذه المقالة والذى يبدأ بوصف مفصل للديار المصرية (الجزء الثالث ابتداء من صفحة ٢٨٢ وكذلك الرابع إلى صفحة ٧١) فيعد من أهم أقسام الكتاب ولايزال يقف حتى الآن فريداً فى بعض 414 نواحيه[٦٣] . وكان المستشرق ڤستنفلد Wüstenfeld قد قام بعرضه بطريقة موجزة فى عام ١٨٧٩ إلا أن ذلك العرض الذى يعد مجهوداً مقدراً بالنسبة لعصره والذى لعب آنذاك دوراً لاينكر قد أصبح الآن فى حاجة إلى فحص جديد على ضوء الطبعة التى ظهرت للمتن وبسبب ما تجمع من مواد علمية فى خلال هذه الفترة[٦٤] . والقلقشندى يولى أهمية خاصة فى هذا القسم لمصر الفاطمية والأيوبية كما أنه قد اهتم بالطبع بالعصر المملوكى الذى عاش فيه . وبنفس طريقته المفصلة يعالج الحديث فى وصف الشام ؛ ووصفه هذا معروف لنا جيداً بفضل الدراسة المتقنة التى ندين بها لغودفروادىمومبين (١٩٢٣) . ويلى هذا وصف الحجاز لوقوعه آنذاك فى دائرة نفوذ مصر .

وتبرز فى المكانة الأولى من بين البلاد التى لا تخضع لسلطان المماليك « ممالك بيت جنكيزخان » أى أراضى إمبراطورية المغول التى يقسمها إلى مملكتين كبيرتين هما مملكة إيران ومملكة توران ؛ وفى القسم الخاص بالمملكة الثانية يقدم لنا معطيات هامة عن دولة الأوردو الذهبى ، وقد أصبح قسم منها فى متناول الأيدى منذ عهد تيزنهاوزن[٦٥] . ثم يعود القهقرى للكلام عن بلاد العرب فى أجزائها شبه المستقلة أى التى لا تمثل قسما من الإمبراطورية المصرية ، فيتكلم عن اليمن والساحل الشرقى بما فى ذلك عمان ويضم إلى هذا وصفاً مفصلا للهند (الجزء الخامس ، الصفحات من ٦١ إلى ٩٨) حدث وأن أفرد له المستشرق اشبيس Spies بحثاً خاصاً منذ عهد غير بعيد (١٩٣٦)[٦٦] . ثم يلى هذا وصف منظم للبلدان الواقعة إلى الغرب من مصر وإلى الجنوب والشمال منها ؛ فالمجموعة الأولى تبدأ بتونس ويليها المغرب « الأوسط » وقصبته تلمسان ثم المغرب « الأقصى» المسمى ببر العدوة والذى تمثله الآن مراكش ؛

ثم يتكلم فى صورة منفصلة عن « جبال البربر» بالأندلس* . أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من مصر فتدخل تحت اسم عام هو « بلاد السودان » وتشمل ستة ممالك آخرها الحبشة . وإلى الشمال من مصر يصف بلاد الروم (آسيا الصغرى) فى ذلك الجزء الذى كان لا يزال فى أيدى البيزنطيين ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة ليقدم عرضاً تاريخياً عن اليونان القدماء وعن البيزنطيين الذين خلفوهم مشيراً كمرجع له إلى كاتب من القرن الرابع الميلادى يدعى هروشيش الذى نقل عنه على ما يبدو فى رواية العمرى . ومن بين الشعوب والبلدان الأوروبية يدور الكلام على التوالى عن « الألمان » والبنادقة والجنويين و« رومية » وبلاد الفرنج (فرنسا) والجلالقة (غاليسيا) واللنبردية (لمبارديا) . وإلى الشمال من القسطنطينية يرد ذكر شعوب القوقاز خاصة الجركس الذين كانوا يمدون مصر عادة بالمماليك ، وأيضاً الآس وغيرهم . أما من سكان جنوب شرقى أوروبا فيرد ذكر البلغار والصرب والصقالبة والروس والباشقرد والبرجان ؛ وتتسم معلوماته من هذه الشعوب الأخيرة بالإيجاز كما وأنها لاتخلو من الاضطراب فى بعض مواضعها ، وبها ينتهى القسم الجغرافى .

ومن الواضح أن قيمة هذا القسم الجغرافى ، شأنه فى هذا شأن بقية الكتاب ، إنما تعتمد على المصادر التى يستعملها القلقشندى أكثر من اعتمادها على طريقة تبويبه للمادة . وكما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة 415 فإن هذا المصنف يمثل قبل كل شىء مصنفاً نقلياً إلا أنه يجب أن نستدرك على هذا بقولنا إنه يضم مادة ضخمة جديرة بكل ما يليق بها من تقدير ؛ فهو بهذا يعد إلى حد ما مصنفاً فريداً فى نوعه(٦٧) . ويمكن تقسيم مصادره إلى مجموعتين كبيرتين تنتميان إلى مختلف المجالات والوثائق الرسمية ، وهو يشير إلى مصادره بالكثير من الدقة وكلما استدعت الحال ذلك(٦٨) ، كما أنه يعتمد عليها اعتماداً كلياً لا من حيث المادة فحسب بل ومن حيث تبويبه لكتابه مقتفياً فى أغلب الأحيان أثر « التعريف » للعمرى . ويعتمد القلقشندى قبل كل شىء على آثار السابقين له فى المضمار الذى سلكه ، ونعنى بهذا أولئك الخبيرين بالإنشاء والعمل الدواوينى من جهة ورجالات الأدب من جهة أخرى . وبفضل كتابه هذا أصبح من اليسير تقصى مدى تطور هذا الفن فى الأدب العربى الأمر الذى أسهم فيه المستشرق بيوركمان ببحثه الذى أشرنا إليه . بيد أن القلقشندى قد أفاد إلى حد كبير أيضاً من جميع فروع الأدب الأخرى الحافلة التى اعتبرها ذات أهمية بالنسبة للكاتب . وقد تبين أن عدد مصادره فى هذا الصدد كبير بشكل ملحوظ ، قام بتلخيصها لنا بيوركمان(٦٩) بدرجة تقرب من الكمال وليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عندها بالتفصيل ؛ غير أن العرض السريع لمصادر القسم الجغرافى أمر هام بالنسبة لنا لما يلقيه من ضوء على تطور الأدب

* يبدو أن ثمة خلط وجد طريقه إلى المتن الروسى فقد جاء فى كتاب القلقشندى ما نصه : « المملكة الخامسة من بلاد المغرب جبال البربر ؛ المملكة السادسة من ممالك المغرب جزيرة الأندلس » . أى أنه لم يدخل « جبال البربر » فى الأندلس كما يفهم من المتن الروسى . (المترجم)

الجغرافى ويساعد بذلك على تحديد تلك الآثار التى ظلت تتمتع بالحيوية فى العصر الذى عاش فيه المؤلف؛ ولما لم يكن القلقشندى نفسه منقطعاً للجغرافيا فإن هذا العرض يخلو من أهمية خاصة . وبالرغم من أن العمرى يحتل المكانة الأولى لديه(٧٠) إلا أنه لم يعتمد عليه وحده فى جمع مادته الضخمة ، فمن بين ممثلى الجيل « الأول » من الجغرافيين نلتقى فى « صبح الأعشى » بأسماء ابن خرداذبه وابن حوقل والمسعودى والهمدانى والمهلبى والسمعانى ؛ ومن بين ممثلى القرن « الفضى » بأسماء البكرى والإدريسى والغرناطى وابن سعيد وياقوت وأبى الفدا . وإلى جانب هؤلاء المؤلفين البارزين نلتقى بمروجى المادة الأسطورية مثل ابن وصيف شاه ؛ وإلى جانب مصنفات ممثلى الجغرافيا الوصفية نلتقى أيضاً بمصنفات ممثلى الجغرافيا الرياضية ولكن بصورة أقل ، وعلى كل حال فإن القلقشندى كثيراً ما ينقل عن الزيجات المختلفة وعن « المجسطى » لبطلميوس ؛ ومن مراجعه الأساسية فى هذا المجال البيرونى(٧١) خاصة فى كتابه « القانون المسعودى » . والقلقشندى يعتمد فى القسم الخاص بالجغرافيا الرياضية من كتابه اعتماداً كاملا على المذاهب القديمة ويخضع للنظريات الكوزموغرافية لبطلميوس بحيث ينعكس جيداً من مثاله كيف كانت الدوائر الكتابية فى القاهرة تتأرجح بين النظريات العلمية القديمة الموجودة فى بطون الكتب وبين الوقائع الجغرافية الحديثة(٧٢) التى كانت معروفة لديهم جيداً | والتى وكدتها آنذاك التجربة المباشرة لمختلف الشعوب . 416 وهكذا يرفع رأسه مرة أخرى ذلك الفاصل الذى تحدثنا عنه أكثر من مرة والذى يفصل بين النظرية والواقع فى الأدب الجغرافى .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن الأهمية الكبرى فى المادة الجغرافية لدى القلقشندى تحتلها معلوماته من تلك الأقطار التى عرفها معرفة مباشرة ، وقد رأينا مثال ذلك عند الكلام على مصر والشام . ولا تقل أهمية عن ذلك تلك المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة كانت أم متقطعة بدولة المماليك . وفيما يتعلق بممالك النصارى فقد تعرض الأب لامنز Lammens لتحليل مادته فى عدد من المقالات بنفس الطريقة التى حلل بها تيزنهاوزن مادته عن الأوردو الذهبى وجورجيا(٧٣) أو كما حللها كانار Canard بالنسبة لبيزنطة(٧٤) . غير أنه حتى بالنسبة للبلاد التى لم يكن لديه عنها معلومات باستثناء المادة الأدبية وقصص الرحالة فإنه يجب ألا نطرح سلفاً هذه المادة بوصفها خالية من كل قيمة ؛ وخير مثال لهذا ماكتبه عن الهند فإن المصادر التى اعتمد عليها فى هذا الصدد(٧٥) ابتداء من العمرى إما أن تكون قد طبعت أوعرفت فى مخطوطاتها بحيث أضحت مادته عنها ليست من الأهمية فى المكان الذى كان يعتقد من قبل . وعلى الرغم من كل هذا فإن القلقشندى قد وفق فى تقديم عرض مزود بالتفاصيل يمكن أن يستدل منه على أنه كان للعرب فى ذلك العصر فكرة لا بأس بها عن الهند(٧٦) .

كل هذا يوكد لنا صحة النتيجة التى وصلنا إليها من قبل وهى أن مصنف القلقشندى يمثل ظاهرة مبرزة فريدة فى نوعها فى مجال الأدب الجغرافى أيضاً ويختتم بجدارة سلسلة موسوعات عهد المماليك التى

تكاد تكون أكثر آثار ذلك العهد أصالة فى محيط الأدب . وزيادة على هذا فإنه يمكن إلى حد ما القول بأن « صبح الأعشى » يختتم عصراً معينا فى تاريخ الأدب الجغرافى إذ أن عهد الجغرافيا العامة (General Geography) الذى بلغ أوجه فى نمط الكوزموغرافيات والموسوعات للقرنين الثالث عشر والرابع عشر قد انتهى وحل محله نمط الجغرافيا الإقليمية (Regional-Geography) ؛ كما يمكن أن نضيف إلى هذا أنه قد ظهرت مصنفات محلية باللغتين الفارسية والتركية[٧٧] كما حدث مثلا بإيران وآسيا الوسطى والهند ثم بالدولة العثمانية فيما بعد . أما نمط الرحلات فقد استمر حافلا ومزدهراً حتى النهاية ، وليس هذا فحسب بل إن مما يسترعى الانتباه حقاً هو أن آخر رحالة كبير انتظم محيط رحلاته العالم الإسلامى بأجمعه إنما ينتمى إلى القرن الرابع عشر أيضاً .

ذلكم هو ابن بطوطة المشهور وهو نفس ذلك الرحالة الذى كانت أسفاره تطالع بالمدارس الثانوية بالبلاد العربية إلى عهد قريب والذى يردّد المثقفون العرب حين التساؤل عنه باتسامة لا تخلو من بعض 417 الاستخفاف ؛ وهو نفس ذلك الرحالة الذى لا يستغنى عن الرجوع إليه أى باحث يود الخوض فى تاريخ الأوردو الذهبى وآسيا الوسطى والذى رغماً من هذا تقف رواياته عن الصين والهند فى مستو واحد مع « أسفار السندباد » و« عجائب الهند » . ومهما اختلفت الآراء فيه فإن من المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافى عالمى من الناحية العملية ، أى أنه لم يكن نقالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار . وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعين ألف ميل[٧٨] ، فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً ماركو بولو البندقى[٧٩] . ولعل المقارنة بين الاثنين قد بولغ فيها أحياناً ولو أنها لا تخلو من الطرافة فى بعض جوانبها فالصياغة الأدبية لكلا الرحلتين مثلا لا ترجع إلى صاحب الرحلة نفسه بل إلى شخص آخر ؛ كما أن كلا المصنفين يكمل أحدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن آسيا فالرحالة البندقى عرف الشرق الأقصى خيراً مما عرفه المغربى ، وفى مقابل هذا فمن الطبيعى أن نجد أن هذا الأخير كان لديه إحساس ذاتى بظروف حضارة العالم الذى يصفه أكثر مما كان لدى البندقى . ومما يقرب بين الاثنين أنهما لاينتميان فى المحيط الجغرافى إلى الجغرافيين العلماء ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المسلم لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره المسيحى . غير أن هذا يجب ألا ينسينا شطحاته ، فما لا شك فيه أن وصفه « لأرض الظلمات » الواقعة خلف أراضى بلغار الفلجا إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبى أساء فهم روايته[٨٠] ؛ كما أن وصفه لبلاد طوالسى الواقعة فى مكان ما من كوشين صين Cochin-China يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً . إلا أنه كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة كلما زادت الثقة فى صدق روايته يوماً عن آخر .

واسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى وتشير النسبة الأخيرة إلى علاقته بطنجة

التى رأى النور فيها لأول مرة فى يوم ٢٤ فبراير٧٠٣ هـ = ١٣٠٤ ؛ أما النسبة السابقة لها فتشير إلى أن أصله من قبيلة لواتة البربرية (ايلواتن بلغة البربر) التى انتشرت بطونها على طول ساحل أفريقيا حتى مصر[٨١] . وبالبربر أيضاً يرتبط اسم أسرته بطوطة الذى أثبت صحة نطقه بتشديد الطاء بصفة قاطعة المستشرق فيشر A. Fischer[٨٢] فى عام ١٩١٨ ولو أن هذا لم يجد طريقه إلى الدوائر العلمية إلا بصورة بطيئة . ولا علم لنا بسنى حياته الأولى ولا بسيرة حياته بوجه عام بخلاف ما ذكره هو عرضاً فى سياق رحلته ؛ ويبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقاً للمذهب المالكى السائد بشمال إفريقيا ؛ ولا شك أنه قد تمتع ببعض المعرفة فى هذا المجال فقد حدث له أن شغل فى خلال رحلته منصب القضاء وهو فى ريعان شبابه . 418 غير أنه لا يخلو من غرابة أنه لم يخلف وراءه أى إنتاج أدبى ، إذ لم يرد فى كتاب الرحلة أو فى المصادر الأخرى ذكر ما لمؤلفات أدبية منسوبة إليه . وكان لابن بطوطة كغيره من المثقفين شعر جيد وكان يحب رفع قصائده إلى من شملوه برعايتهم . وقد كان الحافز له على الخروج فى تجواله هو نفس ذلك الحافز الذى لعب دوراً كبيراً فى الأقطار الإسلامية وأعنى به الرغبة فى أداء فريضة الحج . وهو يروى ذلك بقوله :

« قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جملته لباعث من النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كان فى الحيازيم فحزمت أمرى على هجر الإناث من الأحباب والذكور وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والدىَّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً ولقيت كما لقيا نصباً وسنِّى يومئذ ثنتان وعشرون سنة »[٨٣] .

ويغلب على الظن أن ابن بطوطة كان ينوى أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصا الترحال ستلقى به فى مختلف البلاد فلم يكتب له العودة إلى وطنه إلا بعد أكثر من ربع قرن . وخط سير رحلته معروف لنا منذ اللحظة الأولى لتحركه إلا أنه ليس من النادر أن ينقطع خيط الرواية أو يضطرب سياق العرض ، وهو على أية حال يسوقنا إلى لحظة عودته إلى أرض الوطن . ولعل الإطار الجاف الذى يحتوى قصة الرحلة يصف بصورة أبلغ من أى شىء آخر المدى الواسع الذى بلغه تجواله[٨٤] فقد بدأ تحركه من طنجة ماراً فى طريقه على جميع المدن الكبرى بشمال أفريقيا حتى بلغ الإسكندرية ثم غادرها إلى دمياط فركب النيل إلى القاهرة التى كانت آنذاك تمر على فترة من الازدهار أيام عصر المماليك وأحدثت فى نفسه أثراً يماثل الأثر الذى أحدثته فى وقتها مصر الفاطمية على ناصر خسرو . ومن القاهرة تابع ابن بطوطة النيل إلى أسوان ومنها اتجه شرقاً مخترقاً الصحراء حتى بلغ مرفأ عيذاب على البحر الأحمر وهى الفرضة التى كانت تتجه منها السفن عادة إلى جدة ؛ غير أن سير السفن المصرية بالبحر الأحمر كان متوقفاً آنذاك

بسبب الحرب التى اشتعلت بين قبائل البجه والماليك مما اضطر معه ابن بطوطة إلى العودة إلى القاهرة . وهناك واتته فكرة زيارة الشام لينضم إلى قافلة الحاج من دمشق ، واغتنم هذه الفرصة فزار فى طريقه فلسطين ماراً على بيت المقدس كما زار الشام فبلغ أنطاكية واللاذقية . وعقب زيارته لحلب أمضى فترة من الوقت بدمشق ثم انضم إلى [419] قافلة الحاج فزار مكة والمدينة . وأعقب هذا زيارته لمشاهد الشيعة وقبر على بالنجف ثم مر بالبصرة فى طريقه إلى فارس فزار شيراز وأعقبها بالموصل ودياربكر من مدن الجزيرة ثم رجع إلى الكوفة وغادرها إلى بغداد . وكان العام قد انصرم مما يسر عليه فرصة تأدية الحج مرة ثانية ، وهنا أقام بمكة الفترة من عام ٧٢٩ هـ إلى ٧٣٠ هـ (من نهاية عام ١٣٢٨) حتى عوفى من مرض شديد كان قد ألم به وتعرف خلال ذلك على عدد من العلماء والدراويش المقيمين بها . ولم يلبث أن غادرها إلى جده ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرقى لأفريقيا ثم رجع منه إلى اليمن ثم عاد مرة ثانية إلى إفريقيا التى غادرها إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب على الخليج الفارسى ، وقد مر فى طريقه على عمان وهرمز والبحرين . وزار مكة للمرة الثالثة فمر فى طريقه إليها على اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر إلى عيذاب ومنها إلى القاهرة . أما الدورة الثانية من أسفاره فكانت وجهتها الأقطار الشمالية فقد اجتاز الشام حتى دخل آسيا الصغرى ؛ وفيما يتعلق بهذه البلاد الأخيرة فإن خط سيره يعتوره خلط شديد فقد اجتاز ابن بطوطة آسيا الصغرى حتى وصل إلى سينوب (« صنوب ») على البحر الأسود ثم عبر البحر فنزل شبه جزيرة القريم عند ميناء كفا وهى فيودوسيا حالياً وكانت إذ ذاك من المستعمرات الجنوية بالبحر الأسود ، وفيها ولأول مرة فى حياته سمع ابن بطوطة صوت نواقيس الكنائس . أما ميناء القريم الرئيسية فكانت سوداق التى يعتبرها ابن بطوطة أحد المرافئ العالمية الخمسة الكبرى (إلى جانب الإسكندرية بمصر وكلم وقاليقوت بالهند والزيتون بالصين)[٨٥] . وفى طريقه مر ابن بطوطة على سلخات (القريم القديمة) فجال فى جميع أنحاء القريم وروسيا الجنوبية ومن هناك بلغ أرض بلغار القلجا[٨٦] . ثم خرج من استراخان (« حاجى طرخان ») مع قافلة أميرة بيزنطية هى إحدى زوجات الخان أوزبك فبلغ القسطنطينية ومن هناك رجع مرة ثانية إلى مملكة الأوردو الذهبى فوصل إلى مقر الخان بمدينة سراى ، ثم عبر القلجا فوصل إلى خيوه وغادرها إلى بخارى فأفغانستان ودخل الهند فى غرة المحرم من عام ٧٣٤ هـ = ١٢ سبتمبر ١٣٣٣ ؛ ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجزء الثانى من وصف الرحلة . وفى دلهى حظا ابن بطوطة بدرجة عالية من النفوذ لدى السلطان محمد بن طغلق الذى عينه فى منصب القضاء لمدة خمس سنوات[٨٧] . وفى تلك الأثناء جهز السلطان سفارة إلى الصين كان من أعضائها ابن بطوطة ؛ ولم يوفق ابن بطوطة فى محاولته الوصول إلى الصين براً عن طريق قندهار فأبحر من قليقوت إلى جزر الملديف (« جزائر ذيبة المهل ») Maldives وهناك أمضى زهاء عامين شغل خلالها مرة أخرى منصب القضاء وزار سيلان والبنغال (« بنجالة ») والهند الشمالية وأندونيزيا ،

ومن هناك اتجه إلى كانتون بالصين . وفى طريق العودة أخذ السفينة من سومطرة إلى ظفار فى جنوبى الجزيرة العربية فبلغها فى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ . ومرة أخرى نراه ضارباً فى فيافى إيران والعراق والشام ومصر ؛ ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة ؛ وبعد ذلك ذهب إلى فلسطين وشهد بها الوباء المخيف الذى اجتاحها عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ . 470 وعقب ذلك بقليل فى أبريل من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ ألحت عليه رغبة جامحة فى الرجوع إلى وطنه ، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش فى عهد السلطان أبى عنان من بنى مرين قد مكن من هذه الرغبة فى نفسه فأخذ طريق العودة ماراً على مصر وتونس ؛ وهناك واتته فكرة زيارة جزيرة سردينيا (« سردانية ») . وفى أثناء هذه الرحلة تعرض مرتين لهجوم لصوص البحر[٨٨] ؛ وعلى الرغم من هذا فقد حالفه التوفيق فتقدم فى طريقه إلى فاس ماراً على تنس وتلمسان وتازا ، التى علم فيها بخبر وفاة أمه ، حتى بلغ بلاط السلطان أبى عنان فى نوفمبر من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ وهناك انتهى به المطاف وقوبل بما هو أهل له من التقدير والإجلال . بيد أن تجواله لم يقف عند هذا الحد فقد بقى قطران إسلاميان لم يكن قد زارهما بعد أحدهما دولة غرناطة التى لم تستغرق زيارته لها وقتاً طويلا . وفى طريقه إليها زار قبر أمه بطنجة[٨٩] ثم عبر مضيق جبل طارق إلى رنده فمالقه وأقام مدة أطول بعض الشىء بغرناطة ، ومن المحتمل أنه تعرف فيها بمحمد بن جزى وهو الرجل الذى كتبت له الأقدار أن يدون أخبار أسفار ابن بطوطة ؛ ثم رجع ابن بطوطة إلى المغرب عابراً مضيق جبل طارق للمرة الثانية . غير أنه لم يلبث أن خرج فى غرة المحرم من عام ٧٥٣ هـ = ١٨ فبراير ١٣٥٢ فى رحلة أطول من تلك بكثير كان قد كلفه بها السلطان أبو عنان وكانت وجهتها جوف إفريقيا ؛ وقد ظل وصف هذه الرحلة الأخيرة لا يفضله شىء إلى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر . مر ابن بطوطة بسجلماسة فى طريقه إلى تمبكتو بمملكة مالى القوية[٩٠] التى لم يكن قد مر على اعتناقها الإسلام عهد طويل . وفى طريق العودة بعد أن زار معادن النحاس بتكدا بدأ فى ١٢ سبتمبر ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ رحلة شاقة استغرقت بضعة أشهر فى صحبة قافلة من تجار الرقيق اخترق خلالها هضبة « هكار» Ahagger بعد أن مرّ فى طريقه على واحة أغدس Agdes ثم عبر جبال أطلس شتاء فى ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس فى نهاية عام ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ ؛ وفى هذه المدينة أمضى البقية الباقية من حياته وهى نيفاً وعشرين عاماً لم يقم خلالها بأى تجوال حتى وافته منيته فى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧* .

وقد كان عهد المرينيين ، خاصة فى أثناء حكم أبى الحسن (٧٣١ هـ — ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ — ١٣٤٨) وأبى عنان (٧٤٩ هـ — ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ — ١٣٥٨) عهداً ازدهرت فيه الثقافة فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى ، وقد عد بنو مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية على الرغم من أن الدولة العربية بالأندلس

* هذا التاريخ غير صحيح ، وكما أثبت جب Sir Hamilton Gibb فإن التاريخ الصحيح لوفاته هو عام ٧٧٠ هـ = ١٣٦٨ — ١٣٦٩ (راجع Selections, p. 2) . (المترجم)

كانت لا تزال على قيد الحياة ولو أن رقعتها كانت قد تقلصت بشكل ملحوظ ؛ لذا فقد اهتم بنومرين بتشجيع الأدب والأدباء كأسلافهم عرب الأندلس . وقد حفظت لنا الآثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة كما اجتذب بلاطهم عدداً كبيراً من الأسماء اللامعة فى مجالى الأدب والعلم فعاش فى كنفهم ابن خلدون وابن الخطيب وكلاهما كان معاصراً لابن بطوطة(٩١) . ويبدو أنه كان للسلطان أبى عنان الفضل فى ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة فهو الذى عثر له على « محرر أدبى » إن صح هذا القول ؛ وتشير قرائن الأحوال إلى أن رحالتنا 421 رغماً من ولعه بالقصص فإنه لم يحس انجذاباً شديداً نحو الكتابة . أما كيف خرجت فكرة الكتاب إلى الوجود فيتضح ذلك جلياً من ألفاظ المحرر ، فهو فى كلامه عن ازدهار فاس فى عهد السلطان أبى عنان يقول :

« وكان ممن وفد على بابها السامى وتعدّى أوشال البلاد إلى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدُوق جوّاب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذى طاف الأرض معتبراً وطوى الأمصار مختبراً وباحث فِرَق الأمم وسبرسِيَر العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا(٩٢) . . . ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار وما عاق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزى الكلبى . . . بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدُرّها عن تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادراً وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم اخلّ بأصله ولافرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المُشْكِل من أسماء المواضع والرجال بالشَّكْل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء الأعجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ فى فك مُعمّاها معهود القياس »(٩٣) .

من هذا يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة المعروف باسم « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ليس من تصنيف ابن بطوطة نفسه بل يمثل 422 صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزى ، ولايزال موجوداً بالمكتبة الأهلية بباريس قسم من الكتاب بخط يد الكاتب نفسه . ويمكن

الحكم على الطابع العام للكتاب من ألفاظ ابن جزى التى استشهدنا بها فى سياق هذا الفصل ومن تحليل شخصيته كأديب ، فهو على ما يبدو من أدباء عصر التدهور وقد بقى لنا من آثاره ترجمة لسيرة حياته (Autobiography) ومصنف فى نسب النبى(٩٤) . وقد ولد ابن جزى بغرناطة وشغل منصب الكاتب لدى السلطان أبى الحجاج يوسف من بنى نصر (٧٣٣ هـ – ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ – ١٣٥٤) ثم لم يلبث أن اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب فى بلاط السلطان أبى عنان الذى عرف كيف يجتذبه إلى شخصه . وأتم ابن جزى عمله فى ثلاثة أشهر فقد انتهى من « تقييد » ألفاظ ابن بطوطة فى ديسمبر من عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥(٩٥) وفى فبراير من العام التالى كان قد أكمل صياغتها(٩٦) ؛ ولم يعش طويلا بعد هذا فقد وافته المنية فى نفس العام(٩٧) . وعلينا أن نأخذ دائماً فى اعتبارنا جميع الظروف التى تم فيها تدوين الرحلة بحيث أننا إذا ما قسونا فى حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى .

ويمس هذا قبل كل شىء الإطار العام للكتاب الذى هو من وضع ابن جزى فهو يفتقر فى كثير من الأحيان إلى التناسب والتناسق ؛ ويمكن من خلال الشذور التى اقتطفناها أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذى لجأ إليه ابن جزى وميله الواضح إلى السجع والإطناب وهى على أيه حال من سمات عصر التدهور . ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير فى جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيراً ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التى تميل أحياناً نحو لغة المحادثة محتفظة فى ذات الوقت برزانتها وغناها بالتفاصيل فوق ماتتميز به من الحيوية الدفاقة والعاطفة الجياشة . وإلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزى ثقيلا يغلب عليه الحشو والتكلف كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة فى وحدة متماسكة وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية(٩٨) . وهو يقتطف من أشعار مختلف الشعراء ، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه ؛ وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر . وأغلب الظن أن ابن جزى قد لجأ إلى الطريقة القديمة فى تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين فى سياق عرضه دون أن يهتم بالإشارة إلى أسمائهم ؛ ومن الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب فهو رجل يحب القصص ولكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو ومن المشكوك فيه أن يكون هو المسئول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير فى وصف الشام وبلاد العرب دون أن يشير إلى المؤلف ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون ابن جزى الغرناطى الأصل على معرفة جيدة بالأسلوب المصقول لمواطنه الأندلسى ابن جبير خاصة وأن الأخير كان بوجه عام محبباً إلى قلوب أهل بلده 423 فلا غرو أن أراد ابن جزى تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع إليه .

إن دور ابن جزى فى تحرير الكتاب كانت له آثار بعيدة فقد جهد فى أن يضفى على المصنف طابعاً

فنياً متماسكاً لعله لم يعرف فى الأصل إطلاقاً . ومن الواضح أن ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحى من الاعتراف بأنه قد نسى اسم موضع ما أو اسم شخص ، مثل ذلك القاضى الذى نزل عليه بالشام أوتلك المدينة التى مر عليها فى طريقه إلى تمبكتو[٩٩] ؛ وأغلب الظن أنه لم يدون مذكرات منظمة وإذا كان قد دون شيئاً ما فلا ريب فى أنه قد أضاعه خلال تجواله أضف إلى هذا أنه لم يهدف إخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها : لذا فحين دعت الحاجة إلى الربط بينها فى رواية متتابعة فإن المحرر بذل جهداً ليس بالقليل ليخرج من القصة بأكثر مما استطاع المؤلف أن يتذكره ، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الأسئلة أو ربما استحثه بوسائل أخرى . ولم يكن ابن جزى على معرفة بالبلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة لذا فليس غريباً أن يقع فى أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة فى وحدة متماسكة ، ويصدق هذا بصورة خاصة على أفريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر فدلائل الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسى وصف طريقه تماماً وذلك لبعد الزمن الذى ينيف على ربع قرن ؛ ومن الملاحظ أن وصف هذا الطريق مختصر للغاية لدى مقارنته ببقية وصف الرحلة . أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى[١٠٠] فيمكن رده إلى ابن جزى الذى حاول بلاشك أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب بإزاء العدد الكبير من أسماء الأماكن التى يذكرها ابن بطوطة . وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً بألا يأخذ طريقاً ما أكثر من مرة[١٠١] ومن ثم فإن تحديد طريق سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التى سلكها . وعلى نحو ما أراد المحرر فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته فى بعض الأحايين دقة خيالية لا تمت للحقيقة بسبب وذلك فيما يتعلق بتحديده للمسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له ؛ كما أنه من الصعب مثلا التصديق بأن عدداً من رحلاته الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد فى غرة المحرم من كل عام .

ومن المحتمل أن ا بن جزى لم يمس جوهر القصص نفسها لذا فلا يزال ينتظر إجابة شافية حتى الآن سؤال حائر هو إلى أى حد يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا فى اعتبارنا مدى فعالية العنصر الذاتى (Subjective) فى هـــذا المجال . ولقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة منذ لحظة رجوعه إلى أرض الوطن تماماً كما حدث مع ماركو بولو ، بل إنه يمكن استشفاف لون من الحذر حتى عند ابن جزى نفسه وذلك فى قوله « وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار» . ولقد سارت هذه الشكوك قدماً تارة تفيض وطوراً تغيض ولكنها لم تصل بالطبع فى الأدب العربى إلى مرتبة الحدة أوتثير مثل ذلك الاهتمام الذى ترجع صداه فى الأوساط العلمية 424 الأوروبية . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة المجردة أن يسير التأرجح بين اليقين والشك فى شأن ابن بطوطة بنفس التتابع الزمنى الذى ساره موقف العلماء

المحدثين من الجغرافيين العرب الآخرين ، فالبحاثة الأول الذين تعرفوا على المتن الأصلى لابن بطوطة بصورة مباشرة مثل كوزغارتن Kosegarten ولى Lee قد وثقوا ثقة تامة فى صدق روايته ثم أعقب ذلك فترة من التشكك بلغت غايتها فى موقف النقد المتطرف الذى وقفه يول Yule من ابن بطوطة ؛ وأخيراً وفى القرن العشرين نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد أخذ يكتسب الأنصار يوماً بعد يوم . وتتمثل وجهة النظر الأخيرة فى أن ابن بطوطة يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك .

وبالطبع فابن بطوطة رجل مسلم قح من أهل القرن الرابع عشر ولكنه كان أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية منه إلى العقيدة الرسمية ، أعنى المعتقدات السائدة فى المغرب ؛ وهو لم يلق بالا لجوانب الحياة التى تهم عصرنا نحن . وقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له المسائل المتعلقة بالعبادة والأولياء والدراويش فاعتقد فى صحة الكرامات التى حكيت له أو التى حدثت له هو نفسه ، ولعله من اليسير تفسيرها على ضوء الانخداع النفسى والسلوك الجماهيرى (Mass hypnosis) الذى شهده بنفسه فى الهند أوردها ببساطة إلى المبالغة التى ينساق إليها بسهولة جميع الرحالة فى كل العصور . فإن أسقطنا من حسابنا هذه العوامل فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى ما اعتقده الحق . أما الأخطاء التى وقع فيها فليست بالقليلة ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التى زارها ، وهو فيما عدا العربية كان ملما ببعض الفارسية وربما التركية كذلك إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت فى الواقع عند حد ألفاظ معدودة كان يحب أن يعرضها من حين لآخر ولكن التوفيق جانبه فى معظم الأحوال . وفى اتصالاته بالسكان المحليين لم يكن من النادر أن يلجأ إلى الاستعانة بمترجم ما ، ولا يخفى بالطبع النتائج التى تترتب على هذا إذ كثيراً ما تسرب الخطأ إلى أسماء البلاد الأجنبية التى يذكرها أثناء سيره كما أنه ليس من المستبعد أن يختلط لديه ترتيبها ، زد على هذا أن التتابع الزمنى للرحلة غير منتظم وأن التواريخ تبدو كأن المحرر قد وضعها خبط عشواء ؛ ونفس هذه المجموعة من الأخطاء وجدت طريقها إلى الاستطرادات التاريخية . لكل هذا فإنه يجب ألا يغرب عن الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقالة بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته ، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه فى هذا شأن جميع ممثلى الثقافة العربية لذلك العهد . وبعد فيجب الاعتراف بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أى فى التواريخ chronological) والمكانية (أى فى المواضع الجغرافية Topographical) ضئيل لديه عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التى يوردها[١٠٢].

وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة إلى أقسام معينة من رحلته كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين ؛ أما عن الأولى فقد كان اضطراب التواريخ سبباً فى حدوث بعض الخلط لديه ولكن على الرغم من هذا تم الاعتراف فى الأونة الأخيرة بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة ولا يمكن

أن ينتج إلاّ عن معرفة مباشرة بها فضلاً عن أنه يكشف فى هذا الصدد كما هو الحال دائماً عن قوة ملاحظة خارقة[١٠٣]. ولا تزال مستعصية على الحل مسألة حقيقة زيارته للصين ، وكما قال مجيك Mžik فإنها لم تنضج بعد للحل[١٠٤] ويجب أن يترك الباب مفتوحاً لها[١٠٥] ؛ ولا يزال إجماع الآراء أكثر ميلا إلى القول بأن ابن بطوطة لم يزر الصين . ويقرر شيفير Schefer أن القليل من رواياته عن الصين يستأهل الاهتمام[١٠٦] ولو أنه يجب الاستدراك على هذا بأن رواياته عن الصين ليست بالقليلة العدد[١٠٧] . وقد وصل فيران Ferrand وهو خبير خبير فى الأدب الإسلامى عن الشرق الأقصى إلى نتيجة مؤداها أن ابن بطوطة لم يزر الهند الصينية ولا الصين بل لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة[١٠٨] . وكما بينا من قبل فإن ابن بطوطة لا يكشف بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافى ، وإذا ماسلمنا جدلا بالفرض القائل بأن ابن بطوطة إنما اعتمد فى وصفه على القصص التى سمعها من الآخرين فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض ، فمثلا من الصعب القول بأن ابن بطوطة من غير أن يزور الصين قد وجد أن هناك ما يضطره إلى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل سبتة ثم يذكر اسمه بالتفصيل كما يذكر أيضاً أنه قابل أخاً لذلك الشخص نفسه بالسودان الغربى[١٠٩] . مما لا ريب فيه أن الكلام يدور هاهنا عن شخصيات حقيقية كانت معروفة للكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة إليها فلم يكن بوسعه إذن أن يفكر فى تعريض سمعته للثلب من أجل دافع تافه كهذا . ومنذ عهد ليس بالبعيد توصل البحاثة اليابانى ياماموتو Yamamoto إلى رأى **حول** رحلة ابن بطوطة فى الشرق الأقصى لايبلغ فى شدته الرأى الذى خرج به فيران . فهو يقول :

« إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هى من نسج الخيال وحده . حقاً إن وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة ولكنه لا يخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين ، فضلا عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التى وجدت توكيداً فى المصادر الصينية وفى أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته »[١١٠] . ولاعتبارات ذات طابع عام أخضع ياماموتو رواية ابن بطوطة عن بلاد طوالسى الغامضة لتحليل دقيق ؛ ولنذكر عرضاً أن رواية ابن بطوطة عنها قد جرت عليه سخرية بعض البحاثة ، فالعلامة يول Yule مثلا قال عنها فى زمنه « يجب البحث عن تلك البلاد فى صفحات الأطالس التى تحتوى الخارطات البحرية مما رسمته يد الطيب الذكر القبطان غليفر »[١١١] . 426 وعلى الرغم من هذا فإن عدداً من البحاثة ممن لم يصل بهم التشكك إلى الدرجة التى بلغها عند يول قد حاولوا العثور على هذه الجزر فبحثوا عنها فى جزيرة بورنيو[١١٢] وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة فى كوشين صين[١١٣] ، وأخيراً وضعوها فى تونكين[١١٤] ؛ وقد ساق ياماموتو حججاً قوية للتدليل على أن طوالسى إنما هى شامبا[١١٥] بعينها التى كانت تقع بلاشك على الطريق بين الهند والصين[١١٦] . ولعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التى رواها له المترجمون المحليون[١١٧] عن

تلك البلاد وذلك لجهله باللغات المحلية : لكل هذا فإن رواية ابن بطوطة حتى فى حالات قصوى مثل هذه لم تعد تثير الشكوك فى نفس البحاثة المعاصرين كما كان الحال عليه من قبل ، خاصة وأن رواياته عن مواضع مجاورة كجزر ملديف مثلا قد وكد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها[١١٨] :

ومن الطريف أن نسوق ملاحظة لابن خلدون فى هذا الصدد ، خاصة وأن ابن خلدون من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة بل والتقى به شخصياً . ففى « مقدمته » المشهورة ، وفى الفصل منها الذى يبحث « فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » يذكر فيما يذكر :

« ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه فى ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه ؛ وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال لى الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذى كان يتغذى فقال له أبوه هذا لحم الغنم ؟ فقال وما الغنم ، فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ؟ فيقول يا أبت تراها مثل الفار ، فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار ! وكذا فى لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين فى محبسه من الحيوانات إلا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيراً مما يعترى الناس فى الأخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الإمكان العقلى المطلق فإن نطاقه أوسع شىء فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التى للشىء فإنا إذا نظرنا أصل الشىء وجنسه وصنفه ومقدار عظمة قوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدنى علماً وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم »[١١٩] .

من هذا يتبين أن عالمين ، أحدهما ابن خلدون فى القرن الرابع عشر والآخر ياماموتو فى القرن العشرين ، قد وصلا فى الحقيقة إلى استنتاج واحد مؤداه أنه من المستحيل رفض رواية ابن بطوطة على أساس أنها تتناقض مع الواقع ؛ ويميل العلم الأوروبى الحديث إلى أن يقف نفس هذا الموقف من ابن بطوطة .

ووضع ابن بطوطة فى تاريخ الأدب الجغرافى واضح للعيان فهو لم يكن جغرافياً نقالة أومن أصحاب الموسوعات أومن الأدباء بل كان شخصاً عادياً للغاية لايتمتع بأية مواهب خاصة ولاتنعكس فى رواياته أفكار عميقة أوملاحظات دقيقة وكثيراً ما نلتقى لديه بأمثلة لتصديق أكثر الروايات إغراباً فى الخيال . وعلى 428 الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة(١٢٠) ؛ وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً على الرغم منه إن صح هذا التعبير وصنعت منه لوناً من الرحالة نادراً عند العرب ذلك هو الرحالة الذى يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب فى مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب . وهو على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب لم يجمع مادته من صفحات الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرف عليها عرضاً فى خلال رحلاته . وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر ، وهو بالطبع لم يفكر فى أن يجرى أى نوع من البحث والتحقيق فى مجال الجغرافيا ولعله نتيجة لهذا قد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع الإسلامى والشرقى عامة فى القرن الرابع عشر. فهو خزانة تحفل بمادة غنية لا فى مجال الجغرافيا التاريخية أوتاريخ عصره فحسب بل عن جميع حضارة ذلك العهد ، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التى يهملها المؤرخون عادة فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأزياء الشعوب المختلفة وتقاليدها وحرفها وأصناف الأطعمة والأغذية . فهو بهذا ليس كتاباً نظرياً جافاً بل على العكس من ذلك يفيض بالإنسانية والحيوية ولايبخل فيه المؤلف بملاحظاته وتعليقاته فى أية مناسبة تعرض ؛ وهو لا يمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب بل يقدم كذلك نموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن إسلامى من أهل القرن الرابع عشر(١٢١).

ولما كان للنثر الفنى الغلبة فى الأدب العربى فلم يكن من الغريب ألا يتمتع مصنف ابن بطوطة فى القرون التالية بالرواج ، فقد وقف منه العلماء المتزمتون موقف التحفظ وطرحوه جانباً على أنه ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية ، بل وليس فى علمنا أن أحداً من المؤلفين المتأخرين قد أشار إليه مجرد إشارة إذا استثنينا الموجز الذى وضعه للكتاب فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) شخص يدعى البيلونى وتعرفت عليه أوروبا قبل أن يتعرف عليه العالم العربى . وفى العصر الحديث فقط ، وذلك بفضل الطبعة الأوروبية للمصنف والتى أعيد طبعها مراراً بالشرق ، بدأ أصل الكتاب يجد طريقه شيئاً فشيئاً إلى الأوساط العربية المثقفة فى صورة مختارات مدرسية وكتب للمطالعة فى أغلب الأحيان . وخير مثال لها تلك الكتيبات الثلاثة التى أخرجها فى سلسلته المعروفة فؤاد افرايم البستانى (عام ١٩٢٧) .

أما بالنسبة للأتراك العثمانيين فى القرن التاسع عشر فلم يكن من السهل أن يمر ابن بطوطة هكذا دون أن يثير اهتمامهم ، إن ليس لشيء فلوصفه المفصل لآسيا الصغرى على أقل تقدير ، ناهيك عما يحفل به كتابه من تفاصيل هامة تتعلق بموضوعات شتى . وقد ظهرت محاولات لترجمته إلى اللغة التركية منذ الستينيات الأولى للقرن الماضى وذلك فى صحيفة « تقويم وقائع » التى كان يحررها كمال افندى[١٢٢] ؛ أما الترجمة الكاملة للكتاب التى قام بها الداماد محمد شريف فقد ظهرت فى ثلاثة أجزاء فى نهاية ذلك القرن (١٣١٥ هـ — ١٣١٩ هـ = ١٨٩٧ — ١٩٠١)[١٢٣]. وللعلامة التركى محمد جودت (توفى فى عام ١٩٣٥) 429 تعليق واف على رواية ابن بطوطة عن تقاليد « الأخى » بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد « الفتيان » عند العرب[١٢٤] .

وعلى أية حال فيجب القول بأن معرفة الاستعراب الأوروبى بابن بطوطة جاءت متأخرة ومتأخرة بكثير عن معرفته بالإدريسى بل وحتى بأبى الفدا ؛ ومن العبث البحث عن اسمه فى موسوعة دربلو d'Herbelot المعروفة التى جمعت خلاصة المعارف فى ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر ، أو عند اشنورر Schnurrer الذى سجل أسماء جميع المؤلفات التى ظهرت فى عالم الاستعراب إلى عام ١٨١٠ . وفى بداية القرن التاسع عشر فقط تم الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة ، ولم يتم ذلك بواسطة العلماء ولكن بواسطة اثنين من الرحالة هما زيتسن Seetzen (١٨٠٨) وبوركهارت Burckhardt اللذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربى حق قدره وإليهما يرجع الفضل فى وصول مخطوطات موجز البيلونى إلى أوروبا لأول مرة (بمكتبتى غوطا Gotha وكمبردج Cambridge) وبهذا أصبح المتن فى متناول أيدى العلماء . وكان أول من تناوله بالبحث العلامة كوزغارتن Kosegarten وتلميذه ابتز Apetz فقدم الأول تحليلا عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها الترجمات والتعليقات بعنوان : « الرحلة الفارسية » Iter Persicum و« الرحلة الملديفية » Iter Maldivicum و « الرحلة الإفريقية » Iter Africanum (١٨١٨) ؛ أما الثانى فقد قام بنفس المهمة فيما يتعلق بوصفه لساحل ملبار Malabar (١٨١٩) . وتمثل خطوة إلى الأمام فى دراسة ابن بطوطة تلك الترجمة الكاملة للموجز التى قام بها العلامة الإنجليزى لى Lee الأستاذ بجامعة كمبردج (١٨٢٩) ؛ وعلى النقيض من هذا فإن الترجمة البرتغالية التى قام بها مورا Moura (١٨٤٠ — ١٨٥٥)[١٢٥] معتمداً فى ذلك على مخطوطة حصل عليها بفاس فى حوالى عام ١٧٩٧ لم تحظ بالعناية الكافية[١٢٦] . أما أصل الكتاب فإنه لم يتم العثور عليه إلا بعد فتح الفرنسيين للجزائر واستيلائهم على قسنطينة ، وأعقب هذا أن وجدت طريقها إلى المكتبة الأهلية بباريس Bibliothèque Nationale نحو من خمس مخطوطات اثنتان منها كاملتان وأبعاض منهما بخط يد ابن جزى نفسه . وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون ، بعد محاولات عديدة لنشر وترجمة أقسام من الكتاب ، من أن يخرجوا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية فى أربعة

أجزاء بقلم المستشرقين دفريمرى Defrémery وسانغنتى Sanguinetti (١٨٥٣ — ١٨٥٨) ؛ وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد من قبل العلامة رنان Renan الذى نشر بهذه المناسبة دراسة عن ابن بطوطة وكتابه تتسم بالكثير من الحيوية . ولاتزال الطبعة الفرنسية فى جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذى قامت عليه جميع الأبحاث عن رحلة ابن بطوطة ، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ولكنها لم تخضع فى مجموعها لفحص منظم على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع أن ترضى فى الوقت الحـاضر متطلبات البحث العلمى المعاصر . غير أن الدراسات المستقلة التى تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة ؛ ويمكن إعطاء فكرة عامة عن الرحلة بأجمعها من خلال الترجمات التى عملت لأقسام مختلفة من الكتاب ، أعنى بذلك ترجمات | 430 مجيك Mzik (١٩١١) وجب Gibb (١٩٢٩) المزودة بتعليقات موجزة والتى يمكن أن تعد القول الفصل الى يومنا هذا فى دراسة « منافس ماركو بولو »(١٢٧)* . وأن الاهتمام الذى قابلته به أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ليقف برهاناً قاطعاً على صدق قول ابن جزى فى خاتمة الكتاب :

« ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد»(١٢٨) .

ونحن إذ نودعه الآن فإنما نفارق بذلك آخر رحالة عربى كبير ؛ كما وأننا بمفارقتنا لموسوعات عهد المماليك قد فارقنا آخر المصنفات الكبيرة التى تقدم عرضاً عاماً للأدب الجغرافى العربى .

---

* استدرك الناشرون السوفييت على المؤلف ذكرهم لظهور بحث لعلامة هندى هو مهدى حسين عالج فيه الكلام عن أسفار ابن بطوطة فى الهند وجزر ملديف وسرنديب (١٩٥٣) . ونحن نستدرك بدورنا عليهم فنذكر أن المستعرب الكبير جب SirHamilton Gibb قد شرع فى نشر ترجمته الإنجليزية الكاملة للرحلة التى كان قد وعد بها والتى ظهر منها حتى كتابة هذه السطور جزآن .

كما نضيف إلى هذا أنه توجد للكتاب ترجمة تشكية بقلم هربك Ivan Hrbek (براغ ١٩٦١) وإيطالية بقلم غابرييلى Fr. Gabrieli (فلورنسة ١٩٦١) وأخرى موجزة باليابانية ؛ ويجرى حالياً العمل فى تحضير ترجمات باللغات البولندية والمجرية والروسية . (المترجم)

حواشى الفصـــل الخامس عشر

(١) Hartmann, ZDMG, 70, p. 12 –

(٢) Kramers, EI, EP, p. 70 –

(٣) Blachère, p. 299 - 300 –

(٤) Brockelmann, GAL, II, p. 54 - 55, No 2; SB II, p. 53-54 – Sarton, Introduction, p. 870 –

(٥) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٣ ، ٧٢٤

(٦) شرحه ص ٧٢٤

(٧) شرحه ، ص ٧٢٧

(٨) شرحه ، ص ٧٧٥ – ٧٧٦

(٩) شرحه ، ص ٧٨٦– الغزى مجلة المعهد العلمى العربى بدمشق ، المجلد التاسع ، ص ٦٨٥ – ٦٨٦ –

(١٠) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٦

(١١) شرحه ، ص ، ٧٢٧

(١٢) شرحه ، ص ، ٧٨٦

(١٣) شرحه ، ص ، ٧٢٧

(١٤) شرحه ، ص ، ٧٢٨

(١٥) شرحه ، ص ، ٧٢٨ – ٧٢٩

(١٦) شرحه ، ص ، ٧٢٩

(١٧) شرحه ، ص ٧٨٠ – ٧٨٣

(١٨) يوجد ببرلين الجزء الثانى – الجغرافيا
راجع (Ahlwardt, V, p. 371, No 6045) والرابع – النبات (راجع : شرحه : p. 486 No 6207)

(١٩) Kratschkovsky, EI, EB, p. 79-80 – Brockelmann, GAL, SB II, p. 389, No 53a –

(٢٠) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٧٤ ، ٧٧٦

(٢١) شرحه ، ص ٧٢١ – ٧٢٩ ، ٧٧٤ – ٧٨٦
الغزى ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، المجلد التاسع ، ص ٦٨١ – ٦٨٧ ، والمجلد العاشر ص ٢٥٠ – ٢٥١

(٢٢) Wiedemann, Beiträge, LI, p. 153 –

(٢٣) Krachkovski, Al-Nuwairi, p. 1045 - 1047 — Brockelmann, GAL, II, p. 139 - 141, No 1; SB II, p. 173 - 174 — Mieli, p. 262, 264 –

(٢٤) – Reinaud, Introduction, p. CLI — CLII

(٢٥) – Wiedemann, Beiträge, LI, p. 154

(٢٦) – Amari (— Nallino), I, p. 82-83, No 57

(٢٧) – Wiedemann, Beiträge, XLIX, p. 16-52; — Beiträge, LI, p. 151-176

(٢٨) – Ferrand, Relations, I, p. 50-52; II, p. 394-397, 614-625

(٢٩) – Ahmed Zeky, Mémoire, p. 8-10

(٣٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 141, No 3; SB II, p. 175-176 — Al-' Omari, p. 38 – زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٦ – ٢٣٨ – Bhmed Zeki, Mémoire p. 10 12 — Blachère p. 301-302 – حسن حسنى عبد الوهاب ، وصف

(٣١) – Hartmann, ZDMG, 70, p. 1

(٣٢) شرحه ، p. 2

(٣٣) شرحه ، p. 3-4

(٣٤) شرحه ، p. 4-5

(٣٥) – Taeschner, Al-'Umari's Bericht, I, p. 100-101

(٣٦) راجع عن سيرة العمرى Hartmann, ZDMG, 70, p. 2-3

(٣٧) شرحه ، p. 3

(٣٨) شرحه ، p. 6

(٣٩) شرحه ، p. 7

(٤٠) شرحه ، p. 6

(٤١) راجع إلى جانب المصادر الأخرى أيضا – Gaudefroy — Demombynes, La Syrie, p. XII - XIII

(٤٢) – Tizengauzen, Sbornik materialov. I, p. 331-350

(٤٣) – Hartmann, ZDMG, 70, p. 6

(٤٤) حسن حسنى عبد الوهاب ، وصف ، ص أ – ب

(٤٥) – Blachère, p. 301-302

(٤٦) – Amari (— Nallino), I, p. 59 No 25

(٤٧) شرحه ، p. 60

(٤٨) – Schiaparelli, Al-'Umarì, p. 304

(٤٩) شرحه ، p. 305

(٥٠) – Amari, Al-'Umarī, p. 306

(٥١) – Sreznevski, Khojenie A. Nikitina, p. 246 et sui
معتمداً فى ذلك على مادة كاترمير (Quatremère, Not. et Extr, XIII, p. 347)

(٥٢) - Taeschner, Al-'Umari's Bericht, p. VII, 18, ٧٢

(٥٣) - Amari (—Nallino) I, p. 59

(٥٤) - Amari, Al-'Umarî, p. 308

(٥٥) - Schefer, Notice, p. 16 23

(٥٦) شرحه ، p. 23

(٥٧) شرحه ، p. 16

(٥٨) شرحه ، p. 16, note 2

(٥٩) راجع الترجمة لدى Schefer, Notice p. 16-22

(٦٠) - Björkman., Beiträge, p. 73; cf. Brockelmann, GAL, SB, II, p 165

(٦١) - Gaudefroy - Demombynes, La Syrie, p. V

(٦٢) عن محتويات هذا راجع : Björkman, Beiträge, p. 96-109

(٦٣) - Björkman, Beiträge, p. 96

(٦٤) شرحه ، p. 96, note 1

(٦٥) - Tizengauzen, Sbornik materialov, I, p. 395-416

(٦٦) - Spies

(٦٧) - Björkman, Beiträge, p. 75

(٦٨) - Gaudefroy — Demombynes, La Syrie, p. X

(٦٩) - Björkman, Beiträge, p. 75-86

(٧٠) شرحه ، p. 80-81

(٧١) شرحه ، p. 81-82

(٧٢) - Gaudefroy — Demombynes La Syrie p. XIV

(٧٣) - Tizengauzen, ZVO, I, p. 208-216

(٧٤) - Canard, AIÉO, p. 27-52

... حيث يرد الخطاب باللغة اليونانية الحديثة مع التعليق عليه من مادة القلقشندى .

(٧٥) - Spies, p. 9-13

(٧٦) شرحه ، p. 8

(٧٧) - Kramers, EI, EB, p. 70

(٧٨) - Gibb, Ibn Battúta, p. 9 — Arnold, Arab Travellers, p. 101

(٧٩) - Ruska GZ, XXXIII, p. 597

(٨٠) راجع مقارنة [مادة ابن بطوطة مع مصادره] Brockelmann, GIV, p. 199 200

(٨١) - Colin, EI, III, p. 21

(٨٢) Fischer, Battüta, p. 289

(٨٣) ابن بطوطة Voyage, طبعة Defrémery, I, p. 12-13

(٨٤) Hennig, II, p. 174 : عن تواريخ تحركات ابن بطوطه

(٨٥) ابن بطوطه Voyage, طبعة Defrémery, I, p. 28

(٨٦) – Janicsek, Ibn Battüta, p. 791 800 ; cf. Brockelmann, GAL, SB. II, p. 365-366 مع الإشارة إلى : Markwart

(٨٧) – Agha Mahdi Husain, p. 89 - 91

(٨٨) – Gibb, Ibn Battüta, p. 9

(٨٩) ابن بطوطة ، الروائع ، ص ١٥٠

(٩٠) Cf. Hennig, III, p. 256-260 تقع دولة مالى على حوض النيجر

(٩١) – Marçais, Meriniden, p. 537

(٩٢) ابن بطوطة Voyage, طبعة Defrémery, I, p. 8

(٩٣) شرحه p 9-12

(٩٤) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(٩٥) ابن بطوطه Voyage طبعة Defrémery, IV, p, 448-449

(٩٦) شرحه p. 451

(٩٧) – Pons Boigues, p. 328 329, No 284

(٩٨) – Blachère, p. 350

(٩٩) ابن بطوطه ، الروائع ، يد

(١٠٠) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(١٠١) – Gibb, Ibn Battüta, p. 5

(١٠٢) – Mzik, Ibn Batüta, p. 15 — Gibb Ibn Battuta, p. 12, 13

(١٠٣) شرحه p. 13

(١٠٤) – Mzik, Ibn Batuta, p. 15

(١٠٥) شرحه p. 413 sui

(١٠٦) – Schefer, Notice, p. 23

(١٠٧) شرحه p. 23 24

(١٠٨) – Ferrand, Relations, II, p. 432 433

(١٠٩) ابن بطوطه Voyage, طبعة Defrémery, IV, p. 281-282

(١١٠) – Yamamoto, p. 103

(١١١) – Yule, Cathay, II, p. 520, عن مجياك (Mzik, Ibn Batüta, p. 411, note 17)

(١١٢) - Mzik, Ibn Batūta. p. 411, note 17

(١١٣) شرحه note 17 and p. 412

(١١٤) شرحه p. 411, note 17 and p. 413

(١١٥) - Yamamoto, p. 116

(١١٦) شرحه p. 133

(١١٧) - Mzik, Ibn Batūta, p. 15, والترجمة p. 408-411; التحليل p. 411-413

(١١٨) شرحه p. 15

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ - ١٤٤

Prolégomènes المتن I, p. 327-328 والترجمة I, p. 370-371 ابن بطوطه Voyage —

طبعة Defrémery, III, p. 464 465 (المتن) p. 466-467 (الترجمة)

cf منتخبات ابن بطوطه ، الروائع ، الكراسة الأولى ، يا - يب

(١٢٠) - De Goeje, Selections, p. 8 — Devic, Littérature arabe, p. 397-398

(١٢١) - Gibb, Ibn Battūta, p. 12 — Mzik, Ibn Batūta, p. 14

(١٢٢) خطاب بوشا من استنبول فى مايو ١٨٦٢ ، راجع :

ZDMG, 16, 1862, p. 756

(١٢٣) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(١٢٤) جودت ، الأخى — Margoliouth, JRAS, 1939, p. 623 - Gordlevski, Gos. Selj, p. 106, note 1

(١٢٥) - Mzik, Ibn Batūta, p. 16 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(١٢٦) - Moura, Viagens, p. V.

(١٢٧) راجع أيضا الكتاب الذى ظهر أخيراً :

Mahdi Husain, The Rehla of Ibn Battūta, Gaekward's Oriental Series, No CXXII, Baroda. 1953;

ففيه توجد أول ترجمة وافية بالانجليزية لرحلة ابن بطوطة فى الهند وجزر المالديف وجزيرة سيلان .

راجع أيضا تقريظه : C. Collin Davis, JRAS, parts I, 2, 1957, p. 126 128

(١٢٨) ابن بطوطه Voysge, طبعة Defrémery, IV, p. 449

الفصل السادس عشر

ابن خلدون والجغرافيا فى المغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

431 لعل من المناسب ونحن ننتقل من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر فى تحليلنا للأدب الجغرافى العربى أن نقف قليلا لنلقى نظرة على الآراء الجغرافية لدى ابن خلدون ، ليس ذلك فقط لأن ابن خلدون قدولدفى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وأكمل مصنفه الأساسى فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر حوالى عام ٧٨٠هـ= ١٣٧٨ وظل يضيف إليه إلى وفاته فى عام ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ وبهذا يقف على الحد الفاصل بين قرنين ؛ أقول ليس لهذه الأسباب فحسب بل لأن « مقدمة » كتابه فى التاريخ تستهدف وضع علم جديد فى الحضارة البشرية وتعرض لنا خلاصة لجميع معارف العصور السالفة فى مختلف الميادين ؛ وهى تعطى فكرة جلية عن المستوى الذى بلغه العلم فى العالم الإسلامى فى بداية القرن الخامس عشر وذلك على يد واحد من أبرز علماء الإسلام ، زد على هذا ان ابن خلدون إنما يمثل من ناحية أصله وسيرة حياته مزيجاً طريفاً لحضارة ذلك العصر[1]* .

فأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ينتمى إلى فرع من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضرموت ، وقد دخل أجداده الأندلس مع الفتح واستقروا بقرمونه واشبيلية وظهر من بينهم على ممر القرون عدد من رجال الإدارة والفقهاء ؛ وفى الأندلس اتخذ أول أجداده الاسم المغربى ابن خلدون . وبسقوط إشبيليه فى عام ١٢٤٨ انتقل بنوخلدون إلى شمال إفريقيا واستقروا نهائياً بتونس وبها توفى فى عام ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ والده ، الذى كان بدوره فقيهاً وإدارياً ، وذلك بالطاعون الذى اجتاح العالم آنذاك والذى شهده ابن بطوطة فى موضع آخر . ولد ابن خلدون بتونس فى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وبدأ وهو فى سن مبكرة حياته المستقلة التى أحاط بها الكثير من القلق والاضطراب . وعلى الرغم من ميله الشديد إلى الدراسة فإن هذا 432 لم يحل بينه وبين التقلب فى المناصب الحكومية طوال حياته تقريباً فشغل عدداً من الوظائف الإدارية والكتابية قربته إلى حياة البلاط والدسائس السياسية التى شارك فيها أحياناً بنصيب وافر . وقد عاش ابن خلدون فى جميع الأمارات التى تقاسمت المغرب آنذاك فإلى جانب تونس أقام بفاس متمتعاً بعطف السلطان أبى عنان من بنى مرين وهو نفس ذلك السلطان الذى عاش فى كنفه ابن بطوطة ، وقد مرت بنا قبل قليل إشارة ابن خلدون إلى هذا الأخير . وكان من بين أصدقاء ابن خلدون حين إقامته بغرناطة

* عما ظهر عن ابن خلدون من دراسات وأبحاث راجع كتاب عبد الرحمن بدوى « مؤلفات ابن خلدون » القاهرة ١٩٦٢ ؛ وراجع أيضاً « أعمال مهرجان ابن خلدون » ، القاهرة ١٩٦٢ . (المترجم)

الوزير المشهوروالأديب الكبير ابن الخطيب الذى أصبح فيما بعد عدواً لدوداً له ؛ وفى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٣ اختاره أمير غرناطة ليكون سفيره إلى ملك قشتالة . ولم يقدر لابن خلدون أن يستقر طويلا فى موضع ما فعند رجوعه إلى إفريقيا أخذ يتنقل بين عدد من المدن مثل بجايه وبسكره وتلمسان وفاس ثم رجع إلى الأندلس . وقداستطاع مرة أن يخلو إلى نفسه بضعة أعوام وذلك ابتداء من عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ فى بقعة شبه بدوية هى قلعة ابن سلامة من أعمال وهران[٢] انقطع فيها للقراءة والتأليف عاملا دون كلل فى تحضير مقدمة تاريخه . وفى خلال زيارة له إلى تونس بهدف جمع المادة العلمية لتاريخه تبين له أن الإقامة بالمغرب لم تعد فى مصلحته بسبب الاضطرابات السياسية فقرر مغادرة تونس إلى المشرق متعللا بالحج وخرج من المغرب إلى غير رجعة فى عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ . وبعد أن أقام بعض الوقت بالإسكندرية غادرها إلى القاهرة التى كانت تعد بحق مركز الثقافة الإسلامية فى ذلك العصر ؛ وهنا تمتع ابن خلدون برعاية السلطان المملوكى برقوق وشغل فى عهده وعهد ابنه السلطان فرج منصب قاضى قضاة المالكية لمرات عديدة ابتداء من عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ ؛ وأدى فريضة الحج لأول مرة فى عام ٧٨٩ هـ — ١٣٨٧ . وقد لاحقته الدسائس فى مصر فأعفى من منصبه القضائى ست مرات وأمضى بضعة أعوام انقضت عام ٧٩٧ هـ — ١٣٩٤ فى عزلة بالفيوم كان من أسبابها الحزن العميق الذى أصابه بسبب نكبة أسرته فى حادث غرق سفينة . وفى بداية القرن الخامس عشر عرفته الشام أيضاً فقد كان فى معية السلطان فرج عام ٨٠٣ هـ= ١٤٠٠ عند خروجه لصد التتار وكان بدمشق حين حاصرها تيمورلنك ؛ وقد أخذ ابن خلدون طرفاً فى الوفد الذى خرج للتفاوض فى تسليم المدينة وأغلب الظن أن قصة مقابلته لتيمور وحديثه معه، تلك القصة التى يرويها بين عدد من المؤرخين ابن عربشاه أيضاً ، قد أخذت نصيبها من المبالغة والتزويق ولو أن ذلك لا ينفى إمكان حدوثها[٣] . وقد أذن له تيمور فى الرجوع إلى مصر فى مارس من عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ فأمضى الأعوام الأخيرة من حياته بالقاهرة تارة يقال من منصبه كقاض وطوراً يعاد إليه ؛ وأمام هذه اللوحة المتعددة الألوان لسيرة حياته لم يكن غريباً أن تحمل بعض مخطوطات ترجمته لسيرة حياته (Autobiography) عنوان « رحلة ابن خلدون فى الغرب والمشرق »[٤]* . وعلى الرغم من هذا فإن الكتاب فى الحقيقة لا يمثل مصنفاً جغرافياً من نمط الرحلة المعروف لنا جيداً بل هو ترجمة لسيرة حياته بقلمه بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ؛ وفيها يعرض ابن خلدون لجميع تنقلاته والحوادث التى مرت به دون أن يحاول إظهار شخصيته فى ضوء ملائم لها ، مما يشهد له حقاً بالأمانة وشرف الضمير . 433 وقد عرفت هذه السيرة من وقت طويل فى أوروبا بفضل ترجمة دى سلين De Slane[٥] ؛ وهى توجد فى معظم الأحوال ملحقة بمصنفه التاريخى وتساق فى جميع المخطوطات تقريباً إلى عام ٧٩٧هـ = ١٣٩٤ ، وهذا

* تحمل الطبعة المصرية لهذا الكتاب (١٩٥١) عنواناً مغايراً هو « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » . (المترجم)

التاريخ يتفق مع فترة انقطاعه بالفيوم . غير أن طه حسين تمكن من الرجوع إلى مخطوطة موجودة بالقاهرة تسوق العرض إلى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ أى إلى العام الشابق لعام وفاة ابن خلدون[٦]* :

من هذا يتضح لنا أن الآراء الجغرافية لابن خلدون يجب استجلاؤها لا اعتماداً على « الرحلة » بل من مؤلفه التاريخى الضخم الذى يحمل عنواناً تغلب عليه الصنعة هو «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر»[٧] . وقد ظهر حول هذا الكتاب عدد كبير من الأبحاث لا تخص فى الواقع مؤلفه التاريخى نفسه بقدر ما تتعلق بمقدمته المشهورة التى تبلغ فى واقع الأمر ثلث حجم الكتاب . وجميع هذه أبحاث تتفق فى جوهرها على أن ابن خلدون لا يرتفع فى القسم التاريخى من مصنفه إلى مستوى تلك النظريات التى يعرض لها فى المقدمة . أما الأقسام المختلفة لتاريخه فليست متساوية بالطبع من حيث القيمة فقد لاحظ أمارى مثلا وذلك فى كلامه عن صقلية أن ابن خلدون يكتفى بنقل المادة التاريخية دون أن يمحصها شأنه فى هذا شأن المؤرخين الآخرين ولكنه يقدم لنا فى مقابل هذا مادة وفيرة فى تاريخ البربر لم تكن معروفة قبله[٨] ، كما أن الفصل الذى أفرده لتاريخ الدويلات النصرانية فى أسبانيا يشرف الأدب العربى بأجمعه كما قال دوزى Dozy[٩]. وإذا كان من المستحيل كما رأينا اتخاذ موقف سلبى تام من مصنفه التاريخى فإن مقدمة كتابه تمثل فى مجموعها أثراً لا مثيل له لا بالنسبة لعصره فحسب بل وبالنسبة للأدب العربى بأجمعه . وفيها يفسر ابن خلدون التاريخ لا على ضوء تطور النظم السياسية كما فعل اليونان بل على ضوء تطور الأوضاع الاقتصادية للمجتمع البشرى فى صوره البدوية والحضرية والمدنية . ولا يخلو من الطرافة من وجهة النظر الجغرافية أن نلاحظ أنه يوزع مادته التاريخية لا على أساس الترتيب الزمنى الذى سار عليه المؤرخون بل على أساس الدول الحاكمة فى كل قطر مراعياً فى ذلك الترتيب الجغرافى[١٠] .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا خاصة فإن « المقدمة » مخيبة للأمل شيئاً ما ، ففيها نبصر ذلك الانفصام المعهود فى الأدب العربى | بين المادة الجغرافية الواقعية من ناحية والاستنتاجات النظرية المبنية عليها من ناحية 434 أخرى ؛ وحتى فى هذا المجال الأخير فإن ابن خلدون يبدو ناقلا متبعاً بصورة لم تكن متوقعة من شخص فى مثل ذكائه . ولعله مما يسترعى النظر حقاً أن الفصل السادس من المقدمة المكرس للعلوم وتصنيفها والذى يشغل بالتقريب ثلث المقدمة لا يرد فيه أى ذكر للجغرافيا ، بل وأكثر من ذلك لا يرد فيه أى ذكر للتاريخ أو لذلك العلم « الجديد » فى « العمران » الذى وضع ابن خلدون مقدمته قصداً لتفصيل القول فيه[١١] . وابن خلدون فى تصنيفه للعلوم يفتقر إلى الأصالة[١٢] فهو تارة يسير على النمط اليونانى فى صورته العربية[١٣] وطوراً يتبع تصنيف «إخوان الصفاء»[١٤] : وهو يقسم العلوم إلى مجموعتين

* تناول ابن خلدون النسخة الأولى بالتعديل والتنقيح والزيادة وأضاف إليها تاريخ حياته إلى نهاية ٨٠٧ هـ أى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد حفظت لنا من هذه الرواية الأخيرة مخطوطتان قيمتان بمكتبات استنبول ومنهما تفرعت نسخة دار الكتب المصرية التى يشير إليها المؤلف وهى التى طبعت مؤخراً بالقاهرة كما أشرنا فى الملاحظة السابقة لهذه . (المترجم)

كبيرتين هما « العلوم النقلية الوضعية » و« العلوم الحكمية الفلسفية » ؛ فالمجموعة الثانية تشارك فيها جميع الشعوب وهى تراث البشرية بأجمعها أما الأولى فهى خاصة بالمسلمين وحدهم وأداتها هى اللغة العربية وهو يقصد بها أساساً ما يمكن أن يطلق عليه اسم العلوم الشرعية . ويتفق تقسيمه بوجه عام مع التصنيف الثلاثى Trivium و« الرباعى » quadrivium للعلوم السائد فى العصور الوسطى وينطبق فى واقع الأمر على نفس ذلك التصنيف الذى نجده فى معجم المصطلحات المشهور « مفاتيح العلوم »[١٥] .
وبما أن ابن خلدون يختتم قسم الرياضيات بالكلام على الفلك (« الهيئة ») فهو يضم إلى هذا الأخير « علم الأزياج »[١٦] الذى يتضمن المعلومات فى الجغرافيا الرياضية ؛ وعلى هذا فلا يوجد مجال للكلام على الجغرافيا الطبيعية والوصفية فى تصنيف ابن خلدون . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن فى مقدور ابن خلدون أن يعارض الواقع ومن ثم فقد اضطر إلى أن يفرد قسما فى مقدمته ليعرض فيه المذهب التقليدى عند الجغرافيين العرب .

وهذا القسم بدوره مثار لخيبة أمل لا تقل عن سابقتها لأن مادته لا تخرج عن نطاق المعلومات المعروفة لنا جيداً ، وهو يمثل « المقدمة الثانية » من « الفصل الأول » من «الكتاب الأول» من مصنفه فى التاريخ[١٧]* .
435 ولهذه « المقدمة الثانية » فى الجغرافيا «تكملة»[١٨] يليها « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا[١٩] » . والفصل الأول من مقدمة ابن خلدون مكرس برمته لمسائل « العمران » عامة[٢٠] ؛ وتبحث « المقدمة الأولى » من هذا الفصل « فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى»[٢١] ، ثم تليها « المقدمة الثانية » فى الجغرافيا بعنوان « فى قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم » . ويبدأ ابن خلدون كلامه عن الجغرافيا بالوصف المعتاد لشكل الأرض ، وهو يعتبرها كرة يمثل اليابس نصف سطحها فقط ويمثل المعمور مقدار الربع من هذا اليابس وينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم ؛ وكل واحد من هذه الأقاليم ينقسم بدوره أيضاً إلى عشرة أجزاء . ويبدو من كلامه أن مصدريه الأساسيين هما بطلميوس والإدريسى ، وهو يشير بصراحة إلى ذلك[٢٢] ففى سرده للبحار والأنهار الذى سبق لنا معرفته جيداً يقول ابن خلدون ما نصه : « وقد ذكر ذلك كله بطلميوس فى كتابه والشريف فى كتابه رجار وصوروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لاحاجة لنا به لطوله ولأن عنايتنا فى الأكثر إنما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالأوطان التى للعرب من المشرق[٢٣]** » .

---

* مما لا شك فيه أن ابن خلدون لم يطلق اسم « المقدمة » على الكتاب المعروف لدينا تحت هذا الاسم ولم يعتبره مطلقاً كتاباً مستقلا بل اعتبره دائماً « الكتاب الأول » من مصنفه التاريخى « العبر » . (المترجم)

** لم يلبث ابن خلدون أن عدل عن ذلك وأكمل هذه النبذة بتفصيلات كثيرة تحت عنوان « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » وكان من الواجب عليه حذف هذه الألفاظ ولكن يلوح أنه غفل عن ذلك فظلت مثبتة فى جميع النسخ الخطية . ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد تناول المسودة الأولى لمصنفه بالتنقيح والإضافة ، وفاته أحياناً أن يحذف أو يعدل ما يتعارض مع هذه الإضافات فى المسودة الأولى فجاءت المسودات التالية مشتملة فى بعض المواطن على الأصل والزيادة معاً مع تعارضهما فيما يقررانه . وهذا ما حدث فعلا عند كلامه فى الجغرافيا . (المترجم)

ويلى « المقدمة الثانية » « تمه لهذه المقدمة الثانية » بعنوان « فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبى وذكر السبب فى ذلك » . وفى هذه التكملة[٢٤] يعرض ابن خلدون للنظرية التى انتشرت فى الأدب الجغرافى العربى ومؤداها خلو البلدان الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء من السكان لإفراط الحر ، فيقف منها موقف المتشكك محاولا أن يوفق بين تفكيره المتسم بالواقعية والنظريات المتوارثة عن العلم اليونانى فيقول : « ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه . وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك ؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية[٢٥] إنما أداهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوى بإفراط الحر والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلى . وهو كذلك فإن خط الاستواء والذى وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً »[٢٦] . ويختتم ابن خلدون هذه « التكملة » بالألفاظ الآتية : « ولنرسم بعد هذا الكلام صورة جغرافيا كما رسمها صاحب كتاب رجار ثم نأخذ | 436 | فى تفصيل الكلام عليها . . . إلخ »[٢٧] . ويجب أن نبادر إلى القول بهذه المناسبة أنه لم يتم العثور فى أية واحدة من مخطوطات كتابه على هذه الخارطة المزعومة[٢٨]* .

أما « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » فيقدم وصف الأرض بتقسيمها إلى سبعة أقاليم وتقسيم كل إقليم إلى عشرة أجزاء . وبعد أن يوضح ابن خلدون القاعدة الفلكية لهذا التقسيم ويصف الأقاليم بإيجاز يشير مرة أخرى إلى مصدره الأساسى وذلك بقوله :

« ونحن الآن نوجز القول فى ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار فى كل جزء منها ونحاذى **بذلك ما وقع فى كتاب « نزهة المشتاق » الذى ألفه العلوى الإدريسى الحمّودى لملك صقلية من الأفرنج وهو رجار بن رجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة . وكان تأليفه** للكتاب فى منتصف المائة السادسة وجمع له كتباً جمة. »[٢٩] .

ثم يسرد ابن خلدون عقب هذا مباشرة أسماء الكتب التى أشار إليها الإدريسى بألفاظه محتفظاً بنفس الترتيب الذى وردت به فى « نزهة المشتاق » ؛ ومن العسير القول بأنه عرفها جميعها معرفة مباشرة . أما وصفه للأقاليم فلا يمثل شيئاً جديداً بالنسبة لنا إذ أنه يقدم مقتطفات فقط من مصنف الإدريسى المذكور . وهو قد يغتنم الفرصة أحياناً ليضيف شيئاً ما كمعلوماته عن جزر المحيط الأطلنطى[٣٠] وعن جوف إفريقيا[٣١] ، هذا على الرغم من أن مادته كانت دون شك أحفل وأكثر تفصيلا فى مجالات كثيرة من معلومات الإدريسى . وقد رجع ابن خلدون أحياناً إلى مصادر أخرى غير الإدريسى مثل ابن سعيد[٣٢] أو « كتاب المشترك » لياقوت[٣٣] ، غير أن هذا لا يحدث إلا نادراً زد على ذلك أن ما ينقله منهم يرد عادة

---

* لقد تم العثور عليها وهى موجودة فى مخطوطة واحدة فقط من المخطوطات العديدة لكتاب « العبر » هى المخطوطة رقم ٢١٠٦ طلعت بدار الكتب المصرية (راجع ص ٥٧ من كتاب « مؤلفات ابن خلدون » لعبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٦٢) . (المترجم) .

عن طريق الإدريسى نفسه . ولإعطاء مثال جيد لهذا نذكر موقفه من قصة رؤيا الواثق التى كانت سبباً فى رحلة سلام الترجمان ، فهو يقول إن هذه الرواية موجودة « فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا »[٣٤] .

كل هذا يضطرنا إلى الاعتراف بأن القسم المكرس لتصنيف العلوم ووصفها فى « المقدمة » والقسم الخاص بالجغرافيا لا يقدمان شيئاً ذا أهميـــة بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى . ولحسن الحظ فإن هذين القسمين لا يستنفذان جميع المادة الجغرافية عند ابن خلدون ذلك أن كتابه يعد مصدراً جغرافياً هاماً[٣٥] ففى فصول أخرى من « المقدمة » تتناثر أفكار تتميز بالأصالة والجدة | 437 حتى بالنسبة للأدب الجغرافى العربى نفسه . وفى هذا المجال فإن « المقدمات » الأخرى التى تلى « المقدمة الثانية » المتضمنة للقسم الجغرافى تمثل أهمية لا ريب فيها . « فالمقدمة الثالثة » مثلا تبحث « فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر »[٣٦] وتبحث الرابعة « فى أثر الهواء فى أخلاق البشر »[٣٧] والخامسة « فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم »[٣٨] .

كل هذه المسائل التى تبحث فى أثر الإقليم[٣٩] والوسط الجغرافى[٤٠] فى حياة البشر لم يحدث أن أخضعت قبل ابن خلدون لفحص منظم ، فهو فى هذا المضمار يجب أن يعد مجدداً بلاريب ومثل أفكاره هذه لم تظهر فى أوروبا إلا بعد مضى عدة قرون وذلك ابتداء من مونتسكيو Montesquieu[٤١] .

أما بالنسبة للجغرافيا الاقتصادية فإن عدداً من أقسام « المقدمة » يمتاز أيضاً بقيمة لا تجارى وهذا يصدق مثلا على الفصل الثانى « فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل[٤٢] » ، وعلى الفصل الرابع « فى البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الأحوال[٤٣] » ويصدق كذلك على الفصل الخامس « فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال »[٤٤] . واهتمام ابن خلدون بالأمم شبه المتحضرة يمثل واقعة نادرة فى الأدب الجغرافى العربى ، وبوسع علماء الاثنوغرافيا المعاصرين أن يجدوا مادة قيمة فى تصنيفه للأجناس كما وأن القسم المفرد للبربر من تاريخه قد تم الاعتراف به بحق كأقيم ما فى مصنفه . ويمكن القول بأنه لا علماء الأجناس ولا علماء الاقتصاد ولا علماء الاجتماع قد فرغوا من دراسة ابن خلدون من وجهات نظرهم المختلفة ، كما أن كلا من المؤرخ وعالم الجغرافيا يستطيع الكشف عن الكثير الهام لدى ابن خلدون . وعلى الرغم من ذلك فإنه يجب القول مرة ثانية بأن ابن خلدون لا يحتل مكانة ممتازة فى التطور العام للأدب الجغرافى العربى كما أنه لم يترك أى أثر فى هذا الميدان على الأجيال التالية له .

أما من ناحية أسلوبه الكتابى فإن ابن خلدون أبعد من أن يعد نموذجاً يحتذى ؛ وكما هو الحال مع جميع معاصريه فإنه تنعكس فيه بوضوح آثار عصر التدهور التى تبدو فى غلبة السجع والمحسنات البديعية والتشبيهات والاستعارات المبالغ فيها ، بل إن لغة ابن خلدون نفسها لم تسلم أحياناً من الألفاظ

العامية والإفراط فى استعمال الألفاظ المحدثة كما أنها لا تخلو من الأخطاء النحوية ؛ وليس من النادر أن يحيط الغموض ببعض ألفاظه من وقت لآخر . وإذا حدث وان عد ابن خلدون يوماً ما مؤلفاً كلاسيكياً بمصر وسوريا فإن مرد 438 هذا إلى التدهور الذى بلغه الأدب العربى حينما ظهرت الطبعة الأولى « للمقدمة » . وقد كفلت له أفكاره الجديدة التى عبر عنها فى لغة مغايرة للغة عصره نجاحاً أدبياً دام حيناً من الدهر[٤٥] ، ولكن هذه المكانة أخذت تهبط منذ بداية القرن العشرين حينما اتفق العلماء العرب المعاصرون مع الرأى القديم لدى سلين[٤٦] وأمارى[٤٧] القائل بعدم اعتباره كاتباً كلاسيكياً وذلك رغماً من الطرافة الكبرى التى تتمتع بها نظرياته[٤٨] .

ومن خلال سيرة حياة ابن خلدون نستطيع أن نتبين إلى أى حد ظلت الروابط الثقافية قائمة بين المغرب ومصر فى القرن الخامس عشر رغماً من انقسام العالم الإسلامى إلى عدد من الوحدات السياسية ؛ ويبدو أنه كان باستطاعة العلماء أن ينتقلوا دون أى جهد من بلد إلى آخر وأن يقيموا أمداً طويلا أوقصيراً فى مختلف الأماكن دون الإحساس بتغير كبير فى الوسط . وما يصدق على العلماء يصدق أيضاً على الرحالة العاديين فقد ظل الاتصال مع الأندلس مثلا قائماً طوال القرن الخامس عشر وإلى آخر أيام دولة غرناطة فاتجه عدد من الرحالة من المشرق صوب الأندلس يدفعهم إلى ذلك مجرد حب الاستطلاع أوكما كان عليه الحال من قبل « طلب العلم » الذى كانت مراكزه لا تزال مضيئة هناك* .

وإحدى تلك الرحلات التى اتجهت من مصر صوب المغرب والأندلس فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قام بها عبد الباسط بن خليل الملطى[٤٩] ، ووالده هو خليل الظاهرى[٥٠] أحد كبار الإداريين بدولة المماليك ومؤلف المدخل الإدارى الجغرافى الذى سيأتى الكلام عليه فى موضعه . وإذا أمكن أن نستدل من نسبته على أنه ولد بالشام ، وذلك فى عام ٨٤٤ هـ — ١٤٤٠[٥١] ، إلا أنه نال تعليمه بمصر وأحس وهو فى سن مبكرة بميل خاص إلى دراسة الطب . ولما كان المغرب فى ذلك العهد لما يزل محتفظاً بشهرته فى مجال دراسة الطب فقد عقد عبد الباسط العزم وهو لايزال فى ريعان شبابه على السفر اليه لتوسيع معارفه . وتحت ستار التجارة غادر الإسكندرية على ظهر سفينة جنوية فى عام ٨٦٦هـ = ١٤٦٢ فزار تونس وطرابلس وتلمسان ووهران . ومن وهران أخذ سفينة جنوية أيضاً فى ديسمبر من عام ١٤٦٥ فنزل بمالقه وغادرها إلى بلش Veles فالحمّة حتى بلغ غرناطة التى كانت تمثل منذ عهد طويل المركز الوحيد الذى تبقى للإسلام بأسبانيا . ويبدو أن الطريق الذى سلكه قد أصبح منذ وقت

* بمناسبة انتهاء كلام المؤلف على ابن خلدون أرى أن ألفت النظر إلى أن ابن خلدون قد ذكر فى ترجمته لسيرة حياته « التعريف » أن تيمورلنك كلفه بأن يكتب له وصفاً دقيقاً لبلاد المغرب ففعل ذلك « فى مختصر وجيز يكون قدر ثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع » (ص ٣٧٠) ؛ غير أن هذا الأثر لم يصل إلينا . وعلى أية حال فإن القصة فى حد ذاتها تقف دليلا جديداً على اهتمام ابن خلدون بالجغرافيا . (المترجم)

440 طويل الطريق الوحيد إلى غرناطة فقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن وذلك فى عام ٧٥٢ هـ = ١٣٥١[٥٢] — ١٣٥٢ ، كما سلكه بعد ثلاثين عاماً من عبد الباسط وذلك فى عام ١٤٩٤ — ١٤٩٥ ؛ أى عقب سقوط غرناطة ، الرحالة الألمانى هيرونيم مونتسر H. Muntzer ووصفه فى كتابه « الرحلة الإسبانية » Iter Hispanicum[٥٣] . ولم يقدر لعبد الباسط أن يحقق حلمه بزيارة قرطبة على الرغم من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة ؛ وكان السبب الذى حال دون ذلك هو أن رحالتنا قد أصيب بجراحة بالغة[٥٤] فى معركة شخصية وحين برئ من جرحه أخذ طريق العودة فبلغ وهران فى فبراير من عام ١٤٦٦ ، ثم مصر فى مايو من عام ٨٧١ هـ = ١٤٦٧ ؛ وقد عمر عبد الباسط طويلا وتوفى قبل وقت قصير من فتح العثمانيين لمصر وذلك فى عام ٩٢٠ هـ = ١٥١٤ متمتعاً بتقدير الجميع له كفقيه من فقهاء الحنفية وبسمعة واسعة كخبير فى الطب[٥٥] . ومن بين المؤلفات العديدة التى خلفها لنا يحتل أهمية خاصة كتابه فى التاريخ « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » الذى يعالج تاريخ الفترة من عام ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ إلى زمن المؤلف ، والذى يولى فيه اهتماماً خاصاً لسير مشاهير الرجال خاصة العلماء الذين التقى بهم[٥٦] . وقد كشف المستشرق ليڤى ديلاڤيدا Levi della Vida منذ عهد غير بعيد بمكتبة الفاتيكان[٥٧] عن قطعتين من تاريخه هذا احداهما بخط يد المؤلف نفسه ؛ وفيهما يروى المؤلف بعض قصص أسفاره ولحوادث المعاصرة له . وقد نشر ليڤى ديلا ڤيدا بعض الشذور المتعلقة بالأندلس[٥٨] ومن مراجعتها يستطيع القارئ أن يخرج بنتيجة مؤداها أن مادته ليست بذات قيمة كبيرة بل إنها فقيرة ، كما أن أسلوبه يغلب عليه الجفاف . وعلى الرغم من أن المؤلف كان يشغل أثناء وضعه لمصنفه مركزاً رفيعاً وكان قد نال درجة من الثقافة تفوق المتوسط فيما يبدو إلا أنه لم يكن عالماً كبيراً أو ذا نظر ثاقب فى تحليل المسائل السياسية ولو أنه تمتع بدرجة فائقة من قوة الملاحظة فى شبابه ؛ ويبدو من أسلوبه أنه سريع الدهشة سريع التصديق ، مع ميل واضح إلى الغريب والنادر شأنه فى هذا شأن معظم معاصريه . وهو يعبر عن نفسه بجمل عامة ؛ ومع أن ملاحظاته تتميز بالحيوية إلا أنها تتصف بالضحالة ولا تنفذ إلى أعماق ما شاهده أو تذكره . أما غرناطة فتذكره قبل كل شىء بدمشق التى عرفها فيما يبدو جيداً ؛ وهو كثيراً ما يعود إلى هذه المقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما . وعلى الرغم من كل هذا فإن سرده يتصف بالأمانة وبالبساطة بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه يترجم عن أحاسيسه المباشرة ، تلك الأحاسيس التى يستشعرها أى عربى قادم من المشرق
441 حين يجد نفسه أمام جمال الطبيعة فى الأندلس وأمام آثارها الفنية القيمة . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسى الذى يستولى على قلب كل مسلم مخلص وهو يبصر تقدم « الكفار » التدريجى نحو الجنوب ويستشعر فى دخيلة نفسه أن أيام العرب فى تلك البلاد قد أصبحت معدودة[٥٩] . أما ميزة

المصنف الأساسية فتمكن فى البساطة الشديدة التى غلبت على لغته ، فعبد الباسط يميل أحياناً إلى التعبيرات العامية ويذكر بوجه عام بمؤرخى مصر المعاصرين له خاصة ابن إياس[٦٠] .

وقبل قليل من رحلة عبد الباسط وذلك فى عام ٨٦٦ هـ — ١٤٦١ وبمدينة جدة[٦١] أتم مغربى معجماً جغرافياً يكاد يكون الحلقة الأخيرة فى تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية التى بلغت أوجها فى اسم ياقوت ؛ ذلكم هو كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار » لعبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى[٦٢] الذى كشف عنه منذ فترة غير بعيدة ونشره ليڤى بروڤنسال Levi - Provençal[٦٣] . وعلى الرغم من أن اسم الكتاب واسم مؤلفه قد ثبتا بصورة قاطعة إلا أنه يرتبط بالتاريخ الأدبى لهذا الأثر لغز كبير لا يزال ينتظر الحل المقنع الشافى . وتاريخ إتمام هذا الأثر كما يظهر فى إحدى مخطوطات الكتاب يؤكده تاريخ وفاة المؤلف الذى يرجعه حاجى خليفة إلى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤[٦٤] ؛ غير أن حاجى خليفة يذكر إلى جانب هذا المصنف مصنفاً آخر يحمل نفس العنوان ويكاد يتفق مع المصنف الأول فى اسم مؤلفه ، غير أنه خلو من الإشارة إلى أى تاريخ . ومما يزيد فى تعقيد المسألة وجود إشارات إلى كتاب يحمل نفس العنوان لدى مؤلفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثل القلقشندى والمقريزى ؛ ومن الملاحظ أن الشذور التى اقتبسوها منه تتفق مع المواضع المعينة فى المخطوطات التى كشف عنها ليڤى بروڤنسال . واعتماداً على أن أسرة الحميرى قد تمتعت بنفوذ كبير على ممر قرون طويلة بمدينة سبتة وأن اسم عبد المنعم كان من الأسماء المفضلة إلى الأسرة[٦٥] فإن ليڤى بروڤنسال قد جنح إلى افتراض وجود مسودتين للمعجم تتلو إحداهما الأخرى من الناحية الزمنية وترجعان إلى شخصين من أسرة واحدة يحملان فى ذات الوقت إسما واحداً . والمسودة الموجودة فى متناول الأيدى ترجع إلى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ويمكن من مقارنة الشذور المتبقية منها الجزم بأنها تعيد بلا تغيير يذكر مسودة سابقة عليها ترتفع فيما يغلب على الظن إلى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ؛ ومما يؤكد صحة هذا الفرض أن مادتها كما يبدو من مراجعة الفهارس المعروفة لنا لا تعالج الحوادث التالية لذلك التاريخ[٦٦] . أما المؤلف نفسه فلا توجد لدينا عنه أية معلومات ، ويمكن الافتراض بأنه قد ولد بمدينة سبتة كبقية أفراد أسرته وأن وجوده بجدة | كان بغرض الحج . وفى إحدى مخطوطات الكتاب أضيف إلى اسم المؤلف نعت « عدل »[٦٧] مما يشير إلى أنه كان يعمل فى توثيق العقود (Notary) :

أما هدف الكتاب بل وجميع طابع المعجم فإنه ينعكس بصورة واضحة فى مقدمته التى بدأها بالاستهلال البديعى المعهود فيقول :

« قال أبو عبد الله محمد بن أبى محمد عبد الله بن عبد المنعم الحِمْيَرِىُّ : الحمد لله الذى جعل الأرض قراراً ، وفجَّر خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ألزمتها استقراراً ، ومنعتها اضطراباً وانتشاراً ، جعلها قسمين فيافى وبحارا ، وأودع فيها من بدائع الحكم وفنون المنافع ما بهر ظهوراً وانتشاراً ، وأطلع فى آفاقها

شموساً وأقماراً ؛ جعلها ذلولا ، وأوسعها عرضاً وطولا ، وأمتع بها شيباً وشباباً وكهولا ، وعاقب عليها غُيُوثاً وقبولا ، وأغرى بالمشى فى مناكبها تسويغاً للنعمة الطولى ، وتتميماً لإحسانه الذى نرجوه فى الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن صار له قلب وسمع وبصر وفهم منقولا ومعقولا ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؛ أحمده على جزائل آلائه التى والى إمدادها ، وأحصى أعدادها ، وعم بها البرية وبلادها ؛ وصلى الله على نبيه الكريم الذى زُوِيَت له الأرض فرأى غايتها ، وأبصر نهايتها ؛ وأخبر أن ملك أمته سيبلغ ما رآه ، وينتهى إلى حيث قدره الخالق وأنهاه .

وبعد فإنى قصدت فى هذا المجموع ذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية ، والأصقاع التى تعلقت بها قصة ، أوكان ذكرها فائدة ، أوكلام فيه حكمة ، أولها خبر طريف ، أومعنى يستملح أو يستغرب ويحسن إيراده ، أما ماكان غريباً عند الناس ، ولم يتعلق بذكره فائدة ، ولا له خبر يحسن إيراده ، فلا ألم بذكره ، ولا أتعرض له غالباً استغناءً عنه واشتغالا لذكره ؛ ولو ذهبت إلى إيراد المواضع والبقاع على الاستقصاء لطال الكتاب ، وقلّ إمتاعه ؛ فاقتصرت لذلك على المشهور من البقاع وما فى ذكره فائدة ونكتفى عما سوى ذلك ، ورتبته على حروف المعجم لما فى ذلك من الإحماض المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع الخاص من غير تكلف عناء ولا | تجشم تعب ؛ 443 فقد صار هذا الكتاب محتوياً على فنين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ؛ وثانيها الأخبار والوقائع والمعانى المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها ؛ واختلست ذلك ساعات زمانى ، وجعلته فكاهة نفسى ؛ وأنصبت فيه فكرى وبدنى ؛ ورصنته حتى انقاد للعمل ، وجاء حسب الأصل ، فأصبح طارداً للهموم ، ملقياً للغموم ، وشاهداً بقدرة القيوم ؛ مغنياً عن مؤانسة الصَّحْب ، منبهاً على حكمة الرب ؛ باعثاً على الاعتبار ، مستحضراً لخصائص الأقطار ؛ مشيراً لآثار الأمم وأحداثها ، مشيراً إلى وقائع الأخبار وأنبائها ؛ ثم إنى قِستُه بالكتاب الأخبارى المسمى بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع فى فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى فى وصف البلاد فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلا فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أوعشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ويلذُّ سماعه ، من خبر ظريف ، أو وصف يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه فى مواضع قليلة معدودة ، إلى غير ذلك من عسر وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش .

وجعلت الإيجاز فى هذا الكتاب قصدى ، وحرصت على الاختصار جَهْدى ؛ حتى جاء نسيج وحده ، مليحاً فى فنه ، غريباً فى معناه ، مبهجاً للنفوس المتشوِّقة ، ومذهباً للأفكار المحرقة ؛ مؤنساً لمن استولى عليه الانفراد ورغب عن معاشرة الناس ، ومع هذا فقد لُمْتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع

الصادّ عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمّ من العلم المُزْلف عند الله تعالى وقلت ؛ هذا من شأن البطّالين وشغل من لا يهمّه وقته ، ثم رأيت ذلك من قبيل مافيه ترويحٌ لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح لمن ينشط إلى ما هى به أعْنَى ؛ ثم هو مَهْيَعٌ يسلكه الناس ، واعتنى به طائفة من العلماء ، وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لاينفع ، وأستغفره وأستقيله وأسأله التجاوزَ عن الهفوات ، والصفحَ عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فياربِّ عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه فأنت على كل شىء قدير ! »(٦٨) .

444

ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ من سياق عبارة المقدمة كيف أن مؤلفاً من أهل القرن الخامس عشر يجد من الضرورى بالنسبة له أن يبرر اشتغاله بالمسائل الجغرافية مستشهداً فى ذلك بالآيات القرآنية شأنه فى هذا شأن مؤلفى القرنين التاسع والعاشر ، بل وأن نلاحظ كذلك كيف يحاول هذا المؤلف عن طريق الحشية غير المستترة أن يبرر اشتغاله بالعلوم « الدنيوية » شأنه فى هذا شأن ياقوت تماماً . ويشبه « الروض المعطار» معجم ياقوت فى أنه يمثل مجموعة من التعليقات التى تتفاوت طولا وقصراً وتعالج الكلام عن المدن والمواضع والجبال والأنهار والأقطار مرتبة وفق حروف المعجم ؛ وهو يمثل فى ذات الوقت رسالة فى الجغرافيا الوصفية ومجموعة من « العجائب » Mirabilia وتاريخاً سياسياً لفترة معينة من الزمان وخزينة أدبية تحوى مجموعة كبيرة من النثر والشعر . ورواياته عن المشرق العربى مع أنها كبيرة العدد إلا أنها لا تبلغ حجم مادته عن إفريقيا والمغرب والأندلس .

ونظراً لما وجهه من نقد شديد للإدريسى فمن العسير الاعتقاد بأنه يعتمد كثيراً على مصنف الأخير ، غير أن الفحص والتحليل أثبتا أن مؤلفنا قد نقل من « نزهة المشتاق » القسم الذى يعالج الكلام على أسبانيا برمته ؛ وهذا أمر له أهميته إذ أننا نجد أنفسنا والحالة هذه أمام متن جديد للإدريسى يمكن أن يمثل أهمية كبرى عند تحقيق كتاب « نزهة المشتاق » وإعداده للنشر . وبنفس القدر نقل الحميرى من «كتاب المسالك والممالك» للبكرى ، وإذا وضعنا جيداً فى اعتبارنا أنه لم يتم حتى الآن الكشف عن القسم الذى يعالج الكلام عن الأندلس من ذلك الكتاب فإن قيمة الشذرات من كتاب الحميرى التى تعالج هذا الموضوع ترتفع بشكل ملحوظ . أما المصدر الثالث الذى اعتمد عليه الحميرى اعتماداً أساسياً فى هذا المجال فهو رسالة مجهولة المؤلف من القرن الثانى عشر معروفة لنا جيداً ، أعنى «كتاب الاستبصار» . هذا وتمثل المادة التاريخية لدى الحميرى فى كثير من الأحايين أهمية ليست بالضئيلة ، وقد دلل ليفى بروفنسال على أن روايته عن معركة الزلاّقة الفاصلة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تعتبر من أوفى وأفضل ما دوّن فى هذا الصدد(٦٩) ؛ كما حدث وأن أشرنا فى حينه إلى فضل الحميرى فى حل المشكلة المتعلقة برحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى إلى بلاد الصقالبة . والحميرى بالطبع كاتب نقالة شأنه فى هذا شأن بقية المؤلفين العرب وإليه يرجع فضل كبير فى حفظ عدد من الروايات لمؤلفين مختلفين لولاه لكانت فى حكم المفقودة :

وقد نال مصنف الحميرى حظوة كبيرة لدى المؤلفين المتأخرين ولو أن هذا يقف بالطبع عند حد بلاد المغرب وحدها بالتقريب ، فإلى جانب من ذكرناهم فى سياق الحديث ممن استعملوا مسودته الأولى نقل عنه أيضاً فى القرن السابع عشر المقّرى ، وفى القرن الثامن عشر مقديش(٧٠) بل وحتى فى القرن 445 التاسع عشر الناصرى السلاوى(٧١) ؛ وكل هذا يقف بالطبع دليلا على قيمة المادة التى جمعها الحميرى . ولا يفوتنا أن نشير فى خاتمة كلامنا عنه إلى أن ليڤى بروڤنسال الذى يدين له العلم بتعريفنا بهذا الأثر قد جمع القسم الخاص بالأندلس ونشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات علمية جعلت من هذه الطبعة مرجعاً قيماً لا يمكن الاستغناء عنه فى دراسة الأندلس ، بحيث يلعب بالنسبة لتلك البلاد نفس الدور الذى يلعبه معجم ياقوت بالنسبة للعالم الإسلامى .

وإذا أمكن اعتبار الحميرى آخر مؤلف لمعجم جغرافى كبير فإن ثمة مغربياً آخر هو ليون الإفريقى المشهور يكاد يعد بوجه عام آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب . وإذا تناولنا المسألة من الناحية الشكلية فحسب فلعل الكلام عنه لايدخل فى دائرة موضوع بحثنا ، ذلك أن مصنفه الأساسى معروف فقط فى ترجماته الأوروبية فى حين أن أصله العربى مفقود تماماً ولكنه فى أغلب الظن قد وجد بالفعل ، وبهذه الصفة فهو ينتمى إلى الأدب العربى ؛ وقد كشف الآن عن المؤلف مواطنوه المغاربة واعترفوا به بل إن مراكشياً معاصراً أفرد له منذ وقت غير بعيد دراسة خاصة(٧٢) .

وفى سيرة حياته شبه بعيد بسيرة حياة الإدريسى غير أن اسمه الغريب يشير إلى ما أحاط بها من تعقيد كبير(٧٣) ؛ فهو معروف فى الأقطار العربية باسم الحسن بن محمد الوزّان الزياتى ولكن اسمه يرد فى مصنفاته التى وضعها بأوروبا على أنه يوحنا الأسد الغرناطى معرباً بهذا الاسم الذى أطلق عليه هناك وهو Iohannes Leo Eliberitanus أو Africanus أى يوحنا ليون (الأسد) الأيبيرى أو الإفريقى(٧٤). وقد ولد فيما يبدو بغرناطة وذلك قبل أمد قصير من سقوطها فى أيدى النصارى عام ١٤٩٢ ؛ وكما هو الحال مع عدد كبير من الأسر المسلمة فقد انتقل أهله عقب ذلك إلى مراكش فشب مؤلفنا بمدينة فاس التى أخذ منها نسبته أى الفاسى . ومنذ نحو عام ١٥١١ صحب عمه فى رحلة دبلوماسية ساقته إلى تمبكتو عن طريق دره(٧٥) .

ومن المؤكد أنه نال حظاً جيداً من التعليم وتمرس فى فنون الكتابة الدواوينية ، كما أنه قد اضطلع لا أقل من ثلاث مرات بأعباء سفارات هامة فى جنوبى مراكش لأسرة بنى وطّاس(٧٦) الحاكمة بفاس ، وهى واحدة من آخر فروع أسرة بنى مرين وعرفت بتشجيع الثقافة والارتفاع بمستوى الحضارة فى المغرب الأقصى وإلى عصرهم الذى يمكن أن يعد فترة انتقال بين تاريخ مراكش الوسيط وتاريخها الحديث يرجع الوصف الدقيق المفصل لمدينة فاس الذى دونه يراع ليون الإفريقى(٧٧) . وفيما بعد قام بأعباء 446 مماثلة لهذه لدى الشريف محمد(٧٨) ؛ وقد استطاع خلال رحلاته العديدة أن يتعرف بصورة جيدة

على إفريقيا الداخلية والشمالية[٧٩] ولاتزال الدوافع التى حفزته لمغادرة مراكش فى عام ٩٢١هـ — ١٥١٥ والضرب فى نواحى الأرض غير واضحة المعالم ، شأنها فى هذا شأن جل التفاصيل المتعلقة بسيرة حياته[٨٠] . ولعل الدافع الأساسى من بينها كان رغبته فى أداء فريضة الحج ، أو ربما ساقه إلى ذلك اعتبارات أخرى . ومهما يكن من شىء فإنه يجب الاعتراف بأن عدد البلاد التى زارها أمر لم يعهد من قبل فهو قد زار على حد قوله مصر وبلاد العرب وإيران والشام وأرمينيا و« بلاد التتار » ؛ والأرجح أنه يقصد بهذه الأخيرة منطقة تبريز . وكان بمكة ومصر فى عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ ، وهو عام يمثل لحظة حاسمة فى تاريخ تلك الأقطار هى لحظة فتح السلطان سليم العثمانى لمصر ؛ ولكن مؤلفنا لايذكر شيئاً عن ذلك[٨١] . وقد بلغ الوزان فى تجواله استنبول التى أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور فى فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أوغير مباشر. ومن المستحيل تحديد تواريخ تحركاته بصورة دقيقة ، وهى على أية حال قد انتهت نهاية محزنة فبينما هو فى طريق العودة إذ وقع عند جزيرة جربه فى أسر قراصنة من جزيرة صقلية ساقوه إلى نابلى فى حوالى عام ١٥٢٠ ثم إلى رومه حيث أهدوه مع زرافة إلى البابا ليون العاشر (١٥١٣ = ١٥٢١)[٨٢] ؛ وكان هذا البابا يحمل فى حياته العادية اسم جيوفانى مديتشى Giovanni Medci وهو ابن لورنسو الفاخر أمير فلورنسه وقد عرف لا باعتناقه لمذهب النزعة الإنسانية المستنيرة (einlightened humanism) كما فهمته أفضل عقليات إيطاليا لذلك العهد فحسب ، بل عرف أيضاً باطلاعه على المسألة الشرقية (la question d'Orient) حتى أنه بحث مع فرنسوا الأول ملك فرنسا فى عام ١٥١٥ مشروع حملة صليبية ضد الترك[٨٣] ؛ وقدكان من جراء هذا أن زاد الاهتمام بالشرق فى إيطاليا بحيث لم يكن فى المستطاع ألا يسترعى العلامة المغربى نظر البابا ليون العاشر . وقد اضطر المغربى إلى أن يعتنق المسيحية ويتخذ لنفسه اسم ولى نعمته وهو جيوفانى ليونى ؛ ويسر له البابا سبل الاشتغال بتدريس اللغة العربية والتفرغ للنشاط العلمى برومه وبولونيا .

وكان لإلمامه الجيد باللغة الأسبانية التى كانت أشبه ما تكون بلغته القومية[٨٤] أن عاونه هذا سريعاً فى التعرف على بيئته الجديدة وإجادة الإيطالية واللاتينية بصورة مرضية . ومنذ عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ نجده يؤلف معجماً عربياً — عبرياً — لاتينياً من أجل طبيب يهودى لا تزال مخطوطته محفوظة بالاسكوريال[٨٥] . وفى العاشر من مارس عام ١٥٢٦ أتم الترجمة الإيطالية لكتابه الذى وضعه أصلا باللغة العربية والذى 447 يسترعى اهتمامنا بوجه خاص وهو « وصف إفريقيا »[٨٦] . وفى عام ١٥٢٧ ألف باللاتينية كتاباً جامعاً فى سير ثلاثين من مشاهير العرب فى الفلسفة والطب Libellus de viris quibusdam illustribus apud Arabes[٨٧] نشره هوتينغر Hottinger فى عام ١٦٦٤ ، وكان أول سفر من نوعه يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا فى تاريخ تطور العلوم عند العرب ؛ وعقب هذا

بقليل ، وربما كان ذلك فى عام ١٥٢٨ ، تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعاً إلى إفريقيا[٨٨] وما لبث أن اطرح المسيحية إلى دينه القديم ؛ وقد توفى الوزان على ما يبدو بتونس فى عهد آخر بنى حفص وذلك فى عام ١٥٥٢[٨٩] .

هذا وقد وجدت مزاعم تقول بأن الأصل العربى « لوصف إفريقيا » كان موجوداً لدى المؤلف عندما وقع فى الأسر ، وقيل فيما بعد بأن مخطوطته قد وجدت طريقها إلى أحد محبى الكتب (bibliophile) وهو پنلى V. Pinelli ولكنها فقدت فى الطريق إلى نابلى عند هجوم القراصنة[٩٠] . وعلى الرغم من كل ذلك فإن القول بأنه قد وجد مصنف تام فى يد ليون الإفريقى عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع متفرقة وتخطيط ذى طابع عام . وماسينيون Massignon بوجه عام لا يعتقد فى وجود مخطوطة عربية للكتاب ويعتبر القول بذلك محض خطأ[٩١] بل إنه يرى خلافاً لذلك أن ليون الإفريقى لم يدون الكتاب باللغة العربية وإنما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الإيطالية رأساً[٩٢] . ولعل هذا أقرب إلى الواقع خاصة وأن المؤلف نفسه يذكر على وجه التحديد فى المسودة الإيطالية أنه قد دون مصنفه من الذاكرة وذلك بعد مضى عشرة أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربى واحد[٩٣] . ولم تكن ذاكرته تسعفه دائماً ، وعلى الرغم من أن الوصف الجغرافى عنده يتميز بالدقة الشديدة إلا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست فى المستوى المرجو[٩٤] ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يكن بمقدوره أن يراجعها فى مظانها .

ولعل إقامة المؤلف بأوروبا قد انعكست فى طابع الكتاب نفسه إذ ليس من اليسير ضمه إلى النمط المعروف فى « المسالك » كما فعل ماسينيون[٩٥] أو إلى نمط « الرحلة » الذى نال الحظوة لدى أهل المغرب[٩٦] ، فهو فى الواقع قد كُتب من أجل الأوروبيين ولو أن مؤلفه علامة عربى ويعتمد على مادة عربية[٩٧] ؛ ولعل معرفة المؤلف بعدد من اللغات قد مكنته من الاطلاع على مؤلفات العالم الكلاسيكى ومؤلفات العصور الوسطى الأوروبية ، وربما عاونه فى ذلك علماء النزعة الإنسانية من بين الإيطاليين (Italian Humanists) ؛ وتشير الدلائل إلى أنه قرأ لبعض المؤرخين اللاتينيين[٩٨] .

448

ومن الطريف إشارته إلى بلينيوس Plinius فى الكتاب التاسع من « وصفه » الذى يتحدث فيه عن المعادن والنبات والحيوان* ؛ فهو يذكر فى مطلعه بأنه سيتكلم عما يوجد منها بإفريقيا « باستثناء كثير من الأشياء التى أوردها بلنيوس الذى كان بحق رجلا ممتازاً ذا مذهب فريد . وهو كثيراً ما وقع فى الخطأ عند معالجته الكلام على أشياء بسيطة تتعلق بأفريقيا ، غير أن مرد ذلك ليس لعيب فى نفسه بل لما حصل عليه من معلومات خاطئة ولرغبته فى أن يقلد من كتبوا قبله . وعلى أية حال فإن

* نقل مؤلف الكتاب هذه الفقرة عن كتاب مييلى Mieli ولكن سقط سهواً لفظ « الأنهار » الذى يرد قبل لفظ « المعادن » (راجع ص ٥٣٨ من الترجمة العربية لكتاب الدوميلى « العلم عند العرب ») . (المترجم)

الخطأ فى أمر صغير لا يكفى لمحو الصفات الطيبة التى من شأنها أن تضفى رونقاً وبهاءاً على ما يتصف به المجموع من جمال وزينة[٩٩] » .

أما الأهداف التى وضعها المؤلف نصب عينيه فيمكن استجلاؤها من خاتمة مصنفه حيث يقول :

« هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا ، جيوفانى ليونى ، عن جميع إفريقيا التى عبرتها من أقصاها إلى أقصاها . وقد دونت بجد واجتهاد ومن يوم لآخر تلك الأشياء التى رأيتها بعينى رأسى وبدا لى أنها تستحق الذكر . وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أوصعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهدى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح »[١٠٠] .

وينقسم المصنف وفقاً للمتن الإيطالى إلى تسعة كتب يعالج الأول منها الكلام على إفريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ؛ أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتلمسان والخامس لبجايه وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر بينما يقدم التاسع وصفاً موجزاً للأنهار والحيوان والأسماك والطيور والمعادن والنباتات الموجودة بإفريقيا[١٠١] . وقلما يشير ليون الإفريقى إلى مصادره وهو حين يفعل ذلك يوردها فى أغلب الظن من الذاكرة ؛ ومن بين المؤلفين المعروفين لنا يرد لديه ذكر المسعودى والبكرى والإدريسى وابن الخطيب وابن بشكوال[١٠٢] ؛ ومن الجلى أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب وهذا أمر طبيعى . وأكثر نقوله من مؤلف يدعى ابن الرقيق دون سائر المؤرخين والجغرافيين وإليه يدين ليون الأفريقى بتصنيفه الأصيل للقبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة بل بالإطار العام لمصنفه وذلك من الناحيتين التاريخية والاثنوغرافية . ومن المؤسف أن هذا المؤلف لم يتم التعرف عليه حتى الآن على وجه اليقين[١٠٣] ؛ ويفترض ماسينيون أنه عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر[١٠٤] ؛ وعلى كل حال فإن قيمة كتاب ليون الإفريقى لا تكمن فى ما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه . وهو قد احتفظ فى مصنفه الأوروبى بروحه العربية التى تتمثل فى القصص المنحولة التى يسردها ليستخرج منها الموعظة والعبرة شأنه فى هذا شأن مؤلفى المجموعات الأدبية التى اشتهر بها الأدب العربى[١٠٥] ؛ أما منهجه فى التأليف الذى فصل الكلام عليه فى الفقرة الختامية من الكتاب فيوكده فى الواقع جميع من انقطعوا لدراسة مصنفه . وكتاب ليون الإفريقى هو البحث الوحيد فى جغرافيا مراكش المتميز بالأصالة والترتيب الذى ظهر بأوروبا فى القرن السادس عشر ؛ وكان فى الحقيقة فتحاً جديداً بالنسبة لذلك العصر حتى ولو بسبب تقديمه لما يقرب من أربعمائة اسم لمواضع جغرافية مع معطيات دقيقة وجديدة[١٠٦]

449

وقد لقى المصنف انتشاراً واسعاً فقد أعقب صهور الطبعة الإيطالية فى عام ١٥٥٠ ظهور الترجمتين اللاتينية والفرنسية فى عام ١٥٥٦ ، ثم ترجم فى حوالى عام ١٦٠٠ إلى الإنجليزية وتلى هذا ترجمته إلى لغات أخرى وظهور عدد كبير من الطبعات استمر إلى القرن التاسع عشر حين تُوِّج ذلك المجهود بطبعتى شيفير Schefer الفرنسية (١٨٩٦ — ١٨٩٨) وبراون Brown الإنجليزية (١٨٩٦) العلميتين[١٠٧]* . ولايزال البحث الرئيسى فى دراسة ليون الإفريقى هو ذلك البحث الممتاز الذى دونه قلم لويس ماسينيون Louis Massignon منذ عام ١٩٠٦ بعنوان « مراكش فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر كما وصفها ليون الإفريقى » Maroc dans les premières années du XVIe siècle. Tableau Géogrophique d'après Léon l'African, Alger, 1906 . وقد كان لليون الإفريقى تأثير قوى على العلم الأوروبى[١٠٨] فمنذ بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر على وجه التقريب ، وعلى ممر ثلاثة قرون بعد ذلك لم يستطع أن يتجاهله كاتب أو عالم يود الكلام على إفريقيا ولو أنهم كانوا بكل أسف لا يعتمدون دواماً على متن الكتاب الإيطالى بل على الترجمة اللاتينية التى لا يمكن بأية حال الاطمئنان إليها بصورة تامة[١٠٩] . أما تقديرهم للمؤلف فقد كان على الدوام تقديراً عالياً[١١٠] ؛ ففى القرن الثامن عشر كتب عنه مؤلف أول بحث جدى عن الإدريسى وهو المستشرق الألمانى هارتمان Hartmann يقول : « إن ما يتصف به مصنفه من ميزات أمر معروف للجميع ؛ ولن أتردد فى تكرار ما قاله البحاثة قبلى من أن كتابه كنز من الذهب ولولا وجوده بين يدى لخفيت علىّ أشياء كثيرة »[١١١] . وهذا القول نفسه ردده بعد قرنين من ذلك واحد من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية ومحرر الطبعة العلمية « لوصف إفريقيا » Description de l'Afrique المستشرق الفرنسى شيفير Schefer فقال « إن ما يورده ليون الإفريقى من تفاصيل فى وصف المغرب يتميز بالدقة الشديدة ؛ بل ولقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى فى تلك المواضع التى أثارت بعض الشك فيما مضى »[١١٢]

450

غير أن ما قيل فى الثناء عليه لم يمنع العلماء من الوقوف موقف النقد من بعض النقاط المتعلقة إلى حد ما بظروف عمله ؛ فمثلا يفترض المستشرق الإيطالى أمارى أن ما أملاه ليون الإفريقى قد تم جمعه بعد رجوعه إلى إفريقيا[١١٣] بحيث لم يستطع تنقيح المسودة النهائية ؛ وإلى جانب هذا اضطر أمارى إلى الاعتراف بأن ليون الإفريقى لم يعرف تاريخ صقلية معرفة جيدة[١١٤] . أما شيفير فيتفق مع عدد كبير من العلماء فى القول بأن ليون الإفريقى « لم ير كل ما وصفه ولم يكن دائماً شاهد عيان لما يحكيه »[١١٥] ؛ ورغم كل هذا فيجب الموافقة على أنه « آخر الجغرافيين العرب المشهورين فى تلك البلاد[١١٦] » . وسنلتقى

* إن أحدث طبعة لمصنف ليون الإفريقى هى الترجمة الفرنسية الحديثة بقلم أيبولار Epaulard التى ظهرت بباريس فى جزئين فى عام ١٩٥٦ ؛ هذا وتوجد للكتاب ترجمة أسبانية ظهرت فى عام ١٩٥٢ . (المترجم)

بالطبع بعدد كبير من المؤلفين المغاربة فى محيط الجغرافيا غير أن مصنفاتهم تعالج نقاطاً منفردة أما المصنفات الجامعة من طراز مصنف ليون الإفريقى فإن هذا كان آخر العهد بها .

ومن العسير القول بأن القرن السادس عشر فى إفريقيا الشمالية كان فقيراً فى مصنفاته ولو أنه يجب الاعتراف بأن مستواها لايتجاوز الحد الأوسط بأية حال ، ويكفى فقط أن نشير فى هذا الصدد إلى ظاهرة فى محيط الكارتوغرافيا (فن رسم المصورات الجغرافية) تقف دليلا على أن مذهب الإدريسى كان لا يزال حياً ومعمولا به ، على الأقل فيما يتعلق بالاحتياجات العملية .

كان نمط الخارطات السائد إلى القرن العاشر هو النمط الذى غلب عليه توزيع المناطق وفقاً للأقاليم ؛ ثم أعقب هذا ظهور الخارطات البحرية التى كانت تبين عليها أحياناً خطوط الطول والعرض ، مما يثبت وجود تأثير غربى بل ويشير إلى المحاكاة الصرفة . ولقد كانت الخارطات من هذا النوع فى الحقيقة أمراً غريباً على العرب[١١٧] ولايخلو من مغزى أن تظهر لأول مرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وبعض مناطق البحر الأسود ، أى فى ذات المنطقة التى وجدت فيها نماذجها الأولى ؛ هذا على حين أنها لاتقابلنا إطلاقاً فى الأقطار الساحلية الأخرى التى نفذ إليها العرب كسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى على الرغم من أن هذه السواحل الأخيرة كما سنرى قد شهدت فى هذا العصر بالذات انتعاشاً غير معهود لنمط جديد فى الأدب الجغرافى هو الجغرافيا الملاحية .

وأقدم الخارطات البحرية المعروفة لنا محفوظة بمكتبة الأمبروزيانا Ambrosiana بميلانو[١١٨] وتمثل قطعة مكونة من ثلاث ورقات لخارطة للبحر الأبيض المتوسط[١١٩] ؛ ويمكن الحكم من الكتابة المغربية على أنها قد عملت فى الجزء الغربى من شمال إفريقيا لعله سبتة أو بجايه حيث وجد الملاحون من مختلف الشعوب . وليست بهذه الخارطة أية إشارات خارجية تبين التاريخ الذى عملت فيه ؛ ومن المحتمل أنها ترجع إلى القرن الرابع عشر . ومما يزيد فى توكيد اختلافها عن بقية الخارطات العربية هو أن أبعادها مقدرة بالأميال مما ينهض دليلا جديداً على أنها إيطالية الأصل . وتبدو صلابة مقاومة الطابع العربى فى الخارطات المغربية فى احتفاظها بالأسماء العربية[١٢٠] ؛ وفيما يتعلق بهذه الخارطة بالذات فيبدو أنها تعتمد فى الأصل على خارطة عربية أما الأخطاء الموجودة بها فيمكن إرجاعها إلى طبيعة الكتابة العربية . وبهذا يمكن القول بأن الخارطة تنتمى إلى النمط الإيطالى من حيث الرسم وتخطيط السواحل ولكنها من جهة أخرى تحمل تسميات ذات طابع مستقل فيما يتعلق بساحل إفريقيا وبجنوبى أسبانيا وشرقيها[١٢١] . ولم تكن هذه الخارطة هى النموذج الوحيد الذى قدمه لنا العرب فى فن الكارتوغرافيا على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

451

فابتداء من منتصف القرن السادس عشر ازدهر بتونس اسم أسرة الشرفى الصفاقسى التى قدمت فى غضون جيلين عدداً من مصورى الخارطات (Cartographers) ؛ وقد وفق نالينو فى أن يتتبع

دراسة ثمانية أوتسعة أجيال من هذه الأسرة إلى نهاية القرن الثامن عشر ولدوا جميعهم بصفاقس وعاش معظمهم بها وبالقيروان والقاهرة أحياناً ، مشتغلين وفق تقاليد الأسرة بفن رسم المصورات الجغرافية ثم اشتغلوا فيما بعد بدراسة الرياضيات والفلك . وقد أخرج لنا هذا « المصنع » (Workshop) ، إن صح هذا التعبير ، فى الفترة ما بين عامى ١٥٥١ و١٦٠١ أربعة نماذج لخارطة كبيرة للعالم تمثل فى جوهرها صورة منقحة لخارطة الإدريسى (وذلك فى السنوات ١٥٥١و١٥٧٢و١٥٧٩و١٦٠١)[١٢٢] . وهناك اختلاف بين من بحثوا فى النشاط العلمى لهذه الأسرة حول أسماء واضعى هذه الخارطة خاصة وأن بحث نالينو[١٢٣] بقى لمدة طويلة بعيداً عن متناول الأيدى ولم تعرف نتائجه إلا بطريق غير مباشر . وأكبر هؤلاء سناً هو على بن أحمد بن محمد الذى وضع فى عام ٩٥٨ هـ = ١٥٥١ أطلساً فى ثمانى ورقات تصور فى الغالب سواحل البحر الأبيض المتوسط ولاتزال مخطوطته محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ولعل خارطة العالم للشرفى الموجودة بأكسفورد والتى يرجع تاريخها إلى عام ٩٧٩ هـ=١٥٧١ — ١٥٧٢[١٢٤] ذات صلة بهذا الأطلس على نحو ما . هذا وقد اختلف البحاثة فى وصف الخارطات المختلفة ولكن تركيب الأطلس العام واضح بالنسبة لنا[١٢٥] فيتلو التقويم الشمسى خارطة للقبلة[١٢٦] مبين عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة ، ويلى هذا خارطة عامة للعالم[١٢٧] . وفى هذه الخارطة الأخيرة يبصر كرامرس تأثيراً ما لخارطة البيرونى[١٢٨] ، غير أن المؤلف نفسه يصرح بأنه قد خضع لتأثير الإدريسى[١٢٩] وهو أمر مفهوم بالنسبة لنا . ثم يتبع هذا خارطات للمناطق المختلفة كسواحل أسبانيا وجزر البليار وجنوبى فرنسا وأجزاء من سواحل إيطاليا تضم قورسيقا وسردينيا ، والساحل المقابل لإفريقيا . ويلى هذا مجموعة من الخارطات تبين سواحل 452 البحر الأسود وبحر آزوف ثم الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فالشام ومصر إلى برقة . وثمة خارطة منفصلة تبين بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها . أما الخارطة الأخيرة فتصور برقة وطرابلس وتونس . وقد أضيف إلى الأطلس كملحق جدول يبين التقويم الزراعى (Agricultural Calender) لكل شهر .

إن تركيب هذا الأطلس البورتولان Portulan ليشير بوضوح إلى أنه قد عمل من أجل قبطان كان يشتغل بالملاحة الساحلية فى البحرين الأبيض المتوسط والأسود إلى سواحل القريم ؛ ثم إن ذكر الشهور بأسمائها الأوروبية والسريانية إلى جانب العربية يسمح لنا بالافتراض بأن هذا الملاح كان يمر على موانى أوروبا المسيحية وموانى الشام على السواء ؛ ومما يؤكد أن الأطلس قد عمل من أجل أهداف التجارة لا من أجل أهداف عسكرية أن التحصينات الساحلية غير مبينة عليه كما هو الحال مع الخارطات العثمانية لذلك العصر والتى سيمر بنا الكلام عليها فى حينه[١٣٠] . هذا وقد تم رسم الأطلس فى عام ١٥٥١ أى فى العصر الذى كانت تمخر فيه السفن الأوروبية عباب المحيط فى حرية كاملة وهى فى طريقها إلى الصين وأمريكا ، وكذلك حين نجح عدد من الملاحين فى الدوران حول الأرض ؛ غير أن هذه الحقائق الهامة

لا تجد انعكاساً ما فى خارطة العالم الموجودة بهذا الأطلس[١٣١] . والتأثير الغربى الوحيد على مؤلف الأطلس يبدو فقط فى إطلاقه لفظ « طبله » على أطلسه ، وهو مأخوذ من اللاتينية الدارجة Tabula أى اللوحة[١٣٢] ؛ ويبدو أنه قد استعاره من اللغة الدارجة المتداولة آنذاك فى جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط (lingua franca)

ولعل مؤلفنا هذا هو المسئول عن وضع صورة منقحة لخارطة العالم آنفة الذكر نفسها ، وترجع هذه الأخيرة إلى عام ١٥٧٩ وقد كشف عنها نالينو فى مجموعة شخصية بروما ؛ ويرى ميلر K. Miller أن المؤلف قد جهد فى هذه الخارطة ليجمع بين الخارطة البحرية القطلونية (Catalonian) وخارطة الإدريسى ويخرج من الاثنين خارطة بحرية عربية جديدة[١٣٣] .

وقد ترسم خطاه على ما يبدو ابنه محمد بن على الشرفى الصفاقسى الذى تنسب إليه خارطة للعالم معروفة فى نسخة واحدة ترتفع إلى عام ١٠٠٩ هـ=١٦٠١[١٣٤] ، ولكن حدث لسهوما أن صورها ميلر Miller فى قطعتين نسب إحداهما إلى عام ١٥٩٢ والأخرى إلى عام ١٦٠١[١٣٥] . وتكاد أهمية هذه الخارطة تنحصر أساساً فى أنها مصورة على قطعة واحدة من جلد شاة تنقصها الأرجل فقط ، وهى نفس الطريقة المتبعة فى رسم الخارطات الإيطالية والفرنسية لذلك العهد[١٣٦] . ووصف أمارى لهذه الخارطة بأنها « بديعة » (chiarmante)[١٣٧] لا يقوم على أساس لأن بلوشيه Blochet الذى درسها عن كثب لا يجد فيها ما يستحق الاهتمام ؛ وهى تعتمد على الإدريسى فيما يتعلق بنصفها الشرقى ولو أنها لا تورد جميع أسماء المواضع ، هذا بالإضافة إلى نقصها الفنى الملحوظ ؛ وبهذا فهى لا يمكن أن تصلح « كبورتولان » Portulan[١٣٨] . أما فيما يتعلق بنصفها الغربى الذى يبين حوض البحر الأبيض المتوسط مع سواحل الأطلنطى والبحر الأسود فإنه يبدو عليه بوضوح تأثير الخارطات البحرية القطلونية[١٣٩] 453 مما يقف دليلا جديداً على أن الخارطة قد نشأت فى وسط ملاحى مختلط . ومن دراسته لهذه الخارطة يستنتج كونراد ميلر الخبير الكبير فى الكارتوغرافيا العربية أن خارطة الإدريسى الأولى قد وجدت ليس فقط على شكل سفر من سبعين ورقة بل وأيضاً على شكل خارطة حائطية كبرى تم تطبيقها بصورة عملية بعد مرور أربعمائة سنة على ظهورها[١٤٠] . وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحاً ولكنه يقف دليلا فى رأى بلوشيه على تدهور المدرسة الكارتوغرافية التونسية[١٤١] التى زاولت نشاطها لبعض الوقت بجد كى تستطيع أن تفى بحاجة عملائها من قباطنة السفن المختلفة التى كانت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط[١٤٢] .

ونشاط فن الكارتوغرافيا بالمغرب حينذاك لم يكن بطبيعة الحال أمراً غريباً ؛ ورغما من الأمثلة التى سقناها فإن التأثير الأوروبى قد وجد طريقه إليها بصورة لا تقبل الشك . ولنقدم مثالا طريفاً لهذا التأثير فى شخصية عالم مغربى ، وهو إن لم يمس كثيراً علم الجغرافيا إلا أنه يقف دليلا صريحاً على نشاط التبادل

الثقافى فى ذلك العصر[١٤٣] ؛ ذلك العالم هو حاجى أحمد التونسى الذى يبدو من نسبته أنه تونسى الأصل ولكنه درس بفاس واهتم منذ صباه بالعلوم خاصة الجغرافيا ، ثم سقط أسيراً فى أيدى المسيحيين واشتراه رجل فاضل من أهل البندقية سمح له بالاستمرار فى دراساته فتعمق فى تفهم الجغرافيين الأوروبيين وفحص خارطاتهم بدقة ومن ثم واتته فكرة وضع خارطة للعالم المعروف آنذاك يجمع فيها بين معطيات أبى الفدا وقواعد المساقط الكارتوغرافية (Projection) للرياضى والكوزموغرافى أورونتيوس فينايوس Orontius Finaeus (١٤٩٤ — ١٥٥٥) التى طبقها فى وضع خارطته للعالم عام ١٥٣٦[١٤٤] . ونزولا على رغبته مولاه فقد سجل الأسماء الجغرافية باللغة التركية التى لم تكن لغته الأصلية ، غير أن عدداً من الألفاظ العربية وجدت طريقها إليها[١٤٥] . وقد أتم التونسى عمله فى عام ٩٦٦ هـ — ٩٦٧ هـ = ١٥٥٨ — ١٥٦٠ فى عصر السلطان سليمان القانونى وكان مهيئاً للطبع فى عام ١٥٦٨ ، ولكن لظروف معينة لم يتم طبعه[١٤٦] . ويوجد بمكتبة القديس مرقص بالبندقية كليشيه لهذا الرسم محفور على أربع لوحات (أو ست على وجه الدقة[١٤٧]) من خشب التفاح ؛ وفقط فى عام ١٧٩٥ أنجزت على أساسه أربع وعشرون نسخة (un tirage de vingt-quatre épreuves)[١٤٨] ظهرت مع رسالة توضيحية موجزة بقلم العالم المارونى الشهير السمعانى S. Assemani (١٧٥٢ — ١٨٢١) الأستاذ بجامعة بادوا Padua[١٤٩] .

459 ونظرة عاجلة إلى المصور تبين لنا أن التونسى قد استعار من فنايوس ليس فقط طريقة المساقط والشكل الأصيل للخارطة على هيئة قلب وكذلك خط الزوال الأساسى الذى يمر بجزر الكنارى بل استعار منه أيضاً الجزء الأكبر من تخطيطه لسواحل القارات والجزر . ومع هذا فيجب إقراراً للحق الاعتراف بأن عدد المصطلحات الجغرافية لديه أغنى بكثير كما وأنه أجرى عدداً من التصحيحات على سلفه بعضها هام للغاية مثال ذلك تصحيحه لسواحل أمريكا خاصة الأجزاء الشمالية منها[١٥٠] ؛ وهكذا يقف التونسى فى محيط الكارتوغرافيا العربية نسيج وحده لا سلف له ولا خلف . ويكمن عيبه الأساسى فى استعماله للأصل الذى اعتمد عليه بصورة آلية تغلب عليها الشكلية ، وسنرى عند انتقالنا للكلام على الخارطات التركية المعاصرة له أنه قد قامت لدى الأتراك مدرسة مستقلة استعارت مادتها بصورة أوسع وعرفت كيف تهضمها وتتمثلها بأصالة واضحة .

وفى القرن السادس عشر اتسعت وقويت صلات المغرب بالدولة العثمانية بصورة نشيطة ؛ وكان من جراء خضوع الجزائر لسلطان العثمانيين (١٥١٩) أن أحست مراكش بخطر مباشر يهدد حريتها خاصة وأن أفراد أسرة الشرفاء قد طلبوا العون من الأتراك منذ أن استولوا على مقاليد الأمور بمراكش ، وذلك لوضع حد للتطاحن من أجل العرش بين أفراد الأسرة نفسها وللقضاء على دسائس البلاط . ونتيجة لهذا فقد دخل الطرفان فى علاقات دبلوماسية ونشطت السفارات الذاهبة إلى استنبول حتى أخذت طابعاً منتظما فى بعض الأحايين[١٥١] ؛ **ومن المحتمل جداً أن ليون الإفريقى نفسه قد قام برحلته إلى استنبول**

لأغراض سياسية ولو أنه تعوزنا الوقائع لإثبات ذلك . وبعض هذه السفارات تردد صداه فى الأدب خلال قرون متتالية حتى القرن التاسع عشر فعرف بهذا نمط الرحلة انتعاشاً كبيراً وظهر إلى جانب وصف الحج ضرب جديد من الرحلة إلى عاصمة « سلطان الأرضين وخاقان البحرين » .

ومن المؤلفات المعروفة لنا من هذا الضرب الأخير مصنف التمجروتى الذى يرجع إلى نهاية القرن السادس عشر ويحمل عنواناً طناناً هو « النفحة المسكية فى السفارة التركية » . ومعلوماتنا عن المؤلف نزرة[١٥٢] فقد ولد أبو الحسن على بن محمد التمجروتى* حوالى عام ٩٦٧هـ = ١٥٦٠[١٥٣] بقرية تمجروت الصغيرة من أعمال وادى درعه بجنوبى مراكش[١٥٤] ونال حظه من التعليم المعهود لذلك العصر ثم التحق على ما يبدو كاتباً ببلاط الشريف أحمد المنصور السعدى (٩٨٦ هـ — ١٠١٢ هـ = ١٥٧٨ — ١٦٠٣) بفاس . ونظراً لأن الشريف اعتلى العرش بمعاونة الأتراك فقد دخل فى مغامرات دبلوماسية واسعة النطاق حاول أن يقحم فيها بعض دول أوروبا الغربية ؛ وهو وإن لم يخضع خضوعاً رسمياً للأتراك إلا أنه ارتبط معهم بعلاقات وثيقة حتى اتخذت السفارات بين الجانبين صورة منتظمة . وإحدى تلك السفارات بعث بها المنصور فى عام ٩٩٨هـ — 455 ١٠٠٠ هـ = ١٥٨٩ — ١٥٩١ إلى السلطان مراد الثالث (٩٨٢ هـ — ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ — ١٥٩٥) ، وكان على رأسها التمجروتى[١٥٥] الذى ضم إليه الشريف أحد كتاب الدولة وهو الشاعر الفشتالى (توفى فى عام ١٠٢١ هـ — ١٦١٢)[١٥٦] الذى كثيراً ما نوه به التمجروتى فى وصف رحلته هذه بضروب الإستحسان والتمجيد لتفوقه فى فنون الأدب . واختيار التمجروتى لرئاسة هذه السفارة لم يحدث اعتباطاً فقد ذهب أخوه من قبله إلى استنبول[١٥٧] فى مهمة مماثلة على مايبدو .

والكتاب لا يزال معروفاً إلى الآن فى ترجمته الفرنسية التى عملها على أساس مخطوطة واحدة[١٥٨] هنرى دى كاسترى Henri de Castries وظهرت عقب وفاته التى حدثت فى عام ١٩٢٧ ؛ وكان على معرفة جيدة بهذا العصر وهذه الموضوعات . ويجب القول بصراحة أن رأيه عن المؤلف يتسم بالتعسف الشديد فهو يقول « فالرحلة فى مجموعها ليست سوى سرقة على نطاق واسع مع إضافة مئات من الأبيات الشعرية لا يربطها فى أغلب الأحيان أى رباط بمحتويات الكتاب »[١٥٩] « وهو لا يجهد فى التعريف بخط سير الرحلة بقدر ما يحاول إظهار علمه ومعرفته »[١٦٠] . وجميع هذه العيوب والمناقص التى يشير إليها دى كاسترى موجودة بالطبع لدى التمجروتى كما وجدت لدى غيره من أدباء « الرحلة » فى عصر التدهور ؛ غير أنه لا يمكن موافقته فى أن قيمة الرحلة إنما تقتصر على هذا وحده . وتشير قرائن الأحوال إلى أن ثمة تقريراً كان من المفروض أن يرفعه المؤلف إلى الشريف عن هذه الرحلة[١٦١] ؛ لهذا فلا مناص من أن تجد قصائد المديح مكاناً لها فى وصف الرحلة وهو يعبر فى هذه القصائد عن شكره وامتنانه لولى نعمته .

* النسبة إلى تمجروت وهى مقر الزاوية الناصرية فى جنوبى المغرب قرب وادى درعه ؛ والاسم بربرى والتاء فيه مزيدة لذا فإن النسبة إليها تمجروتى ومجزوتى (المترجم) .

وتعظيمه له حتى قارنه بسلاطنة آل عثمان وفضله عليهم أحياناً . ورغماً من ذلك فإن تمجيده لسلطانه قد ساق إلى إيراد تفاصيل قيمة عن بلاد مراكش فى أواخر القرن السادس عشر[١٦٢] وعن استقبالات ملوك مراكش ومواكبهم واستعراض الجند وعن الدوائر الأدبية بالبلاط ؛ بل إن الرحلة نفسها لا تخلو من معطيات واقعية قيمة خاصة إذا أخذنا فى حسابنا أنها كبقية الرحلات المشابهة لها لم يكن الغرض منها وصف تحركاته بل وضع مصنف أدبى قبل كل شىء . ويحفل الكتاب بعدد من القصائد للمؤلف يتعلق بعضها بموضوع الرحلة والبعض الآخر يمدح فيه شخصيات مختلفة من بينها صديقه الشاعر الفشتالى . وإلى جانب هذا فالكتاب لا يخلو من شذور عديدة نقلها عن مؤلفين آخرين واستطرادات مختلفة ، مثال ذلك ما نقله من أحد المؤرخين فى فتح إفريقيا وعن دولة الأغالبة ، أو ذلك الفصل الطويل ذو الطابع الأخروى (eschatological) الذى يورد فيه بصدد الكلام على مدينة المهدية عدداً من الأحاديث فى المهدى المنتظر[١٦٣] . أما فى صلب الرحلة نفسها فتحتل مكانة خاصة « الزيارات » العديدة 456 إلى قبور الأولياء والصالحين المنتشرة على طول طريقه ، وزيارة العلماء ومدعى الصلاح (sanctimonious) ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة كما فعل السابقون له فيستطرد فى الكلام على سير حياتهم . والتمجروتى فى وصفه للمواضع الجغرافية كثيراً ما يلجأ إلى نقل كلام المؤلفين السابقين[١٦٤] خاصة الأندلسيين ، ويبدو هذا بصورة جلية عندما يقف للكلام على المدن الكبرى المأهولة . وأقرب المؤلفين إلى نفسه ثلاثة هم ابن عبد ربه (من القرنين التاسع والعاشر) والبكرى (من القرن الحادى عشر) وأبو البقاء البلوى (من القرن الخامس عشر)[١٦٥] ؛ وهو ينقل عنهم كما فعل الجغرافيون قبله دون أن يعنى بالتتابع الزمنى أويشير إلى أن معلوماتهم تنتمى إلى عصر سابق للعصر الذى يعالج الكلام عليه .

والتمجروتى لا يتعرض لوصف طريق رحلته داخل مراكش ، ولا ريب أنه قصد بذلك عدم تكرار أشياء مألوفة لبنى وطنه[١٦٦] . وقد خرج التمجروتى من فاس متجهاً إلى تطوان حيث بقيت السفارة لمدة ثلاثة أشهر فى انتظار وصول سفينة من الجزائر . ثم أبحروا على طول الساحل الإفريقى مارين فى طريقهم على وهران وتنس والجزائر وبجايه وبون وبنزرت وتونس وسوسه ومنستير والمهدية وصفاقس وجزيرة جربه إلى أن بلغوا طرابلس . والمؤلف يفصل القول فى وصف المراكز المأهولة كتونس وبجايه ويمكن أخذ فكرة عن مدى استعانته بالمؤلفين السابقين له حين نقرأ وصفه لتونس فهو ينقل عن ابن عبد ربه والبلوى ما يقرب من خمس وعشرين صفحة . وابتداء من طرابلس تظهر شخصية المؤلف بوضوح فى القصة[١٦٧] لأنه أعوزته المصادر المكتوبة فاضطر إلى الاعتماد على نفسه وهو أمر لم يخل من الفائدة بالنسبة للكتاب :

وقد اضطر التمجروتى وصحبه إلى البقاء بطرابلس لمدة شهر واثنى عشر يوماً قبل أن يغادروها إلى استنبول مع الأسطول العثمانى الذى كان قد انتهى من إخماد ثورة نشبت بطرابلس ضد سلطان العثمانيين :

ويصف لنا التمجروتى بتفصيل كبير رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط وما أحدثته فى نفسه من أثر وكانت هذه أول مرة يعبر فيها البحر ومن ثم فقد أحدث البحر تأثيراً كبيراً عليه ، وهو يرجع إلى الكلام على ذلك فى مواضع عديدة من كتابه واصفاً الهلع الذى استولى عليه من تقاذف الأمواج للسفينة والمخاطر التى تعرض لها أكثر من مرة . وهذه الاستطرادات الأدبية بما يصحبها من عدد كبير من القصائد بعضها له وبعضها لشعراء غيره تشغل جزءاً من كتابه غير يسير . وقد عرّفته الرحلات البحرية بالبوصلة(Compass) « بيت الإبرة » وبالخارطات الجغرافيه ، وهو يقول فى صدد هذا « والمصور الجغرافى للبحر مرسوم على جلد بينت عليه أسماء جميع المدن الساحلية والجزر ، وهو يعين اتجاهات الرياح المختلفة كما يبين المسافات التى قطعتها السفينة وما | ستقطعه بالأميال . وهم يسمونها القمباص(١٦٨) » . والسهو الأخير الذى وقع فيه التمجروتى يبين بصورة جلية كم كان البحر والمصطلحات البحرية أمراً غريباً على مؤلفنا . 457

وهو يقدم وصفاً مفصلا لاستنبول(١٦٩) سواء حين الكلام على مقابلته للسلطان أو فى وصفه لخطط المدينة التى يولى اهتماماً خاصاً فيما بينها لجامع أياصوفيا ومساجد أخرى أو عند حديثه على التجارة والحرف وحياة أهل المدينة . كما يبدى اهتماماً خاصاً لما أبصره من انتعاش العلوم الإسلامية بها ويعترف بأنها تقف على مستو واحد مع البلاد العربية ؛ وقد اجتذبت أنظاره بصورة خاصة كمية المخطوطات الهائلة سواء الموجودة بالمساجد أوبالأسواق والتى كانت تجد طريقها إلى استنبول من جميع البلدان بحيث كان بوسع أى قارئ أن يحصل على المراجع فى جميع فروع العلوم(١٧٠) .

وفى عودته إلى وطنه أخذ التمجروتى نفس الطريق الذى جاء به إلى استنبول معتمداً فى وصفه للمدن الكبرى مثل طرابلس وسوسه إلخ(١٧١) على المؤلفين السابقين له ؛ وهو يتحدث فى القسم الأخير من كتابه عن استقبال السلطان لهم بفاس مع وصف مفصل لمراسيم البلاط المراكشي . وفى الخاتمة يوجد عدد من قصائد المؤلف يرتبط بعضها بمناسبات لا علاقة لها بالرحلة . وقد توفى التمكروتى بعد هذا بقليل بمراكش وذلك فى عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ ــ ١٥٩٥(١٧٢) ؛ وكان كتابه معروفاً جيداً بوطنه ، وفى بداية القرن الثامن عشر أدخل المؤرخ الوفرانى (توفى حوالى عام ١١٥١ هـ=١٧٣٨) وصفه لمراكش فى مصنفه التاريخى المعروف عن سلاطنة السعديين(١٧٣). هذا وقد استمر التأليف التاريخى (historiography) منتعشاً بالمغرب لمدة أطول مما هو عليه الحال فى البلاد العربية الأخرى ، كما وأن نمط الرحلة التقليدى بقى حياً إلى القرن التاسع عشر .

وإلى العصر الذى عاش فيه التمجروتى ينتسب مصنف آخر لايسعنا إلا أن نجعله خاتمة لهذا الفصل وإن كان فى واقع الأمر غير عربى لأنه مدون باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية . هذا المصنف يمثل نموذجاً لما يعرف بأدب الألخميادو* Aljamiado أى أدب الموريسيكيين Moriscos وهم العرب المتنصرون الذين تخلفوا باسبانيا عقب سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ ومغادرة المسلمين لشبه الجزيرة الايبرية نهائياً .

---

* تحريف أسبانى للفظ العربى « الأعجمية » . (المترجم)

وقد تم العثور على مخطوطة هذا الأثر ضمن مجموعة من المصنفات العربية الألخميادوية كشف عنها فى عام ١٨٨٤ مسورة داخل جدار منزل عتيق بمدينة المناسد Almonasid ، وأغلب الظن أنه قد أخفاها أحد الموريسكيين عندما اضطروا إلى مغادرة ديارهم فقبعت محفوظة حوالى ثلاثة قرون حتى أصبحت بالتالى كنزاً علمياً لا يقدر .

458 ومن بين هذه المصنفات الألخميادوية تحتل مكانة خاصة بالنسبة لنا « قصيدة » فى وصف الحج إلى مكة بعنوان Las Coplas del Alichonte de Puey Monzon (« قصيدة الحاج القادم من بوى منسون » . ورغماً من جهلنا بشخص مؤلفها إلا أن موضع إقامته الذى بدأ منه رحلته معروف بوجه التحديد وهو محلة صغيرة على بعد ستة عشر كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة منسون الأرغونية فى وادى نهر سنكا Sinka ، وكانت هذه المحلة تسمى قديماً بوديوم مونتسونى Podium Montsoni ولكنها عرفت فيما بعد باسم بوييو دى موروس Pueyo de Moros ثم أخذت اسم بوييودى سانتاكروز Pueyo de Santa Cruz ؛ وكان جميع سكانها من الموريسكيين ومن ثم تعرضت لاضطهادات شديدة فى عام ١٥٩١ . وإلى عهد قريب من هذه الفترة ، أى نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن الذى يليه ، ترتفع رحلة الشاعر المجهول التى تقف شاهداً على ما أبداه الموريسكيون من صلابة فى تمسكهم بعقيدتهم الإسلامية حتى إلى ما بعد مائة عام من سقوط غرناطة وذلك بالرغم مما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد والتعذيب.

خرج مؤلفنا من أراغون إلى بلنسية وأخذ من هناك سفينة لأحد البنادقة وجهتها تونس ؛ وقد وقفت بهم السفينة على موانى تونس الأخرى وجزيرة جربه حتى بلغت الإسكندرية بعد أن تعرضت لأكثر من عاصفة قاسية . وفى القاهرة انضم المؤلف إلى قافلة الحج فأدى فريضة الحج بطريق البر ولكنه لم يوفق أثناء عودته فى تحقيق حلمه بزيارة طورسينا والقدس ولو أنه لاينسى أن يفرد لها بعض الأبيات فى قصيدته معتمداً على المعلومات التى سمعها عن الآخرين ؛ أما عن بقية الطريق إلى أسبانيا فيلتزم الصمت.

هذه القصيدة الوصفية الفريدة فى نوعها تضم تسعة وسبعين مقطعاً فى ثمانيات (octaves) ؛ وإذا كانت بحسب رأى المتخصصين لاتكشف عن ميزات أدبية ذات بال إلا أنها على أية حال مفعمة بعاطفة صادقة ، وتقدم مادة طريفة قيمة عن ذلك الوسط الغريب الذى عاش فيه المؤلف . وقد لاحظ بعض البحاثة تأثير المسيحية فى بعض زوايا القصيدة فمثلا يوم القيامة قد عرض فى صورة شعرية لا يقبلها أهل الورع من المسلمين . والقصيدة بأجمعها سهلة الفهم ويرتفع أسلوبها أحياناً إلى درجة عالية من الحماس والانفعال ؛ أما الوصف فيتميز فى معظم الأحوال بالحيوية ؛ فهى فى مجموعها أنموذج جيد لأدب الموريسكيين . أما بالنسبة لنا فتكتسب أهمية خاصة نقطة معينة فيها وهى أن المؤلف قد زود القصيدة بتعداد نثرى للبلاد الإسلامية موزعة بحسب غلبة كل مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة على سكانها ؛ وبهذا نجد أنفسنا أمام ثبت كامل لبلاد الإسلام كما عرفها آخر ممثلى الحضارة العربية فى أسبانيا قرب بداية القرن السابع عشر ؛ ومما يبعث على الأسف أن القائمة قد حرفتها أيدى النساخ تحريفاً كبيراً يجعلها تحتاج إلى بحث خاص مستقل ؛

حواشي الفصل السادس عشر

---

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 242-245; SB II, p. 342-344 — Bel, EI, II, p. 419-420 — Arendonk, Ibn Khaldūn, p. 94 — Gibb, EI, EB, p. 257 Pons Boigues, p. 350-362, No 302 — Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 278-293 — Margoliouth, Lectures, p. 156-158 — البستاني، الروائع ، ١٣ – ١٠ — Krachkovski, Arabskia Literatura, p. 30 — Bartold, Mus. mir, p. 63-65 — Bartold, Kult. mus., p. 53-55 - Amari (– Nallino), I, p. 84-85, No 60 — Ferrand, Relations, II, p. 459-461. –

(٢) Prolégomènes, I, p. LXVII, note 3 –

(٣) المغربي ، محمد ، ص ٣٨ – ٨٣ .

(٤) Mahmassany, p. 38; cf حاجي خليفة III, p. 350, No 5881 –

(٥) Prolégomènes, I, – De Slane, Histoire des Berbères – ابن خلدون ، المقدمة –

(٦) Étude, p. 15, 21-22 طه حسين –

(٧) صور رايت قسماً من «كتاب العبر» بخط يد المؤلف يرجع إلى عام ١٤٠١
(W. Wright, Palaeographical Society, No 84)

(٨) Amari (– Nallino) I, p. 84 –

(٩) Bartold, Mus. mir, p. 64-65 –

(١٠) شرحه p 63-64

(١١) Van den Bergh, p. 13-14 –

(١٢) Cf. : Mahmassany, p. 92-93 –

(١٣) Van den Bergh, p. 13 –

(١٤) Kamil Ayad, p. 43-49 –

(١٥) Van den Bergh, p. 9-12 –

(١٦) شرحه p. 12

(١٧) الترجمة p. 73-81 المتن Prolégoménes, I, — ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٥ – p. 90-99

(١٨) الترجمة p, 82-87; المتن Preiégomènes, I, — ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٨ – p. 99-105

(١٩) المتن p. 88-148 Prolégomènes, I, — ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٤١ – ٦٥ – الترجمة p. 106-168 –

(٢٠) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٣

(٢١) شرحه

(٢٢) – Prolégomènes, I, المتن p. 75; الترجمة p. 92-93

(٢٣) شرحه 99 .p الترجمة 81 .p المتن ,I

(٢٤) شرحه 99 .p الترجمة 82 .p المتن ,I

(٢٥) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، تقرأ « يريدوا » بدلا من « يردو »

(٢٦) – Prolégomènes, I, المتن p. 86-87 والترجمة p. 104-105

(٢٧) – Prolégomènes, I, المتن p. 87 الترجمة p. 105

(٢٨) – Prolégomènes, I, الترجمة p. 105, note 2

(٢٩) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٤١

(٣٠) شرحه ، ص ٤٢

(٣١) شرحه ، ص ٤٢ ، ٤٣

(٣٢) شرحه ، ص ٤٣

(٣٣) شرحه ، ص ٤٢

(٣٤) شرحه ، ص ٦٤

(٣٥) – Kramers, EI, EB, p. 71

(٣٦) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٦٥ – ٦٨ .

(٣٧) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩

(٣٨) شرحه ، ص ٦٩ – ٧٣

(٣٩) – Cf. : طه حسين Étude, p. 85-91 — Mahmassany, p. 169-170

(٤٠) – Cf. : طه حسين Étude, p. 92-93

(٤١) – Mahmassany, p. 171

(٤٢) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٩٥

(٤٣) شرحه ، ص ٢٧٢ – ٣٠١

(٤٤) شرحه ، ص ٣٠٢ – ٣٠٤

(٤٥) طه حسين Étude, p. 28 - 29

(٤٦) – Prolégomènes, I, p. CXII

(٤٧) – Amari (–Nallino), I, p. 84

(٤٨) ابن خلدون ، الروائع ، رقم ١٥ ، ص ح – د – Mahmassany, p. 43

(٤٩) – Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber, p. 234, No 508 — Brockelmann, GAL, II, p. 54, No 17; SB II, p. 52-53 — Mieli, p. 274, No 7 —

ومن يخلطون [بينه] وبين شخص آخر (عاش فى الفترة ٧٨٤ هـ – ٨٥٤هـ – ١٣٨٢=١٤٥٠): السوكانى ، الجزء الأول ، ص ٣١٥ – ٣١٧ ، رقم ٢٨٢ ؛ Wiet ، المنهل الصافى ، ص ١٩٣ رقم ١٣٤٦

(٥٠) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308, note 2 –

(٥١) ابن اياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٤

(٥٢) Lévi della Vida, Al-Andalus, I; p 320, note 1 -

(٥٣) شرحه p. 334

(٥٤) شرحه p. 324, note 2

(٥٥) ابن إياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٣ – ٣٧٤

(٥٦) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308–309 –

(٥٧) Lévi della Vida, Elenco' p. 69, No 728- 729 –

(٥٨) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 307-334 –

(٥٩) شرحه p 307

(٦٠) شرحه p. 310

(٦١) Lévi — Provençal, La Péninsule, p. XI –

(٦٢) Pons Boigues, p. 175, No 139 – Gaudefroy — Demombynes, La Syrie p. XI - XII — Brockelmann, GAL, SB II, p, 38, No 11 - Mieli, p. 272 - 273 –

(٦٣) Lévi - Provenaçl, La Péninsule –

(٦٤) حاجى خليفة III, p. 490, No 6597

(٦٥) Lévi - Provençal, La Péninsule, XVI –

(٦٦) شرحه ، p. XV

(٦٧) شرحه p. XII

(٦٨) وترجمة القسم الثانى p. XIX - XX . ح – ج p. المتن Lévi - Provençal, -

(٦٩) p. XXIII-XXVI — Lévi Provencal, Al-Zalläka, p. 1304 شرحه

(٧٠) Nallino, Centenario, I, p. 327 - 328 ; II, p, 640 - 641 –

(٧١) Lévi - Provençal, Hist. des Chorfa, p. 361, note 2, 396 –

(٧٢) تقريظه لدى ؛ محمد المهدى الحجوى : Collin, Hespéris, XX, p. 94 - 98 –

(٧٣) Massignon, Maroc, p. 32 - 34 –

(٧٤) Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No 1a – Massignon, Leo Africanus, p. 24 — Mieli, p. 276, 279 - 280, note 6-9 -- Amari (Nallino) I, p. 361 - 363 -- Schefer, Description de l'Afrique - Massignon, Maroc. –

(٧٥) – Massignon, Maroc, p. 33 —Schefer, Description de l' Afrique, I, p. VI

(٧٦) – Massignon, Leo Africanus, p. 24

(٧٧) – Lévi - Provençal, Wattäsiden, p. 1228

(٧٨) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p. VII

(٧٩) شرحه ، I, p. VII – XII

(٨٠) شرحه ، p. XII

(٨١) شرحه ، p. XIII – XIV

(٨٢) – Amari (— Nallino), I, p. 361

(٨٣) – Atiya, The Crusade, p. 477

(٨٤) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p. XIV

(٨٥) شرحه p. XVI - Massignon, Leo Africanus, p. 24 – Massignon, Maroc, p. 10

(٨٦) – Massignon, Leo Africanus, p. 24

(٨٧) – Giovanni Leone, cf. : Massignon, Leo Africanus, p. 24

(٨٨) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p. XVI

(٨٩) – Alemany, p. 169

(٩٠) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p. XXIII

(٩١) – Massignon Maroc, p. 23

(٩٢) شرحه ، p. 26

(٩٣) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p. XXXVI

(٩٤) – Amari (— Nallino), I, p. 362

(٩٥) – Massignon, Maroc, p. 43

(٩٦) – Colin, Hespéris, XX, p. 97

(٩٧) – Massignon, Maroc, p. 43-45

(٩٨) شرحه ، p. 36,40

(٩٩) – Mieli, p. 279 (في آخرها) — Schefer, Description de l' Afrique, III, p. 428

(١٠٠) – Mieli, p. 279, note 7 at the end — Schefer Description de l' Afrque. III, p. 469

(١٠١) – Cf : Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXIV

(١٠٢) – Massignon, Maroc, p. 36-39 — Schefer, Description de l' Afrique, I, p. XXVI – XXVII

(١٠٣) – Cf. : Brockelmann, GAL, SB I, p' 252, No 9

(١٠٤) – Massignon, Maroc, p. 41-42

(١٠٥) شرحه ، p. 44

(١٠٦) شرحه ، p. 63

(١٠٧) شرحه ، p. 4-9

(١٠٨) – Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXX – XXXV

(١٠٩) – Massignon, Maroc, p. 65

(١١٠) – Schefer, Description de l'Afrique, I, p XXXV

(١١١) شرحه ، p. XXXV

(١١٢) شرحه ، II, p. V

(١١٣) – Amari (– Nallino), I, p. 362

(١١٤) شرحه ، p. 363

(١١٥) – Schefer, Description de l' Afrique, I, p XXXVI

(١١٦) – Kramers, EI, EB, p. 71

(١١٧) – Miller, V, p. 173

(١١٨) Beiheft, V, Taf. 82b : عن الصورة راجع p. 173-175; ، شرحه

(١١٩) شرحه ، p. 173

(١٢٠) شرحه p. 174

(١٢١) شرحه p. 175

(١٢٢) شرحه

(١٢٣) – Nallino, BSOI, IX, p. 721-736

(١٢٤) – Miller, V, p. 176

(١٢٥) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No 1b — Blochet, L, Étude, p. 19 — Miller, V, p. 176

(١٢٦) V, Beilage, No 7 توضيحها ؛ من اليسار Miller, VI, Taf 78 عن الصورة راجع –

(١٢٧) V, p. 175 = من اليمين VI, Taf. 78 شرحه

(١٢٨) – Kramers, EI. EB, p. 72

(١٢٩) – Blochet, L'Étude, p. 19

(١٣٠) شرحه p. 20

(١٣١) – Reinaud, Introduction, p. CLXX

(١٣٢) – Blochet, L'Étude, p. 18

(١٣٣) – Miller, V, p. 176

(١٣٤) – Reinaud, Introduction, p. CLXX

(١٣٥) عن الصورة راجع : Miller, VI, Taf. 79-80; توضيحاتها : V, p. 176 شرحه :
ملونة راجع : V, p. 177

(١٣٦) – Blochet, L'Étude, p. 21

(١٣٧) – Amari (—Nallino), I, p. 293, note 1

(١٣٨) – Blochet, L'Étude, p. 21

(١٣٩) – Miller, V, p. 177

(١٤٠) شرحه I, 2, p. 52

(١٤١) – Blochet, L'Étude, p. 21

(١٤٢) – Nallino, BSOI; IX, p. 721-736

(١٤٣) – D'Avezac, cf. : Kramers, EI, EB, p. 72

(١٤٤) – D'Avezac, p. 77

(١٤٥) شرحه

(١٤٦) شرحه p. 72

(١٤٧) شرحه p. 63

(١٤٨) شرحه p. 65-66, 75

(١٤٩) – Brockelmann, GAL, I, p. 5, 349; SB I, p. 7, 867

(١٥٠) – D'Avezac, p. 77.

(١٥١) – De Castries, IV-VI

(١٥٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 679-680, No 2c. – Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696 – Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 98-99 – De Castries, p. IV

(١٥٣) – De Castries, p. IV

(١٥٤) – Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696

(١٥٥) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 679-680, No 2c.

(١٥٦) – Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 97-98

(١٥٧) – De Castries, p 45

(١٥٨) شرحه p. XVI

(١٥٩) شرحه p. I

(١٦٠) شرحه p. II

(١٦١) شرحه p. IV

(١٦٢) - Lévi - Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696 — De Castries, p. XI

(١٦٣) - De Castries, p. X

(١٦٤) شرحه p VIII

(١٦٥) شرحه

(١٦٦) شرحه

(١٦٧) شرحه

(١٦٨) شرحه p. 84

(١٦٩) شرحه p. VIII-IX, 47 - 69

(١٧٠) شرحه p. 68

(١٧١) شرحه p. IX

(١٧٢) - Lévi - Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696

(١٧٣) شرحه

القـــاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٣